

قصة الحضارة

ول وَايرئيل ديورانت

الإسلام والشرق السُّلافي
الشمال البروتستنتي

ترجمة
فؤاد أندراوس

الجزء الثالث من المجلد العاشر



تونس

(٤١)



بيروت

حقوق الطبع محفوظة

دار الحديث : ص.ب. ٨٧٣٧ - ت: ٥٦٦١٥٨ - ٥٦٠٤٦٥ - تلکس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي: دار هيلاب - بيروت - لبنان

المجلد العاشر

الجزء الثالث

الكتاب الرابع

الاسلام والشرق السلافي

١٧١٥ - ١٧٩٦

الفصل السادس عشر

الإسلام

١٧١٥ - ١٧٩٦

١ - الأتراك

حوصرت المسيحية في القرن الثامن عشر بين فولتير ومحمد (صلى الله عليه وسلم) بين حركة التنوير والإسلام . فمع أن العالم الإسلامي كان قد فقد سطوته الحربية منذ رد سويسكي الترك عن فيينا عام ١٦٨٣ ، إلا أنه ظل مسيطراً على المغرب والجزائر وتونس وليبيا ومصر وشبه جزيرة العرب وفلسطين وسوريا وفارس وآسيا الصغرى والقرم وجنوبي روسيا وبسارابيا وملدافيا وولاشيا (رومانيا) وبلغاريا والصرب (يوغسلافيا) والجبل الأسود والبوسنة ودلماشيا واليونان وكريت وجزر الارخبيل وتركيا . وهذه الأقطار كلها — باستثناء فارس — كانت جزءاً من امبراطورية الأتراك العثمانيين المترامية الأطراف . فعلى الساحل الدلماشى بلغوا الادرياتيک وواجهوا الولايات البابوية ، وعلى البوسفور تسلطوا على المنفذ البحرى الوحيد من البحر الأسود ، وكان في مقدورهم أن يقفوا سداً منيعاً بين الروس والبحر المتوسط متى شاءوا .

فإذا عبرنا الأقاليم المجرية إلى بلاد المسلمين لم نلاحظ للوهلة الأولى فرقاً يذكر بين المدينتين المسيحية والإسلامية . فهنا أيضاً كان فقراء المسلمين السذج الأتقياء يقيمون الأرض تحت إمرة سادتهم الأغنياء الأذكىاء المتشككين . ولكن المشهد الاقتصادى يتغير فيما وراء البوسفور : فلا يكاد المزروع من الأقاليم يبلغ ١٥٪ ، أما الباقي فصحراء أو جبال لا تتيح غير

التعدين أو الرعى ، هناك كان الإنسان الذى يتميز به الإقليم هو البدوى الذى أسود لونه وتحمص جلده من الشمس ، وتدثر على نحو معقد اتقاء للرمال والقيظ. أما المدن الساحلية أو المتفرقة هنا وهناك كانت حافلة بالتجارة والحرف اليدوية ، ولكن الحياة بدت أكثر دعة واسترخاء مما كانت فى المراكز المسيحية ، فالنساء يلزمن بيوتهن أو يسرن فى وقار شديد تحت أحماهن ووراء خمرهن ، والرجال يمشون الهويناء فى الشوارع . وكان جل الصناعة يدوياً ، وورشة الصانع ملحقةً بتصدر بيته ، وكان يدخن غليونيه ويتجاذب الحديث مع غيره أثناء العمل ، وأحياناً يشارك زبونا قهوته .

ويمكن القول بوجه عام إن التركى العادى كان قانعاً غاية القناعة بمدينته ، حتى لقد ظل قروناً لا يطيق أى تغيير ذى بال . وكانت التقاليد هنا كما كانت فى التعاليم الكاثوليكية مقدسة قداسة التنزيل . أما الدين فكان أعظم قوة وانتشاراً فى الأقطار الإسلامية مما كان فى العالم المسيحى ، والقرآن هو الشريعة والديانة معاً ، وفقهاء الإسلام شراح الشريعة الرسميون . وكان الحج إلى مكة المكرمة يقود كل عام درامته المثيرة فوق رمال الصحراء وعلى الطرق المتربة . أما فى الطبقات العليا فإن البدع العقلانية التى طلع بها معترزة القرن الثامن الميلادى ، والتى واصلها الشعراء والفلاسفة المسلمون طوال عصر الإيمان ، لقيت قبولا واسعاً مستوراً . كتبت اللىدى مارى ورتلى مانجابيو من الاستانة فى ١٧١٩ تقول :

« إن الأفندية (أى الطبقة المتعلمة) .. ليسوا أكثر إيماناً بالوحى الذى أنزل على محمد (صلى الله عليه وسلم) منهم بعصمة البابا . ويصرحون بالربوبية بينهم وبين من يثقون بهم ولا يتكلمون على شريعتهم (أى ما عليه القرآن الكريم) إلا بوصفها مؤسسة سياسية ، تصالح الآن لأن يتقيد بها العقلاء من الناس وإن كانت أصلاً من عمل رجال السياسة والمتحمسين من رجال الدين » (١) .

وانقسم الإسلام بين مذهبي السنة والشيعة كما انقسمت مسيحية الغرب

بين الكاثوليكية والبروتستنتية ، ثم قام مذهب جديد في القرن الثامن عشر على يد محمد بن عبد الوهاب ، أحد شيوخ نجد - وهو المذهب الواسطي التي نعرفها اليوم بالعربية السعودية . وكان الوهابيون من الإسلام أشبه بالبيورثان من المسيحية : استنكروا التعبد للأولياء ، وهدموا أضرحة المشايخ والشهداء ، واستهجنوا لبس الحرير والتدخين ، ودافعوا عن حق كل فرد في أن يفسر القرآن لنفسه^(٢) . وقد شاعت الخرافات في جميع المذاهب على السواء ، ولقى دجاجة الدين كما لقيت المعجزات الكاذبة التصديق السريع ، وكان جل المسلمين يعدون مملكة السحر عالما حقيقيا كعالم الرمال والشمس الذي يكتنفهم^(٣) .

أما التعليم فهمن عليه رجال الدين الذين آمنوا بأن أضمن سبيل لتكوين المواطنين الصالحين أو الأتباع الأوفياء للقبيلة هي ترويض الخلق لا تخوير الفكر . وكان رجال الدين قد انتصروا في معركتهم مع العلماء والفلاسفة والمؤرخين الذين ازدهروا أيام الإسلام الوسيط ، فانتكس الفلك إلى التنجيم ، والكيمياء إلى الخيمياء ، والطب إلى السحر ، والتاريخ إلى الأساطير . ولكن في كثير من المسلمين حلت الحكمة الصامتة محل التعليم والثقافة في المعرفة . وكما قال داوود الحكيم البليغ : « إن العرب والترك ، الذين كتبهم هي وجوه الرجال ... والذين شروحوهم وتفسيرهم هي الأقوال المأثورة السائرة ومثبات الأمثال الحكيمة القديمة السائدة في عالم الشرق ، هؤلاء قريبون من إدراك الحقائق الإنسانية . إنهم شيوخ راسخون في الحكمة وهم لا يزالون شبابا ، ولا ينسون بعد ذلك إلا القليل مما تعلموا^(٤) » . وقد أكد ورتلي مونتجيو في خطاب كتبه عام ١٧١٧ لأديسون أن « الرجال ذوي الشأن من الأثراك يبدوون في أحاديثهم مهذبين لا يقلون تحضرا عن أي رجال التقيت بهم في إيطاليا^(٥) » ، أجل فالحكمة ليس لها وطن .

ولقد كان عالم الإسلام على الدوام غنيا بالشعراء . ذلك أن الصحارى الرهيبة ، والسماء المحيطة ، والنجوم المنتشرة إلى مالا نهاية في الليالي الصافية ، كل أولئك حرك الخيال كما حرك الإيمان الديني بالإحساس بما في الكون من

أسرار ملغزة ، وأضفى دم الشباب المضطرم بالرغبة المكبوتة على مفاتن النساء تصورا مثاليا ، تلك المفاتن التي زدها إغراء في ذكاء وحكمة باحتجابهن وحيائهن . وفي عام ١٧٧٤ نشر السير وليم جونز كتابه « شروح على الشعر العربي » الذي كشف للعقول اليقظة في غربي أوروبا عن حب المسلمين للشعر وما ينطوى عليه من رقة وعاطفة مشبوبة . أما أعظم فحول الشعراء العثمانيين في القرن الثامن عشر فهو نديم ، الذي تغنى بشعره أيام السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ - ٣٠) :

إيه أيها الحب الحائر ، إن قلبي وروحي ضاعا هباء
وفرغ مني الصبر وذهب الجلد
ذات مرة كشفت عن صدرها البديع ،
فلذا الراحة والسلام يهربان من صدرى ...
لها خال في خدها وثنى ، وضفائر وثنية ، وعيون وثنية ...
أقسم أن دنيا جمالها القاسى بأسرها وثنية خالصة .
ولقد وعدتني بقبلات على نحرها ، وبقبلات على صدرها ،
ولكن وبلى فقد حذت الوثنية بوعددها السابق .
يا للرشاقة المحببة التي أبرزت بها غداثرها من تحت طربوشها ،
كل مخلوق أبصرها تأمل حسنها مشدوها لتوه .
يا قاسية القلب ، لأجلك يبكي الرجال وينوحون يأسا ،
إن قدك الرقيق لزكى من كل شذى وأبهج من كل لون ،
فليت شعري هل أرضعتك وردة عطرة من ثديها .
وأنتك لتقبلين أيتها الحلاوة وفي إحدى يديك وردة وفي الأخرى كأس .
فلا أدري أى الثلاثة آخذ .- الوردة أم الكأس أم أنت .

لكأن نبغاً متدفقاً تفجر من نهر الحياة :

حين طلعت على بذلك القد اللدن البديع ^(٦) .

وكان على النساء الإفادة ما استطعن من قدودهن اللدنة الرشيقة ، فتي ذبلت محسانهن جر عليهن الزمن ذبول النسيان في زوايا الحريم . وكان لفظ « الحريم » هذا لا يقصر على أزواج الرجل وسراريه ، بل ينسحب على كل إناث بيته . وقد ظل الحجاب مضروباً عليهن في القرن الثامن عشر ، وكان يسمح لهن بالخروج من الدار ، ولكن (بعد ١٧٥٤) كان عليهن إذا خرجن أن يخفين كل عضوفيهن إلا عيونهن الساحرة ، ولا يدخل جناحهن غير الأب ، أو الأخ ، أو الزوج ، أو الابن . وحتى بعد الموت كان المفروض أن يتصل هذا الفصل بين الجنسين في الدار الآخرة . فالمؤمنات لهن جنتهن غير جنة الرجال ، والمؤمنون يمضون إلى فردوس آخر ترفه فيه عنهم حور من الجنة أبكار متجددات الشباب . وكانت خيانة المرأة أزواجها تعاقب عقاباً صارماً ويندر حدوثها ، وكان العربي يحلف بـ « شرف حريمه » كأغلظ الأيمان ^(٧) . وروت الليدى مارى أن النساء التركيات اللاتي سمح لها بلقائهن لم تضحقن بالحجاب الذى عزلهن عن الرجال . وقد رأت بعضهن يعدلن في جمال الوجه وحسن القصد ورفاهة الطبع « أشهر حساننا الإنجليزيات » ^(٨) . فلما أذن لها بدخول أحد الحمامات العامة الكثيرة ، تبين لها أن النساء يمكن أن يكن جميلات حتى لو تجردن من الثياب . وقد أفتنت على الأخص بنساء الطبقة الراقية في حمام بأدرنة . دعوتها لخلع ملابسها والاستحمام معهن ، فاعتذرت . « ولما اشتد إلحاحهن على اضطرت في النهاية إلى أن أفتح قيصى وأرهن مشدى (الكورسيه) ، فأقنعتهن هذا تماماً إذ رأيت أنهن اعتقدن أنى حبيسة بقيود تلك الآلة بحيث لا أقوى على فتحها ، وقد عزون هذه الحيلة لتدبير زوجى . وعلقت لإحداهن قائلة « أنظرن كم يقسو الأزواج الإنجليز على نساكن المساكين » ^(٩) . »

وكان الأتراك فخورين بحماماتهم العامة ، يرون أنفسهم على العموم شعباً

أنظف من النصارى الكفار . وكان الكثيرون من أفراد الطبقتين العليا والوسطى يختلفون إلى الحمام التركي مرتين في الأسبوع ، وأكثر منهم يختلفون مرة في الأسبوع . هناك يجلسون في غرفة ملئت بخارا حتى يتصببوا عرقا ، ثم يأتي عامل فيدعك كل مفصل في أجسامهم ويدلك لحمهم ويكيسه بقطعة من القماش الخشن ثم يغسله . لا عجب إذن إن لم نسمع الكثير عن روماتيزم المفاصل في تركيا . على أن أمراضا أخرى تفشت بينهم لاسيما الرمد ، فالرمل والذباب كانت تنقل العدوى إلى العيون . ولكن الأتراك كما أسلفنا علموا أوربا التطعيم ضد الجدري .

ولم يخامرهم شك في أن مدنيّتهم تفوق مدينة الاقطار المسيحية . صحيح أنهم سلموا بأن الرق كان أوسع انتشارا في بلاد المسلمين ، ولكنهم لم يروا فرقا حقيقيا بين الارقاء في تركيا والاقنان (Serfs) أو الخدم (Servants) في العالم المسيحي ، وقد اتفقت معهم في الرأي الليدى مارى واصل اللفظ . وكانوا لا يقلون عنا غلوا في حب الأزهار والعناية بها ، فكانت لهم مثلنا مباريات مجموعة في تربية زهرة الطوليب ؛ كما شهدت الآستانة في عهد السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ - ٣٠) ؛ ويبدو أن الأتراك هم الذين أدخلوا إلى أوربا المسيحية بطريق البندقية وفينا والأراضي الواطئة أزهار الطوليب والياقوتية (Hyacinth) الشرقية وحوزان الحدائق (ranunculus) كما أدخلوا أشجار القسطل (أبى فروة) - والميموزا ^(١١) .

أما الفن في تركيا فكان الآن في اضمحلال شأنه في معظم الأقطار المسيحية . واعتبر الأتراك أنفسهم أرقى في صناعات الفخار والنسيج والأبسطة والزخرفة وحتى في المعمار . فقد ورثوا عن آبائهم كيف يصفون على التصوير التجريدى منطقاً وتواصلا ودلالة . وفاخروا بهاء القاشانى الذى صنعوه (كما يرى على نافورة أحمد الثالث في الآستانة) ، وبريق قريمدهم الذى لا ينطفىء ، وبصلابة منسوجاتهم ورقتها « وبتألق أبسطهم ومتانتها . واشتهرت الأناضول والقوقاز في هذه الحقبة بوبرهما اللامع وتصميم السجاد الهندسى الدقيق ، لاسيما بمجايد الصلاة التى توجه أعمدتها وأقواسها المديبة

المصلى الراكع صوب المحراب الذى يشير فى كل مسجد إلى قبلة مكة المكرمة . كذلك فضل الأتراك جوامعهم ذات القباب والقريمد والمآذن على أبراج الكندراثيات القرطية وعقودها وفخامتها الكايبية . وشيدوا حتى فى هذه الحقبة المضمحلة المساجد العظيمة فى نورى - عثمانية (١٧٤٨) ولاليلى - يامسى (١٧٦٥) ، وحاكى أحد الثالث طراز الحمراء فى القصر الذى شيده فى عام ١٧٢٩ . أما الآستانة فلعلها كانت أروع العواصم الأوربية ، كما كانت أوسعها رقعة برغم شوارعها المتشابكة وأحيائها الفقيرة الكثيرة الضجيج ، وكان سكانها البالغون مايونين من الأنفس ^(١١) مثلى سكان لندن ، وثلاثة أمثال سكان باريس ، وثمانية أمثال سكان روما ^(١٢) . وحين أطلت الليدى مارى على المدينة والميناء من قصر السفير البريطانى ، خيل إليها أنهما « ربما يؤلفان معاً أبهى مشهد فى العالم » ^(١٣) .

على عرش هذه الإمبراطورية العثمانية ، من القرات إلى الأطلنطى ، تربيع سلاطين عصر الاضمحلال . ولقد نظرنا فى موضع آخر من هذا الكتاب ^(١٤) فى أسباب ذلك الاضمحلال : وهى انتقال تجارة غربى أوربا التى تقصد آسيا ، إذ أصبحت تدور حول أفريقيا بخرأبدلا من طريقها البرى الذى كان يخرق مصر أو غربى آسيا ؛ وتخريب قنوات الرى أو إهمالها ؛ وتوسع الإمبراطورية وامتدادها إلى مسافات مترامية لا تتيح لها الحكم المركزى الفعال وما ترتب على ذلك من استقلال الباشوات ونزوع الولايات إلى الانفصال ؛ وتدهورت الحكومة المركزية لتفشى الرشوة والعجز والكسل ، وتمرد الانكشارية المرة تلو المرة على النظام الصارم الذى كان له الفضل فيما بلغوا من قسوة وتسلب القدرية والجمود على الحياة والفكر ، وتراخى السلاطين الذين استنابوا خدور النساء وآثروها على ساحات الوغى .

وقد استهل أحمد الثالث حكمه بسماحة للإنكشارية بأن يملوا عليه . اختياره لكبير وزرائه (الصدر الأعظم) . وهذا الوزير هو الذى قبل رشوة بلغت ٢٣٠٠٠٠ روبل بعد أن قاد ٢٠٠٠٠٠ تركى ضد ٣٨٠٠٠٠ جندى من جيش بطرس الأكبر عند نهر بروت ، لقاء سماحه للقيصر المحاصر

بالفرار (٢١ يوليو ١٧١١). وحدث أن حرضت البندقية أهل الجبل الأسود على الثورة على تركيا ، فأعلنت هذه الحرب عليها (١٧١٥) وأتمت فتح كريت واليونان . فلما أن تدخلت النمسا ، أعلنت تركيا الحرب عليها (١٧١٦) ، ولكن أوجين أمير سافوا هزم الترك في بترفارداين وأكره السلطان بمقتضى معاهدة بيساروفتز (١٧١٨) على الجلاء عن المجر ، والنزول عن بلغراد وأجزاء من ولاشيا للنمسا ، وتسليم البندقية حصونا في ألمانيا ودلماشيا . ولم تسفر المحاولات التي بذلتها تركيا لتعويض هذه الخسائر بالغارات تشنها على فارس إلا عن المزيد من النكسات والهزائم ، وقد قتل الغوغاء- بقيادة عامل حمام- الوزير إبراهيم باشا وأكرهوا أحمد على التنازل عن العرش (١٧٣٠) .

وجدد ابن أخيه محمود الأول (١٧٣٠ — ١٥٤) الصراع مع الغرب ليفرض بالحرب تدفق الضرائب وتعاليم الدين ، وأنزع جيش تركي أوخاكوف وكلبورو من روسيا ، وأسترد جيش آخر بلغراد من النمسا . غير أن أضمحلال تركيا عاود سيرته الأولى في عهد مصطفى الثالث (١٧٥٧ — ٧٤) . ففي ١٧٦٢ أعلنت بلغاريا استقلالها . وفي ١٧٦٩ خاضت تركيا الحرب مع روسيا منعاً لانتشار سلطان روسيا في بولندا . وهكذا بدأ ذلك الصراع الطويل الذي أنزلت فيه جيوش كاترين الكبرى هزائم ساحقة بالأتراك . فلما مات مصطفى أبرم أخوه عبد الحميد الأول (١٧٧٤ — ٨٩) معاهدة مذلة تسمى قجوق قينارجي (١٧٧٤) ، قضت على النفوذ التركي في بولندا وجنوبي روسيا ومالدافيا وولاشيا ، وعلى هيمنة الأتراك على البحر الأسود . وجدد عبد الحميد الحرب في ١٧٨٧ ، فهزم هزائم منكرة ، ومات كمدا . وكان على تركيا أن تنتظر حتى يجيء كمال باشا (أتاتورك) لينهى قرن من الفوضى ويجعل منها دولة حديثة .

٢ . الإسلام في أفريقيا

بعد أن فتح العثمانيون مصر (١٥١٧) أنابوا عنهم في حكمها الباشوات والولاة . وسمحوا للمماليك الذين كانوا يحكمون مصر منذ ١٢٥٠ بالاحتفاظ

بسلطتهم المحلية بكوات على السنجقيات الاثنتى عشرة التى قسمت إليها البلاد .
وبينما كان الباشوات يبددون عافيتهم فى البلدخ والترف ، درب البكوات
جنودهم على الولاء لأشخاصهم . وسرعان ما تعدوا سلطة الولاة المكروهين .
وكان أكثر هؤلاء الحكام الخلبين إقداما هو على بك [الكبير] ، الذى
كان فى طفولته قد بيع عبدا . ففى ١٧٦٦ خلع الباشا وفى ١٧٦٩ أعلن استقلال
مصر . وانتشى بغمرة النصر فقاد جنده المماليك ليفتح جزيرة العرب ،
واستولى على مكة . وانخذ لقب ساطان مصر وشاقان البحرين (الأحمر
والمتوسط) . وفى ١٧٧١ أوفد « أبنا الذهب » على رأس ثلاثين ألف مقاتل
لفتح الشام . ففتحها ، واكنه تحالف مع الباب العالى . وقاد جيشه عائدا
إلى مصر . وفر على بك إلى عكا ، وجند جيشا آخر . والتقى بقوات أبى
الذهب والأتراك . وقاتل حتى أثنى بالجراح فمجز عن المضى فى القتال .
ووقع فى الأسر . ثم قضى نحبه بعد أسبوع (١٧٧٣) . وعادت مصر
ولاية عثمانية من جديد .

ودون ذبذبات السلطة ونشوات القتل هذه استطاعت راکب التجارة
وقوافلها . واجتهد الحرفيين . وفيضان النيل السنوى . وعرق الفلاحين
فى التربة الطمعية الخصبية . استطاعت كلها أن تبقى فى مصر على اقتصاد لم
ينج ثماره غير قلة حبها الطبيعية أو الظروف بالكفاية أو المنصب . وأنتج
جهد الحقول والبحار ومضبوطا طعاما للمدن ونصوصا الأسكندرية التى
كانت من أعظم الثغور . والقاهرة التى كانت من أكثر العواصم سكانا فى
عالم القرن الثامن عشر . وكانت الشوارع ضيقة لتعجب الشمس . وقد
زيت بالمشروبات والشرفات التى يستطيع الحریم التخلص المتظار منها إلى
الحياة من ثمن . وكانت الشوارع الكبيرة تعج بالحرف التى تعدت تحفل
رأس المال أو إنتاج الآلات . وكانت كل صناعة فى أقطار الإسلام فنا .
وحلت الجودة محل الكم . فصنع الفقراء التحف والطرف الأثنياء والكنهم
لم يبيعوهم قط أباءهم وغزة نفوسهم .

وقام فى القاهرة ثلاثمائة مسجد تدعم فقراءها بالرجاء ، وتزين

المدينة بالقباب الضخمة والأروقة المعمدة الظليلة والمآذن الشاحخة . وكان أحدها وهو الجامع الأزهر جامعة الإسلام الأولى ، يؤمه من الطلاب ألفان أو ثلاثة من أقصى بقاع الأرض ، من ماليزيا شرقاً إلى المغرب غرباً ، ليتعلموا لغة القرآن وعلوم البلاغة والتوحيد والأخلاق والشرعية ، وكان خريجو الجامعة يؤلفون جماعة العلماء ، ومنهم يختار المعلمون والقضاة . لقد كان نظاماً وضع لسنية صارمة في الدين والأخلاق والسياسة .

وهكذا لم يكد يطرأ على الأخلاق أى تغيير من قرن إلى قرن . وكانت سن بلوغ الأحداث متقدمة عنها في الأقطار الشمالية ، فنزوح كثير من البنات في الثانية أو الثالثة عشرة ، وبعضهن في العاشرة ، وبقاء الفتاة بغير زواج إلى السادسة عشرة كان عاراً . ولم يقدر على تعدد الزوجات الذى أباحته الشريعة الإسلامية إلا أغنياء القوم . أما الزوج الذى تخونه زوجته فلم يكن من حقه الشرعى أن يقتل هذه الزوجة المحرمة فحسب ، بل كان يلقي التشجيع من رأى العام ^(١٥) . وكان الفكر الإسلامى ، كالمسيحى ، يعتبر المرأة مصدراً رئيسياً للشر ، لا يمكن السيطرة عليه إلا بإخضاعها إخضاعاً صارماً . وكان الأطفال ينشأون على نظام الحريم ، فيتعلمون أن يحبوا أمهم وأن يخشوا أباهم ويجلوه ، وكانوا كلهم تقريباً يتعلمون ضبط النفس وحسن الأدب ^(١٦) . وساد حسن السلوك جميع الطبقات ، مع شئ من يسر الحركة ورشاقتها ، لعله أخذ عن النساء اللاتى ربما أكتسبته من حمل الأثقال على رءوسهن . وكان المناخ مانعاً من العجالة مشجعاً على الكسل .

ولم يمنع تعدد الزوجات البغاء ، ففي استطاعة البغايا توفير الاثارة التى أحمدها طول الألفة . وتخصصت غوانى مصر في الرقصات الفاجرة ، وبعض الآثار القديمة تكشف عن قدم هذا الاغراء . وكانت كل مدينة كبرى تخصص للبغايا حياً يمارسن فيه حرفتهن دون خوف من عقاب القانون . وكانت النساء اللاتى يحذقن الرقصات الفاجرة ، شأنهن في جميع الحضارات ،

يستأجرون لهن أجسادهن أمام محافل الذكور ، وفي بعض الحالات كانت النسوة أيضاً يستمتعن بمشاهدة هذا الرقص (١٧) .

أما الموسيقى فكانت تخدم الحب والحرب ، فهي تستفر المهاجرين وتهديء المهزومين . وكان الموسيقيون المحترفون من الجنسين يؤتى بهم للترفيه . كتب إدوارد لين في ١٨٣٣ يقول « سمعت في القاهرة أعظم الموسيقيين شهرة وأطربنى أغانيهم أكثر من أى موسيقى أخرى استمتعت بها في حياتى (١٨) . وكانت الآلة المفضلة هى « الكمنجة » ، وهى ضرب من الفيولا النحيلة ، ولها وتران من شعر الخيل على صندوق مصمت مصنوع من جوزة هند شقت بين وسطها ورأسها وغطيت بقشر سمك مشدود^(١٩) . وكان العازف يتربع ويسند طرف الآلة المدبب على الأرض ، ويضرب أوتارها بقوس من شعر الحصان ونشب الدردار . أو قد يقعد العازف وفي حجره قانون كبير وينقر الأوتار بريشة من القرن ملصقة بسبابنيه . وتحول العود القديم الآن إلى شكل الجيتار . فلماذا أضفنا نايا ، وماندوليننا ، وطمبورينا ، أكتمل لك أوركسترا يروق الذوق المتحضر ، خيراً من تلك الموسيقى البدائية التى تبيع اليوم المحافل الغربية .

أما « دول البربر » أى البلاد التى زعموا أنها « بربرية » أو همجية . وهى طرابلس وتونس والجزائر ومراكش . فقد دخلت التاريخ فى القرن الثامن عشر أولاً بفضل بطولات قراصنها أو اغتيال « باباتها » أو « داياتها » وقد احتفظت هذه الحكومات باستقلالها الفعلى بارسالها « الهدايا » بين الحين والحين إلى السلاطين بالآستانة . وكان قوت الشعب يأتى أكثره من الزراعة أو القرصنة ، وكانت الفدية التى تؤدى عن الأسرى النصارى جزءاً هاماً من الدخل القومى : غير أن قباطنة القراصنة كان أكثرهم نصارى^(٢٠) . أما الفنون فظلت محتفظة بوجود قلق ، ولكن البنائين المغاربة احتفظوا بقدر من المهارة أتاح لهم أن يزرکشوا بالقرميد الأزرق والأخضر المتألق « باب منصور » الفخم الذى أضيف فى ١٧٣٢ بوابة بقصر مولاي إسماعيل وجامعه الضخم

(١٥) الرصف يتعلق على الرابطة لا على الكمنجة (المترجم) .

الذى ابتناه فى القرن السابع عشر فى مكناس ، وكانت آنئذ مقر سلاطين مراکش . أما مولای اسماعیل هذا فقد أقر النظام فى حكمه الذى امتد خمسة وخمسين عاماً (١٦٧٢ — ١٧٢٧) وأنجب مئات الأبناء ، ورأى فى منجزاته ما يبرر طلب يد ابنة اللويس الرابع عشر يضمها إلى حريمه^(٢١) . ويصعب علينا أن نسيغ أساليب حياة شديدة الثباين عن أساليب حياتنا ، ولكن قد يعيننا على ذلك أن نتذكر ملاحظة قالها رحالة مغربى عند عودته من زيارة إلى أوروبا « يالها من متعة أن يعود المرء إلى الحضارة »^(٢٢) .

٣ — الإسلام فى فارس (١٧٢٢ — ٨٩)

ولو سئل رجل فارسى فى هذه الحقبة لأعرب عن شعور بالراحة شبيه بهذا عند عودته إلى وطنه بعد مقامه حقبة فى الأقطار المسيحية أو حتى فى أقطار العثمانيين المسلمين . فالفارسي المتعلم حتى سقوط الدولة الصفوية (١٧٣٦) فى أغلب الظن كان يضع المدنية الإيرانية فى مرتبة أعلى من أى حضارة معاصرة ، ربما باستثناء الصينية . وكان يستنكر النصرانية باعتبارها انتكاسا إلى الشرك الشائع بين العوام . ولعله كان يسلم بتفوق بلاد النصارى فى العلوم والتجارة والحرب ، ولكنه كان يؤثر الفنون على العلوم ، والحرف اليدوية على الصناعة المميكنة .

كان القرن الثامن عشر قرنا ألما على فارس . فأتى لإيران وقد غزاها الأفغانيون من الجنوب الشرقى ، ولاحقها غارات قناصة العبيد من الأذربك فى الشمال الشرقى ، وهاجمتها غارات السلب والنهب الروسية فى الشمال ، واجتاحتها المرة بعد المرة الجيوش التركية فى الغرب ، وأفقرها طغيان نادر شاه ملكها المحب الأبهة وتعسفه فى جميع الضرائب ، ومزق أوصالها الصراع الوحشى بين الأسر المتناحرة طمعاً فى العرش الفارسي — نقول أنى وكيف تستطيع لإيران وقد ابتليت بهذا الاضطراب كله أن تواصل التقاليد العظمى للأدب والفن الفارسيين .

وكان البلد الذى نسميه الآن أفغانستان فى القرن السادس عشر تتقسمه

ثلاث حكومات : كابول الخاضعة للحكم الهندي ، وبلغ الخاضعة للأذربك ، وهرارة وقندهار الخاضعتان للفرس . وفي ١٧٠٦ - ٨ ثار أفغانيو قندهار بقيادة مير (أمير) فايز وطرردوا الفرس . وغزا ابنه مير محمود فارس ، ونخلع الحاكم الصفوي حسينا ، ونصب نفسه شاهاً . وقد دعم الدين سلاحه ، لأن الأفغانيين كانوا يتبعون المذهب السني ، ويكفرون الفرس المشيعين . وقتل محمود في سورة غضب ثلاثة آلاف من حرس حسين وثلاثمائة من أشرف الفرس ، ونحو مائتي طفل أشتبه في أنهم استنكروا قتل آبائهم . وبعد راحة طويلة قتل محمود في يوم واحد (٧ فبراير ١٧٢٥) بجميع الأحياء من أفراد الأسرة المالكة خلا حسينا ولأثنين من أبنائه الصغار . ثم التاث عقل محمود ، فقتله وهو لا يزال في السابعة والعشرين ابن عمه أشرف (٢٢ أبريل ١٧٢٥) الذي نادى بنفسه شاهاً . وهكذا بدأ سفك الدماء الذي هلكيان فارس في ذلك القرن :

واستنجد طهماسب بن حسين بروسيا وتركيا ، فاستجابت بالانفاق على اقتسام فارس فيما بينهما (١٧٢٥) . ودخل جيش تركي فارس واستولى على همدان وقزوین والمراغة ، ولسكن هزمه أشرف قرب کرمانشاه . وكان الجنود الأتراك يفتقرون إلى الحماسة ، فقد تساءلوا أى سبب يدعوهم لمقاتلة الأفغانيين ، وهم أخوة لهم سنيون على شاكلتهم ، ليردوا الصفويين الشيعة الزنادقة إلى الحكم . وتصلح الأتراك مع أشرف ولكنهم احتفظوا بالأقاليم التي فتحوها (١٧٢٧) .

وبدا أن أشرف قد غدا الآن في أمان ، ولكن ما مضى عليه عام حتى تحدى سلطانه المغضوب الدخيل ظهور رجل فارسي مغمور أنقص على العدو في بضعة سنين ، فحقق انتصارات من أروع وأفزع ما سجله تاريخ الحروب قاطبة . وقد ولد هذا المقاتل واسمه نادر قبلي (أى عبد الله) في خيمة بشمال شرقي إيران (١٦٨٦) وكان يعين أباه على رعي ما يملك من قطعان الغنم والماعز ، ولم يتح له من التعليم غير ما لقمته الحياة الشاقة المحفوفة

بالخاطر . فلما بلغ الثامنة عشرة وخاف أباه كبيراً لأسرته اختطفه هو وأمه المغيرون الأذرباك وحملوهما إلى خيوة حيث باعوهما عبيداً . وماتت الأم في ذل الأسر ، ولكن نادراً هرب وأصبح زعيماً لعصابة لصوص ، واستولى على كالات ونيشابور ومشهد ، وأعان ولاءه وولاء هذه المدن للشاه طهماسب ، وتعهّد بطرد الأفغانيين من فارس ورد عرش فارس إلى طهماسب . وقد أنجز هذا كله في حملات متلاحقة (١٧٢٩ - ٣٠) ورد طهماسب إلى عرشه ، فعين نادراً سلطاناً على خراسان وسيستان وكرمان ومازندران .

وما لبث القائد المخضر أن شرع في استرداد الأقاليم التي استولت عليها تركيا . فاستطاع بهزيمة الترك هزيمة فاصلة في همدان (١٧٣١) أن يخضع العراق وأذربيجان لحكم الفرس . ثم نعى إليه نبأ تمرد في خراسان ، فرفع الحصار عن أروان وزحف ألفاً وأربعمائة ميل عبر العراق وإيران ليحاصر هراة ، وهو زحف يتضاءل بالقياس إليه الزحف الشهير الذي عبر فيه فردريك الأكبر ألمانيا مراراً في حرب السنين السبع . ونزل طهماسب بشخصه أثناء ذلك إلى ساحة القتال ضد الترك فمخسر كل ما كسبه نادر ، ونزل عن جورجيا وأرمينيا وتركيا نظير تعهد الترك بمساعدته ضد روسيا (١٧٣٢) . فأسرع نادر قافلاً من الشرق وأنهى المعاهدة ، وخلع طهماسب وسجنه ، وأجلس على العرش غلاماً لطهماسب لم يتجاوز عمره ستة أشهر باسم الشاه عباس الثالث ، ونادى بنفسه وصياً على الصبي ، وأرسل إلى تركيا إعلاناً بالحرب :

ثم زحف على الترك بجيش عدته ثمانون ألف مقاتل جندهم بالإقناع أو بالإرهاب . وعلى مقربة من سامراء التقى بجيش عرمرم من الترك يقودهم توبال عثمان من محفته لتهر ساقيه . وأطلقت النار مرتين على جوادى نادر أسفله ، وفر حامل عامه ظناً منه أنه قتل ، وأنقابت عليه فرقة عربية كان يعتمد على معاونتها ، وهكذا كانت هزيمة الفرس هزيمة نكراء ما حققة (١٨ يوليو ١٧٣٣) . ولكنه لم فلول جيشه في همدان ، وجند ألافاً

جددا ، وسلحهم وأطعمهم ، ثم كر على الترك وبطش بهم في ليلان في مذبحه رهبة لقي فيها توبال عثمان حتفه . ثم أندلعت ثورة أخرى في جنوب غربي فارس ، فشق نادر طريقه من الغرب إلى الشرق ، وهزم الزعيم المتمرد فأنتهز . وفي عودته عبر فارس والعراق ، ألتقى بثمانين ألف تركي في بغاوند (١٧٣٥) ، وهزمهم هزيمة نكراء أكرهت تركيا على إبرام صلح نزلت بمقتضاه لفارس عن تفليس وجونده وأروان .

لم ينس نادر أن بطرس الأكبر هاجم فارس في ١٧٢٢ - ٢٣ ، واستولى على أقاليم جيلان وأستراباد ومازندران على بحر قزوين ، وعلى مدينتي دربند وباكو . وكانت روسيا قد ردت الأقاليم الثلاثة لفارس (١٧٣٢) لأنشغالها في جهات أخرى . فهدد نادر الآن (١٧٣٥) بالتحالف مع تركيا ضد روسيا أن لم تنسحب من دربند وباكو . وعليه سلمت إليه المدينتان ، ودخل نادر أصفهان دخول الفاتح الظافر الذي أعاد بناء قوة فارس . فلما مات الصبي عباس الثالث (١٧٣٦) محتما بموته ملك الصفويين ، جمع نادر بين الواقع والمظهر ، وارتقى العرش باسم نادر شاه .

وكان يؤمن بأن الخلافات الدينية بين تركيا وفارس تعمل على نشوب الحروب المتكررة ، لذلك أعلن أن فارس ستتخلى منذ الآن عن بدعة التشيع وترتضى السنية مذهبا لها . فلما أذان زعيم الشيعة هذه الخطوة شقته نادر بكل هدوء مستطاع . ثم صادر أوقاف قزوين الدينية ليفنى بنفقات جيشه لأن فارس على حد قوله مدينة لجيشها أكثر مما هي مدينة لدينها (٢٢) . ثم إذ شعر بالحنين إلى الحرب ، فأشرك معه في الملك ابنه رضا قلي ، ثم قاد جيشا من ١٠٠,٠٠٠ مقاتل ليفتح به أفغانستان والهند .

و ضرب الحصار عاما كاملا حول قندهار . فلما استسلمت له (١٧٣٨) كان كريما رحيا مع المدافعين عنها ، حتى أن جيشا من الأفغانيين أنضوى تحت لوائه وظل وفيا له إلى يوم مماته . ثم زحف على كابول مفتاح ممر

خبير ، وهناك أعانته الغنائم التي ظفر بها على رفع الروح المعنوية في جيشه . وكان محمد شاه ، إمبراطور الهند المغولي ، يأبى أن يصدق إمكان غزو الفرس للهند ، وكان أحد ولاته قد قتل مبعوث نادر إليه ، فعبّر نادر جبال الهملايا ، وأستولى على بشاور ، وعبر السند ، وزحف على دلهي حتى لم يعد بينه وبينها سوى ستين ميلا قبل أن يهب جيش محمد لمقاومته والتقى الجيشان الهائلان على بطاح كرنال (١٧٣٩) ، وأعتمد الهنود على فيلهم ، أما الفرس فقد هاجموا هذه الحيوانات الصبورة بكرات النار ، فانقلبت الفيلة هاربة وأشاعت الفوضى في جيش الهندود ، وقتل منهم عشرة آلاف ، وأسر عدد زاد على القتلى ، ويروى نادر أن محمد شاه جاءه يلتمس الرأفة « أمام حضرتنا السماوية » . (٢٣) وفرض عليه القائد المنتصر تسليم دلهي وكل ثروتها القابلة للنقل تقريبا ، والتي تقدر ب ٨٧,٥٠٠,٠٠٠ جنيه ، بما فيها عرش الطاووس الأشهر ، الذي كان قد صنع (١٦٢٨ - ٣٥) لشاه جهان في أوج سطوة المغول . وقتل بعض جنود نادر في شغب أحدثه الأهالي ، فانتقم بالسلاح لجيشه بذبح ١٠٠,٠٠٠ من الوطنيين في سبع ساعات . واعتذر عن هذه القعة بتزويج إبنته نصرالله من إبنة محمد . ثم زحف قاذلا إلى فارس لايعوقه عائق بعد أن أثبت أنه أعظم الفاتحين قاطبة منذ تيمور لنك .

وكان قدره المقدور أنه لو سرح جيشه فرما يبعث فسادا في الأرض ويشق عليه عصا الطاعة ، ولو أبقى عليه جيشا عاملا فلزام عليه أن يكسوه ويطعمه ، وكانت النتيجة التي خلص إليها أن الحرب أرخص له من السلم إذا استطاع خوضها على ساحة غريبة . فمن ترى يكون هدفه الآن ؟ وتذكر غارات الأتراك على شمال شرق فارس ، وكيف باعوه عبدا ، وكيف ماتت أمه في رقها . وإذن ففي ١٧٤٠ قاد جيشه زاحفا على أذربكستان ، ولم يكن لأمر بخارى لا القوة ولا الميل للوقوف في وجه نادر ، ومن ثم فقد أذعن ، وأدى تعويضا ضخما ، ووافق أن يكون نهر سيحون كما كان في القدم الحد بين أذربكستان وفارس . وكان خان نخبوه قد أعد مبعوث نادر ،

فقتل نادر هذا الخان ، وأطلق سراح آلاف من العبيد الفرس والروس (١٧٤٠) .

كان نادر بكل شخصيته مقاتلاً استغرقت الحرب عقله كله ، فلم يعد فيه ذرة من الرغبة في الحكم والإدارة . وبات السلام عنده عبثاً ثقيلاً لا يطيقه . وجعلته الغنائم والأسلاب لإنساناً جشعاً بخيلاً بدلاً من أن يكون جواداً كريماً . فعين ملائ خزائنه كنوز الهند أعلن تأجيل دفع الضرائب في فارس ثلاث سنين ، ثم عدل عن رأيه وأمر بجمع الأموال كما كانت تجمع من قبل ، وأفقر جيوشه فارس كما لو كانت بلداً مغلوباً . ثم خامرته الظنون بأن ابنه يتآمر على خلعه ، فأمر بأن تفتأ عيناه . وقال له ابنه رضا قلى « إنك لم تفتأ عيني بل عيني فارس » ^(٢٤) . وبدأ الفرس يمتقنون منقادهم كما تعلم الروس من قبلهم أن يمتقنوا بطرس الأكبر . وأثار الزعماء الدينيون عليه بغض أمة طعنت في إيمانها الديني . فحاول أن يخمّد التمرد المتعاظم بإعدام المتمردين بالجملة ، حتى لقد بنى أهراماً من جماجم ضحاياهم . وفي ٢٠ يونيو ١٧٤٧ اقتحم خيمته أربعة رجال من حرسه وهجموا عليه ، فقتل اثنين منهم ، ولكن الآخرين صرعا . وتنفست فارس كلها الصعداء ،

وهوت من بعده البلاد إلى درك من الفوضى أسوأ مما تردت فيه أيام سيطرة الأفغانيين . فطالب نفر من خانات الأقاليم بالعرش ، وتلا ذلك مباراة في التقتيل والاغتيال . وقنع أحمد خان بتأسيس مملكة أفغانستان الحديثة . أما شاه رخ - الرجل الوسيم اللطيف الرحيم - فتد سملت عيناه بعد اعتلائه العرش بقليل ، فتهقر ليحكم خراسان حتى ١٧٩٦ . وخرج كريم خان منتصراً من الصراع ، وأسس الاسرة الزندية (١٧٥٠) التي احتفظت بسلطانها حتى ١٧٩٤ . واختار كريم شيراز عاصمة للملكة ، وزينها بالمباني الجميلة ، وساد جنوبي فارس تسعة وعشرين عاماً من نظام وسلام لا بأس بهما . فلما مات جعل المتطاحن على السلطة يتخذ من جديد صورة الحرب الأهلية ، وعادت الفوضى تضرب أطرافها من جديد .

اختتمت فارس آخر مراحلها الفنية العظمى بسقوط الدولة الصفوية على

يد الافغانين ، فلم تجملها بعد ذلك غير بعض الآثار الفنية الصغيرة . وقد وصف اللورد كرزن مدرسة الشاه حسين (١٧١٤) بأصفهان — وكانت كلية لتدريب الدارسين والمحامين — بأنها « من أفخم الاطلال في فارس » (٢٥). وتعجب السير برسي سايكس من « قريدها البديع ... ورسومها المحرقة الجميلة » (٢٦). وكان صناع القرميد لا يزالون أمهر صناعه في العالم بأسره ، بيد أن افتقار الطبقات العليا نتيجة للحروب الطويلة قضى على سوق المهارة والتفوق وأكره الخزافين على التنبط بفنهم إلى مستوى الصناعة . وصنعت أغلفة الكتب الفاخرة من الورق المعجن المصقول . وأنتج النساجون أقمشة مقصبة ومطرزة غاية في الرهافة . وظلت السجاجيد الفارسية تنسج للمحوظين من شعوب كثيرة رغم أنها شهدت آخر أمجادها في عهد الشاه عباس الاول . وفي يوشاجان ، وهراة ، وكرمان ، وشيراز على الاخص ، كان النساجون ينتجون سجاجيد « لا يقلل من روعتها في عين الناظر إلا مقارنتها بأسلافها الكلاسيكية » (٢٧) .

أما الشعر الفارسي فقد حطم الفتح الافغانى قلبه ، وتركه أخرس أو كالأخرس طوال حقبة العبودية التالية لهذا الفتح . وحوالى ١٧٥٠ صنف لطف على بك أدار — قاموسا بسير الشعراء الفرس ، اختتم بستين من معاصريه . ومع هذه الوفرة الظاهرة فإنه أسف على ما رآه مجاعة في الكتاب الجيدين في عصره ، وعزا ذلك إلى القوضى والفقر السائدين ، « واللذين استثنيا بحيث لم يعد لإنسان رغبة في قراءة الشعر فضلا عن قرضه » (٢٨) . ونسوق هنا تجربة نموذجية للشيخ على خازن ، الذى نظم أربعة دواوين من الشعر ، ولكنه أمسك في حصار الأفغانيين لأصفهان ، ومات كل أهل بيته في الحصار ، وظل هو على قيد الحياة ، ثم أفاق من محنته ، وهرب من أنقاض المدينة التى كانت رائعة الجمال يوما ما ، وأنفق الأعوام الثلاثة والثلاثين الباقية من أجله في الهند . وقد خلد في « مذاكراته » (١٧٤٢) ذكرى مائة شاعر فارسي في جيله ، وأعظمهم في رأيه سيد أحمد هاتف الأصفهاني ، ولعل أكثر قصائده ظفرا بالثناء تلك التى أكد فيها بوجود المتصوفة لإيمانه بالله رغم الشك والدمار :

« في الكنيسة قلت لفاتنة نصرانية ،
يا من يقع القلب في فخك أسيرا ،
أنت التي يتعلق كل طرف شعرة من شعري بسدى منطقتك !
إلى متى تضلين الطريق إلى واحدنية الله ؟
إلى متى تفرضين على الآله الواحد عار التثليث ؟
كيف يتأتى أن تدعى الإله الحق الواحد أباً وإبناً وروح القدس ؟
فافتري ثغرها الجميل وقالت لي والضحك الخلو يتدفق منها :
إن كنت تعرف سر الآله الواحد فلا ترمني بسبة الكفر !
في ثلاث مرايا يشرق الجمال الأبدى بشعاع من وجهه الساطع .
وبينما نحن في حديثنا هذا أنبعثت هذه الأنشودة بجوارنا من جرس
الكنيسة :

« إنه إله واحد ولا إله سواه ؟
لا إله إلا الله وحده ...
في قلب كل ذرة تشقيها ترين شمسا في الوسط .
أن أنت بذلت لله كل ما تملكين ، فلا حسب كافرا
أن أصابك مثقال ذرة من الخسران ...
سوف تعبرين الصراط الضيق وتبصرين الملكوت الرحب ،
ملكوت الإله الذي لا يحده مكان . . .
وسوف تسمعين ما لم تسمعه أذن ، وترين ما لم تره عين ،
حتى يأتوا بك إلى مكان لا تبصرين فيه من الدنيا وأهلها غير واحد أحد
إلى هذا الواحد ستبدلين الحب من قلبك وروحك ،
حتى ترى بعين اليقين في جلاء لا خفاء فيه .
أنه إله واحد ولا إله سواه ،
لا إله إلا الله وحده » (٢٩)

الفصل السابع عشر

فاصل روسي

١٧٢٥ - ١٧٦٢

١ - العمل والحكم

كتب فريدريك الأكبر حوالى عام ١٧٧٦ يقول : « من بين جيران بروسيا أجمعين تستحق روسيا أعظم الاهتمام لأنها أخطرهم ، فهي قوية وقريبة : وسيضطر حكام بروسيا القادمون كما اضطررت أنا للسعى إلى صداقة هؤلاء الهمج » (١) .

وعلىنا دائما ونحن نفكر فى روسيا أن نتذكر حجمها . كانت فى عهد كاترين الثانية تضم أستونيا وليفونيا وفنلندة (بعضها) ، وروسيا الأوربية ، وشمال القوقاز ، وسبيريا . وقد اتسعت رقعتها من ٦٨٧ر٠٠٠ إلى ٩١٣ر٠٠٠ كيلو متر مربع فى القرن الثامن عشر ، وزاد سكانها من ثلاثة عشر مليوناً فى ١٧٢٢ إلى ستة وثلاثين مليوناً فى ١٧٩٠ (٢) . وفى ١٧٤٧ قدر فولتير سكان فرنسا أو ألمانيا بأنهم يزيدون قليلاً على سكان روسيا ، ولكنه لاحظ أن روسيا تبلغ مساحتها ثلاثة أضعاف مساحة أى من الدولتين . وسيقوم الزمن والأصلاّب الروسية بملاء تلك المساحات الشاسعة .

وفى عام ١٧٢٢ كان ٩٧ر٧ ٪ من سكان روسيا ريفيين ، وظلت نسبتهم ٩٦ر٤ ٪ فى ١٧٩٠ ، فقد كان التصنيع يسير ببطء شديد . وفى ١٧٦٢ كان كل الشعب إلا عشرة فى المائة منه فلاحين ، وكان ٥٢ر٤ ٪ من هؤلاء أقناناً (٣) ، ونصف الأرض يمتلكه نحو ١٠٠ر٠٠٠ من النبلاء ، ومعظم مابقى منها تملكه الدولة أو الكنيسة الأرثوذكسية الروسية ، وبعضها

ملكه فلاحون شبه أحرار ما زالوا يلتزمون بأداء الخدمات وبالطاعة للسادة المحليين . وكانت ثروة المالك تحسب بعدد أبقانه ، من ذلك أن الكونت بيتر خيريميتييف بلغت ثروته ١٤٠.٠٠٠ ر. قن (٤) . وكان الأبقان الذين تمتلكهم الكنيسة وعددهم ٩٩٢.٠٠٠ أهم جزء في ثروتها، وكان ٨٠٠.٠٠٠ ر. قن يفلحون أراضي التاج في ١٧٦٢ (٥) .

وكان الشريف يتكفل بالقيادة العسكرية والتنظيم الاقتصادي ، وهو عادة معفى من الخدمة العسكرية ولكنه كثيرا ما تطوع بها أملا في الحظوة عند الحكومة . وكان له حقوق محاكمة أبقانه ، وله أن يعاقبهم ، أو يبيعهم أو ينفقهم إلى سيبيريا . على أنه كان عادة يسمح لفلاحية بإدارة شئونهم بواسطة مجلس قريتهم أو « المير » وكان القانون يلزمه بإمداد أبقانه بالبزار وبإعالتهم في فترات القحط . وقد ينال القن حريته بشرائها من مالكة أو بالانخراط في سلك الجيش ، ولكن هذا مشروط برضى المالك . وكان للفلاحين الأحرار حق شراء الأبقان وامتلاكهم ، وكان بعض هؤلاء الأحرار ويلقبون « كولاسكي » (أى القبضات) ، يهيمنون على الشئون القروية ، ويقرضون المال بالربا ، ويبزون السادة الإقطاعيين استغلالا وصرامة (٦) . وكان السيد والقن كلاهما متين السلالة ، صلب العود ، قوى الذراع واليد، عكفا معا على تذليل التربة ، واضطلعا معا بعبء ترويض فصول السنة . وكانت المشاق أحيانا فوق ما يطيق البشر ، بحيث نسمع مرارا باقنان يهجرون مزارعهم في أعداد كبيرة ويختفون في بولنده أو الأورال أو القوقاز ، وكان الألوف منهم يلقون حتفهم في الطريق ، والألوف يتصيدهم الجند ويقبضون عليهم . وبين الحين والحين يهب الفلاحون في ثورة مسلحة على سادتهم وعلى الحكومة ، وتنشب بينهم وبين الجيش معارك يستميتون فيها في الدفاع عن أنفسهم ، ولكن الهزيمة تلاحقهم دائما ، فيزحف الأحياء منهم قافلين إلى واجباتهم — إلى أخصاب النساء بذريتهم ، والتربة بدمائهم .

وقد درب بعض الأبقان على الفنون والحرف ، فكانوا يمدون سادتهم بكل احتياجاتهم تقريبا . ويروى الكونت سيجور في معرض حديثه عن

حفلى أقيم لكاترين الثانية أن الشاعر الذى نظم الاوبرا والمؤلف الذى ألف موسيقاها ، والمعمارى الذى بنى قاعة الاستماع ، والنقاش الذى زخرفها ، وممثلى المسرحية وممثلاتها ، والراقصين والراقصات فى الباليه ، والموسيقيين فى الأوركسترا — كل أولئك كانوا أقنانا للكونت خريميتيف (٧) . وكان الفلاحون يصنعون فى الشتاء الطويل الملابس والأدوات التى سيحتاجون إليها فى السنة المقبلة . وكانت الصناعة فى المدن بطيئة التطور ، من جهة لأن كل بيت كان ورشة ، ومن جهة أخرى لأن صعوبات النقل كانت عادة تضيق السوق فلا تجاوز الجهات المجاورة للمنتج . وشجعت الحكومة المشروعات الصناعية بتقديمها الاحتكارات للمحظوظين ، وأحيانا بتزويدهم برأس المال ، وقد وافقت على أن يشارك الاشراف فى الصناعة والتجارة . وظهرت رأسمالية مبتدئة فى صناعات التعدين والميتالورجيا والعتاد الحربى ، وفى إنتاج المصانع للمنسوجات والخشب المنشور والسكر والزجاج . وسمح لـ « مقاولين » بشراء الاقنان لتزويد مصانعهم بالعمال ، على أن هؤلاء « الفلاحين المملوكين » لم يكونوا مربوطين بالمالك بل بالمشروع ، وألزمهم مرسوم حكومى صدر فى ١٧٣٦ ، هم وذريتهم ، بالبقاء فى مصانعهم حتى يؤذن لهم رسميا بتركها . وكانوا فى حالات كثيرة يعيشون فى معسكرات منفصلين عن أسرهم فى الغالب الأعم (٨) .

أما ساعات العمل ففتفاوت بين إحدى عشرة وخمس عشرة فى اليوم للرجال ، تتمثلها ساعة للغداء ، وأما الأجور فتتراوح بين أربعة روبلات وثمانية فى اليوم للرجال ، وبين روبلين وثلاثة للنساء . ولكن بعض أرباب العمل تكفلوا بإطعام عمالهم وإسكانهم ودفع الضرائب عنهم . وبعد عام ١٧٣٤ إزداد تشغيل العمال « الأحرار » — أى غير الاقنان — فى المصانع لأنه أتاح مزيدا من الخوافز للعمال وحقق مزيدا من الربح لرب العمل . وكان العمل من الرخص بحيث لا يشجع اختراع الآلات أو استخدامها ، ولكن فى عام ١٧٤٨ أستخدم بولزونوف آلة بخارية فى مصانع الحديد التى يمتلكها بالأورال . (٩)

وبدأت طبقة وسطى صغيرة عديمة الحول سياسيا تشكل ببطء بين طبقتي النبلاء والقلاحين . ففي عام ١٧٢٥ كان نحو ثلاثة في المائة من السكان تجارا : أصحاب متاجر في القرى والمدن والأسواق ، ومستوردين للشاي والححرير من الصين والسكر والبن والتوابل والعقاقير من وراء البحار ، وللمنسوجات الفاخرة والخزف والورق من غربي أوروبا ، ومصندين للخشب والتربيشة والقار وشحم الحيوان والكتان والقنب . وكانت القوافل تسافر إلى الصين بطريق سيبيريا أو بحر قزوين ، والسفن تقلع من ريجا وريفل ونارفا وسانت بطرسبرج . ولعل الأنهار والقنوات كانت تنقل من التجارة أكثر مما تنقله الطرق البرية أو البحرية .

وكانت موسكو تقع في قلب تلك التجارة الداخلية ، وكانت من الناحية المادية أكبر مدن أوروبا ، إذ أن بها شوارع طويلة عريضة ، و٤٨٤ كنيسة ومائة قصر ، وآلاف الأكواخ والزرائب ، وسكان بلغوا ٢٧٧,٥٣٥ في ١٧٨٠^(١) ، والفرنسيون والألمان واليونان والإيطاليون والانجليز والهولنديون والأسويون يتحدثون لغاتهم ويعبدون آلهتهم كما يشاءون . وكانت سانت بطرسبرج قلعة للحكومة . ومعتلا لأرستقراطية متفرنسة ، ومركزا للأدب والفن ، أما موسكو فكانت قطب الديانة والتجارة ، وتنسم بحياة نصف شرقيه لم تخضع عنها طابعها الوسيط ، وبوطنية سلافية مشربة بالغيرة والإخلاص . هاتان كانتا البؤرتين المتنافستين اللتين تدور حولهما المدنية الروسية ، حينما تمزق الشعب شطرين كالحلية المنقسمة ، وحينما نحيله مركبا متوترا سيصبح قبل ختام القرن مبعث الرعب لأوروبا والحكم الفيصل في مصيرها .

وكان محالا على شعب أضناه ووحشه صراعه مع الطبيعة ، وأعوزته أسباب الاتصال أو الأمن على الحياة ، وأفتقر أشد الافتقار إلى فرص التعليم وإلى الوقت الذي يفكر فيه - نقول إن شعبا كهذا كان محالا عليه أن يحظى بامتيازات الديمقراطية ومخاطرها ، اللهم إلا في القرى المعزولة . ولم يكن بد من الاقطاعية في صورة من صورها ، ومن ضرب عن النظام

الملكى فى الحكم المركزى . وكان من الأمور التى لا بد من توقعها أن تتعرض الملكية للانقلابات المتكررة ، تقوم بها أحزاب النبلاء المهيمنين على إمدادهم العسكرية للحكومة ، وأن تسعى الملكية إلى الحكم المطلق ، وأن تعتمد على الدين معوانا لجنودها وشرطتها وقضاها على صيانة الاستقرار الاجتماعى والسلام الداخلى .

وكان الفساد عقبة كؤودا سدت كل مسالك الإدارة . وحتى النبلاء الأثرياء الملتفون حول العرش كان من السهل اجتذابهم بـ « الهدايا » . يقول كاستيرا الذى كان معاصرا تقريبا لهذه الحقبة « أن كان هناك عاصم الروس من التملق ، فإنه مامن أحد منهم يستطيع مقاومة أغراء الذهب^(١١) » . وكان النبلاء يهيمنون على حرس القصر ، ذلك الحرس المعز المذل ، الذى يقيم الملوك ويخلعهم ، ويؤلفون طبقة مميزة من الضباط فى الجيش ، ويملأون مجلس الشيوخ الذى كان يشرع القوانين فى عهد الزاريتش ، ويرأسون الوزارات (الكوليجيا) التى تهيمن على العلاقات الخارجية ، والمحكم ، والصناعة ، والتجارة ، والمالية ، ويعينون الكتبة الذين يواصلون السير على النظام البيروقراطى ، ويوجهون إختيار الحاكم للمحافظين ، الذين يديرون الـ « جوربنيات » أى المحافظات التى انقسمت إليها الامبرطورية ويختارون (بعد ١٧٦١) « الفوفوديين » الذين يحكمون الأقاليم . وكان مكتب الرقيب المالى المؤلف أكثره من رجال الطبقة الوسطى يبسط ظله على جميع فروع الحكومة ، وهو مكتب مخبرات إتحادى ، مخول له أن يكشف ويعاقب الإختلاس ، ولكنه ألنى نفسه محبطاً رغم استخدامه المخبرين على نطاق واسع . فلو أن الملك رفت كل موظف مذنب بالرشوة والفساد لتوقف دولاب الدولة . وكان فى جباة الضرائب من الفهم للمال مالا يبقى لخزانة الدولة مما يجمعون أكثر من ثلثه^(١٢) .

٢ - الدين والثقافة

كان للدين سلطان كبير فى روسيا . لأن الفقر كان مدقعا ، ولأن تجار الأمل وجدوا مشترين كثيرين . واقتصرت الشكوكية على طبقة عليا

تقرأ الفرنسية ، وكان للماسونية أتباع كثيرون في هذه الطبقة (١٣) . أما سكان الريف وأكثر سكان المدن فكانوا يقيمون في عالم فوق طبيعي قوامه التدين الذى يشيع فيه الخوف ، يتخيلون الشياطين محيطة بهم ، ويرسمون الصليب مراراً وتكراراً في اليوم ، ويتضرعون للقديسين بالتشفع لهم ، ويتعبدون لرفاتهم ، يرهبون المعجزات ، ويرتعدون فرقا من النذر ، ويغرون صمداً أمام الصور المقدسة ، ويولولون بترانيم كثيفة تنطلق من صدور جهيرة . وكان للكنائس أجراس ضخمة قوية ، وقد أقام بوريس جودونوف جرساً منها بلغ وزنه ٨٨٢٠٠٠ رطل ، ولكن الأمبراطورة أنا إفانوفينا بزته في هذا الميدان ، إذ صب لها جرس يزن ٤٣٢٠٠٠ رطل (١٤) . وعمرت الكنائس بالمصلين ، وكانت الطقوس هنا أكثر مهابة ووقاراً والصلوات أكثر حماسة ووجداء منها في روما البابوية نصف الوثنية . أما القساوسة الروس - وكل منهم يلقب بالبابا - فكانت لهم لحى وشعر مرسل وأردية قائمة تصل إلى أقدامهم (لأن مظهر السيقان يتعارض مع الكرامة والوقار) . وقلما كانوا يختلطون بالبلاء أو البلاط بل يعيشون في بساطة متواضعة ، متبتلين في أديرتهم أو متزوجين في دورهم . وكان رؤساء الأديرة يحكمون الرهبان ، والرئيسات يحكمن الراهبات ؛ وكان الكهنة غير الرهبان يخضعون للأساقفة ، وهؤلاء لرؤساء الأساقفة ، وهؤلاء للمطارنة الإقليميين ، وهؤلاء للبطريرك في موسكو ؛ والكنيسة بمجملاتها تعترف برئيس الدولة رأساً لها . وخارج الكنيسة عشرات من الملل والنحل تتنافس في التصوف والتقوى والكراهية .

وأفاد الدين في بث ناموس أخلاقى حقق بالجهد خلق النظام وسط الدوافع القوية التى طبع عليها شعب بدائى . واتخذ نبلاء البلاط أخلاق الأرستقراطية الفرنسية وشاداتها ولغتها ، وكانت زيجاتهم صفقات عقارية خفف من عبثها العشاق والخليلات . وكان نساء النبلاء أرقى تعليماً من رجاله ، ولكنهن قد يتفجرن في لحظات الغضب بألفاظ حامية وعنف قاتل . أما عامة الشعب فكانت لغتهم سوقية غليظة ، وكثر بينهم العنف ، وكانت القسوة تنفق وقوة البدن وشفافة الجلد . وكان كل إنسان يقامر ويسكر حسب طاقته ،

ويسرق حسب منصبه^(١٥) ، ولكن الكل كانوا محسنين ، وبزت الأكواخ القصور في كرم الضيافة . وكانت الوحشية والكرم صفتين شائعتين في المجتمع كله .

أما اللباس فيختلف من أزياء باريس العصرية . في البلاط إلى القلانس من الفراء وجلد الغنم والقفازات الصفيفة التي يرتديها الفلاحون ، ومن جوارب النبلاء الطويلة الحريرية إلى الأربطة الصوفية التي تحتوى سيقان الأفتان وأقدامهم . وفي الصيف قد يستحم عامة الناس عراة في الأنهار متجاهلين الجنس . وكانت الحمامات الروسية كالتركية عنيفة ولكنها محبوبة . وفيما خلا هذا كان الاهتمام بالنظافة الصحية عارضاً ، وحفظ الصحة العامة بدائياً . وكان النبلاء يخلقون لحاهم ، أما عامة الشعب فيطلقونها رغم مراسيم بطرس الأكبر .

وكان في كل بيت تقريباً بالالايكا (جيتار) ، وكان في سانت بطرسبرج على عهد الزابيث وكاترين الثانية أوبرا مجلوبة من إيطاليا وفرنسا . وإليها وفد مشاهير المؤلفين والقادة الموسيقيين ، وأبرع مغنى العصر وعازفيه . وكان المال ينفق بسخاء على تعليم الموسيقى ، وقد أثبت صوابه وفائدته بتفجر العبقرية الموسيقية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . وكان أصحاب الأصوات المبشرة من الذكور يرسلون من جميع أصقاع روسيا إلى الكنائس الكبرى لتدريبهم . ولما كانت الطقوس الكنسية اليونانية لا تتيح استعمال الآلات في الكورس ، فإن الأصوات كانت حرة طليقة ، فحققت من أعماق الانسجام والتناغم ما لم يكن له نظير في أى بلد آخر في العالم ، وغنى الصبيان أدوار السوبرانو ، ولكن المرتلين بأصوات الباص (العميقة الخفيفة) هم الذين أذهلوا كثيرين من الأجانب بمدى الخفض في أصواتهم وباتساع شعورهم من همسات الرقة والحنان إلى موجات القوة الحنجرية .

فن تراهم مؤلفو هذه الموسيقى المؤثرة لفرق الترتيل الروسية ، أكثرهم رهبان مغمورين لم تفرع الأجراس لموتهم ولم تشتهر أسمائهم . ويرز

من بينهم راهبان فى القرن الثامن عشر . أولهما سوزونوفتش بيريزوفسكى الصي الأوكرانى الذى وهب صوتاً كأنما خلق ليعبد الله . وأوفدته كاترين الثانية إلى إيطاليا على نفقة الدولة ليحصل أفضل التعليم الموسيقى ، وعاش سنوات فى بولونيا ، وتعلم التأليف الموسيقى على البادرى ماريتنى . فلما عاد إلى روسيا كتب موسيقى دينية جمعت بين القوة الروسية والرشاقة الإيطالية . وقوبلت جهوده لإصلاح ترتيل الكورس بالمقاومة من أنصار القديم ، فبات فريسة لاكتئاب مرضى ، وقتل نفسه غير مجاوز الثانية والثلاثين (١٧٧٧) (١٦) . أما الثانى ، وهو أشهر منه ، فاسمه ديمترى بورثيانسكى ، الذى أدخل وهو لا يزال طفلاً فى السابعة كورس كنيسة البلاط ، وناطت الإمبراطورة اليزابيث جالوبى بتعليمه ، فلما عاد جالوبى إلى إيطاليا أوفدت كاترين الثانية ديمترى معه إلى البندقية ومنها انتقل إلى يد البادرى ماريتنى ثم إلى روما ونابلى ، حيث ألف موسيقى على الطريقة الإيطالية . وفى ١٧٧٩ عاد إلى روسيا ، وسرعان ما عين مديراً لكورس كنيسة البلاط ، وقد احتفظ بمنصبه هذا حتى مماته (١٨٢٥) . وقد ألف لفرقة الترتيل قداساً يونانياً ، وموسيقىات فى أربعة وثمانية أقسام لخمس وخمسين مزموراً . وتدريبه للفرقة يرجع له أكثر الفضل فى بلوغها مكانة من التفوق جعلتها إحدى عجائب العالم الموسيقى . وفى ١٩٠١ احتفلت سانت بطرسبرج بذكرى ميلاده المائة والخمسين بمظاهر الأبهة والفخامة .

أما الفن الروسى فقد سيطر عليه التأثير الفرنسى ، ولكن الشخصية القائدة فيه كان إيطاليا يدعى فرانشييسكو (أوبارتولوميو) راسيريللى . وكان بطرس الأكبر قد استقدم أبلى كارلو إلى روسيا (١٧١٥) ، فصب بالبرونز تمثالاً لبطرس ممطياً صهوة جواد ، وآخر بالحجم الطبيعى للإمبراطورة أنا أيفانوفنا . وورث الابن طراز لويس الخامس عشر الذى جلبه كارلو من فرنسا ، وأضاف إليه بعض ما استوحاه من روائع الباروك التى صنعها بلتازار نويمان وفيشر فون أرلاخ فى ألمانيا والنمسا ، وقد طوع هذه التأثيرات لحاجات روسيا وطرزها الفنية بانسجام فائق حتى أصبح المعماري المقرب للقيصرة اليزابيث . ويكاد يكون كل بناء روسى ذى خطر

مشيد من ١٧٤١ إلى ١٧٦٣ مصمماً بيده أو بيد معاونيه . فعلى ضفة نيفا اليسرى أقام (١٧٣٢ — ٥٤) « القصر الشتوى » الذى أحرق فى ١٨٣٧ ولكن أعيد بناؤه طبقاً لتصميمه الأصيل فيما يظن : كتلة هائلة من النوافذ والعمد فى ثلاث طبقات ، تعلوها التايل والشرفات المفرجة ؛ وكان أقرب منه إلى ذوق اليزابث قصر زاركوى سيلو (أى قرية القيصر) ، المشيد على ربوة تبعد خمسة عشر ميلاً جنوبى سانت بطرسبرج . وعلى يساره بنى كنيسة ، وفى داخل القصر كان سلم فخم يودى إلى قاعة كبرى تضيئها نوافذ ضخمة بالنهار وست وخسون ثرياً بالليل ؛ وفى الطرف الأبعد قاعة العرش وأجنحة الأمباطورة ، ثم حجرة صينية تقدم فروض الاجلال التى درج القرن الثامن عشر على تقديمها للفن الصينى . وهناك « حجرة الكهرمان » المكسوة بألواح من الكهرمان والى أهدها فردريك ولهم الأول بديلاً خمسة وخمسين من رماة القنابل اليدوية الفارعى الاجسام ، وقاعة للصور تضم بعض المجموعات الأمباطورية . أما داخل القصر فأكثره بزخرفة روكونية ، وصفها رحالة إنجليزى بأنها « مزيج من الهمجية والفخامة »^(١٧). وقد أزيلت بأمر كاترين الثانية زخارف الواجهة الذهبية ، فقد كانت كاترين بسيطة نقية فى ذوقها .

وكان الأدب أبطأ تطوراً من الفن . فقد افتقد التشجيع لندرة القراء ، وقيدت رقابة الكنيسة والدولة حرية التعبير ، ولم تكن اللغة الروسية قد صقلت ذاتها نحرأ ولفظاً بحيث ترقى إلى مستوى الأداة الأدبية . ومع ذلك فحتى قبل تولي اليزابيث العرش (١٧٤٢) ترك ثلاثة من الكتاب بصماتهم على صهيفة التاريخ . وأولهم فازيلى تاتيشيف — كان صاحب نشاط وفكر ، رحالة مؤرخاً ، دبلوماسياً وفيلسوفاً ، يحب روسيا ولكنه يفتح عقله فى تشويق للتطورات الاقتصادية والفكرية فى الغرب . وكان واحداً من ذلك النفر من الشباب الذين أوفدهم بطرس إلى الخارج بغية إخصاب روسيا فكرياً . وقد عاد بأفكار خطيرة: فقد قرأ الأصول أو الخلاصات لكتب

بيكون وديكارت ولوك وجروتوس وبيبل ، وذبل لإيمانه السنّي ، فلم يؤيد الدين إلا بوصفه معواناً على الحكم^(١٨) . وقد خدّم بطرس في حملات حربية خطيرة . وأصبح حاكماً لأستراخان ، وآتهم بالاختلاس .^(١٩) واجتمع له من جولاته ذخيرة من المعلومات الجغرافية والعرقية والتاريخية انتفع بها في كتابة « تاريخ روسيا » . وقد أغضب هذا الكتاب رجال الدين ، ولم يجزؤ أحد على طبعه حتى السنوات السبعة الأولى من حكم كاترين الثانية (١٧٦٨ - ١٧٧٤) .

وواصل ثاني هؤلاء الكتاب الثلاثة — وهو الأمير أنطيوخ كانتيمير — التمرد على اللاهوت . كان ابناً لحاكم (هوسبودار) ملداني ، وجرىء به إلى روسيا في عامه الثالث ، وتعلم الحديث بست لغات ، وخدم في السفارات الروسية في لندن وباريس ، والتقى بمونتسكيو وموبرتوي ، فاما عاد كتب نقداً لاذعاً لأولئك الغلاة من الوطنيين الداعين للجامعة السلافية ، المعارضين لتلويث الحياة الروسية بالأفكار الغربية . وإلى القارئ طرفاً من قصيدته « إلى عقل » :

« أيها العقل الفج ، يائسة الدراسات الحديثة ، أمسك ، ولا تدفع القلم في يدي ... ما أكثر الطرق السهلة المؤدية في زماننا هذا إلى أسباب التشريف ، ولكن أقل الطرق تقبلاً هو الطريق الذي خططته الأخوات الخافيات التسع (ربّات الفنون) ... عليك أن تكذب وتكدهج هناك ، وبينما تشقى أنت يتجنبك الناس كأنك الوباء ويتهمون عليك ، ويبغضونك ... » « أن الذي يكب على الكتب ينقلب كافراً » ، هكذا يدمدم كريتو متدمراً في يده مسبحة ... ويريدني أن أرى مبلغ الخطر في بذرة المعرفة التي تلقى بيننا : إن أطفالنا مما يفرح الكنيسة ، بدأوا يقرأون الكتاب المقدس ، وهم يناقشون كل شيء ويريدون معرفة العلة لكل شيء ، ولا يضعون في رجال الدين إلا أقل الثقة ... إنهم لا يوقدون الشمع أمام الصور ، ولا يحفظون المواسم والأعياد ...

« أيها العقل ، نصيحتي لك أن تصبح أشد صمماً من قطعة زلاية ،

ولا تشك لأنك مغبور ... وإذا كانت الحكمة المنعمة قد علمتك شيئاً، ...
فلا تشرحه لغبرك» (٢١) .

وزاد كانتيمير من إساءاته بترجمته كتاب فولتنييل « أحاديث حول
تعدد العوالم » ، وقد أدين الكتاب لأنه كوبرنيقي ، مهرطق ، مجدف ،
ولكن كانتيمير أحبط ما يبتغى له مضطهدوه ، فقد مات وهو في السادسة والثلاثين
(١٧٤٤) . ولم تجد هجائياته ناشراً يقدم على نشرها حتى عام ١٧٦٢ .

وفي عهد القيصرية الزايت بدأ الأدب الروسي يؤكد ذاته شيئاً أكثر من
مجرد كونه صدى للأدب الفرنسي . وقد شعر ثالث هؤلاء الكتاب ، وهو
ميخائيل لومونوزف ، بالتأثير الألماني لا الفرنسي ، وكان قد درس في
ماربورج وفرايبورج ، ثم تزوج فتاة ألمانية ، وجلب معها إلى سانت بطرسبرج
حملاً ثقيلاً من العلم . وأصبح سابع الأكاديمية المبرز في كل شيء حتى في
الشراب (٢١) . ورفض أن يتخصص ، فكان عالماً في المعادن ، وجيولوجياً ،
وكيميائياً ، وكهربائياً ، وفلكياً ، واقتصادياً ، وجغرافياً ، ومؤرخاً ، وفيلولوجياً ،
وخطيباً . وقد لقبه بوشكن « أول جامعة روسية » (٢٢) وفي غمار هذا كله
كان يقرض الشعر :

وكان منافسه الأكبر على ثناء الطبقة المفكرة هو ألكسيس سوماروكوف
الذي نشر ديواناً من القصائد الغنائية من نظمه ونظم لومونوسوف ليظهر
أنه أشعر منه (وكان الفرق بينهما طفيفاً) . أما مفخرة سوماروكوف
الحقيقية فهي انشاؤه مسرحاً قومياً روسيا (١٧٥٦) ألف له تمثيلات رددت
صدى تمثيلات راسين وفولتير . وقد ألزمت الزايت حاشيتها بالحضور ،
وكانوا لا يدفعون أجراً عن دخول المسرح ، فشكا سوماروكوف من أن
راتب الخمسة آلاف روبل الذي يتقاضاه في العام لا يقيم أوده ، ولا يعين
مسرحه على الحياة . « أن ما كان الناس يشهدونه في أثينا يوماً وما يشهدونه
اليوم في باريس ، يشهدونه كذلك في روسيا بفضل اهتمامي ... وفي ألمانيا
لم يوفق حشد من الشعراء لما وفتت إلى صنعه بجهودي أنا وحدي » (٢٣) .

وفى ١٧٦٠ أعيان هذه الجهود المضنية فشدد رحاله إلى موسكو ، ولكن ميله للشجار ما لبث أن أورثه الفقر هناك . فناشد كاترين الثانية أن تبعث به إلى الخارج على نفقة الدولة ، وأكد لها أنه « لو وصف أوروبا قلم كقلمي ، لما كفاه ٣٠٠,٠٠٠ روبل »^(٢٤) واحتملته كاترين فى صبر حتى مات صريع الشراب (١٧٧٧) .

ولنبعث الآن شيئاً من الإشراف فى هذه الصفحات بقصة غرام بطلتها أميرة لإسمها ناتاليا بوريسوفنا دولجوروكايا ، وكانت إبنة الكونت والمشير بوريس خريميتيف ، رفيق سلاح بطرس الأكبر . فى ربيعها الخامس عشر (١٧٢٩) يوم كانت « باهرة الجمال ومن كبار الوارثات فى روسيا »^(٢٥) خطبت لفاسيلي لوكيش دولجوروكى ، أقرب المقربين للقيصر بطرس الثانى . وقبل أن يتاح عقد القران مات بطرس ، فبنى خلفه فاسيل إلى سيبيريا ، وأصرت ناتاليا على أن تزوجه وتتبعه إلى المنفى . وعاشت معه ثمانية أعوام فى تبولسك ، وولدت له طفلين . وفى عام ١٧٣٩ أعدم ، وبعد أن قضت فى المنفى ثلاثة أعوام أخرى سمح لها بالعودة إلى روسيا الأوربية فأكملت تعليم أبنائها ، ثم دخلت ديراً فى كييف . هناك ، واستجابة لرجاء ولدها ميخائيل ، كتبت « مذكراتها » (١٧٦٨) التى نشرها حفيدوها الشاعر الأمير إيفان ميخايلوفيتش دولجوروكى فى ١٨١٠ . وقد أحميا ذكرها ثلاثة شعراء روس ، وهى محل إجلال روسيا باعتبارها نموذجاً للكثيرات من النساء الروسيات اللاتى شرفن الثورة ببطولتهن ووفائهن .

والخلاصة أن الحضارة الروسية فى جملتها كانت مزيجاً من الإنضباط الحتمى والاستغلال القاسى ، ومن التدين والعنف ، ومن الصلاة والتجديف ، ومن الموسيقى والتبذل ، ومن الوفاء والقسوة ، ومن الخضوع الدليل والبسالة التى لا تقهر . ولم يستطيع القوم أن يكتسبوا فضائل السلم لأنه كان لزاماً عليهم أن يخوضوا ، خلال فصول شتاء مديدة ، وليالى قارسة البرد طويلة ، حرباً مريعة مع الرياح القطبية التى تكتسح سهولهم المتجمدة دون ما حاجز يعوقها . لأنهم لم يعرفوا قط النهضة الأوربية ولا الإصلاح

البروتستنتي ، ومن ثم كانوا - إلا في عاصمتهم المتكلفة - لا يزالون أسرى قيود العصر الوسيط . وكانوا يعززون أنفسهم بكبرياء العرق وبقيين الإيمان ، دون أن يبلغ ذلك بعد مبلغ النزعة القومية الإقليمية ، إنما كان إقتناعاً ضارباً بأنه بينما كان الغرب يورد نفسه موارد الهلاك بالعلم والثروة والوثنية والكفر ، أقامت « روسيا المقدسة » وفيه لمسيحية آباء الكنيسة الأولين ، أقرب الأمم إلى قلب المسيح وأحبها إليه ، وإليها سيؤول حكم العالم وافتدائه ، يوماً ما .

٣ - السياسة الروسية

١٧٢٥ - ٤١

ليس تاريخ روسيا فيما بين بطرس الأكبر والإزابيث بتروفاً إلا سجلًا كئيباً محيراً من الدسائس وثورات القصر . فهذه الحقبة تتيح لنا - إن كان لحقبة ما أن تتيح - ونحن مطمئنون - أن نوفر في الحيز والوقت . ومع ذاك فلا مناص من ذكر بعض عناصر هذا الخليط إن أردنا أن نفهم مركز كاترين الكبرى وخلقها وسلوكها .

كان الوريث الطبيعي للعرش عام ١٧٢٥ بيوتر ألكسيفتش ، صبي العاشرة وابن الكسيس (وألكسيس هو الابن القليل لبطرس الأكبر) ، ولكن أرملة بطرس التي لم تعرف القراءة والكتابة أقنعت حرس القصر (بدفعها رواتبهم التي طال تحلفها) بأنه عنها خلفاً له ، وبفضل تأييدهم أعلنت (٧ فبراير ١٧٢٥) توليها العرش بإسم كاترين الأولى ، إمبراطورة إقليم روسيا كلها . ولكن كاترين الصغرى هذه انغمست بعد ذلك في الشراب والفسق ، وكانت تحب الخمر حتى تغيب عن وعيها كل مساء ، وتمضي إلى فراشها عادة في الخامسة صباحاً ، وقد تركت زمام الحكم لعشيقها السابق الأمير الكسندر دانيلوفتش منشيكوف ومعه مجلس أعلى ، - واضطلع الكونت أندراى أوسترمان ، الألماني المولد ، بالشئون الخارجية ووجه روسيا إلى مصادقة ألمانيا والنمسا ومعاداة فرنسا . وعمل بمخططات

بطرس الأكبر ، زوجت كاترين إينتها آنا بتروفنا لكارل فريدرش ، دوق هولشتين — جوتورب ، وذهب العروسان ليعيشا في كيل ، حيث ولدت آنا الغلام الذى صار فيما بعد بطرس الثالث . أما كاترين نفسها ، فقد ماتت في ٦ مايو ١٧٢٧ شهيدة لذاتها ، بعد أن عينت خلفا لها الصبى بيوتر الكسيفيتش الذى اغتصب عرشه من قبل .

ولم يكن بطرس الثانى هذا يتجاوز الثانية عشرة ، فظل منشيكوف يواصل الحكم ، واستغل سلطاته في الإثراء تحسبا للمستقبل . فهب لفيف من النبلاء بزعامة الأخوين إيفان وفاسيلي لوكيتش دولجوروكى فأطاحوا بمنشيكوف ونفوه إلى سيبيريا حيث مات في ١٧٢٩ . ولم يمض عام حتى لقي بطرس الثانى حتفه بالجدري ، وانتهى بموته صلب الذكور في أسرة رومانوف . هذا الحادث المؤسف هو الذى أتاح لروسيا أن تحكمها على مدى ستة وستين عاما ثلاث نساء ضارعن ، أو ففن ، أكثر معاصرين من الملوك كفاءة تنفيذية وآثارا سياسية ، وسبقهم جميعا — باستثناء لويس الخامس عشر — في مضمار العريضة الجنسية .

أما أولى هؤلاء القيصرات فهي آنا إيفانوفنا ، ابنة إيفان الكسيفيتش البالغة خمسة وثلاثين عاما ، وأبوها كان الأخ الأبله لبطرس الأكبر . وقد اختارها المجلس الأعلى لأنها اكتسبت سمعة واقية بالوداعة والطاعة . ووضع المجلس الذى كان يهيمن عليه آل دولجوروكى وجولتسين «شروطا» بعثوا بها إلى آنا وهي في كورلاند ، لابد من قبولها لتثبيتها على العرش . ف وقعت على الشروط (٢٨ يناير ١٧٣٠) . ولكن لا الجيش ولا الاكليروس أرادوا إحلال الاوليكركية محل الأوتقراطية . لذلك انطلق وفد من حرس القصر للقاء آنا ، والتمس منها أن تتقلد زمام السلطة المطلقة . فاستوحث الشجاعة من أسلحتهم ، ومزقت «الشروط» على مرأى من الحاشية .

وكانت آنا عديمة الثقة بالنبلاء الروس ، فاستقدمت من كورلاند الألمان الذين كانوا يتمتعونها هناك . فأصبح إرنست فون بورن ، أو بيرون

عشيقتها السابق رئيسا للحكومة ، ورد أوسترمان لرياسة الشؤون الخارجية ، وأعاد الكونت خريستوف فون مونيش تنظيم الجيش ، وساعد لوفنفولدى وكورف ، وكيزرلينج . على تطعيم نظام الحكم الجديد ببعض الكفاية الألمانية . فجمعت الضرائب بصرامة يقظة ، ووسع التعليم وأدخلت عليه التحسينات ، وهبى للدولة جهاز مدرّب من الموظفين المدنيين . وبمثل هذه الفاعلية سمحت الحكومة الجديدة أو نفت أو أعدمت الدولوجوروكيين والبولتسينيين .

وعاشت آنا عيشة منتظمة نسبيا ، بعد أن قنعت بعشيقين (برون ولوفنفولدى) . فكانت تستيقظ فى الثامنة ، وتخصص ثلاث ساعات لشئون الحكم . وتبتسم ابتسامة الرضى . إذ يسطر رجالها الألمان سلطان روسيا . فغزا جيش يقوده مونيش بولنده ، وخلع ملكها ستانلاس لسكزنسكى . الخاضع لتوجيه الفرنسيين . وأجلس على عرشه أوغسطس الثالث السكسونى ، واتخذ أول خطوة على طريق ربط بولنده بالروسيا . وردت فرنسا بأن حرّضت تركيا على أن تهاجم روسيا ، ولكن السلطان تردد لانشغاله على جبهته الفارسية ، فرأت روسيا الفرصة مواتية لإعلان الحرب على تركيا ، وهكذا بدأت (١٧٣٥) ستون سنة من صراع السيادة على البحر الأسود . وشرح دبلوماسيو آنا الموقف فقالوا إن الاتراك ، أو من يلوذ بهم فى جنوب روسيا ، فى يدهم مخارج الأنهار الخمسة الكبرى . دنيستر ، وبوج ، ودنيبر ، ودون ، وكوبان . التى كانت أهم مسالك التجارة الروسية المتجهة جنوبا ، وأن القبائل الإسلامية نصف الهمجية التى سكنت الاحواض الدنيا لهذه الأنهار هى خطر دائم يهدد مسيحي روسيا . وأن الشواطىء الشمالية للبحر الأسود جزء طبيعى وضرورى من روسيا . وأن شعبا عظيما ناميا كالشعب الروسى يجب ألا يحال بعهد اليوم بينه وبين الوصول إلى البحر الأسود والبحر المتوسط دون معوق ، وقد نلت هذه الحجج الأنشودة المتكررة التى ظلت تنغى بها روسيا طوال ما بقى من القرن وما بعده .

أما أول الأهداف فكان القرم ، شبه الجزيرة الذى يقوم محقلا تركيا

على الجبهة الشمالية للبحر الاسود . وكان الاستيلاء على شبه الجزيرة تلك هو الغاية التي استهدفتها حملة مونيش عام ١٧٣٦ . وكان أعدى أعدائه في هذه الحملة المسافات المترامية والمرضى ... ذلك أنه كان عليه أن يعبر ٣٣٠ ميلا من القنار والبرارى التي لا تستطيع بلدة واحدة من بلادها أن تقدم الطعام أو الدواء لجيش عدته ٥٧,٠٠٠ مقاتل ، وكان لزاماً أن ترافقهم ثمانون ألف عربة في طابور طويل معرض في أى نقطة أو لحظة لهجوم قبائل التتار عليه . واستطاع مونيش بفضل قيادته الماهرة أن يستولى في تسعة وعشرين يوما على بريكوب ، وكوسلوف ، وبخشيسراى (عاصمة القرم) ، ولكن في ذلك الشهر تفشت الدوسنطاريا وغيرها من الأمراض في جيشه فأحدثت من الشقاء والتمرد بين رجاله ما أكرهه على التخلّى عن فتوحه والتقهقر إلى أوكرانيا ، واستولى أثناء ذلك قائد آخر من قواد آنا على أزوف المشرفة على مصب نهر دون .

وكرر مونيش على الجنوب في أبريل ١٧٣٧ بسبعين ألف مقاتل ، واستولى على أوخاكوف ، قرب مصب نهر بوج . وفي يونيو انضمت إليه النساء في مهاجمة الترك ، ولكن حملتها باءت بالفشل ذريع ألجأها إلى إبرام صلح منفرد ، أما روسيا التي تركت فجأة لتواجه الجيش التركى برمته ، والتي كانت تتوقع حربا مع السويد ، فقد وقعت (١٨ سبتمبر ١٧٣٩) صلحا رد إلى الأتراك تقريبا كل ما كسبه الروس في حملات ثلاث . واحتفلي بالمعاهدة في سانت بطرسبرج على أنها إنتصار باهر لم يكلف أكثر من مائة ألف قتيل .

وعاشت آنا سنة بعد الحرب . وقبيل موتها عينت وريثا للعرش ، إيفان السادس ، الغلام الذى لم يتجاوز عمره ثمانية أسابيع : وهو ابن بنت أختها آنا ليوبولدوفنا الألمانية المولدة وأنطون أولريش أمير برنزويك . وأوصت أن يكون بيرون وصيا على إيفان حتى يبلغ السابعة عشرة . ولكن مونيش وأوسترهان كانا الآن قد نالهما من بيرون ما يكفى . فانضما إلى أولريش وليوبولدوفنا ونفوه إلى سيبيريا (٩ نوفمبر ١٧٤٠) . وأصبحت

آنا ليوبولدوفنا وصية ، ومونيش « الوزير الأول » . وخشى السفيران الفرنسي والسويدي أن يسيطر التيتون على روسيا سيطرة كاملة . فمولا ثورة يقوم بها الأشراف الروس . واختار الثوار سرّاً مرشحاً للعرش اليزافيتا بتروفنا ابنة بطرس الأكبر وكاترين الأولى .

وكانت اليزابث ، كما سندعوها هنا ، في الثانية والثلاثين من عمرها ، ولكنها في أوج حسنها وشجاعتها ونشاطها ، تحب الألعاب الرياضية والتدريب العنيف ، ولكنها أيضاً ولوعة بمتعة الغرام ، وقد رفعت عن سلسلة من العشاق ، ولم تظفر بقدر يذكر من التعليم ، وكانت تكتب الروسية بصعوبة وتتكلم الفرنسية بطلاقة . وبدو أن فكرة تشريفها العرش لم تخطر لها ببال إلى أن نحتها آنا ليوبولدوفنا وأوسترمان جانبا مؤثرين عليها الأجانب . فلما أمرت الوصية فرق سانت بطرسبرج بالرحيل إلى فنلندا ، وتدمير الجند لأنهم سيواجهون حرب شقاء ، اغتنمت اليزابث الفرصة . فلبست الزي العسكري ، وقصبت ثكنات الجند في الساعة الثانية من صباح ٦ ديسمبر ١٧٤١ ، وناشدتهم أن يناصروها ، ثم ركبت مركبة الجليد إلى القصر الشتوي على رأس فوج من الجيش وأيقظت الوصية ، وزجت بها هي والقيصر الطفل في السجن . فلما استيقظت المدينة وجدت أن لها حاكماً جديداً ، إمبراطورة روسية خالصة . وابنة لبطرس العظيم . واغتبطت روسيا وفرنسا بهذا الحدث .

٤ --- اليزابث بتروفنا

١٧٤١ --- ٦٢

من العسير فهم هذه المرأة خلال ضباب الزمن والأهواء . وحين إقيمتها كاترين الثانية في ١٧٤٤ « راعها منها جمالها وجلال ساوكها » . ومع أنها كانت بادية جداً ، فإن بدائنها لم تنل قط من حسنها أو تجعل حركتها ثقيلة مضطربة . . . رغم ارتدائها طوقاً هائلاً لتنويرتها حين تكتمل زينتها^(٢٦) . وكانت تبطن الشكوكية إلى شفا الإلحاد^(٢٧) ، وتظهر الغيرة

على الديانة التقليدية . وقد لاحظ مراقب فرنسي « ميلها السافر للشراب » (٢٨) ، ولكن علينا أن نتذكر أن روسيا بلداً بارداً وأن الفودكا تدفئ شاربها . وقد رفضت أن تزوج بخافة أن يبدد الزوج قوتها ويضعف من أسباب الخلاف والخصومة . ويزعم البعض أنها تزوجت سرّاً الكسيس رازموفسكى ، فإذا كان الأمر كذلك فإنه لم يكن سوى الأول بين أقران عديدين . وكان فيها غرور وخيلاء ، وولع بالحلى والملابس المبهرجة ، ولها خمسة عشر ألف ثوب ، وأكوام من الجوارب ، و ٢٥٠٠ حذاء (٢٩) ، وقد استعمات بعضها قذائف أثناء النقاش ، وكان في استطاعتها أن توبخ خدامها وحاشيتها بلغة السوق ، وقد صدقت على بعض العقوبات القاسية ، ولكنها كانت في سريرتها رحيمة الفؤاد (٣٠) . ألغت عقوبة الإعدام إلا على جريمة الخيانة (١٧٤٤) ، ولم تسمح بالتعذيب إلا في أخطر المحاكمات ، أما عقوبة الجلد فقد بقيت نافذة ، ولكن الزباث كانت تشعر أنه لا بد من إيجاد وسيلة لتثبيط المجرمين الذين جعلوا الطرق العامة وشوارع المدن غير مأمونة في الليل ، وقد جمعت في طبعها بين القلق والكسل ، ووهبت ذكاء فطرياً حاداً ، وأعطت وطنها خير حكومة سمحت بها حالة التعليم والأخلاق والعادات والاقتصاد الروسى .

وبعد أن نفت أوترمان ومونش إلى سيبيريا ، أعادت مجلس الشيوخ إلى سلطة القيادة الإدارية ، ووكلت الشؤون الخارجية إلى ألكسى بروفيش بستوزيف - ريومين . وقد وصفته كاترين الثانية بأنه « دساس كبير ، سيئ الظن بالناس ، حازم جرىء في مبادئه ، عدولا يعرف الصفيح ، ولكنه صديق صدوق لأصدقائه » (٣١) . وكان مشغولاً بالمال كما يشغف به عادة من يعرفون أن سمو المنصب قد يفضى إلى السقوط ، وحين حاولت إنجلترا أن ترشوه قدرت أن نراهته تكلف ١٠٠ر٠٠٠ كراون (٣٢) . ولا علم لنا إن كانت الصفقة قد تمت ، ولكن بستوزيف وقف بوجه عام في صف إنجلترا ولكن هذا كان رداً طبيعياً على تأييد فرنسا للسويد وتركيا ضد روسيا . وقد عرض فردريك الأكبر هو الآخر على بستوزيف ١٠٠ر٠٠٠ كراون إن ألف بين روسيا وبروسيا ، ولكن العرض رفض (٣٣) . وبدلاً منه

ألف بستوزيف بين روسيا والنمسا (١٧٤٥) والانجلترة (١٧٥٥) . فلما أتمعت انجلترة هذا بتحالف مع بروسيا (١٦ يناير ١٧٥٦) تهدم بناء الأحلاف الذى أقامه بستوزيف ، وأهملت الزابث بعدها الأخذ بنصائحه ، وربطت وزارة جديدة روسيا بحلف فرنسى --- تمساوى كان «نقضا للأحلاف» السابقة : وكانت رضى حرب السنين السبع دائرة .

وقد رأينا فى موضع سابق من هذا الكتاب --- وما أبعد الشقة بيننا وبينه --- كيف هزم القائد الروسى أبراكسين البروسيين . فى جروس بيجرزدررف (١٧٥٧) ، ثم سحب جيشه إلى بولندة . وأقنع سفيرا فرنسا والنمسا الزابث بأن بستوزيف كان قد أمر بتقهقر ابراكسين وأنه يتأمر لخلعهما . فأمرت بالقبض على المستشار والقائد جميعا (١٧٥٨) . ومات ابراكسين فى السجن ، وأنكر بستوزيف التهمتين ، وقد برأت ساحته المعلومات التى أنيط عنها اللاثام فيما بعد . وأراد خصومه أن يعذبوه ليُعترف . ولكن الزابث كفهم . وحل ميخائيل فورونستوف محل بستوزيف مستشارا .

وفى نهار حفلات البلاط الراقصة ، وموائد قماره ودسائسه وغيرها وأحقاده ، كانت الزابث تشجع معاونيها على دفع المدنية الروسية قدما . ففتح محسوبها الشاب ايفان شوفالوف جامعة فى سوسكو ، وأسس المدارس الابتدائية والثانوية ، وأوفد الطلاب فى بعثات للخارج للدراسات العليا فى الطب ، واستقدم المماريين والمثالين والمصورين الفرنسيين لأكاديمية الفنون (Akademia Iskustv) التى أقامها فى العاصمة (١٧٥٨) . وقد تبادل الرسائل مع فولتير ، وأغراه بتأليف « تاريخ الإمبراطورية الروسية فى عهد بطرس الأكبر » (١٧٥٧) . أما أخوه بيوتر شوفالوف فقد أعان الاقتصاد بإلغاء المكوس على التجارة الداخلية . على أن الزابث سمحت أثناء ذلك للتعصب الدينى بأن يزداد إرضاء لدعاة الجامعة السلافية . فأغلقت بعض المساجد فى أقاليم التار ، ونفت ٣٥٠٠٠ يهوديا .

وكان أكبر مآثرها انتصار جيوشها وقوادها المرة بعد المرة على فردريك

الثاني ، ووقفهم الزحف البروسي ، وأشار لهم على سحقه لولا أن هد تدهور صحتها من قدرتها على حمل التحالف الفرنسى النمساوى الروسى على التماسك كتب السفير البريطانى فى تاريخ مبكر (١٧٥٥) يقول : « لقد ساءت صحة الإمبراطورية وأصبحت يبصق الدم والنهج ، وبالسعال المستمر ، وبالأرجل المتورمة ، وبالماء فى رئتيها ، ومع ذلك فقد رقصت « منويتا معى » . (٣٤) وراحت الآن تدفع ثمنها باهظا لإيثارها حياة الفسق على الزواج . وإذا كانت بغير خلف ، فقد طالما بحثت عن شخص من دم ماسكى يستطيع التصدى لمشاكل روسيا الخارجية والداخلية ، فوقع اختيارها - وهو اختيار لا يمكن تفسيره - على كارل فريدرش أولرش ، ابن اختها أنا بتروفنا وكارل فريدرش ، دوق هولشتين - جوتنورب . وكانت هذه أكبر غلطة اقترفتها فى حكمها ، ولكنها كفرت عنها باختيارها لشريكة حياتها .

٥ - بطرس وكاترين

١٧٤٣ - ٦١

ولد بيوتر فيودوروفتش ، كما أعادت الزباث تسمية وريثها ، بمدينة كيل فى ١٧٢٨ . وكان بوصفه حفيدا لبطرس الأكبر ولشارل الثانى عشر كليهما صالحا لارتقاء العرشين الروسى والسويدي . وقد ألزم البيت لضعف صحته حتى بلغ السابعة ، ثم اختير بتغيير فجائى للانضمام إلى حرس هولشتين ونشئ على حياة الجندية . وأصبح رقيبا فى التاسعة ، وكان يسير شامخ الرأس فى العروض الميدانية ، وتعلم لغة ضباط الجيش وأخلاقهم . وحين ناهز الحادية عشرة عين له مرب ألمانى نشأه على الإيمان اللوثرى بصورة لانتسى ، وأسرف فى تأديبه إسرافا أصابه بالعصاب . ولأذأربه هذا المربى بعنفه ، فقد انطوى على الجبن والتكتم ، ولاذ بالمكر والخداع ، (٣٥) وبات « دأئم الزق والعناد وحب الشجار » (٣٦) . ولعل روسو كان مستشهدا به مثالا يوضح الزعم بأن الإنسان خبير بالفطرة ولكن البيئة السيئة هى التى تفسده . ذلك أن بطرس كان رقيق القواد ، يئمنى أن يسلك المسلك الحق ، كما سئى من

مراسيمه الملكية ، ولكن دمره ما فرض عليه من القيام بأدوار لا تناسبه .
وحين التقت به كاترين الثانية وهو في الحادية عشرة وصفته بأنه « وسيم
الطلعة حسن السلوك مجامل » وقالت « أنها لم تشعر بأى نفور من فكرة
الزواج به » . (٣٧)

وفي ١٧٤٣ أمرت اليزابث بأن يؤتى به إلى روسيا ، وخلعت عليه لقب
الغراندوق ، ويبدو أنها أدخلته في المذهب الأرثوذكسى ، وحاولت تدريبه
على شئون الحكم . ولكنها « وقفت مشدوهة » لفقر تعليمه واهتزاز شخصيته
وفي سانت بطرسبرج أضاف السكر عينا إلى عيوبه الأخرى ، وراود الأمل
اليزابث بأن هذا الفتى الغريب قد يتاح له ، إذا زوج بامرأة صحيحة البدن ذكية
الفؤاد ، أن ينجب قبل وفاة اليزابث قيصرًا كفؤًا لروسيا في مستقبل أيامه .
وبهذه الروح المجردة من التعصب العرقى ، والتي اتسمت بها الاستقرائيات
الأوروبية حتى أثناء قيام الدول القومية ، اتجهت اليزابث ببصرها خارج
روسيا ، فوقع اختيارها على أميرة مغمورة من إحدى الإمارات الألمانية
الصغرى . وكان فريدريك الثانى الماكر قد أوصى بهذا الاختيار أملا فى أن
يظفر بقيصرة ألمانية صديقة فى روسيا التى أصبحت الآن مبعث خوف لألمانيا .

وعند هذه النقطة تواجهنا مذكرات كاترين الكبرى ، وهى مذكرات
لا يتطرق الشك إلى صحة نسبتها إليها ، لم تطبع حتى عام ١٨٥٩ ، ولكن
المخطوطة الفرنسية التى كتبها كاترين بخط يدها محفوظة بدار المحفوظات القومية
فى موسكو فهل هى جديرة بالثقة ؟ إن القصة التى تروىها هذه المذكرات
تؤيدها على العموم مصادر أخرى . (٣٨) وعينها ليس الكذب بل التحيز فهى
قصة أجادت روايتها بذكاء وحيوية ، ولكنها فى بعضها دفاع عن خلعاها
زوجها ، وعن احتمالها نأى قتله بمثل ما احتملته به من رباطة جأش .

وقد ولدت فى شتن بيومرانيا فى ٢١ ابريل ١٧٢٩ وسميت عند تعميدها
صوفيا أونجستا فردريكا بأسماء ثلاث عمت لها . أما أمها فكانت يوهانا
اليزابث أميرة هولشتين - جوتنورب ، ومن طريقها كانت كاترين ابنة

نخالة بطرس . أما أبوها فكان كرستيان أوجست ، أمير انهالت - تسربست في وسط ألمانيا ، واللواء في جيش فردريك . وقد خاب أمل أبوها لولادة بنت لا ولد ، وحزنت الأم كأنها أسقطت جنينا . أما كاترين فقد كفرت عن أنوثتها باتخاذها فحولة القادة العسكريين وحنكة الأباطرة الحاكمين ، بينما ظلت طوال ذلك أكثر العشيقات في أوروبا طلابا وأقربهن منالا .

كانت تشكو ألوانا من أمراض الطفولة ، ومنها مرض اشتد عليها حتى خلفها تبدو للناظرين كأنها ستظل مشوهة ما بقي لها من العمر « في عمردها الفقري تعرج » و « وكتفها اليمنى أعلى كثيرا من اليسرى » ، وأصبحت الآن « تتخذ شكل حرف Z » فحبسها جلال المدينة السابق ، الذي تخصص في علاج انخلاع المفاصل ، في مشد (كورسيه) « لم أكن أدخله قط نهرا ولا ليلا إلا حين أغير ملابسي الداخلية ، و وبعد ثمانية عشر شهرا بدأت أبدي علامات على استقامة عودي » . (٣٩) ولكثرة ما تردد في سمعها أنها دميمة ، صممت على أن تنمي ذكاءها بديلا عن الجمال ، فكانت مثالا آخر من أمثلة النقص الذي يشعر به صاحبة فيحفزه إلى قدرات تعويضية . واختفت دمايتها حين لف البلوغ أعضائها فاستدارت . وكانت رغم هذه الخطوب ذات « طبع رضى » وفيها من الفرح الفطرى « ما استلزم ضبطه » . (٤٠)

تلقت تعليمها على مهابين نخص منهم بالذكر قسيسا لوثرىا كان يلقي عننا من أسئلتها . مرة سأله « أليس من الظلم أن يحكم على تيطس ، وماركوس أوريليوس ، وجميع عظماء العالم القديم بالهلاك الأبدي رغم فضلهم ، لأنهم لم يعرفوا شيئا عن رؤيا يوحنا اللاهوتى ؟ » وكانت تحسن الجدل إلى حد حمل معلمها على أن يعزم جلدها لولا تدخل إحدى المربيات . وقد أرادت بصفة خاصة أن تعرف شكل تلك الهيولى التى سبقت الخليفة كما ورد في سفر التكوين . « ولكن إجاباته لم تبد قط مقنعة » و « فقد كلانا أعصابه » ، وزاد انزعاجه بإصرارها على أن يفسر لها « بالضبط معنى الختان » (٤١) وكان معلومها الآخرون ومربها فرنسيين ، لذلك أنقشت

الفرنسية ، فقرأت كورني ، وراسين ، وموليير ، وكان واضحاً أنها مهياة لقراءة فولتير . وهكذا أصبحت من أفضل نساء عصرها تعليماً .

وانتهى نبأ هذه الأميرة الذكية إلى الإمبراطورة إليزابيث ، وكانت تواقه إلى فتاة قد تمنح بطرس الذكاء بالتناضح . ففي أول يناير ١٧٤٤ وصلت إلى أم صوفيا دعوة للحضور معها في زيارة للبلاط الروسي . وتردد الوالدان ، فقد بدت لهما روسيا بلداً قلقاً بدائياً إلى حد خطر ، أما صوفيا التي حدثت أن زواجها من الفرندوق قيد البحث فقد التمتست الجواب بقبول الدعوة . وعليه ففي ١٢ يناير بدأوا الرحلة الطويلة الشاقة عبر برلين وشتتن وبروسيا الشرقية وريجياوسانت بطرسبرج إلى موسكو . وفي برلين استضافهم فردريك ، وأعجبه صوفيا ، « وراح يسألني ألف سؤال ويتكلم على الأوبرا والكوميديا والشعر والرقص ، وباختصار كل شيء يمكن أن يخطر ببال إنسان يتحدث إلى فتاة في الرابعة عشرة » (٢) ، وفي شتتن « ودعني أبي ، وكانت آخر مرة رأيته فيها ، وقد بكيت بكاء مراراً » . وبلغت الأم وابنتها موسكو في ٩ فبراير في حاشية مترفة ، بعد رحلة في مركبة جليد امتدت اثنتين وخمسين ساعة من سانت بطرسبرج .

وفي ذات المساء التقت ببطرس ثانياً مرة ، وقد وقع من نفسها هذه المرة أيضاً موقعاً طيباً ، إلى أن أسر لها أنه لوثرى صميم ، وأنه يحب إحدى الوصيفات في البلاط (٣) . ولاحظت أن الروس يكرهون لهجته وعاداته الألمانية ، أما هي فقد عولت على تعلم الروسية والتمكن منها ، وعلى قبول المذهب الأرثوذكسي بخذافيره وشعرت بشيء « أكثر قليلاً من عدم المبالاة نحو بطرس ، ولكن » لم أكن غير مبالية بالتاج الروسي . وعينوا لها ثلاثة مدرسين - للغة ، وللدن ، وللرقصات الروسية . وقد شقت على نفسها في الدرس - فنهضت مرة في منتصف الليل للاستدكار - حتى ألزمت الفراش لإصابتها بذات الجنب ، « وظللت أتذبذب بين الحياة والموت سبعة وعشرين يوماً ، فصعدت خلالها ست عشرة مرة ، أحياناً أربع مرات في اليوم » (٤) . وفقدت أمها حظوتها في البلاط لأنها طلبت استدعاء قسيس

لوثرى . أما صوفيا فقد كسبت قلوباً كثيرة بطاها قسيساً يونانياً . وأخيراً ، في ٢١ أبريل ، استطاعت أن تظهر أمام الناس . « كنت هزيلة كأني هيك عظمى . . . في وجهي وقسماتي غضون ، وشعري ساقط ، ولوني غاية في الشحوب »^(٤٥) وأرسلت لها الأمبراطورة ملء قدر من « الروح » .

وفي ٢٨ يونيو جازت صوفيا ، في خشوع مؤثر ، مراسم دخولها في المذهب الأرثوذكسي . وأضيف الآن إلى أسمائها إسمان هما إكاترينا ألكسيفنا ؛ ومن ثم أصبحت منذ الآن تدعى كاترين . وفي صباح الغد ، وفي الكتدرائية الكبرى ، « أوسبنسكى سوبور » ، خطبت رسمياً للغرندوق بطرس . وابتهج كل من رآها بتواضعها اللبق ، وحتى بطرس بدأ يحبها . وبعد أربعة عشر شهراً من التدريب تزوجا في ٢١ أغسطس ١٧٤٥ في سانت بطرسبرج . وفي ١٠ أكتوبر رحلت أم كاترين قاصدة أرض الوطن .

وكان بطرس الآن في السابعة عشرة ، وزوجته في السادسة عشرة . كانت جميلة ، وكان قبيحاً لأنه أصيب بالجذري في سنة خطبتهما . وكانت من الناحية الفكرية شرهة يقظة ، أما هو فيقول سولوفيف إنه « بدت عليه كل أمارات التخلف العقلي ، وكان أشبه بطفل كبير »^(٤٦) : يلهو بالدمى والعرائس والعساكر اللعب ، ويولع بالكلاب حتى أنه يحتفظ بعدد منها في شقته ، ولم تعرف كاترين أيهما شر من الآخر ، نباحها أم رائحتها الممتلئة^(٤٧) . ولم يحسن الموقف بالعزف على كمانه . وازداد ميله للشراب ، « و منذ ١٧٥٣ كان يشمل بالشراب كل يوم تقريباً »^(٤٨) وكثيراً ما كانت الإمبراطورة اليزابث توبخه على نقائصه ، ولكنها لم تضيف القدوة إلى الوصية . وكان الذي يزعجها أكثر هو كرهه السافر لروسيا التي سماها « بلداً لعيناً »^(٤٩) ، واحتقاره للكنيسة الأرثوذكسية وقساوستها ، وأهم من هذا كله عبادته لفردريك الأكبر ، حتى أثناء اشتباك روسيا وبروسيا في حرب طاحنة ، وأحاط نفسه بـ « حرس هولشتاين » من الجند كلهم تقريباً ألمان ، وفي يلب لهو بأورانيبوم كان يلبس لإتباعه الزى الألماني ، ويدربهم على الطريقة البروسية . وحين هرم القائدان الروسيان فرمور وسالتيكوف

البروسيين عام ١٧٥٩ أمسكاعن متابعة إلتصاراتهما مخافة أن يغضبيا بطرس (٥٠) الذى قد يصبح قيصراً فى أية لحظة .

وكاد زواجهما أن يصبح صراعاً بين ثقافتين ، لأن كاترين كانت تسعى إلى المزيد من التعليم بدراسة الأدب الفرنسى . ويبدو أمراً لا يصدق أن تقرأ هذه الشابة خلال سننها التسعة وهى غراندوقة أفلاطون وبلوتارخ وتاسيتوس وبيبل وفولتير وديدرو ومونتسكيو الذى قالت عن كتابه « روح القوانين » إنه ينبغى أن يكون « كتاب صلوات يومية لكل ملك سليم الإدراك » (٥١) ولا بد أن كتباً كهذه أتت على البقية الباقية من معتقدات كاترين الدينية — رغم أنها واصلت دون توان مراعاتها للطقوس الأرثوذكسية وأعطتها هذه الكتب ذلك المفهوم عن « الاستبداد المستنير » الذى تشربه فردريك من فولتير قبل ذلك بجيل .

وخلال ذلك (إن صدقنا روايتها المباشرة) « لم يصل زواجى بالغراندوق إلى نقطة الاكتمال » (٥٢) وفى رأى كاستيرا الذى كتب فى ١٨٠٠ سيرة لكاترين تنبىء باطلاع حسن كما تنسم بالعداء لها ، أن « بطرس كان يشكو عيباً بدا رغم سهولة إزالته أشد قسوة ، ولم يستطع عنف حبه ولا محاولاته المتكررة أن يحققا نقطة الاكتمال فى زواجه . » (٥٣) وهذه الحالة لها نظير لافت للنظر ، هى حالة لويس السادس عشر ومارى أنطوانيت . وربما كان النفور الذى انتهت كاترين إلى الإحساس به نحو بطرس خلال خطبتهما الطويلة قد وضح له وأورثه العنة النفسية . وسرعان ما اتجه إلى نساء أخريات ، واتخذ الخليفة تلو الخليفة ممن راودهن الأمل فى الحلول محل الغراندوقة كاترين . وفى روايتها أن سنوات الزواج الأولى هذه كانت سنوات شقاء وتعاسة لها . وذات يوم (فيم يروى هوراس ولبول) ، حين سألتها الإمبراطورة لم يشمر زواجهما ، أجابت بأنه ينبغى ألا ينتظر أى ثمر له . وكان هذا فى الواقع لإعلاناً لعجز زوجها . وأجابت إليزابث بأن الدولة تطالب بالخلف ، وتركت للغراندوقة مهمة الحصول على هذا الخلف

بمساعدة من تشاء . وكانت ثمرة طاعتها واداء وبناتها .^(٥٤) وقد بينت مدام ماريّا تشوجلوكوفا ، التى عينتها إليزابث وصيفة الكاترين ، للفرانديقة (فيما روته هذه) أن هناك استثناءات هامة لقاعدة الوفاء الزوجى ، ووعدتها بأن تكتم السر إذا اتخذت كاترين عشيقا ،^(٥٥) و (« لا ريب فى أن هذا الاقتراح المحجل لم يأت من الوصيفة بل من الامبراطورة ذاتها^(٥٦) » . وعلينا أن ننظر إلى هذه الأمور فى منظور بلاط روسى طال إلفه لماكات عديداً العشاق ، وبلاط فرنسى تعود على ملوك متعددى العشيقات ، وبلاط سكسونى — بولندى ضم مائة وخمسين طفلا أنجبهم أو غسطس الثالث .

فهل اقتدت كاترين بهذه المثل إلى درجة الإفراط ؟ بعد ولايتها العرش ، نعم . أما قبلها فيبدو أنها لاقتصرت فى قصد رواق على ثلاثة عشاق — أولهم — بعد زواجها بنحو ست سنوات — سرجى سالتيكوف ، الضابط الشاب المفعم حيوية . وتشرح كاترين استجابتها لحبه فتقول :

« إن جاز لى توخى الصراحة قات لإننى كنت أجمع بين عقل الرجل ومزاجه ، وبين مفاتن المرأة الجديرة بأن تحب . وأرجو الصفح عن هذا الوصف ، الذى يبرره صدقه فلقد كنت جذابة ، ومن ثم كان نصف الطريق إلى الأغراء قد قطع فعلا ، ومن الانسانية الخالصة فى مثل هذه المواقف ألا يقف الإنسان فى منتصف الطريق فالمرء لا يستطيع أن يمسك بقلبه فى يده ، يحبسه أو يطلقه ، يشد عليه قبضته أو يرخيها كما يشاء . »^(٥٧)

وفى ١٧٥١ حمات ولكنها أسقطت حملها ، وتكررت هذه التجربة المؤلمة فى ١٧٥٣ . وفى ١٧٥٤ ولدت الطفل الذى صار فيما بعد الإمبراطور بولس الأول . واغتبطت إليزابث ، وأهدت كاترين ١٠٠٠٠ روبل ، وأرسلت سالتيكوف لينزوى انزواء آممونا فى استكهولم ودرسدن ، حيث كان « عابثا مستهترا مع جميع النساء اللاتى قابلهن »^(٥٨) كما تروى كاترين .

أما بطرس فازداد سكرًا ، واتخذ مزيدًا من الخليلات ، واستقر أخيرًا على الزافينا فوروتسوفًا ، ابنة أخى المستشار الجديد . وكانت كاترين تنشجر معه ، وتسخر منه ومن أصدقائه علانية . (٥٩) وفى ١٧٥٦ قبلت ملاطفة فتى بولندى وسيم فى الرابعة والعشرين يدعى الكونت ستانسلاس بونياوفسكى ، قدم إلى سانت بطرسبرج مباحقًا للسير هانبرى - ولجوز ، السفير البريطانى . وتصفها سيرة ستانسلاس الذاتية فى سنة ١٧٥٥ :

« كانت تناهز الخامسة والعشرين . . . فى تلك اللحظة بالذات التى هى أجمل اللحظات للنساء الجميلات . كان لها شعر فاحم ، وبشرة بيضاء ناصعة وأهداب سوداء طويلة ، وأنف إغريقى ، وفم كأنه خلق للقبلات ، ويدان وذراعان غاية فى الحسن ، وقد نحيل يغلب فيه الطول على القصر ، ومشية غاية فى النشاط ملؤها المهابة رغم هذا . وكان رنين صوتها مبهجًا ، وضحكاتها مرحة كطبعها » (٦٠) .

فلما حلق النظر فيها « نسى أن هناك قطرا اسمه سييريا . » وكان هذا الغرام أعمق ماشعرت به من غراماتها الكثيرة ، وغراماته هو ، فقد ظل قلبها مع يونياتوفسكى بعد أن اتخذت عشاقًا آخرين بزمن طويل ، أما هو فلم يفق قط تمامًا من افتنانه بها ، مهما أنزلت به سياساتها من آلام موجعة . وحين ذهبت لتقيم مع بطرس فى أورانيفباوم ، خاطر ستانسلاس بحياته بزيارتها سرا هناك . وكشف أمره ، وأصدر بطرس أوامره بشنقه . غير أن كاترين تشفعت لبطرس بخليلته التى هدأت ثائرة الغراندوق بعد أن ألانها هدية من كاترين . وأخيرًا ، وفى نوبة من الود ، لم يكتف بطرس بالصفحة عن يونياتوفسكى ، بل دعا كاترين للانضمام إلى عشيقها ، ودخل معها ومع الزافينا فوروتسوفًا فى « معيشة رباعية » لطيفة تخللتها عشاءات مرحة اشتركوا فيها جميعاً (٦١) .

وفى ٩ ديسمبر ١٧٥٨ ولدت كاترين بنتًا . واعتقد أفراد الحاشية عموماً أن أباهما هو يونياتوفسكى (٦٢) ولكن بطرس نسب الفضل لنفسه ،

وتقبل التّأني ، ونظم المهرجانات احتفالاً بهذا الانجاز (٦٣) ، ولكن الطفلة ماتت بعد أربعة أشهر . واستدعى بونيا توفسكي إلى بولندا بأمر الامبراطورة ، وحرمت كاترين العشق هنية ، ولكنها افتتنت بمغامرات الحب والحرب التي خاضها جريجورى جريجوريفتش أورلوف ، ياور بيوتر شوفالوف . وكان أورلوف قد كسب لنفسه حسن السمعة بثباته في موقعه في معركة زورندورف رغم جروحه الثلاثة . وكان له بنية الرجل الرياضي و « وجه ملاك » (٦٤) ، ولكنه لم يعرف من المناقب إلا الظفر بالسلطة والنساء بأي وسيلة متاحة . وكان لشوفالوف خلية هي الأميرة إلينا كوراكين ، وكانت من أجمل حسان القصر وأكثرهن تحملاً ، فاجتذبت أورلوف وظفر بها من رئيسه ، وأقسم شوفالوف أنه قاتله ، ولكنه مات قبل أن ينفذ فيه وعيده . وأعجبت كاترين بشجاعة أورلوف ، ولاحظت أن له أربعة أخوة في الحرس كلهم قوى فارع الطول ، وقالت في نفسها إن هؤلاء الخمسة سيفيدون إذا طرأ طارئ . وعليه رتبت لقاء مع جريجورى ، ثم ثانياً ، فثالثاً ، وسرعان ما أزاحت كوراكين واحتلت مكانها . ولم يحل يوليو ١٧٦١ حتى كانت حاملاً ، وفي أبريل ١٧٦٢ ولدت ابناً لأورلوف ، وأحيط الحدث بما أمكن من تكتم ، وربى الغلام باسم الكسيس بوبرينسكي .

وفي ديسمبر ١٧٦١ وضح أن الامبراطورة بادرة مرضها الأخير ، وبذلت محاولات لإشراك كاترين في مؤامرة تستهدف منع بطرس من ارتقاء العرش ، وقد أُنذرت بأن بطرس إن أصبح قيصرًا سينحيا جانباً ويجعل إليزافيتا فورونتسوا زوجته ومليكتة ، ولكن كاترين رفضت الاشتراك في المؤامرة . وفي ٥ يناير ١٧٦٢ (حسب التقويم الجديد) ماتت الامبراطورة إليزابيث ، وارتقى العرش بطرس دون معارضة سافرة .

٦ - بطرس الثالث

١٧٦٢

وقد أدهش الجميع بسماحة قراراته ؛ فالود الفطري الذي حجب به ضباب العادات الفظة الغبية تكشف الآن في نوبة من العرفان لتقلده السلطة بسلام ،

فصّح عن أعدائه ، واستبقى معظم وزراء الزابث ، وحاول أن يتلطف مع كاترين . فخصص لها في القصر جناحا مريحا في طرف منه ، وسكن هو جناحا في الطرف الآخر . وخصص لخليلته الغرف الوسطى ، وكان هذا بالطبع إهانة بالغة ، ولكن كاترين اتّهمت في دخيلة نفسها بسكناها على مبعدة منه . وزودها بمخصصات سخية ، ودفع ديونها الباهظة دون تحقيق في أصلها . (٦٥) وفي الحفلات الرسمية كان يسوى بينها وبينه في المكان وأحيانا يقدمها على نفسه . (٦٦)

ثم أعاد من المنفى الرجال والنساء الذين نفاهم الحكام السابقون إلى سيبيريا فعاد الآن مونيخ وقد بلغ الثانية والثمانين ليرحب به اثنان وثلاثون حفيداً ، ورده بطرس إلى رتبة المشير ، وأقسم مونيخ ليعخدمه إلى النهاية ، وقد بر بقسمه . وأحل الإمبراطور السعيد النبلاء من الالتزام الذي فرضه عليهم بطرس الأكبر ، وهو أن يعطوا الدولة سنين كثيرة من حياتهم ، فاقترحوا أن يصنعوا له تمثالا من الذهب ، ولكنه أمرهم أن يستعملوا هذا الذهب استعمالا أرشد . (٦٧) وألغى مرسوم أصدره بطرس في ٢١ فبراير بالشرطة السرية التي أبغضها الناس جميعا ، وحرّم الاعتقال لاتهم السياسية حتى يراجعها مجلس الشيوخ ويقرها . وفي ٢٥ يونيو أصدر بطرس مرسوما بأن يعفى مقترف الزنا من التعنيف الرسمي منذ الآن ، «فحقى المسيح لم يذن» (الزانية) في ذلك الأمر . (٦٨) واتّهمت الحاشية ، وسر التجار لتخفيض رسوم التصدير ، وخفض ثمن الملح ، وأبطل شراء الأتقان لتشغيلهم في المصانع أما «قداى المؤمنين» الذين هربوا من روسيا اتقاء اضطهادهم في عهد الزابث فقد دعوا للعودة والتمتع بالحرية الدينية . ولكن رجال الدين أثارت سخطهم الشديد مراسيم ١٦ فبراير و ٢١ مارس التي أمت جميع أراضي الكنيسة وجعلت جميع القساوسة الأرثوذكس موظفين حكوميين ذرى رواتب . وحرر الأتقان العاملون على ضياع النبلاء أن يحرروا هم أيضا سريعا . ووسط هذه الإصلاحات كلها - التي أشار بها عليه مختلف الوزراء - راح بطرس يشرب حتى يشمل .

أما أغرب قراراته الذى أسعده أيا سعادة ، فهو إنهاؤه الحرب مع بروسيا . وكان حتى قبل ولايته العرش قد فعل الكثير ليساعد فردريك ، فأوصل سرا الخطط الحربية التى وضعها مجلس الزابث ، وراح الآن يفاخر بعمله هذا ^(٦٩) وفى ٥ مايو ربط روسيا بروسيا فى تحالف دفاعى هجومى . وأصدر تعليماته إلى قائد القوات الروسية المحاربة مع الجيش النمساوى أن يضعها فى خدمة « سيدى الملك » ^(٧٠) ثم ارتدى بزة عسكرية بروسية ، وأمر الجنود المحليين بأن يحذوا حذوه ، ثم أدخل الضبط والربط البروسيين فى الجيش ، ونظم التدريبات العسكرية كل يوم لحاشيته ، وأجبر كل ذكر فى الحاشية على المشاركة فيها دون مراعاة للسن أو النقرس ^(٧١) . وقدم « حرس هولشتين » الخاص به على أفواج العاصمة المعتدة بمكانتها .

ولم يكن الجيش الروسى كارها للسلم ، رلسكن أذهله هجر روسيا لحلفائها الفرنسيين والنمساويين فى عجلة ، وتحليها عن جميع الأقاليم التى ظفرت بها من بروسيا خلال الحرب . وأفزعه أن يذيع بطرس عزمه على تجريد جيش روسى على الدنمرك لاسترداد دوقية شلزنبرج التى أخذتها الدنمرك من أدواق هولشتين ، ومنهم أبو بطرس . وأبان الجنود فى غير لبس إنهم سيرفضون خوض حرب كهذه ، فلما طلب بطرس إلى كيريل رازوموفسكى أن يزحف بجيش على الدنمرك أجابه القائد « يا صاحب الجلالة يجب أولا أن تعطينى جيشا آخر يكره جيشى على الزحف . » ^(٧٢)

وفجأة وجد بطرس نفسه مكروها رغم إصلاحاته الجريئة الممتازة ، كرهه الجيش خائنا لوطنه ، وكرهه الإكليروس لوثرى أو شرامن اللوثرى ، وطالب الأتقان الذين لم يعتقوا بالحرية فى تدمير وصخب ، وسخر منه البلاط ووصفه رجلا أحرق مأفونا . وفوق هذا كله حامت حوله شبهة عامة فى أنه ينوى تطليق كاترين والزواج من خليلته . ^(٧٣) « أن هذه الشابة » (كما يروى كاستيرا) « العاقل من أى موهبة خطاب أو كلام ، المتغطرة فى غباوة .. استطاعت بدهائها أن تحصل من القيصر — تارة بتملقه ، وتارة يتأنيبه ، وتارة حتى بضربه — على تجديد للعهد الذى قطعه لها ... وهو

أن يتزوجها ويبوئها عرش روسيا بدلا من كاترين (٧٤) ولما لعبت برأسه السلطة والخمر عنف في معاملة كاترين ، حتى لقد رماها علانية بالحماقة . (٧٥) كتب البارون دبروتري إلى شوازيل يقول : «إن الإمبراطورة (كاترين) في وضع شديد القسوة ، وهي تعامل بمنتهى الاحتقار . . . ولن يدهشني أنا العليم بشجاعتها وعنفيها إن دفعها هذا إلى نوع من الشطط . . . ولا يألو بعض أصدقائها جهداً في تهديتها ، ولكنهم لا يترددون في المخاطرة بكل شيء في سبيلها أن اقتضى الأمر » (٧٦) .

وكانت سانت بطرسبرج وأرباضها حافلة بأنصار كاترين . أحبا الجيش والحاشية وجماهير الشعب . وكان أخلص أصدقائها في هذه الأيام العvisية ، بعد وصيفاتها وجريجورى أورلوف ، أميرة داشكوف « ليكاترينا رومانوفنا » . ولم تكن هذه السيدة الجريئة المغامرة تتجاوز التاسعة عشرة ، ولكنها كانت ذات مكانة مرموقة في القصر لأنها ابنة أخى المستشار فورونتسوف وأخت خلية بطرس . وكان بطرس في سداجته أو بين كؤوس الخمر قد كشف لها عن نيته في خلع كاترين وإحلال اليزافيتا فورونتسوف محلها على العرش . (٧٧) ونقلت داشكوف النبأ إلى كاترين ، — ورجتها أن تشترك في مؤامرة لتنحية بطرس . ولكن كاترين كانت قد دبرت فعلا مؤامرة مع نيكيتا بانين ، مربى ولدها بولس ، وكيريل رازوموفسكى ، هتمان (زعيم) أوكرانيا ، ونيقولا كورف رئيس الشرطة ، والأخوين أورلوف ، وب . ب . باسيك ، وهو ضابط في فوج على .

وفي ١٤ يونيو أصدر بطرس أمره بالقبض على كاترين ، ثم ألغى الأمر ، ولكنه أمرها بالاعتكاف في بيترهوف ، على اثني عشر ميلا غربى العاصمة . أما بطرس نفسه فخلا بعشيقته في أورانينبوم . وترك تعليمات بأن يعد الجيش نفسه للإبحار إلى الدنمرك ، ووعد بأن يلحق به في يوليو . وفي ٢٧ يونيو قبض على الملازم باسيك لالقاءه خطباً تحط من قدر الإمبراطور . وخشى جريجورى وألكسى أورلوف أن يكره بالتعذيب على الاعتراف بالمؤامرة ، فقرر التصرف فوراً . وعليه ففى الثامن والعشرين ركب ألكسى

في عجلة قاصداً بيترهوف ، وأيقظ كاترين ، وأقنعها بأن تعود معه راكبة إلى سانت بطرسبرج . وفي طريقهما توقفا عند ثكنات فوج اسماعيلوفسكى ، واستدعى الجند على قراع الطبول ، وناشدتهم كاترين أن ينقذوها من تهديدات الأباطور ، فأقسموا على حمايتها ، « واندفعوا ليقبلوا يدي وقدمي ، وهذب ثوبي ، وهم يدعوني مخلصتهم » (في رواية كاترين ليونيا فوفسكى^(٧٨)) — لأنهم علموا أنها لن ترسلهم إلى الدنمرك . ومضت إلى كتدرائية كازن في حراسة فوجين والأخوين أورلوف ، وهناك نردى بها حاكماً مطلقاً لروسيا . ولحقت بها فرقة بريويرازنسكى هناك ، وتوسل رجالها إليها « أن — تغفر لنا أننا آخر من جاء »^(٧٩) ثم انضم إلى صفوفهم حرس الخيالة ، وصحبها أربعة عشر ألف جندي إلى القصر الشتوي ، وهناك أعلن مجمع الكنيسة ، ومجلس الشيوخ رسمياً خلع بطرس وتولية كاترين . واحتج بعض ذوى المقامات الرفيعة ، ولكن الجيش أرهبهم ، فأقسموا يمين الولاء للإمبراطورة .

وارتدت زى نقيب في حرس الخيالة ، وركبت على رأس جندها إلى بيترهوف . وكان بطرس قد ذهب إلى هناك صبيحة ذلك اليوم ليراها ، فلما علم بالثورة فر إلى كرونستات . وعرض عليه مونيش أن يصحبه إلى بومرانيا ويجند جيشاً ليرده إلى العرش ، ولكن بطرس عاد إلى أورانينباوم وهو عاجز عن اتخاذ القرار . فلما اقتربت قوات كاترين أنفق يوماً في التماس حل وسط ، ثم وقع على اعتزاله العرش في ٢٩ يونيو (حسب التقويم القديم) ؛ قال فردريك : « لقد سمح بأن يطاح به كما يسمح طفل بأن يرسل إلى فراشه »^(٨٠) . وسجن في روبشا ، على خمسة عشر ميلاً من سانت بطرسبرج . واتمس من كاترين أن تسمح له بالاحتفاظ بخادمه الزنيجي ، وكلبه الصغير ، وكمائه ، وخليلته . فأجيبته طلباته كلها إلا آخرها . ونفيت اليزافيتا فورونتسوفاً إلى موسكو : ثم اختفت من صحائف التاريخ إلى الأبد .

الفصل الثامن عشر

كاترين الكبرى

١٧٦٢ - ١٧٩٦

١ - الحاكمة المطلقة

انتصرت كاترين ، ولكنها كانت عرضة لكل المخاطر التي ينطوي عليها التغيير الفوضوي . فلكني تكافى الجنود الذين حرسوها في سعيها الى السلطة أمرت حانات العاصمة بأن تقدم لهم الجعة والفودكا مجاناً ، وكانت النتيجة السكر انتشار بينهم انتشاراً كاد يقوض الأساس الحربي لقوتها . ففي منتصف ليلة ٢٩ - ٣٠ يونيو ، بينما كانت كاترين مستغرقة في أول نوم لها خلال ثمان وأربعين ساعة ، أيقظها ضابط وقال لها ، « إن رجالنا مخمورون جداً . وقد صرح فيهم فارس من الهوصار » إلى السلاح ! أن ثلاثين ألف بروسى قادمون لاختطاف أمنا (كاترين) ! فتقلدوا سلاحهم وهم قادمون ليظلمثنوا عليك » . وارتدت كاترين ثيابها ، وخرجت ، ونفت إشاعة قدوم البروسيين ، وأقنعت محاربيها بالمضى إلى فراشهم (١) .

ثم عرضها ابنها بولس للخطر . وقد بلغ السنة الثامنة من عمره وذلك أن بنين ، وشرافا كثيرين ، ومعظم الاكليروس ، أحسوا أن الشرعية تقضى بتتويج بولس إمبراطورا وتعيين كاترين وصية عليه ، ولكنها خشيت أن إجراء كهذا يلقي بالحكم في أيدي أوجركيه ارستقراطية ستسعى إلى خلعها أو التسلب عليها . وأعلنت رسميا أن بولس وارث للعرش ، ولكن مؤيديه واصلوا إثارة المشاعر ، وشب الابن على كراهية أمه لأنها سلبته حقه في التاج .

وحين ذاع نبال الانقلاب في أرجاء روسيا تبين أن الرأي العام خارج العاصمة مناوئاً لكاترين . ذلك أن العاصمة عرفت عيوب بطرس مباشرة ، وأجمعت عموماً على عدم أهليته للحكم ، أما الشعب الروسي خارج سانت بطرسبرج فقد عرفه من التدابير السمحة التي أضفت على حكمته شيئاً من السمو . فجماهير موسكو ، البعيدة بعداً لا يسمح لها بالإحساس بفتنة كاترين ، ظلت معارضة في عناد اتولياها العرش . وحين أصطحبت كاترين بولس إلى موسكو (معقل التقاليد السنية) صفق له أهلها بحرارة ، أما كاترين فكان لقاءهم لها فاتراً ، وندد كثير من أفواج الجيش في الأقاليم بخنود بطرسبرج غاصبين للسلطة القومية .

ولا علم لنا إن كان العطف الواسع على بطرس هو أحد العوامل في موته . ذلك أن القيصر المخلوع الذي تحطمت روحه راح يرسل الإلتماسات الدليلة لزوجته ويقول لها « ارحمني وأعطيني سلواى الوحيدة » - يعنى خليلته - ويرجوها أن تسمح له بالعودة إلى أقاربه في هولشتين . ولكنه بدلاً من أن يتلقى هذا العزاء حبس في حجرة واحدة وفرضت عليه رقابة دائمة . وكان الكسبي أورلوف ، رئيس حراسة ، يلعب الورق معه ويقرضه النقود . (٢) وفي ٦ يوليو ١٩٦٢ (حسب التقويم الجديد) ، ركب الكسبي في عجلة إلى سانت بطرسبرج وأنبأ كاترين بأن بطرس تشاجر معه ومع غيره من الأنباغ ومات في العراق الذى أفصت إليه المشاجرة . أما عن كيفية موته ، فالتاريخ لا يعرف غير الشائعات التى لم تثبت صحة واحدة منها : قيل إنه سمم أو خنق (٣) ، وإنه ضرب حتى مات (٤) ، وإنه مات إثر «التهاب الأمعاء والسكتة الدماغية» (٥) وينتهى آخر من أرخ لهذه الحقبة إلى أن «تفاصيل القتل لم يحط عنها قط اللثام تماماً ، والدور الذى لعبته فيه كاترين يظل غير مؤكد .» (٦) ومن غير المحتمل أن تكون كاترين قد أمرت بهذه الفعل ، (٧) ولكنها لم تعاقب أحداً على ارتكابها ، وأخفتها عن الجماهير يوماً ، وقضت يومين في بكاء ظاهر ، ثم سلمت بالأمر الواقع . وقد أدانتها أوربا كلها تقريباً بالقتل ، أما فردريك الأكبر الذى خسر الكثير بخلع بطرس فقد برأ ساحتها ، « كانت الإمبراطورة جاهلة تماماً بهذه الجريمة ، وقد سمعت بها في يأس

لم تصطنعه ، لأنها توقعت بحق ذلك الحكم الذى يصدره عليها اليوم كل إنسان . » ^(٨) ووافق فولتير فردريك . أما بولس ابن كاترين ، فبعد أن قرأ الأوراق الخاصة التى خلفتها أمه عند ذاتها ، خلص إلى أن ألكسى قتل بطرس دون أى أمر أو طلب من كاترين . ^(٩)

وخلقت الحادثة مشاكل لكاترين كما حلت مشاكل أخرى : فقد أوجت بسلسلة متعاقبة من المؤامرات لخلعها ، وتركها فى انزعاج متصل وخطر داهم وسط فوضى الحكم التى اكتنفها . كتبت عن هذه الحقبة فيما بعد فقالت : « ظل مجلس الشيوخ متبلدا يصم أذنيه عن شئون الدولة . وبلغت كراسى التشريع درجة من الفساد والتفسيخ كادت تطمس معالمها . » ^(١٠) وكانت روسيا قد خرجت لتوها من حرب انتصرت فيها ولكنها كلفتها ثمنا فادحا ، فكانت الخزانة مدينة بثلاثة عشر مليون روبل ، وتشكو عجزا بلغ سبعة ملايين روبل فى العام ، وأفتضح حال المالية من رفض كبار المصرفيين الهولنديين إقراض المال لروسيا . وتأخرت رواتب الجند شهورا كثيرة . وبلغ من سوء نظام الجيش أن كاترين خشيت أن يغزو تتر جنوبي روسيا إقليم أوكرانيا فى أية لحظة . أما البلاط فقد اضطرب بالمؤامرات وأضدادها ، وبالحوف من فقدان مناصب الكسب أو السلطة ، أو الأمل فى الظفر بها . وبعد سقوط بطرس بقليل ذهب السفير الروسى إلى أنه « من المؤكد أن حكم الإمبراطورة كاترين لن يكون أكثر من فاصل قصير فى تاريخ العالم » ^(١١) . وكان هذا من قبيل التمتي ، لأن فردريك حزن على موت حليفه العاهد لشخصه . وأخذت كاترين تلغى الأوامر التى أصدرها بطرس لمساعدة فردريك .

وحاولت الإمبراطورة أن تهدئ معارضة رجال الدين بتأجيل تنفيذ المرسوم الذى أصدره بطرس بتأميم أراضى الكنيسة ، ثم ادفأت صدور أنصارها بما خلعتة عليهم من مكافآت سخية : فنفتحت جريجورى أورلوف بخمسين ألف روبل ، وفتح الطريق أمامه إلى الفراش الملكى . وأعيد بستوزيف من منفاه ، ورد إلى حياة مريحة ولكن دون أن يرد إلى منصبه .

ثم ترفقت بمن عارضوها من قبل . وقدم مونيخ فروض الطاعة والولاء فصفحت عنه فوراً وعينته حاكماً على استونيا ولفونيا ، وربما أعانتها هذه التدابير على الثبات فوق عرشها المهتر ، ولكن أهم العوامل التي كانت عوناً لها هي شجاعته وذكائها . ذلك أن سبعة عشر عاماً قضتها زوجة مهملة لوريث العرش علمتها رغم حيويتها الشابة قدراً من الصبر والحكمة وضبط النفس وخداع الحكم . وقررت الآن ، في تحد لنصيحة بانين ، وارتياح في ولاء مجلس الشيوخ ونزاهته وكفايته ، أن تركز الحكم كله في شخصها ، وأن تواجه ملوك أوروبا المستبدين — باستبدادية تنافس جمع فردريك بين العسكرية والفلسفة . ولم تتخذ لها زوجاً . وإذا كان النبلاء يسيطرون على مجلس الشيوخ ، فقد كان الخيار بين أوتقراطية الملكة والاستبدادية المجزأة للسادة الاقطاعيين ، وهو بالضبط الخيار الذي واجهه ريشليو في فرنسا القرن السابع عشر .

وأحاطت كاترين نفسها بالكفاءة من الرجال ، واكتسبت ولاءهم ، بل حبهم في كثير من الحالات ، ألزمتهم للعمل الشاق ، ولكنها أجزلت لهم العطاء ، ولعلمها غالت في مكافآتهم ، فقد أصبح بهاء بلاطها وبلذخه عبثاً كبيراً على مواردها . وكان بلاطاً غير متجانس ، مؤصلاً في البربرية ومصقولاً بالثقافة الفرنسية ، ومحكوماً بامرأة ألمانية تفوق مساعدتها تعليمياً وذكاءً . وقد أثمرت مكافآتها السخية للخدمات الاستثنائية المنافسة دون أن تكبح جماح الفساد . فكان الكثيرون من بطانيتها يأخذون الرشا من الحكومات الأجنبية ، واتخذ بعضهم موقف الحياد بقبول الرشا من طرفين متعارضين . وفي ١٧٦٢ أذاعت كاترين على الأمة إعرافاً غير عادى ، فقالت :

« أننا نعده واجباً أساسياً وضرورياً أن نعلن للشعب ، بحسرة صادقة ، أننا سمعنا منذ زمن مديد ، وأنها الآن نرى في أفعال ظاهرة لالبيان ، إلى أى درجة استشرى الفساد في امبراطوريتنا ، بحيث لا يكاد يوجد منصب في الحكومة . . . لا تعدو فيه على العدالة عدوى هذا الوباء . فإذا طلب

إنسان وظيفه كان عليه أن يدفع ثمنها ، وإذا شاء إنسان أن يدفع عن نفسه شر الافتراء ، فبالمال ، وإذا أراد أن يتهم جاره زورا وبهتاناً ففي استطاعته بالهدايا أن يضمن نجاح خططه الشريرة » (١٢) .

وكان بعض المؤامرات التي تكاثرت من حولها يستهدف إحلال إيفان السادس محلها . وكان قد قضى الآن رهين السجن إحدى وعشرين سنة بعد أن خلعه انقلاب ديسمبر ١٧٤١ . ففي سبتمبر ١٧٦٢ أفصح فولتير عن خوفاً من أن « إيفان قد يطيح بمن أحسنت إلينا » (١٣) ، وكتب يقول : « أخشى أن تقتل إمبراطورتنا العزيزة . » (١٤) فزارت كاترين إيفان ، ووجدته « إنساناً مهملاً مهجوراً تردى في العتمة نتيجة السجن سنين طويلة » (١٥) ثم تركت لحراسه أوامراً بأنه لو بذلت أية محاولة لم تصرح بها هي نفسها للأفراج عنه ، فعليهم أن يقتلوا إيفان خيراً من أن يسلموه . وفي منتصف ليلة ٦-٥ يوليو ١٧٦٤ ظهر ضابط في الجيش يدعى فاسيلي ميروفتش على باب السجن يحمل ورقة فحواها أنها أمر من مجلس الشيوخ بتسليم إيفان له . ثم مضى يعينه بعض من الجند وطرق باب الزنازة التي كان حارسان ينامان فيها مع إيفان ، وطالب بالدخول . فلما رفض طلبه أمر بإحضار مدفع لتخطيم الباب . فلما سمع الحارسان الأمر قتلوا إيفان . وقبض على ميروفتش وأعلنت وثيقة عثر عليها في جيبه أن كاترين خلعت ، وإن إيفان السادس أصبح منذ الآن قيصر روسيا . ورفض عند محاولته أن يفرض بأسماء شركائه . وكان جزاؤه الإعدام . واتهم الرأي العام عموماً كاترين بقتل إيفان . (١٦)

واتصلت المؤامرات . ففي ١٧٦٨ أكد ضابط يدعى تشوجلوكوف أنه موكل من الله بالانتقام لمقتل بطرس الثالث ، فسلح بخنجر طويل ، ووجد طريقه إلى القصر الملكي ، واختبأ عند منعطف دهليز ألقت كاترين أن تمر فيه . وسمع جرينجورى أورلوف بخبر المؤامرة ، فقبض على تشوجلوكوف ، الذي اعترف متأخراً بأنه ينوى قتل الإمبراطورة . وكان جزاؤه ، النفي إلى سيبيريا .

٢ - العاشقة

أحاط بكاترين نبلاء لا تستطيع أن تثق بهم ، ولاحقتها الدسائس التي أحدثت الاضطراب في الادارة ، لذلك اخترعت ضرباً جديداً من الحكم جعلت فيه عشاقها المتعاقبين كبار إدارى الحكومة . فكان كل عشيق خلال صعود نجمه كبير وزرائها ، وأضافت شخصها إلى مكافأة المنصب ، ولكنها اقتضت كفاءة الخدمة نظير ذلك . كتب ماسون (وهو واحد من أعداء كاترين الفرنسيين الكثيرين) يقول « لم تكن وظيفة واحدة من وظائف الحكومة كلها لا تؤدي فيها الواجبات بمنهى التدقيق . . وربما لم يكن هناك أى منصب لم تبد فيه الامبراطورة اختياراً وتمييزاً أكثر من غيره . وفي اعتقادي أنه لم تقع حالة تبين فيها أن المنصب شغله شخص غير كفء له . » (١٧) ومن الخطأ أن نكون فكّرنا عن كاترين أنها امرأة فاجرة منغمسة في الذات ، فقد راعت جميع مظاهر اللياقة ، ولم تسمح لنفسها قط بالدخول في أحاديث نابية ، ولا سمحت بها في حضرتها . (١٨) وقد بدلت لمعظم عشاقها الود الود الرقيق ، ورسائلها إلى بومكين تم على إخلاص يكاد يكون صبيانياً ، وقد أصابها موت لانسكوى بحزن مدمر .

وكانت تستعين بالفن والعلم معاً في مهمة اختيار صاحب الخطوة الجديد . فهي تنشد رجالاً يجمعون بين القدرة السياسية والجلسدية ، كانت تدعو المرشح لتناول العشاء ، وتختبر عاداته وعقله ، فإذا جاز هذا الإمتحان الدقيق فحصبه بأمرها طبيب القصر ، فإذا خرج من هذا الاختبار سليماً عينته ياورا لها ، وأعطته راتباً مغرياً ، وسمحت له بمعاشرتها . وإذا كانت مجردة تماماً من الإيمان الدينى ، فإنها لم تسمح لأى من الأخلاقيات المسيحية بأن تتدخل في طريقها الفضة في اختيار الوزراء . وقد وضعت الأمر لبقولها سالتيكوف فقالت : « إننى أخدم الامبراطورة بتربيتى الشبان الأكفاء » (١٩) وكانت الخزانة تتكلف غالباً في مكافأة هؤلاء الموظفين - وإن كانت التكلفة على الأرجح أقل كثيراً مما كانت تنفقه فرنسا على خيلسات لويس

الخامس عشر ومحظياته . وفي تقدير كاستيرا أن الاخوة الخمسة أورلوف تسلموا سبعة عشر مليون روبل ، وبوتمكين خمسين مليوناً ، ولانسكوى ١٠٠٠ ٢٦٠ ٧ . وقد ارتدت بعض هذه النفقة إلى روسيا في صورة الخدمة الفعلية . فقد أضاف بوتمكين مثلاً ، وهو أكثر عشاقها حظوة وتديلاً ، أقاليم درت على الامبراطورية الربيع الوفير .

ولكن لم كانت تغير وتبدل في عشاقها بهذه الكثرة ، حتى انها اتخذت منهم واحداً وعشرين في أربعين سنة ؟ لأن بعضهم أخفق في واجب أو أكثر من واجباتهم المزدوجة ، وبعضهم تبين عدم وفائه : وبعضهم مست الحاجة إليه في مواقع بعيدة . من ذلك أن أحدهم ، ويدعى ريمسكى كورساكوف ، فاجأته في مسكنها بين ذراعى وصيفة شرفها ، فاكثفت كاترين بطرده ، وتركها آخر يدعى مامونوف لأنه آثر عليها رفيقة أكثر شبهاً . وأقاربه الامبراطورة دون أن تنتقم منه . (٢١) يقول ماسون ، ومن الخصائص الشديدة الغريبة في خلق كاترين أن أحداً من المقرئين إليها لم يجلب على رأسه كرهها أو انتقامها ، وإن أساء إليها العديسون منهم ، ولم يحدن تركهم مناصبهم بسببها . ولم ير الناس قط أحدهم ينزل به العقاب . . . وفي هذا تبدو كاترين أسوأ من جميع النساء . (٢٢)

بعدها تولى كاترين العرش احتفظ جرينجورى أوزلوفت بمكانته المرموقة عشر سنوات ، وقد أطرته كاترين في حب فقالت :

« إن للكثير جرينجورى عقل النسر ، فانا لم ألق في حياتي رجلاً أوفى فهما أدق والطف لأى أمر يضطلع به أو حتى يقترح عليه ... ونزاهته تعصمه من أى تهجم عليه . . . ومن أسف أن التعليم لم يتح له أى فرصة لصقل سجاياه ومراهبه ، وهى فى الحق فائقة ، ولكن حياته العشوائية تركتها كالأرض المراحة . » (٢٣)

ثم كتبت في موضع آخر ، أن هذا الرجل كان خليقاً بأن يظل (عشيقها وأثيرها) إلى النهاية لولا أنه كان أول من مل صاحبه . (٢٤)

وقد جاهد جريجورى لتحرير الأتقان ، واقترح تحرير المسيحيين من ربة العثمانيين ، وأحسن البلاء فى الحروب ، وأغضب الحاشية بكبريائه وغطرسته وراغ من ذراعى كاترين . وقد أقصى فى ١٧٧٢ إلى حيث الثراء والدمعة فى ضياعه . أما أخوه الكسى فقد أصبح أمير البحر الأول ، وقاد الأسطول الروسى إلى النصر على الأتراك ، وظل محتفظاً بالخطوة طوال العهد ، وعمر حتى قاد أفواجه ضد نابليون .

وحل محل جريجورى فى حظوته فى فائق الحسن مغمور يدعى الكسيس فاسيلتشيك ، دسه حزب من أحزاب البلاط على كاترين ليصرف فكرها عن أورلوف المنى ، ولكنها وجدته غير كفء لافى السياسة ولا فى غير السياسة ، فأحلت مكانه (١٧٧٤) جريجورى ألكسندروفتش بوتكين ، وكان ضابطاً فى حرس الخيالة ، الذين ارتدت زيم (١٧٦٢) لنقودهم ضد بطرس ، فلما لاحظ بوتكين أن سيفها تنقصه الشراية التى يعتز بلبسها الحرس ، انزع شرايته من مقبض سيفه وركب فى جرة خارج صفوف الجيش ، وقدم لها هذا الوسام ، فقبلته ، وأغتفرت له جرأته ، وأعجبت بوجهه الوسيم وجسمه المفتول . وكان أبوه - وهو كولونيل متقاعد من صغار النبلاء - قد قرر أن يكون ابنه قسيساً ، وتلقى بوتكين قدراً لا يستهان به من التعلم فى التاريخ والدراسات الكلاسيكية واللاهوت ، وأثبت تفوقه فى جامعة موسكو . ولكنه وجد حياة الجيش أنسب لمزاجه الجموح الخصب الخيال من المدرسة اللاهوتية . وقد سحره بالطبع ما اجتماع لكاترين من جمال وسلطان ، فقال عنها إنها إذا دخلت حجرة مظلمة أنارتها» (٢٤) .

وفى حرب ١٧٦٨ قاد فوج خيالته ببسالة مستهترة حملت كاترين على أن تبعث إليه بإطراء شخصى . فلما عاد إلى سانت بطرسبرج أكلته الغيرة من الإخوة أورلوف وفاسيلتشيك . وتشاجر مع الأخوة أورلوف ، وفى معركة معهم فقد إحدى عينيه (٢٥) . ولكى يخرج الأمباطورة من عقاه - أو يدخل نفسه فى عقائها - ترك البلاط ، واعتزل فى ضاحية ، ودرس اللاهوت ، وأطلق شعره ولحيته ، وأعلن أنه سيترهب ، فرق له قلب كاترين ، وبعثت إليه تقول أنها تقدره تقديراً

تقديرًا كبيراً ، ودعته ليعود . فخلق لحيته ، وهذب شعره ، وارتدى بزته العسكرية ، وظهر في البلاط ، واهتز طرباً لبسمات الأمباطورة . وحين افتقدت كاترين الكفاية في فاسيلتشيك فتحت ذراعها ليو تمكين ، وكان يومها في الرابعة والعشرين ، في أوج عنفوانه وفتنته . وسرعان ما هامت به هيامه بها ، وراحت تحبوه بوصلها ، وتغدق عليه الروبلات ، والأراضي ، والأقنان ، وحين كان يغيب كانت ترسل إليه رسائل غرامية بريئة من مظهر الجلالة .

« ما أعجب حالي ! كل شيء اعتدت أن أسخر منه وقع لي الآن ، لأن حبي لك أعماني . فالعواطف التي ظننتها بلهاء مفرطة غير طبيعية أمارسها أنا نفسي الآن . انني لا أقوى على ابعاد عيني الغبيتين عنك . . . »

« لا نستطيع الالتقاء إلا خلال الأيام الثلاثة القادمة ، فبعدها يحل أول أسبوع في الصوم الكبير ، المخصص للصلاة والصيام . وسيكون اللقاء (ثمًا كبيراً ، أن مجرد التفكير في هذا البعد يبكي) » (٢٦)

وعرض عليها الزواج ، ويعتقد بعض المؤرخين أنهما تزوجا سرّاً ، وفي خطابات عدة تدعوه « زوجي الحبيب » وتتكلم عن نفسها فتقول « زوجتك » (٢٧) ، رغم أننا يجب ألا نستخلص الحقيقة أبداً من مجرد الألفاظ . ويبدو أنه ملها ، ربما لهيامها الجموح به ، وتبين أن صوت المغامرة أقوى لديه من الدعوة للهجوم على قلعة فرغ من فتحها . وقد ظل نفوذه عليها عظيماً حتى أن معظم المقربين الذين خلفوه لم يخلفوه إلا بعد الحصول على موافقته .

وهذا ما حدث لبيوتر زافودوفسكي ، الذي استدلفاً في خلدتها من ١٧٧٦ إلى ١٧٧٧ ، ولسيمون زوريتش (١٧٧٧ - ١٧٧٨) ، وإيفان رمسكي - كورساكوف (١٧٧٨ - ١٧٨٠) . ولم تشعر بغرام يملك عليها لها مرة أخرى إلا حين اتخذت ألكسيس لانسكوى (١٧٨٠) عشيقاً . فهذا الفتى لم يكن وسيماً كسيماً مثقفاً فحسب ، بل كان صاحب حس شعري (م ه قصة الحضارة ، ج ٤١)

مرهف وحب إنسانى للخير ، وصديقاً ذكياً للآداب والفنون . « لقد بدا أن الجميع يشاركون الملكة فى ولعها به » (٢٨) . وفجأة أصيب بالأم لاتطاق فى الأدهاء ، واشتبهت الحاشية فى أن يكون بوتمكنين قد دس له السم ، ثم مات رغم كل جهود الأطباء ورعاية كاترين المخلصة ، ولفظ أنفاسه الأخيرة بين ذراعها . وقضت ثلاثة أيام فى عزلة وحزن . ونحن نسمع المرأة من خلف الحاكمة — والقلب من خلف التاريخ — فى رسالة كتبها فى ٢ يوليو ١٧٨٤ .

« خيل إلى أننى هالكة بعد هذه الخسارة التى لاتعوض . . . لقد عللت نفسى بأنه سيكون العون لى فى شيخونحتى . كان مجاملاً ، وتعلم الكثير ، واكتسب كل ميولى . . . كان فى أقوم على تربيته ، وكان شاكراً ، رقيقاً ، طيباً » . . . ان لانسكوى لم يعد له وجود . . . وباتت حجيرتى وكراً فارغاً بعد أن كانت تفيض إشراقاً وبهجة ، ولا قدرة لى إلا على جر نفسى إليها كأننى طيف من الأطياف . . لا أستطيع النظر إلى وجه إنسان دون أن يخنق صوتى . . . لا أستطيع أن أذوق النوم ولا الطعام . . . ولست أدرى ماذا يكون مصيرى » (٢٩) .

وظلت عاماً تحرم نفسها من العشاق ، وأخيراً استسلمت لألكسيس إرمولوف (١٧٨٥ — ١٧٨٦) ، الذى ساء بوتمكنين كثيراً فاستعيض عنه سريعاً بالكسيس مامونوف . ولكن سرعان ما زهد ألكسيس فى خليلته ذات السبعة والخمسين . واستأذن فى الزواج من الأميرة شرباتوف ، واحتفلت كاترين بالعروسين فى زفاف رسمى بالبلاط ، ثم صرفتهما محملين بالهدايا (١٧٨٩) (٣١) . وآخر القائمة هو بلاتون زوبوف (٨٩ — ١٧٩٦) وكان ملازماً فى حرس الخيالة ، مفتول العضل دمى الطباع . وكانت كاترين شاكراً له خدماته ، فاضطلعت بالإشراف على تعليمه ، وانتهت معاملته معاملة الأم لابنها . وقد لازمها حتى مماتها .

٣ — الفيلسوفة

بين الحب والحرب ، وسياسة الدولة والدبلوماسية ، وجدت هذه المرأة المدهشة وقتاً للفلسفة . وقد تكون فكرة عن سمو المكانة التى بلغتها جماعة

« الفلاسفة » الفرنسيين حين نرى أكفأ حاكمين من حكام القرن الثامن عشر يعترضان بتبادل الرسائل معهم ويتنافسان على الظفر بشنائهم .

وكانت كاترين قبل ولايتها العرش بزمان طويل تستطيب أسلوب فولتير وفكاهته الذكية وعباراته المجردة من التوقير ، وتحلم بأن تكون ذلك الحاكم « المستبد المستنير » الذى راود أحلامه . ولا بد أنها أعجبت بديدرو أيضاً ، لأنها فى سبتمبر ١٧٦٢ عرضت أن تطبع الموسوعة فى سانت بطرسبرج إذا أمعنت الحكومة الفرنسية فى حظرها . ولم يبق من الرسائل التى كتبها لفولتير قبل ١٧٦٥ إلا واحدة ، وقد ردت على أبيات أرسلها لها فى أكتوبر ١٧٦٣ :

« لأول مرة آسف على أننى لست شاعرة ، وأن يكون ردى على أبياتك بالضرورة نثراً لا شعراً . ولكنى أود أن أقول لك اننى منذ ١٧٤٦ مدينة بأعظم الفضل لك . فقبل تلك الحقبة لم أكن أقرأ شيئاً غير الروايات ، ولكن حدث أن وقعت كتبك فى يدي مصادفة ، وبعدها لم أكف عن قراءتها ، ولا رغبت فى قراءة كتب أقل جودة فى الكتابة أو أقل ثقيفاً . . . وهكذا لا أفأنا أعود إلى خالق ذوقى عودتى إلى أعماق أسباب تسليتى ، وأؤكد لك ياسيدى أننى إن كنت قد حصلت أى معرفة فالفضل فيها لك . وأنا الآن أقرأ مقالك « فى التاريخ العام » ، وبودى لوحفظت كل صفحة منه عن ظهر قلب » (٣١) .

وظلت كاترين طيلة حياتها ، أو حتى مماتهم ، تراسل فولتير وديدرو ودالمير ومدام جوفران وجريم وكثيرين غيرهم من وجوه الفرنسيين . وأسهمت فى المال الذى جمعه فولتير لقضية كالاس وسيرفانس وقد أسلفنا القول أنها أمرت باستيراد شحنات كبيرة من الساعات من فرنیه ، ومن الجوارب التى صنعها عمال فولتير ، وأحياناً فولتير نفسه (ان جاز لنا أن نصدق الثعلب العجوز) . وكان من بواعث فخره أن الرؤوس المتوجة أغدقت عليه أسباب التكريم ، وقد كافأ كاترين بأن أصبح مندوبها الصحفى فى فرنسا . وقد برأ ساحتها من الاشتراك فى جريمة قتل بطرس الثالث ، وكتب يقول « أعلم أن

كاترين تلومها بعض الشائعات التافهة حول زوجها ، ولكن هذه أمور عائلية لا شأن لى بها » (٣٢) . وناشد أصحابه أن يؤيدوه فى الدفاع عن كاترين ، فكتب لى دارجنتال يقول :

« هناك صنيع آخر أرجو أن تسديه لى ، وهو يخص كاترين . يجب أن ندعم سمعتها فى باريس بين أفاضل القوم ووجهائهم ... وعندى أسباب قوية للاعتقاد بأن الدوقين براسلان وشوازيل لايعتبرانها أكثر نساء العالم نقاء ضمير ، ومع ذلك فأنا عليم ... بأنه لم يكن لها يد فى موت زوجها الكبير . . ثم لأنه كان أكبر أحق تربع على عرش ... ونحن مدينون بالفضل لكاترين لأنها أوتيت الشجاعة لخلع زوجها ، وهى تسوس ملكها بحكمة واعتزاز ، ويدعى أن نبارك رأساً متوجاً ينشر التسامح الدينى فى أرجاء ١٣٥ درجة طولية ... إذن أرجوك أن تذكر كاترين بخير كثير (٣٣) .

أما مدام دو دفان فقد رأت أن تبرة الأمبراطورة هذه مخزية جداً ، كذلك أدانتها مدام دشوازيل وهوراس ولبول (٣٤) . وما كان يتوقع من براسلان وشوازيل اللذين يوجهان علاقات فرنسا الخارجية أن يعجبا بإمبراطورة تعارض النفوذ الفرنسى فى بولنده وتتحدها فى تركيا . وكانت الشكوك تساور فولتير ذاته بن حين وحين . فلما سمع بمصرع إيفان السادس ، سلم فى حزن : « أن علينا أن نخفف قليلا من غلوائنا فى التحمس » لكاترين (٣٥) . ولكنه ما لبث أن أطرى برناجها التشريعى ، ورعايتها للفنون ، وحملتها لنشر الحرية الدينية فى بولنده ، وخلع عليها الآن (١٨ مايو ١٧٦٧) لقب « سمراميس الشمال » . وحين خاضت الحرب ضد تركيا قطع هجومه على الكنيسة الكاثوليكية I'imfame ليتمدح حملتها الصليبية لإنقاذ المسيحيين من المسلمين .

أما ديدرو فقد استهواه بالمثل ذلك الجلال المتربع على العرش ، وكان له فى ذلك مبررات قوية . ذلك أن كاترين سمعت أنه ينوى بيع مكتبته ليجمع مهرآ لابنته ، فأصدرت تعليماتها لوكيلها الباريسى بأن يشتريها بأى ثمن يطلبه ديدرو ، فطلب ستة عشر ألف جنيه وقبضها . ثم رجعت ديدرو أن يحتفظ

بالكتب حتى مماته ، وأن يكون حارسها على المكتبة نظير راتب قدره ألف جنيه في العام ، وزادت بأن دفعت راتبه مقدماً عن خمسة وعشرين عاماً . وأصبح ديدرو بين عشية وضحاها رجلاً غنياً ومخامياً يدافع عن كاترين . فلما دعت لزيارتها لم يستطع أن يرفض . قال « يجب أن يرى الإنسان امرأة كهذه ولو مرة في العمر » (٣٦) .

وبعد أن دبر شئون المال لزوجته وابنته خرج وهو في الستين (٣٧ يونيو ١٧٧٣) في الرحلة الطويلة الشاقة إلى سانت بطرسبرج . ولبت شهرين في لاهاي يرشف حلوة الشهرة على مهل ، ثم واصل الرحلة بطريق درسدن وليفزج ، وحرص على أن يتجنب برلين وفردريك الذي كان قد أبدى عنه بعض الملاحظات الشائكة . وأصيب مرتين خلال الرحلة بالمغص لإصابته عينية ، ثم وصل إلى سانت بطرسبرج في التاسع من أكتوبر ، واستقبلته كاترين في العاشر منه . كتب يقول « ليس هناك من يعرف خيراً منها فن رفع الكلفة عن محادثتها » (٣٧) . ودعته للتكلم في صراحة ، « كما يتكلم رجل لرجل » . ففعل ، وأوماً إيماءاته على عادته ، وأكد نقاطه بصفع فخذه الإمبراطورة . كتبت كاترين لمدام جوفران تقول « ان ديدرو هذا رجل غريب الأطوار . فأنا أخرج من لقاءاتي معه بفخذهين مرضوتين سوداوين تماماً . وقد اضطرت إلى وضع منضدة بيننا وقاية لنفسى ولإعضائي » (٣٨) .

وقد حاول فترة أن يلعب دور الدبلوماسي كما حاول فولتير مع فردريك ، وأن يصرف روسيا عن تحالفها مع النمسا وبروسيا إلى تحالف مع فرنسا (٣٩) ؛ ولكنها سرعان ما صرفته إلى موضوعات أقرب إلى صناعته . وأخبرها في شيء من التفصيل كيف يمكن أن تحول روسيا إلى بلد مثالي ، واستمعت إليه جذابة ، ولكنها ظلت على تشككها . وقد استعادت فيما بعد هذه الأحاديث في رسالة كتبتها للكونت لوى --- فليب دسيجور . قالت :

« تحدثت معه كثيراً ومراراً ، ولكن بفضول أكثر من الفائدة . ولو صدقته لانقلب كل شيء في مملكتي ، فالتشريع والإدارة والمالية - كلها

كانت تنقلب رأساً على عقب لتفسح مجالاً لنظريات غير عملية . . . ثم قلت له في صراحة : « يا ميسيو ديدرو ، لقد أصغيت بمنتهى اللذة لكل ما أوحى به فكرك اللامع . . أن المرء ، بكل مبادئك السامية ، قد يؤلف كتباً رائعة ، ولكنه يخسر في تجارته . . أنك تشتغل على الورق ، الذي يتحمل كل شيء . . أما أنا ، الامبراطورة المسكينة ، فأشتغل على جلد البشر ، وهو جلد سريع التهييج حساس على نحو مختلف » . . . وبعدها قصر كلامه على الأدب ^(٤١) . وحين وقعت على مذكرات كان قد كتبها « بتعليمات صاحبة الجلالة الامبراطورة . . لوضع القوانين » وصفقتها (بعد وفاته) بأنها « محض هذيان ، لا أثر فيه لمعرفة بالحقائق ولا لتدبير ولا لنظر ثاقب » ^(٤٢) . ومع ذلك استمتعت بحديثه المفعم حيوية ، وكانت تبادله الأحاديث كل يوم تقريباً خلال مقامه الطويل (*) .

وبعد أن أنفق ديدرو خمسة أشهر من البهجة الغامرة في صحبتها ، والتعب في بلاطها ، نوى الرحيل إلى أرض الوطن . فأمرت كاترين بصنع عربة خاصة له يستطيع أن يتكئ فيها مستريحاً . وسألته أى الهدايا ترسلها إليه فقال لا شيء ، ولكنه ذكرها بأنها لم تف بوعدها أن ترد له نفقات رحلته ، وقد قدرها بألف وخمسمائة روبل ، فنفحته بثلاثة آلاف وبخاتم ثمين ، وعينت ضابطاً ليرافقه حتى لاهاى . فلما عاد إلى باريس أثنى عليها ثناء الشكر والعرفان .

ولم تحاول كاترين الاتصال بروسو ، الذى كان نقيضها إلى حد مؤلم في الطبع والأفكار ، ولكنها صادقت جريم ، لأنها عرفت أن صحيفته « الرسائل الأدبية » تصل إلى أيدي الأوروبيين ذوى النفوذ . واتخذ أول خطوة بعرضه (١٧٦٤) أن يوافيها برسائله الدورية ، فوافقت ونقدته ألفاً وخمسمائة روبل في السنة . وقد رآها أول مرة حين ذهب إلى سانت بغار سبرج (١٧٧٣) في بطانة أمير هسي — دار مشنات الحضور زفاف أنخت الأمير إلى الغراندوق بولس . وقد وجدته كاترين أكثر واقعية من ديدرو . مطلقاً إطلاعا مفيداً

(*) لعل القصة التي زعمت أن أويلر أريك ديدرو أمام الحاشية الرومية ببرهان جبرى رهى على وجود الله قصة مشكوك في صحتها (٤٢) .

جداً على جميع مناحى ذلك العالم الباريسى الذى سحرها بأدبه وفلسفته وفنه ونسائه وصالوناته . ودعته «للدردشة» معها كل يوم تقريباً خلال شتاء ١٧٧٣ - ١٧٧٤ وقد كتبت إلى فولتير عن هذ اللقاءات : « ان حديث السيد جريم يمتعنى ، ولكن الأشياء التى نود أن نتبادل الكلام فيها من الكثرة بحيث اتسمت لقاءتنا إلى الآن بالحماسة أكثر من اتسامها بالنظام أو التتابع » وفى حرارة هذه الأحاديث كان عليها المرة بعد المرة أن تذكر نفسها بأن عليها (على حد قولها) أن تعود إلى « أكل العيش » أكل عيشها بالالتفات إلى مهمة الحكم^(٤٣) . وعاد جريم إلى باريس يطفح تحمساً لكاترين « غذاء روحى ، وعزاء قلبى ، وفخر عقلى ، وبهجة روسيا ، وأمل أوروبا »^(٤٤) . وعاد إلى زيارة بطرسبرج فى ١٧٧٦ ، وكان يلقاها كل يوم تقريباً على مدى عام . ورجته أن يملك ويشرف على التنظيم الجديد للتعليم فى روسيا ، ولكنه حن إلى باريس ومدام رينيه . ولم تكن كاترين بالمرأة الغيور ، فلما سمعت أن مدام رينيه تعاني أزمة مالية بعثت إليها بطريق رقيق غير مباشر ما يكفى لتلبية حاجاتها^(٤٥) . ومنذ ١٧٧٧ قام جريم بمهمة الوكيل لكاترين فى فرنسا فى المشتريات الفنية والمهام السرية . ودامت صداقته لها إلى النهاية دون أن يكدر صفوها مكدراً .

ماذا كانت نتائج هذا الغزل بين الأوتقراطية والفلسفة ؟ أما من حيث مصداقتها للفلاسفة بوصفهم وكلاؤها الصحفيين فى فرنسا ، فالأثر السياسى كان صفراً ؛ فالسياسة الفرنسية ، ومن ثم المؤرخون الفرنسيون ، ظلوا خصوصاً ألداء لبلد كروسيا يحبط الأهداف الفرنسية فى أوروبا الشرقية . ولكن إعجابها بأبطال التنوير الفرنسى كان مخلصاً ، لأنه بدأ قبل تقلدها السلطة بزمان طويل ، ولو كان تظاهراً وادعاء لما ثبت للمواجهات الطويلة مع ديدرو وجريم . وقد أعان اتصالها بالفكر الفرنسى على صيغ روسيا المتعلمة بالصبغة الأوربية ، وعلى تعديل رأى الغربى الذى رأى فى روسيا وحشاً هائلاً جباراً . وقد اقتدى روس كثيرون بكاترين ، وراسلوا الكتاب الفرنسيين ، وشعروا بتأثير الثقافة والعادات والفنون الفرنسية . وزار باريس عدد متزايد من الروس ، ومع أن كثيرين منهم أنفقوا وقتهم فى المغامرات

الجنسية ، إلا أن الكثيرين اختلفوا إلى الصالونات والمتاحف والبلاط ،
وقرأوا الأدب والفلسفة الفرنسيين ، وجلبوا معهم أفكاراً شاركت في الإعداد
لتفجر الأدب الروسى فى القرن التاسع عشر .

٤ — الحاكمة القديرة

لا يتطرق إلينا المشك فى صدق نيات كاترين فى مطلع حكمها .
فقد وجدت هذه القرارات فى نسخة « تلياك » التى كانت تقرأها :
« عليك بدراسة الإنسان ، وتعلم استخدام الرجال بغير الاستسلام لهم
دون تحفظ . واجتنب عن الكفاية الأصيله وأن وجدت فى أقصى الأرض ،
لأنها تكون عادة متواضعة متوارية .
ولا تسمحى لنفسك بأن تصبحى فريسة للمتملقين ، أفهمهم أنك
لا تعبان بالمديح ولا بالتدليل والخنوع . وضعى ثقتك فى أولئك الذين لديهم
الشجاعة للاعتراض على آرائك . . . والذين تهمهم سمعتك أكثر مما يهمهم
رضاءك .

« كوفى مؤدبة ، رحيمة ، منفتحة ، عطوفاً ، متحررة العقل . ولا تدعى
سمو مكانتك بمنعك من النزول فى تلطف إلى صغار الناس . ووضع نفسك
فى موضعهم . واحرصى على ألا يضعف هذا اللطف من سلطانك أو ينتقص
من احترامهم لك . . . وانبذى كل تصنع وافتعال . ولا تسمحى للعالم أن
يلوثك إلى الحد الذى يفقدك مبادئ الشرف والفضيلة القديمة .

اقسم بالسماء أن أطيع هذه الكلمات على صفحة قلبى»^(٤٦) .

وكانت تدأب على الإحاطة بدقائق كل موضوع تتناوله ، وقد كتبت
تعليمات مفصلة عن مئات المواضع من تدريب الجيش والعمليات الصناعية
إلى زينة حاشيتها وإخراج الأوبرات والتمثليات . قال أحد كتاب سيرتها
الأولين وكان من أقلهم تعاطفاً :

« ان الطموح لم يطاق في روح كاترين تدوقاً حاراً للذة ، ولكنها كانت تعرف كيف تنبذ اللذة ، وتنقل إلى الاضطلاع بأكثر الواجبات خطراً ، وإلى الممارسة التي لا تكل لشئون الحكم . فتحضر جميع مداورات المجلس ، وتقرأ رسائل سفراتها ، وتعلم ، أو تشير ... بالردود التي يرد بها . ولا تكل لوزرائها سوى تفصيل العمل ، ولا تفتأ تراقب تنفيذه » (٤٧) .

واستحالت أو كادت مهمة حكم رقعة ملكها الشاسعة لكثرة القوانين الموجودة (عشرة آلاف) . وتنوعها ، وتناقضاتها ، وفوضاها . وإذ راودها الأمل في أن تؤدي لروسيا ما أداه من قبل جستنيان للدولة الرومانية ، وفي أن تدعم سلطتها . فلما دعت إلى موسكو في ١٤ ديسمبر ١٧٦٦ موظفين إداريين وخبراء قانونيين من كل ركن من أركان الامبراطورية ، ليقوموا بمراجعة دقيقة شاملة وجمع وتنسيق للقانون الروسي . واستعداداً لمجيئهم أعدت بشخصها تعاليمات « Nakaz » تصف المبادئ التي ينبغي أن يشكل على أساسها القانون الجديد . وقد عكست هذه المبادئ قرائها لمونتسكيو وبكاريا وبلاكستون وفولثير . واستلهمت تعاليمها بالتصريح بأنه يتعين التفكير في روسيا على أنها دولة أوربية . ينبغي أن يكون لها دستور قائم على « مبادئ أوربية » . وليس معنى هذا في مفهومها « حكومة دستورية » تخضع الملك لطبقة تشريعية يختارها الشعب . فمستوى التعاليم في روسيا لن يسمح حتى بحق انتخاب محدود كالموجود آنئذ في بريطانيا . إنما يعني حكومة يعكس فيها الحاكم طبقاً للقانون ، وإن كان هو في نهاية الأمر المصدر الوحيد للقانون . وقد أيدت كاترين النظام الإقطاعي . أعني نظام الولاء والخدمات المتبادلة بين الفلاح والمقطع (التابع) وبين المقطع والسيد الإقطاعي . وبين السيد والمالك . باعتباره نظاماً لاغنى عنه للاستقرار الإقتصادي والسياسي والحربي في روسيا عام ١٧٦٦ (وهي بلد الجياعات التي تكاد تنعزل بعضها عن بعض ، وعن مركز الحكومة . نتيجة لصعوبات الاتصال والنقل) . ولكنها ألحقت على ضرورة تعريف وتعديد سمات السادة على أقدانهم قانوناً ، وعلى السماح للأقنان بتملك الأملاك ، وعلى نقل ممتلكات الأقنان وعقوباتهم من السيد الإقطاعي إلى قاضي عمومي يسأل يسأل محكمة إقليمية مسوأة أمام الملك (١٨) . وينبغي أن تكون جميع المحاكمات

علنية ، وأن يبطل استخدام التعذيب ، وأن تلغى عقوبة الإعدام قانوناً وواقعاً. أما العبادة الدينية فينبغي أن تكون حرة ، «فالتعصب هو أضر الكبائر بين هذه الكثرة من مختلف العقائد» ^(٤٩) . ثم قدمت هذه التعليمات قبل طبعها إلى مستشاريها ، فنبهوها إلى أن أى تغيير فجائى من الأحوال المألوفة سيدفع بالروسيا إلى مهاوى الفوضى ؛ وقد سمحت لهم بتعديل مقترحاتها ، لا سيما ما استهدف عتق الأرقاء تدريجياً ^(٥٠) .

وتد دفعت هذه التعليمات التى نشرت فى هولندا فى ١٧٦٧ صفوة المفكرين الأوربيين إلى الثناء الحماسى عليها ، حتى بعد أن عدلت على هذا النحو . وأرسلت الامبراطورة نسخة منها رأساً إلى فولتير ، الذى قدم فروض احترامه المعهودة : «سيدتى ، تلقيت البارحة ضماناً من ضمانات خلودك — هو مجموعة قوانينك فى ترجمة ألمانية . وقد شرعت اليوم فى ترجمتها إلى الفرنسية . وسوف تظهر فى الصينية ، وفى كل لسان ، وسوف تكون انجيلا للبشر أجمعين» ^(٥١) . وأضاف فى رسائل تالية : «إن المشرعين يحتلون مكان الصدارة فى هيكل المجد ، أما الفاتحون فيأتون من بعدهم . . . اننى أعد (التعليمات) أجل آثار هذا القرن» ^(٥٢) . ومنعت الحكومة الفرنسية بيع (التعليمات) فى فرنسا .

وقدمت «التعليمات» المعدلة إلى «لجنة صياغة القانون الجديد» التى اجتمعت فى ١٠ أغسطس ١٧٦٧ . وكانت تتألف من ٥٦٤ عضواً تنتخبهم جماعات شتى : ١٦١ من النبلاء و ٢٠٨ من المدن ، ٧٩ من الفلاحين الأحرار ، و ٥٤ من القوزاق ، و ٣٤ من القبائل غير الروسية (مسيحيين أو غير مسيحيين) و ٢٨ من الحكومة . ولم يمثل الأكليروس بصفتهم طبقة ، ولم يمثل الأقنان إطلاقاً . وكانت اللجنة من بعض وجوهها نظير لمجلس طبقات الأمة الفرنسى الذى تقرر أن يجتمع فى باريس فى ١٧٨٩ ، وقد أتى المندوبون للحكومة بقوائم احتوت المظالم ومقترحات الإصلاح من دوائرهم على نحو ما سيفعل مندوبو ذلك المجلس الأشهر . ورفعت هذه الوثائق إلى الامبراطورة فأتاحت لها ولمساعديها مسحاً قيماً لحالة المملكة .

ولم تخول اللجنة سلطة اصدار القوانين ، بل تقديم المشورة للامبراطورة عن حالة كل طبقة أو اقليم وحاجاته وتقديم الاقتراحات للتشريع . وكفلت للمندوبين حرية الكلام وعدم المساس بأشخاصهم . واقترح بعضهم عتق جميع الأفنان وطلب بعضهم مزيداً من التوسع في حق امتلاك الأفنان . وفي ديسمبر ١٧٦٧ استراحت اللجنة ، وفي فبراير ١٧٦٨ انتقلت إلى سانت بطرسبرج . وبلغ مجموع الجلسات التي عقدتها ٢٠٣ ؛ وفي ١٨ ديسمبر أجلت إلى أجل غير مسمى لأن نشوب الحرب ضد تركيا استدعى وجود مندوبين كثيرين في الجبهة . ووكلت مهمة صياغة التشريع المقترح إلى لجان فرعية . ظل بعضها يجتمع حتى ١٧٧٥ ، ولكن لم توضع مجموعة قوانين . ولم تسوء كاترين تماماً هذه النتيجة غير الحاسمة ، فقالت «إن اللجنة . . . أعطتني النور والمعرفة عن جميع الامبراطورية ، وأنا الآن على بينة مما يلزم ، وأعرف هم يذنبى أن أهم . وقد فصلت اللجنة جميع أقسام القانون ، ووزعت الشئون تحت رؤوس مواضيع ، وكنت خليقة بأن أفعل أكثر من هذا لولا الحرب مع تركيا . وإكنا أذخاها وحدة لم نعهدنا إلى الآن في مبادئ النقاش وطرائق » (١٠٢) . وقد أظهرت كاترين للنبل في الوقت نفسه مبلغ عرض القاعة التي تركز عليها سلطاتها . واقترحت اللجنة قبل انفضاضها أن تخلع عليها لقب «الكبرى» ، فرفضت ، ولكنها وافقت على أن تلقب «أم الوطن» .

وأصبحت اثنان من توصيات كاترين قانوناً : إلغاء التعذيب وقرار التسامح الدينى . وقد توسع في هذا التسامح : نسمح القانون للكنيسة الكاثوليكية الرومانية بأن تنافس اليونانية الأرثوذكسية . وحصى اليسوعيين حتى بعد أن حل البابا كلمنت الرابع عشر طائفهم (١٧٧٣) ، وأذن للتجار القوزاق بأن يعبأوا ببناء مساجدهم . وسمحت كاترين لليهود بدخول روسيا ، ولكنها أنقضتهم اضراب خاصة ، وقصرت إقامتهم على مناطق معينة (ربما تحقيقاً لسلامتهم) . ثم تركت الراسكولنيكيين . المنشقين الدينيين . - أحراراً في ممارسة شعائرهم دون عائق ، وكتبت إلى فولثير تقول «صحيح أن عندنا متعصبين يهرون أنفسهم لأنهم لم يعودوا مضطهدين من الغير ، ولكن لو حدا حدوهم المتعصبون في الدول الأخرى لما نعيم عن ذلك ضرر يذكر» (١٠٤) .

وأبهج جماعة الفلاسفة بصفة خاصة إخضاع كاترين الكنيسة الروسية للدولة . وشكوا بعضهم من أنها لاتزال تحضر الخدمات الدينية (وكذلك كان يفعل فولتير) ، وأدرك أكبرهم سنا أن حضورها أمر لاغنى عنه للاحتفاظ بولاء الشعب . وقد حولت بمرسوم أصدرته في ٢٦ فبراير ١٧٦٤ جميع أراضي الكنيسة ملكاً للدولة . وبدأت الدولة منذ الآن تدفع رواتب رجال الدين الأرثوذكس — وبهذا ضمنت تأييدهم للحكومة . وأغلق الكثير من أديرة الرهبان والراهبات ، ومنع الباقي منها من قبول أكثر من عدد معلوم من المترهين الجدد ، ورفعت السن القانونية لنذر الرهبنة . واستخدمت الموارد الفائضة من المؤسسات الكنسية في إنشاء المدارس والملاجئ والمستشفيات (٥٥) .

وعارض رجال الدين والنبلاء التوسع في التعليم الشعبي مخافة أن يفضي انتشار المعرفة بين الجماهير إلى الهزيمة والكفر والتحزب ، وأن يعرض النظام الإجتماعي للخطر . هنا بدأت كاترين — كما بدأت في غيره — بتطلعات تحررية . فلجأت إلى جريم :

« أصغوا إلى لحظة يا أصدقائي الفلاسفة : ستكونون لطافاً ظرافاً إذا تفضلتم برسم خطة للشباب ، من ألف باء إلى الجامعة . . . ليس عندي — أنا التي لم أدرس في باريس ولم أعش فيها — معرفة بهذا الأمر ولا بصبر به . . . انني مهتمة جداً بفكرة إنشاء جامعة وإدارتها ، ومدرسة ثانوية (جمنازيوم) وأخرى أولية . . . وإلى أن تستحيبوا لطلبي سأنقب في « الموسوعة » عما أنشده وبالتأكيد سأستخرج منها ما أنشده » (٥٦) .

وقد أثرت فيها أثناء ذلك الحماسة البيداغوجية التي أبدتها إيفان بتسكى ، الذي جاب السويد وألمانيا وهولنده وإيطاليا وفرنسا ، واختلف إلى صالون مدام جوفران ودرس الموسوعة والتقى بروسو . ففي ١٧٦٣ أنشأت في موسكو مدرسة القطاء ، خرجت في ١٧٩٦ أربعين ألف طالب ، وفي ١٧٦٤ فتحت مدرسة للبنين في سانت بطرسبرج ، وفي ١٧٦٥ أخرى للبنات ، وفي ١٧٦٤

حول دير سمولنى إلى معهد سمولنى لبنات النبلاء — وهذا صدى لمعهد مدام دمانتون «سان سير» ، وكانت كاترين أول حاكم روسى يفعل شيئاً لتعليم النساء . ولما فت فى عضدها افتقارها إلى المعلمين المؤهلين ، بعثت الطلاب الروس لدراسة التربية فى إنجلترا وألمانيا والنمسا وإيطاليا ، وأنشئت مدرسة للمعلمين فى ١٧٨٦ .

وقد أعجبتها اصلاحات يوزف الثانى التعليمية فى النمسا ، فطلبت إليه أن يعيرها شخصاً خبيراً بنظامه ، فأرسل إليها تيودور يانكوفش الذى وضع لها خطة نشرتها باسم «قانون المدارس الشعبية» (٥ أغسطس ١٧٨٦) . وأنشئت مدرسة أولية فى أهم بلدة فى كل إقليم ، ومدرسة ثانوية فى كل مدينة كبرى من مدن ست وعشرين مقاطعة ، وفتحت هذه المدارس لجميع الأطفال أيا كانت طبقتهم ، ولم يسمح فيها بالعقاب البدنى ؛ وكانت الدولة تملؤها بالمدرسين والكتب المدرسية . بيد أن المشروع أحبطه إلى حد كبير عزوف الآباء عن إرسال أبنائهم إلى المدارس بدلا من استخدامهم للشغل فى البيت . وخلال السنوات العشر التى انقضت منذ تأسيس «المدارس الشعبية» حتى وفاة كاترين ، زاد عددها ببطء من أربعين إلى ٣١٦ مدرسة ، وعدد المعلمين من ١٣٦ إلى ٧٤٤ ، وعدد التلاميذ من ٤,٣٩٨ إلى ١٧,٣٤١ . وفى عام ١٧٩٦ كانت روسيا لا تزال شديدة التخلف عن الغرب فى ميدان التعليم الشعبى .

أما التعليم العالى فكان متاحاً على نطاق ضيق فى جامعة موسكو وفى المعاهد أو الأكاديميات الخاصة ، وأنشئت مدرسة تجارية فى ١٧٧٢ ، وأكاديمية للمناجم فى ١٧٧٣ . ووسعت أكاديمية العلوم القديمة وزودت بالمال الوافر . وفى ١٧٨٣ ، بناء على إلحاح الأميرة داشكوفا ، وتحت رآستها ، أنشئت أكاديمية روسية لتحسين اللغة ، وتشجيع الأدب ، ودراسة التاريخ ، فأصدرت المترجمات ، ونشرت الدوريات ، وصنفت قاموساً صدر فى ستة أجزاء بين ١٧٨٩ ، ١٧٩٩ .

وقد روعت كاترين نسبة الوفيات العالية فى روسيا ، وبداية وسائل

حفظ الصحة العامة والنظافة الشخصية ، فاستقدمت الأطباء الأجانب ، وأسست كلية للصيدلة في موسكو ، ودبرت المال لإنتاج الأدوات الجراحية . وفتحت في موسكو ثلاثة مستشفيات جديدة وملجأ ومستشفى للأمراض العقلية وفي سانت بطرسبرج ثلاثة مستشفيات جديدة بما فيها « مستشفى سرى » للأمراض التناسلية ^(٥٧) . وفي ١٧٦٨ أدخلت لروسيا التطعيم ضد الجدري ، وبدأت مخاوف الشعب بوضعها شخصها وهي في الأربعين ليجرى عليها العلاج كثنائي شخص في روسيا ، وما لبثت كاترين أن كتبت لنولير تقول « إن الذين طعموا هنا في شهر واحد أكثر ممن طعموا بفيناف في سنة » ^(٥٨) . (وفي ١٧٧٢ دخل التطعيم نابلي لأول مرة ، وفي ١٧٧٤ مات لويس الخامس عشر بالجدري غير مطعم) .

٥ - الاقتصاد

من القوانين الأساسية التي أصدرتها كاترين قانون (١٧٦٥) قضى بأجواء مسح لجميع أراضي روسيا . وقد قوبلت هذه العملية بمقاومة شديدة من الملاك . وحين اختتم العهد كانت قد شملت عشرين إقليماً من خمسين ، ولكنها لم تستكمل حتى منتصف القرن التاسع عشر . وبينما كان المسح جارياً أدركت الامبراطورة في وضوح مثير للهمم كيف يعتمد اقتصاد روسيا على تنظيم الزراعة بواسطة نظام قوامه السادة والأقنان . وفي ١٧٦٦ أعلنت عن جائزة من ألف دوقة تمنح لأفضل مقال عن تحرير الأقنان . وفاز بالجائزة بياردي دلايه إكس لا شابل ، الذي رأى أن « العالم كله يطالب الملوك بتحرير الفلاحين » وتنبأ بأن الإنتاج الزراعي سيزداد زيادة هائلة « إذا ملك الفلاحون الأرض التي يزرعونها » ^(٥٩) . غير أن الملاك الأشراف حذروا كاترين من أن الفلاح سيهجر القرى إلى المدن إن لم يربط بالأرض وبسيده الإقطاعي ، أوسيهاجر من قرية إلى قرية في لامبالاة أكثر ، فيخلق بذلك الفوضى ، ويمزق الاقتصاد ، ويعوق تجنيد أبناء الفلاحين الأشداء للجيش أو الأسطول .

ومضت القيصرية الحائرة في مشروعها على حذر ، فالنبلاء يملكون المال

والسلاح اللذين يستطيعان الإطاحة بها ، وهم في هذه المحاولة يستطيعون الاعتماد على تأييد الأكليروس الذين ساءهم فقدان أراضيهم وأقنانهم . وخافت من التحلل الذي قد تحدثه هجرة جماعية من الفلاحين المحررين إلى مدن غير مستعدة لإسكانهم أو إطعامهم أو تشغيلهم . على أنها قامت بخطوات نحو عتق الأتقان . فجددت مرسوم بطرس الثالث الذي حرم شراء الأتقان لتشغيلهم في المصانع ، وفرضت على أرباب العمل أن يدفعوا أجور عمالهم نقداً وأن يراعوا ظروف العمل التي يقررها موظفوا المدينة أو « المير »^(٦١) ؛ ولكن حتى مع هذا ظل وضع الأتقان الصناعيين وضع العبودية القاسية المذهلة . وحرمت كاترين القنية في المدن التي أنشأها^(٦٢) ، ثم عتقت الأتقان المشغلين على الأراضي التي أخذت من الكنيسة نظير دفعهم رسماً صغيراً^(٦٣) ، على أن هذه التحسينات طغت عليها منحها المتكررة من أراضي الدولة لمن أخلصوا لها الخدمة كالقواد أو رجال الدولة أو العشاق ، وعلى هذا النحو أصبح أكثر من ٨٠٠,٠٠٠ من الفلاحين الأحرار أقناناً . وارتفعت نسبة الأتقان في سكان الريف من ٥٢,٤٪ في بداية العهد إلى ٥٥,٥٪ في ختامه ، وزاد عدد الأتقان من ٧,٦٧٠,٠٠٠ إلى ٢٠,٠٠٠,٠٠٠^(٦٤) . ثم أكملت كاترين استسلامها للنبلاء بـ «خطابات الامتياز للنبلاء» (١٧٨٥) : فقد أكدت فيها من جديد إعفاءهم من ضريبة الرؤوس ، والعقوبة البدنية ، والخدمة العسكرية ، وحقوقهم في ألا يحاكموا إلا أمام أمرائهم ، وفي استخراج المعادن من أراضيهم ، وفي امتلاك المشروعات الصناعية ، وفي السفر إلى خارج البلاد كما يشاءون . وقد حظرت على الملاك أن يكونوا طغاة أو قساة ، ولكنها أبطلت مفعول هذا الحظر بمنع الأتقان من أن يرسلوا إليها شكاواهم .

ولجأ الفلاحون بعد أن أخذ صوتهم على هذا النحو إلى الفرار أو التردد أو الاغتيال . وقد قتل ثلاثون من السادة الإقطاعيين بأيدي فلاحهم بين عامي ١٧٦٠ و ١٧٦٩ ؛ واندلعت خمسون فتنة بينهم فيما بين عامي ١٧٦٢ و ١٧٧٣^(٦٥) . وكانت هذه الفتن تخمد سريعاً حتى قام زعيم ثائر عرف - بوجاشيف كان قوزاقياً من إقليم الدون ، حارب في صفوف الروس ضد

البروسيين والأتراك ، ثم طلب تسريحه ، ولكن طلبه رفض ، ففر من الجيش ، وقبض عليه ، فعادوا الفرار ، وارتضى حياة طريد القانون . وفي نوفمبر ١٧٧٢ ، بعد أن شجعه الرهبان الساخطون ، أعلن أنه بطرس الثالث الناجي بأعجوبة من كل المحاولات التي بذلت لقتله . وجذب الفلاحين وقطاع الطرق للانضمام تحت لوائه ، حتى أحس بأن ساعده اشتد ، فهجر بعصيان الغاصبة كاترين (سبتمبر ١٧٧٣) . وتوافد عليه قوزاق الأورال والفولجا والدون ، وآلاف الرجال الذين حكم عليهم بالسخرة في مناجم الأورال ومصاهر المعادن ، وفئات «المؤمنين القدماي» التواقين إلى الإطاحة بالكنيسة الأرثوذكسية ، وقبائل التتار والقرغيز والبشكير المحلية الذين لم ينسوا اكراه اليزابث لهم على الدخول في المسيحية ؛ ثم أقنان آبقون من سادتهم ، ومساكين هربوا من السجون : هؤلاء تقاطروا على لواء بوجاشيف حتى اجتمع له عشرون ألف رجل تحت إمرته . فزحفوا ظافرين من مدينة إلى مدينة ، وهزموا القوات التي سيرها ضدهم الحكام المحليون ، واستولوا على مدن هامة مثل قازان وساراتوف ؛ ثم صادروا المؤن ، وقتلوا الملاك ، وأكروهوا الفلاحين المعارضين على الانضمام إليهم ، وزحفوا مصعبدين في حوض الفولجا صوب موسكو . وأعلن بوجاشيف أنه لن يرتقى هو العرش هناك ، بل سيبوثة الغراندوق بولس . ولكنه — بمزاح رهيب على الأرجح — لقب زوجته الفلاحة بالملكة ، وكبار ضابطه بأسماء ضباط كاترين : الكونت أورلوف ، والكونت بانين ، والكونت فورونشوف .

وسخرت كاترين أول الأمر من هذا «المركيز بوجاشيف» ، ولكنها حين علمت أن العصاة استولوا على قازان ، جردت قوة كبيرة تحت إمرة الجنرال بيوتر ايفانوفتش بانين لإخماد الفتنة . وخف النبلاء لنجدتها بعد أن أدركوا أن الخطر يهدد هيكل الإقطاع بأسره ، وسرعان ما انضم الجنرال الكسندر فاسيليفتش سوفوروف إلى بانين بفرسانه الذين أصبحوا أحراراً في التحرك بعد عقد الصلح مع الأتراك ؛ وأوقع الخلل في صفوف العصاة التقاؤهم بمنود مدربين تحت قيادة ضباطهم الأباطوريين ، فتقهقروا من موقع إلى آخر ، واستنفدوا مؤنهم ، وبدأوا يتضورون جوعاً . وأعتقل بعض

زعمائهم - الطامعين في الجلبز والعنف - بوجاشيف وسلموه للمتصرين . فجئ به إلى موسكو في قفص من حديد ، وحوكم في الكرملين ، وقطع رأسه ومزق جسده أرباعاً ، وعرض رأسه على عمود في أربعة أقسام من المدينة ليكون « عبرة لغيره » ثم أعدم خمسة من ضباطه ، وجلد غيرهم على هذا الجانب من الموت ، ونفروا إلى سيبيريا . وكان من نتائج الفتنة دعم التحالف بين الامبراطورة والنبلاء .

على أنها تحدث النبلاء شيئاً ما بتأييدها لنمو طبقة قوامها رجال المال والأعمال . ذلك أن اقتناعها ببراين الفزيوقراطيين دعاها لإقرار حرية التجارة في المحاصيل الزراعية (١٧٦٢) ، ثم في كل شيء ، وأنهت (١٧٣٥) الاحتكارات المعتمدة من الحكومة بإصدارها قراراً يبيح لكل إنسان حرية الاضطلاع بأي مشروع صناعي وتنفيذه . وقد أحرز نمو الطبقة الوسطى غلبة الصناعة التي تقوم في الأكواخ والعزب ، ومشاركة النبلاء في المغامرات الصناعية والتجارية . وزادت المصانع من ٩٨٤ إلى ٣,١٦١ في عهد كاترين ، ولكن هذه كان أكثرها ورشاً صغيرة لا تستخدم من الصناع إلا القليلين . وزاد سكان المدن من ٣٢٨,٠٠٠ في عام ١٧٢٤ إلى ١,٣٠٠,٠٠٠ في عام ١٧٩٦ - ومع ذلك لم يزل أقل من أربعة في المائة من مجموع السكان (٦٥) .

ولم تأل الامبراطورة الكثيرة الشراغل جهداً في النهوض بالتجارة دون أن تلقى إلا التأييد الضنين من حاشيتها النبيلة . لقد كانت الطرق غاية في السوء ، ولكن الأنهار كثيرة ، وقد ربطتها القنوات في شبكة مفيدة . وفي عهد كاترين بدىء شق قناة بين الفولجا والنيفا لربط البلطيق ببحر قزوين ، وقد خططت لقناة أخرى تصل بحر قزوين بالبحر الأسود (٦٦) . وظفرت بالتفاوض أو بالحرب بحرية مرور التجارة الروسية دون معوق في البحر الأسود ومنه إلى البحر المتوسط . ثم حثت دبلوماسيتها على عقد المعاهدات التجارية مع إنجلترا (١٧٦٦) وبولنده (١٧٧٥) والدنمرك (١٧٨٢) وتركيا (١٧٨٣) والنمسا (١٧٨٥) وفرنسا (١٧٨٧) . ونمت التجارة الخارجية من ٢١,٠٠٠,٠٠٠ روبل عام ١٧٦٢ إلى ٩٦,٠٠٠,٠٠٠ عام ١٧٩٦ (٦٧) .

(م ٦ - قصة الحضارة ، ج ٤١)

في هذه الأرقام يجب أن نحسب حساب تضخم العملة الذي تدفع به الحكومات نفقات حروبها . وقد اقترضت كاترين من داخل البلاد وخارجها ١٣٠,٠٠٠,٠٠٠ روبل لتمويل حملاتها على تركيا ، وأصدرت نقوداً ورقية تجاوزت كثيراً أى غطاء من الذهب . وفقد الروبل أثناء حكمها ٣٢٪ من قيمته. وفي هذه الفترة ذاتها ، ورغم زيادة الإيرادات من ٢١٥,٠٠٠,٠٠٠ (٦٨) . وأكثر هذا الدين نجم عن الحروب التي كسرت شوكة تركيا ، ومدت حدود روسيا إلى البحر الأسود .

٦ — المحاربة

بدأت كاترين بأهداف سلمية كما يبدأ كل فيلسوف : فأعلنت أن مشاكل الامبراطورية الداخلية ستستغرق اهتمامها ، وأنها ستجنب كل صراع مع الدول الأجنبية إذا لم يتحشش بها أحد . فنبئت صلاح بطرس الثالث مع بروسيا ، وأنهت حربه مع الدنمرك . وفي ١٧٦٢ رفضت الإغراء بفتح كورلاند أو التدخل في بولنده ، وقالت «عندى ما يكفى من البشر الذين على إسعادهم ، ولن يزيدنى رفاهية ذلك الركن الصغير من أركان الأرض» (٦٩) . ثم خفضت الجيش ، وأهملت ترسانات السلاح ، وسعت إلى التفاوض مع تركيا لإبرام معاهدة للصلح الدائم .

ولكنها كانت كلما درست الخريطة وجدت عيباً في حدود روسيا . ففي الشرق كانت الامبراطورية محمية جيداً بجبال الأورال وبحر قزوين وضعف الصين . وفي الشمال تحميها الثلوج . أما في الغرب فالسويد مستولية على جزء من فنلنده ، قد يتوقع منه الهجوم في أى لحظة يشنه شعب مافئ يسوؤه ما غصبه منه بطرس الأكبر ؛ وكانت بولنده وبروسيا تسدان الطريق إلى «أوروبا» والاصطباغ بحضوراتها . أما في الجنوب فقد سد التتار ، الخاضعون لحان مسلم يسيطر عليه الترك ، الطريق إلى البحر الأسود . فأى إجهاضات للتاريخ أعطت روسيا جغرافية كهذه ، وحدوداً شاذة كهذه ؟ وهمس في أذهنها القائد القديم مونيش ، والقائد الجديد جريجورى أورلوف ، بأن الوضع يكون معقولاً أكثر لو كان البحر الأسود هو الحد الجنوبي ، وبأنه يكون

جميلاً رائعاً لاستطاعت روسيا الاستيلاء على الآستانه والتسلط على البوسفور .
أما نيكيتا بانين ، وزير خارجيتها من ١٧٦٣ إلى ١٧٨٠ ، فقد فكر في طرق
لإعلاء نفوذ روسيا في بولنده ومنع هذا البلد الأعزل من الوقوع في براثن
بروسيا .

ونأثرت كاترين بحججهم ، وأخذت تتحرق شوقاً لأن تبوء وطنها الثاني
مكاناً في السياسة يتفق ومكانها على الخريطة . فلم ينقض عام على تقلدها السلطة
حتى انطلقت إلى سياسة خارجية لاترضى في طموحها بأقل من جعل روسيا
الدولة المحورية على القارة . كتبت إلى الكونت كينزلنج ، سفيرها في وارسو
تقول «أقول لك ان هدفي أن أرتبط بروابط الصداقة مع جميع الدول ، في
تحالف مسلح ، حتى أستطيع على الدوام أن أقف في صف المظلوم ، وبهذا
أصبح الحكم لأوروبا (٧٠) .

وأث عليها فترات كانت فيها قاب قوسين من هدفها هذا . وآية ذلك أنها
صحبت روسيا من حرب السنين السبع فلانها في الواقع حسمت ذلك الصراع
الذي شمل القارة كلها لصالح فردريك . وفي عام ١٧٦٤ أبرمت مع فردريك
معاهدة كانت نذيراً بتقطيع أوصال بولنده . ثم استغلت حاجة الدنمرك إلى
تأييد روسيا لها ضد السويد لتبني على سياسة الدنمركيين الخارجية . وفي عام
١٧٧٩ كانت حكماً بين فردريك ويوزف في معاهدة تشن ، وأصبحت
حامية الدستور الأمبراطوري الألماني . وفي ١٧٨٠ ربطت الدنمرك والسويد
وبروسيا والنمسا والبرتغال بالروسيا في «عصبة حياد مسلح» لحاية السفن
المحايدة في الحرب الدائرة بين إنجلترا ومستعمراتها الأمريكية ، فتقرر
ألا تتعرض السفن المحايدة للهجوم من أى من الطرفين المحاربين ما لم تحمل
ذخائر حربية ؛ وأن الحصار لكي يكون شرعياً ولكي يحترم يجب أن يكون
حقيقياً لا مجرد إعلان على الورق .

وقبل أن قلبت الأحلاف ذلك القلب الثاني بزمان طويل بدأ الصراع
الطاحن على التسلط على البحر الأسود . وقد نشأت أول حروب كاترين

الركية نتيجة ثانوية غريبة لغزوها لبولنده . ذلك أنها كانت قد أرسلت هناك جيشاً لإعانة غير الكاثوليك في كفاحهم لنيل حقوق متساوية مع الأغلبية الكاثوليكية ؛ وحمل الكاثوليك سفيراً بابوياً على أن يفهم تركيا أن فرصتها حانت لتهاجم روسيا ؛ وأيدت فرنسا الاقتراح ، وحرضت السويد وخن القرم على الانضمام للهجوم ^(٧١) . وحزن فولتير على امبراطورته التي أحقد بها الخطر . وكتب إليها يقول «إن تجنيد سفير بابوي للأتراك في حربه الصليبية عليك لموضوع جدير برواية هزلية إيطالية عنوانها « مصطفي الحليف الفاضل للبابا ! » ، فالموقف كاد يغريه بأن يكون مسيحياً . لا بل انه في خطاب أرسله إلى كاترين في نوفمبر ١٧٦٨ اقترح عليها حرباً مقدسة على الكفار .

« إنك تكرهين البولنديين على أن يكونوا متسامحين سعداء على الرغم من سفير البابا ، ويبدو أنك تأقن من المسلمين عنفا . فإذا شنوا عليك الحرب فربما تبلورت فكرة بطرس الأكبر في جعل الآستانة عاصمة الإمبراطورية الروسية . . . وفي ظني أنه لو قدر على الأتراك أن يطردوا من أوروبا يوماً فسيكون هذا على أيدي الروس . . . فليس يكنى إذلالهم ؛ بل يجب ردهم إلى موطنهم إلى الأبد ^(٧٢) .

ورفضت السويد أن تشارك في الهجوم على روسيا ، ولكن تثار القرم اجتاحتها مستعمرة «الصرع الجديدة» الروسية ، الحديثة ، (يناير ١٧٦٩) . وزحف جيش تركي عدته ١٠٠,٠٠٠ مقاتل صوب بودوليا لينضم إلى جيش الاتحاد البولندي . ورفضت كاترين أن تسحب قواتها من بولنده . وجردت ثلاثين ألف مقاتل يقودهم ألكسندر جولتسين وبيوتر روميا لتسيّف لهُزِمة التتار ورد الترك ؛ فلما قيل لها إن عدد هؤلاء الترك هائل أجابت « إن الرومان لم يكونوا يعبأون بكثرة أعدائهم ، إنما كانوا يسألون ، أين هم ؟ » ^(٧٣) . ورد التتار على أعقابهم ، واستولى الروس على آزوف وتاجانروج شمالي الدون ؛ وهزم سبعة عشر ألف روسي ١٥٠,٠٠٠ تركي في كاجول (١٧٧٠) وتقدم روميا لتسيّف حتى بلغ بوخارست ، حيث استقباه السكان الأرثوذكس

مظاهر الفرح والتهليل . وفي ١٧٧١ اجتاح فاسيلي ميخايلوفتش دوجوروكي القوم وقضى على الحكم التركي هناك .

وأكثر حتى من هذا إثارة للعجب والأعجاب جرأة الكسي أورلف ، الذى قاد أسطولاً روسياً فخر به عباب المانش ، والأطلنطى ، والبحر المتوسط ، وهزم الأسطول التركى تجاه خيوس ، وأباده فى خزمى (يوليو ١٧٧٠) ؛ غير أن الضرر الذى لحق بمراكبه كان فادحاً فلم يتح له مواصلة انتصاراته .

على أن أحداثاً أخرى لم تبعث مثل هذه البهجة فى فؤاد كاترين . من ذلك أن طاعوناً تفشى فى الجيش الروسى على طول الدانوب ثم ارتد إلى موسكو حيث كان يحصد ألف روح كل يوم فى صيف ١٧٧٠ . وكانت عليمه بأن فردريك ينظر باستنكار إلى امتداد ملكها وسلطانها ؛ وأن يوزف الثانى يزعجه تقدم روسيا إلى حدود النمسا فى البلقان ؛ وأن فرنسا لاترك حجراً لاقلبه دعماً لخليفها تركيا ؛ وأن إنجلترا ستقاوم بشدة تسلط روسيا على البوسفور ؛ وأن السويد إنما تبرص بها الدوائر . فدعت كاترين الترك إلى مؤتمر ، فحضروا ، ولكنهم حزنوا لأصرارها على استقلال القرم ؛ وفى ١٧٧٣ استؤنفت الحرب .

وفى يناير ١٧٧٤ مات مصطفى الثالث ؛ وقرر خلفه أن تركيا قد بلغت من الفوضى والإرهاق حداً يهدد وجودها كدولة أوربية . فاعترفت تركيا بمقتضى صلح كجوق قينارجى (فى رومانيا) ٢١ يوليو ١٧٧٤ باستقلال القرم (التي ظلت تحت حكم التتار) ، ونزلت لروسيا عن آزوف ، وكوش ، وبنيكالى ، وكلبورون (على مصب دنيبر) . وفتحت البحر الأسود والبوسفور والدردنيل للمراكب الروسية ، ودفعت لروسيا تعويض حرب قدره ٤,٥٠٠,٠٠٠ روبل ، ومنحت العفو للمسيحيين الذين شاركوا فى ثورات على حكامهم الأتراك ، واعترفت بحق روسيا فى حماية المسيحيين فى تركيا . وكان هذا فى جملة من أميز المعاهدات التى أبرمتها روسيا فى تاريخها^(٧٤) . فقد غدت روسيا الآن من دول البحر الأسود ؛ وتركت

القرم وغيرها من أقاليم التتار في جنوبي روسيا مفتوحة أمام الغزو الروسي المبكر ، واستطاعت الامبراطورة الشاكة أن تظهر بمظهر المدافعة عن الإيمان . وراحت كاترين — بعد أن أسكرها النصر — تحلم بتحرير اليونان — أعنى بفتحها ، وبتتويج حفيدها قسطنطين في الآستانة رأساً لامبراطورية جديدة . وأبهجت فؤاد فولتير الشائخ برؤى الألعاب الأولمبية وقد ردت إلى مجدها التليد ؛ فكتبت إليه تقول «سوف تجعل ممثلين يونانيين يمثلون التراجيديات اليونانية القديمة في مسرح (ديونيسيوس) بأثينا» . فلما تذكرت الجيوش والخزائن التي استنفدت أضافت : «على أن أمارس الاعتدال ، وأقول إن السلم خير من أروع حروب الدنيا» (٧٥) .

وأخذت الآن تحل محل فردريك كأشهر ملوك أوربا ، وتعجب الناس جميعاً من سعيها الحثيث لتحقيق أهدافها ، ومن الامتداد المرعب لسلطانها ، وسافر يوزف الثاني امبراطور النمسا ، الذي طالما انحنى لعبقرية فردريك ، إلى مोजيليف ، ومنها أكمل الرحلة الطويلة إلى سانت بطرسبرج ليلتقى بالقيصرة ويسعى إلى التحالف معها . وفي مايو ١٧٨١ أبرمت مع يوزف ميثاقاً للعمل الموحد في بولنده وضد تركيا .

وكان بوتمكين في غضون هذا يبني لنفسه الشهرة في الجنوب . ذلك أنه نظم وسلاح وأطعم جيشاً جديداً عدته ٣٠٠,٠٠٠ مقاتل ، وبني أسطولاً للبحر الأسود ، له موانئ في سباستبول وأودسا وترسانة في خرسون ، واستعمر أقطار روسيا الجنوبية ذات المستوطنات الضئيلة ، وأسس المدن والقرى ، وأقام المصانع ، وزود المستعمرين بالماشية والآلات والبزار — وكل هذا ليوفر قواعد للتموين في حملة حربية تضيف القرم إلى تاج كاترين ، وربما ليظفر بتاج لنفسه . وتشاجر تثار القرم وانقسموا ، فالآن بوتمكين زعماءهم بالرشا ، فلما غزا شبه الجزيرة في النهاية (ديسمبر ١٧٨٢) لم يلق من المقاومة إلا أقلها ؛ وفي ٨ أبريل ١٧٨٣ ، ورغم احتجاجات تركيا عديمة الجدوى ، ابتلعت مملكة الروس القرم . ورقى بوتمكين مشيراً ، ورئيساً للكلية الحربية ، وأميراً لطورس ، وحاكماً عاماً للقرم . ونفحته الامبراطورة فوق هذا كله

بمكافأة من ١٠٠,٠٠٠ روبل ، أنفقها بولتمكين على الخليلات والشراب والطعام .

ورأت كاترين هي أيضاً ان الوقت قد حان لشيء من الاسترخاء . فجمعت بين اللهو والعمل بترتيبها «رحلة ملكية» فخمة على الياكس والماء تفتش خلالها على فتوحها وتترك انطباعاً قوياً في نفوس هذه الأقاليم — وأوربا كلها — براء بلاطها وأمهته . وفي ٢ يناير ١٧٨٧ ، غادرت القصر الشتوى مدثرة بفرائها وشرعت في رحلتها الطويلة في «برلينيه» أى مركبة مقفلة من الكبر بحيث تحتوى — فضلاً عن شخصها الذى اتسعت أبعاده الآن — عشيقها مامونوف صاحب الخطوة آتند ، وكبيرة وصيفاتها ، وكلباً صغيراً ، ومكتبية صغيرة . وتبعها أربع عشرة عربة و ١٧٠ مركبة جليد ، تحمل سفراء النمسا ، وبريطانيا ، وفرنسا — كوبنزل ، وفترهبرت ، والكونت سييجور — مضافاً إليهم الأمير دلين وجيش من الموظفين والبطانة والموسيقين والخدم . وكان بولتمكين قد سبقها بأيام ليعدها الطريق ، وليضيئه بمئات المشاعل ، وليرتب لكل ليلة وجباتها وأماكن لنوم الجميع . وكان الموكب إذاً بمدينة كبرى استراح يوماً أو يومين ريثما تلتقى القيصرة بوجوه المدينة ، وتستعرض أحوالها ، وتوجه أسئلتها ، وتوزع اللوم أو المكافأة . وبدأت كل مدينة على الطريق في أحسن مظهر عملا بتحذيرات بولتمكين وتعليماته ، فاعطست وتزينت كما لم تفعل قط من قبل ، سعيدة ولو ليوم واحد في حياتها .

وفي كييف أشرف بولتمكين على نقل البلاط المتنقل إلى سبع وثمانين سفينة كان قد أعدها وزينها . وعليها أبحر الراكب الامبراطورى هابطاً الدنيبر . وعلى طول النهر شاهدت كاترين «القرى البولتمكينية» التى هيأها أمير طورس الأريب وجلاها ليدخل السرور إلى قلبها ، وربما ليعترك في نفوس الدبلوماسيين انطباعاً قوياً عن ثراء روسيا . وبعض هذا الثراء ارتجله بولتمكين ، وبعضه كان حقيقياً . «أما أنه شيد القرى الكاذبة على الضفتين ، ودرب الفلاحين ليعلقوا وهماً بما هم عليه من تقدم ، فذلك من شطحات خيال دبلوماسى سكسونى » (٧٦) . فقد قام الأمير دلين بعبدة رحلات

على الشاطئ ليستكشف ما وراء الواجهة ، فقال إنه رغم أن يتمكن لجأ إلى بعض الحيلة ، فإنه (أى دلين) راعته «المنشآت الفخمة وهى بعد فى مهدها ، والمصانع النامية ، والقرى ذات الشوارع المنتظمة التى تحفها الأشجار» (٧٧) . ولعل كاترين نفسها لم تنخدع ، ولكنها ربما استنتجت كما استنتج سيجور ، أنه حتى لو كان نصف ثراء تلك المدن ونظافتها مظهرًا زائلاً ، فإن حقيقة وجود سباسبول فعلاً — المدينة والقلاع والميناء ، وكلها بنى على شواطئ القرم فى عامين — هذه الحقيقة كفت لجعل يتمكن جديراً بالثناء . وقد وصفه الأمير دلين الذى كان يعرف تقريباً كل إنسان ذى شأن فى أوروبا بأنه «أعجب رجل التقى به فى حياتى» (٧٨) .

وفى كانيوف جاء ستانسلاس بونيا توفسكى ملك بولنده ، ليقدم فروض الولاء للمرأة التى منحته حبها وعرشه . وفى موقع أبعد على الدنيبر الأدنى ، عند كايديا كى ، انضم يوزف الثانى إلى الموكب الذى اتخذ طريقه من ثم برا إلى خرسون فالقرم . هنالك داعبت الأمباطورة ، والأمباطور ، والحاكم العام ، أحلامهم بطرد الترك من أوروبا ، فحلمت كاترين بالاستيلاء على الآستانة ، ويوزف بابتلاع البلقان ، وبتمكن بتولى عرش داشيا (رومانيا) . ونصحت إنجلترا وبروسيا السلطان عبد الحميد بأن يوجه ضربته إلى الروس فى غفلة منهم قبل أن يستكملوا استعداداتهم الحربية (٧٩) . وكان فى وقاحة السفير الروسى فى الآستانة ما هياً لتركيا حافزاً إضافياً ، فحبسه السلطان ، وأعلن الجهاد ، وطالب برد القرم ثمناً للصالح . وفى أغسطس ١٧٨٧ عبر الجيش التركى الرئيسى الدانوب وزحف على أوكرانيا .

لقد تعجل يتمكن فى الإعلان عن فرحه ؛ ذلك أن روسيا لم تكن مستعدة بعد للامتحان النهائى ؛ لذلك نصح الامباطورة بالتخلى عن القرم . ولكنها وبختة على جنبه الذى لم تعهده فيه ، ثم أمرته هو وسوفوروف وروميا نتييف أن يعدوا كل القوات المتاحة لهم وينطلقوا للقاء الغزاة ؛ أما هى فقد انسحبت إلى سانت بطرسبرج . ودحر سوفروف الترك فى كلبورون ، وحاصر يتمكن أوشاكوف المشرفة على منافذ دنيبر وبوج . وبينما كان الجهاد والحرب

الصليبية يواجه أحدهما الآخر في جنوبي روسيا ، قررت السويد أن الفرصة واتتها أخيراً لاسترداد ما فقدت من أقاليم . فجدد جوستاف الثالث حلفاً قديماً مع الترك بعد أن شجعته إنجلترا وبروسيا ^(٨١) ، وطالب كاترين بـرد فنلنده وكاريليا للسويد ، والقرم لتركيا . وقد انفصل الحديث عن هذه الحرب في موضع لاحق ، أما الآن فحسبنا أن نقول إن أسطولا سويدياً أنزل بالروس في البلطيق هزيمة فاصلة في ٩ يوليو ١٧٩٩ ، وكان قصف المدفعية السويدية يسمع من القصر الشتوى ؛ وفكرت كاترين في إخلاء عاصمتها . على أن مفوضيها ما لبثوا أن ائقنوا السويد بأن تبرم الصلح (١٥ أغسطس ١٧٩٠) .

وغدت كاترين الآن حرة في تركيز قوات ضد الترك ، وانضمت النمسا إلى روسيا في الحرب . وأنهى بوتمكن حصار أوشاكوف بأن أمر رجاله بالهجوم . مهما كان الثمن . وكلف النصر الروس ثمانية آلاف قتيل ، وختمت المعركة الضارية بمذبحة أئت على الضحايا دون تمييز (١٧ ديسمبر ١٧٨٨) وتقدم بوتمكن ليستولى على بندر ، واستولى النمساويون على بلغراد ، ودحر سوفروف الأتراك في رمنيك (٢٢ سبتمبر ١٧٨٩) . وبدأ أن تركيا مقضى عليها بالفناء .

على أن الدول الغربية أحست أن الموقف يدعو إلى العمل الموحد ضد كاترين أن أريد ألا يقع البوسفور — ذلك المعقل الاستراتيجي — في يدها فتصبح روسيا السيد المتسلط على أوروبا . وبعد موت فردريك الأكبر (١٧٨٩) رأى خليفته فردريك وليم الثاني في فزع تحرك روسيا صوب الآستانة ، وتحرك النمسا في البلقان ؛ وبين روسيا والنمسا وهما بهذه القوة الجديدة ستبيت بروسيا تحت رحمتيهما . وعليه ففي ٣١ يناير ١٧٩٠ ربط حكومته مع الباب العالي في ميثاق ألزمه بأن يعلن الحرب على روسيا والنمسا جميعاً في الربيع ، وبألا يضع السلاح إلا إذا ردت لتركيا كل أقليمها التي خسرتها .

وبدا أن المد السياسي يتحول ضد كاترين . فقد أضعف قوة يوزف الثاني نشوب الثورة في الأراضي الواطئة النمساوية وانتشار الفوضى في المجر ؛ ثم مات في ٢٠ فبراير ١٧٩٠ ، وأبرم خلفه هدنة مع الأتراك . وحث

انجلترا وبروسيا كاترين مرة أخرى على عقد الصلح على أساس الاحتفاظ بكل الأراضي التي تم الاستيلاء عليها في الحرب ؛ ولكنها أبت ؛ ذلك أن استيلاءها على أوشاكوف كان قد فتح الطريق أمام روسيا إلى البحر الأسود ، فهي لا تريد أن تتخلى عن هذا الكسب الحيوي . ثم إن قوادها كانوا يسرون من نصر إلى نصر ، وتوجوا انتصاراتهم باستيلاء سوفوروف وبوتمكين على مدينة اسماعيل (٢٢ ديسمبر ١٧٩٠) ؛ وقد خسر الروس في سبيل الاستيلاء على هذا المعقل التركي الواقع على الدانوب عشرة آلاف مقاتل ، وخسر الترك ثلاثين ألفاً . وبعد هذه الوليمة الدموية انتكس بوتمكين الذي أنهكته الحرب إلى ضرب من الكسل المترف والسفاح الخزي مع بنات أخيه ؛ وفي ١٥ أكتوبر ١٧٩١ مات على طريق قريب من ياسي . وأغشى على كاترين ثلاث مرات في اليوم الذي سمعت فيه نبأ موته .

وفي مارس ١٧٩١ اقترح وليم بت الابن على البرلمان إرسال إنذار نهائي إلى روسيا يطالبها بأن ترد لتركيا كل الأقاليم التي استولت عليها في الحرب الراهنة ، واقترح إرسال أسطول بريطاني إلى البلطيق نذيراً بالحرب . ولم تجب كاترين ، أما البرلمان فقد ثني بت عن إنفاذ مشروعه حين سمع التجار البريطانيون يتحسرون على ضياع تجارتهم مع روسيا . وأما تركيا فقد كفت عن الصراع بعد أن أنهكتها الحرب ، ف وقعت في جماسي (٩ يناير ١٧٩٢) معاهدة أثبتت سيطرة روسيا على القرم وحوضي دنيبر وبوج . وهكذا لم تصل كاترين إلى الآستانة ، ولكنها بلغت ذروة حياتها كأقوى حاكم في أوروبا ، وألمع امرأة في قرنها .

٧ - المرأة

أكانت امرأة ، أم هولة ؟ رأينا أنها في مستهل حكمها كانت فاتنة الجسد ، وفي عام ١٧٨٠ كانت قد سممت ، ولكن هذه السممة لم تفعل بها شيئاً إلا إضافة الثقل إلى العظمة . وقد وصفها الأمير دالين (الذي كان من أوائل من لقبوها «الكبرى» (٨٤) وصفاً مهذباً فقال :

« كانت في ١٧٨٠ لاتزال حسنة الصورة ، وفي استطاعة الناظر إليها ن يستنتج أنها كانت فيما مضى رائعة الجمال أكثر منها وسيمة . ولم يكن بالمرء حاجة إلى فراسة ليقرأ على جبينها ، كما يقرأ في كتاب ، العبقريّة والعدالة والشجاعة والعمق ورباطة الجأش ولطف الطبع والهدوء والتصميم . وقد اكتسبت صدرها الجميل على حساب خصرها الذي كان يوماً ما شديد النحول ؛ ولكن الناس عادة يسمنون في روسيا . . . ولم يلحظ المرء قط أنها قصيرة القامة » (٨٢) .

وقد صورها كاستيرا في كتابته عنها عقب موتها بأنها كانت ترتدى ثوباً أنخضر في احتشام . « كان شعرها المبدر ببودة خفيفة ، يطفو على كتفها ، وتعلوه قلنسوة صغيرة مرصعة بالماس . وفي سنها الأخيرة ألقت أن تستعمل قدراً كبيراً من الروج ، لأنها كانت لاتزال تطمع في ألا تسمح لآثار الزمن أن تبدو على وجهها ، ومن المحتمل أن هذا الطموح وحده هو الذي دعاها للعيش بمنتهى الاعتدال » (٨٣) .

كانت مغرورة ، واعية في غير موارد بثقافتها وسلطتها . قال يوزوف الثاني لكاونتز « إن الغرور مبعودها ، وقد أفسدها الحظ وثقافتها المسرفة » (٨٤) . وفي رأى فردريك الأكبر أن كاترين لو كانت تراسل الله لادعت لنفسها مرتبة مساوية له على الأقل (٨٥) . ومع ذلك كانت تتحدث إلى ديدرو كما يتحدث « رجل إلى رجل » ، ورجت فالكونيه أن يسقط من حديثه لها عبارات المجاملة . وكانت (باستثناء بعض جرائم القتل المحتملة ومذابح الحرب المبررة) لاتقل لطفاً وأنساً عن تشارلز الثاني ملك إنجلترا أو هنري الرابع ملك فرنسا . وفي كل يوم كانت تلقى من نوافذها الخبز لآلاف الطيور التي تجيئها بانتظام لتطعم (٨٦) . وفي سنوات ملأها الأخيرة كانت تطلق العنان بين الحين والحين لنوبات غضب لاتليق بصاحبة السلطان المطلق ، ولكنها حرصت على ألا تصدر أمراً أو توقع ورقة وهي في هذه النوبات البركانية ، وسرعان ما أخذت تشعر بالحجل من هذه التفجرات ، وأخذت

نفسها بالتحكم في أعصابها . أما عن شجاعتها فقد نبذت أوروبا كل شك فيها .

كانت شهوانية بلا مرء ولا مبالاة ، ولكن غرامياتها لا تؤذينا بشيء بقدر ما تؤذينا « حديقة ظباء » لويس الخامس عشر . وقد درجت على ما درج عليه كل حكام زمانها فأخضعت الأخلاق للسياسة ، وأخمدت المشاعر الشخصية إذا عرقلت توسيع رقعة دولتها . وحيث انعدم مثل هذا الصراع كان لها كل حنان المرأة ورقتها ، تحب الأطفال ، وتلاعبهم وتمرح معهم ، وتعلمهم ، وتصنع لهم اللعب . وكانت في رحلاتها تحرص دائماً على أن يطعم الساققون والخدم كما ينبغي أن يطعموا^(٨٧) . وبين الأوراق التي وجدت على منضدتها بعد موتها قبرة كتبها لنفسها ، « كانت تغفر في يسر ، ولا تبغض أحداً ، وإذا كانت متساعجة ، متفهمة ، ذات طبع مرح ، فقد أوتيت روحاً جمهورية وقلباً عطوفاً »^(٨٨) .

ولم تكن عطوفاً على ولدها البكر ، من جهة لأن بولس أخذ منها بعد ولادته بقليل ، وقام على تربيته بانيين وغيره تحت إشراف اليزابت ؛ ومن جهة لأن المؤامرات التي دبرت لخلعها كانت أحياناً تنوى جعله إمبراطوراً تحت الوصاية ؛ ومن جهة لأن بولس طالما نхамره الظن بأن أمه قاتلة بطرس ؛ كذلك لأن بولس « كان يطيل التفكير دائماً في سرقة حقوقه في خلافة أبيه الافتراضية على العرش » . ولكن كاترين تعلق بآبى بولس الساحرين ألكسندر وقسطنطين ، وأشرفت بشخصها على تعليمهما ، وحاولت إبعادهما عن تأثير أبيهما ، وبيتت أن يرث تاجها ألكسندر لا بولس^(٨٩) . أما بولس الذي سعد بزواجه الثاني فكان ينظر في اشمئزاز واضح إلى سلسلة العشاق الذين أمتعوا أمه واستنزفوا موارد الدولة .

أما من الناحية العقلية فقد بزت كاترين كل عشاقها . كانت ترضى جشعهم ، ولكن ندر أن سمحت لهم بتقرير سياستها . وقد أحسنت استيعاب الأدب الفرنسي إلى حد أناح لها مراسلة أقطابه كما يرسل الواحد من جماعة

الفلاسفة صاحبه ؛ لابل إن خطاباتهما لفولتير كانت تنافس خطاباته لها فطنة وتمييزاً ، وتضارعها رشاقة وخفة دم . وكانت رسائلها كثيرة العدد كثرة رسائل فولتير مع أنها كتبتها خلال فواصل دسائس القصر ، والثورات الداخلية ، والدبلوماسية الحرجة ، والحروب التي غيرت خرائط الدول . وكان حديثها يجعل ديبدو دائم التنبه والاستعداد ، ويحرك مشاعر جريم إلى حد الانتشاء . « كان على المرء في تلك اللحظات أن يرى هذا الرأس الفذ الذي هو مزاج من العبقرية والحسن حتى يكون فكرة عن النار التي تحركها ، والسهام التي تطلقها ، والهجمات التي تلاحق ... الهجمة منها الهجمة ... ولو كان في طاقتي أن أدون هذه الأحاديث كلمة كلمة لأتيح للعالم كلها قطعة نفيسة وربما فريدة في تاريخ العقل البشري ^(٩١) . على أنه كان يشرب هذا السيل الدافق من أفكارها اضطراب وعدم استقرار سريعان ؛ فكانت تندفع بأسرع مما ينبغي في مشاريع لم تمنع التفكير فيها ، وكانت أحياناً يهزمها إلحاح الأحداث وكثرة الواجبات . ولكن النتيجة حتى مع هذا كانت هائلة » .

ويبدو أمراً لا يصدق أن نجد كاترين في حياة اضطربت بمثل هذه الأحداث المثيرة سياسية كانت أم حرية وقتاً تكتب فيه قصائد الشعر ، والأخبار التاريخية ، والمذكرات ، والتمثيلات ، ونصوص الأوبرات ، ومقالات المجالات ، وحكايات الجن ، ورسالة علمية عن سيبيريا ، وتاريخاً للأباطرة الرومان ، ومذكرات مستفيضة عن « تاريخ روسيا » وفي ١٧٦٩ — ١٧٧٠ رأت تحرير مجلة هجائية دون أن تعلن عن اسمها ، وكانت هي أهم محرريها . ومن صورها الأدبية صورة وصفت منافقاً في الدين يحضر القداس يومياً ، ويشعل الشموع أمام الصور المقدسة ، ويتمتع بالصدوات في فترات متقطعة ، ولكنه يغش التجار ، ويفترى على الجيران ، ويضرب الخدم ، ويندد بالرديلة الفاشية ويتحسر على الأيام الخالية الطيبة ^(٩٢) . أما حكاية الجن التي كتبها كاترين ، واسمها « الأمير خلور » فتحكى عن شاب خاض مغامرات خطيرة بحثاً عن وردة خرافية بلا شك ، ليكشف في النهاية أنه ليس هناك كهذه إلا الفضيلة ، وقد أصبحت هذه القصة من عيون القصص في الأدب الروسي ، وترجمت إلى لغات كثيرة ؛ وكانت

اثنان من مسرحياتها مآسى تاريخية تقلد شكسبير ؛ ومعظمها فكاهيات بسيطة تسخر من المشعوذين والمغفلين والبخلاء والمتصوفين والمسرفين ، وتهزأ بكاليسثرو ، والماسون ، والمتعصبين الدينيين . هذه التمثيليات كان يعوزها الدقة والصقل ، ولكنها أبهجت الجماهير مع أن كاترين أخفت أنها مؤلفتها ، وقد وضعت هذه العبارة على ستار المسرح الذى شيدته فى الهرماتاج « انه يهذب العادات بالضحك » ؛ وكان هذا خير تعبير عن هدف كوميدياتها . أما أفضل مسرحياتها ، واسمها « أوليج » فكانت تتابعاً رائعاً لمشاهد من تاريخ روسيا ، أشاع فيها الحيرية سبعائة مؤد فى الرقصات والبالهات والألعاب الأولمبية . وكان جل إنتاج كاترين الأدبى يراجع السكرتيون ، لأنها لم تتمكن قط من الهجاء أو النحو الروسى ، ثم أنها لم تأخذ هوايتها للتأليف مأخذ الجلد الشديد ؛ ولكن الأدب استمد الشجاعة من قدوتها الامبراطورية وأضنى على ملكها عظمة نهائية ومجداً تشوبه الشواثب .

٨ — الأدب

أخذت روسيا تشعر بعدم نضجها الفكرى ، فراح جيش من المؤلفين يقلدون فى تواضع النماذج الأجنبية ، أو يترجمون آثاراً حظبت بالشهرة فى فرنسا أو إنجلترا أو ألمانيا . وجادت كاترين بخمسة آلاف روبل من جيبتها الخاص لتشجيع هذا السيل الدخيل ، وترجمت هى نفسها قصة « بليزير » لمارمونتل . فلما تحمس الروس للمشروعات العريضة ترجم رحمانينوف ، أحد ملاك الأرض فى تامبوف ، أعمال فولتير ، وترجم فيريفكين ، رئيس كلية قازان ، إلى الروسية « موسوعة » ديدرو . وترجم غير هؤلاء شكسبير والكلاسيكيات اليونانية واللاتينية ، « وأورشليم المحررة » لتاسو . . .

أما أنجح شعراء العهد فهو جافريل رومانوفتش درزافين . ولد لأسرة رقيقة الحال فى أورنبرج الشرقية ، وكان الدم التتارى يجرى فى عروقه ، فخدم فى فوج بريوبرازنسكى عشرة أعوام ، ورأى كاترين ترقى إلى ذرى السلطة ، وشارك فى إخماد فتنة بوجاشيف ضابطاً فى الجيش ، وشق طريقه صعباً إلى عضوية مجلس الشيوخ . وحين لاحظ درزافين أن الامبراطورة

أطلقت اسم «فليتسا» على أميرة خيرة في قصة «الأمير خلور» ، أطلق هذا الاسم في قصيدة عاطفية شهيرة (١٧٨٢) على «الملكة الشبيهة بالآلهة لقبيلة قرغيز - قازاق» وتوسل إلى هذه السلطانة قائلاً «علميني كيف أجد الوردة التي لاشوك لها . . . وكيف أعيش حياة تجمع بين اللذة والاستقامة» (٩٢)

وحين ناجى الشاعر فليتسا بأن «من قلمها تفيض السعادة على كل البشر الفانين» كان يمتدح كاترين على نحو واضح . وحين لام نفسه «على النوم حتى الظهر ، وتدخين التبغ ، وشرب القهوة . . . وجعل الدنيا ترتعد لنظراتي . . . والانغماس في ولائم فاخرة على مائدة تتألق بالفضة والذهب» ، عرف البلاط كله أن هذه غمزة أراد بها بوتكمين . وقد ارتفع درزافين إلى قمة النشوة في مديح «الإمبراطورة» فليتسا ، التي «تخلق النور من الظلمات ، ولا تؤذى أحداً ، وتقضي عن الهنات ، وتدع الناس يتكلمون كما يشاءون ، وتكتب القصص الخرافية لتعلم شعبها ، وتعلم خلور الأبخدية» (أي حفيدها ألكسندر) . ويختتم الشاعر بقوله : «أتوسل إلى النبي العظيم أن يسمح لي بلمس تراب قدميك ، وأن استمتع بذلك الجدول العذب جدول ألفاظك ولحظك . أنى أتضرع إلى قوى السماء أن تنشر أجنحتها الزرقاء وتحرسك في الخفاء . . . وأن يسطع صيت أعمالك في الأجيال القادمة سطوع النجوم في السماء» (٩٣) . وأكد درزافين أنه لا يطمع في جزاء على كل هذا المديح العطر ، ولكن كاترين رفته ، وما لبث أن قرب منها قرباً بصره بعيوبها ؛ فكف عن كتابة المديح . وانجبه إلى عرش أسمى ونظم «قصيدة غنائية للإله» ، مهتماً إياه تعالى على كونه «ثلاثة - في - واحد» وعلى حفظه السماوات في مثل هذا النظام الجميل . وكان أحياناً يهبط إلى الميتافيزيقا ، ويردد برهان ديكرارت على وجود الله فيقول : «أنا بالطبع موجود ، وإذن فأنت موجود» (٩٤) . وقد ظلت هذه القصيدة الغنائية نصف قرن لا ينافسها شعر في شعبيتها حتى جاء بوشكين .

وقد فاجأ دنيس إيفانوفتش فون فيزين العاصمة بكميديتين رشيقتين هما «اللواء» و «القاصر» . ونجحت الثانية نجاحاً كاملاً حتى أن بوتكمين نصح المؤلف قائلاً «مت الآن ، أو لا تكتب شيئاً بعد اليوم» . بمعنى أن أى شيء يكتبه بعد هذا سيضعف من شهرته (٩٥) . وقد رفض فيزين النصيحة ورأى

تحقيق النبوة التي احتوتها . وفي سنته الأخيرة جاب غربي أوروبا وأرسل إلى وطنه بعض رسائل ممتازة احتوت إحداها نبوءة فيها رثين الإفتخار «نحن (الروس) بادئون ، أما هم (يقصد الفرنسيين) فمتنهمون» (٩٦) .

وأطرف شخصية في أدب عصر كاترين هو نيكولاى إيفانوفتش نوفيكوف . فقد تطور هذا الفتى بعد أن طرد من جامعة موسكو أكسله وتحلفه ليصبح رجلاً ذا نشاط ذهني لا ينى . ففي الخامسة والعشرين (١٧٦٩) ، في سانت بطرسبرج ، رأس تحرير مجلة «الدبور» التي أطلق عليها هذا الاسم بحث شيطاني ليعارض دورية سوماروكوف «النحلة النشيطة» . وقد هاجم نوفيكوف بأسلوبه المرح الفساد الذي استشرى في الحكومة ، وهاجم الإلحاد الفولتيرى السائد في الطبقات العليا لأنه مدمر الأخلاق والشخصية ؛ وامتنح بالمقارنة ما افترض وجوده من إيمان الروس المسلم وأخلاقهم المثالية قبل بطرس الأكبر . «وكان قدامى الحكام الروس قد توقعوا أن إدخال الفنون والعلوم سيقضى قضاء مبرماً على أئمن كنز مملكة الروس — وهو أخلاقهم» (٩٧) . هنا أيضاً كان روسو يخوض حرباً مع فولتير . وحدثت كاترين «الدبور» بنظرات متجهمة ، فاحتجبت في ١٧٧٠ . وفي ١٧٧٥ انضم نوفيكوف إلى الماسون الأحرار ، الذين كانوا يزعون في روسيا إلى الغيبة ، والتقوية ، والأوهام «الروزكروشية» (٩٨) بينما اخوانهم في فرنسا يدعون الثورة . وفي ١٧٧٩ انتقل إلى موسكو ، واضطلع بأعمال مطبعة الجامعة ، ونشر في ثلاث سنوات من الكتب عدداً يفوق ما أخرجه تلك المطبعة في أربع وعشرين سنة . وحصل بمعونة مالية من صديق له على مزيد من المطابع ، وكون داراً للنشر ، وفتح مكتبات لبيع الكتب في جميع أرجاء روسيا ، وأذاع نشر إنجيله في الدين والإصلاح . وأسس المدارس ، والمستشفيات ، والمستوصفات والبيوت النموذجية للأعمال .

فلما أحالت الثورة الفرنسية كاترين من حاكمة مستبدة مستنيرة إلى حاكمة

(*) Rosicrucian نسبة لجمعية سرية اشتهرت في القرنين الـ ١٧ والـ ١٨ وزعمت أنها تملك معرفة سرية للطبيعة والدين . (المترجم)

مستبدة مذعورة ، خشيت أن يكون نوفيكونوف بسبيل قلب النظام القائم . فأمرت بلاتون ، مطران موسكو ، أن يفحص أفكار نوفيكونوف . وكتب الحبر يقول : «أضرع إلى الله الواسع الرحمة أن يكون هناك مسيحيون مثل نوفيكونوف ، لا في القطيع الذي وكله الله وأنت إلى فحسب ، بل في العالم بأسره» (٩٨) . ولكن الإمبراطورة التي ظلت على ريتها رغم ذلك أمرت بسجن نوفيكونوف في قلعة شلوسلبورج (١٧٩٢) . هناك ظل حبساً حتى ماتت كاترين . فلما أفرج عنه بولس الأول اعتكف في ضيعته بتخفين ، وأنفق سنيه الأخيرة في التقوى وأعمال البر .

أما ألكسندر نيكولايفتش راد شتشف فقد لقي حظاً أشد عثاراً . أوفدته كاترين إلى جامعة ليبزج ، فتعرف إلى بعض أعمال جماعة الفلاسفة ، وأثر فيه بنوع خاص كتاب روسو «العقد الاجتماعي» كما أثر فيه فضح رينال لوحشية الأوربيين في استغلال المستعمرات وتجارة الرقيق . وعاد إلى سانت بطرسبرج وهو يضطرم بالمثل الاجتماعية ، فلما وكلت إليه إدارة الجمرك تعلم الإنجليزية ليتعامل مع التجار البريطانيين ، ودرس الأدب الإنجليزي ، وأثر فيه خاصة كتاب ستيرن «رحلة عاطفية» . وفي ١٧٩٠ نشر كتاباً من عيون الأدب الروسي اسمه «رحلة من سانت بطرسبرج إلى موسكو» . وقد أقر الكتاب بالإيمان القويم ، ولكنه ندد بخدع القساوسة التي يحتالون بها على ساذجة الشعب ؛ وقبل النظام الملكي ، ولكنه برر الثورة على الحاكم الذي ينتهك «العقد الاجتماعي» بتجاهله للقانون . ووصف تمزيق نظام التجنيد الإجباري لأوصال الأسر ، وبغى السادة على أقنانهم . وقال راد شتشف إنه أخبر في أحد الأماكن بنياً مالك هتلك عرض ستين فلاحه عذراء . ثم شهر بالرقابة ودافع عن حرية الصحافة . ولم يكن داعية للثورة ، ولكنه طلب النفعهم الرحيم لمن يدعون إليها . وناشد النبلاء والحكومة لإنهاء القنينة . «فلترق قلوبكم أيها القساة ؛ حطموها أغلال اخوتكم ، وافتحوا سجون الرق . إن الفلاح الذي يهبنا العافية والحياة الحق في التصرف في الأرض التي يفلحها» (٩٩) .

ومن عجب أن الرقيب أجاز الكتاب . ولكن كاترين خافت في ١٧٩٠ أن يحدو شعبها حذو الثورة الفرنسية . فدونت ملاحظة بضرورة عقاب معتصب العذارى الستين ، ولكنها أمرت بمحاكمة راد شتشفيف بتهمة الخيانة . ووجدت في كتابه فقرات عن اقتحام الحصون وثورة الجنود على قيصر قانس ، ومدايح للانجليز لمقاومتهم ملكاً ظالماً . فحكم مجلس الشيوخ على المؤلف بالإعدام ؛ وخففت كاترين الحكم إلى النفي عشر سنين في سيبيريا . وسمح الامبراطور بولس الأول لراد شتشفيف بالعودة من المنفى (١٧٩٦) ، ثم دعاه ألكسندر الأول إلى سانت بطرسبرج (١٨٠١) . وهناك انتحر بعد سنة ، لأنه ظن دون مبرر أنه سينفى ثانية . ومصيره ومصير نوفيكوف من الوصمات الكثيرة التي تلتطخ عهداً رائعاً .

٩ — الفن

صنعت كاترين للفن أكثر قليلاً مما صنعته للأدب ، لأن الفن لا يستهوى غير الطبقات العليا ، ولا يقرع ناقوس الثورة . ولكن الموسيقى الشعبية كانت ثورية دون قصد منها ، لأن كلها تقريباً تألف من أغان حزينة في مقام صغير وبمصاحبة شاكية باكية ، لا تحكى قصة القلوب التي انفطرت حباً فحسب ، بل الأنفس التي براها الكد والكدح . ونذر أن سمع النبلاء تلك الأغاني ، ولكنهم استمتعوا بالأوبرات الإيطالية التي جلبها إلى سانت بطرسبرج جالوبي ، وبايزيللو ، وسالبيري وتشماروزا ، الذين كانت الدولة تدفع أجورهم كلهم ، أما كاترين نفسها فلم تكون شديدة الحب للأوبرا . قالت « لا أستطيع في الموسيقى أن أميز نغمات غير نغمات كلاوي التسعة ، التي يشترك كل منها بدوره في شرف الوجود في حجرتي ، والتي أستطيع التعرف على صوت كل كلب منها عن بعد » (١١٠) .

ثم اعترفت أيضاً أنها لا تملك القدرة على فهم الفن . وقد بذلت وسعها لترى هذا الفهم في روسيا . فوفرت المال الذي يمكن بتسكى من أن يدير بالفعل (١٧٦٤) عجلة أكاديمية الفنون التي أنشئت أيام الزابث (١٧٥٧) . واشترت روائع الفن المعترف بقيمتها في الخارج وعرضتها في قاعات تحفها ،

فدفعت ١٨٠,٠٠٠ روبل ثمناً لمجموعة الكونت فون برول في درسدن ،
و ٤١,٠٠٠ جنيه ثمناً لمجموعة السير روبرت ولبول في هوتن هول ،
و ٤٤١,٠٠٠ فرنك لمجموعة شوازيل ، و ٤٦٠,٠٠٠ لمجموعة كروزا .
وقد عقدت بهذا كله صفقات رابحة دون أن تدري ، لأن هذه المجموعات
التي التقطتها من هنا وهناك ضمت ألفا ومائة لوحة من أعمال رفائيل ،
وبوسان ، وفاندليك ، ورمبرانت ، وغيرها من التحف الخالدة التي زادت
قيمتها مع الزمن وهبوط العملة . واستطاعت من طريق جريم وديدرو
(الذين كانت تتابع نشاط صالونيهما باهتمام) أن تكلف برسم اللوحات فنانين
فرنسيين — أمثال فرنيه ، وشاردان ، وهودون — ونسخت لها كطليها
بالحجم الطبيعي لوحات جصية من أعمال رفائيل في الفاتيكان وبنيت قاعة
خاصة بها في الأرميتاج .

ولم تكلف الفنانين الوطنيين إلا بالقليل ، لأن ذوقها الفرنسي لم يجد
في فن جيلها الروسي غير القليل مما له قيمة باقية . . على أنها قدمت المال
لتعليم وإعالة الطلاب في أكاديمية الفنون وأوفدت عدداً منهم للدراسة في غربي
أوربا . وفي تلك الأكاديمية تخرج رسام أحداث التاريخ أنطون ارزنكو ،
ورساما الأشخاص ديمتري ليفتسكي وفلاديمير بوروفيكوفسكي .
أما لوزنكوا فقد قضى خمس سنين في باريس وثلاثاً في روما ثم عاد
إلى سانت بطرسبرج (١٧٦٩) ليعلم في الأكاديمية . وقد أثار ضجة ببلوخته
المسماة « فلاديمير أمام روجنيديا » . ولكنه — ربما الفداحة واجباته الأكاديمية —
أنفق في أن ينتج الروائع المنتظرة منه ، ثم اختطفه الموت وهو في السادسة
والثلاثين (١٧٧٣) . وأما ليفتسكي فقد استخدمته كاترين ليرسم بعض
الشباب اللاتي كن يدرسن بمعهد سمولني ؛ والنتيجة شاهد بجاهلن الرائع .
وقد سرت اللوحة التي صور فيها كاترين بدانتها تحت أردية فضفاضة .
كذلك جلست لتصورها مدام فييجه لبرون ، وكانت من بين الفنانات
الفرنسيات الكثيرات اللاتي دعتن كاترين لأضفاء الرشاقة الفرنسية على
الفن الروسي .

وأعظم فنانها الذين استفادتهم كان فالكونيه . قدم في ١٧٦٦ . وأقام
في روسيا اثنتي عشرة سنة . وقد طلبت إليه كاترين أن يصمم ويصب

بالبرونز تمثالاً لبطرس الأكبر ممطياً جواده . وكان قد جلب معه شابة تدعى ماري — آن — كولو ، كانت النموذج لرأس التمثال الضخم . وتحدى فالكوفيه قوانين الفيزياء بتمثيله الحصان يقفز في الهواء ، وقائمناه الخلفيتان فقط تلمسان أرضاً صلبة ، هي صخرة ضخمة جلبت من كاريليا لترمز إلى المقاومة الهائلة التي تغلب عليها بطرس ؛ وتحيةً للتوازن أظهر فالكوفيه حية نحاسية — رمزاً للحسد — تلدغ ذيل الحصان . وقد احتفظت هذه الرائعة الفنية بتوازنها بينما تغيرت سانت بطرس برج إلى بتروجراد ثم إلى لنینجراد . واستغرق فالكوفيه في هذا العمل وقتاً أطول مما توقعته كاترين ؛ ففقدت اهتمامها به ، وأهملت التمثال ، فعاد إلى باريس وقد خاب أمله فيها ، وفي روسيا ، وفي الحياة .

وفي ١٧٥٨ وفد نيكولا — فرانسوا جيهيه من فرنسا ليعلم النحت في الأكاديمية . وقد نبغ ثلاثة من تلاميذه في عهد كاترين : تشوين وكوزلوفسكى وشخيدارين . أما تشوين فقد كلفه بوتركين بنحت تمثال « كاترين الثانية » لقاعة قصر ناوريدا المقببة (الروتندا) ؛ وقد وصف الخبراء التمثال بأنه « عديم الحياة بارد^(١١) » ، وكذلك يبدو التمثال الذى نحتته تشوين لبوتركين . أما كوزلوفسكى فقد انتهى إلى مثل هذا الجمود في المقبرة التي نحتها للمرشاش سوفوروف ، وحتى في تمثاله لآله الحب كيوبيد . أما شيوخدرين فجعل أعماله أنتجها في عهد ألكسند الأول : فإلى عام ١٨١٢ ينتمى تمثاله المسمى « الكرتيدات يسندن الكرة السماوية » — وترى فيه امرأة تحمل الدنيا . . . وقد تخصص إيفان بتروفتش مارتوس في التماثيل الجنائزية ، وحفلت الجبانات في بطرسبرج بتماثيله « الباكية » ؛ وقد قيل عنه أنه « أبكى الرخام » وقد تخلف النحت الوطنى إلا في تقليده للطرز الأجنبية . وكانت الكنائس الأرثوذكسية تحرم التماثيل وقنع النبلاء بالفنانين الذين يعثرون عليهم بين أقنانهم .

ولكن المعيار ازدهر في عهد كاترين ، لأنها صممت على أن تترك بصمتها على عاصمتها . قالت « ان المباني العظيمة تعلن عظمة الحكم ببلاغة لا تقل عن بلاغة الأعمال العظيمة »^(١٢) . وكتبت في ١٧٧٩ تقول « أنت تعلم أن هوس البناء أقوى اليوم عندنا مما كان في أى وقت مضى ، ولم يهدم

زلزال قط عمائر قدر العائز التي شيدناها . . . وهذا الهوس شيء لعين ، فهو ينضب المال ، وكلما بنينا ازددنا رغبة في البناء ، إنه مرض كالسكر بالحمى » (١١٣) . ومع أنها قالت لفالكوניה « انى لا أعرف حتى كيف أرسم » فقد كان لها رأيها الخاص في الفن ، أو قل رأى تأثر بالحفائر الرومانية في هر كولانيوم وكتب كايوس وفنكلمان . فقلت ظهرها للباروك المزوق والروكوك الزاهى ، وهما طرازان سادا في عهد اليزابث ، وفضلت عليهما الطراز الكلاسيكى الجديد الأكثر بساطة ونقاء . وقد عزا إليها بعض معاصريها فضل اصدار التعليمات الواضحة المحددة والرسوم التخطيطية التمهيدية لمعاريها (١١٤) .

فلما افتقدت الفنانين الوطنيين الذين يحققون لها أفكارها ، ولت وجهها شطر غربى أوربا التماساً لرجال ورثوا التقاليد الكلاسيكية . وهكذا قدم جان باتست فالان دلا موت ، الذى شيد لها على نهر نيفا قصر أكاديمية الفنون (١٧٦٥ - ٧٢) وله واجهة بطراز النهضة من آجر مكسو ورواق معمد كلاسيكى ، وداخله سلم نصف مستدير فخم يفضى إلى قاعة مستديرة تعلوها قبة . وبني فلان ملحفاً للقصر الشتوى هو الأرميتاج الشهير ، الذى كانت كاترين تراه ملاذاً تحتوى به من مراسيم البلاط ، ولكنه أصبح قاعة تحفها ، وهو اليوم من أهم متاحف العالم . وقالت كاترين في وصفه لجريم عام ١٧٩٠ « أنه خلوتى الصغيرة ، في موقع مناسب بحيث لا يكلفنى الذهاب إليه أو الإياب منه إلى حجرتى أكثر من ثلاثة آلاف خطوة . . هناك أجول بين طائفة من الأشياء التى أحبها وأزهو بها ، وتلك الجولات الشتوية هى التى تحفظ على عافيتى » (١١٥) .

ومن فرنسا أيضاً قدم الاسكتلندى تشارلز كامرون ، الذى درس الزخرفة الكلاسيكية في وطنه . وقد اشتهجت كاترين بالأشراق والرقعة اللذين كان يزين بهما — بالفضة واللاكىه والزجاج واليشب والعقيق والرخام المتعدد الألوان — الجناح الخاص الذى احتفظت به لنفسها ولعشاقها وكلاهما في « القصر العظيم » بتسارسكو سيلو . كتبت تقول « لم أرقط ضريباً لهذه

الحجرات حديثة الزخرف ؛ ولم أمل قط طوال الأسابيع التسعة الأخيرة من تأملها » (١٠٦) . وحول هذا القصر خططت لها حديقة بالطراز « الطبيعي » و « الانجليزي » ، وصفتها في خطاب إلى فولتير فقالت : « إنني الآن أهتم جداً بالحدائق الانجليزية الطراز ، بخطوطها القصيرة ، والمنحنية ، ومنحدراتها المدرجة في رفق ، وبركها وبحيراتها . . . إنني شديدة النفور من الخطوط المستقيمة ؛ وباختصار أقول أن الهوس الانجليزي (الانجلومانيا) يسيطر على هوسي بالنبات » (١٠٧) . وقد بنى كامرون لولدها بولس وزوجته الثانية الفاتنة في بافلوفسك (وهي ضاحية أخرى من ضواحي العاصمة) قصرأ بطراز الفيلا الإيطالية ؛ هنا حفظ الغراندوق وماريا فيودوروفنا التحف التي جمعها في رحلاتهما في غرب أوروبا .

ومن إيطاليا أقبل انطونيو رينالدي ، الذي بنى قصرين باذخين أهدتهما كاترين لجريجوري أورلوف ، قصر الرخام على نهر نيفا ، وقصر جاتشينا قرب تسارسكوسيلو ، الذي أصبح المسكن المفضل عند بولس الأول . ومن إيطاليا جاء جاكومو كوارنجي ، الذي استهوته المعابد اليونانية في بايستوم وروائع بالاديوني قشنتشا . وفي ١٧٨٠ عرض على كاترين عن طريق جريم تصميمات ونماذج لأبنية شتى كان يؤمل تشييدها . وافتتنت بها كاترين ومنذ ذلك التاريخ حتى ١٨١٥ شيد كوارنجي في سانت بطرسبرج أوعلى مقربة منها العدد الوفير من المباني بالطراز الكلاسيكي ، مسرح الأرميتاج ، ومعهد سمولني (الذي ألحقه بدير سمولني في راستريللي) ، ومصرف الإمبراطورية ، ومصلى الطريقة المالطية ، والقصر الانجليزي في بيترهوف ، وقصر ألكسندر في تسارسكوسيلو . وقد صمم هذا القصر لحفيد كاترين الذي أصبح فيما بعد ألكسندر الأول ، والذي انتقل إليه في ١٧٩٣ ، بعد الفراغ من تشييده بعامين . « إنه من روائع معمار القرن الثامن عشر » (١٠٨) . (*)

(*) كان القصر المفضل لدى القيصر نيقولا الثاني : ومنه فر إلى سيبيريا والموت في ١٩١٧ . وقد حوله السوفييت متحفا . ولحقت به أضرار بالغة في الحرب العالمية الثانية . ولكنه رمم .

ولكن ألم يكن هناك معماريون روس ينفقون روبلات كاترين ؟ بلى .
فقد حداها الأمل في ترك أثر يخلد ذكرها في موسكو إلى أن تكلف فاسيلي
بازينيف بتصميم « كرمين » من الحجر ليحل محل كرمين إيفان الأكبر
المبنى بالآجر . وصمم بازينيف قصرأ هائلا لو قام لتضاعل بالقياس إليه
قصر فرساي ؛ والذين رأوا نموذج الخشبى — الذى تكلف ستين ألف روبل —
تعجبوا من براعته . غير أن الأساسات التى أرسيت ليقوم عليها هبطت
بهبوط التربة بفعل نهر موسكو ، فنكصت كاترين عن المغامرة على أنها
دبرت المال الذى أتاح لإيفان ستاروف أن يبنى على ضفة نيفا اليسرى قصر
تاوريديا ، وأهدت هذا القصر المنيف إلى بوتمكين تخليداً لفتح القرم .

وأيا كانت تكلفة نفقات المباني التى شيدتها كاترين فإنها حققت هدفها .
كتب ماسون المعاصر لها يقول : « إن الرجل الفرنسى بعد دورانه على
شواطئ بروسيا الماحلة وشقه سهول ليفونيا المقفرة التى لم تزرع ، تأخذه
الدهشة والظرب إذ يعثر مرة أخرى وسط بيداء مترامية على مدينة كبيرة
فخمة ، تزخر بمجتمع راق وبأسباب الترويح والفنون وألوان الترف التى
خالها لاتوجد إلا فى باريس » (١٠٩) . أما الأمير دلين فبعد أن شهد أوروبا
كلها تقريباً خلص إلى أنه « رغم ما فى كاترين من عيوب ، فإن الصروح
التي شيدتها ، العامة منها والخاصة ، تجعل سانت بطرسبرج أبداع مدينة
فى العالم » (١١٠) ولا عجب ، فقد حول لحم عشرة ملايين من الفلاحين
ودمهم إلى طوب وحجر .

١٠ — خاتمة المطاف

لو أن كاترين سئلت لينت — كما هو دأب الحكام طوال العصور
والأزمان — أنه ما دام الموت حقاً على البشر على أية حال ، فلم لا يسخر
الحكام عبقرية الرجال لتوجيه هؤلاء الأحياء المطاردين والبشر المقضى عليهم
لا محالة بالموت ، لجعل الدولة قوية ، وجعل مدنها عظيمة ؟ لقد عودتها
سنوات السلطان ، وتحديات الثورة والحرب ، وتقلبات النصر والهزيمة ،

أن تطبيق آلام الغير دون أن تجفل ، وأن تغضى عن استغلال الأقوياء للضعفاء باعتبارها شراً لا قبل لها بعلاجه .

وقد أزهبتها الثورة الفرنسية بعد ما أزعجها العديد من المؤامرات لخلعها وأخافها فتنة بوجاشيف . وقد اطاقها راضية حين توقعت ألا تكون أكثر من إطاحة بارستقراطية عاطلة وحكومة عاجزة ؛ ولكن حين أكره حشد من رعاى باريس لويس السادس عشر ومارى انطوانيت على ترك فرساي وسكنى التويلرى وسط جماهير أفلت زمامها — وحين أعلنت الجمعية التأسيسية أنها صاحبة السلطة العليا ، وحين ارتضى لويس أن يكون الأداة المنفذة لأوامرها لاغير — عندها ارتعدت كاترين فرقاً من التشجيع الذى أعطى بالمثل للذين سعوا إلى أن يفعلوا نظير هذا فى روسيا . فسمحت للأكليروس بأن يحظروا نشر أعمال فولتير التى كانت يوماً ما موضع حجبها (١٧٨٩) (١١١) . ثم حرمت هى ذاتها بعد قليل جميع المطبوعات الفرنسية ؛ ونقلت تماثيل فولتير النصفية من قاعاتها إلى حجرة لسقط المتاع (١٧٩٢) (١١٢) ثم نفت المثالى راديشتشيف (١٧٩٠) ، وسجنت نوفيكوف المشرب بروح خدمة المجتمع (١٧٩٢) ، وفرضت رقابة تفتيشية على الأدب والمسرحيات . فلما قطع رأسا لويس السادس عشر ومارى انطوانيت بالجيلوتين (١٧٩٣) قطعت صلاتها مع الحكومة الفرنسية ، وحضت الملكيات الأوروبية على تأليف تحالف ضد فرنسا . ولم تنضم هى ذاتها لذلك التحالف ، بل استعملته لتشغل به الدول الغربية ريثما تتم ابتلاعها لبولنده . وقد قالت لأحد دبلوماسيها « إن كثيراً من مشروعاتى لم يستكمل بعد ، ويجب شغل بلاطى برلين وفيينا حتى يتركنا طلقاء بغير قيود » (١١٣) .

على أن آثاراً ضئيلة تخلفت من تحررها القديم وبقيت حتى ١٧٩٣ . فى ذلك العام أبلغها أحد الخاشية أن فردريك — سيزار دلاهارب ، الذى كان المعلم الخاص لحفيديها ، جمهورى عنيد . فأرسلت فى طلبه وأنبأته بالخبر ، فأجاب « ان جلالتك كنت على علم قبل أن تكلى إلى تعليم الغراندوقين اننى سويسرى ، ولإذن فجمهورى » ثم رجاها أن تمتحن تلميذه ، وأن

تحكم على عمله من سلوكهما . ولكنها كانت تعلم كم أحسن تعليمهما ، فقالت له « سيدى ، لتكن يعقوبيا أو جمهوريا أو ماشئت ، لئن مؤمنة بأنك رجل أمين ، وهذا يكفينى . فابق مع حفيدى واحتفظ بكامل ثقى ، وعلمهما بما عهدته فيك من غيرة » (١١٤) .

وفى وسط هذا الضجيج اتخذت آخر عشاقها (١٧٨٩) وهو بلاتون زوبوف . وكان فى الخامسة والعشرين ، وهى فى الحادية والستين . وكتبت لعشيقها « الشرفى » بوتكين تقول : « عدت إلى الحياة كأنى ذبابة خدرها البرد » (١١٥) . واقترح « تلميذها » الحديد هجوماً مثلث الشعب على تركيا : جيش روسى بقيادة أخيه فاليران ذى الأربعة والعشرين ربيعاً يعبر القوقاز إلى فارس ويقطع كل تجارة الياپس بين تركيا والشرق ؛ وجيش ثان بقيادة سوفوروف يتغلغل فى البلقان ليحاصر الآستانة ؛ ثم أسطول البحر الأسود الروسى ، تحت إمرة الامبراطورة نفسها ليتسلط على البوسفور . وبعد سنوات من الإعداد بدىء بتنفيذ هذه المغامرة الملحمية (١٧٩٦) واسولى الروس على دربنت وباكو ؛ وتطلعت كاترين إلى انتصارات تكمل برنامجها وتتوج حياتها .

وفى صباح ١٧ نوفمبر ١٧٩٦ بدت مرحلة كالعادة . وبعد الفطور اعتكفت فى حجرتها . ومضى وقت ولم تظهر ثانية ، فقرعت خادمتها الباب ، فلما لم تجب دخلت ، فوجدت الامبراطورة منبعلحة على الأرض ، صريعة انفجار شريان فى الدماغ ، وفصدت مرتين ، وأفاقت لحظة ، ولكنها فقدت النطق . وفى العاشرة من مساء ذلك اليوم لفظت أنفاسها .

وأحس أعداؤها أنها لا تستحق ميتة رحيمة كهذه . ولم يغفروا لها قط تلك التناقضات بين مزاعمها التحررية وحكمها الاستبدادى ، وضيقها بالمعارضة ، وإخفاقها فى تنفيذ الإصلاح المقترح للقانون الروسى ، واستسلامها للنبلاء فى توسيعها للقمية . ولم تحمد لها انتصاراتها تلك الأسر التى أفقرتها الضرائب الباهظة ، أو التى ثكلت أبنائها بسبب حروبها . ولكن الشعب فى جملمته صفق لها لأنها مدت روسيا إلى حدود أرحب وأكثر أمنا . لقد

أضافت ٢٠٠,٠٠٠ ميل مربع لمساحة روسيا ، وفتحت ثغوراً جديدة لتجارة روسيا ، وزادت السكان من تسعة عشر إلى ستة وثلاثين مليوناً . وكانت عديمة الضمير في دبلوماسيتها - ربما أكثر قليلاً من معظم حكام ذلك العهد في ابتلاعها بولنده .

أما أعظم منجزاتها فهو مواصلة جهود بطرس الأكبر لإدخال روسيا في نطاق الحضارة الغربية . وبينما كان بطرس يفكر في هذا الهدف بلغة التكنولوجيا ، كانت كاترين تفكر فيه أولاً بلغة الثقافة ، فاستطاعت بقوة شخصيتها وشجاعته أن تنتزع الطبقات المتعلمة في روسيا من العصور الوسطى وتدفعها إلى فلك الفكر الحديث في الأدب والفلسفة والعلوم والفنون . وكانت بين أندادها من الحكام المسيحيين (باستثناء فردريك الثاني غير المسيحي) سباقة إلى توطيد التسامح الديني . وقد عقد مؤرخ فرنسي مقارنة فضلها فيها على الملك الأعظم (لويس ١٤) قال « إن سماحة كاترين ، وبهاء حكمها ، وفخامة بلاطها ومنشأتها ، وآثارها ، وحروبها - هذا كله كان بالنسبة لروسيا بالضبط ما كانه عصر لويس الرابع عشر بالنسبة لأوروبا . غير أن كاترين إذا نظرنا إليها كفرد وجدناها أعظم من هذا الملك . ذلك أن الفرنسيين هم الذين بنوا مجد لويس ، أما كاترين فهي التي بنت مجد الروس . ولم يتح لها كما أتيت له ميزة حكم شعب مهذب ، ولا أحيطت منذ طفولتها بشخصيات عظيمة مثقفة » (١١٦) .

وفي تقدير مؤرخ انجليزي أن كاترين « هي الحاكمة الوحيدة التي فاقت إليزابيث ملكة إنجلترا كفاءة ، وهي تعدلها من حيث الأهمية الباقية لأعمالها » (١١٧) . وقال مؤرخ ألماني « كان كل ما فيها « كائناتاً سياسياً » ، لا ضريب لها من جنس النساء في التاريخ الحديث ، ولكنها في الوقت ذاته امرأة خالصة ، وسيدة عظيمة » (١١٨) ، ويجوز لنا أن نطبق عليها المبدأ السامح الذي وضعه جوته : كانت عيوبها عدوى انتقلت إليها من جيلها ، أما فضائلها فكانت من صنعها هي . »

الفصل التاسع عشر

اغتصاب بولنده

١٧١٥ - ١٧٩٥

١ - نظرة عامة على بولنده : ١٧١٥ - ١٧٦٤

كانت الجغرافيا ، والعرق ، والدين ، والسياسة ، هي الأعداء الطبيعية لبولنده . ذلك أن هذا القطر كان يعدل فرنسا اتساعاً ، إذ امتد عام ١٧١٥ من الأودر غرباً إلى ما يقرب من سمولنسك وكيف شرقاً ، ولكن لم يكن له حد طبيعي - من جبال أو نهر عريض - على أى جهة ليقه شر الغزو ؛ وقد اشتق اسم بولنده من كلمة « pole » وهو السهل . ولم يكن لها سوى منفذ واحد إلى البحر - عند داننرج ، أما الفستولا الذى وجد له مصباً هناك ، فلم يكن بالحد الذى يصلح للدفاع ضد بروسيا المجاورة . وقد افتقدت الأمة وحدة العرق ، فكانت كثرة البولنديين البالغة ٦,٥٠٠,٠٠٠ نسمة (١٧١٥) فى صراع متقطع مع الأقليات الألمانية واليهودية واللوانية والروسية ؛ وهنا التقي النيوتون والسلاف وجهاً لوجه فى عداء طبيعى . ولم يكن هناك وحدة دينية : فالأغلبية الكاثوليكية الرومانية تحكم وتظلم «المشقيين» - وهؤلاء هم الآخرون منقسمون فى نزاع وخصام بين بروتستانت وروم أرثوذكس ويهود . ولم يكن هناك وحدة سياسية ، لأن سلطة السيادة التى حرص أصحابها على الاحتفاظ بها كانت فى يد «السجم» أو «الديت» ، المؤلف كله من نبلاء لكل منهم ، بمقتضى حق النقض المطلق ، سلطة إبطال مفعول أى اقتراح يقترحه الباقيون كلهم ، وإنهاء أى دورة ، أو أى ديت منتخب . ان شاء . أما الملك فينتخبه الديت ، وهو خاضع لـ « مواثيق » يوقعها شرطاً

لانتخابه ، ولم يكن في استطاعته أن يتبع أى سياسة طويلة المدى وهو مطمئن أقل اطمئنان إلى توريث تاجه لذريته أو تلقى التأييد المتصل . وقد طالب النبلاء بهذه السلطة غير المقيدة على التشريع لأن كلا منهم أراد أن يكون مطلق الحرية في السيطرة على أراضيهم وأقنانه . ولكن التقييد روح الحرية ، فما إن تصبح الحرية مطلقة حتى تقضى عليها الفوضى ، وتاريخ بولنده بعد سجان سويسكى كان سجلاً للفوضى .

وكان أكثر الأرض يزرعه أقنان يرسفون في قيود ذل إقطاعي لامغيث لهم منه . وكان السيد الإقطاعي أحياناً رفيقاً بهم ، ولكنه كان دائماً مطلق السلطة . وأما أقنانه فلم يدينوا له فقط بجزء محصول الذى يقدره ويعطاهم به ، بل كان لزاماً عليهم أيضاً أن يعطوه من كدهم ، دون أجر ، عمل يومين أو ثلاثة في ضيعته كل أسبوع . ومن حسن الحظ أن الأرض الجيدة الرى كانت خصبة ، فوجد الفلاحون ما يكفى لإقامة أودهم ، ولكن كوكس وصفهم بأنهم « أشد فقراً وذلاً وشقاء من أى شعب لاحظناه في رحلاتنا »^(١). وكان سادتهم المحليون هم الطبقة الدنيا من النبلاء أو صغار الأعيان (شلاختا) ، وهؤلاء الملاك بدورهم كانوا خاضعين لنحو مائة من الأقطاب الذين يملكون أو يشرفون على مساحات شاسعة . وكان صغار الأعيان يشغلون معظم الوظائف التنفيذية في الدولة ، وهم من الناحية النظرية يؤلفون الغالبية في مجلس السجم ، ولكن السياسة البولندية كانت من الناحية الفعلية صراعاً بين الأقطاب أو أسرهم ، الذين يتلاعبون بمجموعات من صغار الأعيان مستعينين بالنفوذ الاقتصادي أو الرشوة المباشرة^(٢) .

وظلت الأسرة في بولنده تحتفظ بأفضليتها البدائية على الدولة . فكان آل رادزيفل ، وآل بوتوكى ، وآل تشارتورييسكى ، كل منهم يترابط أفراداً بعاطفة من التماسك الأسرى أوثق من أى رباط قوى ؛ هنا كان حب الوطن هو حرفياً احترام الأب وتبجيله ، والأب الأكبر سناً فوق كل شئ . وكانت الأسرة قوية كنظام أو مؤسسة ، لأنها كانت وحدة الإنتاج الاقتصادي والتأديب الأخلاقى ، فلم يكن هناك نزعة فردانية اقتصادية تشتت الأبناء

في أرجاء الوطن ؛ والإبن يقيم عادة في الضيعة الموروثة ، خاضعاً لأمر أبيه مادام الأب حياً . وزكت الأسرة بفضل وحدة السلطة ، هذه الوحدة ذاتها التي أضعفت الدولة افتقادها . وكانت كل ثروة الأسرة تحت إشراف أبوى مركز ، وفي كثير من الحالات كانت تزداد من عام إلى عام بفضل أرباح الاستغلال والتصدير المعاد استثمارها من جديد ، وفي حالات عديدة فاقت ثروة الملك نفسه . وكان عشرون أسرة بولندية في القرن الثامن عشر ينفق كل منها أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ جنيه في العام على البيت (٣) . وكانت الأسرة القوية تسمى بيتاً بلاطاً ، له مستخدموه ، وجيشه الخاص ، وخدمه الكثيرون ، ومظاهر الأبهة الشبيهة بأبهة المارك ؛ من ذلك أن الأمير كارول رادزيفيل ، الذي بلغت مساحة أرضه نصف مساحة بولنده ، أُولم في ١٧٨٩ وليمة لأربعة آلاف ضيف كلفته مليوناً من الماركات (٤) .

أما أشهر الأسر البولندية قاطبة — والتي بلغ من شهرتها أنها كانت تعرف باسم « الأسرة » فقط — فهي أسرة تشارتوريسكى . فقد نبأت مرتبة الإمارة منذ القرن الخامس عشر ، واتصلت بصلة القرابة ببيت جاجيللو ، الذي حكم بولنده من ١٣٨٤ إلى ١٥٧٢ . وقد تزوج الأمير كازيميرز تشارتوريسكى (مات ١٧٤١) ، نائب مستشار لتوانيا ، بايزابللا مورستن ، التي أضافت دفعة جديدة من الثقافة الفرنسية إلى الأسرة . وأنجب منها ثلاثة من المشاهير هم : (١) فردريك ميشال تشارنوريسكى ، الذي أصبح كبير مستشارى لتوانيا ، (٢) ألكسندر أوغسطس تشارتوريسكى ، الذي أصبح أمير بالاتين لـ «روسيا الحمراء» ، (٣) قنسطنطياً التي تزوجت ستانسلاس بونياتوفسكى الأول ، وولدت له بونياتوفسكى الثانى ، وهو الشخصية المأساوية الكبرى في التاريخ البولندى .

ومن مفاخر آل تشارتوريسكى فوق ما تميزوا به أن نزعهم التحررية . نمت بنمو ثروتهم ، فقد طالما عرفوا بترفقهم بأقنانهم ؛ قال أحد معاصريهم « لو أننى ولدت قننا لوددت أن أكون قننا للأمير ألكسندر أوغسطس تشارتوريسكى » (٥) . فأنشأوا المدارس للأطفال ، وزودوهم بالكتب

المدرسية ، وبنوا الكنائس والمستشفيات والأكواخ النموذجية . ثم جلبوا إلى ضيعتهم وقصرهم في بولافى (قرب لوبلين) معلمين ودارسين دربوا الشباب أياً كانت طبقتهم ، على خدمة الدولة . أما من الناحية السياسية فإن الأسرة عارضت حق النقض المطلق لأن من شأنه أن يجعل الحكم الفعال ضرباً من المحال . واتحدت ضدّهم أسر كثيرة شعرت بأن حق النقض هو حاميا الأوحاد من الأونقراطية الممركزة . وكان أقواها أسرة بوتوكى ، وزعيمها الأمير فيلكس بوتوكى ، الذى كان فى استطاعته أن يركب ثلاثين ميلا فى اتجاه واحد دون أن يجاوز أرضه — ثلاثة ملايين من الأفدنة فى أوكرانيا .

أما الصناعة والتجارة ، اللتان شاركتا فى القرن السادس عشر فى جعل بولنده قطراً عظيماً وفى إثراء مدنها ، فقد عطلتها خصومة ملاك الأرض ومجلسهم النبائى المطيع . فكانت مدن كثيرة بأسرها تقع فى نطاق الملكية الخاصة لقطب من الأعيان آثر الزراعة على الصناعة مخافة أن تنشأ طبقة وسطى مستقلة . وكانت منافسة الحرف اليدوية التى ينتجها الأتقان فى الضياع قد جرت الكساد على مهرة الصناع فى المدن . كتب انطونى بوتوكى فى ١٧٤٤ يقول « إن خراب المدن ظاهر للعيان حتى أن كبرياتها فى الدولة — باستثناء وارسو دون غيرها — أشبه بأوكار اللصوص »^(٦) . فى مدينة لفوف مثلاً كثر النجيل فى الشوارع ، وأصبحت بعض ميادينها حقولاً مفتوحة ، ومدينة كراكاوا التى كانت يوماً ما من أعظم المراكز الثقافية فى أوروبا هبط عدد سكانها إلى تسعة آلاف ، وعدد الطلاب فى جامعتها الشهيرة إلى ستمائة^(٧) .

ويرجع بعض ما أصاب المدن من انحلال إلى عودة الكاثوليك إلى غزو بولنده . فقد كان كثير من البروتستانت المطرودين تجاراً أو صناعاً مهرة ، وقد ترك تقلص عددهم فى جميع أرجاء بولنده إلا غريبها (حيث بقى ألمان كثيرون) للمسرح البولندى للملاك الأرض ، وكان هؤلاء من الكاثوليك الرومان ، أو فى الشرق من الروم الأرثوذكس أو الموحدين (وهم كاثوليك يمارسون الطقوس الشرقية ولكنهم يعترفون بابا روما) .

وكان المنشقون أو المخالفون - من البروتستنت والروم الأرثوذكس واليهود ، وجملتهم ثمانية فى المائة من السكان - محرومين من الوظائف العامة ومن عضوية الديت ، وكل الدعاوى المرفوعة ضدهم ننظرها محاكم كاثوليكية خالصة ^(٨) . وقد بلغت الخصومة الدينية مبلغاً دفع الجماهير عام ١٧٢٤ ، فى مدينة تورون (ثورن) التى كان أكثر أهلها من البروتستنت ، إلى أن تنتهك قدسية القربان وتدوس على صورة العذراء بعد أن أثار غضبها الشديد مسلك طالب يسوعى . وقد أعدم تسعة من هؤلاء المغيرين . واستنجد بروتستنت بولنده بروسيا ، والروم الأرثوذكس بالروسيا ، وعرضت بروسيا وروسيا الحاية ، ومنها تقدمتا إلى الغزو والتقسيم .

أما أخلاق البولنديين فقد شابهت الأخلاق الألمانية على المائدة ، والفرنسية فى الفراش . وقد أكره الفلاحين على الاكتفاء بالزوجة الواحدة عكوفهم على الأرض والنسل ، ولكن هذا الاكتفاء كان عسيراً فى العاصمة لجمال النساء و « ساوكهن المغرى » ^(٩) ، هؤلاء النساء اللاتى لم يسمحن لتعليمهن الأرقى بأن يقف عقبة فى طريق فنتهن . ويروى أن نساء الطبقة الراقية فى وارسو كن من الناحية الجنسية منحللات كنساء باريس ^(١٠) . ويؤكد لنا بونياتوفسكى أنه كان بكرا حتى الثانية والعشرين ^(١١) ، ولكنه يضيف أن هذه العفة كانت شاذة فى طبقته - وكان السكر متوطناً لا يعرف الفوارق بين الطبقات . فهو بين الفلاحين أنساهم فى نشوته ما يعانون من فقر أو مشقة أو برد ، أما النبلاء فقد سرى عنهم ما يعانون من العزلة والسأم ، وفى جميع الطبقات كان الذكور ينظرون إليه لا على أنه رذيلة بل مظهر من مظاهر التميز . وقد كرم القوم يان كوما رتشفسكى لأنه استطاع أن يفرغ فى جوفه دلواً من الشمبانيا فى جرعة واحدة دون أن يدور رأسه أو تحونه قدماه . وقد نبه القوم بونياتوفسكى إلى أنه لن يكون محبوباً ما لم يشمل بالشراب مرتين فى الأسبوع ^(١٢) . وكان اكرام الضيف عادة شائعة بين الجميع ، ولكنه كان يقاس بمقدار الطعام والشراب الذى يقدم للضيف . وقد يحدث أن يرهن أحد الأقطاب مدينة يملكها ليدفع نفقات مأدبة .

وكان البولنديون المثقفون يصفون على المشهد رونقاً بأزيائهم . أما الفلاح فكان في الصيف يقنع بالقميص والسر اويل إلى الركبة من التيل الخشن ، دون جوارب طويلة أو حذاء . وفي الشتاء يدثر نفسه كالحزمه دون مراعاة للون ، ولا وقت للزينة ، وأما الأعيان الذين يعدون نحو ٧٢٥,٠٠٠ فلباسهم الحذاء الطويل والسيف والقبعة ذات الريشة والرداء الملون من الحرير أو المخرمات ، ثم حول الحصر حزام عريض من النسيج المنقوش ذى الألوان الكثيرة . وهذا الزى الذى اعزوا بقوميته نقلوه عن المسلمين نتيجة اتصال اللوانين بالأتراك فى أوكرانيا ، وقد عكس ما كان يحدث أحياناً من تحالف بين بولنده وتركيا ضد النمسا أو روسيا ، وربما عبر عن عنصر أسيوى فى عادات البولنديين وأخلاقهم .

أما من الناحية الثقافية فقد عطل بولنده من ١٦٩٧ إلى ١٧٦٣ عدم مبالاة ماوكها السكسون بالأدب والفن السلافيين ، كما عطلها حربان مدمران . ولم تكن الكنيسة الكاثوليكية أهم راع للفنون فحسب ، بل إنها كانت الموزع للتعليم والأمين الأكبر على نفائس الثقافة والأدب . وقد فرضت حجراً دقيقاً على بولنده يقبها حركة العلم والفلسفة فى الغرب ، ولكنها فى نطاق حدودها نشرت المعرفة ونمتها . من ذلك أن جوزيف زالوسكى أسقف كريف جمع ٢٠٠,٠٠٠ مجلد فى وارسو لمكتبته التى تعد من أعظم مكتبات العصر ، وفى ١٧٤٨ فتحها للجمهور وأهداها للأمة ، وكان أثناء ذلك يحيا حياة الزهد ، وقد ضحى بنفسه فى الصراع الناشب ليحفظ على بولنده استقلالها .

وهو الذى وجه القسيس الشاب المتطلع ، ستانسلاس كونارسكى ، إلى دراسة التاريخ والقانون وفى ١٧٣١ أصدر كونارسكى المجلد الأول من أربعة مجلدات جمعت ونسقت القانون البولندى من كازيمير الأكبر حتى وقته . هذه الأبحاث وغيرها كشفت لكونارسكى عن مدى سقوط بولنده المحزن من حالة الازدهار الذى شهدته أيام النهضة الأوربية ، وقد اقتنع بأن البعث لن يأتى إلا من القمة ، لذلك أنشأ فى وارسو (١٧٤٠) « كلية للنبل » يتلقى فيها شباب الأشراف تعليمأ لا يقتصر على الرياضة واللغات والآداب الكلاسيكية (التى أجاد اليسوعيون تدريسها) ، بل يشمل

العلوم الطبيعية واللغات الحديثة . وكان هذا عملاً بطولياً ، لأنه لم يكن لديه مال ولا كتب ، ولا معلمون ولا تلاميذ ، ومع ذلك فقد جعل من كلية النبلاء هذه بعد خمسة عشر عاماً من الكد معهداً ذائع الصيت مرموقاً ، وأحد منابع لإحياء الثقافة في عهد بونيا توفسكى ولدستور ١٧٩١ المستنير . وقد دعا لإصلاح اللغة البولندية تخليصاً لها من العبارات اللاتينية والبلاغة المزوقة ، واحتجت الأمة ، ولكنها تعلمت . ثم توج كونارسكى أعماله بإصداره في بولنده (١٧٦٠-٦٣) أهم رسالة سياسية في القرن ، تحمل هذا العنوان البريء ، « في التفسير الفعال لدفة المناقشات » ولكنها احتوت ثورة شعواء على حق النقض المطلق . وهنا أيضاً ارتفعت الاحتجاجات الكثيرة ولكن بعد عام ١٧٦٤ لم يحل « ديت » بحق النقض . وبمعمونة كونارسكى بدأ بونيا توفسكى إصلاح الدستور البولندي .

وقبل ذلك الإحياء الرائع المتقطع عانت بولنده سبعة عشر عاماً من الفوضى والعار والاضمحلال تحت حكم الملوك السكسون .

٢ - الملوك السكسون : ١٦٩٧ - ١٧٦٣

في موضع آخر من هذا الكتاب (١٣) ذكرنا كيف تخطى الديت البولندي ابن سوييسكى العظيم ليعطى تاج بولنده لفردريك أوغسطس ، ناخب سكسونيا الذي دخل في المذهب الكاثوليكي بين عشية وضحاها ليصبح أوغسطس الثاني (أى القوى) ملك بولنده ، وكيف ولى شارلى الثاني عشر ملك السويد مكانه ستانلاس لشتشز نسكى (١٧٠٤) ، وكيف أتاحت هزيمة شارل في باطاوه (١٧٠٩) لأوغسطس أن يستعيد عرشه ، وقد تمتع بالقليل من السلطات التشريعية التى كان يتمتع بها ملوك القرن الثامن عشر ، ولكن بكل امتيازات الملوك الجنسية . فلما فشل في حكم بولنده رد حبه على سكسونيا ، فجعل درسدن ، وأترع جوفه بالجة ، وأفرغ عافيه بالخليلات ، ثم أضاف الإهانة إلى الأذى باتخاذ واحد فقط من هؤلاء الخليلات من بين حسان

بولنده . وفي أخريات عهده وضع خطة لتقسيم بولنده بين النمسا وبروسيا^١ وسكسونيا ، ولكنه مات (١ فبراير ١٧٣٣) قبل أن يتفقد تدبيره الشرير . وقد قال على فراش الموت ، « إن حياقي كلها كانت خطيئة متصلة »^(١٤) .

وفي فترة خلو العرش التي تلت ذلك خلال تجميع ديت انتخابي ، أغدق المبعوثون الفرنسيون المال ليكسبوا نواباً يعملون على إعادة لشتشننسكى . وكان ستانسلاس منذ خلعها يعيش في الأناضول مستمتعاً بالسلام والأمل . وفي ١٧٢٥ أصبحت ابنته ماري مائكة على فرنسا بزواجها من لويس الخامس عشر ، وتوقع لويس الآن أن يتبع حموه ، متى رد إلى عرشه ، السياسة الفرنسية ، سياسة توحيد بولنده وبروسيا وتركيا في صف واحد يضرب نطاقاً حول النمسا . وشعرت الحكومة الروسية بأن حلفاً كهذا من شأنه إضعافها في صراعاتها المحتمومة مع تركيا وبروسيا ، فبادرت بإرسال الروبلات إلى وارسوا لتمنع انتخاب لشتشننسكى . ولكن الجنهات الفرنسية كانت أثقل من الروبلات الروسية ، وفي ١٠ سبتمبر ١٧٣٣ أصبح لشتشننسكى ملكاً على بولنده باسم ستانسلاس الأول .

ورفضت أقلية الاعتراف بانتخابه ، ووضعت نفسها تحت حماية جيش روسي زحف على الفستولا ونادى بالناخب السكسوني مائكة على بولنده باسم أوغسطس الثالث (٦ أكتوبر) . وهكذا بدأت حرب الوراثة البولندية ، وبدأ أول تدخل حاسم لروسيا في شئون بولنده وبحث ستانسلاس عن جيش بولنده يدافع عنه ، فلم يجد جيشاً إلا على الورق ، ففر إلى داننبرج واستنجد بفرنسا . وكان يرأس الحكومة الفرنسية آنذاك الكردينال فلوري ، ولم يكن به رغبة لخوض حرب مع روسيا النائية ، فأرسل مفرزة من ٢,٤٠٠ جندي سحقها الروس بجيش من اثني عشر ألف مقاتل . وفر ستانسلاس من داننبرج واعتكف في اللورين . وفي يناير ١٧٣٦ وقع على تنازله عن العرش ، وفي يوليو اعترف بأوغسطس الثالث ملكاً .

ولكنه لم يكن أصلح من لشتشننسكى لقيادة أمة ركبت الفوضى في صميم دستورها . وتعاون فترة مع آل تشارتوريسكى في محاولات لإنهاء

حق النقض ، فاستعملت أسرة بوتوكى الفيتو المرة بعد المرة للاحتفاظ بهذا الحق ، وأخيراً يئس أوغسطس وأخلد إلى الدعة فى درسدن ، ولم يزور بولنده إلا لماماً . واستمر الفساد واستشرى ، وشارك الملك فيه إذ ألقى نفسه عاجزاً عن وقفه ، وباع المناصب لمن يدفع فيها أغلى الأثمان . وهيمن الأقطاب على المحاكم والقوات المسلحة ، وتفاوضوا رأساً مع الدول الأجنبية وتلقوا منها الإعانات المالية (١٥) . وناورت فرنسا والنمسا وبروسيا وروسيا لترى أيها يستطيع الظفر بنصيب الأسد من انحلال دولة بولنده الوشيك .

وقبل موت أوغسطس الثالث (٥ أكتوبر ١٧٦٣) وبعده تدرعت المنافسة على تعيين خلفه والتسلط عليه بكل حيلة دبلوماسية حتى وصلت إلى شفا الحرب . فطالب آل بوتوكى بجيش دائم عدته ١٠٠,٠٠٠ مقاتل ليحمى بولنده من السيطرة الأجنبية ، أما آل تشارتورىسكى فقد راضوا أنفسهم على أن تكون بولنده محمية روسية ، وتفاوضوا مع كاترين الثانية . وأدعت روسيا لنفسها الحق فى حماية الأقلية الرومية الأرثوذكسية فى بولنده ، ومدت ذاكرتها إلى الماضى البعيد لتذكر أن أقاليم بولنده الشرقية انتزعها من روسيا سانت فلاديمير (٩٥٦ - ١٠١٥) قبل ثمانمائة سنة . أما فرنسا فقد ناصرت ابن أوغسطس الثالث خلفاً له ، فلو أن روسيا سيطرت على بولنده لأنهار صرح السياسة الخارجية الفرنسية كله فى الشرق . وأما فردريك الأكبر الذى كان قد اختتم لتوه سبع سنين من الحرب الطاحنة مع فرنسا والنمسا ، فقد كان فى حاجة إلى صداقة كاترين التى نجا من الكارثة بإذنها ، ووافق على أن يؤيد مرشحها للتاج البولندى ، ثم أبرم معها (١١ أبريل ١٧٦٤) معاهدة تلزم الطرفين سراً بمعارضة أى تغييرات فى دستور بولنده أو السويد ، مخافة أن يقضى أى زيادة فى سلطة الملك إلى جعل أحد هذين القطرين أو كليهما قوياً إلى حد خطر ، وهكذا اعتزما الدفاع عن الفوضى باسم الحرية . وهدأت كاترين مخاوف آل تشارتورىسكى بوعداها باخترال حق النقض المطلق بهند أن تستقر الأمور فى نصابها ، وباختيارها محسوباً من هذه الأسرة مرشحاً للعرش . وفى ٧ سبتمبر ١٧٦٤ ، وبإجماع آراء «ديت» أقنعت الروبلات ،

وجيش روسى لا يبعد عنه أكثر من ثلاثة أميال ، أختير ستانسلاس بونيا توفسكى ليتبوا عرش بولنده .

٣ - بونيا توفسكى

ولد لستانسلاس بونيا توفسكى الأب ، حاكم كراكاو ، وقسطنطينا تشارتوريسكى ، فى ٧ يناير ١٧٣٢ . قال لمدام جوفران « ربيت تربية صارمة جداً على يد أم ندر أن تجدى لها نظيراً اليوم فى أى مكان ، فى حين اكتفى أبى فى وعظى بأن أجد فيه الأسوة الحسنة » ^(١٦) . وحين بلغ السادسة عشرة بدأ القيام برحلات واسعة . وفى ١٧٥٣ بهر مدام جوفرات وصالونها وكل باريس تقريباً بهباته ومسلكه وشبابه . وبعد بضع سنوات ، وجريا على سنة جيله ، كتب صورة ذاتية كانت مطابقة للحقائق مطابقة منصفة ، قال فيها :

« كان خليقاً بى أن أَرْضى عن شكلى لو كنت فقط أطول بوصة ... وكان أنفى أقل انعقاداً ، وفى أصغر بعض الشئ . بهذه التحفظات أعتقد أن وجهى طلق معبر ، ومظهرى لا يخلو من امتياز ... وكثيراً ما يجعلنى قصر نظرى أبدو مرتبكاً ، ولكن للحظة واحدة فقط . فالواقع أننى قد أودى شعور الغير بالتطرف فى الناحية المضادة - بسلوك شديد الحياء ويعينى ما حصلت من تعليم ممتاز على إخفاء عيوبى العقلية والبدنية ، حتى أن كثيراً من الناس ربما توقعوا منى أكثر مما أستطيع إعطاءه فى يسر . وعندى من الذكاء ما يكفى للمشاركة فى أى حديث ، دون أن يكفى للحديث طويلاً ومراراً . على أن ما فطرت عليه من تعاطف ولطف كثيراً ما يخف لنجدتى . وبى ولع طبيعى بالفن ... ويمنعنى كسلى أن أوغل فى الفنون والعلوم كما أشتهى . وأنا إما مفرط فى العمل وإما عاطل منه . وفى استطاعتى الحكم على الأمور حكماً جيداً جداً ... ولكنى فى ميسس الحاجة للمشورة المختلصة لكنى أنفذ أى خطة من بنات أفكارى . وأنا حساس جداً ، ولكن الحزن يؤثر فى أكثر كثيراً من الفرح . فأنا أول من يبتس . . . وإذا أحببت أحبت حباً جماً . . . ولست

محبا للثأر . ومع أننى فى أول لحظات غيظى قد أتوق للانتقام من أعدائى ،
إلا أننى لا قدرة لى أبداً على إنفاذ رغبتى ، فالحنو يقف دائماً حائلاً بينى وبين
الآثار» (١٧) .

وتوحى قدرة بونيا توفسكى على أن يرى ذاته — ويعبر عنها — على هذا
النحو الجميل بأنه ولد ليفكر ويكتب لايخطط وينفذ . وكان قد التقى
بمونتسكيو وقرأ فولتير ، واكتسب رهاقة ونعومة المجتمع الفرنسى الفكرية
مع درجة من تلك « الحساسية » التى أخذت تجد التعبير عنها فى روسو . وكان
شديد الحساسية للنساء ، ويشعر أن ما أعطينه ، جسداً وروحاً ، لا يقدر بثمن .
وقد شاع أنه قبض عليه فى باريس لعدم وفائه بدين ، ثم أطلق سراحه بعد
حبسه ساعة ، عندما دفعت مدام جوفران ١٠٠,٠٠٠ جنيه ليفرج عنه» (١٨) .

وبعد أن قضى فى باريس خمسة أشهر ، وإذ كان قد تعلم الانجليزية ،
فقد مضى إلى انجلترا واختلف إلى بعض جلسات البرلمان ، وتطلع إلى إعادة
تشكيل الموقف البولندى على غرار انجلترا كما صورها مونتسكيو . فلما عاد
من رحلاته (١٧٥٤) عين مشرفاً أول للتواين . وبعد عام رافق السير تشارلز
هانبرى ولیمز إلى روسيا ، وكانت النتائج كما أسلفنا . ثم عاد إلى وطنه عام
١٧٥٦ ، ولكنه ذهب إلى سانت بطرسبرج فى ١٧٥٧ سفيراً لبولنده . وشارك
فى المؤامرة ضد اليزابث فى ١٧٥٨ ، وأكره على الرحيل عن روسيا دون
أن يمهل وحزنت كاترين على رحيله ، ولكنها حين أيدته ليرتقى عرش
بولنده لم يكن دافعها أنها لم تزل تحبه ، بل لأنه (فى زعمها) أقل حقاً فى
العرش من أى مرشح آخر ، وإذن فخليق به أن يكون أكثر عرفاناً بهذا
الصنيع» (١٩) . أما هو فلم يفتق قط كل الإفاقة من تلك العلاقة الغرامية المثيرة ،
وكان يتذكر كاترين قبل أن تقسى السلطة قلبها ، وبقي افتتاحه بها حتى حين
اتخذته مطية لإخضاع شعبه .

وبعد انتخابه بيومين أرسل النبأ إلى مدام جوفران :

« ماما العزيزة : يبدو أننى أجدر لذة أعظم وأنا أدعوك بذلك الاسم

منذ أمس الأول . (وكانت أمه ميتة) لم يكن في تاريخنا كله انتخاب بهذا الهدوء وهذا الإجماع . . وكانت كل كبريات نبيلات المملكة حاضرات في ساحة الانتخاب وسط أفواج النبلاء . . . وسرني أن تنادي بي أصوات جميع النساء كأصوات جميع الرجال . . . فلم لم تكوني هناك ؟ إذن لانتخبت ابنك » (٢٠) .

وقد رأينا كيف اقتحمت « ماما » طرق أوربا لتزور « ابنا » في قصره بوارسو (١٧٦٦) . ولذا لم يكن لديها مفهوم واقعي عن الفجوة التي تفصل بين الحضارتين الفرنسية والبولندية ، فقد تآقت نفسها إلى أن تراه يرفع بولنده في عام واحد ما يقتضى رفعه قرناً ، وأصبحت مشورتها مصدر إزعاج له ، وكدرت محبة بونيا توفسكى البنيوية لها ؛ فتنفس الصعداء حين رحلت ، وإن هداها بالمجاملات وبصورة لشخصه في إطار مرصع بالماس . واحتفظت بالصورة ولكنها ردت الماس . فلما تأت عنه عاودها حبها له في كل حرارته ، وكتبت له من فيينا تؤكد له « المحبة التي هي ضرورة من ضرورات حياتي » (٢١)

وبذل ستانسلاس ما وسعه من جهد . فانقطع للمهام الحكم خلال هذه السنوات الأولى بشعور الحاكم المخلص لواجبه . فكان يحضر كل يوم مداولات وزرائه ، ويعكف إلى ساعة متأخرة من الليل على مشكلات اضطلع ببحثها في تفصيل شديد التدقيق . وقد وفق إلى حد كبير في تدريب فيلق من الموظفين المدنيين ذوى الكفاية الفائقة والزاهة المذهلة (٢٢) . ثم فتح بابه لمن يريد لقاءه ، وسحر الجميع بلطفه ، ولم يسحر الجميع بتحمسه للإصلاح . ولكن نشاطه خفف منه إحساسه بأنه معتمد على كاترين ، لابل على الجيش الروسى الذى خلفته في بولنده ليكفل سلامته وطاعته . وكان سفيرها الكونت أوتوفون شتاكبرج يرقبه بعينه الساهرة مخافة أن ينسى سلطان روسيا عليه .

وكان الأعداء يحدقون به من بعيد ومن قريب . فالنبلاء البولنديون حزبان : الحزب الذى يتزعمه آل بوتوكى يدعو للاستقلال قبل الإصلاح ،

ويرغب في كبح سلطة الملك بالإبقاء على قوة الارستقراطية ، والحزب الآخر الذى يتزعمه آل تشارتوريسكى يطلب الإصلاح أولاً ، وحبته أن بولنده بفوضاها الراهنة أضعف من أن تنضو عنها الحماية الروسية . وكان آل تشارتوريسكى مترددين في تأييد يونياتوفسكى ، فقد أحزنهم سرفه وكثرة خليلاته . وقد خصص له الديت ٢,٢٠٠,٠٠٠ طالر في العام ، وفي ١٧٨٦ زادها إلى ٦,١٤٣,٠٠٠ جولدن — وهو ما يوازى ثلث إيراد الحكومة . ولكنه تجاوز مخصصاته ، لأنه كان قد اقترض من المصارف في وطنه وفي خارجه . ودفعت الدولة ديونه مرتين ، ومع ذلك ففي عام ١٧٩٠ كان لايزال مديناً بمبلغ ١١,٥٠٠,٠٠٠ جولدن (٢٣) . وكان مثل كاترين يتطلع إلى تخليد ذكرى ملكه بتشيد الصروح الباذخة، ووزع نفسه وحاشيته على قصرين غالين ، وأقام حفلات الترفيه الكثيرة التكلفة ، وأغلق العطايا على الفنانين والكتاب والنساء .

وكانت بجاذبيته غالية التكلفة . فلقد كان عند توليه العرش في الثانية والثلاثين من عمره ، وسيماً مثقفاً كريماً غير متزوج ، فجمع من حوله رهطاً من الحسان يتلهفن على يده وعلى كيس نقوده . وسر العديداً ممن أخفقن في الزواج منه ، يشاركنه فراشه ، وشاركت بعض الممثلات الباريسيات في الترفيه عن الملك . واحتج التشارتوريسكيون ، فاعترف بخطاياهم وتمادى فيها . وأخيراً قادتة خلية تدعى بانى جرابوفسكا إلى المذبح في زواج سرى . وبعدها خضعت حياته الجنسية للرقابة الشديدة ، واستطاع أن يبذل اهتماماً أكثر بشئون الحكم والأدب والفنون .

وقد اهتم اهتماماً شخصياً بأعمال وحياة فناني جيله ومؤلفيه . وحذا حذو كاترين فجمع الصور والتماثيل والكتب ، وبني قاعة للفن ومكتبة ، وأبرز في المكتبة تماثلاً لفولتير . ووجد عملاً للفنانين الوطنيين ، واستقدم غيرهم من فرنسا وإيطاليا وألمانيا . ولم يستطع بيرانيى وكانوفا الحضور ، ولكنهما نفذاً أعمالاً له في إيطاليا . وقد حول نصف القصر الملكى إلى مدرسة للفن ،

ودبر المال ليمكن شباب الفنانين الواعدين من الدراسة في الخارج . وأسس قرب وارسو صناعة للبرسلان ضارعت منتجاته منتجات ميسن وسيفر . وقد ألهم بقصوده أثرياء البولنديين — كآدم تشارتوريسكى ، واليزابث لوبوميرسكا ، وهياين رادزييفيل ، وغيرهم — ليجمعوا التحف ، ويكلفوا الفنانين بأعمال فنية ، ويحلوا تنويعات الطراز الكلاسيكى الحديث محل روكوك الفترة السكسونية فى بناء قصورهم وزخرفتها . وكان هو ذاته يجذب مزيجاً من فن الباروك والفن الكلاسيكى ، وبهذا الطراز صمم دومنيكو مرليني قصر لازينكى على مشارف وارسو . وكان المصورون الأجانب أثناء ذلك يدربون جيلاً جديداً من الفنانين البولنديين الذين بلغوا مرحلة النضج بعد أن اختفت الحرية البولندية .

أما أول الخطوات التى أفضت إلى تلك الكارثة فكانت العقوبات التى وضعها فردريك الأكبر فى طريق اصلاح بولنده لذاتها . وإلى ذلك الحين (١٧٦٧) لم يكن لدى كاترين فيما يبدو نية تقطيع أوصال قطار بولنده خاضع خضوعاً واضحاً للنفوذ الروسى ، فالتقسيم سيوسع رقعة بروسيا بحيث تغزو عائقاً أشد خطراً مما يمكن أن تكونه بولنده السلافية أمام مشاركة روسيا فى شئون غربى أوروبا وثقافتها . لذلك اكتفت بالمطالبة بإعطاء المنشقين حقوقهم المدنية الكاملة . ولكن فردريك أراد أكثر من هذا . فهو لم يستطع قط أن يروض نفسه على قبول هذه الحقيقة ، وهى أن غربى بروسيا ، الألمانى البروتستنتى فى غالبية الكبرى ، خاضع للحكم البولندى الكاثولىكى . ومن ثم كان نوع من التقسيم لبولنده هدفاً عنده لا يغيى عنه . وأى تقوية لبولنده ، سياسية أو عسكرية ، ستعرقل بلوغ أهدافه ؛ لذلك أيد عملاؤه حق النقض المطلق ، وعارضوا فى تشكيل جيش قوى بولندى ، ورحبوا بالخلافات المحتمدة بين الكاثوليك والمنشقين لأنها تتيح ذريعة للغزو .

وتعاون تعصب الكهنوت الكاثولىكى الرومانى مع خطط فردريك . فقد قاوم كل محاولة تبذل لإعطاء المنشقين حقوقهم المدنية . وفى «روسيا البيضاء» — التى كانت آنئذ جزءاً من بولنده ، مشتملة على منسك — انتزعت

السلطات الكاثوليكية الرومانية مائتي كنيسة من أتباعها الروم الأرثوذكس وأعطتها لطائفة الموحدين ، ومنعت الجاليا الأرثوذكسية من ترميم كنائسها القديمة وبناء أخرى جديدة . وفي حالات كثيرة فصل الأطفال عن آبائهم لينشأوا على طاعة الكنيسة الرومانية ، وأسيتت معاملة القساوسة الأرثوذكس ، وأعدم بعضهم ^(٢٤) ، وكان بونيا توفسكى ، وهو ربيب جماعة الفلاسفة الفرنسيين ، ميالا إلى التسامح الديني ^(٢٥) ، ولكنه كان عليمًا بأن الديت سيقاوم ، بالقوة ان اقتضى الأمر ، أى خطوة للسماح لغير الكاثوليكى الرومان بعضويتهم ؛ وأحس أنه ينبغي تأجيل اقتراحا كهذا حتى يستطيع تعديل من نوع ما لحق النقض المطلق أن يشد أزره . وأجاب فردريك وكاترين بأنهما لا يطلبان من بولنده أكثر مما يمنحانه لأقلياتهم الدينية . وقدم للديت الذى اجتمع فى أكتوبر ونوفبر ١٧٦٦ التماس من بروسيا وروسيا والدنمرك وبريطانيا العظمى بمنح اخوانهم فى الدين فى بولنده كامل حقوقهم المدنية .

وهنا أثارت بلاغة « كاجيتان سوليتك » أسقف كراكاو ثائرة النواب ، فهبوا غاضبين وطالبوا لا برفض التماس فحسب ، بل بتقديم مؤيديه البولنديين للمحاكمة لأنهم خونة لبولنده ولله ^(٢٦) . ونجا بجلدهم من الموت نفر حاولوا الدفاع عن الملتمس ^(٢٧) . وحاول بونيا توفسكى أن يهدىء المجلس بإصدار (نوفبر ١٧٦٦) نبذة سماها « آراء مواطن صالح » ودعا فيها جميع البولنديين للوحدة القرمية ، وأنذرهم بأن الشعب المنقسم على ذاته يخرض على الغزو . ثم رجا فى الوقت نفسه السفير البولندى فى بطرسبرج أن يفصل روسيا عن الدول موقعة المانمس . وكتب يقول « لو أصرروا على هذا (الملتمس) فلأى لا أتوقع غير عشية كعشية (مذبحه) القديس بارتولميو للمنشقين ، وحصاداً من السفاكين أمثال رافياك يغتالوننى . . . وستحيل الامبراطوره عباءتى الملكية رداء (للقنطور) نيسوس . وسيكون على أن أختار بين نبل صداقتها وبين مناصبة وطنى العداء » . وردت عليه كاترين بطريق نيكولاى ربنان سفيرها فى وارسو تقول « لا أستطيع أن أتصور كيف يرى الملك نفسه خائناً لوطنه لمجرد أنه يؤيد مطالب العدل والإنصاف » ^(٢٨) .

لقد كان يفصلها عن بولنده من البون الشاسع سواء في المسافة أو التعليم ما لا يتيح لها الشعور بوطيس الغضب والكبرياء البولنديين . فلما ألفت جماعة من نبلاء البروتستنت اتحاداً في ثورن ، وألف حزب من المنتسبين لآل تشارتوريسكي اتحاداً في رادوم ، أمرت كاترين ربنن بأن يعرض عليهما حاية روسيا . وتحت ستار هذه الحجة جلب ثمانين ألف مقاتل روسي إلى تخوم بولنده ، وبعضهم إلى وارسو ذاتها .

وعاد الديت إلى الإجتماع في أكتوبر ١٧٦٧ . وحض الاسقفان زالوسكي وسولتيك النواب على الوقوف بحزم أمام أى تغيير في الدستور . وهنا قبض ربنن على الأسقفين واثنين من العلمانيين بتهمة إهانة الامبراطورة متخطياً بونياوفسكي ، ونقلهم إلى كالوجا على تسعين ميلا جنوب غربى موسكو . فاحتج الديت ، وأعلن ربنن أنه إذا لقي المزيد من المعارضة فإنه لن يكتفى بترحيل أربعة أقطاب فقط بل أربعين . وفي ٢٤ فبراير ١٧٦٨ استسلم الديت لتهديدات الحرب وأبرم مع روسيا معاهدة قبل بها كل مطالب كاترين . ففتح المنشقون الحرية الكاملة للعبادة الدينية ، وحققهم في أن يختاروا لعضوية الديت وللوظائف العامة ، وتقرر أن تنظر الدعاوى القضائية بين الكاثوليك والمنشقين أمام محاكم مختلطة . وسر الديت وكاترين وفرديريك بتثبيت المعاهدة لحق النقض المطلق ، مع بعض استثناءات للتشريع الاقتصادى . وقبل الديت كاترين حامية لهذا الدستور الجديد ، ولقاء هذا ضمنت كاترين الوحدة الإقليمية لبولنده ما استمر هذا الإتفاق . واعتبطت لأنها لم نكتف بمنح بولنده نصيباً من الحرية الدينية أكبر حتى مما تمتعت به إنجلترا ، بل أنها أحبطت خطة فرديريك لتقسيم بولنده . وتلقى بونياوفسكي تهانى جماعة الفلاسفة وازدراء شعبه .

٤ — التقسيم الأول

اتفق الوطنيون والقساوسة البولنديون ١٧٦٨ — ٧٢ مع فرديريك على عدم قبول الموقف . وأدان الأكليروس الكاثوليكي الرومانى بقوة تسليم استقلال بولنده الذاقى لامرأة ملحدة روسية . واستنفر البولنديين رجالان ،

أسقف كامرفنيك المسمى آدم كراسنسكى، ويوزف بولاسكى (أبو كازيمير بولاسكى الذى قاتل دفاعاً عن أمريكا) ، بالعظاات والنشرات ليؤكدوا من جديد حريتهم السياسية ودكتاتوريتهم الدينية . فما أنقضى أسبوع على استسلام الديت لربن حتى ألفت جماعة من البولنديين (٢٩ فبراير ١٧٦٨) اتحاد «بار» — وهى مدينة على الدنيستر فى أوكرانيا البولندية . وكان الأقطاب الذين مولوا الحركة مدفوعين بكرهيتهم لكاترين والملك ، وكان «الجمهور الأبله» كما لقب فردريك أتباعهم يضطرم غيرة على المذهب الحق الأوحى ، وترى صدى هذه الحماسة فى شعر الشعراء يتحسرون فى مرأى حزينة على إذلال بولنده و «ارتداد» ملكها . وبعثت تركيا والنمسا للوطنين السلاح والمال ، وأقبل ديموريه من فرنسا لينظمهم فى وحدات مقاتلة . وانضم البولنديون الراغبون فى رد الأسرة السكسونية للعرش إلى الحركة التى مالبت أن انتشرت إلى مواقع متفرقة فى طول البلاد وعرضها . وكتب ربن إلى كاترين يقول «ان بولنده بأسرها اشتعلت ناراً» . وفكر بونيا توفسكى فى الانضمام إلى الاتحاد ، ولكن أعضاء الغلاة المهوورين نفروه وأقصوه عنه بالمطالبة بخلعهم إن لم يكن بإعدامه (٢٩) . وإذا جاز أن نصدق فولير (٣١) ، فإن ثلاثين من أعضاء الاتحاد أقسموا فى تشستوكوفا هذا القسم :

«نحن الذين أثارنا غيرة مقدسة دينية ، والذين صممنا على الثأر لله والدين والوطن ، بعد أن أسخطنا ستانسلاس أوغسطس ، محترق الشرائع السماوية والأرضية ، وراعى الكفار والمهرطقين ، نتعهد ونقسم أمام صورة أم الرب المقدسة المعجزية بأن نستأصل من وجه الأرض شأفة من يدينها بوطئة الدين . فليساعدنا الرب !» .

وأمر ربن الجيش الروسى بإخماد الفتنة ، فطرد الاتحاديين وراء الحدود التركية وأحرق مدينة تركية . فأعلنت تركيا الحرب على روسيا (١٧٦٨) وطالبت بجلاء الروس عن بولنده وتحريرها . واغتم القوزاق فرصة الاضطراب الشديد ليغزوا أوكرانيا البولندية ، فبطشوا بملك الأرض ، ووكلائهم اليهود ، والفلاحين الكاثوليك الرومان أو البروتستنت ، فى مهرجان من

التقتيل العشوائي، ففي مدينة واحدة قتلوا ستة عشر ألف رجل وامرأة وطفل . ورد الاتحاديون بقتل من وصلت إليه أيديهم من الروس والمنشقين ، وهكذا عانى البروتستنت واليهود من خطر مضاعف . ففي هذه السنوات بحملتها (١٧٦٨ — ٧٠) هلك خمسون ألفاً من سكان بولنده سواء في المذابح أو المعارك (٣١) .

وبدأت كل الأطراف الآن حديث التقسيم . أما الاتحاديون فقد اتهمهم أعداؤهم بأنهم وافقوا على تقسيم بولنده فيما بينهم وبين حلفائهم (٣٢) . ففي فبراير ١٧٦٩ أرسل فردريك إلى سنانت بطرسبرج اقتراحاً بتقسيم بولنده بين روسيا وبروسيا والنمسا ، واشترطت كاترين في ردها أن تمتد بروسيا والنمسا يد العون لروسيا لطرد الترك من أوروبا ، لكي توافق على أن تختص بروسيا بذلك الجزء من بولنده الذي يفصل بروسيا الكبرى عن بروسيا الشرقية ، أما باقي بولنده فيخضع للحماية الروسية (٣٣) ، ولكن فردريك تردد . أما شوازيل المتحدث باسم فرنسا فقد اقترح على النمسا أن تستولى على الأقاليم البولندية المجاورة للمجر . ورأتها النمسا فكرة مواتية في وقت موات ، وعليه ففي أبريل ١٧٦٩ احتلت إقليم سبتر البولندي ، الذي كانت المجر رهنته لبولنده في ١٤١٢ ولم يفك رهنه قط (٣٤) . وفي ١٧٧٠ اقترح الترك الذين كانوا آنثذ يقاتلون بصفتهم مدافعين عن بولنده — على النمسا تقسيم بولنده بين النمسا وتركيا (٣٥) .

وبينما كانت هذه المفاوضات دائرة ارتضت الدول الغربية فكرة تقسيم بولنده نتيجة لا مناص منها لفوضاها السياسية ، وأحقاها الدينية ، وعجزها الحربي و « أدرك كل رجل دولة في القارة أن الكارثة واقعة لا محالة » (٣٦) . ولكن البولنديين من خصوم الاتحاديين في هذا الوقت أوفدوا عضواً في الديت ليطلب إلى الفيلسوف الاشتراكي مابلي ، وإلى عدو جماعة الفلاسفة روسو ، أن يضعوا دستوراً مؤقتاً لبولنده جديدة . وقدم مابلي توصياته في ١٧٧٠ — ٧١ ، أما روسو فقد فرغ من « دستور بولنده » في ابريل ١٧٧٢ — بعد شهرين من التوقيع على أولى معاهدات التقسيم .

واستمتع الاتحاد بار بلحظات من النشوة قبل انهياره . ففي مارس ١٧٧٠ ، ومن مدينة فارنا التركية ، أعلن خلع بونيا توفسكى . وفي ٣ نوفمبر ١٧٧١ ، اعترض بعض — الاتحاديين طريقه وهو يغادر منزل عم له في الليل ، وتغلبوا على حرسه ، وقتلوا أحدهم رمياً بالرصاص ، ثم جروا الملك من داخل عربته ، وأحدثوا قطعاً في رأسه بضربة سيف ، ثم اختطفوه من عاصمة ملكه . ولكن دورية من الشرطة هاجمتهم في غابة بيلنى ، وأثناء العراك هرب بونيا توفسكى ، واتصل بالحرس الملكى ، فأتى رجاله وعادوا به إلى قصره مشعث الشعر ينزف دماً في الخامسة صباحاً . وهكذا قضى على كل احتمالات المصالحة بين الحكومة والاتحاد . ولجأ بونيا توفسكى إلى المساعدة الروسية ، وقمع الاتحاد ، وبقيت منه بقية في تركيا — الهلال يحمى الصليب (١٧٧٢) (٢٧)

على أن تقدم جيوش روسيا إلى البحر الأسود والدانوب أزعج كلا من بروسيا والنمسا . فلا فردريك الثانى ولا جوزف الثانى كانا مغتبطين بتوقع سيطرة روسيا على البحر الأسود ، وأسوأ من ذلك على الآستانة . وكانت بروسيا قد تعهدت في معاهدتي ١٧٦٤ و ١٧٦٦ بأن تساعد روسيا إذا هوجمت ، وكانت تركيا من الناحية الشكلية هى المعتدى في حرب ١٧٦٨ الروسية التركية ؛ وكانت بروسيا تعرض خزائنها للإفلاس بإرسالها المعونات المالية لروسيا . أما النمسا التى ساءها دخول القوات الروسية فلاحيا فكانت تهدد بالتحالف مع تركيا ضد روسيا ؛ في تلك الحالة كانت روسيا ستنتظر من بروسيا أن تهاجم النمسا . ولكن فردريك كان قد ضاق ذرعاً بالحرب . لقد خاض حربين ليستولى على سيليزيا ويحتفظ بها ، فلم يخاطر بها الآن ؟ ومن ثم أثر الطرق الدبلوماسية . وتساءل ألا يمكن استرضاء الدول الثلاث بمخصص يلتمونها من أرض بولنده ؛ لو أن الأمور تركت تجري مجراها والسفير الروسى يحكم بولنده فعلا لما كانت المسألة إلا مسألة وقت حتى تبتلع روسيا ذلك البلد كلية مستترة وراء أى حجة . فهل مازال في الإمكان الحيلولة دون هذا ؟ بلى ، إذا ارتضت كاترين أن تأخذ بولنده الشرقية فقط ، وتدع فردريك يأخذ بولنده الغربية وتانسحب من الدانوب . وهل يخفف

من شره يوزف للقتال أن يعطى نصيباً من الغنيمة ؟

وعليه ففي يناير ١٧٧١ اقترح الأمير هنرى ، أخو فردريك ، الخطة على الدبلوماسيين الروس في سانت بطرسبرج . واعترض بنن بأن روسيا قد ضمنت وحدة بولنده الإقليمية ، فذكروه بأن هذا الضمان كان رهناً بالتزام بولنده بدستورها الجديد وتحالفها مع روسيا ، وأن هذا الالتزام انقطع بانضمام العدد الكبير من النواب لاتحاد بار المتمرّد . ومع هذا لم ترض كاترين عن الخطة . فأى شيء يدعوها لإعطاء فردريك جزءاً من بولنده بينما قد تأخذ هي الكل بعد قليل ؟ ولم تدعم قوة بروسيا بمزيد من الأرض ، والموارد ، والثغور البلطية ، ومزيد من الجند الفارعين ، ولكنها لم تردّ خووض حرب مع فردريك ، فقد كان لديه ١٨٠,٠٠٠ رجل تحت السلاح ، وآثرت على ذلك أن تجعله يمنع يوزف من الاتحاد مع تركيا ضد روسيا ، فهدفها الحاضر ليس بولنده بل البحر الأسود . وعليه ففي ٨ يناير ١٧٧١ ، أشارت لهنرى عرضاً في حفلة إلى موافقتها مبدئياً على خطة فردريك .

وانقضى عام قبل أن تتمكن المفاوضات من الفصل في تقسيم الغنيمة . فقد أراد فردريك أن يأخذ داننبرج ، فاعترضت كاترين ؛ وكذلك بريطانيا التي كانت تجارتها مع البلطيق ترسو على ذلك الثغر . وفي غضون هذا عبأت النمسا قواتها ، وتحالفت سراً مع تركيا . وفي ١٧ فبراير ١٧٧٢ وقع فردريك وكاترين « اتفاقاً » على تقسيم بولنده . وألانت كاترين جانب يوزف بتخليها عن جميع مطالب روسيا في فلاشيا والمدافيا ؛ ثم إن رداة محصول ١٧٧١ جعل من المستحيل عليه إطعام جيشه . وكانت ماريا تريزا من جهة أخرى تتوسل إلى ولدها بكل دموعها لتمنعه من الاشتراك في اغتصاب بولنده ، غير أن فردريك وكاترين أكرهاه على الموافقة بشروطهما في الاستيلاء الفعلي على الأقاليم التي خصصا نفسيهما بها . وفي ٥ أغسطس ١٧٧٢ أضاف يوزف توقيعهما على ميثاق التقسيم .

أما المعاهدة فبعد الديباجة التي ابتهات إلى الثالوث المبارك ، وافقت على أن تحتفظ بولنده بثلاثي أرضها وثلاث سكانها . واستولت النمسا على بولنده الجنوبية بين فولينيا والكربات ، مع غاليسيا وبودوليا الغربية - ٢٧,٠٠٠

ميل مربع ، و ٢,٧٠٠,٠٠٠ — نسمة . وأخذت روسيا « روسيا البيضاء » (بولنده الشرقية إلى دويينا ودينير) ٣٦,٠٠٠ ميل مربع ، و ١,٨٠٠,٠٠٠ نسمة . وأخذت بروسيا « بروسيا الغربية » فيما عدا داننرج وتورن ١٣,٠٠٠ ميل مربع و ٦٠٠,٠٠٠ نسمة . وأخذ فردريك أصغر نصيب ، ولكنه كان قد ألزم المتآمرين بالسلام ، و « خاط » — على حد قوله بروسيا الغربية و بروسيا الشرقية مع براندنبرج . وقد قال الوطني ترايتشكى إن فردريك على أية حال لم يفعل أكثر من أنه رد إلى ألمانيا « معقل الفرسان الثبوتون ، — وادى فايشيزال الجميل — الذى انتزعه الفرسان الجرمان من البرابرة في الأيام الحالية » ^(٣٨) وذكر فردريك أوربا بأن سكان بروسيا الغربية كثرتهم العظمى الألمانية وبروتستنتيه ، أما كاترين فقد ذكرت أن الإقليم الذى أخذته يسكنه كله تقريباً اتباع الكنيسة الرومية الكاثولوليكية المتحدثون بالروسية ^(٣٩) .

وسرعان ما احتلت الدول الثلاث أنصبتها من الغنيمة بجيوشها . واستنجد بونيا توفسكى بالدول الغربية لمنع التقسيم ، ولكنها كانت في شغل شاغل عنه ؛ ففرنسا تتوقع الحرب مع انجلترا ، وقد ترددت في معارضة حليفها النمسا ، وانجلترا تواجه الثورة الوليدة في أمريكا ، والخطر الذى قد يأتها من فرنسا وإسبانيا ؛ ونصح جورج الثالث بونيا توفسكى بأن يصلى لله ^(٤٠) . وطالبت الدول صاحبة التقسيم بدعوة الديت ليصدق على التقسيم الجغرافى الجديد ؛ فهاطل بونيا توفسكى عاماً ، وأخيراً دعا الديت للاجتماع في جروندنو . ورفض الكثير من النبلاء والأساقفة حضوره ، وبعض الذين جاءوا واحنجوا نفوا إلى سيبيريا ؛ وقبل غيرهم الرشا ؛ وحولت البقية المتخلفة من الديت نفسها إلى اتحاد كونفدرالى (يبيح فيه القانون البولندى حكم الأغلبية) ، ووقع الديت المعاهدة التى نزلت عن الأقاليم المنزعة من بولنده (١٨ سبتمبر ١٧٧٣) وبكى بونيا توفسكى ووقع كما بكى ماريا تريزا ووقعت .

وقبلت أوربا الغربية هذا التقسيم الأول على أنه البديل الوحيد لابتلاع روسيا لبولنده ابتلاعاً تاماً . ويقال إن بعض الدبلوماسيين « أذهلهم اعتدال

الشركاء، الذين اكتفوا بالثلث في حين كان الكل رهن إشارتهم إن طلبوه»^(٤١). واعتبط جماعة الفلاسفة لأن بولنده المتعصبة عاقبها مستبدوهم المستنرون، ورحب فولتير بالتقسيم باعتباره هزيمة تاريخية للكنيسة الكاثوليكية^(٤٢)، ولكنه بطبيعة الحال لم يكن سوى انتصار للقوة المنظمة على العجز الرجعي.

٥ — التنوير البولندي ١٧٧٣ - ٩١

كان على بونياتوفسكى أن يختار الآن بين روسيا وبروسيا حامياً له وسيداً عليه. فاختر روسيا، لأنها أكثر بعداً، ولأن روسيا دون غيرها تستطيع منع فردريك من الاستيلاء على داننرج وتورن. وكانت كاترين تواقفة إلى الحيلولة دون مزيد من توسع بروسيا، التي كان جيشها العقبة الكؤود في طريق التوسع الروسى غرباً. لذلك أمرت سفيرها في وارسو بأن يقدم العون لبونياتوفسكى بكل طريقة تتفق ومصالح روسيا، وأرسلت إلى الملك المقترحات التي وضعها بنين من قبل لدستور بولندي أيسر تنفيذاً. وقد احتفظ هذا الدستور بنظام الملكية الانتخابية وحق النقض المطلق، ولكنه دعم قوة الملك بأن أقام برأسته، وكأداته التنفيذية، مجلساً دائماً من ستة وثلاثين عضواً، ينقسم إلى وزارات للشرطة والعدل والمالية والشئون الخارجية والحرب؛ ثم نص على إنشاء جيش نظامي من ثلاثين ألف مقاتل. وخاف النبلاء أن يهدد جيش كهذا سيطرتهم على الملك، فخفضوا العدد إلى ثمانية عشر ألفاً، على أن الديت الذي انعقد في ١٧٧٥ صدق على الدستور الجديد مع هذا الاستثناء واستثناءات صغيرة أخرى، وأصبح في وسع بونياتوفسكى الآن أن يشرع في رد شيء من العافية على الأمة.

واستمر الفساد ولكن الفوضى قلت، فأمكن التغلب على عصابات قطاع الطرق، ونما الاقتصاد القومي. وعمقت الأنهار لتسمح بمرور السفن الكبيرة، وشقت الترع لتصل بين الأنهار، وأكملت في ١٧٨٣ «قناة ملكية» تربط البحرين البلطى والأسود. وازداد سكان بولنده بين عامي ١٧١٥ و ١٧٧٣ من ٦,٥٠٠,٠٠٠ إلى ٧,٥٠٠,٠٠٠، وتضاعف دخل الدولة. وتقرر نظام للمدارس القومية، وأعدت الكتب المدرسية وزود بها التلاميذ،

ومتحت الهبات من جديد للجامعى كراكاو وفلنوبو بحث فيهما النشاط ، وأُسست الدولة كليات لتخريج المعلمين ومولتها . وكان يونياتوفسكى يحب أن يحيط نفسه بالشعراء والصحفيين والفلاسفة . كتب كوكس يقول « إن الملك يولم كل خميس للأدباء المشهورين بعلمهم وقدراتهم ، وجلالته يترأس بنفسه المائدة » ^(٤٣) . ويقود النقاش فى الكتب والأفكار . وقد استضاف ثلاثة مؤلفين ليعيشوا معه ، ورفع دخل مؤلفين آخرين فى صمت ^(٤٤) . وكان آلاف البولنديين ، مع تقديمهم فروض الإجلال للكنيسة - يقرعون لوك ومونتسكيو وفولتير وديدرو ودالامير وروسو . وهكذا أرسيت أسس التنوير البولندى أو الستانسلافى .

وقد اجتذب يسوعى يدعى آدم ناروشفتش أذن الملك بشعره ؛ فرقى أسقفاً ، ولكنه واصل نظم الشعر العاطفى للطبيعة ، وما زال « ترنيمة للشمس » و « فصوله الأربعة » تحب فيه من يستطيعون قراءته فى الأصل . وقد استعملت « قصائده المجاعة » ألفاظاً شعبية رابيلية الطابع أحياناً أو نابية . وطلب إليه ستانسلاس أن يكتب تاريخاً لبولنده يجمع بين السهولة والعمق . فأنفق الشاعر فى هذا العمل تسع سنين ، وأخرج فى ستة مجلدات (١٧٨٠ - ٨٦) أثراً ممتاز بتوثيقه الدقيق . ولكن حماسه فترت بعد التقسيم الثانى ، وأصيب بالاكنتاب ، ولم يعمر أكثر من سنة بعد التقسيم الأخير ^(٤٥) .

أما أبرز كتاب العهد البولنديين فهو اجناسى كراسيكي . وقد اكتسب فى رحلاته صداقة فولتير وديدرو ^(٤٦) وأصبح قسيساً ، ثم رئيساً للأساقفة آخر الأمر ، ولكن ستانسلاس حثه على إطلاق العنان لمواهبه الشعرية . فكتب ملحمة هازلة سماها « ملحمة الفيران » انتقد فيها نقداً لاذعاً حروب جيله وصورها معارك بين الجرذان والفيران . وفى قصيدته « هوس الرهينة » (١٧٧٨) هزأ بالخصومات الدورية وأسلحتها الفتاكة هى الكتب اللاهوتية . ثم اتجه إلى الشر ، فروى فى « مغامرات السيد نيقولا المكشوف » (١٧٧٦) كيف اكتشف نبيل بولندى شاب ، مزود بكل حصيلة العصر وعواطفه ، تحطمت به السفينة على جزيرة غريبة ، أن الرجال والنساء يمكن أن يكونوا

مجددين فضلاء رغم وجودهم في « حالة الفطرة ». وقد اقتنى خطى هومر وسويقت وديفو في أعماله هذه ، ثم اقتبس أسلوب أديسون وأخرج سلسلة من صور الحياة اليومية ، منها « بان بودستولى » (١٧٧٨ وما بعدها) التي تصف حياة جنتلمان ومواطن مثالي . وفي « قصص خرافية وأمثال (١٧٧٩) تحدى فيلدروس ولافونتين ، وهاجم في تهكم لاذع خراب الذمة والوحشية المستشرية من حوله . وكانت آخر نصيحة له هوراسية النزعة ، « التمس لك ركناً هادئاً ، ودع السعادة تأتيك خلسة » (٤٧) .

ومع أن تأثير التنوير الفرنسي على ناروشفتش وكراسيكي قد حُد منه سلطان الدين ، إلا أنه ظهر بشكل قاطع في ستانسلاس ترمبيكي ، الذي لم يذكر الدين قط إلا بروح العداء . وقد يجد شعره الطبيعة ، ولكن ليس في تلك المظاهر السارة التي كثيراً ما تحرك العواطف الرقيقة ؛ فقد أثر جوانبها الأكثر جموحاً ووحشية ، لإسرافها المعلنون في إنتاج النبات والحيوان ، عواصفها وسيولها ، صراع الحياة مع الحياة والمأكول مع الآكل ؛ واقتبست خرافاته شكلها من لافونتين ولكن روحها منقول عن لوكريتيوس . وقد أكسبته قوة شعره ورهافته وصقله مكانة مرموقة في هذا الازدهار الأدبي . وسانده بونيا توفسكي في جميع محنه ، وعند خلع الملك رافقه الشاعر في المنفى ، وهكث معه حتى مات .

وكان هناك شعر ديني كثير ، لأن الدين كان العزاء الأخير للبولنديين في خطوبهم الشخصية والقومية . وقصائد فرانتشيسيك كاريونسكي المسماة « أغنية الصباح » و « أغنية المساء » و « ولادة المسيح » أدب كما أنها تعبد . أما فرانتشيسيك كيثازنين فكان يتنقل في غير عناء بين هذين العدوين القديمين ، الدين والجنس ، فحين أشرف على دخول القسوسية اكتشف أناكريون والحب ؛ ونشر قصائد غزلية « إبيروتিকা » (١٧٧٠) ، ونشد سعادة الدنيا ، ثم عاد إلى الدين ، ومات مجنوناً . إن محاولة التوفيق بين التقيضين قد تفضى إلى الجنون كما تفضى إلى الفلسفة .

أما في مضمار الدراما فإن أبرز رجالها هو فويتشيس بوجو سلافسكي ،

الذى يكرم وطنه ذكره باعتباره «أبا المسرح البولندى» ؛ ويجوز لنا أن نسميه «جاريك» بولنده ، ولكن البولنديين لو سئلوا لوصفوا جاريك بأنه بوجوسلافسكى انجلتره . وكان فيما يبدو أول بولندى كرس حياته كلها للمسرح ، ممثلاً ، وكاتباً مسرحياً ، ومخرجاً ، ومديراً لمسارح دائمة فى وارسو ولغوف ، ومديراً لشركات نشرت تذوق الدراما فى طول البلاد وعرضها ووراء الحدود . قدم شكسبير وشريدان مترجمين ، وألف هو نفسه كوميديات ما زال بعضها يمثل على المسرح البولندى . وكانت أفضل تمثيلات هذه الفترة هى «عودة النائب» بقلم جوليان أورسين نيماشتفتش الذى كان هو نفسه نائباً ، فقد صور جانبي الأزمة السياسية تصويراً درامياً فى حب نائب من دعاة الإصلاح لفتاة يدافع أبواها عن امتيازات الأقطاب وأساليب العيش فى الماضى .

وآخر رجال التنوير البولنديين وأعظمهم هو هوجو كولوننتاج . نقل إليه تعليمه عدوى أفكار جماعة الفلاسفة ، ولكنه ستر هرطقاته سترأ كافياً حتى حصل على وظيفة كاهن مريحة فى كراكاو . وعينه يونياتوفسكى (١٧٧٣) عضواً فى لجنة للتعليم ، وضع لها كولوننتاج وهو لا يزال فى الثالثة والعشرين برنامجاً لإصلاح تعليمى يتفق وخير برامج جيله . وحين ناهز السابعة والعشرين وكل بإعادة تنظم جامعة كراكاو ، وأنجز المهمة فى بضع سنين ، ثم بقى فى الجامعة مديراً لها . وفى «خطابات من كاتب مجهول إلى رئيس الديت» (١٧٨٨ — ٨٩) ، وفى «القانون السياسى للأمة البولندية» (١٧٩٠) قدم مقترحات أصبحت أساساً لدستور ١٧٩١ .

وكافحت بولنده ، بفضل حث شعرائها ومعلميها ، لتتبر نفسها وتصبح دولة قوية قادرة على الدفاع عن ذاتها . وحانت الفرصة حين عرض فردريك وليم الثانى—خلف فردريك الثانى—على «ديت السنين الأربع» الذى استمر انعقاده من ١٧٨٨ إلى ١٧٩٢ تحالفاً تتعهد فيه بروسيا بأن تحمى جيشها القوى بولنده من أى تدخل أجنبى . وكانت روسيا فى شغل بحربها مع تركيا والسويد ، فالآن قد تستطيع بولنده أن تعتق نفسها من خنوعها الطويل لكاثرين ، وتتخلص من أعمال السلب والنهب التى اقترفها الجنود الروس على الأرض

البولندية طوال السنوات الخمس والعشرين الأخيرة . وحل الديت مجلس بونيا توفسكى الدائم رغم احتجاجاته ، ووافق على أن يجند بإذن الديت جيش من ١٠٠,٠٠٠ مقاتل ، وأمر الجيش الروسى بالرحيل عن بولنده فوراً (مايو ١٧٨٩) ، إما كاترين التى كانت فى حاجة لجميع قواتها فى مواقع أخرى فلم تقاوم ، ولكنها أقسمت على الانتقام . وفى ٢٩ مارس ١٧٩٠ أبرم الديت تحالفاً مع بروسيا .

وكان بونيا توفسكى هو أيضاً قد ثمل الآن بجو الحرية . فنبذ ولاءه لكاترين وتزعم صياغة دستور جديد . وقد نصت شروطه على جعل الملكية وراثية ، ولكنها ضمنت وراثة البيت الملك السكسونى للعرش بعد موت بونيا توفسكى الذى لم يعقب . وتقرر أن توسع سلطات التاج التنفيذية بإعطاء الملك حق النقض المعلق — أى حق منع قرار وافق عليه دايت من أن يصبح قانوناً حتى يؤكد الدايت التالى . ونص على أن يعين الملك وزرائه والأساقفه ، وأن يتولى قيادة الجيش ، وعلى أن ينتخب عدد صغير من المواطنين وغيرهم من أهل المدن نواباً . أما الديت فيتألف من مجلسين ؛ مجلس للنواب له وحده الحق فى وضع القوانين ، ومجلس للشيخوخ — يتألف من الأساقفه وحكام الأقاليم ووزراء الملك — تشترط موافقته على أى قانون . أما حق النقض المطلق فتحل محله قاعدة الأغلبية . ويعترف بالمذهب الكاثوليكي الرومانى ديناً سائداً للأمة ، ويعد الإرتداد عنه جريمة ، وفيما عدا ذلك فحرية العبادة مكفولة للجميع . وبقيت القنية ، ولكن للفلاحين الآن أن يستأنفوا دعاوهم من المحكمة الوراثية إلى محكمة إقليمية أو قومية . وكان تأثير الدستور الذى اتخذته الولايات المتحدة الأمريكية (١٧٨٧ — ٩٨) واضحاً فى هذه التوصيات . ذلك أن البولنديين الذين حاربوا دفاعاً عن المستعمرات الأمريكية كانوا قد هبوا وذهبن بونيا توفسكى ، ولم يكن قد نسى قراءته للوك ومونتسكيو وجماعة الفلاسفة .

ورغبة فى ضمان التصديق على مقترحاته لجأ بونيا توفسكى إلى الحيلة ، ذلك أن كثيراً من أعضاء الديت ذهبوا إلى مواطنهم لقضاء عطلة عيد القيامة عام ١٧٩١ . فدعاه الملك الانعقاد فى ٣ مايو ، وهو تاريخ أبكر من أن

يتيح للأعضاء البعيدين العودة إلى وارسو لحضور الافتتاح الجديد ؛ أما النواب القريبون الذين وصلوا في الميعاد فكان أكثرهم أحرار النزعة يمكن الاعتماد عليهم في تأييد الدستور الجديد . وعرض عليهم في القصر الملكي بمجرد اجتماعهم ، فقوبل بتصفيق جارف ، وصادق عليه بأغلبية كبيرة . وقد تذكر البولنديون الوطنيون ذلك اليوم ، الثالث من مايو ١٧٩١ ، في فخر واعتزاز ، وخلدوه في الأدب والفن والأغاني البولندية .

٦ — تمزيق بولنده ١٧٩٢ — ٩٥

اعترفت جميع الدول بالدستور الجديد لإلاروسيا . ووصفه إدموند بيرك بأنه « أنبل امتياز نالته أمة في أى زمان » وصرح بأن ستانسلاس الثانى قد تبوأ مكاناً في التاريخ بن عظماء الملوك ورجال الدولة (٤٨) ، ولكن هذه الحماسة ربما كانت انعكاساً لابتهاج انجلترا بهزيمة كاترين .

وأخفت الامبراطورة حيناً عداها لبولنده الجديدة ، ولكنها لم تغفر طرد جيشها منها على عجل ، ولا لإحلال النفوذ البروسى محل الروسى فى الشئون البولندية . فلما أنهت معاهدة ياسى (٩ يناير ١٧٩٢) حربها مع تركيا ، وتحررت من الخوف من شريكها السابقين فى الجريمة — بروسيا والنمسا — لتورطهما فى الحرب ضد فرنسا الثائرة (ابريل ١٧٩٢) ، تلفتت حولها تبحث عن مدخل جديد إلى بولنده .

وقد هبأها لها البولنديون المحافظون ، إذ وافقوا كاترين كل الموافقة على أن دستور بونيا توفسكى قد صدق عليه ديت جمع على عجل بحيث لم يستطع أشراف كثيرون حضوره . وكان فياكس بوتوكى وغيره من الأقطاب ساخطين أشد السخط على التخلي عن حق النقض المطلق الذى ضمن لهم القوة أمام السلطة المركزية ، ولم يكونوا راغبين فى النزول عن حقهم فى انتخاب الملك ، وفى الهيمنة عليه تبعاً لذلك . ورفض بوتوكى حلف يمين الولاء للمرسوم الجديد ، ثم قاد جماعة من النبلاء إلى سانت بطرسبرج وطلب إلى الإمبراطرة أن تساعد على إعادة الدستور الأقدم (دستور ١٧٧٥) الذى

سبق أن تعهدت بحمايته . فأجابت بأنها لا تريد التدخل في بولنده بناء على طلب أفراد قليلين ، ولكنها ستنظر في نداء من أقلية بولندية منظمة يعتد بها ، وأحيط فردريك وليم الثاني علماً بهذه المفاوضات ، وكان متورطاً في الحرب ضد فرنسا ، كارهاً لخوض حرب ضد روسيا ، فأخبر الحكومة البولندية (٤ مايو ١٧٩٢) بأنها إن كانت تنوى الدفاع عن دستورها الجديد بقوة السلاح فعليها ألا تتوقع الدعم من بروسيا ^(٤٩) . وقف فل بوتوكي إلى بولنده ، وألف (١٤ مايو ١٧٩٢) ، في بلدة بأوكرانيا ، اتحاد تارجوفيكما ، ودعا للانضواء تحت لوائه كل الذين يريدون إعادة الدستور القديم . ولقب اتباعه أنفسهم بالجمهوريين ، وأدانوا تحالف بولنده مع بروسيا ، وأنشؤا على كاترين ، والتمسوا بركنها وطلبوا جيشها .

فأرسلتهما جميعاً ، وزحف الاتحاديون على وارسو بعد أن توفر لهم هذا الدعم . وكانت دعوتهم إلى « الحرية » قد أحدثت بعض التأثير ، لأن مدناً عديدة استقبلتهم استقبالها للمحررين ؛ وفي تريسابول (٥ سبتمبر) رحب القوم ببوتوكي كأنه فعلاً ملك بولنده الجديد . ودعا بونياوفسكى الديت أن يعطيه كل السلطات التي تازم للدفاع . فعيّنه دكتاتوراً ، ودعا كل الذكور البالغين من البولنديين للخدمة العسكرية ، ثم أرفض . وعين بونياوفسكى ابن أخيه ، الأمير يوزف بونياوفسكى ذا التسعة والعشرين عاماً ، قائداً أعلى للجيش الذي وجدته مفتقراً إلى التدريب ومجهزاً أسوأ تجهيز . وأمر يوزف جميع كتائب الجيش بأن تنضم إليه في لوبار على نهر سلوتش ، ولكن القوات الروسية كانت قد طوقت الكثيرين فلم يستطيعوا الحضور ، والذين حضروا كانوا أضعف من أن يوقفوا الزحف الروسي . وتقهقر الشاب إلى بوارن ، مركز إمداداته تقهقراً منظماً أتاحه قتال المؤخرة الباسل بقيادة تاديوس كوتشويسكو ، الذي كان قد حارب من قبل في صفوف المستعمرات في أمريكا ، وكان الآن وهو في السادسة والأربعين عريقاً في أمجاد الوطنية والحرب .

وفي ١٧ يونيو ١٧٩٢ التقى البولنديون بجيش روسي كبير عند زيلنتسي ، وهزموه في أول معركة حامية انتصرت فيها بولنده منذ أيام سويسكي . هنا أيضاً أثبت كوتشوسكو مهارته ، باستيلائه على ربوة سيطرت منها مدفعيته على ساحة المعركة ؛ أما يوزف ، الذي كان إلى الآن موضع الريبة في كفايته من مرعوسيه الذين في مثلي عمره ، فقد كسب احترامهم بقيادته احتياطيه من الجنود بشخصه ليكره الروس على التقهقر . وأثلج نبأ النصر صدر بونيا توفسكي ، ولكن كاد يغلب هذا النبأ آخر بأن الأمير لودفيج فورتمبرج قائد الجيش البروسي الموكل بالقوات البولندية في لتوانيا ، قد هرب من موقعه تاركاً جنوده في حالة من الفوضى أتاحت للروس في ١٢ يونيو الاستيلاء على فلنو عاصمة لتوانيا دون مشقة .

لم يبق من أسباب الدفاع عن بولنده الآن غير جيش يوزف . وكانت مؤنه وعتاده من الضلالة بحيث اضطرت أفواجه إلى الصيام أربعاً وعشرين ساعة ، ولم تملك المدفعية غير اثني عشر صندوقاً من الذخيرة . فأمر الأمير بالتقهقر إلى دوينو ؛ فلما رمى بالجن ثبت عند دوينكا (١٨ يوليو) واستطاع بجيشه البالغ ١٢,٥٠٠ مقاتل أن يتعادل مع ٢٨,٠٠٠ مقاتل روسي . ثم تقهقر بنظام حسن إلى كوروف ، حيث انتظر وصول التعزيزات والمؤن التي وعده بها الملك .

ولكن ستانسلاس كان قد يئس . ذلك أن رفض فردريك وليم الثاني أن ينفذ شروط الحلف البروسي البولندي ، وخيانة الأمير لودفيج ، وهروب المئات من الجيش الذي جمعه في براجا — كل أولئك كان فوق ما تطيقه روحه التي لم تكن يوماً ما شديدة البسالة . وعليه فقد أرسل نداء شخصياً لكاترين يلتمس شروطاً مشرفة ، وكان جوابها (٢٣ يوليو) إنذاراً نهائياً يشترط عليه الانضمام إلى اتحاد تارجوفيك وإعادة دستور ١٧٧٥ . وقد صدمته لهجتها التي لم تعرف هودة ولا ليناً ؛ أفهذه هي المرأة التي استجابت يوماً لغرامه الطائش ؟

وكان حنانه هو المسيطر عليه الآن . فلقد فكر في المقاومة ، وفي التسليح والمضى إلى الجبهة ليقود دفاعاً يائساً ؛ ولكن زوجته ، وأخته ، وابنة أخته ، اشتد بكافهم لفكرة موته وما يجره عليهم من الوحدة والأسى . حتى وعد الملك بأنه سيسلم . ثم ما جدوى المقاومة بعد هذا كله ؟ فبعد أن قطع الأمل في أى معونة من بروسيا - في وقت توقع فيه الهجمات على الجبهة الغربية العزلاء - ، كيف تستطيع بولنده الوقوف في وجه روسيا ؟ ألم يحاول جاهداً أن ينفي اللديت عن الاستخفاف بكاترين والمغامرة بكل شيء اعتماداً على وعود بروسيا ؟ ألم يلح في طلب جيش كبير حسن التجهيز ، وألم يرفض اللديت اعتماد المال لهذا الجيش بعد أن وافق على الرجال ؟ وحتى لو حقق الجيش البولندي الراهن انتصاراً أو اثنين على الروس ، أفلا تستطيع كاترين ، المتخمة بالجند بعد أن أبرمت الصالح مع تركيا ، أن ترسل الموجة تلو الموجة من الجنود المدربين المدججين بالسلاح ضد فلوله المبعثرة المختلة النظام ؟ فعلام التضحية بمزيد من الأرواح ، وإسلام نصف بولنده إلى الخراب ، إذا كان التسليم هو النهاية على كل حال ؟

أرسل السفير الروسى الجديد ، ياكوف سيفيرس ، إلى أخته وصفا ملؤه العطف يصور فيه بونيا توفسكى في هذه الساعة ، ساعة الانهيار البدنى والروحى قال :

« لم يزل الملك (في عامه الستين) رجلاً وسيماً أنيقاً . وإن كان وجهه شاحباً . ولكن في وسع المرء أن يرى أن ستاراً قائماً قد أسدل على روحه . إنه يحسن الحديث ، بل يتحدث بوضوح . وهو يجادل حسن الاستماع دائماً ومع الجميع . ومسكن سىء . وهو مهمل : مزدري غفول . ومع ذلك فهو ألطف الناس جميعاً . وإذا غضضت النظر عن منهجه الرفيع ، وتأملته من وجهة النظر الشخصية فقط ، قلت إن فضائله ترجع ذائله . ولا ريب في أنه أسوأ الملوك حظاً بعد لويس السادس عشر . إنه يحب أقرباءه حباً جماً . وهؤلاء الناس هم علة نكباته كلها » (٥) .

وفي ٢٤ يوليو ١٧٩٢ قرأ بونيا توفسكى الإنذار النهائى الروسى على مستشاريه الخصوصيين ، ونصحهم بأن يركنوا إلى سماحة كاترين وشهامتها ، واحتج كثيرون منهم على هذه السذاجة . واقترح أحدهم المدعو مالا خوفسكى أن يجمع فى ساعة واحدة ١٠٠,٠٠٠ جولدن لأغراض الدفاع ، وألح على أن الجيش البولندى يستطيع حتى إذا اقتضى الأمر التخلّى عن وارسو — أن يتقهقر إلى كاركاو ويجنّد جيشاً جديداً فى الجنوب الأهل بالسكان . وهزم اقتراح بونيا توفسكى بالتسليم فى المجلس بأغلبية عشرين صوتاً ضد سبعة . ولكنه أبطل قرارهم بحكم سلطته دكتاتوراً ، وأمر ابن أخيه بالكف عن المقاومة . ورد يوزف بأن على الملك بدلا من هذا التسليم أن يبادر إلى الجبهة بما يستطيع جمعه من قوات ويقاتل إلى النهاية . فلما أصر ستانسلاس على انضمام الجيش إلى الاتحاد أرسل إليه جميع الضباط إلا واحداً استقالاتهم وعاد يوزف إلى موطنه السابق فى فيينا . وفى ٥ أغسطس احتل جيش روسى براجا . وفى أكتوبر أرسل يوزف رجاء إلى عمه يدعوه لاعتزال ماله قبل أن تزول البقية الباقية من الشرف . وفى نوفمبر دخل بوتوكى مع طلائع جيش الاتحاديين وارسو دخول الظافر ، وألقى على بونيا توفسكى درساً فى واجبات الملك . ولكن انتصار بوتوكى تبين بعد قليل أنه كارثة ، لأن الجنود البروسيين دخلوا بولنده فى يناير ١٧٩٣ ، وواصلوا زحفهم ليحتلوا دانتزج وتورن ، دون أن يطلق حلفاء بوتوكى الروس رصاصة ليمنعهم . ووضح أن روسيا وبروسيا قد اتفقتا على تقسيم بولنده ثانية .

وكانت كاترين وفردريك وليم قد وقعا هذا الاتفاق فى ٢٣ يناير ، ولكنهما تكئما أمره حتى ٢٨ فبراير . أما بوتوكى فقد استنفر البولنديين من جميع الأحزاب ليهبوا دفاعاً عن بولنده ؛ فضحكوا منه ، ونادى به يوزف خائناً لوطنه ، وتحداه للمبارزة ، ولكن ستانسلاس منعهما .

وبمقتضى هذا التقسيم الثانى حصلت روسيا على ٨٩,٠٠٠ ميل مربع من بولنده الشرقية ، يعيش فيها ٣,٠٠٠,٠٠٠ من السكان ، بما فى هذا

فلنو ومنسلك ؛ أما بروسيا فأخذت ٢٣,٠٠٠ ميل مربع من بولنده الغربية ، يعيش فيها ١,٠٠٠,٠٠٠ من السكان بما فيها دانتزج وتورن ؛ وبقي لبولنده ٨٠,٠٠٠ ميل مربع و ٤,٠٠٠,٠٠٠ نسمة — وهو يقرب من نصف ما ترك لها من قبل في ١٧٧٣. ولم يكن للنمسا نصيب في هذه الغنيمة الثانية ، ولكن هدأتها الوعود الروسية بمساعدتها في الحصول على بافاريا . أما الدول الغربية التي كانت لاتزال منهمكة في صراعها مع فرنسا الثائرة فلم تتخذ أى اجراء ضد هذا الاغتصاب الثانى ، الذى علمته لها كاترين بأنه ضرورة اقتضاها تطور الدعوة الثورية فى وارسو ، التي تهدد بالخطر جميع الملكيات. ولكي تلبس هذه السرقة ثوب الشرعية أمرت بونيا توفسكى أن يدعو الديت للاجتماع فى جرودنو ، وأمرته بالحضور بشخصه ليوقع على تحالف مع روسيا فأبى الذهاب أول الأمر ، ولكن حين عرضت الوفاء بديونه — التي بلغت الآن ١,٥٦٦,١٠٠ دوقةانية — قبل هذا الإذلال الجديد خدمة لدانفيه . وزود السفير الروسى بالمال لرشوة عدد كاف من النواب ليحضروا اجتماع الديت ، ولم يجد عناء فى رشوة عدة أعضاء من بطانة الملك ليفشوا كل كلمة فاه بها سيدهم وكل عمل أتاها . وأمكن اقناع هذا « الديت الأخير » (١٧ يونيو إلى ٢٤ نوفمبر ١٧٩٣) بأن يوقع معاهدة مع روسيا ، ولكنه ظل شهوراً أبى التصديق على التقسيم الثانى . وقيل للأعضاء أنهم ممنوعون من مغادرة القاعة حتى يوقعوا ، فظلوا على رفضهم وجلسوا صامتين اثنتى عشرة ساعة . ثم طرح الرئيس المسألة للتصويت ، فلما لم يسمع جواباً أن السكوت علامة الرضى (٢٥ سبتمبر) . وعاد ما بقى من أرض بولنده محمية روسية ؛ وأعيد دستور ١٧٧٥ .

وإذا كان فى استطاعة رجل واحد أن يفتدى الأمة فلذلك هو كوتشويسكو أمده التشارتورسكيون بالمال فذهب إلى باريس (يناير ١٧٩٣) والتمس معونة فرنسا لبلاد يتعاطف فى حرارة مع الثورة الفرنسية . وتعهد بأنه لومدت فرنسا يد المعونة لبولنده لهب الفلاحون البولنديون فى ثورة على القنية ، وأهل المدن على النبلاء ، وقال ان بونيا توفسكى سينزل عن عرشه ليكون النظام جمهورياً ، وإن جيشاً بولندياً سيساند فرنسا فى حربها مع بروسيا^(٥١) .

ورحب الزعماء الفرنسيون بمقترحاته ، ولكن نشوب الحرب مع إنجلترا (فبراير ١٧٩٣) وغزو الحلفاء لفرنسا ، قضيا على كل أمل في تقديم العون لبولنده .

وفي غياب كوتشيوسكو جند بعض المواطنين والماسون الأحرار وضباط الجيش جيشاً بولندياً جديداً (مارس ١٧٩٤) . وهرع كوتشيوسكو من درسدن إلى كراكاوا لينضم إليه ، فعين قائداً أعلى وأعطى سلطات مطلقة ، وأمر كل خمس بيوت في بولنده أن توافيه بجندي من المشاة ، وكل خمسين بفارس ، وأمر هؤلاء المجندين بأن يأتوا بما يجمعونه من سلاح ، حتى المعاول والمناجل . وفي ٤ أبريل هاجم بأربعة آلاف مقاتل نظامي وألحق فلاح مجند قوة عدتها سبعة آلاف روسي في راتسلافيس قرب كراكاوا ، وهزمها بفضل براعة قيادته من جهة وفاعلية مناجل الفلاحين من جهة أخرى .

فلما سمع فريق الراديكاليين أو «اليعقوبيون» في وارسو بهذا النصر نظم رجاله عصياً مسلحاً انضم إليه الزعماء من الطبقة الوسطى في تردد . وفي ١٧ أبريل هاجم هؤلاء الثوار الحامية الروسية المؤلفة من ٧,٥٠٠ مقاتل ، وقتلوا الكثيرين منهم ، وهزموا فرقة روسية من ١٦٥٠ جندي ، وهربت قوات الاحتلال ، ونخضعت وارسو لحظة للسيطرة البولندية . وحررت انتفاضة كهذه مدينة فلنو (٢٣ أبريل) وشنقت هتمان (زعيم) لتوانيا الأكبر ، واستردت أجزاء من بولنده حتى منسك تقريباً . وفي ٧ مايو وعد كوتشيوسكو الإقنان بعقدهم ، وكفل لهم تملك الأرض التي يزرعونها . وانضموا تحت لوائه خلق كثير من المتطوعين والمجندين حتى اجتمع له في يونيو ١٧٩٤ (١٥٠,٠٠٠) رجل لم يكن منهم حسن التجهيز أكثر من ٨٠,٠٠٠ .

على هؤلاء تدفقت الموجات المتتالية من الجنود الروسية أو البروسية المدربة . وفي ٦ يونيو فاجأ جيش متحالف من ٢٦,٠٠٠ مقاتل البولنديين قرب تشيكوسيني ، ولم يتح لكوتشيوسكو من الوقت إلا ما يجلب فيه ١٤,٠٠٠

مقابل فقط . هزم بخسائر فادحة ، والتمس الموت في المعركة ، ولكن الموت راغ منه ؛ وتقهقرت فلول البولنديين إلى وارسو . وفي ١٥ يونيو استولى البروسيون على كراكاو ؛ وفي ١١ أغسطس استعاد الروس فلنو ؛ وفي ١٩ سبتمبر أبادت قوة روسية من ١٢,٥٠٠ من الجنود المتتمرسين بالقتال بقيادة سوفوروف جيشاً بولندياً من ٥,٥٠٠ مقابل عند تريسابول ؛ وفي ١٠ أكتوبر هزم ١٣,٠٠٠ روسي كوتشيبوسكو نفسه وهو يقود ٧,٠٠٠ بولندي عند ما سيسجويس ، وجرح جرحاً خطيراً وأسر . ولم يفهم كما زعمت الأسطورة بصرخة اليأس « لقد قضى على بولنده ! » ولكن الهزيمة كانت قاضية على الثورة الباسلة .

أما سوفوروف فقد وجد مختلف الجيوش الروسية واقتحم معسكر البولنديين الحصين في براجا ، وراح جنوده الذين أصابهم جنون المعركة يذبحون لا المدافعين فقط بل سكان البلدة المدنيين . وسلم يونياتوفسكي وارسو تفادياً للذبحة أشد بشاعة . وأرسل سوفوروف كوتشيبوسكو وغيره من زعماء الثوار إلى حيث السجن في سانت بطرسبرج ، وأرسل الملك إلى جرودنو ليكون رهن إشارة الإمبراطورة . وهناك ، في ٢٥ نوفمبر ١٧٩٥ ، وقع على اعتقاله الملك . وتوسل إلى كاترين أن تبقى على جزء من بولنده ، ولكنها صممت على أن تحل المسألة البولندية بالقضاء على الأمة البولندية كما ظنت . وبعد خمسة عشر شهراً من النزاع ، وقعت روسيا وبروسيا والنمسا معاهدة التقسيم الثالث (٢٦ يناير ١٧٩٧) واستولت روسيا على كورلاند ولتوانيا وغربي بودوليا وفولينيا — ١٨١,٠٠٠ ميل مربع ؛ واستولت النمسا على « بولنده الصغيرة » بما فيها كراكاو ولودان — ٤٥,٠٠٠ ميل مربع ؛ وأخذت بروسيا الباقي بما فيه وارسو — ٥٧,٠٠٠ ميل مربع . وفي التقسيمات الثلاثة كلها استوعبت روسيا نحو ٦,٠٠٠,٠٠٠ من سكان بولنده البالغين ١٢,٢٠٠,٠٠٠ نسمة (١٧٩٧) ، والنمسا ٣,٧٠٠,٠٠٠ ، وبروسيا ٢,٥٠٠,٠٠٠ نسمة .

وفر آلاف البولنديين من وطنهم ، وتسلم الأجانب الأملاك المصادرة . وظل بونيا توفسكى فى جرودنو ، يتسلى بدراسة النبات ويكتب مذكراته . وبعد موت كاترين دعاه بولس الأول إلى سانت بطرسبرج وخصص له القصر الرخامى و١٠٠,٠٠٠ دوقاتيه فى العام ، وهناك مات فى ١٢ فبراير ١٧٩٨ بعد أن بلغ السادسة والستين . أما كوتشيو سكو فقد أفرج عنه الامبراطور بولس فى ١٧٩٦ ، وعاد إلى أمريكا ، ثم إلى فرنسا ، وواصل جهوده لتحرير بولنده حتى مماته (١٨١٧) . وأما يوزف بونيا توفسكى فقد فر إلى فيينا ، وشارك فى حملة نابليون على روسيا ، وجرح فى سمولنسك ، وأحسن البلاء فى لىبزيج ، ورقى مارشالا فى الجيش الفرنسى ، ومات فى ١٨١٣ مكرماً حتى من أعدائه . وأما بولنده فلم تعد دولة ، ولكنها ظلت شعباً وحضارة ، يلوّثها الاضطهاد الدينى ، ولكنها تميزت بعظماء الشعراء والقصاصين والموسيقين والفنانين والعلماء ، ولم تتخل قط عن عزمها على النهوض من جديد .



الكتاب الخامس

الشمال البروتستنتي

انقصل العشرون

المانيا في عهد فردريك

١٧٨٦ - ١٧٥٦

١ - فردريك المظفر

من هذا الغول الذي أثار الخوف والإعجاب دولياً ، والذي سرق سيليزيا ، وهزم نصف أوروبا المتحد ضده ، وهزأ بالدين ، وازدرى الزواج ، وأعطى فولتير دروساً في الفلسفة ، واقتطع بعض أوصال بولنده ولولينغ روسيا من. التهاماً كلهما ؟

لقد بدأ أقرب إلى الأشباح منه إلى الغيلان يوم عاد حزينا منتصراً من حرب السنين السبع ودخل برلين (٣٠ مارس ١٧٦٣) بين تصفيق الجماهير المملقة . كتب إلى دارجنس يقول « إني أعود إلى مدينة لن أعرف فيها غير الأسوار ، ولن أجد أحداً من معارفي ، حيث تنتظرني مهمة ضخمة ، وحيث أخلف بعد زمن غير طويل عظامي في مشوى لا تكدر هدوءه الحرب ولا الكوارث ولا سفالة الإنسان »^(١) كانت بشرته قد جنت وتغضنت ، وعيناه الزرقاوان الرماديتان داكنتين منتفختين ، ووجهه يحمل آثار المعركة والمرارة ، وأنفه فقط هو الذي احتفظ بجلاله القديم . وقد ظن أنه لن يستطيع الحياة طويلاً بعد أن استنزفت الحرب الطويلة موارده جسداً وعقلاً وأرادة ، ولكن زهده مد في أجله ثلاثة وعشرين عاماً آخر . كان مقلاً في طعامه وشرا به ، لا يعرف الترف ؛ يعيش ويلبس في قصره الجديد ببوتسدام كما لو كان في المعسكر ، وكان يفضن بالوقت المخصص للعناية بشخصه ؛ وفي سنيه الأخير ألقع عن الخلاقة ، واكتفى بجز لحيته بمقص بين الحين والحين ؛ ورددت الشائعات أنه لم يكن يستحم كثيراً^(٢) .

(م ١٠ - قصة الحصار ج ٤١)

وأكملت الحرب تقسى خلقه الذى بدأ دفاعاً ضد قسوة أبيه . فكان يتطلع بهدوء رواق بينما الجنود المحكوم عليهم يمرون سناً وثلاثين مرة^(٣) بين صفين من الرجال يجلدونهم . وكان يتمقب موظفيه وقواده ويزعجهم بالجواسيس السريين ، والتدخل المفاجيء ، واللغة البذيئة ، والأجر الشحيح ، وبضروب من الأوامر التفصيلية تخنق روح المبادرة والاهتمام . ولم يكسب قط حب أخيه الأمير هنرى الذى جدد وأخلص فى خدمته فى الدبلوماسية والحرب . وكان له بعض الصديقات ، ولكنهن كن يخفنه أكثر مما يحببهن ، ولم يسمح لواحدة منهن بدخول دائرة اخصائه . كان يحترم المعاناة الصامتة التى عانتها ملكته التى أهملها ، وعند عودته من الحرب فاجأها بهدية من ٢٥,٠٠٠ طالر ، ولكن من المشكوك فيه أنه شاركها فراشها إطلاقاً . ومع ذلك تعلمت أن تحبه إذ رآته بطلاً فى الحن مخلصاً فى الحكم ؛ وكانت تشير إليه فى حديثها عنه بعبارة « ماكننا العزيز » و « هذا الملك العزيز الذى أحبه وأعبدته »^(٤) . ولم يكن له ولد ، ولكنه كان شديد التعاق بكلايه ، وكان اثنان منها ينامان عادة فى حجرته ليلاً ، ربما لحراسته ؛ وكان أحياناً يستصحب أحدهما إلى فراشه ليدفنه بحرارة الحيوان . وعندما مات آخر كلابه الكثيره لديه « بكى اليوم كله »^(٥) . وقد ظن به اللواط^(٦) . ولكننا لانملك فى هذه الشبهة غير التخمين .

وعلى أنه كان يخفى تحت جلده العسكرى الصلب عناصر من الحنان نبدر أن كشف عنها أمام الناس . فقد بكى كثيراً لموت أمه ، وكان يرد على محبة أخته فلهلمينه الحارة بمحبة مخلصية . وقد وزع على بنات أخيه بعض الأفضال الصغيرة غير الملاحظة . كان يضحك من عواطف روسو المفرطة ، ولكنه اغتفر له عداءه وعرض عليه الملاجئ حين نبذه العالم المسيحي . وكان يتنقل بين التدريب الصارم لجنوده وصفير الألمان من نايه . وقد ألف الصوناتات والكونشرتوات والسمفونيات التى شارك فى أدائها أمام حاشيته . وسمعه العالم يرنى هناك ، وقرر أنه عزف « بضبط شديد » واستهلال صاف منسق ، ولعب بالأصابع بديع ، وذوق نقي بسيط ، ودقة بالغة فى التنفيذ ، إتقان

متساو في كل معزوفاته » ، على أن يرني يضيف إلى ما ذكر أنه في بعض الفقرات الصعبة ، . . . اضطر بجلالته - على عكس ما تقتضيه القواعد - أن يلتقط نفسه ليكمل الفقرة^(٧) (*) .

وفي سنوات لاحقة أكرمه ازدياد النهج وفقدان عدة أسنان على الإقلاع عن العزف على الناي ، ولكنه استأنف دراسة الكلافير .

وكانت الفلسفة هوايته المحببة بعد الموسيقى . كان يحب أن يشاركه مائدته فيلسوف أو اثنان ليسلخ جلد القساوسة ويستفز قواد الجيش . وكان ثابت القدم كفؤاً لفولتير في رسائله معه . وقد بقي على شكوكيته في حين اعتنق معظم جماعة الفلاسفة العقائد الجازمة والخيالات الشاطحة . وكان أول حاكم في العصور الحديثة يجهر بلاديئته ، ولكنه لم يهاجم الدين علناً . وذهب إلى أن « لدينا من دراجات الأرجحية ما يكفي لبلوغ اليقين بأن « لاشيء » بعد الموت »^(٩) ، ولكنه رفض حتمية دولباخ وأكد (كرجل هو الإرادة المتجسدة) أن العقل يؤثر على الأحاسيس على نحو خلاق ، وان في استطاعة العقل أن يسيطر على دوافعنا الفطرية بالتعليم^(١٠) أما أحب الفلاسفة إليه فهم (صديقي لوكريتيوس . . . وامبراطوري الطيب ماركوس أوريليوس ؟ وعنده أن أحداً لم يضيف إليهما شيئاً ذا بال^(١١) .

وقد اتفق مع فولتير على الاعتقاد بأن « الجاهير » تسرف في إنساها وتفرط في كدها بحيث لا يتسع لها الوقت للتعليم الحقيقي . وان يجدى تبصيرها بأوهام اللاهوت إلا في دفعها إلى العنف السياسي . وهو يقول في هذا « إن التنوير نور من السماء للواقفين على القمم ، وجمرة مدمرة للجاهير »^(١٢) ،

(*) في ١٨٨٩ نشر برايتسكوف وهرقل ١٢٠ قطعة موسيقية من تأليف فردريك الأكبر . وقد سجل عدد منها على أفراس . وقد أحييت سنفونيته في مقام D لنايين وأوركسترا في برلين عام ١٩٢٨ وفي نيويورك عام ١٩٢٩ . (٨)

وقد أجمل قوله هذا تاريخ مذابح سبتمبر ١٧٩٢ وإرهاب ١٧٩٣ قبل أن تبدأ الثورة الفرنسية . وكتب إلى فولتير في أبريل ١٧٥٩ يقول « فلنعترف بهذه الحقيقة : إن الفلسفة والفنون والآداب لا تنتشر إلا بين قلة من الناس ، أما الجماهير العريضة ... فتظل كما جبلتها الطبيعة ، حيوانات شريرة حاقدة »^(١٣) وكان يسمى النوع الإنساني (في شيء من المزاح) . « هذا الجنس الملعون » — ويضحك من أحلام الخير والسلام يقول :

« إن الخرافة والنفعية والانتقام والخيانة ونكران الجميل سوف تثير المعارك الدامية المخزنة إلى آخر الدهر ، لأننا محكومون بالعواطف ، ونادراً جداً بالعقل . وإن تنقطع أبداً الحروب وقضايا المحاكم ومظاهر الدمار والأوبئة والزلازل والتفاليس ... وما دام الأمر كذلك ، ففي ظني أن هذا الوضع ضرورة لا بد منها ... ولكن يلوح لي أنه لو كان هذا الكون قد فطره كائن خير نخلقنا أسعد مما نحن ... إن العقل البشري ضعيف ، وأكثر من ثلاثة أرباع البشر خلقوا ليخضعوا لآنخف ضروب التعصب . فالخوف من الشيطان والجحيم يبهري عيونهم ، وهم يكرهون الرجل الحكيم الذي يحاول تنويرهم ... وعبثاً ألتمس فيهم صورة الله التي يؤكد اللاهوتيون أنهم يحملونها . إن في داخل كل إنسان وحشاً ، وقليلون هم الذين يستطيعون ترويضه ، وأكثر الناس يرنحون له اللعاج ما لم يكبحهم الخوف من القانون »^(١٤) .

وقد خلص فردريك إلى أن السماح للحكومات بأن تتسلط عليها الأغلبية مجلبة للكوارث . فلكني تخيا الديمقراطية يجب أن تكون — كغيرها من نظم الحكم — أقلية تقنع الأغلبية بأن تسمح لنفسها بأن تقودها الأقلية . وقد رأى فردريك رأى نابليون فيما بعد من أن « الاستقرائية موجودة دائماً بين الأمم وفي الثورات »^(١٥) وآمن بأن، الاستقرائية الوراثة تربي الإحساس بالشرف والولاء ، والرغبة في خدمة الدولة بتضحية شخصية بالغة ، لا يمكن توقعها من نوابغ البورجوازيين الذين نشأوا بفضل التسابق على الثروة .

لذلك أحل بعد الحرب شباب النبلاء محل معظم ضباط الطبقة الوسطى الذين ترقوا في الجيش^(١٦) . ولكن بما أن هؤلاء النبلاء المعززين بعراقتهم قد يصبحون مصدرآ للتفتت والفوضى ، وأداة للاستغلال ، إذن فلا بد من أن يحى ملك مطلق السلطة الدولة من الانقسام ، ويدفع الظلم الطبقي عن عامة الشعب .

وكان فردريك يحب أن يصور نفسه خادما للدولة والشعب . وربما كان هذا تبريراً لإرادة القوة فيه ، ولكنه تسامى بحياته إلى مستوى دعواه . فأوضحت الدولة عنده « الكائن الأعلى » الذى يبذل فى سبيله نفسه وغيره ؛ ومطالب خدمة الدولة تغلب عنده على ناموس الفضيلة الفردية ؛ فالوصايا العشر تتوقف عند أبواب الملوك . ووافقته جميع الحكومات على هذه « السياسة الواقعية » ، وقبل بعض الملوك النظرة إلى الملكية على أنها خدمة مقدسة . وقد اعتنق فردريك هذا المفهوم من اتصاله بفولتير ؛ ومن طريق الصاقهم بفردريك طور الفلاسفة ونظريتهم « الملكية » ومؤداها أن الأمل الأكبر فى الإصلاح والتقدم معقود على تنوير الملوك .

وهكذا أصبح برغم حروبه معبود الفلاسفة الفرنسيين ، وهذا من عداثهم له ، حتى عداء روسو الفاضل . وقد رفض دالامبير طويلا دعوات فردريك له ، ولكنه لم يكف عن الثناء عليه . فكتب لفردريك يقول « إن الفلاسفة والأدباء فى كل بلد طالما تطلعوا إليك يا مولاي قائداً ومثالا لهم »^(١٧) وأخيراً أذعن الرياضى المتحفظ للدعوات المتكررة ، وأنفق شهرين مع فردريك فى بوتسدام عام ١٧٦٣ . ولم تلتقص الألفة (والمعاش الذى أجراه عليه) من إعجاب دالامبير به . فقد أسهجه اغفال الملك لقواعد التشريعات ، وأطربته تعليقاته — لا على الحرب والحكومة فحسب ، بل على الأدب والفلسفة أيضاً ، وقال لجولى دلسبيناس إن هذا الحديث كان أروع من أى حديث يتاح للمرء سماعه آنئذ فى فرنسا^(١٨) . فلما ابتأس دالامبير فى ١٧٧٦ حزنا على موت جولى ، بعث إليه فردريك برسالة تظهر هذا الغول فى ثوب الرجل الحكيم الحنون :

« يؤسفنى الخطب الذى ألم بك . . . إن جراح القلب أكثر الجراح إيلاًماً . . . ولا شىء يبرئها غير الزمن . . . إن لى لسوء طالعى حظاً وفيراً جداً من الخبرة بالآلام التى تحدثها خسائر كهذه . وخير دواء هو سيطرة المرء على نفسه ليصرف تفكيره بعيداً . . . وخلق بك أن تختار بحثاً هندسياً يتطلب العكوف الدائم عليه . . . إن شيشرون أغرق نفسه فى التأليف ليتعزى عن موت حبيبته تليا . . . وفى مثل سنك وسنى نخلق بنا أن نكون أكثر استعداداً للسلى لأن لحاقنا بمن فجعنا فيهم لن يطول » (١٩) .

ثم حث دالامبير على أن يحضر ثانية إلى بوتسدام « سوف نفلسف معاً تفاهة الحياة . . . وبطلان الرواقية . . . وسوف أشعر بالسعادة فى تهدئة حزنك كأننى انتصرت فى معركة . » هنا على الأقل ملك أحب الفلاسفة ، ان لم يكن ملكاً فيلسوفاً بكل معنى الكلمة .

ولكن هذه المعاملة لم يعد يطبقها على فولتير ، ذلك أن خلافاتهما فى برلين وبوتسدام ، والقبض على فولتير فى فرانكفورت — كل هذا ترك جراحاً أعمق من الحزن . وبقى الفيلسوف يعانى الألم والمرارة أطول مما بقى الملك . فأخبر الأمير دلين أن فردريك « لا قدرة له على عرفان الجميل ، ولم يعترف قط بجميل إلا للجواد الذى هرب على ظهره فى معركة مولفنتس » (٢٠) . ثم عاد تبادل الرسائل بين ألمع رجلين فى القرن حين كتب فولتير إلى فردريك محاولاً أن يثنى المحارب اليائس عن الانتحار . وراحا يتبادلان العتاب والمجاملات . وذكر فولتير فردريك بالإهانات التى لقيها الفيلسوف وابنة أخته من عمال الملك ، وأحباب فردريك : « لولا صلتك برجل فتن حياً بعقريتك الرائعة لما أفلت بهذه السهولة . . . فاعتبر الأمر كله منتهاً ، ولا تذكر لى شيئاً بعد اليوم عن ابنة أختك تلك المتعبة » (٢١) . ولكن الملك رغم هذا لاطف الذات المفلسفة على نحو ساحر :

« أتريد كلاماً حلوأ ؟ حسناً جداً ، سأخبرك ببعض الحقائق . إننى أقدر فيك أروع عبقرية ولدتها الأجيال ، إننى أعجب بشعرك ، وأحب نثر . . . ولم يؤت كاتب قبلك مثل هذه اللمسة المرفهة ، ولا مثل هذا

الدوق الأصيل الرقيق . . . إنك ساحر في حديثك ، تعرف كيف ترفه وتعلم في وقت واحد . إنك أكثر المخلوقات التي عرفتها إغواء . . . كل شيء في حياة الإنسان يتوقف على الزمان الذي يجيء فيه إلى هذا العالم . وأنا وإن جئت متأخراً جداً ، إلا أنني لست بآسف على هذا ، لأنني رأيت فولتير ، . . . ولأنه يكتب لي » (٢٢) .

وأعان الملك بتبرعاته السخية حملات فولتير دفاعاً عن أسرتي كالاس وسيرفان ، وصفيق للحرب التي شنها على الكنيسة الكاثوليكية (L'infeme) ، ولكنه لم يشارك جماعة الفلاسفة ثقتهم في تنوير النوع الإنساني . فقد تنبأ بفوز الخرافة في السباق بينها وبين العقل . فتراه يكتب إلى فولتير في ١٣ سبتمبر ١٧٦٦ يقول :

« إن مبشريك سيفتحون أعين قلة من الشباب . . . ولكن ما أكثر الحمقى الذين لا يعقلون في هذا العالم ! . . صدقني ، لو أن الفلاسفة أقاموا حكومة فلن يمضي نصف قرن حتى يخلق الشعب خرافات جديدة . . . قد يتغير موضوع العبادة ، كما تتغير الأزياء في فرنسا ؛ (ولكن) ما أهمية أن يسجد الناس أمام قطعة من الفطير ، وأمام العجل أبيس ، أو أمام تابوت العهد ، أو أمام تمثال من التماثيل ؟ لا يهم الاختيار ، فالخرافة واحدة ، والعقل لا يكسب شيئاً » (٢٣) .

على أن فردريك تصالح مع الدين بعد أن قبله ضرورة بشرية ، فحمى كل صوره السلمية بمنتهى التسامح . ففي سيليزيا التي غزاها ترك الكاثوليكية هادئة دون إزعاج ، فيما عدا فتحه أبواب جامعة برلين لجميع المذاهب ، وكانت من قبل وقفاً على الكاثوليك . . ثم رحب باليسوعيين بصفقتهم معلمين ذوي قيمة كبرى ، وكانوا بعد أن طردهم الملوك الكاثوليك قد التمسوا ملجأً تحت حكمه اللاأدرى . وبالمثل بسط حمايته على المسلمين واليهود والملاحدين ؛ وفي عهده وفي مملكته مارس كانط حرية الكلام والتعليم والكتابة ، وهي الحرية التي لقيت أشد تعنيف وقضي عليها بعد موت فردريك . وفي ظل هذا التسامح اضمحلت معظم صور الدين في بروسيا . ففي ١٧٨٠ كان هناك

كنسى واحد لكل ألف من سكان برلين ، وفي ميونخ ثلاثون (٢٤) . وقد ذهب فردريك إلى أن التسامح سيقضى على الكاثوليكية عاجلاً . كتب إلى فولتير في ١٧٦٧ يقول « لا بد من حدوث معجزة لكي تعود الكنيسة الكاثوليكية إلى سابق عزها ، فلقد أصيبت بسكتة دماغية خطيرة ، وسوف يمد في أجلك لتتغذى بدفنها وكتابة قبريتها » (٢٥) . ولكن أشد الشكاك غلواً في شكوكيته نسي لحظة أن يشك في الشكوكية .

٢ — إعادة بناء بروسيا

لم يكن حاكم في التاريخ في صناعة الحكم كما كد فردريك ، ربما باستثناء تلميذه جوزيف الثاني إمبراطور النمسا ، كان يأخذ نفسه كما يأخذ جنوده بالتدريب الشاق ، فيستيقظ عادة في الخامسة ، وأحياناً في الرابعة ، ويشغل حتى الساعة ، ثم يفطر ، ويجتمع بمساعديه حتى الحادية عشرة ، ويستعرض حرس قصره ، ويتناول الغذاء في النصف بعد الثانية عشرة مع الوزراء والسفراء ، ثم يعمل حتى الخامسة ، وعندها فقط يسترخى بالموسيقى والأدب الحديث . أما عشاء «نصف الليل» بعد الحرب ، فكان يبدأ في التاسعة والنصف ، وينتهي في الثانية عشرة ، ولم يسمح لأى روابط أسرية بأن تصرفه عما هو عاكف عليه ، ولا لأى مراسم بلاطية بأن تثقله ، ولا لأى عطلات دينية بأن تقطع عليه كده ، وكان يراقب عمل وزرائه ، ويملى كل خطوة تقريباً من خطوات السياسة ، ويرقب حالة الخزانة ، وقد أنشأ فوق الحكومة كلها ديواناً للمحاسبات ، خول له سلطة فحص أى مصلحة في أى وقت . وأصدر إليه تعليماته بأن يبلغ عن أى شبهة مخالفة . وكان يعنف في معاقبة الانحراف أو عدم الكفاية عنفاً اختفى معه من بروسيا أو كاد ذلك الفساد الحكومى الذى استشرى في كل بلد آخر من بلدان أوروبا .

وكان يعتز بهذا العمل ، وبسرعة إفاقة وطنه مما حاق به من دمار . بدأ بالوان من الاقتصاد في بيته أثارت السخرية من بلاطى النمسا وفرنسا المسرفين رغم أنهما بلدان مهزومان . فكان بيت الملك يدار باقتصاد شديد كأنه بيت حرفى . فصفوان ملابسه لا يحوى غير حلة جندى ، وثلاثة معاطف قديمة ، وصدريات

متسخة بالنشوق ، ورداء رسمي لازمه طوال حياته . وقد طرد بطانة أبيه من الصيادين وكلاب الصيد ، لأن هذا المحارب أثر الشعر على الصيد . ولم ين أسطولا ، ولم يسع إلى تملك المستعمرات . وكان موظفوه يتقاضون أجوراً زهيدة ، وقد أنفق بمثل هذا البخل على البلاط المتواضع الذي احتفظ به في برلين حينما هو مقيم في بوتسدام . ومع ذلك فقد حكم لايرل تشستر فيلد عليه بأنه أكثر بلاط في أوروبا أدباً وتألقاً ونفعاً لشاب أن يوجد فيه ، « ثم أردف قائلاً : « سترى فنون الحكم وحكمته في ذلك البلد الآن (١٧٥٢) خيراً مما تراها في أى بلد آخر في أوروبا » (٢٦) . على أنه بعد عشرين سنة من هذا التاريخ كتب اللورد ما لسبرى ، السفير البريطانى لدى بروسيا ، ربما لتعزية لندن ، يقول إنه « ليس في تلك العاصمة (برلين) رجل فاضل واحد ولا امرأة عفيفة واحدة » (٢٧) .

على أن فردريك كان يكبح شحه إذا اتصل الأمر بالدفاع القومى . فسرعان ما أعاد جيشه إلى سابق قوته بفضل الإقناع والتجنيد الإجبارى ؛ فهذا السلاح الذى فى متناوله هو وحده الذى يتيح له صيانة وحدة أراضي بروسيا أمام أطماع جوزيف الثانى وكاترين الثانية . وكان على ذلك الجيش كذلك أن يدعم القوانين التى هيات النظام والاستقرار للحياة البروسية . وقد أحس أن القوة المركزية هى البديل الوحيد للقوة المختلة الممزقة توضع فى أيدي الأفراد . وكان يؤمل أن تتطور الطاعة بدافع الخوف من القوة ، إلى طاعة بدافع الاعتياد على القانون — وهى قوة اختزلت إلى قواعد وأخفت برائتها .

وقد جدد أمره للفقهاء بأن ينسقوا فى نظام قانونى واحد (قانون بروس عام) التشريع المتنوع المتناقض للكثير من الأقاليم والأجيال . وكانت هذه المهمة قد توقفت بموت صموئيل فون كوكسيجى (١٧٥٥) وبنشوب الحرب ، فاستأنفها الآن المستشار يوهان فون كارمر وعضو المجلس الخاص لـ ج. سفاريتس ، واستكملت فى ١٧٩١ . وقد سلم القانون الجديد بوجود الإقطاعية والقنية ، ولكنه حاول فى

هذه الحدود أن يحمى الفرد من الدغيان أو الظلم الخاص أو العام . فالغنى المحاكم التى لاضرورة لها . وقلل من الإجراءات القانونية وعجلها ، وخفف العقوبات ، وصعب الشروط اللازمة للتعين فى وظائف القضاء . وتقرر ألا ينفلد حكم بالإعدام إلا بتصديق الملك ، وفتح للجميع باب الاستئناف أمام الملك . وقد اكتسب سمعة العدالة المحايدة ، وسرعان ما اعترف الجميع للمحاكم البروسية بأنها أنزه وأكفأ المحاكم فى أوروبا^(٢٨) .

وفى ١٧٦٣ أصدر فردريك النظام التعليمى العام ليثبت ويوسع التعليم الإلزامى الذى أعلنه أبوه فى ١٧١٦ - ١٧ . فقرر أن يذهب كل طفل فى بروسيا من سن الخامسة إلى الرابعة عشرة إلى المدرسة . ومن صفات فردريك المميزة إسقاط اللاتينية من منهج التعليم الأولى ، وتعيينه قداى الجند معلمين ، وجعله معظم التعليم يجرى بتدريب أشبه بالتدريب العسكرى^(٢٩) . وقد أضاف الملك : « من الخير أن يعلم المدرسون فى الريف الأحداث الدين والأخلاق . . . وحسب أهل الريف أن يتعلموا القليل من القراءة والكتابة . . . ولا بد من تخطيط التعليم . . . بحيث يبقى عليهم فى القرى ولا يؤثر عليهم ليهجروها »^(٣٠) .

وحظى تجديد البناء الاقتصادى بالأولوية فى الوقت والمال . فبدأ فردريك باستخدام المال الذى جمع من قبل حملة حربية أخرى - زالت الحاجة إليها الآن - فى تمويل تعمير المدن والقرى وتوزيع الطعام على المجتمعات الجائعة ، وتقديم البذور للزراعات الجديدة ؛ ثم وزع على المزارع ستين ألف حصان أمكن توفيرها من الجيش . وبلغت جملة المبالغ التى أنفقت على أعمال الإغاثة العامة ٢٠,٣٨٩,٠٠٠ طالمر^(٣١) . وأعفيت سيليزيا التى اجتاحتها الحرب من الضرائب ستة أشهر ؛ وبنى فيها ثمانية آلاف بيت فى ثلاث سنين ، وقدم مصرف عقارى المال للفلاحين السيليزيين بشروط ميسرة . وأسست جمعيات للتسليف فى مراكز شتى لتشجيع التوسع الزراعى . وصرفت مياه منطقة المستنقعات الممتدة على الأودر الأدنى ، فهيات أرضاً صالحة للزراعة لخمسين ألف رجل . وبعث المندوبون إلى الخارج الدعوة مهاجرين إلى بروسيا ، فجاء منهم ٣٠٠,٠٠٠^(٣٢) .

ولما كانت القنية تربط الفلاح بسيده ، فإنه لم توجد في بروسيا حرية الانتقال إلى المدن ، تلك الحرية التي يسرت في انجلترا تطور الصناعة السريع . وقد جهد فردريك بكل الوسائل للتغلب على هذا المعوق . فأقرض الملتزمين المال بشروط ميسرة ، وأجاز الاختكارات المؤقتة ، واستورد العمال ، وفتح مدارس الصنائع ، وأنشأ مصنعاً للبرسلان في برلين . وناضل لينشئ صناعة الحرير ، ولكن أشجار التوت ذبلت في برد الشمال . وشجع التعدين النشط في سيليزيا الغنية بالمعادن . وفي ٥ سبتمبر ١٧٧٧ كتب إلى فولتير كما يكتب أحد رجال الأعمال لزميل له يقول : « اننى عائد من سيليزيا راضياً عنها الرضى كله . . . فقد بعنا للأجانب ما قيمته ٥,٠٠٠,٠٠٠ كراون من التيل ، و ١,٢٠٠,٠٠٠ كراون من القماش . . . وقد أمكن اكتشاف طريقة لتحويل الحديد إلى صلب أبسط كثيراً من طريقة ريومور » (٣٧)

وتسهيلاً للتجارة ألغى فردريك المكوس الداخلية ووسع الموانئ ، وحفر القنوات وشق ثلاثين ألف ميل من الطرق الجديدة . أما التجارة الخارجية فقد عاقبتها الرسوم المرتفعة على الواردات والخطر المفروض على تصدير السلع الاستراتيجية ؛ واقتضت الفوضى الدولية حماية الصناعة الوطنية لضمان الاكتفاء الصناعى في الحرب . ورغم ذلك نمت برلين قلباً للتجارة وللحكومة : ففي ١٧٢١ كانت تضم من السكان ٦٠,٠٠٠ ، وفي ١٧٧٧ زادوا إلى ١٤٠,٠٠٠ (٣٨) . لقد كانت تتهيأ لتصبح عاصمة لألمانيا .

والكى يمول فردريك هذا المزيج من الإقطاعية ، والرأسمالية ، والاشتراكية ، والأوتقراطية ، اقتضى شعبه من الضرائب قدرأ يقرب مما رد عليهم من نظام اجتماعى وإعانات مالية وأشغال عامة . واحتفظ للدولة باحتكار الملح والسكر والتبغ والبن (بعد ١٧٨١) ، وامتلك ثلث الأرض الصالحة للزراعة (٣٩) . وفرض الضرائب على كل شئ ، حتى على المغنين الجائدين واستقدم هلفتيوس ليخطط له نظاماً محكماً في جمع الضرائب . وكتب

سفير انجليزى يقول : « ان مشروعات الضرائب الجديدة نفرت الشعب حقاً من مالكمهم »^(٣٦) . وقد ترك فردريك عند موته فى خزانة الدولة ٥١,٠٠٠,٠٠٠ طالر . وهو ما يعادل إيراد الدولة السنوى مرتين ونصفا .

وفى ١٧٨٨ نشر ميرابو (الابن) بعد زيارات ثلاث لبرلين تحليلاً مدمراً عنوانه « فى النظام المالكى البروسى تحت حكم فردريك الأكبر » . وكان قد ورث عن أبيه مبادئ الفزيوقراطيين التى تنادى بالمشروعات الحرة ، لذلك أدان نظام فردريك باعتباره دولة بوليسية ، وبيرقراطية تخنق كل روح للمبادرة وتعدو على كل حرية شخصية . وكان فى وسع فردريك أن يرد على هذه التهم بأنه لو انتهج سياسة « عدم التدخل Laissez Faire » فى حالة الفوضى التى ضربت أطناها فى بروسيا عقب حرب السنين السبع لأفادت عليه هذه السياسة انتصاره بما تجر من فوضى اقتصادية . لقد كان التوجيه أمراً حتمياً ، وكان هو الرجل الوحيد الذى يستطيع القيادة الفعالة ، وهو لا يعرف شكلاً من أشكال القيادة غير قيادة القائد الحربى لجنوده . لقد أنقذ بروسيا من الهزيمة والانهار ، ودفع الثمن بفقدانه حب شعبه له ؛ وقد فطن إلى هذه النتيجة ، وعزى نفسه بمبررات أخلاقية :

« إن البشر يتحركون إذا حشثهم على الحركة . ويقفون إذا كففت عن دفعهم . . . والناس مقلون فى القراءة ، زاهدون فى أن يتعلموا كيف يمكن التصرف فى أى شىء بطرق مختلفة . أما أنا ، أنا الذى لم أصنع بهم قط غير الخير ، فهم يظنون أننى أريد أن أضع سكيناً على حاقوقهم بمجرد أن يلوح احتمال لإدخال أى تحسين مفيد ، لا بل أى تغيير على الإطلاق . فى مثل هذه الحالات اعتمدت على شرف هدفى وسلامة ضميرى ، وعلى المعلومات التى أملكها ، ثم مضيت فى طريقى هادئاً »^(٣٧) .

وقد انتصرت لإرادته . فازدادت بروسيا حتى فى حياته غنى وقوة . وتضاعف عدد سكانها ، وانتشر فيها التعليم ، وأخفى التعصب الدينى رأسه . صحيح أن هذا النظام الجديد اعتمد على الاستبداد المستنير ، وأن هذا الاستبداد

بقى بغير الاستنارة بعد أن مات فردريك ، وأن الهيكل القومى اعتراه الضعف وانهار فى فيينا أمام إرادة تعادل إرادة فردريك قوة وجبروتا . ولكن الصرح النابليونى أيضاً ، الذى اعتمد على إرادة رجل واحد وتفكيره ، انهار هو أيضاً ، وفى خاتمة المطاف كان بسمارك ، وريث فردريك والمستفيد البعيد فى تركته ، هو الذى عاقب فرنسا التى سيطر عليها وريث نابليون ، وهو الذى جعل من بروسيا وعشرات الإمارات دولة موحدة قوية هى ألمانيا .

٣ - الإمارات

لنذكر أنفسنا من جديد بأن ألمانيا لم تكن فى القرن الثانى عشر أمة بل اتحاداً مفككاً من دول مستقلة تقريباً ، قبلت صورياً الإمبراطور « الرومانى المقدس » فى فيينا رأساً لها ، وأوفدت ممثلين لها بين الحين والحين إلى ديت إمبراطورى (رايشستاغ) ، أهم وظائفه الاستماع إلى الخطب ، واحتمال عبء المراسم ، وانتخاب إمبراطور جديد . وكان للدول لغة وآداب وفنون مشتركة ، ولكنها تباينت فى العادات والزى والعملية والعقيدة . وكان فى هذا التفتت السياسى بعض الفوائد : فتعدد بلاطات الأمراء كان موانئاً لتنوع الثقافات تنوعاً مشجعاً ؛ وكانت الجيوش صغيرة بدلا من أن تكون متحدة فتصبح مصدر إرهاب لأوروبا ؛ ثم إن سهولة الهجرة فرضت على الدولة والكنيسة والشعب قسماً كبيراً من التسامح فى الدين والعادات والقانون . وكانت سلطة كل أمير مطلقة من الناحية النظرية ، لأن المذهب البروتستانتى كرس « حق الملوك الإلهى » . أما فردريك ، الذى لم يقر بأى حق إلهى غير حق جيشه ، فقد منح من « معظم الأمراء الصغار ، لاسيما الألمان منهم » الذين « يدمرون أنفسهم بالإشراف السفيفه إذ يضلّهم الوهم بعظمتهم المتصورة ، فأصغر ابن لأصغر ابن لأسرة مقطعة يخيل إليه أنه من طراز لويس الرابع عشر ، فيبنى فرساياه ، ويقتنى الخلابات ، ويحتفظ بجيش ... له من القوة ما يكتفى لخوض ... معركة على مسرح فيرونا » (٢٨) .

وكانت أهم هذه الإمارات سكسونيا . وقد دالت دولة فنها ومجدها يوم تحالف أميرها الناخب فردريك أوغسطس الثانى مع ماريا تريزا ضد فردريك الأكبر ، فقصف الملك القاسى درسدن ودمرها عام ١٧٦٠ وفر الناخب إلى بولنده بصفته ملكها أوغسطس الثالث ، ثم مات فى ١٧٦٣ . وورث حفيده فردريك أوغسطس الثالث الإمارة الناجبة وهو فى الثالثة عشرة ، واكتسب لقب (العدل) ، وحول سكسونيا إلى مملكة (١٨٠٦) ، واحتفظ طوال تقلبات كثيرة بعرشه إلى أن مات (١٨٢٧) .

ويدخل كارل أوجن ، دوق فورتمبرج ، قصتنا فى المقام الأول باعتباره صديقاً ثم عدواً لشيلى . وقد فرض الضرائب على رعاياه ببراعة لاينضب معينها ، وباع عشرة آلاف من جنوده لفرنسا ، واحتفظ ببلاط كان فى رأى كازانوفا « الملع بلاط فى أوربا »^(٣٩) ، حوى مسرحاً فرنسياً ، وأوبرا إيطالية ، وسلسلة من المحظيات . ويعيننا أكثر منه فى قصتنا كارل أوجسط ، دوق ساكسى - فايمار الحاكم من ١٧٧٥ إلى ١٨٢٨ ؛ ولكننا سنراه فى مظهر أكثر بهاء وهو محاط بنجوم أناروا سماء ملكه - فيلاند ، وهردر ، وجوته ، وشيلر . وكان واحداً من فريق « المستبدين المستعيرين » الصغار الذين ساهموا فى هذا العصر فى نهضة ألمانيا حين شعروا بتأثير فولتير وبالمثال الذى ضربه فردريك . ونهج نهج هؤلاء رؤساء الأساقفة الذين حكموا مونستر وكولون وترير وماينز وفورتنبورج - بامبرج باستكثارهم من المدارس والمستشفيات ، وحدهم من إسراف البلاط ، وتخفيفهم من الفوارق الطبقية ، وإصلاحهم السجون ، وتقديمهم الإعانات للفقراء ، وتحسينهم أحوال الصناعة والتجارة . كتب آدموند بيرك يقول « ليس من السهل أن نجد أونتصوير حكومات أكثر اعتدالاً وتسامحاً من هذه الإمارات الكنسية »^(٤٠) .

على أن الفوارق الطبقة كانت تؤكد فى أكثر الدول الألمانية باعتبارها جزءاً من أسلوب الضبط الاجتماعى . فكان النبلاء والاكليروس وضباط الجيش وأرباب المهن والتجار والفلاحون يؤلفون طبقات منفصلة ، ودخل كل فئة من هؤلاء درجات ومراتب صلبت كل منها ذاتها باحتقار المراتبة

الأدنى منها . وكان زواج الفرد خارج طبقته أمراً مستحيلاً تقريباً ، ولكن بعض التجار والمالين اشتروا النبالة . واحتكر النبلاء المناصب العليا في الجيش والحكومة ، وقد اكتسب كثيرون منهم امتيازاتهم ببسالتهم أو كفايتهم ولكن الكثيرين كانوا عائلة على المجتمع ، لا يفضلون الخلط التي يرتدونها ، يتنافسون على المكان الاجتماعي المقدم في البلاط ، ويتبعون المواضع الفرنسية في اللغة والفلسفة والتحليلات .

ومما يذكر بالفخر لأمراء ألمانيا الغربية وأساقفتها ونبلائها أنه لم يحل عام ١٧٨٠ حتى كانوا قد اعتقوا فلاحهم الأقنان ، وبشروط يسرت الانتشار الواسع للرخاء في الريف . وقد ذهب رانيهولد لنتس إلى أن الفلاحين مخلوقات أفضل — أكثر بساطة ووداً وفطرية — من التجار الذين يحصون الدراهم أو شباب النبلاء الذين يختالون كباراً^(٤١) . وقد صورت سيرة هينريش يونج الذاتية (١٧٧٧) حياة القرية في كدها اليومي وفي مهرجاناتها الموسمية في صورة مثالية ؛ ووجد هرذر أغاني الفلاحين الشعبية أصدق وأعمق من شعر الكتب ؛ ووصف جوته في كتابه (الشعر والحقيقة) الاحتفال بموسم صنع الخمر بأنه « يغمر بالفرح إقليماً بأسره » من صواريخ وغناء ونبيذ^(٤٢) . كان هذا جانباً من المشهد الألماني ؛ أما الجانب الآخر فكان الجهد الشاق والضرائب المرتفعة والنساء يشخن في الثلاثين والأطفال الأميين يرتدون الأسماك ويتسولون في الشوارع . قالت إيفا كونيغ لليسنج في ١٧٧٠ « في إحدى الحطات تزاحم حولي ... ثمانون شحاذاً ... وفي ميونخ جرت ورائي أسر بأكملها وأفرادها يصيحون بأني بالتأكيد لن أتركهم يموتون جوعاً »^(٤٣) .

لقد كانت الأسرة في القرن الثامن عشر أهم من الدولة أو المدرسة . أو المدرسة . وكان البيت الألماني المصدر والمركز للتهديب الخلقى ، والنظام الاجتماعي ، والنشاط الاقتصادي . ففيه يتعلم الطفل أن يطيع أباً صارماً ، ويلوذ بأم محبة ، ويشارك في سن مبكرة في مختلف الواجبات البناءة التي تملأ فراغ اليوم . وقصيدة شيلر « أغنية الجرس » تعطينا صورة مثالية ترى فيها « الزوجة الشديدة التواضع ... تحكم دائرة الأسرة بحكمة ، وتدريب

البنات ، وتكبح تهور الأولاد ، وتعكف في كل لحظة من فراغها على نولها^(٤٤) . وكانت الزوجة خاضعة لزوجها ، ولكنها معبودة أبنائها . أما خارج البيت ، إلا في قصور الأمراء ، فكان الرجال عادة يقصون النساء عن حياتهم الاجتماعية ، ومن ثم كان حديثهم ينحوي إلى الأمال أو البداة . أما في قصور الأمراء فكان هناك كثير من النساء المثقفات المهذبات السلوك . ويرى لكرمان أن بعضهن « يكنن بأسلوب رائع ويففن في هذا كثيراً من أشهر مؤلفينا »^(٤٥) . وكان على نساء الطبقة العليا في ألمانيا ، كما في فرنسا ، أن يتعلمن الأغماء جزءاً من بضاعتن ، والاستعداد للذرف الديموع دليلاً على رقة شعورهن .

أما أخلاق البلاط فقد اقتدت بالمثل الفرنسية في الشراب والقمار والفسق والطلاق . تقول مدام دستال إن النيبالات من النساء كن يبدلن أزواجهن « في غير مشقة وكأنهن يرتبن أحداثاً تمثيلية » ، وكن يفعلن هذا « بقليل من مرارة النفس »^(٤٦) . وضرب الأمراء المثل في السلوك اللاأخلاقى ببيع جنودهم للحكام الأجانب ؛ وهكذا بنى حاكم هسي - كاسل قصرأ أنيقاً ، وأنفق على بلاط مترف ، من حصيلة تجاره في جنوده . وبلغ مجموع ما باعه الأمراء الألمان - أو ما « أقرضوه » على حد تعبيرهم - خلال الثورة الأمريكية ثلاثين ألف جندي لانجلترا مقابل ٥٠٠,٠٠٠ جنيه ؛ ومن هؤلاء ١٢,٥٠٠ لم يعودوا قط^(٤٧) . ولم يبد ألمان القرن الثامن عشر خارج بروسيا ميلاً يذكر للحرب وهم يتذكرون أهوال القرن السابع عشر . ويبدو أن « الخلق القوي » يمكن أن يطرأ عليه التغير من قرن لآخر .

وكان الدين في ألمانيا أطوع للدولة منه في الأقطار الكاثوليكية . كان منقسماً إلى ملل ونحل ، فحرم بذلك من حبر أعظم مرهوب ينسق عقيدته واستراتيجيته ودفاعه ؛ وكان قادة الدين يعينهم الأمير ، ودخل الدين يعتمد على شيبته . وكان إيماناً قوياً في الطبقتين الوسطى والدنيا ؛ ولم يتأثر بموجات الإلحاد التي تدفقت من انجلترا وفرنسا غير النبلاء والمفكرين وبعض الأكليروس . وكان لإقليم الراين أكثره من الكاثوليك ، ولكن في هذا الإقليم بعينه شهدت هذه الحقبة قيام حركة تتحدى ساطة البابوات في جرأة .

وبيان ذلك أنه في ١٧٦٣ نشر يوهان نيكولايوس فون هونتاييم ، أسقف
تريير المساعد ، متخفياً وراء اسم مستعار هو يوستينوس فبرونيوس ، رسالة
باللاتينية في « حالة الكنيسة ، وسلطة بابا روما الشرعية » وترجم الكتاب
من اللاتينية إلى الألمانية والفرنسية والإيطالية والأسبانية والبرتغالية ، وأحدث
ضجة في جميع أرجاء غربي أوروبا . وقد قبل « فبرونيوس » سيادة البابا ،
ولكن على أنها سيادة شرف وإدارة تنفيذية ؛ فالبابا غير معصوم ، وينبغي
أن يتاح استئناف قراراته أمام مجمع عام تكون له السلطة التشريعية النهائية
في الكنيسة . وكان المؤلف سيء الظن بالتأثير المحافظ المستور للباطل البابوي
(الكيوريا) ، - وألمح إلى أن التركيز المفرط للسلطة الكنسية تمخض عن
حركة الإصلاح البروتستنتي ؛ وقد تيسر اللامركزية رجوع البروتستنت إلى
أحضان الكنيسة الكاثوليكية . وفي مسائل القانون البشري ، لا الإلهي ،
ينحى الأمر اءالعلمانيين أن يرفضوا طاعة البابوية ، ولهم ... إن لزم الأمر ...
حق فصل كنائسهم القومية عن روما . وأدان البابا الكتاب (فبراير ١٧٦٤) ،
ولكنه أصبح « كتاب صلاة للحكومات » (٤٨) وقد رأينا تأثيره على يوزف
الثاني .

ومال رؤساء أساقفة كولون ونريير وماينز وسالزبورج لآراء
« فبرونيوس » ، فقد رغبوا في الاستقلال عن البابا استقلال الإمارات
الأخرى عن الامبراطور . وعليه في ٢٥ سبتمبر ١٧٨٦ أصدروا « بيان
إيمس التمهيدى » (قرب كوبلنتز) الذي كان خليقاً بأحداث حركة إصلاح
بروتستنتي جديدة لو أخرج إلى حيز التنفيذ :

« إن البابا أعلى سلطة في الكنيسة وسيظل أعلى سلطة فيها . . . ولكن
الامتيازات (البابوية) التي لا تنحدر عن القرون المسيحية الأولى بل هي
مبنية على المراسيم الإيزادورية الباطلة ، والتي تفتق من قدر الأساقفة . . .
لم يعد في الإمكان أن تعد قانونية ، فهي تدعى إلى اغتصابات الكيوريا
الرومانية ؛ والأساقفة الحق (مادامت الاحتجاجات السلمية لا تجدى)
في صيانة حقوقهم الشرعية تحت حماية الامبراطور الألماني - الروماني .
(م ١١ - قصة الحضارة ، ج ٤١)

و يجب ألا يكون هناك بعد اليوم أى استثناءات (من الأساقفة) أمام روما . .
و ألا تتلقى الطرق (الدينية) أى توجهات من رؤساء أجناب ، ولا أن تحضر
بجامع عامة خارج ألمانيا . و يجب ألا ترسل أية تبرعات لروما . . . و ألا
تملأ روما الوطائف الكنسية الشاغرة ذات الدخول ، بل تملأ بانتخاب قانونى
للمرشحين الوطنيين . . . و ينبغى أن ينظم هذه الأمور وغيرها مجمع قوى
ألماني » (٤٩) .

و لم يؤيد الأساقفة الألمان هذا الإعلان خوفاً من قوة الكيوريا المالية ،
ثم أنهم ترددوا فى الاستعاضة عن سيادة روما النائية بسلطة الأمراء الألمان
المباشرة والأصعب تفادياً . وهكذا انهارت الثورة الوليدة . و عدل هونتهايم
عن أقواله (١٧٨٨) ، و سحب رؤساء الأساقفة بيانهم التمهيدى (١٧٨٩) ،
و عادت الأمور كلها تسير سيرتها الأولى .

٤ - - - عصر التنوير الألماني

و لكن ليس بكل معنى العبارة فالتعليم ، باستثناء الإمارات الكنسية ،
كان قد انتقل من سيطرة الكنيسة إلى سيطرة الدولة . فأساتذة الجامعات
تعينهم الحكومة و تدفع رواتبهم (فى تقدير نخجل) ، و لهم وضع الموظفين
العموميين . و مع أن جميع المدرسين و الطلاب كان يشترط عليهم الإقرار
بأنهم يدينون بمذهب الأمير ، إلا أن الكليات الجامعية ، حتى سنة ١٧٨٩ ،
كانت تتمتع بقدر متزايد من الحرية الأكاديمية . و حلت الألمانية محل
اللاتينية لغة للتعليم . و كثرت المقررات الدراسية فى العلوم و الفلسفة . و توسع
فى تعريف الفلسفة (فى جامعة كونيغزبرج على عهد كانط) بأنها « القدرة
على التفكير ، و على البحث فى طبيعة الأشياء دون تغرضات أو مذهبية » (٥٠) .
و قد طلب كارل فون تسيدلتس وزير التربية المخلص فى عهد فردريك الأكبر ،
إلى كانط أن يقترح طرقاً « لصعد الطلاب فى الجامعات عن دراسات « أكل
العيش » . و إفتاهم أن التقليل الذى يتعلمونه من القانون ، لا بل اللاهوت
و القلب . سيكون أيسر استيعاباً و آمن تطبيقاً لو ملكوا ناصية المعرفة
الفلسفية » (٥١) .

وقد حصل الكثير من فقراء الطلاب على معونة حكومية أو أهلية لمواصلة التعليم الجامعي ، ولأنها لقصة مبهجة تلك التي روى فيها لكرمان كيف كان جيرانه الرحاء يمدون إليه يد المعونة في كل خطوة من خطى تطوره (٥٢) . ولم يكن بين جماعة الطلاب تفرقة طبقية (٥٣) . فكل خريج يسمح له بأن يحاضر تحت رعاية الجامعة مقابل أى رسم يستطيع جمعه من المستمعين ، وقد بدأ كانط حياته المهنية على هذا النحو ؛ وكانت منافسة المعلمين الجدد لقداماهم تحفز هؤلاء على أن يكونوا مستعدين في كل لحظة . وقد حكمت مدام دستال على الجامعات الألمانية الأربع والعشرين بأنها « أرقى الجامعات علماً في أوروبا . فليس في أى قطر ، ولا حتى في إنجلترا ، وسائل بهذه الكثرة للتعليم أو للارتقاء بقدرات الإنسان إلى الكمال . ٥ . ومنذ عصر الإصلاح البروتستانتي تفوقت الجامعات البروتستنتية على الكاثوليكية تفوقاً لا جدال فيه ، ويرتكز مجد ألمانيا الأدبي وفخرها على هذه المعاهد » (٥٤) .

وانتشر الإصلاح التعليمي وشاع في الجو . فأصدر يوهان بازدوا — مستلهماً قراءته لروسو — في ١٧٧٤ كتاباً من أربعة مجلدات عنوانه « المبادئ » رسم مخططاً لتعليم الأطفال بطريق المعرفة المباشرة بالطبيعة ؛ فيجب أن يكتسبوا الصحة والعافية بالألعاب والتمرينات الرياضية ؛ وأن يتناقوا الكثير من تعليمهم في الهواء الطلق بدلاً من أن يلزموا مكاتبهم ؛ وأن يتعلموا اللغات لا بالأجرومية والصم بل بتسمية الأشياء والأفعال التي يصادفونها في خبراتهم اليومية ؛ وأن يتعلموا الأخلاق بتأليف جماعاتهم وتنظيمها ؛ وأن يتهيأوا للحياة بتعلم حرفة ما . والدين يدخل في المنهج لا بالصورة القديمة الغالبة ؛ وكان بازدويتشك في عقيدة التثليث جهاراً (٥٥) وأنشأ في دساو (١٧٧٤) معهداً خيرياً نموذجياً أخرج تلاميذ ، صدمت الكبار « وقاحتهم ، وسلطتهم ، وسعة علمهم وخيالهم » (٥٦) ، ولكن هذا « التعليم التقدمي » ، كان متسقاً مع حركة التنوير ، فانشر سريعاً في طول ألمانيا وعرضها .

وكانت التجارب في مضمار التعليم جزءاً من الاختصار الفكري الذي

اضطربت به البلادين حرب السنين السبع والثورة الفرنسية . فكثرت الكتب والجرائد والمجلات والمكتبات المتنقلة وأندية القراءة كثرة ملؤها الحماسة . وانبثقت الحركات الأدبية العديدة ، ولكل منها أيدبولوجيتها ومجلتها وقادتها . وكانت أول جريدة يومية ألمانية « داي لبيزج زيتونج » قد بدأت عام ١٦٦٠ ، فلم يحل عام ١٧٨٤ حتى كان هناك ٢١٧ جريدة يومية وأسبوعية في ألمانيا . وفي ١٧٥١ بدأ ليسنج يحرر القسم الأدبي من « فوسيلك ديتونج » في برلين ؛ وفي ١٧٧٢ أصدر ميرك وجوته وهردر « أبناء فرانكفورت الأدبية » ؛ وفي ١٧٧٣ - ٨٩ جعل فيلاند من « در تيوتش مركز » أكثر المجلات الأدبية في ألمانيا نفوذاً . وكان هناك ثلاثة آلاف مؤلف ألماني في ١٧٧٣ ، وستة آلاف في ١٧٨٧ ، وفي لبيزج وحدها ١٣٣ . وكثيرون منهم كانوا كتاباً يعملون بعض الوقت . وربما كان ليسنج أول ألماني تعيش من الأدب سنين كثيرة . وكان جل المؤلفين فقراء ، لأن حق التأليف لم يحسنهم إلا داخل إماراتهم ؛ واختزلت الطبقات المسروقة أرباح المؤلف والناشر على السواء اختزالاً شديداً . وقد خسر جوته من كتابه جوتز فون برلينجن وكان ربحه ضئيلاً من قصته « آلام فرتر » ، وهي أعظم انتصار أدبي لذلك الجيل . ويعد تفجر الأدب الألماني أحد الأحداث العظمى في النصف الثاني من القرن الثامن عشر . فحين كتب دالامبير من بوتسدام في ١٧٦٣ لم يجد في المطبوعات الألمانية شيئاً يستحق الذكر^(٥٧) ؛ ولكن ما وافي عام ١٧٩٠ حتى كانت ألمانيا تنافس فرنسا بل ربما تبرزها في العبقرية الأدبية المعاصرة . وقد لاحظنا احتقار فردريك للغة الألمانية لأنها جشاء غليظة تؤذيها الحروف الساكنة ؛ ومع ذلك فإن فردريك نفسه ، بهزيمة الرائعة لهذا العدد الكبير من أعدائه ، قد ألهم ألمانيا العزة القومية التي حفزت الكتاب الألمان على استعمال لغتهم والوقوف أنداداً لأمثال فولتير وروسو . فلم يحل عام ١٧٦٣ حتى كانت الألمانية قد هذبت نفسها وأضحت لغة أدبية مستعدة للتعبير عن حركة التنوير الألماني .

ولم يكن هناك التنوير وليسداً بتوليا . فهو الثمرة المؤلمة التي تمخضت عنها الربوبية الانجليزية مقترنة بالتفكير الحر الفرنسي

على أرض مهدتها عقلانية كريستان فون فولف المعتدلة . وكانت تفجرات الربوبية الكبرى التي فجرها تولاند وتندال وكولتز ووستن وولستن قد تمت ترجمتها إلى الألمانية قبيل عام ١٧٤٣ ، وما وافى عام ١٧٥٥ حتى كانت « رسائل » جريم تثبت أحدث الأفكار الفرنسية بين الصفوة المثقفة من الألمان . وتوفر في ١٧٥٦ من أحرار الفكر في ألمانيا نفعاً أتاح إصدار « معجم لأحرار الفكر » . وفي ١٧٦٣ - ٦٤ أصدر بازدوف كتابه (محبة الصديق) الذي رفض أى وحى إلهى غير وحى الطبيعة ذاتها . وفي ١٧٥٩ بدأ كريستيان فريدرش نيقولاى ، وهو تاجر كتب برلينى ، « رسائل عن أحدث ثمرات الأدب » ؛ وقد ظلت هذه الرسائل التي أثرتها مقالات بأفلام ليسنج وهردر وموسى مندلسون حتى عام ١٧٦٥ مناراً أدبياً لحركة التنوير يحارب التطرف في الأدب والسلطة في الدين .

وشاركت الماسونية في الحركة فتأسس أول محفل للماسون بهمبورج في ١٧٥٣ ، وولته محافل أخرى ؛ وكان من أعضائها فردريك الأكبر ، وفرديناند دوق برنزويك ، وكارل أوجست دوق ساكسى - فايمار ، وليسنج ، وفيالاند ، وهردر ، وكلويشتوك ، وجوته ، وكلايست . وكانت هذه الجماعات بوجه عام تميل إلى الربوبية ، ولكنها تهاشت النقد العلنى للإيمان التقليدى . وفي ١٧٧٦ نظم آدم فايسهاويت ، أستاذ القانون الكنسى في إنجولشتات ، جمعية سرية شقيقة ، سماها « برفكتيبيلستن » ، ولكنها اتخذت بعد ذلك الاسم القديم (المستنيرين) وقد اتبع مؤسسها ، وهو يسوعى سابق ، المنهج الذى جرت عليه جماعة اليسوعيين ، فقسم رفاقها إلى درجات من الاطلاع على أسرارها وأخذ عليهم العهد بطاعة قادتهم في حملة « لتوحيد جميع الرجال القادرين على التفكير المستقل » ، ولجعل الإنسان « آية من آيات العقل ، فيبلغ بذلك أسمى درجات الكمال في فن الحكم » .^(٥٨) وفي ١٧٨٤ حظر كارل تيودور ، ناخب بافاريا ، جميع الجمعيات السرية ، فلقبت « طائفة المستنيرين » حتفها في سن مبكرة .

وتأثر بحركة التنوير حتى الأكليروس . فطبق يوهان سمير أستاذ الفلسفة

في هاله « النقد الأعلى » على الكتاب المقدس . فزعم (على العكس تماماً من الأسقف فاربورتن) أن العهد القديم لا يمكن أن يكون موسى به من الله ، لأنه — إلا في مرحلته الأخيرة — تجاهل الخلود . وألمح إلى أن المسيحية قد حرفها عن تعاليم المسيح لاهوت القديس بولس الذي لم ير المسيح قط ؛ ثم نصح اللاهوتيين بأن ينظروا إلى المسيحية على أنها صورة عابرة من صور جهد الإنسان في بلوغ حياة فاضلة . فلما رفض كارل بارت وغيره من تلاميذه العقيدة المسيحية بأكملها إلا الإيمان بالله ، عاد سملر إلى إيمانه السني ، واحتفظ بكرسى اللاهوت من ١٧٥٢ إلى ١٧٩١ . ووصف بارت المسيح بأنه معلم عظيم فقط . « مثل موسى ، وكونفوشيوس ، وسقراط ، وسملر ، ولوتر ، ومثلي أنا » (٥٩) كذلك سوى يوهان إيبهارت بين سقراط والمسيح ، وقد طرد من وظيفة القسوسية اللوثرية ، ولكن فردريك عيئه أستاذاً للفلسفة في هاله . وقسيس آخر يدعى ف . أ . تيلر اختزل المسيحية إلى الربوبية ، ودعا لعضوية كنيسة أي إنسان مؤمن بالله ، بما في ذلك اليهود (٦٠) ، أما يوهان شولتز ، الراعي اللوثرى ، فقد أنكر لاهوت المسيح ، ولم ير في الله أكثر من « الأساس الكافي للعالم » (٦١) ، وقد طرد من وظيفته في ١٧٩٢ .

هؤلاء المهرطقون المفصحون عن هراطقاتهم كانوا قلة قليلة ؛ ولعل المهرطقين الصامتين كانوا كثيرين . أما وقد رحب هذا العدد الكبير من رجال الدين بالعقل ، وكان الدين في ألمانيا أقوى كثيراً منه في إنجلترا أو فرنسا وكانت فلسفة فولف قد أمدت الجامعات بهذا التوفيق بين العقلانية والدين ، فإن التنوير الألماني لم يتخذ صورة متطرفة . ولم يسع إلى تدبير الدين بل إلى تخليصه من الأساطير والسخافات وسلطان رجال الدين — وهي أمور جعلت الكاثوليكية في فرنسا مبعث سرور عظيم للشعب وسخط شديد للجامعة الفلاسفة ، وقد فطن العقلانيون الألمان — وهم يتبعون روسو لافولتير — إلى ما للدين من إغراء قوى للعناصر العاطفية في الإنسان ؛ ثم إن النبلاء الألمان ، الأقل جهرًا بارتيابيتهم من الفرنسيين ، ساندوا الدين معاونًا للأخلاق والحكم . وجاءت الحركة الرومانتيكية فكبحت زحف العقلانية . ومنعت ليسنج من أن يكون لألمانيا ماكانه فولتير من قبل لفرنسا .

٥ - جوتيهولت ليسنج

١٧٢٩ - ٨١

كان جده الأعلى عمدة لبلدة في سكسونيا ، وظل جده أربعة وعشرين عاماً عمدة على كامينتنس ، وكتب دفاعاً عن التسامح الديني ؛ وكان أبوه الراعي اللوثرى الأول في كامينتنس ، وكتب دروساً في تعليم العقيدة بالسؤال والجواب حفظها ليسنج عن ظهر قلب . أما أمه فكانت ابنة الواعظ الذي تقلد أبوه من قبل منصب الراعي لكنيستته . وكان تصرفاً طبيعياً منها أن تنذره للقسوسية ، وطبيعياً منه بعد أن اتخم بالثقوى أن يتمرد .

وكان تعليمه المبكر في البيت وفي مدرسة ثانوية بمدينة مايسين مزيجاً من التأديب الألماني والآداب الكلاسيكية ، ومن اللاهوت اللوثرى والكوميديا اللاتينية . يقول « كان تيوفراستوس ، وبلاوتوس ، وترينس ، عالمي الذي درسته بابتهاج » (٦٢) ، وحين بلغ السابعة عشرة بعث إلى لبيزج على منحة دراسية . فوجد المدينة أكثر إثارة للاهتمام من الجامعة ؛ وانغمس في بعض حماقات الشباب ، وعشق المسرح ووقع في غرام إحدى الممثلات ، وسمح له بالدخول وراء الكواليس ، وتعلم وسائل تقوية التأثير المسرحي . وفي التاسعة عشرة كتب تمثيلية ، ووفق في جهوده فأخرجت . فلما سمعت الأم بذأ هذه الخطيئة بكته ، واستدعاه الأب إلى البيت غاضباً . ولكنه سرى عنهما بابتساماته ، وأقنعهما بسداد ديونه . وحين وقعت أخته على قصائده وجدتها بديئة إلى حد مذهل وأحرقتها ؛ فرمى ثلجاً في صدرها ليخفف من حاستها ، ثم أعيد إلى لبيزج ليدرس الفلسفة ويصبح أستاذاً ، ولكنه وجد الفلسفة قاتلة ، واقترض ديوناً عجز عن الوفاء بها ، ثم هرب إلى برلين (١٧٤٨) .

هناك عاش حياة الأديب الذي يلتقط رزقه يوماً بيوم - يراجع الكتب ، ويترجم ، ويشترك مع كريستوب مياموس في تحرير مجلة مسرحية لم تعمر . وما إن بلغ التاسعة عشرة حتى أصبح مدمناً للتفكير الحر . فقرأ سيبنوزا ووجده برغم هندسته لا يقاوم . وألف مسرحية (١٧٤٩) عنوانها

« الروح الحر » ، قابلت بين تيوفان القسيس الشاب اللطيف ، وأدراسـت الحر التفكير الحشن الصخاب الذى تغلب عليه إلى حد ما صفات الأوغاد . هنا انتصرت المسيحية فى الجدل . ولكن فى هذه الفترة أو حولها كتب ليسنج لأبيه يقول « ليس الإيمان المسيحى بالشىء الذى ينبغى للمرء أن يتقبله من أبويه بتسليم » (١٢٣) وألف الآن تمثيلية أخرى (اليهود) ناقشت الزواج بين المسيحيين واليهود . فهنا عبرانى غنى شريف لا اسم له إلا « المسافر » . ينقل حياة نبيل مسيحى وابنته ، فيعرض النبيل عليه الزواج من ابنته مكافأة له ، ولكنه يعدل عن عرضه حين يميـط اليهودى اللثام عن حقيقة جنسه ؛ ويوافق اليهودى على أن الزواج لو تم لكان غير سعيد . ولم يتعرف ليسنج إلى موسى مندلسون الذى رأى فيه تجسيدا للفضائل التى كان قد نخلعها على « المسافر » إلا بعد خمس سنين (١٧٥٤) وذلك أثناء مباراة للشطرنج .

وفى بواكير عام ١٧٥١ كلف فولتير أو سكرتيره ليسنج بأن يترجم إلى الألمانية مادة أراد الفيلسوف المتغرب أن يستعملها فى دعوى رفعها على أبراهام هيرش ، وسمح السكرتير لليسنج أن يستعير جزءاً من مخطوط كتاب فولتير « قرن لويس الرابع عشر » . وفى تاريخ لاحق من تلك السنة ذهب ليسنج إلى فتنبرج وأخذ المخطوط معه . وخشى فولتير أن تستعمل هذه النسخة غير المصححة فى إصدار طبعة مسروقة ، فأرسل إلى ليسنج طلباً عاجلاً بأسلوب مهذب ليرد الأوراق . واستجاب ليسنج ، ولكنه أنكر النعمة المتعجلة ، وربما كان هذا سبباً فى تشويه خصومته التالية لأعمال فولتير وخلقها .

ونال ليسنج درجة الأستاذية من جامعة فتنبرج عام ١٧٥٢ . فلما عاد إلى برلين شارك فى دوريات شتى بمقالات اتسمت بكثير من التفكير الإيجابي والأسلوب اللاذع ، فما حل عام ١٧٥٣ حتى كان قد اكتسب قراء بلغوا من الكثرة حداً يلتمس له معه العذر فى أن ينشر وهو فى الرابعة والعشرين طبعة جمعت كل أعماله فى ستة مجلدات . وقد اشتملت على تمثيلية جديدة اسمها « الآنسة سارة سامبسن » كانت من معالم تاريخ المسرح الألمانى . وكان

المسرح الألماني إلى هذا التاريخ قد أخرج كوميديات وطنية ، ولكن ندر أن أخرج مأساة وطنية . لذلك ناشد ليسنج زملاءه كتاب التمثيلات أن يتحولوا عن النماذج الفرنسية إلى النماذج الإنجليزية ويكتبوا مآسيهم هم . وامتدح ديدرو لدفاعه عن الكوميديا العاطفية ومأساة الطبقة الوسطى ، ولكن تمثيلية « الآنسة سامبسن » استوحاها من إنجلترا - من « التاجر اللندنى » لجورج ليللو (١٧٣١) و « كلاريسا » لصموئيل رتشردسن (١٧٤٨) .

ومثلت المسرحية في فرانكفورت - على - الأدور عام ١٧٥٥ ، ولقيت قبولا حسناً . وقد احتوت كل عناصر الدراما ؛ بدأت بإغواء ، واختتمت بانتحار ، ووصلتهما نهر من الدموع . والوغد مليفوت (الخلو المظهر) هو أفلايس في قصة رتشردسن ؛ تمرس بسلب الفتيات بكارتهن ، ولكنه يستنكر الزواج بواحدة ؛ يعد سارة بالزواج - ويهرب معها ، ويعاشرها معاشرة الأزواج ؛ ثم يسوف في الزواج ؛ وتحاول خليعة سابقة له أن تسترده ، وتحقق . فندس السم لسارة ، ويصل أبو سارة ، مستعداً لأن يغفر كل شيء ويقبل ميلفونت صهراً له ، ولكنه يجد ابنته تحتضر أما ملفونت فينتحر مخالفاً بذلك طبيعته ، وكأنه يطبق ملاحظة ليسنج الساحرة : إن الأبطال في المآسى لا يموتون من شيء إلا من الفصل الخامس (٦) .

وخيل إليه أن في استطاعته الآن أن يرتزق من الكتابة للمسرح ، ولما لم يكن في برلين مسارح فإنه رحل إلى ليبزج (١٧٥٥) ثم اندلعت حرب السنين السبع . فأقفل المسرح ، وكسدت سوق الكتب ، وبات ليسنج مفلساً . فعاد إلى برلين ، وشارك في مجلة نيقولاى « رسائل عن أحدث ثمرات الأدب » بمقالات سجلت قمة جديدة في النقد الأدبى الألماني . تقول رسالته التاسعة عشرة « إن القواعد هى ما يشاء أساتذة الفن مراعاته » وفي ١٧٦٠ غزا الجيش النمساوى الروسى برلين ، ففر ليسنج إلى برزلاو حيث عمل سكرتيراً لقائد بروسى . وخلال السنين الخمس التى أقامها هناك اختلف إلى الحانات ، وقامر ، ودرس سبينوزا ، وآباء المسيحية القدامى ، وفنكلمان ، وكتب « لا وكون » . ثم عاد إلى برلين في ١٧٦٥ . وفي ١٧٦٦ دفع بأشهر كتبه إلى المطبعة .

وهذا الكتاب « لا وكون ، أو على التخوم بين التصوير والشعر » استلهم حافزه المباشر من كتاب فنكلمان « أفكار عن محاكاة الآثار الإغريقية في التصوير والنحت » (١٧٥٥) . وبعد أن كتب ليسنج نصيف مخطوطه وصله كتاب فنكلمان « تاريخ الفن القديم » (١٧٦٤) ، فقطع بحثه وكتب يقول ، « لقد ظهر كتاب الهر فنكلمان في تاريخ الفن . ولن أجرؤ على التقدم خطوة أخرى قبل أن أقرأ هذا الكتاب » ^(٦٥) واتخذ نقطة انطلاقه من مفهوم فنكلمان عن الفن الإغريقي الكلاسيكي متمثلاً في الوقار الهادىء والفخامة المطمئنة ، ووافق على زعم فنكلمان أن مجموعة تماثيل اللاوكون المحفوظة بقاعة الفاتيكان للفنون احتفظت بهذه الصفات رغم الألم القتال (اشبهه لاوكون ، كاهن أبولو في طروادة ، في أن هناك يونانيين يخشون في « حصان طروادة » ، فقدفاه برمح ، ولكن الإله أثينا الخابية لليونان أقنعت بوسيدون أن يطاع من البحر ثعبانين ضخمين التفتا حول الكاهن وولديه التفتافاً قاتلاً) . وقد ظن فنكلمان أن مجموعة لاوكون — التي تعد الآن عملاً من أعمال نحائين رودسين في القرن الأخير قبل المسيح — تنتمى إلى عصر فيدياس الكلاسيكي.

أما لماذا خلع فنكلمان ، الذى شاهد هذا الأثر ودرسه صفة الجلال المطمئن على ملامح الكاهن المشوهة فذلك سر غامض . وقد قبل ليسنج الوصف لأنه لم ير التمثال قط ^(٦٦) . ووافق على أن المثال خفف من تعبير الألم ؛ ثم راح يتساءل عن سبب هذا الانضباط الفنى ، وأراد استنباطه من قيود الفن التشكيلي الأصيلة الصحيحة .

ثم تمثل بقول الشاعر الإغريقي سيمونيادس إن « التصوير شعر صامت ، والشعر تصوير بليغ » ^(٦٧) . وأضاف أن الإثنين مع ذلك يجب أن يلزما حدودهما الطبيعية : فالتصوير والنحت ينبغى أن يصفيا الأشياء في المكان ، لا أن يحاولا قص قصة ، أما الشعر فينبغى أن يروى أحداثاً في الزمان ، لا أن يحاول وصف أشياء في المكان . وينبغى أن يترك الوصف المفصل للفنون التشكيلية ، فإذا ورد في الشعر ، كما في « قصور » طرمسن أو « أب » هالر ، قطع السرد وشوش الأحداث . « ومعارضة هذا الذوق الفاسد

ومناقضة هذه الآراء التي لا أساس لها ، هو الهدف الرئيسي للملاحظات التالية» (٦٨) . ولكن سرعان ما نسي ليسنج هذا الهدف ، وتاه في نقاش مستفيض لكتاب فنكلمان في تاريخ الفن . هنا كانت تعوزه الخبرة والكفاية ، وكان لتمجيده الجمال المثالي باعتباره هدف الفن أثر معطل على التصوير الألماني . ثم إنه خلط بين التصوير والنحت ، وطبق عليهما جميعاً المعايير الخاصة بالنحت في المقام الأول ، وهذا شجع شكلية أنطون رفاثيل منجز الجمادة . بيد أن أثره على الشعر الألماني كان بركة ؛ فقد حرره من الأوصاف المسهبة ، والزعة الوعظية المدرسية ، والتفصيل الممل ، وأرشده إلى الحركة والشعور . وقد أقر جوته شاكراً بالتأثير المحرر لكتاب ليسنج « لا وكون » .

ووجد ليسنج نفسه أكثر تمكناً من عمله حين انتقل (ابريل ١٧٦٧) إلى همبورج كاتباً وناقداً مسرحياً براتب قدره ثمانمائة طالر في العام . وهناك أخرج تمثيليته الجديدة « منا فون بارنهيلم » . وبطل التمثيلية — الميجر ثلهام — العائد من الحرب بأكاليل الغار إلى أملاكه يظفر بخطبة منا الحساء الغنية . غير أن الحظ الذي قلب له ظهر المجن ، والدسائس المعادية التي لاحقته ، يهويان به إلى درك الفقر ، فينسحب من الخطبة لأنه لم يعد الزوج الصالح لوريثة ثروة ضخمة . ويختفي ، ولكنها تطارده وتتوسل إليه أن يتزوجها ، فيرفض . وإذ تدرك السبب تدبر خدعة تبنت بها معدمة ولكن في صورة جذابة ؛ ويعرض الميجر الآن نفسه زوجاً لها ويدخل رسولان فجأة يعلنان كل من ناحيه أن منا وثلهايم قد استردا ثروتهما . ويتجه الجميع ، وحتى الخدم يدفعون على عجل إلى الزواج . والحوار مريح ، والشخص بعيدة التصديق ، والحبكة منافية للعقل — ولكن كل الحركات تقريباً منافية للعقل .

وفي اليوم الذي شهد افتتاح المسرح القومي بهمبورج (٢٢ أبريل ١٧٦٧) أصدر ليسنج نشرة قدم بها لمقالاته في نظرية الدراما وقد علقت هذه المقالات دورياً ، طوال العامين التاليين ، على التمثيليات التي أخرجت في ألمانيا ، وعلى نظرية الدراما في أعمال الفلاسفة . وقد اتفق مع أرسطو على القول بأن الدراما أسمى أنواع الشعر ، وقبل في تناقض مندفع القواعد التي وضعها أرسطو في كتابه « في الشعر » :

« لست أتردد في الاعتراف . . . بأنى أعده معصوماً مثل « مبادئ » » (٦٩)
أقليدس (الذى لم يعد الآن معصوماً) . ومع ذلك توسل إلى مواطنيه أن يكفوا
عن تبعيتهم لكورنيلي وراسين وفولتير ، وأن يدرسوا فن الدراما كما هو
معلن في شكسبير (الذى تجاهل قواعد أرسطو) . وقال إنه يشعر ان في
الدراما الفرنسية اسرافاً في الشكلية لا يسمح بإحداث ذلك « التنفيس » أو تطهير
العواطف الذى وجده أرسطو في الدراما اليونانية ؛ وذهب إلى أن شكسبير
قد حقق هذا التطهير على نحو أفضل في الملك لير ، وعطيل ، وهاملت بحجة
الحركة وقوة لغته وروعها . وقد أكد ليسنج ضرورة توفر عنصر الاحتمال ،
ناسياً منديل ديدمونه . فكاتب الدراما التقدير يتجنب الاعتماد على المصادفات
والتفاهات ، فيبنى بالتدريج كل شخص من شخصه بحيث تصدر الأحداث
بالضرورة عن طبيعة الأشخاص المعنيين . وقد وافق كتاب الدراما في فترة
حركة « شتورم أوندر درانج (الاقترحام والجهاد) على اتخاذ شكسبير مثلاً
أعلى ، وحرروا الدراما الألمانية في ابتهاج من الدراما الفرنسية . وألهمت
الروح القومية التى تصاعدت بانتصارات فردريك وهزيمة فرنسا نداء ليسنج
ودعمته ، وسيطر شكسبير على المسرح الألمانى قرابة قرن من الزمان .

غير أن تجربة همبورج انهارت لأن الممثلين تنازعوا فيما بينهم ولم يتفقوا إلا
على الاستياء من مقالات ليسنج النقدية . فشكا فريدرش شرودر من أن
« ليسنج لم يستطع قط أن يفرغ لمشاهدة عرض كامل للمسرحية ؛ فهو
يخرج ويدخل ، أو يتحدث إلى معارفه ، أو يستسلم للتفكير ، ومن السمات
التي تثير سروره العابر يكون صورة هي من نسج عقله ولا تمت إلى الواقع
بسبب » (٧٠) وهذا الحكم المميز أجاد وصف حياة ليسنج وعقله المتسردن .

والآن هل يجدر بنا أن نقف به في منتصف طريقه لنلقى عليه بنظرة ؟
كان ربعة ، منتصب القامة في كبرياء ، قوياً لدينا بفضل التمرين الرياضى
المنتظم ، مليح القسمات ، أزرق العينين في دكنة ، بنى الشعر فاتحه محتفظاً
بلونه هذا حتى مماته . وكان دافئاً في صداقاته ، حاراً في عداواته . لا يسعده
شيء كالجلد ، فإذا اشتبك فيه ألنخن الجراح بقلم حاد . كتب يقول « ليبدأ

الناقد بالبحث عن شخص يستطيع الاختلاف معه . وهكذا يلج موضوعاً ويوغل فيل شيئاً فشيئاً ، ثم يقفو الباقي هذه الخطوة نتيجة طبيعية لها ، وأنا أعترف صراحة بأننى اخترت أولاً المؤلفين الفرنسيين لهذا الغرض ، لاسمياً المسيو فولتير « (٧١) — وقد اقتضى هذا الاختيار قدراً كافياً من الشجاعة . وكان متحدثاً ذكياً ولكنه مندفع ، حاضر الجواب ، لديه عن كل شيء أفكار بلغت من الكثرة والقوة مبلغاً لم يتح له أن يضفى عليها النظام أو الاتساق أو الفعالية الكاملة . وكان يستمتع بالبحث عن الحقيقة أكثر من الوهم الخطر بأنه وجدها . ومن هنا جاءت أشهر ملاحظاته :

« ليست الحقيقة التى يملكها الرجل — أو يعتقد أنه يملكها — هى التى تجعل له قيمة ، بل الجهد المخلص الذى بذله للوصول إليها . لأنه ليس بامتلاك الحقيقة بل بالبحث يطور المرء تلك الطاقات التى فيها وحدها كاله المطرد النمو . فالتلك يجعل العقل راكداً كسولاً متكبراً . ولو أن الله احتوى فى سمائه الحقيقة كلها ، ولم تحتو يسراه إلا الحافز الدائم الحركة نحو الحقيقة ، علماً بأننى سأخطئ دائماً أبداً — ثم قال لى « اختر ! » لأحيت رأسى فى انضاع أمام يسراه وقلت « أبتاه ، أعطى هذا ! فالحقيقة الخالصة لك أنت وحدك » (٧٢) .

وبقيت له من تجربة همبورج الفاشلة صداقتان غاليتان ، إحداهما مع إلبز رايماروس ، ابنة هرمان رايماروس أستاذ اللغات الشرقية فى أكاديمية همبورج ، التى جعلت من بيتها ملتقى لأرقى الجماعات ثقافة فى المدينة . وأنضم ليسنج إلى ندوتها ، واختلف إليها مندلسون وياكوبى أثناء وجودهما فى المدينة ، وسوف نرى الدور الحيوى الذى لعبته هذه الجماعة فى تاريخ ليسنج . أما الصداقة الثانية التى كانت أوثق حتى من هذه فصداقته لإيفا كونيغ يقول ليسنج إن هذه السيدة التى كانت زوجاً لتاجر حرير وأما لأربعة أطفال « ذكية تفيض حيوية ، وهبت لباقة المرأة وكياستها » ، وأنها « كانت لا تزال محتفظة ببعض نضارة الشباب وفتنته » (٧٣) ، وقد جمعت هى أيضاً

من حولها صالوناً من الأصدقاء المثقفين ، كان ليسنج يحتل مكان الصدارة منهم . فلما رحل زوجها إلى البندقية في ١٧٩٩ قال لليسنج ، « إنى أترك أسرتى وديعة بين يديك » . ولم يكن هذا بالترتيب الحكيم ، لأن الكاتب المسرحى لم يكن له ما يملكه إلا العبقريّة ، وكان مديناً بألف طالر . وفى أكتوبر من ذلك العام قبل دعوة من الأمير كارل فلهم فرديناند حاكم برنزويك ليضطلع بأمانة مكتبة الدوقية فى فولفنبوتل ، التى تقلص سكانها إلى ستة آلاف نسمة منذ أن نقل دوقها الحاكم مقره إلى برنزويك (١٧٥٣) على سبعة أميال منها ، ولكن مجموعة كتبها ومخطوطاتها كانت فى رأى كازانوفاف « ثالث أعظم مكتبة فى العالم » (٧٤) وافق على أن ينقد ليسنج ستائة طالر فى العالم ويخصص له مساعدان وخادم ، ويعطى سكناً مجانياً فى قصر الدوق القديم ؛ وفى مايو ١٧٧٠ استقر فى بيته الجديد .

غير أنه لم يكن أمين مكتبة ناجحاً ، ومع ذلك فقد أبهج رئيسه باكتشافه بين المخطوطات بحثاً مشهوراً مفقوداً بقلم بيرنجار الثورى (٩٩٨ -- ١٠٨٨) يتشكك فيه فى عقيدة استحالة خبز القربان وخمرة إلى جسد المسيح ودمه . وقد افتقد فى حياته القاعدة ، التى عاشها الآن ، الكفاح والحافز اللذين وجدهما فى هببورج وبرلين . ثم إن انكبابه على قراءة الخطوط الرديئة فى الضوء الضعيف أضرم عينيه وأصابه بنوبات من الصداع ، وبدأت صحته تتداعى ، فعزى نفسه بكتابة مسرحية جديدة سماها « إميليا جالوتى » أفصححت عن الضيق بامتيازات الطبقة الارستقراطية وأخلاقها . فإميليا هذه ابنة جمهورى متحمس ، يشتهيها سيدها أمير جرواستاللا فيقتل خطيبها بأمره ، ثم يخطفها إلى قصره ؛ فيعثر عليها أبوها ، ويطعمها طعنات مميتة استجابة لإلحاحها ، ثم يستسلم لبلاط الأمير ويحكم عليه بالإعدام ، بينما الأمير سادر فى غيه لا يخلع إلا لحظة . وحرارة المسرحية وبلاغتها أنقلدنا خاتمتها ، فأصبحت مأساة محببة على خشبة المسرح الألمانى ، وقد أرخ جوته بعرضها الأول (١٧٧٢) بعث الأدب الألمانى من رقدته . ورحب بعض النقاد بليسنج شكسبيراً ألمانياً .

وفى أبريل ١٧٧٥ ذهب ليسنج إلى إيطاليا مرافقاً لليونولد أمير برنزويك ، وقضى ثمانية أشهر يستمتع بالحياة فى ميلان والبندقية وبولونيا ومودينا

وبارما وبياتشتسا وبافيا وتورين وكورسيكا وروما ؛ وهناك قدم إلى البابا بيوس السادس ، وربما شاهد تمثال لاوكون متأخراً . وفي فبراير ١٧٧٦ كان قد عاد إلى فولفنبوتل . وفكر في الاستقالة ، ولكنه أقنع بالبقاء في منصبه بعلاوة قدرها مائتا طالر فوق راتبه ، وبمائة جنيه ذهبي فرنسي (لوى دور) في العام بوصفه مستشاراً لمسرح مانهايم . وعرض الآن وهو في السابعة والأربعين على الأرملة إيفا كونيغ أن تصبح زوجاً له وأن تحضر بأولادها معها . فحضرت ، وتزوجا (٨ أكتوبر ١٧٧٦) . وظلا عاماً يتمتعان بحياة سعيدة هادئة . وفي عشية الميلاد من عام ١٧٧٧ ، ولدت طفلاً مات في الغد . وبعد ستة عشر يوماً ماتت الأم أيضاً ، وفقد ليسنج طعم الحياة .

ولكن الجدل حفظ عليه حياته . ففي أول مارس ١٧٦٨ ودع هرمان رايماروس الحياة مخلفاً أزواجه مخطوطاً ضخماً لم يجرؤ قط على طبعه . وقد مررنا في غير هذا الموضع ^(٧٥) من الكتاب مرور الكرام بهذا « الدفاع عن المؤمنين العقلانيين » . وكان ليسنج قد اطلع على شطر من هذا المؤلف الممتاز ، فطلب إلى السيدة رايماروس أن تسمح له بنشر أجزاء منه ، فوافقت . وكان له بصفته أميناً للمكتبة سلطة نشر أى مخطوط في المجموعة . فأودع مخطوط « الدفاع » في المكتبة ، ثم نشر جزءاً منه في ١٧٧٤ بعنوان « تسامح الربوبيين . . . بقلم كاتب مجهول » . فلم يثر أى ضجة . ولكن الراسخين في الأمور الروحية أثارهم القسم الثانى في مخطوط رايماروس الذى أصدره ليسنج في ١٧٧٧ بعنوان « مزيد من بحوث الكاتب المجهول عن الوحى » . وقد زعم هذا القسم أنه لا يمكن لأى وحى موجه لشعب واحد أن يظفر بقبول جميع الناس في عالم تتنوع أجناسه وأديانه هذا التنوع الكبير ، فالذين سمعوا إلى الآن بالكتاب المقدس ؛ اليهودى — المسيحى ، بعد ألف وسبعائة سنة ، ليسوا إلا أقلية من البشر ، وإذن فلا يمكن قبوله تنزيلاً من الله للنوع الإنسانى . ثم نشر قطعة أخيرة من المخطوط بعنوان « أهداف المسيح وتلاميذه » (١٧٧٨) لم تصور المسيح ابناً لله بل صوفياً متحمساً شارك رأى بعض اليهود في أن العالم المعروف يومها قد أشرف على هابته ، وسيعقبه قيام

ملكوت الله على الأرض؛ وقد فهمه الرسل على هذا النحو (في زعم رايماروس)، لأنهم أملوا في أن يبعثوا عروشاً في هذا الملكوت القادم . فلما انهار الحلم بصرخة المسيح اليائسة على الصليب « إلهي إلهي لماذا تركتني » — اخترع الرسل (كما ظن رايماروس) خرافة قيامته إخفاء لهزيمته ، وصوروه بصورة ديان العالم المكافئ المنتقم .

وهاجم اللاهوتيون الذين صدموا أجزاء « مخطوط فولفنبوتل » هذه في نيف وثلاثين مقالا في الصحف الألمانية. واتهم يوهان ملكيور جوتسي كبير رعاة همبورج ليسنج بأنه موافق سرّاً على مزاعم « الكاتب المجهول » ، وحض الكنيسة والدولة جميعاً على عقاب هذا المنافق . أما الخصوم الأكثر اعتدالاً فقد ونحوا ليسنج على نشره بالألمانية المفهومة للقراء شركراً كان من الواجب الإفصاح عنها ، إن جاز الإفصاح إطلاقاً ، باللاتينية لفئة قليلة من القراء . ورد ليسنج في إحدى عشرة نشرة (١٧٧٨) نافست « رسائل بسكال الإقليمية » في تهكمها المرح — ونكتتها الدكية الفتاكة . يقول هيني « لم يسلم منه رأس ، وما أكثر الرؤوس التي أطاح بها لمجرد العبث الخالص ، ثم دفعته شقاوته إلى رفعها علانية ليرى الناس أنها فارغة » (٧٦) . وقد ذكر ليسنج مهاجميه بأن حرية الحكم والنقاش عنصر حيوي في برنامج حركة الإصلاح البروتستنتي ؛ ثم إن للشعب الحق في كل المعرفة المتاحة له ، وإلا لكان بابا واحد من بابوات روما خيراً من مائة نبي بروتستنتي . وعلى أية حال فإن قيمة المسيحية (في زعمه) ستبقى حتى لو كان الكتاب المقدس مجرد وثيقة بشرية وكانت معجزاته مجرد قصص خرافية ورعة أو أحداث طبيعية . وصادرت حكومة الدوق أجزاء مخطوط فولفنبوتل ومخطوط رايماروس ، وأمرت ليسنج ألا ينشر المزيد دون موافقة الرقيب البرنزويكي .

فلما ألزم ليسنج الصمت على منبره اتجه إلى خشبة المسرح فألف أروع تمثيلياته . وكان قد أعسر مرة أخرى إثر النفقات التي تحملها بسبب مرض زوجته وموتها ، فاقترض ثلاثمائة طالر من يهودي همبورجي ليوفر الوقت اللازم للفراغ من مسرحية « ناثن الحكيم » . وقد اختار

مكاناً لأحداثها مدينة أورشليم أبان الحملة الصليبية الرابعة . وأما ناثان هذا فتاجر يهودى ورع له زوجة وسبعة أبناء يذبّحهم المسيحيون الذين أنفثت الحرب الطويلة أخلاقهم . وبعد ثلاثة أيام يأتيه راهب بطفلة مسيحية ماتت أمها لتوها ، وكان أبوها - الذى قتل فى المعركة مؤخراً - قد أنقذ ناثان من الموت فى مناسبات عديدة . ويسمى ناثان الطفلة ريكا ، ويربها كأنها ابنته ، ولا يلقنها إلا التعاليم الدينية التى يجمع عليها اليهود والنصارى والمسلمون .

وبعد ثمانية عشر عاماً ، وبينما كان ناثان غائباً لقضاء بعض مصالحه ، احترق بيته ، وينقذ فارس شاب من فرسان المعبد ريكا ثم يحتفى دون التعريف بشخصه ؟ وتحسبه ريكا ملاكاً معجزاً . ويبحث ناثان بعد عودته عن المنقذ ليكافئه ، فيسبه هذا لأنه يهودى ، ولكن ناثان يقنعه بالمجيء لتقبل شكر ريكا وعرفانها . فيحضر ، ويقع فى غرامها وتبادل الحب ، ولكنه حين يعرف أنها مسيحية المولد ولم ترب كمسيحية يسائل نفسه ألا يلتزم بيمين القروسية بتبليغ الأمر إلى بطريك أورشليم . ثم يشرح مشكلته للبطريك دون ذكر أسماء الأفراد ، ويحدث البطريك أنهما ناثان وريكا ، فيقسم أنه قاتل ناثان لا محالة . ثم يرسل راهباً ليتجسس على اليهودى ، ولكنه هو الراهب ذاته الذى جاء بريكا إلى ناثان قبل ثمانية عشر عاماً ؛ وقد لحظ طوال هذه السنين حكمة التاجر المشربة بالعاطفة ، فيخبره بالخطر الذى يهدد حياته ، ويحزنه ذلك الحقد الدينى الذى يجعل الناس قتله سفاكين للدماء إلى هذا الحد .

ثم يقع صلاح الدين ، حاكم القدس الآن ، فى ضائقة مالية . فيرسل فى طلب ناثان بأمل الاقتراض منه . فيحضر ناثان ، ويفطن إلى حاجة صلاح الدين ، فيعرض السلفة قبل أن تطلب منه . أما السلطان ، العليم بما اشتهر به ناثان من حكمة ، فيسأله أى الأديان الثلاثة أفضل فى رأيه . ويجب ناثان بقصة حورها بحكمة من القصة التى رواها بوكاشيو ونسبها للملكى صادق اليهودى الاسكندر . تقول القصة إن خاتماً نفيساً كان يتوارثه جيل بعد جيل دليلاً

على الوارث الشرعى لضبعة غنية . ولكن فى أحد هذه الأجيال يحب الأب أبناءه الثلاثة حباً يستوى حرارة وصدقاً ، فيأمر بصنع ثلاثة خواتم متشابهة ، ويعطى كل ابن خاتماً سرّاً ، وبعد موته يتنازع الأبناء على أى الخواتم هو لأصيل والحقيقى ، ثم يحتكمون إلى القضاء — حيث ظل الأمر معلقاً لم يفصل فيه إلى اليوم . فأما الأب المحب فهو الله ، وأما الخواتم الثلاثة فهى اليهودية والمسيحية والإسلام ، والتاريخ لم يفصل بعد فى أمر هذه الأديان وأيهما هو شريعة الله الحقّة . ويدخل ناثنان تغييراً جديداً على القصة : فالخاتم الأصيل كان المفروض أنه يجعل لابسهُ إنساناً فاضلاً ، ولكن بما أن أحداً من الإبناء الثلاثة لا يفضل غيره من الناس ، فمن المحتمل أن يكون الخاتم الأصيل قد فقد ، فكل خاتم — أى كل دين — حقيقى بقدر ما يجعل لابسهُ فاضلاً . ويعجب صلاح الدين بجواب ناثنان إعجاباً شديداً فيقوم ويعانقه — وعقب هذا الحديث الفلسفى يظهر مخطوط عربى يتبين منه أن فارس المعبد وريكا ولدان لأب واحد . فيعزنان لأنهما لا يستطيعان الزواج ، ولكنهما يفرحان لأن فى استطاعتهما الآن أن يحب أحدهما الآخر كأخ وأخت يتلان بركة ناثنان اليهودى وصلاح الدين المسلم ؟

أكان ناثنان صورة صاغها على غرار موسى مندلسون ؟ هناك أوجه شبه بين الإثنين كما سنرى فى فصل لاحق ، ومن المحتمل ، برغم أوجه الخلاف الكثيرة ، أن ليسنج وجد فى صديقه الكثير مما ألهمه تلك الصورة المثالية لتاجر القدس . وربما رسم ليسنج اليهودى والمسلم بتعاطف أكثر مما رسم المسيحى مدفوعاً برغبته الشديدة فى التبشير بالتسامح ؛ ففارس المعبد فى أول لقاء مع ناثنان فظ فى تعصب ، والبطريك (أهو ذكرى ليسنج لجوتسى؟) لا ينصف فى صورته هذه الأساقفة الريحاء المستنيرين الذين كانوا آنئذ يحكمون تريير وماينز وكولون . وأنكر جمهور ألمانيا المسيحى التمثيلية حين نشرت فى ١٧٧٩ لأنه رآها غير منصفة ؛ وانضم إلى هذا النقد العديد من أصدقاء ليسنج . فلم تصل تمثيلية « ناثنان الحكيم » إلى خشبة المسرح إلا فى عام ١٧٨٣م فى الليلة الثالثة كان المسرح خالياً . وفى ١٨٠١ لقيت

نسخة معدلة أعدها شيلر وجونه قبولاً حسناً في فايمار ، وبعدها ظلت من التمثيليات المحببة في المسارح الألمانية طوال قرن كامل .

وقبل أن يموت ليسنج بعام أصدر ندائه الأخير للتفاهم ، وصاغه في عبارات دينية ، كأنما أراد أن يلين جانب المقاومة ويقم جسراً بين الأفكار القديمة والجديدة . وهذا المقال المسمى « تربية النوع الإنسانى » من بعض نواحيه يبرر الأفكار القديمة ؛ ثم ندرك أن الدفاع إنما هو دعوة لحركة التنوير . فالتاريخ بجملته يمكن أن ينظر إليه على أنه رؤيا مقدسة ، وتربية تدريجية للنوع الإنسانى . وكل دين عظيم كان مرحلة في هذه الإنارة المتدرجة الخطوات ، فهو ليس كما افترض بعض الفرنسيين خدعة لمخدع بها رجال الدين الأنانيون السذج من الناس ، إنما هو نظرية عالمية قصد بها تمدين البشرية . وغرس الفضيلة والتهديب والوحدة الاجتماعية . ففى إحدى مراحلها (مرحلة العهد القديم) حاول الدين جعل الناس فضلاء بأن وعدهم بطيبات الدنيا فى عمر مديد ؛ وفى مرحلة أخرى (مرحلة العهد الجديد) حاول التغلب على التناقض المشبث للعزائم بين الفضيلة والنجاح فى هذه الدنيا بوعده بثواب الآخرة ؛ وفى كلتا الحالتين خوطب الناس على قدر فهمهم المحدود فى ذلك الوقت . وكل دين فيه نواة غالية من الحقيقة . ربما كان الفضل فى تقبل الناس لها ذلك الغلاف من الخطأ الذى جعلها سائغة . فإذا كان اللاهوتيون قد أحاطوا بالمعتقدات الأساسية شيئاً فشيئاً بعقائد عسيرة الفهم ، كالخطيئة الأصلية والتثليث ، فإن هذه التعاليم أيضاً هى رموز للحقيقة وأدوات للتربية . فالله يمكن تصوره على أنه قوة واحدة لها وجوه ومعان كثيرة ؛ والخطيئة أصلية بمعنى أننا كلنا مولودون بنزوع لمقاومة الشرائع الأخلاقية والاجتماعية (٧٧) . ولكن المسيحية فوق الطبيعية ليست سوى خطوة فى تطور العقل البشرى ، وستأتى مرحلة أعلى حين يتعلم النوع الإنسانى أن يعقل ، وحين يصبح الناس من القوة ووضوح الرؤية بحيث يفعلون الصواب لأنهم يرونه صواباً ومعقولاً ، لا طمعاً فى ثواب مادمى أو سماوى . وقد بلغ بعض الأفراد تلك المرحلة ، وهى لم تتوفر للنوع الإنسانى إلى الآن ولكنها « آتية ، آتية لا ريب فيها . . . زمان رسالة جديدة خالدة ! » (٧٨) وكما أن

الفرد المتوسط يلخص في نموه التطور الفكرى والخلقى للنوع ، فكذلك يمر النوع في بقاء خلال التطور الفكرى والخلقى للفرد الأعلى . وإذا شئنا التعبير بطريقة فيثاغورية ، قلنا ان كلا منا يولد من جديد ، ثم يولد من جديد ، حتى تكتمل تربيته — أى تكيفه مع العقل ٥

ترى ماذا كانت آراء ليسنج النهائية فى الدين ؟ لقد قباه معيناً هائلاً للفضيلة ، ولكنه أنكره نسقاً من العقائد القطعية التى تفرض قبولها وإلا كانت الخطيئة والعقاب والعار الاجتماعى . وكان فكره عن الله أنه الروح الباطن للحقيقة ، المسبب للتطور والتطور هو ذاته ؛ ورأى فى المسيح أكمل إنسان مثالى ، ولكنه ليس تجسيدا لهذا الإله إلا مجازاً ؛ وقد تطلع إلى زمن يختفى فيه اللاهوت كله من المسيحية ، فلا يبقى إلا مبدأ أخلاقى سام من العطف الصبور والأخوة العالمية . وفى مسودة خطاب إلى مندلسون صرح بالتزامه برأى سبينوزا فى أن الجسم والعقل هما الظاهر والباطن لحقيقة واحدة ، وصفتان لجوهر واحد متطابق مع الله . وقال لياكوبى « ان المفاهيم التقليدية عن الإله لم يعد لها وجود عندى ، وأنا لا أطيقها ، لا أطيقها كلها ! لا أعرف غير هذا » (٧٩) ؛ وفى ١٧٨٠ طلب إليه ياكوبى الذى زاره فى قولفنبوتل أن يساعده فى الرد على سبينوزا وتفنيد آرائه ، فصدمه جواب ليسنج : « ليس هناك فلسفة غير فلسفة سبينوزا . . . ولو خيرت فى أن أتسمى بإسم آخر لما عرفت غير إسمه » (٨١) .

وقد ترك ليسنج وحيداً فى أخريات عمره بسبب هرطقاته وضراوته أحياناً فى الجدل . وبقي له بعض الأصدقاء فى برنزويك يخاف إليهم بين الحين والحين للحديث ولعب الشطرنج . وكان أبناء زوجته يعيشون معه فى قولفنبوتل ، وقد خصص لهم التركة الصغيرة التى خلفها كاملة . ولكن خصومه شهروا به فى طول ألمانيا وعرضها ما يحذر هيباً . فمحداهم ، وتجاسر على معارضة الرجل الذى يدفع له راتبه ، ذلك أن كارل فلهم فرديناند ، الذى أصبح الآن (١٧٨٠) دوقاً على برنزويك ، زج فى السجن يهودياً

شاباً آثار سخطه . فرار ليسنج القى فى سجنه ، ثم اصططحبه إلى منزله بعد ذلك ليسترده عافيته .

أما عافيته هو فكانت قد ولت . وغشى بصره الآن حتى لم يكديقوى على القراءة . وكان يعانى من الربو ، وضعف الرئتين ، وتصلب الشرايين . وفى ٣ فبراير ١٧٨١ بينما كان فى زيارة لبرنزويك أصابته نوبة ربوشديدة ، وبصق دماً . وأوصى أصحابه قائلاً : حين ترونى مشرفاً على الموت ، استدعوا موثقاً ، وسأعلن أمامه اننى أموت على غير دين من الأديان السائدة (٨١) . وفى ١٥ فبراير بينما كان راقداً فى فراشه اجتمع نفر من أصحابه فى الحجرة المجاورة . وفجأة فتح باب حجرته ، وظهر ليسنج ، منحنى الظهر مهزولاً ، ورفع قلنسوته مخمياً ، ثم خر على الأرض صريعاً بسكتة دماغية . وأذاعت مجلة لاهوتية أن الشيطان حمله عند موته إلى الجحيم كأنه فاوست آخر باع روحه (٨٢) . ولم يخلف من المال إلا أقل القليل ، فاضطر الدوق إلى دفع نفقات جنازته .

لقد كان البشير بأعظم عصور ألمانيا الأدبية . فى عام موته نشر كانط كتابه الخطير « نقد العقل الخالص » ونشر شيلر أول تمثيلياته . وكان جوته يرى فى ليسنج الحرر العظيم ، وأبا التنوير الألمانى . قال جوته موجهاً الخطاب إلى طيف ليسنج « فى الحياة كرمناك إلها من الآلهة ، أما الآن وقد مت فإن روحك تسيطر على جميع النفوس » .

٦ - رد الفعل الرومانتيكى

كان جوته يتحدث باسم أقلية صغيرة ؛ أما السواد الأعظم من الشعب الألمانى فتشبهت بترائه الدينى ، ورحب بالشاعر الذى تغنى بإيمانهم رجالاً ملهماً من السماء . فبعد أن أثار هندل مشاعر إرلنده على الأقل بأنغام « المسيا » السامائية بست سنوات ، أسر فريدرش جوتليب كلوبشتوك قلب ألمانيا بالقصائد الحماسية الأولى من ملحمتة (المسيا) (١٧٤٨ - ٧٣) .

وقد ولد كلوبشتوك في ١٧٢٤ قبل مولد ليسنج بخمس سنين ، وعاش اثنين وعشرين سنة بعده . وقد أصبح ليسنج رجلاً حر الفكر وهو ابن القسيس ، أما كلوبشتوك ابن الحامى فقد اتخذ من نظم ملحمة شعرية عن حياة المسيح أهم رسالة لحياته . وبلغ من تحمسه الشديد لموضوعه أنه نشر الأقسام الثلاثة الأولى من الملحمة وهو لا يزال فتي في الرابعة والعشرين ، وقد فتنت هذه الأبيات السداسية التفاعيل ، غير المقفاة ، جمهوراً من القراء بلغ من عرفانهم أنهم أرسلوا الرسائل من جميع أرجاء ألمانيا لابنة عمه حين تقدم لخطبتها بعد سنة يناشدونها أن تقبل الخطبة ، ولكنها رفضتها . بيد أن فردريك الخامس ملك للدنمرك - استجابة لتوصية وزيره يوهان فون برنشتورف - دعا كلوبشتوك للحضور والإقامة في البلاط الدنمركي وإكمال ملحمة نظير أربعائة طالر في العام . وفي طريق الشاعر إلى كوبنهاجن رافته إحدى المعجبات الدنمركيات ، واسمها مارجريتا مولر ؛ وفي ١٧٥٤ تزوجها ، وفي ١٧٥٨ ماتت فحطمت قلبه وأظلمت شعره . وقد خلد ذكرها في القسم الخامس عشر من « المسيا » وفي بعض من أعمق قصائده الشعبية تأثيراً . وأقام في كوبنهاجن عشرين سنة ، ثم ذهبت حظوته عند الملك بعد طرد برنشتورف ، فعاد إلى هيمبورج ، وفي ١٧٧٣ نشر آخر أجزاء ملحمة الضخمة .

وكان مطلعها دعاء هو صدى للمتن ، ثم روت في عشرين قصماً القصة المقدسة ، ابتداء من تأملات المسيح على جبل الزيتون وانتهاء بصعوده إلى السماء . وبعد أن أنفق كلوبشتوك في كتابة ملحمة وقتاً قارب ما أنفقه المسيح لكي يعيشها ، اختتمها بتسبحة تفيض حمداً وشكراً لله :

ها أنذا قد بلغت هدفي ! ان الفكرة المثيرة
ترف خلال روحي . وذراعك القادرة على كل شيء
ربي وإلهي هي وحدها التي هدتني
عبر أكثر من قبر مظلم قبل أن أبلغ
ذلك الهدف البعيد ! أنت أيها الرب شفيتني ،
وأنزلت فيضاً جديداً من الشجاعة على قلبي المتخاذل ،

الذى كان فى صحبة حميمة مع الموت ؛
وكنيت إذا شخصت إلى الأهوال لم تلبث
أشكالها المظلمة أن تتوارى ، لانك تحمىنى ؛
لقد اختفت سريعاً يا تخلصى ، لقد تغنيت
بوعد رحمتك . ووطئت قدمى
طريق الخيف ، وكل رجائى فىك أنت ؛ (٨٣)

ورحبت ألمانيا السنية الإيمان بملحمة « المسيا » كأفضل شعر كتب إلى
يومها بالألمانية . وينبئنا جوته عن مستشار فى فرانكفورت كان يقرأ الأقسام
العشرة الأولى « كل سنة فى أسبوع الآلام ، وبهذه الطريقة ، ينعش روحه
طوال العام » . أما جوته فلم يكن يستطيع الاستمتاع بالملحمة إلا بنذ شروط
معينة لا تتخلى عنها ثقافة تسير قدماً إلا على مضض (٨٤) . وقد سكب
كلوبشتوك ورعه بغزارة فى شعره حتى أصبحت قصيدته سلسلة متعاقبة
من الغنائيات والكوراليات الباخية أكثر منها الرواية المتدفقة التى يجب أن
تكونها الملحمة ؛ وليس من اليسير علينا أن نتبع تحليفاً عاطفياً استغرق
عشرين جزءاً وخمسة وعشرين سنة .

وكما أن فولتير ولد نقيضه فى روسو ، كذلك جعل ليسنج بارتيايته ،
وعقلانيته ، ونزعه الفكرية ، ألمانيا تشعر بحاجة إلى كتاب يدركون مقابل
هذا مكان وحقوق الوجدان ، والعاطفة ، والخيال ، والغموض ، والرومانس ،
والعنصر فوق الطبيعى فى حياة البشر .

وقد أصبحت عبادة « الحساسية » عند بعض ألمان هذه الفترة ،
لاسيا النساء منهم ، ديناً تمناً أصبحت موضحة . وكان فى دارمشتات
« حلقة لدوى الحساسية » جعل أعضاؤها من العاطفة والتعبير الوجدانى
مبدأً وشعيرة . وكان روسو هو « مسيا » هذه النفوس . وفاق تأثيره
فى ألمانيا تأثير فولتير بمراحل ؛ واعترف به هرذر وشيار ينبوعاً للإلهام ؛
وكان كتاب كانط « نقد العقل العلمى » مشرباً بروسو ، أما جوته

فقد بدأ بروسو « الشعور هو كل شيء » وانتقل إلى فولتير « فكر في أن تحيا » ، ثم انتهى إلى ضرب رأسهما ببعضهما ببعض . وجاء في غضون ذلك شعراء الوجدان من إنجلترا : جيمس طومسون ، ووليم كولنز ، وإدوارد بينج ، وقصاص الوجدان رتشردسن رستين . وقد أثارت مختارات توماس برسي من روائع الشعر الإنجليزي القديم ، وديوان مكفرسن (من الشعر المنشور الذي زعم أنه ترجمة لشعر « أوسيان » من مخطوطات غالية قديمة) الاهتمام بشعر العصر الوسيط وغموضه ورومانيته ؛ وبعث كلوبشتوك وهابزيش فون جرسنبرج إلى الحياة فيثولوجية اسكندناوه وألمانيا السابقة للمسيحية .

وكان يوهان جيورج هامان ، قبل عام ١٧٨١ ، قائد الثورة على العقل . ولد مثل كانط في مدينة كونجزبرج الغائمة السماء ، وأشر به أبوه الوجدان الديني بشدة ، وتلقى علومه في الجامعة ، ثم كافح وهو فقير واشتغل معلماً خاصاً ، ووجد عزاءه في إيمان بروتستانتى يثبت لكل اطلمات حركة التنوير ، وكان يقول إن العقل ليس إلا جزءاً من الإنسان ، حديث التطور وليس أساسياً ؛ أما الغريزة ، والحدس ، والوجدان ، فهي أعمق منه ، والفلسفة الخفة تقيم نفسها على طبيعة الإنسان وجوانبه كلها . واللغة ليست في أصلها حصيلة للعقل بل منحة من الله للتعبير عن الوجدان . والشعر أعمق من النثر . والأدب العظيم لا يكتب بمعرفة القواعد والأسباب ومراعاتها ، بل بتلك الخاصية التي لا يمكن تعريفها وهي العبقرية التي تتجاوز كل القواعد مهتدية بالوجدان .

ووافق فريدريش ياكوبي هامان وروسو . وقال إن فلسفة سبينوزا منطقية جداً إذا كنت تقبل المنطق ، ولكنها زائفة لأن المنطق لا ينفذ أبداً إلى قلب الحقيقة ، التي لا تتكشف إلا للوجدان والإيمان . فوجود الله لا يمكن إثباته بالعقل ، ولكن الوجدان يعرف أنه بدون الإيمان بالله تكون حياة الإنسان عبثاً مأساوياً يائساً .

هذا التمجيد للوجدان والشعر شحنت الروح التيوتونية لتطلق تحقيقات

من الأدب الخصب الخيال جعلت النصف الثاني من القرن الثامن عشر في ألمانيا مذكراً بحرارة انجلترا وخصوبة إنتاجها على عهد اليزابث . فكثرت مجلات الشعر ، التي عانت قصر العمر المألوف ، وكتب يوهان هاينريش فوس قصة رقيقة بالشعر سماها « لويزه » (١٧٨٣ — ٩٥) فضلاً عن قيامه بترجمة هومر وفرجل وشكسبير ، وقد كسبت هذه القصيدة محبة الألمان وحفزت جوته لينافسها . وظفر سالومون جسنر بقراء دولين أقبلوا على غنائيته الرقيقة ورعوياته الثرية . ومس ما تياس كلوديوس قلوب مائة ألف أم بأغانيه الريفية عن الحياة العائلية ، مثل أغنيته المسماة « تهويده تغني هل ضوء القمر » :

نامي الآن يا صغيرتي !
لـم تـكـنـين ؟
ناعمة هي الراحة ،
وحلوة في ضوء القمر .
وسيقبل النعاس عما قليل
وبـلا أـلـم .
إن القمر يفرح بالأطفال
ويحبك (٨٥) .

أما جوتفريد بورجر فقد أوتى كل فضائل العبقرية الرومانسية . كان ابناً لراعي تنيسة . وأرسل إلى خاله في جوتنجن ليدرس القانون ، ولكن حياته الفاجرة أفضت إلى تركه الكلية . وفي ١٧٧٣ نال غفران جميع الناس لحظاياه بقصيدته الشعبية « لينوره » . وحبیب لينوره هذه يرحل مع جيش فردريك إلى حصار براغ . وفي كل صباح تنفض من أحلامها وتساله « يا فلهم ، أنت عديم الإيمان ، أم أنت ميت ؟ وإلى متى يبطل قدمك ؟ » وتضع الحرب أوزارها ، ويعود الجند ، ويلقاهم الزوجات والأمهات والأبناء بالفرح والشكر لله :

وراحت تستفسر من الجميع في ذلك الغرض ،

وتسأل كل واحد عن اسمه ،
ولكن أحداً لم يعطها جواباً ،
لا أحد ممن عادوا ،
فلما مضى كل الجنود ،
مزقت شعرها الفاحم ،
وارتمت على الأرض
في نوبات أليمة من اليأس القاتل .

وتقول لها أمها إن « ما يفعله الله يفعله حسناً » ، وتجيّب لينوره بأن
هذا وهم ، وتطلب لنفسها الموت . . . وتحدثها الأم عن النعيم والجحيم ،
وترد لينوره بأن النعيم أن تكون مع فلهم ، والجحيم أن تحرم منه ، وتروح
تهلّى طوال نهارها . فإذا جن الليل وقف فارس بيابها ، وهو لا يدكر اسمه ،
بل يأمرها بأن تأتي معه ونكون عروسه . فتمتطى خلفه جواده الأسود ،
وتركب الليل كله . ثم يصلان إلى جبانة ، وترقص الأشباح من حولها .
وفجأة ينقلب الفارس جثة هامدة ، وتجد لينوره أنها متشبثة بهيكل عظمى .
وبينا هي تتأرجح بين الحياة والموت تنوح الأرواح بهذه الكلمات :

صبراً ، صبراً ! حتى حين ينفطر القلب !
لاتنازعى الله في سمائه !
لقد جردت من جسدك ؟
فليسبح الله رحمته على روحك (٨٦) ،

٧ - الزوبعية

اندفعت الحركة الرومانتيكية من ورع كلويشتوك ورقة جسرن إلى
النزعة الفردية الخارجة على تقاليد الاحترام ، إلى تمرد الشباب الألماني
وجهاده في نشوة الثورة الأخلاقية والاجتماعية . ذلك أن ارسنقراطية البلاطات
الجامدة المتصلبة وعقائدية الوعظ المتهافنة وجشع طبقة رجال الأعمال وتكالهم
الكثيب على المال ، وأساليب البروقراطيين المطردة المملة المباداة للشعور ،

وحذلة العلماء وغرورهم - كل أولئك أثار سخط شباب الألمان الواعين بقدراتهم المغموطين مكانتهم . وقد أصاحوا السمع لصيحة روسو طلباً للطبيعية والحرية ، ولكنهم لم يعبأوا بتمجيده « للإرادة العامة » ووافقوه على رفض المادية ، والعقلانية ، والحتمية ، ووافقوا ليسنج على تفضيل انحرافات شكسبير القوية عن القواعد ، على كلاسيكية كورنبي وراسين المقيدة للحركة . وأساغوا ذكاء فولتير وظرفه ، ولكن المكان الذى اجتازه تراءى لهم صحراء جرداء . وقد طربوا لتمررد المستعمرات الأمريكية على انجلترا . كتب جوته وهو يستعيد ذكرى هذه الحقبة « تمنينا للأمريكيين النجاح كله ، وبدأ اسما فرانكلين وواشنطن يسطعان ويتألقان فى سماء السياسة والحرب »^(٨٧) . هؤلاء المتمردون المجاهدون أحسوا نشوة المراهقة الجسمية واليقظة العقلية ، وشكوا من كابوس الشيوخ على الشباب ، والدولة على النفوس . كانوا مع الأصالة ، والتجربة المباشرة والتعبير الطليق ، واعتقد بعضهم أن عبقريتهم تعفيهم من القانون . وأحسوا أن الزمن فى صفهم ، وأن المستقبل القريب سيشهد انتصارهم . يقول جوته « أوه ، لقد كانت حقبة سعيدة حين كنت أنا وميرك شابين ! »^(٨٨) .

وأعرب بعض هؤلاء المتمردين عن فلسفتهم بتحدى تقاليد الزى وإحلال تقاليد من عندهم محلها ، فكان كرستوف كاوفمان يسير عارى الرأس ، مشعث الشعر ، مفتوح القميص حتى السرة^(٨٩) . ولكن هذا كان حالة شاذة ، وإذا استثنينا حالة انتحار أو حالاتين ، فإن أكثر أبطال الحركة اجتنبوا هذا العرض المقلوب لزيهم . وكان بعضهم ميسوراً . وكان جوته نفسه واحداً من أسلاف الزوبعية بمسرحيته جوتز فون بريشنجن (١٧٧٣) ، وفى السنة التالية أصبحت قصته « آلام فرتر » لواء الرومانتيكية الخفاق . وانضم شيلر إلى الحركة فأصدر « الالبوص » (١٧٨١) ، ولكن هذه النفوس المعقدة ، المتطورة ، سرعان ما تركت الحملة ليضطلع بها شباب أكثر التهاباً وأضعف جذوراً .

وكان يوهان ميرك أحد الآباء المؤسسين للحركة وكل الشواهد تدل على أنه كان سليم العقل قوى البدن ، وكان قد أتم دراسته بالجامعة ، وأصبح شخصاً أثيراً في بلاط هسي — دار مشنات ، ثم عين رئيساً عاماً لصيارفة الجيش ، واشتهر بالكفاءة الحاد والكفاءة العملية . وحين التقى به جوته في ١٧٧١ وقع من نفسه موقعاً حسناً ، فاشترك معه ومع هرذر في تمويل مجلة نقدية تسمى «أنباء فرانكفورت الأدبية» ، ومن هنا لقب «الفرانكفورتيين»^(٩٠) الذى أطلق أول الأمر على المتمردين . وإذ كان ميرك خبيراً بدينياً الأعمال والسياسة ، ورحالة جاب أرجاء ألمانيا وتنقل في أنحاء روسيا ، فقد شهد وانتقد انتقاداً لاذعاً غرور الغنى ، وملل العيش في قصور الملوك والأمراء ، واستغلال الفلاحين . فلما ألغى نفسه عاجزاً عن إصلاح هذه الأحوال ، بات متألماً ساخراً . وقد سماه جوته «مفتوفيليس ميرك» ، واتخذ من نفسه ومن ميرك نماذج لأدوار الأبطال في فاوست . واضطرب عقل ميرك لهزائمه في عمله وتعاسته في زواجه . ووقع في حبائل الدين ، فأنفذه منها دوق ساكسى — فامار استجابة لرجاء جوته . ثم بات فريسة لاكتئاب لا يبرحه ، وقتل نفسه وهو لا يزال في الخمسين (١٧٩١) .

وأكثر مأساة حتى من هذه الحياة كانت حياة راينهولد لتنس . وكان ابناً لراعى كنيسة لوثرى في ليفونيا ، أثر في أعصابه الضعيفة ، ومزاجه السريع الإثارة ، في طفولته التأكد على عقيدتى الخطيئة والجحيم^(٩١) . وأعانه حينما استمعه إلى محاضرات كانط في كونيغزبرج ؛ وقاده كانط إلى كتابات روسو ، فقال لتنس بعد قليل عن «هلويز الجديدة» إنها خير كتاب طبع إطلاقاً في فرنسا . وفي ستراسبورج التقى بجوته ، فبهرتة شخصيته الإيجابية ، وقلده في الفكر والأسلوب ، وكتب أشعاراً غنائية اشبهت أشعار جوته إلى حد أنها ضمنت في بعض طبعات أعمال جوته . ثم مضى إلى زيزنهايم ، ووقع (بعد جوته) في غرام فردريكة بريون ، ونظم القصائد الحارة في مدحها . وأكد لها أنها أن لم تستجب لحبه فهو قاتل نفسه ، فلم تفعل ولم يفعل . ثم انتقل إلى فامار ، وصادقه جوته ، وحسد جوته على نجاحه ، ونخر من علاقة جوته بشارلوتة فون شتاين ، وطلب إليه الدوق أن يرحل

عن الدوقية . . وكان شاعراً ومسرحياً موهوباً . وتمثيلته المسماة « الجند »
نقدت نقداً لاذعاً الفوارق الطبقيّة والحياة البورجوازية ، وشخصيتها المحورية
فتاة من الطبقة الوسطى تتطالع عبثاً إلى الزواج من ضابط . ثم تنقلب مومساً
وتتحرش بأبيها الذي لم تتعرف عليه في الشوارع . وإذ كان لنتنس مفتقراً إلى
الثبات والاستقرار افتقاراً أعجزه عن العثور على مكان مرموق في الحياة ،
فقد راح يهيم متنقلاً من وظيفة إلى وظيفة ومن إخفاق إلى إخفاق ، ويعانى
نوبات من الجنون ، ويحاول الانتحار غير مرة ، وأخيراً مات مجنوناً (١٧٩٢).

أما مكسميليان فون كلنجر فكان أذكي دعاة الحركة . ندد بالدنيا
وارتقى فيها إلى مكان مرموق ، وأطلق لقلمه العنان في الحديث العنيف في
تمثيلاته ، ثم أصبح أميناً لجامعة دوربات ، واستمتع بكل آثام الشباب
وحماقاته وعمر حتى التاسعة والسبعين . وعنه كتب جوته بيته الذي نّم عن
حسن إدراك وفطنة : « في الصبايا نحب ما هن عليه ، أما في الفتيان فنحب
ما يرجى أن يكونوه » . وقد أعطت أشهر تمثيلية كتبها كلنجر وهو في
الرابعة والعشرين (١٧٧٦) « شتورم أونند درانج » اسمها ومزاجها للزوبعية .
وترى فيها المتمردين الأوروبيين يتغربون في أمريكا أملاً في أن يجدوا منافذ حرة
لنزعاتهم الفردية ؛ أما لغتها فلغة العاطفة المشبوبة وقد جمحت ؛ وأما دعوتها
فدعوة العبقريّة التي تحررت من كل القواعد . وقد حارب كلنجر في
الجيشين المساوي والروسي ، وتزوج ابنة غير شرعية لكاترين الكبرى ،
وهبطت ثورته أخيراً حين تولى منصب الأستاذية ، ثم تجدد عموداً من أعمدة
الدولة .

وأما فلهم هاينزى فقد توج الحركة برواية « أرد نجهللو » (١٧٨٧) التي
جمعت بين الفرضوية ، والعدمية ، والشيوعية ، والفاشية ، واللامبالاة
بالأخلاق ، وإرادة القوة ، في مهرجان صاخب من الشهوانية والجريمة ،
يقول البطل إن الجريمة ليست بجريمة إن كانت شجاعة ؛ وما من جريمة
حقيقة غير الضعف ، وأصدق الفضائل شجاعة الجسم والإرادة ؛ والحياة

إظهار للغرائز الأساسية ، ونحن نخطئ إذا دمغنا هذه الغرائز باللا أخلاقية . وهكذا يغوى أردنجلو ويقتل إذا لاحت له الفرصة أو دفعت الزوة ، ويرى في عواطفه المشبوبة الطليقة من كل قيد أسمى قوانين الطبيعة . وهو يصنف بطولات هانيبال ويمجده إنساناً أعلى ويتساءل : « ما قيمة مليون من الرجال الذين لم يحفظوا طوال حياتهم ساعة واحدة كساعاته — بالقياس إلى هذا الرجل الفرد ؟ » (٩٢) وهو يقيم مجتمعاً شيوعياً تسوده شيوعية النساء وحق الانتخاب للنساء وعبادة قوى الطبيعة باعتبارها الدين الأواحد .

في دوامة الزوبعية (شتورم) المضطربة هذه خلعت بعض الأفكار الغالبة على هذه الحركة طابعها وتأثيرها . فمعظم قادتها أتوا من الطبقة الوسطى ، وبدأوا ثورتهم احتجاجاً على امتيازات الحسب والنسب ، ووقاحة ذوى المناصب ، وبذخ الأحرار الذين ينعمون بطيبات العيش على حساب عشور الفلاحين . وقد أجمعوا على الرثاء لحظ الفلاح العاثر — حرّاً كان أو قنّاً — وتصوير خلقه في صورة مثالية . وأهابوا بالنساء أن ينبذن مواضتهن وأطواقهن وعواطفهن الهشة وإغماضتهن وتقواهن الخائفة الدليّة ، ودعوهن للمجىء والمشاركة في الحياة المثيرة التي يحياها العقل المحرر من الأغلال ، والذكر الجوال . وأعادوا تعريف الدين بأنه إلهام سماوى فى نفس عبقريتها جزء من الحافظ الخلاق والسر المبدع فى الدنيا . ووحّدوا بين الطبيعة والله ، وانتهوا إلى أن الإنسان يكون إلهياً إذا كان طبيعياً . واتخذوا من أسطورة فاوست المنحدرة من العصر الوسيط رمزاً للجوع الفكرى والطموح الملتهب الذى يحطم كل حواجز التقاليد أو الاعراف أو الأخلاق أو القوانين . وهكذا نرى « المالمولر » يكتب قبل جوفته بزمان مسرحية سماها « فوستس لوبن » « لأننى عرفت فيه من البداية رجلاً عظيماً . . . يحس بقوته كلها ، ويشعر باللباس الذى قيده به القدر ، ويحاول أن يخلعه ، وتتوفر له شجاعة الإطاحة بكل شيء يقف فى طريقه » (٩٣) .

وقد سميت حاسة الزوبعية وشلطلها هذه الحركة بأنها تعبير عن المراهقة الفكرية ، وصوت أقلية قضى عليها بأن يعلو صوتها ثم يخبو . ولم تكسب

الحركة أى تأييد شعبي ، لأن التقاليد والشعب يساند الواحد منهما الآخر دائماً . فلما وجد أتباع الحركة أنفسهم بغير قاعدة في بنيان الحياة الألمانية ، تصالحوا مع الأمراء ، وأملوا - كما أمل جماعة الفلاسفة - أن يقود الحكام المستنرون الطريق إلى التحرر الفكرى والإصلاح الاجتماعى . وأدرك هرذر وجوته وشيلر الحركة في شبابهم ، ثم انسحبوا من نارها الآكلة ، وقلموا أظافرهم وأطبّقوا أجنحتهم ، وتقبلوا حماية أدواق فيمار الكرام شاكرين .

٨ - الفنانون

كان ألمان العصر الذى نحن بصددده أنداد آفى الفن للفرنسيين والإيطاليين . فلقد نقلوا الباروك عن إيطاليا والروكوك عن فرنسا ، ولكنهم أعطوا إيطاليا فنكلمان ومنجز ، وآثر ملوك فرنسا وملكاتهما الألمان المغتربين أمثال دافيد رونتجن ، و « جان » ريزنر ، وآدم فايسفايلر ، على صناعات الأثاث الفاخر الفرنسيين ؛ من ذلك أن لويس السادس عشر دفع ثمانين ألف جنيه ثمناً لمكتب من صنع رونتجن ^(٩٤) . وحفل المقر الملكى فى ميونخ ، وقصر فردريك الجديده ، بوتسدام ، وبيوت أثرياء الألمان ، بالأثاث الضخم الدقيق النقوش ، حتى وفد طراز أخف فى نهاية العصر من صنع الانجليزين تشينديل وشيراتن . وكانت مصانع مايسن قد أضرت بها الحرب ، ولكن تمفنبرج ولود فجز برج وبوتسدام وغيرها من المراكز واصلت صناعات البرسلان والحزف ، وأشرقت رفوف الألمان ومدافئهم وموائدهم ومكاتبهم بصغار التماثيل المرحّة الرشيقّة الرقص والغناء والتقبيل .

وعلى نطاق أوسع ظهر نحت للتماثيل جدير بالإعجاب . شديد الاهتمام من ذلك أن مارتن كلاور نحت تماثلاً نصفياً لجوته فى أيام فيمار الأولى - بدا فيه متشوّفاً ، براق العين ، واثق النفس ^(٩٥) . ولم يبلغ لودفج ، بن مارتن ، هذا الإتقان فى تمثاله الذى نحته لشيلر ^(٩٦) ، وأفضل منه تمثال شيلر المعروف الآن فى ميدان بشتوتجارت من صنع يوهان فون دانيكر . أما سيد النحت الألمانى فى هذا العصر فيوهان جوتفيلد شادوف ، الذى أصبح مثالا للبلاط فى برلين عام ١٧٨٨ . وفى ١٧٩١ نحت رأساً لفردريك ،

وفي ١٧٩٣ صنع له تمثالا كامل الطول ؛ وفي ١٨١٦ صب بالبرونز « فرديريكا »^(٩٧) أصغر - وهوراثعة لا ينساها من شهداها . وصب البرونز « مركبة النصر » لبوابة براندنبرج ، وكاد يبلغ روعة الجمال الكلاسيكي في المجموعة البرخامية التي نحتها لولية العهد الأميرة لويزة وأختها فريديكة .

وكثر المصورون في ألمانيا كثرة أتاحت لها أن تنزل لإيطاليا عن انى عشر منهم ثم يبقى لها بعد ذلك مصورون أكفاء « من ذلك أن عدد المصورين من آل تيشباين الذين جمعهم رابطة الفرشاة كان كبيرا بحيث يسهل علينا الخلط بينهم . فأحدهم وهو يوهان هاينريش تيشباين المصور في بلاط هسي - كاسل رسم صورة بديعة لليسنج . أما ابن أخيه يوهان فريدرش تيشباين ، فرسم في كاسل وروما ونابلي وباريس وفيينا ولاهاي ودساو ولينزج وسانت بطرسبرج ، وصور مجموعة ساحرة لأبناء الدوق كارل أوجست أمير ساكسي - فايمار . وأما يوهان هاينريش فلهم تيشباين فعاش في إيطاليا (١٧٨٧ - ٩٩) ، ورسم صورة مشهورة « جوته في كمانيا روما » ثم عاد ليصبح مصور البلاط لدوق أولدنبورج .

وكان من مصادر « الزوبعية » « الألمانية المنحازة لإيطالية آدم فريدرش أويزر ، النحات ، الرسام ، النقاش ، المعلم ، وداعية اصلاح الفن على الأصول الكلاسيكية . وقد عاش فنكلمان معه زمناً في درسدن . وانتقد رسمه ، وأعجب بخلقته ، وقال « إنه يعرف كل ما يستطيع الإنسان أن يعرفه خارج إيطاليا »^(٩٨) وفي ١٧٦٤ عين أويزر مديراً لأكاديمية الفنون في لينزج ، وزاره جوته هناك وانتقلت إليه عدوى الحمى الإيطالية .

ويحتل مكان الصدارة بين الفنانين الذين بقوا في ألمانيا دانييل شودوفيكى ، وكان بولندياً . ولد في دانبرج ، وترك يتيماً ، فتعلم أن يكسب قوته بصنع الرسوم والمحفورات والصور . وفي ١٧٤٣ انتقل إلى برلين وأصبح ألمانيا في كل شئ غير إلا اسمه . وقد روى حياة المسيح في منمنمات رائعة أذاعت صيته في طول البلاد وعرضها . ثم رسم بمزاج فولتيرى « جان كالاى وأسرته » وتكاثر الطلب على رسومه حتى إنه لم ينشر أى أثر أدبي كبير في بروسيا

سنين طوالا دون أن تزيهه رسوم من صنعه . وفي أروع محفوراته صور أسرته : فصور نفسه هو و مكعب على عمله ، وزوجته تشرف في اعتزاز على أبنائه الخمسة ، ثم جدران البيت تكسوها الصور . ورسم بالطباشير الأحمر صورة لوته (شارلوت) كستز ، التي أحبا جوته وفقدها . وترى في عمله رشاقة في الخط ورقة في الشعور تميزه عن هوجارت ، الذي كثيراً ما قورن به لكثرة ما صور به لكثرة ما صور من مناظر الحياة المألوفة ؛ ولكنه استنكر بحق هذه العلاقة ما قورن به لكثرة ما صور من مناظر الحياة المألوفة ؛ ولكنه استنكر بحق هذه العلاقة . وكثيراً ما استلهم فاتو ؛ وفي صورته « لقاء في حديقة الحيوان »^(٩٩) ، ترى ولع فاتو بالهواء الطلق وتموج ثياب النساء الخلاب . وقد ترك أنطون جراف صورة لشود وفيكي^(١٠٠) — يفيض ابتسامات وعقصةً ولحماً مكنزاً — وصورة لنفسه^(١٠١) وهو يتطلع من فوق لوحته ولكنه مكتمل الزينة كأنه يتأهب للذهاب إلى حفلة رقص . وقد أفرغ حيوية أكثر على لوحته الجميلة لزوجته^(١٠٢) ، والتقط غرور الممثلة كورونا شروتير^(١٠٣) وجلل بالثياب المذهبة جسد السيدة هوفرات بومي الفضفاض^(١٠٤) .

وأخر قائمة المصورين في نصف القرن الذي نحن بصددده هو آرموس ياكوب كارستنز ، الذي استوعب دعوة فنكلمان نصاً وروحاً ، وأكمل الإحياء الكلاسيكي في التصوير الألماني . ولد في شلزفج ، وتعلم في مدارس كوبنهاجن وإيطاليا ، ومارس عمله في لوبك وبرلين على الأخص ، ولكنه عاد إلى إيطاليا في ١٧٩٢ ، ووجد المتعة الكبرى في تأمل أطلال النحت والعمارة القديمين . ولم يعرف أن الزمن قد نزع اللون من الفن اليوناني فلم يبق إلا على الخط ؛ وعليه أحال فرشاته إلى قلم كما فعل منجز ، ولم يستهدف إلا الشكل الأكمل . وقد أزعجته العيوب البدنية التي شابت أجساد نماذجها التي يصورها في مرسومه ، فقرر أن يركن إلى خياله ؛ وأمهجه أن يصور الأرباب اليونانية والمناظر المستقاة من الميثولوجيا اليونانية كما تخيلها هو وفنكلمان . ومن هذه انتقل إلى تصوير دانتى وشكسبير . وكان ولعه بالخط والشكل يفقد دائماً اللون والحياة ، وحتى حين كان يبلغ في رؤياه لأشبه الإله رؤيا تقرب

من رؤيا ميكالانجلوا ، كما نرى في لوحة « مولد النور »^(١٠٥) ، فإننا لانستطيع الثناء عليه إلا لأنه تذكر صور كنيسة السستين بالدقة التي تذكر بها موتسارت موسيقاها . وردت روما على محبته بمحبة مثلها ، وأتاحته لعمله (١٧٩٥) العرض في أوسع وأشهر المعارض التي أتيحت لأي فنان حديث . وهناك مات بعد ثلاث سنين غير متجاوز الرابعة والأربعين . ولا غرو فالفن كالجنس قد يكون ناراً آكله .

وغلب مزاج الكلاسيكية الجديدة على الزخرفة المعمارية لبوتسدام وبرلين في عهد فردريك الأكبر . وكان قد بدأ قصره الجديد في ١٧٥٥ ، ولم يسمح للحرب بأن تعوقه عن المضي في المشروع . فشارك في تصميمه ثلاثة معماريين — بورنيج ، وجونتارد ، وما نجر ؛ فزجوا الكلاسيك بالباروك في صرح مهيب يذكر بقصور روما القديمة ، أما الزخارف الداخلية فقد نافسوا فيها أبدع نماذج الروكوكو الفرنسي . وكان للكنيسة الفرنسية في برلين رواق معمد كلاسيكي ، فأضاف إليه جونتارد وتلميذه جبورج أونجر برجا كلاسيكياً (١٧٨٠ — ٨٥) . وزاد أونجر برلين جلالاً بتشيد مكتبة ملكية في ١٧٧٤ — ٨٠ . أما برابة براندنبورج التي بناها كارل لانجهانز في ١٧٨٨ — ٩١ فقد قلدت تقليداً سافراً مدخل الأكروبول الفخمة ؛ وقد نجت بلجهد من التدمير في الحرب العالمية الثانية ، ولكنها فقدت « الكدرية » الشهيرة . وهي العربة ذات الجياد الأربعة التي توجهها بها شادوف .

كانت مدن ألمانيا أخرى تنحت الآثار المخلدة لأمرأء البيوت المالكة والنبلاء والرفات ، فزينت أخت فردريك فلهلميه مدينة بايروت بقصر زين بالروكوكو الساحر (١٧٤٤ — ٧٣) . وفي كاسل صمم سيمون لوى دورى (١٧٦٩ وما بعدها) صالة الرقص الفخمة والحجرة الزرقاء في قلعة حاكم هسي — كاسل . وفي الراين قرب دسلدورف بنى نيكلاوس فون بيمجاي قلعة بنات الفخمة (١٧٥٥ — ٦٩) ، وبنى فليب دلا جيبير لودفجز بورج قصر مونريبو الجميل (١٧٦٢ — ٦٤) .

٩ - بعد باخ

أسعدت ألمانيا بالموسيقى وتأثرت بها أكثر من أى أمة أخرى باستثناء إيطاليا . فالأسرة التى خلت من الآلات الموسيقية كانت شذوذاً وكانت المدارس تعلم الموسيقى تعليمها للدين والقراءة سواء بسواء تقريباً ، وكانت الموسيقى الكنيسية آخذة فى الاضمحلال لأن العلم والفلسفة ، والمدن والصناعة ، كانت تصرف العقول عن الدين إلى الدنيا ، وظلت الترانيم اللوثرية العظيمة تجلجل ، ولكن الأغنية أخذت تتحول من الكوارس الكنسية إلى الليدات والتشيلىات الغنائية والأوبرا . وقد افتتح يوهان بيتر شولتس عهداً جديداً فى الأغنية بـ «أغان فى فوكستن» (١٧٨٢) ؛ وبعدها حظيت ألمانيا بزعامه لا تنازع فى استخدام الموسيقى فى الشعر الغنائى .

وقد شجع التحسين الآلى الذى أدخل على البيانوا انتشار الحفلات الموسيقية وظهور مهرة العازفين على الآلات . وغزا العازفون أمثال يوهان شوبرت ، وآبوت فوجلر ، ويهان هول ، المدن الكثيرة بأدائهم الموسيقى . فى ١٠ مارس ١٧٨٩ قام هول الذى لم يتجاوز الأحد عشر ربيعاً بعزف على البيانو فى درسدن ؛ ولم يدرك أن موتسارت سيكون بين السامعين ؛ وخلال الحفلة رأى أستاذه السابق وتعرف عليه ؛ فما إن فرغ من عزف قطبته حتى شق طريقه بين الجمع المصنفق وعانق موتسارت فى عبارات حارة تفيض بالولاء والبهجة^(١٠٦) . واكتسب آبوت (أعنى آبوت ، أى الأب الدينى) فوجلر لقبه هذا برسامته قسيساً (١٧٧٣) ؛ وفى مانهايم كان قسيس البلاط ومدير الموسيقى معاً . وكان فى التأليف الموسيقى من أكثر كتاب القرن أصالة وتأثيراً ؛ وفى العزف على الأرغن أثار غير موتسارت ؛ وفى الانعام كان صاحب الفضل فى تكوين فيبر وميبرير ؛ ثم أضحك مانهايم وهو مثل البابا بلبسه الجوارب الطويلة الزرقاء وبجمله كتاب صلاته مع موسيقاه ، وبجمله جمهوره أحياناً ينتظره ريثما يفرغ من صلاته .

وكان أوركسترا مانهايم الآن فرقة من ستة وسبعين موسيقياً منتقنين ،

يقودهم بكفاية كرستيان كانا بيث معاماً وقائداً وعازفاً منفرداً على الكمان .
وقد أثر عن اللورد فورد ابس قوله إن ألمانيا تبرز سائر الأمم لسببين : الجيش
البروسى وأوركسترا ما نهايم . ويليده شهرة أوركسترا جيفاندهاوس بليبرزج .
وكانت الحفلات الموسيقية عملاقة تحوى ثلاثة أو أربعة أو أحياناً ستة
كونشرتوات فى برنامج واحد . والقوم يحيونها فى كل مكان - فى المسارح
والكنائس والجامعات والقصور والحنات والمتنزهات . ونافست السمفونية
الآن الكونشرتو فى الربرتوار الأوركسترا الى ، وما وافت سنة ١٧٧٠ -
حتى قبل مجى هابدن - حتى حظيت السمفونية بقبولها كأرق ألوان الموسيقى
الآلية (١٧) .

ونصف المؤلفين الموسيقيين فى هذه الحقبة منحدرين من قلب يوهان
سبستيان باخ القوى وصلبه المكين . أنجبت له زوجته الأولى سبعة أطفال ،
أحرز اثنان منهم - فلهم فريدمان وكارل فليب إيمانويل - سمعة دولية .
وأنجبت له زوجته الثانية ثلاثة عشر طفلاً برز فى عالم الموسيقى منهم اثنان هما
يوهان كرسstof فريدرش ويوهان كرستيان . ثم أنجبت يوهان كرسstof
فريدرش مؤلفاً موسيقياً صغيراً هو فلهم فريدرش ارنست باخ ؛ وهكذا
أعطى يوهان سبستيان باخ العالم خمسة رجال ضمّنوا لهم مكاناً فى تاريخ
الموسيقى . يضاف إلى هؤلاء أحد أقربائه الأبعدين واسمه يوهان ارنست باخ ،
درس على الأستاذ فى ليزج ، وأصبح رئيساً لفرقة المراتلين فى فايمار ،
وترك عدة مؤلفات موسيقية ليعجر عليها النسيان ذبوله .

أما فلهم فريدمان باخ فقد ولد فى فايمار . والقسم الأول من مؤلف
أبيه « الكلافير الوسيط » كتب لتعليمه . وقد سار حثيثاً فى دراسته ، ولم
يناهز الستة عشر عاماً حتى كان يؤلف الموسيقى . فلما بلغ الثالثة والعشرين
عين عازفاً للارغن بكنيسة صوفيا بدرسدن ، ولما كانت واجباته فى هذه
الوظيفة هيئة فقد ألف عدة صوناتات وكونشرتوات وسمفونيات . ثم ازداد
راتباً وشهرة حين اختير (١٧٤٦) عازف أرغن فى كنيسة ليفراون
بماله . وأقام هناك ثمانية عشر عاماً ، ومن هنا تلقب « باخ هاله » . وكان
مولعاً بالشراب لا يعلو على ولعه به إلا ولعه بالموسيقى . ثم استقال فى

١٧٦٤ ، وظل عشرين عاماً يهيم متنقلاً من بلد إلى بلد ، وقيم بالجهد أوده بالعزف في حفلات موسيقية وبتعليم التلاميذ . وفي ١٧٧٤ استقر في برلين حيث مات في ضنك عام ١٧٨٤ .

وكان كارل فليب إيمانويل باخ أعسر ، فاضطر إلى قصر عزفه على الأرغن والبيانو . وفي ١٧٣٤ حين بلغ العشرين التحق بجامعة فرانكفورت ، وهناك حظى بصحبة جيورج فليب تليمان ، الذي كان أحد عرابيه يوم عماده وأعطاه جزءاً من اسمه . وفي ١٨٣٧ عزف بعض مؤلفاته أمام جمهور ضم فردريك وليم الأول ملك بروسيا . ولما علم بأن ولي العهد فردريك يحب الموسيقى ، قصد راينزبرج وقدم نفسه إليه دون أن يظفر بشمرة عاجلة ؛ ولكن في ١٧٤٠ عينه فردريك ، الذي أصبح الآن ملكاً ، عازفاً على الصنج في أوركسترا الكنيسة ببوتسدام . ولكنه ضاق بمصاحبة ناي فردريك الهوائي المزاج وقبول سلطانه الملكية في الموسيقى . وبعد أن قضى في الأوركسترا ستة عشر عاماً ، اعتزل ليفرغ للتعليم . وقد حدد كتابه « بحث في العزف الحقيقي على الكلافير » (١٧٥٣ وما بعدها) بداية تقنية البيانو الحديثة ، وكان لهذا الكتاب الفضل في اكتساب هايدن البراعة الفنية في العزف على البيانو ، وبسببه قال موتسارت عن « باخ برلين » هذا : « إنه أبونا ، ونحن صديقه ؛ والذين يعرفون منا أى شيء على وجهه الصحيح ، فإنما تعلمناه منه ، ووغد ذلك الطالب الذي لا يعترف بهذا » (١٧٨) . وقد خرج إيمانويل في مؤلفاته عامداً على أسلوب أبيه الكونترابنطى ، مؤثراً تناولاً متجانس الصوت وخطاً ميلودياً أبسط . وفي ١٧٦٧ قبل وظيفة المدير لموسيقى الكنيسة في همبورج ، وهناك أنفق الإحدى وعشرين سنة الباقية في أجله . وفي ١٧٩٥ جاء هايدن إلى همبورج ليراه ، ولكنه وجد أن أعظم أبناء يوهان سبستيان قد مضى على موته سبع سنين .

أما يوهان كريستوف فريدرش باخ فقد درس على أبيه وفي جامعة ليبزج ، ثم عين في الثامنة عشرة (١٧٥٠) موسيقار الحجرة في بوكسبورج ، فلهم كونت شاومبورج - ليه . وحين بلغ السادسة والعشرين أصبح مديراً للموسيقى . أما الحدث العظيم الذى وقع له في عامه الثامن والعشرين فهو

مجيء هرذر (١٧٧١) مبشراً ؛ وقد زوده هرذر بنصوص ملهمة للأوراتوربات والكنائيات ، والأغاني ؛ واتبع يوهان كرسstof أساليب أبيه وروحه ، ثم ضاع في خضم تغيرات الدهر وتقلباته .

وعلى النقيض منه كان ولاء الإبن الأصغر ، يوهان كرستيان باخ ، لإيطاليا . بعث إلى برلين وهو لا يتجاوز الخامسة عشرة عند موت أبيه ، وهناك بذل له أخ غير شقيق ، يدعى فلهم فريدمان ، العون وقام على تعليمه . وحين بلغ التاسعة عشرة ذهب إلى بولونيا ، حيث أدى الكونت كافاليري أجوستينوليتا نفقات دراسته على الأب مارتيني ؛ وقد افتن الشاب بالحياة الإيطالية والموسيقى الكاثوليكية ، فدخل في المذهب الكاثوليكي ، وظل ست سنوات يخص الكنيسة أولاً بمؤلفاته الموسيقية . وفي ١٧٦٠ عين عازف أرغن في كتدرائية ميلان ، وأصبح « باخ ميلان » . ثم أثارت الأوبرا الإيطالية أثناء ذلك طموحه للتفوق في الموسيقى غير الدينية كما تفوق في الموسيقى الكنسية ، فأخرج الأوبرات في تورين ونابلي (١٧٦١) ؛ وشكا رؤساؤه الميلاانيون من أن رشاقة هذه المؤلفات تتنافر مع مركزه في الكتدرائية . فنقل يوهان كرستيان مقامه إلى لندن (١٧٦٢) ، حيث حظيت أوبراته عادة بعروض طويلة الأمد . ومالبت أن عين رئيساً للموسيقى عند الملكة شارلوت صوفيا ، ورحب بالصبي موتسارت ذى الأعوام السبعة عند مجيئه إلى لندن في ١٧٦٤ ، وراح يلهمه معه على البيانو . وأحب الصبي هذا الموسيقى الذي اكتمل نضجه الآن ، وأخذ عنه الكثير من الألحان في تأليف الصوناتات والأوبرات والسمفونيات . وفي ١٧٧٨ ذهب باخ إلى باريس ليقدم أوبرا « أماديس الغالين » ، وهناك التقى ثانية بموتسارت . وكان ابتهاج فتي الثانية والعشرين به كابتهاجه قبل خمسة عشر عاماً . كتب فولفجانج لأبيه يقول « إنه رجل أمين ينصف الناس ، وأنا أحبه من كل قلمي » (١٠٩) .

ويمكن القول على الجملة أن أسرة باخ هذه ابتداء من فايت باخ المدي مات في ١٦١٩ ، وانتهاء بفلهلم فريدرش إرنست باخ الذي مات في ١٨٤٥ ، هي أبرز الأسر في تاريخ الثقافة . فمن بين نحو ستين من هؤلاء الباخين

المعروفة أسماءهم من أقرباء يوهان سبستيان ، كان ثلاثة وخمسون موسيقيين محترفين ، وكان ثمانية من أسلافه وخمسة من أخلافه من وزن كاف لتبرير نشر مقالات عنهم في قاموس للموسيقى^(١١) . وقد ظفر عدد من الأبناء في حياتهم بصيت ذائع وشهرة فاقت ما تتمتع به يوهان سبستيان . ولا يعنى هذا أنهم احتكروا الشهرة الموسيقية ، فالموسيقيون الأفاضل كانوا كالعادة يلقون المديح الأعظم وهم أحياء ، ثم يجر عليهم النسيان ذيله حين يموتون ؛ وقد نافس مؤلفون موسيقيون مثل كارك فريدرش فاش وكريستيان فريدرش شوبارت أبناء باخ في ذيوع اسمهم .

وإذا نحن رجعنا النظر إلى هذا النصف الثانى من القرن الثامن عشر لحظنا بعض الخطوط الخاصة في التطور الموسيقى . فاتساع مساحة البيانوا وازدياد قوته حررا الموسيقى من خضوعها للألفاظ وشجع المؤلفات للموسيقى الآلية ؛ ثم إن إقبال الجماهير المتزايد على الحفلات الموسيقية ، وتقلص هيمنة الكنيسة ، بعدا بالمؤلفين عن يوليقيونية يوهان سبستيان باخ وقربهم من هارمونيات خلفائه الأسهل تلوفاً . وعمل تأثير الأوبرا الإيطالية على تفوق الميلوديا حتى في قطع الموسيقى الآلية ، بينما أحدثت الليدات ، بحركة مضادة ، تعقيداً جديداً في الأغنية . وبلغت الثورة على الأوبرا الإيطالية ذروتها في جلوك ، الذى أراد إخضاع الموسيقى للدراما ، ولكنه بالعكس أضفى السمو على الدراما بالموسيقى . وعلى درب آخر طورت الثورة « المسرحية الغنائية » ، التى بلغت أوجها في « الناي السحري » . وانتقل الكونشرتو جروسو إلى الكونشرتو الموضوع لآلة منفردة واحدة وأوركسترا ، واتخذت الصونات شكلها الكلاسيكى في كارل فليب إيمانويل باخ وهايدن ، وتطورت الرباعية إلى السمفونية . وهكذا تهيأ كل شئ لبيتهوفن .

١٠ — الشيخ فرتز *

فوق كل هذه الحياة المتنوعة : حياه السياسة والدين والصناعة واللاهو والموسيقى والفن والعلم والفلسفة والبر والأثم — كان يلوخ طيف البطل الشائخ الذى لقبته ألمانيا « الشيخ فرتز » — لا حباً بل تكريماً له بوصفه أعجب وأدهش

نيوتون في عصره . فهو لم يقنع بحكم مملكته وأوركستراه ، بل حسد قلم فولتير وثاقت نفسه إلى الظفر بالثناء عليه شاعراً ومؤرخاً . وقد خلف للأجيال التالية ثلاثين مجلداً من كتاباته : سبعة في التاريخ ، وستة في الشعر ، وثلاثة في الأبحاث العسكرية ، واثنان في الفلسفة ، واثنى عشر في الرسائل ، كلها بالفرنسية . أما أشعاره فأكثرها من النوع العابر سريع الزوال ، ولم يعد القراء يذكرونها . ولكنه كان من كبار المؤرخين في جيله . ففي بواكير ملكه كتب تاريخ أسلافه - « مذكرات في تاريخ أسرة براندنبورج » (١٧٥١) . وقد زعم لنفسه الحياد كما يزعم أكثر المؤرخين : « لقد ارتفعت فوق كل الأهواء والميول ، ونظرت إلى الأمراء والملوك والأقرباء نظري إلى أناس عاديين » ، ^(١١١) ولكنه ارتفع إلى ذروة الحلياسة والنشوة وهو يصف الناخب الأكبر فردريك ولیم .

أما رائحته الأدبية فهي « تاريخ عصرى » الذى سجل حكمه . وقد بدأه عقب انتهاء الحرب السيليزية الأولى (١٧٤٠ - ٤٢) ، وواصل كتابته على فترات حتى أخريات عمره . وقد ضمنه تاريخ العلم والفلسفة والأدب والفن ، ربما متأثراً بفولتير - وإن كان قد كتب جانباً كبيراً من هذا الكتاب قبل أن يظهر كتاب فولتير « قرن لويس الرابع عشر » و « مقاله في الأعراف » وقد اعتذر عن تضييعه حيناً في كتابه على « بلهاء يلبسون الأرجوان ، ودجاجة ت يحملون التيجان . . . أما تتبع الكشف عن الحقائق الجديدة ، وتفهم أسباب التغيير في الأخلاق والعادات ، ودراسة الطرق التى قشعت بفضلها ظلمة الهرمجية من عقول الناس - فهذه بالتأكيد موضوعات جدية بأن تشغل جميع المفكرين » . ^(١١٢) وقد اثنى على هوبز ولوك والمؤلفة في انجلترا ، وعلى توماسيوس وفولف في ألمانيا ، وفونتينيل وفولتير في فرنسا . « هؤلاء العظماء وتلامذتهم كالأولاد الذين ضربة قاضية . وبدأ الناس يمحسون . اكانوا يعبدونه بعبادة ، وأطاح العقل بالخرافة . . وكسبت الربوبية أتباعاً كثيرين ، وهى العبادة البسيطة للكائن الأعظم » . ^(١١٣) وإذ كان فردريك يحتقر الحكومة الفرنسية ويحب الأدب الفرنسى ، فإنه فضل ملحة فولتير « الهزياة » على الألياذه ، وفضل راسين على سوفوكليس وسوى بين بوالو وهوراس ،

وبين بوسويه وديموستين . وسخر من لغة ألمانيا وأدبها ، وامتنح فيها المعارى ، وشق على نفسه ليبرر غزوه سيليزيا ، فقال انه أحس أن لرجل الدولة أن ينتهك الوصايا العشر أن اقتضته ذلك مصالح دولته الحيوية » فعبر أن يحث الملك بعهدده من أن يهلك الشعب « (١١٤) — وهذا الهلاك — كما أمل أن تصدقه — هو الخطر الذى تهدد بروسيا فى ١٧٤٠ ، وقد اعترف بأنه اقترف أخطاء كثيرة فى قيادة جيشه ، ولكنه رآه أمراً لا ضرورة له أن يسجل فراره مولفنز . وهذان المجدان فى جملتهما يقفان على قدم المساواة مع أفضل الكتابات التاريخية عن أوربا الحديثة قبل جبون .

وما إن وضعت حرب السنين السبع أوزارها حتى عكف فردريك على كتابة « تاريخ حرب السنين السبع » . وكان كقصير يتطلع إلى أن يكون خير مؤرخ لحملاته ، وكقصير تحاشى الخرج فتكلم عن نفسه بضمير الغائب ، وهنا أيضاً حاول — ربما بعذر أفضل — أن يبرر المبادرة الجريئة التى بدأ بها الحرب . وقد امتدح ألد أعدائه ، ماريا تريزا ، فى كل ما يتصل بحكمها الداخلى ، أما فى علاقاتها الخارجية فقد أدان هذه المرأة المتكبرة « التى » استبد بها الطمع فأرادت أن تبلغ هدف المجد من كل طريق « (١١٥) ووسط سجل الحملات ، الحمائد إلى حد لا بأس به ، توقف ليندب أمه التى ماتت فى ١٧٥٧ وشقيقته التى لحقت بها فى ١٧٥٨ . والصفحة التى وصف فيها فلهمنية واحدة من الحب فى بيداء خربة من الحرب .

وقد خلص إلى أن التاريخ أستاذ عظيم تلاميذه قليلون : « ان فى طبيعة البشر ألا يتعلم إنسان من التجربة . وحماقات الآباء تضيع هدرأ على الأبناء ، وكل جيل لا بد مقترف حماقاته » (١١٦) « كل من يقرأ التاريخ بإمعان يدرك أن المشاهد ذاتها كثيراً ما تتكرر ، وأنه لا حاجة بنا إلا لتغيير أسماء الممثلين » (١١٧) . ولكننا حتى لو استطعنا أن نتعلم ، فإننا سنظل عرضة للمصادفة التى لا يمكن التنبؤ بها . « إن هذه المذكرات تقنعنى أكثر فأكثر بأن كتابة التاريخ إن هى إلا تجميع لحماقات الناس وضربات الحظ . فكل شئ يدور حول هذين الموضوعين » (١١٨) .

وقد حاول مرتين (١٧٥٢ و ١٧٦٨) في «وصية أخيرة» أن ينقل لورثته بعض الدروس المستفادة من تجربته الخاصة . فحُثِّم على دراسة أهداف الدول المختلفة ومواردها ، والوسائل المتاحة لحماية بروسيا وتنميتها . وحذا حذو أبيه في تأكيده على الحاجة لأحكام ضبط الجيش ، وحذر خلفاءه من الإنفاق فوق ما يسمح به الدخل ؛ وتنبأ بالمتاعب السياسية التي ستحيق بفرنسا لسفهاها المالي ؛ ونصح بزيادة الإيرادات لا بفرض ضرائب جديدة بل بخفض إنتاجية الاقتصاد . وينبغي حماية كل الأديان ما التزمت الهدوء والسلام -- رغم أن «جميع الأديان إذا فحصها المرء وجدها تتركز على نسق من الخرافة غير معقول قليلا أو كثيراً»^(١١٩) . إماسلطة الملك فيجب أن تكون مطلقة ، ولكن على الملك أن يعد نفسه أول خادم للدولة . ومادامت بروسيا في خطر من صغر حجمها وسط دول كبيرة كروسيا وفرنسا والإمبراطورية النمساوية المجرية ، فإن من واجب الملك أن يغتنم أى فرصة ليوسع بروسيا ويوحدها -- ويحسن أن يكون ذلك بفتح سكسونيا وبروسيا البولندية وبوميرانيا السويدية : «أن أول شغل شاغل للأمير هو أن يصون سلطته ، أما الثانى فهو أن يوسع رقعته . وهذا يقتضى المرونة وسعة الحيلة . . . وسر المذايع الخفية يكون بإعلان الميول السلمية حتى تأتى اللحظة المواتية . تلك طريقة جميع رجال الدولة العظماء»^(١٢١) .

وينبغي أن يعد الملك خلفه للحكم . فيهيء له التعليم على يد رجال مستنيرين لا رجال كنسيين ، لأن هؤلاء يشحنون رأسه بخزعبلات يقصد بها أن يكون أداة طيعة في يد الكنيسة^(١٢١) . وتعليم كهذا من شأنه أن يخرج عقلا ضعيفاً سرعان ما تسحقه مسئوليات الدولة . «ذلك ما رأيته ، وإذا استثنيت ماكّة المجر (ماريا تريزا) وملك سردينيا (شارل إيمانويل) ، فإن كل ملوك أوروبا ليسوا سوى بلهاء مشهورين»^(١٢٢) . وقد كتب هذا ولإليزابيث تحكم روسيا . وكانت «وصية» ١٧٦٨ أكثر تأدباً ، لأن كاترين كانت قد أثبتت علو همتها ، وتنبأ فردريك الآن بأن روسيا ستكون أخطر دولة في أوروبا^(١٢٣) .

فلما شاخ بدأ يسائل نفسه إن كان ابن أخيه ووريثه المحتمل -- فردريك

فلهم الثاني — صالحاً لوراثته الحكم . كتب إليه يقول « إننى أشقى من أجلك ولكن على أن أفكر فى الاحتفاظ بما أصنع ، فإن كنت كسولاً خاملاً ذاب فى يديك كل ما جمعته بالجهد والمشقة » (١٢٤) . وفى ١٧٨٢ كتب وقد ازداد تشاؤماً « لو أن ابن أخى لان وتراخى بعد موتى ، لما بقى شىء اسمه بروسيا فى ظرف عامين » (١٢٥) . وقد تحققت النبوءة فى فيينا عام ١٨٠٦ ، لا لأن فردريك وليم الثانى كان رخوا ليناً ، بل لأن نابليون كان صلباً قاسياً .

وقد بات فردريك ذاته فى عقده الأخير قاسياً إلى حد لا يحتمل . فاحتزل قدراً كبيراً من الحرية التى سمح بها للصحافة قبل ١٧٥٦ . كتب ليسنج إلى نيقولاى فى ١٧٦٩ يقول « إن حريتك البرلينية تنقلص . . إلى حرية جلب ما تشاءون جلبه إلى السوق من سخافات ضد الدين . . . ولكن ليرفع إنسان صوته نيابة عن الرعايا ، وضد الاستغلال والاستبداد . . . وعندها سنتبين سريعاً أى دول أوربا أكثرها اليوم عبودية وذلاً » . (١٢٦) وكره هرذر وطنه بروسيا ، وانصرف فنكلمان فى « رعب » عن ذلك « البلد المستبد » (١٢٧) . وحين زار جوته برلين فى ١٧٧٨ أدهشته عدم شعبية الملك . ومع ذلك كان الشعب يبجل فردريك شيخاً لم يضن طوال خمسة وأربعين عاماً بيوم واحد فى سبيل خدمة الدولة .

وقد برته الحرب كما براه السلم . وكثرت واشتدت عليه نوبات النقرس والربو ، والمغص والبواسير ، وزادت أوجاعه حدة لولعه بالوجبات الثقيلة والأطعمة الحريفة . وفى ٢٢ — ٢٥ أغسطس ١٧٧٨ استعرض جيشه السيليزى قرب برزلاو . وفى اليوم الرابع والعشرين ظل على صهوة جواده ست ساعات بردائه العسكرى العادى والمطر يهطل غزيراً ، وعاد إلى مسكنه مبللاً يرتعد من البرد . ولم يستعد عافيته بعدها قط . وفى يونيو ١٧٨٦ أرسل فى طلب الدكتور تسمرمان من هانوفر . وتوقف عن تعاطى العقاقير التى وصفت له ، وآثر الأحاديث المرحلة عن الأدب والتاريخ ، ولكنى يلزمه تسمرمان الهدوء وصف له كتاب جيون « اضمحلال الامبراطورية الرومانية

وسقوطها» (١٧٨) . وتفاقت أوصابه بالاستسقاء ، وأحدثت القطوع التي أجريت له لتخفيف الانتفاخات غرغرينة . ثم أطبق عليه الالتهاب الرئوى فاكتمل الحصار ، وفي ١٧ أغسطس ١٧٨٦ مات فردريك وهو فى الرابعة والسبعين . وكان قد طلب أن يدفن فى حديقة « صانسوسى » قرب قبور كلابه وحصانه الحبيب ، ولكن أمر رحيله هذا الذى أصدره على البشرية أغفل ، فدفن إلى جوار أبيه فى كنيسة الحامية ببوتسدام . وحين جاء نابليون ووقف أما قبر فردريك بعد أن هزم البروسيين فى يينا قال لقواد جيشه « لو كان على قيد الحياة لما كنا هنا » (١٢٩) .

الفصل الحادى العشرون

كانط

١٧٢٤ — ١٨٠٤

١ — مقدمة

لعل كانط ما كان ليظهر قط لولا وجود فردريك الأكبر . ذلك أن كتابيه « نقد العقل الخالص » و « الدين فى حدود العقل وحده » يسرت صدورهما شكوكية فردريك وتساعده الدينى ؛ فلم ينقض على موت فردريك عامان حتى أخرجت الحكومة البروسية كانط .

كان كانط كفردريك ريبياً لحركة التنوير ، وقد تشبث بولائه للعقل حتى النهاية — رغم كل ذبذبته الاستراتيجية ، ولكنه أيضاً كروسو كان جزءاً من الحركة الرومانتيكية ، مكافحاً للتوفيق بين العقل والوجدان ، وبين الفلسفة والدين ، وبين الفضيلة والثورة . وقد أشربه أبواه النزعة التقوية ، ثم هجنها بعقلانية كرستيان فون فولف ؛ واستوعب هرطقات جماعة الفلاسفة ؛ وهجنها بـ « اعتراف قسيس سافوا بالإيمان » فى كتاب روسو « لاميلى » ؛ وورث سيكولوجية لوك وليبنيتس وباركلى وهيوم الدقيقة البارعة ، واستخدمها فى محاولة لينقذ العلم من هيوم ، وينقذ الدين من فولتير . وقد رتب حياته بانتظام بورجوازى ، ورحب بالثورة الفرنسية . وإذ عاش منفرداً فى بروسيا الشرقية ، فإنه أحس ولخص كل تيارات عصره العقلية .

ولد فى كونيجزبرج (٢٢ أبريل ١٧٢٤) النائية عن فرنسا ، المولعة بالوضوح والمعتمة بضباب البحر . وقد أثرت بعض الشكوك حول أصل أسرته الاسكتلندى ، ولكن كانط نفسه يخبرنا أن جده « فى ختام القرن

الماضى هاجر من اسكتلنده إلى بروسيا ، ولا أدرى لم ^(١) . وتزوج أبوه يوهان جيورج كانط من آنا رويتر ، وكان إيمانويل (ومعناها الله معنا) رابع أبنائهم الأحد عشر . وقد اتخذ اسمه الأول من قديس يوم ميلاده ، ثم غير اسم الأسرة من Cant إلى Kant لمنع الألمان من أن ينطقوه «تسانت» ^(٢) وقد نشأت الأسرة كلها على مذهب التقوين ، الذى كان كالمثودية الانجليزية يشدد على الإيمان والتوبة والالتجاء رأساً إلى الله ، بعكس العبادة اللوثرية التقليدية فى الكنيسة بقسيس وسيط .

وكان أحد وعاظ التقوين قد أنشأ فى كونيجزبرج «كلية فردريكية» . والتحق إيمانويل بها من سن الثامنة إلى السادسة عشرة . وكان اليوم المدرسى يبدأ فى الخامسة والنصف صباحاً بنصف ساعة من الصلاة ، وكل حصّة فى الصف تحتم بالصلاة ، وخصصت ساعة كل صباح لتعليم الدين ، مع التشديد على نيران الجحيم ؛ وكان التاريخ يدرس أساساً من العهد القديم ، واليونانية من العهد الجديد . وحده . ويوم الأحد يكرس أكثره للعبادة . لقد كان تعليماً أثمر الفضيلة فى بعض خريجيه ، والنفاق فى آخرين ، وربما روحاً كثيفة فى معظمهم . وقد أنكر كانط فيما بعد هذه الجرعة الثقيلة من التقوى والإرهاب ، وقال ان الخوف والرعدة يغلبانه حين يتذكر تلك الأيام ^(٣) .

وفى ١٧٤٠ انتقل إلى جامعة كونيجزبرج . هنا كان أحب المدرسين إليه مارتن كنوتسن الذى عرف كانط بـ «عقلانية» فولف رغم كونه تقوياً . وكان كنوتسن قد قرأ للربوبيين الانجليز ، وأدانهم ولكنه ناقش آراءهم ، وترك بعض الشكوك الربوبية فى واحد من تلاميذه على الأقل . فلما دعى كانط بعد قضاء ست سنين فى الجامعة ليرسم قسيساً لوثرانياً ، رفض الدعوة رغم ما وعد من ترقية قريبة إلى وظيفة مريحة ^(٤) . وعاش بدلاً من ذلك تسع سنين رقيق الحال يعلم أبناء الأسرة الخاصة ويواصل دراسته . وكان اهتمامه حتى ١٧٧٠ بالعلم لا باللاهوت «وكان لوكريتيوس من أحب المؤلفين إليه» ^(٥) .

وفى ١٧٥٥ نال كانط درجة الدكتوراه ، وسمع له بأن يحاضر فى الجامعة

بوصفه « معلماً خاصاً » لا يكافأ إلا بالرسوم التي يقرر الطلبة دفعها . وظل خمسة عشر عاماً في هذا الوضع القلق . وخلال هذه البداية الطويلة الأمد رفضت طلباته لوظيفة الأستاذية مرتين . وظل فقيراً ، ينتقل من نزل إلى نزل ، ولا يجرؤ على الزواج ، ولا يسكن بيتاً خاصاً به حتى بلغ التاسعة والخمسين^(٦) . وقد حاضر في مواضيع كثيرة التباين ، ربما ليجتذب عدداً أكبر من الطلاب ، وكان عليه أن يحاضر بلغة واضحة ليتيسر له العيش . ولا بد أن كانط المعلم كان مختلف تماماً عن كانط المؤلف الذي اشتهر بغموضه . وقد وصفه هردر^٢ ، الذي كان أحد تلاميذه (١٧٦٢ — ٦٤) بعد ثلاثين عاماً ، محتفظاً له بذكرى ملؤها العرفان بالجميل ، فقال :

« أسعدني الحظ بمعرفة فيلسوف كان معلماً . ففي مقبل عمره تحلى بشجاعة الشباب المرحمة ، وأعتقد أن هذه الشجاعة لازمته حتى الشيخوخة . وكان جبينه الواضح المفكر مستقراً للبشر والسرور الذي لا يكدر صفوه مكدر ، وكان حديثه حافلاً بالأفكار شديد الإيحاء ؛ وفي متناوله الضحك والدعابة الذكية والخيال الفكاهي ؛ ومحاضراته تجمع بين التعليم والترفيه الكثير . وبالروح ذاتها التي انتقد بها لينتس وفولف وباو مجارتن . . . وهيوم ، بحث في القوانين الطبيعية التي قال بها نيوتن وكبلر والفزيائيون . وبهذا الأسلوب تناول كتابات روسو . . . ولم يكن لأى عصبية أو ملة ، ولا نخز أو إجلال لاسم من الأسماء ، أدنى تأثير عليه مقابل نشر الحقيقة ودعمها . وكان يشجع سامعيه على التفكير لأنفسهم ويضطرهم في رفق إلى هذا التفكير ؛ أما الاستبداد فكان غريباً على طبعه . وهذا الرجل الذي أذكر اسمه بأعظم عرفان وتبجيل هو إيمانويل كانط ، وصورته ماثلة أمامي ، وهي محببة إلى نفسي »^(٧) .

ولو أردنا أن نتذكر كانط على الأخص من واقع عمله قبل أن يبلغ السابعة والخمسين (١٧٨١) لوجب أن نرى فيه العالم أكثر من الفيلسوف — رغم أن هذين المصطلحين لم يكونا بعد منفصلين . وأول أعماله المنشورة « خواطر من التقييم الحقيقي للقوى الديناميكية » ، ١٧٤٧ « نقاش علمي عن قوة الجسم أثناء حركته وهل تقاس (كما زعم ديكارت وأويلر) بالكتلة

مضروبة في السرعة ، أو (كما زعم ليبنتس) بالكتلة مضروبة في مربع السرعة ؛ وهو انجاز ممتاز لفتى في الثالثة والعشرين . وتلا هذا بعد سبع سنوات مقال في زمن دوران الأرض اليومي وهل يتغير بالمد والجزر . وفي العام نفسه نشر كانط بحثاً عن الأرض وهل يسيلها إلى الشيخوخة ؛ هنا أعرب كانط عن القلق الذي يساور عصرنا الحديث على فقد الشمس بعض طاقتها كل يوم على تجمد أرضنا في المستقبل .

وفي بحث رائع نشر عام ١٧٠٥ قدم الشاب الجريء ذو الحادية والثلاثين عاماً « التاريخ الشامل للطبيعة ، ونظرية السماوات » . وقد نشر الكتاب غفلاً من اسم المؤلف وأهدى إلى فردريك الأكبر ؛ وربما خاف كانط أن يلحقه أذى من رجال اللاهوت وأمل في أن يبسط الملك عليه حمايته ، وقد رد جميع عمليات الأرض والسما إلى قوانين آلية ، ولكنه أكد أن النتيجة ، بما فيها من تناسق وجمال ، تثبت وجود عقل أسمي . ولكي يفسر كانط أصل المنظومة الشمسية اقترح « الفرض السديمي » . قال :

« انني أزعم أن كل مادة المنظومة الشمسية . . . كانت في بداية الأشياء كلها متحللة إلى عناصرها الأولية ، وأنها ملأت كل الفضاء . . . الذي تدور فيه الآن الأجسام المكونة منه . . . وفي فضاء مملوء على هذا النحو ، لا يمكن أن يلوم هدوء شامل إلا لحظة . . . فالعناصر المشتتة الأكتف نوعاً ، يحكم قوتها الجاذبة ، تجمع من حولها كل المادة الأقل وزناً نوعياً ؛ وهذه العناصر هي الأخرى ، مع المادة التي وحدتها معها ، تتجمع في النقاط التي توجد فيها جسيمات من نوع أكثر كثافة ، وهذه بالمثل تنضم إلى جسيمات أكتف . . . وهلم جرا . . .

« ولكن للطبيعة قوى أخرى ، . . . بفعلها تتنافر هذه الجسيمات ، وهي التي تحدث — بصراعها مع الجاذبيات — تلك الحركة التي هي بمثابة الحياة الدائمة للطبيعة . . . وقوة التنافر هذه تظهر في مرونة الأنخرة ، وتدفع الأجسام القوية الراححة ، وانتشار جميع المواد الكحولية . وهذه القوة هي التي بفعلها تحيد تلك العناصر التي قد تكون ساقطة إلى النقطة التي تجتذبها . . .

عن حركتها في خط مستقيم ؛ وسقوطها العمودى يكون في حركة دائرية حول المركز الذى تسقط نحوه » (٨) .

واعتقد كانط أن جميع النجوم تجمعت أو هى بسبيل التجمع — فى مثل هذه المنظومات من الكواكب والشموس ، وقد أضاف عبارة ذات مغزى « أن الخليفة لا تكتمل أبداً ، انها لا تكف عن مواصلة السير » (٩) . وهذا الفرض السديمى الذى افترضه كانط فى ١٧٥٥ ، وكذلك التعديل الذى أدخله عليه لا بلاس (١٧٩٦) ، حافل بالكمبيات كمعظم ماتلاه من النظريات فى أصل الكون ، ومع ذلك يقول فيه فلكنى حى شهر « لى أعتقد أن بحث كانط عن أصل الكون كان أبدع تلخيص موضوعى للعلم حتى ذلك الوقت » (١٠) . أما بالنسبة لنا فإن دلالة البحث تكمن فى بيانه أن كانط لم يكن ميتافيزيقياً غيبياً بل رجلاً فتن بالعلم ، وكافح للتوفيق بين المنهج العلمى والعقيدة الدينية . وهذا لب جهوده حتى النهاية .

وفى ١٧٥٦ ، حين هزته كارثة زلزال لشبونة التى وقعت فى ١٧٥٥ — كما هزت فولتير — إلى أعماق فلسفته ، نشر كانط ثلاث مقالات عن الزلازل ومقالاً عن نظرية فى الرياح . وفى ١٧٥٧ نشر « مجملات لمجموعة محاضرات فى الجغرافيا الطبيعية وبياناً عنها » ، وفى ١٧٥٨ نشر « نظرية جديدة فى الحركة والسكون . فلما اتسعت دائرة اهتماماته أرسل إلى المطبعة رسائل قصيرة عن موضوعات التفاضل (١٧٥٩) ، والقياس المنطقى (١٧٦٢) ، وأمراض الرأس (١٧٦٤) . وقد ألمع فى هذه الرسالة إلى أن تقسيم العمل المتزايد قد يقضى إلى الجنون نتيجة التكرار الرتيب للعمل . وفى ١٧٦٣ انتقل إلى اللاهوت ببحث عنوانه « الدعامة الوحيدة الممكنة للبرهنة على وجود الله » ؛ ووضح أنه كان مبطل الخاطر لاهتزاز إيمانه الدينى . وفى ١٧٦٤ ، بعد ثمانى سنين من نشر برك رسالة مماثلة ، قدم « ملاحظات على الشعور بالجميل والجليل » .

ومرت به أوقات خطر له فيها أن يوسع فرضه فى أصل الكون التطورى

(م ١٤ — قصة الحضارة ، ج ٤١)

ليشمل علم الأحياء ؛ وكان على علم بأن الأشكال الجديدة تطورت من القديمة بفعل تغيرات في ظروف الحياة ^(١١) ، وقبل الرأي القائل بأن تشريح الإنسان كان في الأصل ميسراً لحركة أرجل أربع ^(١٢) . ومع ذلك أحجمه عن فكرة البيولوجية القائمة كلها على المذهب الآلي . « كذلك مرت في أوقات سرت خلالها في هذه الدوامة مفترضاً هنا ميكانيكا طبيعية عمياء أساساً للتفسير . واعتقدت أنني أستطيع استكشاف طريق أساكنه إلى المفهوم البسيط الطبيعي . واكتفى كنت دائماً أنني إلى تحطيم سفينة العقل ، ومن ثم أثرت المغامرة في محيط الأفكار الذي لا حدود له » ^(١٣) . وكان رودلف راسبي (مؤلف رحلات البارون مونتشاووزن) قد اكتشف مؤخراً مخبوط ليلينتنس المفقود منذ زمن طويل « مقالات جديدة في الفهم البشري » ونشره في ١٧٦٥ ، واستطاع كانط أن يقرأه بالفرنسية ، وقد أسهم في تحويله إلى نظرية المعرفة . على أنه لم يهجر اهتمامه بالعلم هجراناً تاماً ، فقد كتب في تاريخ متأخر (١٧٨٥) مقالا عنوانه « في براكين القمر » . غير أن الصراع الباطن بين دراساته العلمية ولا هوته الموروثة حفزه إلى التماس التوفيق بينهما في الفلسفة .

ويحتمل أن يكون من العوامل التي وجهته هذه الوجهة الجديدة عرض (١٧٧٠) منصب أستاذ المنطق والميتافيزيقا عليه . وكان الراتب ضئيلاً لرجل بلغ السادسة والأربعين وهو ١٦٧ طالرا في العام ، زيد ببطء إلى ٢٢٥ في ١٧٨٦ ؛ وقد رفعت الراتب خدمات عارضة أداها بوصفه « سناتورا » و « أقدم أساتذة الكلية » في ١٧٨٩ إلى ٧٢٦ طالرا وكانت التقاليد تقضي بأن يليق الأستاذ الجديد خطاباً افتتاحياً باللاتينية . واختار كانط موضوعاً عسيراً هو « في شكل ومبادئ العالم المحسوس والعالم المعقول » . واستعمل كانط المصطلحات « المدرسية » التي كانت لاتزال سائدة في الجامعات الألمانية . وقصد بالعالم المحسوس العالم كما تدركه الحواس ، وسوف يسميه أيضاً فيما بعد بعالم الظواهر . أما العالم المعقول . فيقصد به العالم كما يدركه الذهن أو العقل ، وسوف يسميه بعد ذلك العالم « النومياني » . ونحن نحاول فهم العالم المحسوس بأن نطبق عليه المفاهيم الذاتية للزمان والمكان بواسطة الرياضة والعلوم ؛ والعالم المعقول بتجاوز الحواس عن طريق العقل

والتأنيذا إلى مصادر العالم المحسوس وأسبابه فوق الحسية . هنا أرسى كانط نظريته الأساسية : وهى أن الزمان والمكان ليسا شيئين موضوعيين أو محسوسين بل شكلين من أشكال الإدراك الحسى أصيلين فى طبيعة العقل وبنياه ؛ وأن العقل ليس متلقياً ونتاجاً سلبياً للأحاسيس ، بل هو عامل إيجابى - له طرائق وقوانين عمل أصيلة لتحويل الأحاسيس إلى أفكار .

وقد عد كانط هذا البحث الجوهرى « النص الذى سيفصل القول فيه فى الكتاب التالى » وتدل هذه العبارة الواردة فى خطاب حرره فى ١٧٧١ إلى ماركوس هرتس على أن الفيلسوف كان الآن يخطط لكتابة « نقد العقل الخالص » . وبعد اثنتى عشرة سنة من العكوف على ذلك البحث الضخم نشره على الناس فى ١٧٨١ ، وأهداه لكارل فون تسيدلنتس وزير التعليم والشئون الدينية فى عهد فردريك الأكبر . وكان تسيدلنتس ، كما كان الملك ، ربيب حركة التنوير ، ونصيراً لحرية النشر . وقد قدر كانط أن حمايته ستكون مفيدة جداً إذا استشف اللاهوتيون وراء ألفاظه الغامضة واستنتاجاته السنية فى ظاهرها تحليلاً من أشد التحليلات التى نلقاها اللاهوت المسيحى تديراً .

٢ - نقد العقل الخالص ، ١٧٨١

إذا وجد العالم هذا الكتاب عسيراً فقد يكون السبب منهج العمل الذى انتهجه كانط . كتب إلى موسى مندلسون (١٦ أغسطس ١٧٨٣) يقول : مع أن الكتاب « ثمرة تأمل شغلنى على الأقل اثنى عشر عاماً ، فإننى أكملته بأقصى سرعة فى أربعة أشهر أو خمسة ، باذلاً أبلغ العناية بمحتوياته ، ولكن دون اهتمام يذكر بالعرض أو بتيسير فهمه للقارئ - وهو قرار لم أندم عليه قط ، وإلا فلو تباطأت وحاولت صياغته فى شكل أكثر شعبية لما اكتمل العمل إطلاقاً فى أغلب الظن » (١٤) . إن الوضوح يقتضى الوقت ، ولم يكن كانط واثقاً من أنه يملك الوقت . وقد حذف عمداً بعض الأمثلة الموضحة

مخافة أن يتضخم كتابه ؛ « فهذه ليست ضرورة إلا من وجهة النظر الشعبية ، وهذا الكتاب لا يمكن أبداً جعله صالحاً للاستهلاك الشعبي » ^(١٥) . وهكذا كتب كانط لأهل حرفته ، وركن إلى غيره في تبسيطه وتخفيفه ليصلح للهضم . ومع أن كرستيان فون فولف كان قد سبقه في التأليف الفلسفى بالألمانية ، إلا أن تلك اللغة كانت لا تزال على جفافها في التعبير عن ظلال التفكير ، ولم تكن قد استقرت على مصطلحات فنية في الفلسفة . وكان على على كانط في كل خطوة تقريباً أن يخترع ترجمة ألمانية لمصطلح لاتينى ، وفى كثير من الحالات حتى اللاتينية كانت تفتقر إلى مصطلحات تنى بالفوارق الدقيقة التى أراد التعبير عنها . وقد أربك قراءه بخلعه المعانى الجديدة على الألفاظ القديمة ، وبنسيانه أحياناً تعاريفه الجديدة . والصفحات المائة الأولى واضحة وضوحاً لا بأس به ، أما باقى الكتاب فحريق فلسفى لا يبصر فيه القارئ غير الخبير شيئاً غير الدخان .

وقد احتاج العنوان نفسه إلى إيضاح . فأنى للقارئ أن يعرف أن « نقد العقل الخالص » معناه تمحيص نقدى حصيف للعقل مستقلاً عن التجربة ، و « النقد لم يعن التحليل والعرض فحسب ، بل الحكم أيضاً ، كما يستفاد من سلف اللفظة اليونانى (بمعنى يحكم) . وقد قصد كانط أن يصف الحس ، والإدراك الحسى والفكرة والعقل ، وأن يقرر لكل منها حدودها واختصاصاتها الصحيحة . ثم أهدأ أن يبين أن فى استطاعة العقل أن يعطى المعرفة مستقلاً عن أى خبرة مؤيدة ، كما هى الحال فى معرفتنا أن ستة مضروبة فى ستة تساوى ستة وثلاثين ، أو أنه لا بد أن يكون للمعلول علة . تلك أمثلة لـ « العقل الخالص » - أعنى المعرفة القبلية أو الأولية ، أى المعرفة التى لا تتطلب برهاناً من التجربة . يقول : « إن ماكرة المعرفة الحاصلة من المبادئ القبلية يمكن أن نسميها العقل الخالص ، والبحث العام فى قدرتها وحدودها (يؤلف) نقد العقل الخالص » ^(١٦) . وقد اعتقد كانط بأن بحثاً كهذا سينطوى على كل مشكلات الميتافيزيقا ؛ وكان على ثقة من أنه « ما من مشكلة ميتافيزيقية واحدة لم تحل ، أو لم يقدم

مفتاح حلها على الأقل» في هذا النقد ^(١٧) . وذهب إلى أن الخطر الوحيد الذى يخشاه « ليس خطر تنفيذ آرائى بل عدم فهمى » ^(١٨) .

فما الذى جره يا ترى إلى خوض هذه المغامرة البطولية ؟ قد يظن أن اعلاء حركة التنوير الفرنسية من شأن العقل — وزعم جماعة الفلاسفة أن الإيمان يجب أن يخضع للعقل — وما حاق باللاهوت المسيحى نتيجة لهذا من دمار ، كان السبب الذى جعل كانط يصمم على دراسة أصل العقل وعمله وحدوده . وقد لعب ذلك الحافز دوره ، كما ورد فى مقدمة كانط للطبعة الثانية ^(١٩) ، ولكن المقدمة ذاتها أوضحت بجلاء أن العدو الذى اسهده هو هذه التوكيدية الإيقانية (الدجاطيقية) بكل ألوانها — أى كل مذاهب الفكر التقليدية والمبتدعة على السواء ، التى ينشئها عقل لم يخضع لامتحان . وقد لقب كرستيان فون فولف بـ « أعظم الفلاسفة الدجاطيقيين قاطبة » لأنه اضطلع بإثبات عقائد المسيحية ، وفلسفة لونتس بالعقل وحده . وكل المحاولات التى تبذل للبرهنة على صدق الدين أو كذبه بالعقل الخالص هى فى نظر كانط صور من الدجاطيقية ؛ وقد حكم بـ « دجاطيقية الميتافزيقا » على كل مذهب فى العلم أو الفلسفة أو اللاهوت لم يخضع أولاً لامتحان نقدى للعقل ذاته .

وقد اتهم تفكيره هو ، حتى عام ١٧٧٠ ، بأنه مدان بهذه الدجاطيقية . يقول إن ما أيقظه من هذه التأملات غير الممحصنة هو قراءته لهيوم — ربما كتابه « بحث فى الفهم البشرى » الذى ظهرت ترجمة ألمانيا له فى ١٧٥٥ . وكان هيوم قد زعم أن كل تدليل يعتمد على فكرة العلة ، وأنها فى التجربة الفعلية لاندرك العلة إدراكاً حسياً بل التعاقب وحده ؛ وإذن فكل العلم والفلسفة واللاهوت يرتكز على فكرة — علة ليست غير فرض ذهنى للاحقيقة مدركة حسياً . كتب كانط يقول « أعترف بصراحة أن ملاحظة ديفد هيوم هى التى قطعت على سبائى الدجاطيقى منذ سنين طويلة ووجهت أبحاثى فى مجال الفلسفة النظرية فى اتجاه مختلف كل الاختلاف » ^(٢٠) . فكيف يمكن إنقاذ مفهوم العلة من المكان الوضعي ، مكان الفرض غير اليقيني ، الذى

خلفه فيه هيوم ؟ يقول كانط أنه لا سبيل إلى ذلك إلا ببيان أنه قبل ، مستقل عن الخبرة ، واحد من تلك المقولات ، أو أشكال الفكر ، التي وإن كانت ليست بالضرورة فطرية ، إلا أنها جزء من التركيب الفطري للعقل (*) . ومن ثم صمم على التغلب على دجماطيقية فولف وارتيازية هيوم جميعاً بنقد -- أى بتمحيض نقدي -- يصف في الوقت نفسه سلطة العقل ويحددها ويحييها . وهذه المراحل الثلاث -- الدجماطيقية ، والارتيازية ، والنقد -- هي في نظر كانط المراحل الثلاث الصاعدة في تطور الفلسفة الحديثة .

وفي ولع بالتعاريف ، والتمييزات ، والتصنيفات ، وباستخدام للألفاظ الطويلة اختصاراً للكلام ، قسم كانط المعرفة كلها إلى معرفة تجريبية (تعتمد على التجربة) وأخرى ترانسندنالية (مستقلة عن التجربة ومن ثم متجاوزة لها) . وقد وافق على أن المعرفة كلها « تبدأ » بالتجربة ، بمعنى أن إحساساً ما لا بد أن يسبق وينبه عمليات الفكر ، ولكنه يعتقد أنه في اللحظة التي تبدأ فيها التجربة فإن تركيب العقل يشكّلها بما تأصل فيه من أشكال « الحدس » (الإدراك الحسي) أو الإدراك العقلي . وأشكال « الحدس » الأصلية هي الصور المشتركة بين الجميع ، والتي تتخذها التجربة في إحساسنا الظاهر كمكان ، وفي حساسيتنا الباطنة كزمان .

وبالمثل توجد أشكال فطرية من الإدراك العقلي أو الفكر ، مستقلة عن التجربة وهي تشكّلها . وقد سماها كانط المقولات ، وقسمها بتناسق أولع به وحرص عليه حرصاً شديداً إلى أربع مجموعات ثلاثية : ثلاث مقولات للكم -- هي الوحدة والكثرة وجملة الكل ؛ وثلاث مقولات للكيف -- هي الوجود والسلب وحد التناهي ؛ وثلاث مقولات قوائم للإضافة هي الجوهر في مقابل العرض ، والسببية في مقابل التلازم ، والمشاركة أو التفاعل ؛

(*) ذكر كانط في خطاب بلارفي ١٧٩٨ تفسيراً لاحقاً لـ « يقطته » هذه . قال : « إن تناقضات العقل الخالص (الصوريات التي ينطوي عليها الإيمان بالله أو عدم الإيمان به ، أو حرية الإرادة ، أو الخلود) ... هي التي بدأت انقطاعاً من سباق الدجماطيقى وساقته إلى نقد العقل » (٢١) .

وثلاث مقولات قوائم للجهة - هي الإمكان في مقابل الاستحالة، والوجود في مقابل العدم ، والضرورة في مقابل العرضية . وكل إدراك حسى يندرج تحت واحد أو أكثر من هذه الأشكال أو القوالب الأساسية للفكر . فالإدراك الحسى إحساس تترجمه الأشكال الفطرية للزمان والمكان ، والمعرفة لإدراك حسى تحاوله المقولات إلى حكم أو فكرة . والتجربة ليست قبولاً سلبياً لانطباعات موضوعية على حواسنا ، إنما هي حصيلة العقل المؤثر إيجابياً على نخامة الإحساس .

وقد حاول كانط أن يعارض ارتيابية هيوم في العلية ، وذلك بأن عد علاقة العلة والمعلول شكلاً حقيقياً من أشكال الفكر لا حقيقة موضوعية ؛ وهي بهذه الصفة مستقلة عن الخبرة وليست خاضعة لعدم يقينية الأفكار التجريبية . ولكنها مع ذلك جزء ضرورى من كل تجربة ، لأننا لا نستطيع فهم التجربة بدونها . ومن ثم فإن « إدراك العلة العقلى » ينطوى على صفة الوجوب ، التى لا يمكن لأى تجربة أن تعطيها » (٢٢) . وقد ظن كانط أنه بـ « خفة القلم » هذه أنقذ العلم من ذلك القيد المذل ، قيد الاحتمال ، الذى قضى عليه به هيوم . بل انه زعم أن العقل البشرى لا الطبيعية - هو الذى ينشئ « قوانين الطبيعة » الشاملة ، وذلك بإضافته على بعض تعميماتنا - كالتعميمات الرياضية - صفات من الشمول والوجوب لاتدرك موضوعها إدراكاً حسياً . « إننا نحن الذين ندخل ذلك الترتيب والانتظام على المظهر الذى نسميه « الطبيعة » . وما كنا لنجدهما قط فى المظاهر لو لا أننا نحن أنفسنا بحكم طبيعة عقلنا ، وضعناهما فى الأصل هناك » (٢٣) و « قوانين الطبيعة ليست كيانات موضوعية بل مركبات عقلية نافعة فى معالجة التجربة » .

وكل معرفة تتخذ شكل الصور أو المثل ، والمثالى بهذا المعنى على صواب : فالعالم « بالنسبة لنا » ليس إلا أفكارنا . وما دمنا لانعرف المادة إلا كأفكار وبواسطة الأفكار ، فالمادية إذن مستحيلة منطقياً ، لأنها تحاول أن ترد المعلوم مباشرة (الأفكار) إلى المجهول أو المعلوم بطريق غير مباشر . ولكن المثالى يخطئ إذا اعتقد أنه لا شئ « موجود » إلا صورنا ، لأننا نعلم أن الصور

يمكن إحداها بالأحاسيس ، ونحن لا نستطيع تفسير كل الأحاسيس دون أن نفترض ، لكثير منها ، علة خارجية . وبما أن معرفتنا مقتصرة على الظواهر أو المظاهر — أى على الشكل الذى يتخذه السبب الخارجى « بعد » أن تشكله أساليب إدراكنا الحسى والعقلى — فإننا لا نستطيع أبداً أن نعرف الطبيعة الموضوعية لتلك العلة الخارجية ^(٢٤) ، ولا بد أن نظل بالنسبة لنا شيئاً — فى — ذاته ، ملغزاً ، « نومينا » يدرك عقلياً ولا يدرك حسياً على الإطلاق . فالعالم الخارجى موجود ولكنه فى حقيقته المطلقة مجهول لا يمكن معرفته » ^(٢٥) .

والنفس أيضاً حقيقة ولكن لا يمكن معرفتها . ونحن لا ندركها حسياً على الإطلاق بوصفها كياناً مضافاً إلى الحالات العقلية التى ندركها حسياً ، وهى الأخرى « نومين » يدرك عقلياً بالضرورة باعتبارها الحقيقة التى من وراء الذات الفردية ، والحس الأخلاقى وأشكال العقل وعملياته . والإحساس بالذات يمتزج مع كل حالة عقلية ، ويرفر الاستمرارية والهوية الشخصية . والوعى بالذات « وعى الذات الاستبطانى » هو أوثق تجاربنا قاطبة ، ولا سبيل إلى إدراكه عقلياً كشيء مادى بأى جهد بطولى من جهود الخيلة ^(٢٦) . ويبدو من المستحيل أن تؤثر نفس لا مادية فى جسد مادى ، وأن يتأثر به ، ولكن لنا أن نعتقد أن الحقيقة المجهولة والكامنة وراء المادة « قد لا تكون مع ذلك شديدة الاختلاف فى طبيعتها » من ذلك الشيء — فى — ذاته ، الباطن ، الذى هو النفس ^(٢٧) .

وليس فى استطاعتنا بالعقل الخالص أو النظرى أن نثبت (كما حاول فولف) أن نفس الفرد خالدة ، أو أن الإرادة حرة ، أو أن الله موجود ؛ ولكننا أيضاً لا نستطيع بالعقل الخالص أن ندحض هذه المعتقدات (كما خطر لبعض الشكاك أن يفعلوا) فالعقل والمقولات مهياة للتعامل مع الظواهر أو المظاهر فقط ، الظاهرة أو الباطنة ، ولا نستطيع تطبيقهما على الشيء — فى — ذاته ، أى على الحقيقة التى من وراء الأحاسيس أو النفس التى من وراء الأفكار . فإذا حاولنا إثبات عقائد الدين أو دحضها وقمنا فى أغلاط (فى البرهان)

أو أغاليط (مغالطات) أو نقائص — تناقضات ملازمة . كذلك ينتهى بنا الأمر إلى استحالات كهذه إذا قلنا إن العالم كان له بداية أو لم يكن ، أو إن الإرادة حرة أو غير حرة ، أو إن كائناً واجباً أو كائناً أعلى موجود أو غير موجود . وعبر كانط في بلاغة غير معهودة فيه عن البرهان الغائى (٢٨) . ولكنه خلص إلى أن « قصارى ما يستطيع هذا البرهان إثباته هو « مهندس » . . . تعوقه دائماً أشد التعويق تكيفية المادة التى يشتغل بها ، لا « خالق » . . . يخضع لفكرته كل شىء » (٢٩) .

ومع ذلك فكيف نستطيع الرضى بمثل هذه النتيجة المحيرة — وهى أن حرية الإرادة ، والخلود ، والله ، هذه كلها لا يمكن إثباتها أو نفيها بالعقل الخالص ، يقول كانط إن فى باطننا شيئاً أعمق من العقل ، هو شعورنا الذى لا يقبل التفنيد بأن الوعى ، والعقل ، والنفس ، ليست مادية ، وأن الإرادة حرة إلى حد ما ، وإن يكن على نحو غامض ولا منطقى ؛ ونحن لانستطيع أن نقنع طويلاً بالنظر إلى العالم على أنه تسلسل لا معنى له من التطور والفناء دون مغزى خلقى أو عقل أصيل . فكيف نستطيع تبرير إرادة الإيمان فيما ؟ من جهة (كما يقول كانط) بالجدوى الفعلية للإيمان — لأنه يقدم لنا بعض الهداية فى تفسير الظواهر ، ويوفر لنا شيئاً من السلامة الفلسفية والسلام الدينى ، يقول :

« إن أشياء العالم يجب النظر إليها » كأنها « تلقت وجودها من عقل أسمى ففكرة (الله) هى فى الحقيقة مدرك عقلى موجه ، لا مدرك عقلى مباشر (هى فرض يعين على الكشف والفهم ، ولكنها ليست برهاناً) . . . فى ميدان اللاهوت يجب أن ننظر إلى كل شىء « كأن » جماع المظاهر كلها (العالم المحسوس ذاته) له أساس واحد ، أسمى ، كلى الاكتفاء ، وراء ذاته — هو عقل موجود بذاته ، مبتكر ، مبدع . لأنه فى ضوء هذه الفكرة ، فكرة العقل المبدع ، نوجه الاستخدام التجريبي « لعمَلنا » بحيث نحصل على أقصى امتداد مستطاع له . . . والمفهوم المحدد الوحيد الذى يعطينا إياه العقل النظرى الخالص عن الله هو ، بأدق معنى ، مفهوم « ربوبى » ؛ أى أن العقل لا يحدد الصيغة

الموضوعية لمثل هذا المفهوم ، إنما هو يعطينا فقط الفكرة عن شيء هو الأساس للوحدة الاسمي والواجبة لكل الحقيقة التجريبية » (٣١) .

ولكن المبرر الأشد إلزاماً للاعتقاد الديني ، في رأى كانط ، هو أن هذا الاعتقاد لا غنى عنه للأخلاقية و « لولا أن هناك كائناً أصلياً متميزاً عن العالم ، ولو كان العالم . . . بغير خالق ، ولو كانت إرادتنا غير حرة ، ولو كانت الروح . . . فانية كالمادة ، إذن لفقدت الأفكار والمبادئ الأخلاقية « كل صحتها » (٣١) . وإذا شئنا للصفة الأخلاقية والنظام الاجتماعي ألا يعتمدا كلية على الخوف من القانون ، فلا بد لنا من دعم الإيمان الديني ، ولو بوصفه مبدأ منظماً ، ويجب أن نسلك ، كأئنا نعرف « أن هناك إلهاً ، وأن نفوسنا خالدة ، وأن إرادتنا حرة » (٣٢) . أضف إلى ذلك ، أننا إعانة للفكر والأخلاق - مبررون في تمثيل سبب العالم بلغة تشبيهية لطيفة دقيقة . (بغيرها لا نستطيع تصور أى شيء متصل بهذا السبب) أعني ككائن ذي فهم ، ومشاعر سرور وأستياء ، ورغبات ومشينات تقابلها » (٣٣) .

وهكذا نختم كتاب « النقد » الشهير ، مخلفاً مذاهب الفكر المتعارضة وقد سرى عنها وأثار استياءها . لقد أصبح في وسع الشكاك أن يزعموا أن كانط برد اللادرية ، وأن يزدروا إرجاعه الله إلى مكانته السابقة كمكلا للشرطة . ووبخه اللاهوتيون المصدومون على تسليمه بهذا القدر الكبير للكفر ، واعتبطوا لأن الدين خرج - فيما بدا لهم - حياً من رحلته الخطرة داخل متاهة عقل كانط . وفي ١٧٨٦ وصف كارل رايهولت هذه الضجة الكبرى فقال :

«لقد حكم الدجاطيقيون على كتاب « نقد العقل الخالص » : بأنه محاولة شك يقوض يقينية المعرفة كلها . الشكاك بأنه قطعة من التبعجج المستعلى تضطلع بإقامة صورة جديدة من الدجاطيقية على أنقاض مذاهب سابقة ؛ وفوق الطليعيين بأنه حيلة مبيتة بدهاء لإزاحة الأسس التاريخية للدين ، ولاقاه المذهب الطبيعي دون جدل عنيف ؛ والطليعيون بأنه دعامة جديدة لفلسفة الإيمان المحتضرة ؛ وحكم عليه الماديون بأنه إنكار مثالي النزعة لحقيقة

المادة ؛ والروحانيون بأنه قصر لا مبرر له للمعرفة كلها على العالم المادى
مستتر تحت اسم ميدان التجربة . . . » (٣٤) .

وهاجمت مدارس الفكر هذه كلها تقريباً الكتاب فأذاعت بذلك
شهرته ولو بتجريجه . وأعلت من قدرة كل العوامل حتى عسر فهمه الذى
جعله تحدياً يتعين على كل عقل عصرى أن يقبله . وسرعان ما جرت
مصطلحات كانط وألفاظه الطويلة على كل لسان مثقف .

ولم يستطع كانط أن يفهم لم عجز نقاده عن فهمه . ألم يعرف كل
مصطلح أساسى مراراً وتكراراً ؟ (بلى ، وما أشد التباين فى تعاريفه !)
وفى ١٧٨٣ رد على الهجمات بإعادة صياغة « النقد » فيما خاله صورة أبسط ،
وسمى رده فى تحد « مقدمة لكل ميتافيزيقا مستقبلية قادرة على الظهور كعلم » .
وزعم فى هذا الرد أنه قبل كتابة « نقد العقل الخالص » لم تكن هناك ميتافيزيقا
ميتافيزيقا حقيقية على الإطلاق ، لأنه ما من مذهب قدم لنفسه بتمحيص
ناقد لأداته — وهى العقل . فإذا كان بعض القراء عاجزين عن فهم كتاب
« النقد » فقد يكون السبب أنهم ليسوا على مستواه تماماً ؛ « وفى هذه الحالة
على القارئ أن يستخدم مواهبه العقلية فى شىء آخر » ، وعلى أى حال « مامن
حاجة تدعو كل إنسان لدراسة الميتافيزيقا » (٣٥) . لقد كان فى الأستاذ العجوز
دعابة وكبرياء ، وفيه حدة فى الطبع أيضاً . على أن « المقدمة » باتت كلما
أو غلت عشرة عسر كتاب النقد الأصيل .

واتصل الجدل فى ظل حكومة فردريك الأكبر المتساهلة . وكان كانط
قد كتب فى كتابه « نقد العقل الخالص » فقرات بليغة عن شرف العقل ،
وعن حقه فى حرية التعبير (٣٦) . وفى ١٧٨٤ ، حين كان لا يزال مطمئناً
إلى حماية فردريك وتسيدلتس ، نشر مقالا عنوانه (ما التنوير ؟) .
وقد عرف التنوير بأنه حرية الفكر واستقلاله ، واتخذ شعاراً ونصيحة
القول المأثور « تجرأ على أن تعرف » . وأبدى أسفه على تخلف
التحور الفكرى نتيجة لمحافظة الأغلبية على القديم . « فإذا سألنا

هل عاثشون في عصر مستنير ؟ فالجواب لا ، إنما نحن نعيش في « عصر التنوير » ثم حيا فردريك باعتباره عنوان حركة التنوير الألماني وحاميها ، والمملك الوحيد الذي قال لرعاياه « فكروا كما تشاءون » (٣٧) .

ولعله كتب هذا الكلام مؤملاً أن خليفة فردريك سيلزم سياسة التسامح . ولكن فردريك وليم الثاني (١٧٨٦ — ٩٧) كان أكثر اهتماماً بقوة الدولة منه بحرية العقل . فلما أعدت طبعة ثانية من « نقد العقل الخالص » (١٧٨٧) عدل كانط بعض فقراته ، وحاول التخفيف من حدة هرطقاته بمقدمة طابعها الاعتذار . قال « وجدت من الضروري أن أنفي المعرفة (بالأشياء في ذاتها) لأفسح مجالاً للإيمان . . . فالنقد وحده يستطيع أن يقطع بحدوث المادية والقدرية والكفر والإلحان والتعصب والخرافة » (٣٨) . وكان محقاً في هذا الحلز . ففي ٩ يوليو ١٧٨٨ أصدر يوهان كرستيان فون فولتر ، وزير الإدارة اللوثرية « مرسوماً دينياً » رفض التسامح الديني صراحة باعتباره مسئولاً عن التحلل الخلقي ، وهدد بالطرد من منابر الكنائس أو كراسي الجامعات كل الوعاظ أو المدرسين المنحرفين عن المسيحية التقليدية . في هذا الجو الرجعي نشر كانط « نقده » الثاني .

٣ — نقد العقل العملي ، ١٧٨٨

وما دام كتاب « النقد » الأول زعم أن العقل الخالص لا يستطيع أن يثبت حرية الإرادة ، وما دامت الأخلاقية — في رأى كانط — تحتاج إلى هذه الحرية ، فإن عمليات العقل بدت وقد تركت الأخلاقية ، كاللاهوت ، دون أساس عقلي . بل أسوأ من هذا أن حركة التنوير قوضت الأساس الديني للأخلاق بالتشكيك في وجود إله مثيب معاقب . فأني للحضارة أن تبقى حية إذا انهارت عمد الأخلاقية التقليدية هذه ؟ وأحس كانط أنه هو نفسه ، بوصفه تلميذاً صريحاً للتنوير ، ملتزم أخلاقياً بالعثور على أساس عقلي ما لنا موس أخلاقي . وعليه ففي مقال تمهيدى عنوانه « المبادئ الأساسية لميتافيزيقا الأخلاق » (١٧٨٥) رفض محاولة أحرار الفكر إقامة الأخلاقية على

تجربة الفرد أو النوع ؛ فمثل هذا الاشتقاق البعدى خليق بأن يساب المبادئ الأخلاقية تلك الكلية وذلك الإطلاق اللذين هما في رأيه شرط للمبدأ الأخلاقى السليم . ثم أعلن بما يتميز به من ثقة بالنفس : « أنه من الواضح أن المفاهيم الأخلاقية كلها مستقرة ومتأصلة قبلياً في العقل كلية » (٣٩) . وقد استهدف كتابه الثانى الكبير « نقد العقل العملى » العثور على ذلك المستقر والأصل وإيضاحه . فسيحلل العناصر القبلية في الأخلاقية كما حلل الكتاب الأسبق في النقد العناصر القبلية في المعرفة .

يزعم كانط أن لكل فرد ضميراً ، إحساساً بالواجب ، وعياً بقانون أخلاقى أمر . « شيئا يملأن العقل بالإعجاب والرهبة المتجددين المتعاضدين أبدا . . . السموات المرصعة بالنجوم من فوقنا ، والقانون الأخلاقى فى داخلنا » (٤٠) . وكثيراً ما يتعارض هذا الشعور الأخلاقى برغباتنا الحسية ، ولكننا نذكر أنه عنصر أسمى فينا من طلب اللذة . وهو ليس ثمرة التجربة ، إنما هو جزء من بنائنا النفسى الأصيل ، مثل المقولات ؛ وهو محكمة باطنية حاضرة فى كل شخص من كل جنس (٤١) . وهو مطلق الحكم ، يأمرنا أمراً غير مشروط ، وبغير استثناء أو عذر ، بأن نفعل الحق من أجل الحق ، كغاية فى ذاته ، لا كوسيلة للسعادة أو الثواب أو لخير غيره . فأمره مطلق .

وهذا الأمر المطلق يتخذ شكلين : « اعمل بحيث تستطيع قاعدة لإرادتك أن تظل على الدوام صادقة كمبدأ للتشريع العام » ؛ أسلك بحيث إذا سلك الغير مثلك سار كل شئ على ما يرام ، وهذه (الصيغة المعدلة من القاعدة الذهبية - أى التى تأمر بمعاملة الناس كما تحب أن يعاملون) هى « القانون الأساسى للعقل العملى الخالص » (٤٢) ، وهى « الصيغة لإرادة خيرة خيرا مطلقاً » (٤٣) . وفى صيغة ثانية ، « اعمل بحيث تعامل الإنسانية ، سواء ممثلة فى شخصك أو فى شخص أى إنسان آخر ، وفى كل حالة ، كغاية لا كمجرد واسطة اطلاقاً » (٤٤) ، - فى هذه الصيغة الثانية أعلن كانط مبدأ أشد ثورية من أى شئ احتواه الإعلان الأمريكى أو الفرنسى لحقوق الإنسان .

والأحسان بالالتزام الخلقى دليل إضافى على قدر من حرية الإرادة .

فأنى يكون لنا هذا الشعور بالواجب لو لم نكن أحراراً في أن نعمل أو لا نعمل ، ولو كانت أفعالنا مجرد حلقات في سلسلة لا تنقسم من العلة والمعلول الميكانيكيين ؟ والشخصية بدون الإرادة الحرة عديمة المعنى ؛ وإذا كانت الشخصية عديمة المعنى كانت الحياة كذلك ، وإذا كانت الحياة عديمة المعنى كان الكون كذلك ^(٤٥) . ويدرك كانط بمنطق الحتمية الذى يبدو ولا مهرب منه ، فكيف يستطيع الاختيار الحر أن يتدخل في عالم موضوعى يبدو محكوماً بقوانين ميكانيكية (كما يعترف كانط) ؟ ^(٤٦) وجوابه عن هذا السؤال بلغ الغاية في الغموض والإبهام . فهو يذكرنا بأن القانون الميكانيكى مركب عقلى ، نظام يفرضه العقل ، بواسطة مقولته العليا ، على عالم المكان والزمان ذريعة للتعامل معه باتساق . وما دمنا قد قصرنا المقولات على عالم الظواهر ، وما دمنا قد سلمنا بأننا لانعرف كنه العالم النومىنى — الشئ — في — ذاته الكائن خلف الظواهر — فأنا لانستطيع الزعم بأن القوانين التى نركبها للظواهر تصدق أيضاً على الحقيقة المطلقة . وبما أننا سلمنا أننا لانعرف ، فى ذاتنا ، إلا الذات الظاهرية — عالم المدركات الحسية والصور فقط — ولا نعرف كنه النفس الباطنة والنومىنية ، فإننا لانستطيع الزعم بأن قوانين العلة والمعلول التى يبدو أنها تحكم أفعال أبداننا (بما فيها أمخاخنا) تنطبق أيضاً على إرادات الحقيقة الروحية المطلقة الكائنة وراء عملياتنا العقلية . غوراء ميكانيكيات العالم الظاهرى للمكان والأفكار فى الزمان قد تكون هناك حرية فى العالم النومىنى الذى بلا مكان ولا زمان ، عالم الحقيقة المطلقة — الظاهرة أو الباطنة . وأفعالنا وأفكارنا تتحدد بمجرد دخولها عالم الأحداث المادية أو العقلية المدركة حسياً ؛ وقد تظل حرة فى أصلها فى النفس غير المدركة حسياً ؛ « وهكذا يمكن للحرية والطبيعة أن توجدا معاً » ^(٤٧) ، وليس فى إمكاننا إثبات هذا ، ولكن يجوز لنا شرعاً أن نفترضه متضمناً بحكم طبيعة حسنا الأخلاقى الآمرة ؛ وبدونه تموت حياتنا الأخلاقية .

على أى حال (فى رأى كانط) ، لم لا ينبغى أن نقدم العقل العملى على النظرى ؟ أن العلم ، الذى يبدو أنه يجعلنا آلات ذاتية الحركة ، هو فى النهاية مضاربة — مقامرة على الصحة الدائمة لنتائج ومناهج لانتفا تنغير . ونحن

على حق إذا شعرنا بأن الإرادة في الإنسان أهم من الدهن ، فالدهن أداة صاغت الإرادة للتعامل مع العالم الخارجى والميكانيكى ، وما ينبغى أن يكون السيد المتسلط على الشخصية التى تستخدمه (٤٨) .

ولكن إذا كان الحس الأخلاقى يبرر افتراضنا قدر من الإرادة الحرة ، فإنه يبرر أيضاً اعتقادنا بخلود النفس ، ذلك أن حسنا الأخلاقى يستحثنا إلى كمال تحبظته المرة بعد المرة دوافعنا الحسية ، ونحن لا نستطيع تحقيق هذا الكمال فى حياتنا على الأرض ؛ فإذا كان هناك عدل فى العالم فلا بد أن نفترض أننا سنمنح حياة متصلة بعد الموت لأكملنا الأخلاقى . وإذا كان هذا يفترض أيضاً وجود إله عادل ، فإن هذا أيضاً يبرره العقل العملى . فالسعادة الأرضية لا تتفق دائماً والفضيلة ، ونحن نشعر أن التوازن بين الفضيلة والسعادة سيصحح فى مكان ما ، وهذا لا سبيل إليه إلا إذا افترضنا وجود إله يحقق هذه المصالحة ، وعليه فإن وجود سبب للطبيعة كلها ، متميز عن الطبيعة ذاتها ، محتويًا لمبدأ . . . الانسجام الدقيق بين السعادة والفضيلة ، هذا أيضاً من مسلمات « العقل العملى » (٤٩) .

وقد عكس كانط النهج التقليدى المؤلف . فبدلاً من أن يستنبط الحس الأخلاقى والناموس الأخلاقى من الله (كما فعل اللاهوتيون من قبل) ، استنبط الله من الحس الأخلاقى . ويجب أن نتصور واجباتنا لا على أنها « أوامر تعسفية لإرادة غريبة عنا » بل قوانين أساسية لكل إرادة حرة فى ذاتها . على أنه مادامت تلك الإرادة والله كلاهما ينتميان إلى العالم النومينى ، فينبغى أن نتقبل هذه الواجبات على أنها أوامر إلهية ولن ننظر إلى الأفعال (الأخلاقية) على أنها إلزامية لأنها أوامر الله ، ولكننا سنعدها أوامر إلهية لأن فينا إلزاماً باطنياً نحوها » (٥٠) .

وإذا كان هذا التفكير « الإرادى » (العنيد) يشربه بعض الغموض ، فقد يكون السبب أن كانط لم يكن شديد التحمس لمحاولته التوفيق بين فولتير وروسو . فقد مضى « نقد العقل الخالص » شوطاً أبعد حتى من فولتير فى الاعتراف بأن العقل الخالص لا يستطيع إثبات حرية الإرادة ،

أو الخلود ، أو الله . ولكن كانط كان قد وجد في تعاليم روسو — عن تهاافت العقل ، وأولية الوجدان ، وانبثاق الدين من الحس الأخلاقي للإنسان — مهزباً مستطاعاً من اللاإرادية ، والتحلل الخلقى ، وبوليس فولر . ورأى أن روسو أيقظه من « السبات العقائدى » فى الأخلاق كما أيقظه هيوم فى الميتافيزيقا ^(٥١) . فكان كتابه الأول فى النقد ينتمى إلى حركة التنوير ، والثانى إلى الحركة الرومانتيكية ، ومحاولة الجمع بين الإثنين كانت من أبرع الإنجازات فى تاريخ الفلسفة . وقد عزا هاينى المحاولة إلى الحرص على حاجات عامة الشعب : لقد رأى الأستاذ خادمه الأمين لآمبه يبكى على موت الله ، « فرق له قلب إيمانويل كانط ، وأثبت أنه ليس فيلسوفاً عظيماً فحسب ، بل إنساناً طيباً أيضاً ، وقال بمزيج من العطف والتهم : « يجب أن يكون للآمبه العجوز إله ، وإلا فلن يستطيع أن يكون سعيداً . . . أما من جهتي أنا فإن العقل العملى يستطيع أن يضمن وجود الله » ^(٥٢) .

٤ — نقد الحكم ، (١٧٩٠)

ولابد أن كانط نفسه كان غير راض عن براهينه ، لأنه فى كتابه « نقد الحكم » عاد إلى مشكلة الآلية مقابل الإرادة الحرة ، وتقدم إلى مشكلة الصراع بين الآلية والقصد ، وأضاف إليها مقالات معقدة فى الجمال ، والجلال ، والعبرية ، والفن . وهو مزيج لا يثير الشهية .

أما ملكة الحكم هذه ، « فهى عموماً ملكة التفكير فى الجزء على أنه محتوى فى الكل » ، وهى إدراج شئ أو فكرة أو حدث تحت صنف أو مبدأ أو قانون . لقد حاول كتاب « النقد » الأول أن يدرج جميع الأفكار تحت المقولات الكلية القبلية ، وحاول الثانى إدراج جميع المفاهيم الأخلاقية تحت حس أخلاقى قبلى كلى ، أما الثالث فاضطلع بالعثور على مبادئ قبلية لأحكامنا الجالية (لإستطبيقية) -- فى النظام أو الجمال أو الجلال فى الطبيعة أو الفن ، ^(٥٣) « أنى أجرؤ على الأقل فى أن تنهض صعوبة حل معضلة ، فى طبيعتها مثل هذا التعقيد ، عذراً يبرر بعض الغموض الذى لا يمكن تجنبه فى حلها » ^(٥٤) .

ان الفلسفة « الدجماطيقية » قد حاولت من قبل أن تجد عنصراً موضوعياً في الجمال ؛ أما كانط فيشعر أن هنا ، على الأخص ، يكون العنصر الذاتي هو الغالب . فليس هناك شيء جميل أو جليل إلا أن يجعله الوجدان كذلك . ونحن نصف بالجمال أى شيء يعطينا تأمله لذة منزهة — أى لذة مجردة من رغبة شخصية ؛ فنحن نستمد إشباعاً جمالياً ، وجمالياً فقط ، من غروب الشمس ، أو من لوحة لرفائيل ، أو كنتدرائية ، أو زهرة ، أو حفلة موسيقية ، أو أغنية . ولكن لم تعطينا أشياء أو تجارب يعينها هذه اللذة المنزهة ؟ لعل السبب أننا نرى فيها اتحاداً في الأجزاء يؤدي وظيفته بنجاح في كل متناسق . وفي حالة الجليل تلذنا العظمة أو القوة التي لا تهددنا بخطر ؛ وهكذا نشعر بالجلال في السماء أو البحر ، إلا إذا هددنا اضطرابهما بالخطر .

ويزداد تقديرنا للجمال أو الجلال بقبولنا الغائية — أى بتعييننا في الكائنات الحية موافقة أصيلة بين الأجزاء وحاجات الكل ، وبشعورنا بحكمة إلهية في الطبيعة وراء التناسق والانسجام ، والعظمة والقوة . ولكن العلم يهدف إلى عكس هذا تماماً — وهو أن يثبت أن الطبيعة الموضوعية كلها تعمل بقوانين ميكانيكية ، دون خضوع لأى قصد خارج عنها ، فكيف السبيل إلى التوفيق بين هذين المدخلين إلى الطبيعة؟ بقبولنا الآلية والغائية جميعاً بقدر ما تساعدنا كمبدئين موجّهين ، كفرضين ييسران الفهم أو البحث . فالمبدأ الآلى يساعدنا على الأخص في البحث في المواد غير العضوية ، أما المبدأ الغائى فهو خير عون لنا في دراسة الكائنات الحية . ففي هذه الكائنات قوى للنمو والثر الدتبعي التفسير الميكانيكى ؛ فهناك توفيق واضح بين الأجزاء وأغراض العضو أو الكائن ، كاستخدام الخالب القبض والعيون للإبصار . ومن الحكمة الإقرار بأنه لا الآلية ولا الغائية يمكن إثبات صدقهما صدقاً كلياً . والعلم نفسه ، بمعنى من المعانى ، هو غائى ، لأنه يفرض في الطبيعة ترتيباً ، وانتظاماً ، ووحدة معقولة ، « كأن » عقلاً إلهياً نظمها ويبقى عليها (٥٥) .

وقد اعترف كانط بالمصعوبات الكثيرة التي تعترض النظر إلى الإنسان

والعالم على أنهما حصيلة تدبير إلهي : « إن أول شيء كان يقتضى تدبيره بجلاء في نظام يوضع بحيث يحقق كلاً غائياً للكائنات الطبيعية على الأرض هو موطنها - التربة أو العنصر الذي يراد لها أن تزكو عليه أو فيه . ولكن التعمق في طبيعة هذا الشرط الأساسي للإنتاج العضوي كله يظهر أثراً لا يعلل إلا تلك التي تعمل دون غاية إطلاقاً ، بل تنزع في الواقع إلى التدمير دون أن يكون القصد منها تشجيع تكوين الأنواع والنظام والغايات . والبحر لا يحويان فقط آثار كوارث قديمة العهد هائلة حلت بهما وبكل ما زخر به من كائنات حية ، ولكن تكرينهما بجملته - طبقات اليابس وخطوط سواحل البحر - يحمل كل المظاهر الدالة على أنه نتيجة قوى عنيفة قهارة لطبيعة تعمل في فوضى» (٥٦) .

ومع ذلك أيضاً ، فإننا لو تخلينا عن كل فكرة في وجود هدف في الطبيعة لسلبنا الحياة كل معناها الأخلاقي ، فتصبح سلسلة حمقاء من ولادات مؤلمة وميتات معذبة ، ليس فيها للفرد وللأمة وللنوع شيء يؤكد إلا الهزيمة . فلا بد لنا من أن نؤمن بغاية إلهية ولو للاحتفاظ بسلامة عقولنا - وما دامت الغائية لا تثبت غير صانع مكافح بدلاً من خيرية إلهية كلية القدرة ، فلا بد إذن من أن نرسى إيماننا في الحياة على حس أخلاق لا يبرره غير الاعتقاد بأنه عادل . بهذه العقيدة نستطيع أن نعتقد - وأن كنا لا نستطيع أن نثبت بالبرهان - أن البار هو الغاية النهائية للخلقة ، وأنه أنبل ثمرة للتدبير العظيم الممغز (٥٧) .

٥ - الدين والعقل ١٧٩٣

لم يكن كانط قانعاً قط بلاهوته « كأي » المتردد . ففي ١٧٩١ ، في كتيب عنوانه « عن تهافت جميع المحاولات الفلسفية في الإلهيات » أعاد القول إن « عقلنا عاجز كل العجز عن تبصيرنا بالعلاقة بين العالم . . . والحكمة السامية » . وأضاف إلى هذا تحفظاً ، ربما لنفسه ، فقال : « على الفيلسوف ألا يلعب دور المحامي الخاص في هذا الأمر ؛ وعليه ألا يدفع عن أي قضية

يعجز عن فهم عدالتها، ولا يستطيع إثباتها بطرق التفكير الخاصة بالفلسفة» (٥٨)

ثم عاد الى المشكلة في سلسلة من المقالات أفضت به الى تحدى الحكومة البروسية تحدياً سافراً. وطبعت أولى هذه المقالات وعنوانها « في الشر المتأصل » في « مجلة برلين الشهرية » عدد أبريل ١٧٩٢ . وأذن الرقيب بنشرها على أساس أن « العلماء المتعمقين في التفكير هم وحدهم الذين يقرعون كتابات كانط » (٥٩) . ولكنه رفض نشر المقال الثاني « في الصراع بين مبادئ الخير والشر للسيطرة على الإنسان » . ولجأ كانط الى حيلة . ذلك أن الجامعات الألمانية كان لها امتياز اعتماد الكتب والمقالات للنشر ؛ فقدم كانط المقال الثاني والثالث والرابع الى كلية الفلسفة بجامعة يينا (وكان يشرف عليها آنشد جوته وكارل أوجست دوق فايمار ، ، وكان شيلر أحد أساتذتها) ، وأذنت الكلية بالنشر ، وبهذا طبعت المقالات الأربع كلها في كونيغزبرج عام ١٧٩٣ بعنوان « الدين في حدود العقل وحده » .

والسطور الأولى تعلن الفكرة الرئيسية السائدة فيها : « بقدر ما تبني الأخلاق على مفهوم الإنسان كفاعل حر ، هذا الإنسان الذي — بسبب حريته هذه — يتعamy بعقله عن رؤية القوانين غير المشروطة ، فإن هذه الأخلاق في غير حاجة الى فكرة كائن آخر من فوقه ليجعله يدرك واجبه ، ولا الى حافز غير القانون ذاته يجعله يؤديه . . . ومن هنا فإن الأخلاق من أجل ذاتها هي لا تحتاج الى دين على الإطلاق » (٦٠) . ويعد كانط بطاعة السلطات ، ويسلم بالحاجة الى الرقابة ، ولكنه يشدد على « ألا تسبب الرقابة أى اضطراب في مجال العلوم » (٦١) فغزو اللاهوت للعلم ، كما حدث في حالة جاليليو ، « قد يعطل جميع جهود العقل البشري . . . ويجب أن يتمتع اللاهوت الفلسفي بكامل الحرية على قدر ما يمتد إليه علمه » (٦٢) .

ويستنبط كانط مشكلات الأخلاق من وراثته الإنسان لنوازع الخير والشر . « لا حاجة لإقامة الدليل صورياً على أن نزعة الفساد لا بد متأصلة في الإنسان وذلك لكثرة الأمثلة الصارخة التي تضعها الخبرة أمام

أعيننا» (٦٣). وهو لا يوافق روسو على أن الإنسان يولد خيراً أو كان خيراً في «حالة الطبيعة» ، ولكنه يتفق معه في إدانة «رذائل الحضارة والمدنية» لأنها «أشد عيوب أذى» (٦٤) ، «والواقع أن هذا السؤال مازال بغير جواب ، وهو ، ألا تكون أسعد في حالة غير متحضرة . . . مما نحن في حالة المجتمع الراهنة» (٦٥) ما فيه من استغلال ونفاق وخلل أخلاقي وتقتيل بالجملة في الحرب. وإذا شئنا أن نعرف طبيعة البشر الحقيقية فيمكن أن نلاحظ سلوك الدول. ولكن كيف بدأ «الشر المتأصل في طبيعة البشر» ؟ . . انه لم يبدأ بسبب «الخطية الأصلية» ، «فلا ريب في أن أشد التفسيرات كلها سخفاً لذيوع هذا الشر وانتشاره في جميع أفراد وأجيال نوعنا هو التفسير الذي يصفه ميراثاً منحدراً إلينا من أبوين الأولين» (٦٦). وربما كانت النزاع «الشريرة» قد تأصلت في الإنسان تأصلاً قوياً لأنها كانت ضرورية للبقاء في الأحوال البدائية ، وهي لا تصبح رذائل إلا في المدنية — في المجتمع المنظم ، وفيه لا تحتاج إلى القمع بل إلى الضبط (٦٧) . «فالميلو الطبيعية ، إذا نظرنا إليها في ذاتها ، خيرة ، أي أنها لا تلام ، ومحاولة القضاء عليها ليست عديمة الجدوى فحسب ، بل ضارة ومستحقة للوم . والأولى أن نروضها ، وبدلاً من أن يصطدم بعضها ببعض يمكن أن ينسق بينها لتنسجم في كل يسمى السعادة (٦٨) . والخير الأخلاقي هو أيضاً غريزي ، كما يدل على ذلك الحس الأخلاقي في جميع الناس ، ولكنه في أول الأمر ليس إلا حاجة ، لا بد من تسميتها بالتعليم الأخلاقي والتهديب الشاق . وأفضل الأديان ليس الذي يفوق غيره في التمسك الدقيق بالعبادة الطقسية ، بل أعظمها تأثيراً في الناس ليجيوا حياة أخلاقية. (٦٩) . والدين القائم على العقل لا يبنى نفسه على وحى إلهي . بل على إحساس بالواجب يفسر على أنه أقدم عنصر في الإنسان (٧٠) . ومن حق الدين أن ينظم نفسه على هيئة كنيسة (٧١) . وله أن يحاول تحديد عقيدته بالأسفار المقدسة ، وأن يعبد . بحق ، المسيح بوصفه أعظم البشر شبيهاً بالله . وأن يعد بالجنة وينذر بالنار (٧٢) . و«لا يمكن تصور دين لا يحتوى على اعتقاد بحياة آخرة» (٧٣) . ولكن لا ينبغي أن يكون ضرورياً للمسيحي أن يؤكد إيمانه بالمعجزات ، أو بلاهوت المسيح ، أو بالتكفير عن خطايا البشر بصلب المسيح . أو بالحكم المقدر على الأرواح بالجنة

أو النار بالنعمة الإلهية تمنح دون نظر إلى الأعمال الصالحة أو الشريرة (٧٤) .
و « من الضروري أن نغرس بعناية بعض أشكال الصلاة في أذهان الأطفال
(الذين لا يزالون في حاجة إلى حرفة الدين » (٧٥) . ، ولكن صلاة
الضراعة « التي يتوسل بها لكسب النعمة الإلهية وهم خراف » (٧٦) .

أما حين تنقلب كنيسة ما مؤسسة لإكراه الناس على الإيمان أو العبادة ؛
و حين تزعم لنفسها الحق الأوحد في تفسير الكتاب المقدس وتعريف الأخلاقية ،
و حين تكون كهنتها يدعى لنفسه سبل الاتصال وحده بالله والنعمة الإلهية ؛
و حين تجعل من عبادتها مجموعة طقوس سحرية لها قوى معجزية ؛ و حين
تصبح ذراعاً للحكومة وأداة للطغيان الفكري ؛ و حين تحاول أن تتسلط
على الدولة وتستخدم الحكام العلمانيين مطاياا للطمع الكهنوتي . - عندها
يثور العقل الحر على كنيسة كهذه ، و يبحث خارجها عن ذلك الدين العقلي
الخالص ، الذي هو السعي لبلوغ الحياة الأخلاقية (٧٧) .

وقد تميز هذا الأثر الكبير الأخير من آثار كانط بالتذبذب والغموض
الطبيين في رجل لاولع له بحياة السجون . ففيه الكثير من الحشو « السكولاستي » ،
ويشوبه العجيب من تشقيقات المنطق ومن اللاهوت المفرق في الخيال . ومع
ذلك فالعجب العجيب في رجل بلغ التاسعة والستين ، أن يظل مبدئياً مثل
هذه القوة في الفكر والقول ، ومثل هذه الشجاعة في صراعه مع قوى الكنيسة
والدولة مجتمعة . وقد بلغ الصراع بين الفيلسوف والمملك ذروته حين (أول
أكتوبر ١٧٩٤) أرسل إليه فردريك وليم الثاني الأمر التالي الصادر من
المجلس الماكي :

« إن شخصتنا البالغ السمو قد لاحظنا طويلاً باستياء شديد كيف
تسعى استخدام فلسفتك لتقوض وتحط من قدر الكثير من أهم وألزم تعاليم
الأسفار المقدسة والمسيحية ، وكيف أنك على التحديد ، فعلت هذا في
كتابك « الدين في حدود العقل وحده » . . . ونحن نطالبك فوراً بجواب
غاية في النزاهة ، ونوقع أنك في المستقبل ، تجنباً لسخطنا الشديد ، لن
يبادر منك ما يسعى كهذا الذي بادر . بل على العكس فإنك طبقاً لمقتضيات

واجبك ستستخدم مواهبك وسلطتك لكي يتحقق هدفنا الأبوى أكثر فأكثر . أما إذا تماديت في المقاومة فلك أن تتوقع بالتأكيد أن نجر عليك المقاومة عواقب وخيمة» (٧٨) .

ورد كانط ردّاً ملؤه الاسترضاء . فذكر أن كتاباته لم يوجهها إلا للدارسين واللاهوتيين ، الذين ينبغي صيانة حرية تفكيرهم لصالح الحكومة ذاتها . وقال إن كتابه قد سلم بقصور العقل في الحكم على الأسرار النهائية للإيمان الديني . ثم اختتم بتعهد بالطاعة : « لأنني بوصفي خادماً لجلالاتكم المخلص كل الإخلاص أعلن هنا إعلاناً قاطعاً أنني منذ الآن سأمتنع كلية عن جميع التصريحات العلنية عن الدين ، الطبيعي منه والموحي ، سواء في المحاضرات ، أو المؤلفات . » فلما مات الملك (١٧٩٧) أحس كانط أنه في حل من وعده ؛ ثم أن فردريك وليم الثالث عزل فولنر (١٧٩٧) وألغى الرقابة ، وأبطل المرسوم الديني الصادر في ١٧٨٨ . وبعد هذه المعركة أجمل كانط نتائجها في كتيب سماه « صراع الملكات » (١٧٩٨) ، كرر فيه دعواه بأن الحرية الأكاديمية لا غنى عنها للنمو الفكري للمجتمع . ونحن إذا نظرنا إلى الأمر في جوهره ، تبين لنا أن الأستاذ القصير القامة ، القابع في ركن قصي من أركان المعهورة ، قد انتصر في معركته ضد دولة تملك أقوى جيش في أوروبا . وستنهار الدولة عما قريب ، ولكن ما وافي عام ١٨٠٠ حتى كانت كتب كانط أبلغ الكتب تأثيراً في حياة ألمانيا الفكرية .

٦ - المصلح

واعترل إلقاء المحاضرات في ١٧٩٧ (بعد أن بلغ الثالثة والسبعين) ، ولكنه واصل نشر المقالات في الموضوعات الحيوية حتى ١٧٩٨ . وظل على صلة بالشئون العالمية رغم عزلته . فلما اجتمع مؤتمر بازل عام ١٧٩٥ ليرتب صلحاً بين ألمانيا وأسبانيا وفرنسا ، اغتم كانط الفرصة (كما فعل من قبل الأبيه سان - بيير مع مؤتمر أوترخت في ١٧١٣) لينشر كراسة عنوانها « في السلام الدائم » .

وقد استهلها استهلالاً متواضعاً بوصفه « السلام الأبدى » شعاراً يليق
بجبانة الموتى ، وأكد للساسة أنه لا يتوقع منهم أن يروا فيه أكثر من مجرد
« معلم نظرى متحذلق عاجز عن إلحاق أى خطر بالدولة » .^(٧٩) وبعد أن نحى
مواد الصلح المبرم فى بازل جانباً باعتبارها مواد تافهة قصد بها مسيطرة
الظروف ، وضع بوصفه لجنة مؤلفة من رجل واحد — « ست مواد أولية »
تجمل الشروط الأساسية للسلام الدائم : فحرمت المادة الأولى جميع التحفظات
والملاحق السرية لأى معاهدة . وحظرت المادة الثانية على أى دولة أن
تستولى على أخرى أو تسيطر عليها . وطالبت المادة الثالثة بالتخلص تدريجياً
من الجيوش الدائمة . وذهبت المادة الرابعة إلى أنه لا يجوز لأى دولة
« أن تتدخل بالقوة فى دستور دولة أخرى » . وطالبت المادة السادسة كل
دولة تخوض حرباً مع أخرى بألا « تسمح بأعمال عدائية من شأنها أن تجعل
الثقة المتبادلة مستحيلة » ، فى حالة إبرام سلام فى المستقبل ، كالاستعانة
بالقتلة يغتالون أو يدسون السم والتحريض على الفتنة فى دولة العدو .

وإذ كان من غير المستطاع إبرام صلح طويل الأمد بين دول لا تعترف
بحدود لسيادتها ، فإنه لا بد من بذل الجهود الحثيثة لتطوير نظام دولى، وإيجاد بديل
للحرب بهذه الطريقة . ومن ثم وضع كانط بعض « المواد المحددة » للسلام
الدائم . أولاً ، « يجب أن يكون دستور كل دولة جمهورياً . ذلك أن الملكيات
والارستقراطيات تنزع إلى الحروب المتكررة ، إذ أن الحاكم والنبلاء هم
عادة فى مأمن من فقد أرواحهم وثرواتهم فى الحرب ، لذلك يبادرون إلى
خوضها بوصفها « تسلية للملوك » ؛ أما فى الجمهوريات « المواطنون هم
المسئولون عن قرار إعلان الحرب أو عدم إعلانها ، وهم الذين سيتحملون
العواقب » ، ومن ثم « فليس من المحتمل أن يغامر مواطنو دولة (جمهورية)
فى أى وقت بلعبة غالية التكلفة إلى هذا الحد »^(٨٠) . ثانياً « يجب أن يبنى
كل حق دولى على أساس اتحاد فدرالى بين الدول الحرة » ،^(٨١) وألا يكون
هذا الاتحاد دولة عظمى ، « فالواقع أن الحرب ليست سيئة سوءاً لابرء منه
كسوء الملكية العالمية »^(٨٢) . فينبغى أن يقرر كل شعب حكومته الخاصة

به ، ولكن على كل دولة بمفردها (على الأقل .. دول أوروبا) أن تتجمع في اتحاد كنفدرالى تفول له سلطة التحكم في علاقاتها الخارجية . والمثل الأعلى الذى لابد من التمسك به هو أن تمارس الدول القانون الأخلاقى الذى تطالب به مواطنيها . فهل يمكن أن تسفر مغامرة كهذه عن شر أعظم مما ينجم عن الممارسة الدائمة للخداع والعنف الدوليين؟ لقد راود كانط الأمل بأن مكيا فىللى سيثبت في نهاية المطاف أنه مخطيء ، وليس هناك من داع للتضارب بين الأخلاقية والسياسة ، ذلك أن « الأخلاق وحدها هى القادرة على قطع العقدة التى لا تقوى السياسة على فكها » (٨٣) .

وواضح أن كانط كان مخلوعاً في أمر الجمهوريات (التي شاركت بعد ذلك في أشنع الحروب قاطبة) ؛ ولكن ينبغي أن نقرر أنه كان يعنى بـ « الجمهورية » الحكومة الدستورية لا الديمقراطية الكاملة . فلقد كان عديم الثقة بالدوافع المتهورة التي تحفز رجالاً لا تكبحهم قيود (٨٤) ، وكان يخشى إطلاق حق التصويت للجميع باعتباره تسليطاً للأغلبية الجاهلة على الأقليات التقدمية والأفراد الخارجين على الإجماع (٨٥) . ولكن كانت تغيظه الامتيازات الموروثة ، وخيلاء الطبقة ، والفنية التي تطوق كونجربرج ، ورحب بالثورة الأمريكية التي أخذت ، في رأيه ، تكون اتحاداً فدرالياً من دويلات مستقلة ، على غرار النظام الذى اقترحه لأوروبا . وناصر الثورة الفرنسية بحماسة تقرب من حماسة الشباب ، حتى بعد مذابح سبتمبر وحكم الإرهاب .

ولكنه ، شأن أتباع التنوير جميعاً تقريباً ، آمن بالتعليم أكثر مما آمن بالثورة . في هذا المجال ، كما في مجالات كثيرة ، أحسن بتأثير روسو والحركة الرومانتيكية . « يجب أن نسمح للطفل منذ نعومة أظفاره بكامل الحرية من جميع النواحي . . . شريطة ألا يتدخل في حرية غيره » (٨٦) . على أنه تحفظ بعد قليل في هذه الحرية الكاملة ، وسلم بأن قدرأ من الضبط ضرورى في تكوين الخلق ؛ « فإهمال الضبط شر أعظم من إهمال الثقافة ، لأن إهمال الثقافة يمكن علاجه في الحياة فيما بعد » (٨٧) ، أما أفضل ضبط فهو العدل . وينبغي مطالبة الطفل به في جميع مراحل تعليمه . والتربية

الأخلاقية لا غنى عنها ، وينبغي أن تبدأ في مرحلة مبكرة . وإذ كانت الطبيعة البشرية تحتوى بذرة الخير والشر كليهما ، فإن كل تقدم أخلاقى رهن باقتلاع الشر وغرس الخير ، ولا يكون هذا بالثواب والعقاب ، بل بالتشديد على مفهوم الواجب » .

والتعليم الذى تقوم به الدولة ليس أفضل من التعليم الذى تقوم به الكنيسة ، فالدولة ستسعى إلى تكوين المواطنين المطيعين اللينين المتعصبين لوطنهم . والأفضل ترك التعليم للمدارس الخاصة التى يرأسها معلمون مستثمرون ومواطنون مشربون بروح الخدمة العامة (٨٨) . لذلك أشاد كانط بمبادئ ومدارس يوهاك بازروف . وأسف على ما تتسم به مدارس الدولة وكتبها المدرسية من تحيز للقومية ، وتطلع إلى زمن تعالج فيه جميع الموضوعات بحيدة ونزاهة . وفى ١٧٨٤ نشر مقالا بعنوان « أفكار لتاريخ عام من وجهة نظر عالمية » ؛ وقد أجمل المقال تقدم البشرية من الخرافة إلى التنوير ، ولم يفسح للدين إلا دوراً صغيراً ، وطالب مؤرخين يرتفعون فوق التعصب القوى .

وقد أدفأ فؤاده بالإيمان بالتقدم ، الأخلاقى منه والفكرى ، كما أدفأ جماعة الفلاسفة أثنتهم . فى ١٧٩٣ وبخ موسى مندلسون على قوله أن كل تقدم يلغيه تقهقر . « فى الإمكان الاستشهاد بأدلة كثيرة على أن النوع الإنسانى بوجه عام ، لاسيما فى زماننا بالقياس إلى الأزمنة السابقة كلها ، قد سار خطوات لا يستهان بها نحو حياة أفضل من الناحية الأخلاقية . ولا ينقض هذا القول حالات التوقف المؤقتة . وصراخ القائلين بأن النوع الإنسانى ينحط باستمرار منشؤه بالضبط أن المرء حين يقف على درجة أعلى من الأخلاقية يمتد بصره إلى مدى أبعد أمامه فيكون حكمه على حالة الناس كما هم ، بالقياس إلى ما ينبغي أن يكونوا ، حكماً أشد صرامة » (٨٩) .

فإنما بدأ كانط آخر عقد فى عمره (١٧٩٤) أصاب تفاؤله المبكر شىء من الإظلام . ربما بسبب الرجعية فى بروسيا وتحالف الدول على فرنسا . الثائرة . فاندلوى على نفسه ، وكتب سرّاً ذلك الأثر الذى نشر بعد وفاته ، والذى قدر له أن يكون وصيته الأخيرة للنوع الإنسانى .

٧ — بعد الموت

كان في بدنه من أضال الرجال في جيله حجماً — لا يجاوز طوله خمسة أقدام إلا قليلاً ، يزيده قصرأ تقوس إلى الأمام في عمره الفقرى . وكان يشكو ضعفاً في رثتيه ، ووجعاً في معدته ، ولم يطل عمره إلا بفضل تغذية منتظمة معتدلة . ومما يتفق وطبيعته أنه وهو في السبعين كتب مقالا عنوانه « في قدرة العقل على التحكم في الشعور بالمرض بقوة العزيمة » . وكان يؤكد على حكمة التنفس من الأنف ؛ فالمرء يستطيع التغلب على الكثير من نزلات البرد ، وغيرها من العثرات بإقفال فيه ^(٩١) . ومن ثم كان في مسيراته اليومية يمشى وحيداً تجنباً للحديث . ثم يمضى إلى فراشه بانتظام في العاشرة ، ويستيقظ في الخامسة ، ولم يستغرق في النوم إلى ما بعدها مرة على مدى ثلاثين عاماً (كما يؤكد لنا) ^(٩٢) . وقد فكر في الزواج مرتين ، ثم أحجم مرتين . ولكنه لم يكن عزوفاً عن عشرة الناس ؛ فقد اعتاد أن يدعو ضيفاً أو ضيفين ، غالباً من تلاميذه ، دون أى امرأة قط — لمشاركته غداءه في الواحدة بعد الظهر . وكان أستاذاً للجغرافيا ، ولكن ندر أن تحرك خارج كونيغزبرج ، ولم يرقط جبلاً ، ولعله لم ير البحر قط على قربه منه ^(٩٣) . وقد شد من أزره طوال محنة الفقر والرقابة عزة نفس لم تلن لإظهارياً لأى سلطان غير سلطان عقله . وكان كريم النفس سميحاً ، ولكنه صارم في أحكامه ، يفتقد روح الفكاهة الخلق بأن ينقذ الفلسفة من الغلو في الجدل . وكان حسه الأخلاقى أحياناً يبلغ من الرهافة حد التزمّت الذى يسىء الظن بكل اللذات حتى تثبت أنها فاضلة .

ولقد بلغ من قلة اكترائه بالدين المنظم أنه لم يختلف إلى الكنيسة إلا إذا اقتضته ذلك واجباته الجامعية ^(٩٤) . ويبدو أنه لم يصل قط في حياته بعد الرشد ^(٩٥) . روى هررد أن تلاميذ كانط بنوا شكوكيتهم الدينية على تعليم كانط ^(٩٥) . وقد كتب كانط إلى مندلسون يقول « صحيح حقاً أننى أفكر بأوضح اقتناع ، وبغاية الرضى ، في أشياء كثيرة ليس لدى الشجاعة أبداً على قولها ، ولكنى لا أقول أبداً أى شىء لا أعتقده » ^(٩٦) .

وكان حتى آخر سنى حياته يجاهد لتحسين عمله ، وفى ١٧٩٨ أخبر صديقاً : « إن العمل الذى أشغل به نفسى الآن يجب أن يتناول الانتقال من الأساس الميتافيزيقى للعلوم الطبيعية إلى الفيزياء . فلا بد من حل هذه المشكلة ، وإلا كان هنا فجوة فى نسق الفلسفة النقدية » .^(٩٧) ولكنه فى ذلك الخطاب وصف نفسه بأنه « قد عجز عن العمل الذهنى » . ودخل حقبة طويلة من اضمحلال البدن ، والأوجاع المتراكمة ، وشعور الوحشة الذى يصاحب شيخوخة العزب . ووافته المنية فى ١٢ فبراير ١٨٠٤ . ودفن فى كنيسة كوينزبرج ، فيما يعرف الآن بـ « ستواكانطيانا » ، (مثنى كانط) ونقشت على قبره كلماته « السماء المرصعة بالنجوم من فوقى ، والقاموس الأخلاقى فى باطنى » .

وقد خلف عند موته خليطاً كبيراً من الكتابات نشرت على أنها « أثر منشور بعد وفاة مؤلفه » فى ١٨٨٢ - ٨٤ . وفى إحداها وصف « الشيء - فى - ذاته » - الطبقة السفلية المجهولة من وراء الظواهر والأفكار - بأنه « ليس شيئاً حقيقياً ، . . . ولا حقيقة موجودة ، بل مجرد مبدأ . . . للمعرفة القبلية التركيبية للعيان - الحسى المتعدد^(٩٨) » . وقد سماه ... « أى شيئاً لا وجود له إلا فى فكرنا » . وقد طبق هذه الارتيازية ذاتها على فكرة الله :

« ليس الله جوهرأ موجوداً خارجى ، بل مجرد علاقة أخلاقية فى باطنى . . . والأمر المطلق لا يفترض جوهرأ يصدر أوامره من عل ، ويتصور إذن على أنه خارجى ، بل هو أمر أو نهى من عقلى أنا . . . والأمر المطلق يمثل الواجبات الإنسانية كأوامر إلهية لا بالمعنى التاريخى ، كأن (كائناً إلهياً) قد أصدر أوامراً للناس ، بل بمعنى أن العقل . . . له القدرة على الأمر بسلطة شخص إلهى وعلى هيئته . . . » « وصورة كائن كهذا ، يفتقر أمامه الجميع . . . الخ . تنبعث من الأمر المطلق ، وليس العكس . . . ان الكائن الأعلى . . . هو من خلق العقل . . . لا جوهر خارج عنى »^(٩٩) .

وهكذا انتهت الفلسفة الكانطية التي تشبثت بها المسيحية طويلا ، في ألمانيا ثم بعدها في إنجلترا ، باعتبارها آخر وأفضل أمل للألوهية ، بتصوير كتيب لله يراه خيالا نافعا نماه العقل البشرى ليفسر المطلقة الواضحة للأوامر الأخلاقية .

أما خلفاء كانط الذين كانوا يجهلون هذا الأثر الذى خلفه بعد موته ، فقد أشادوا به منقاد المسيحية ، والبطل الألمانى الذى قتل فولتير ؛ وغلوا في تمجيد إنجازه غلوا غلب تأثيره على تأثير أى فليسوف من المحدثين . وتنبأ أحد تلاميذه وهو كارل رانيهولت بأنه لن يمضى قرن حتى تنافس شهرة كانط شهرة المسيح ^(١١) . وقبل الألمان البروتستنت كلهم (باستثناء جوته) زعم كانط بأنه أحدث « ثورة كوبرنيقية » في علم النفس : فبدلا من أن يكون الفكر (الشمس) هو الذى يدور حول الشئ (الأرض) ، جعل الأشياء تدور حول الفكر ، ويعتمد عليه . وقد أراضى غرور الدات الإنسانية أن يقال لها إن أساليبها الفطرية في الإدراك الحسى هى المقومات المحددة لعالم الظواهر . وخلص فشبه (حتى قبل وفاة كانط) إلى أن العالم الخارجى من خلق العقل ، واستهل شوبنهاور — الذى قبل تحليل كانط — بحثه الضخم « العالم كإرادة وفكرة » بهذا الإعلان « إن العالم فكرتى » — وهو إعلان أثار بعض الدهشة في مدام دستال .

واغضب المثاليون لأن كانط كان قد جعل المادية مستحيلة منطقياً ببيان أن العقل هو الحقيقة الوحيدة المعروفة لنا مباشرة . وسعد الصوفيون لأن كانط كان قد قصر العلم على الظواهر ، وأقصاه عن العالم النومينى والحقيقى حتماً ، وترك هذه المماكة الغامضة (التى أنكر فى دخيلة نفسه وجودها) متنزهاً خاصاً للاهوتيين والفلاسفة . أما المييتافيزيقا ، التى كان جماعة « الفلاسفة » الفرنسيين قد أقصوها عن الفلسفة ، فقد رد لها اعتبارها حكماً للعلوم كلها ، وأقر جان بول لاشتيير لألمانيا بسيادة الهواء ، بعد أن أقر لبريطانيا بسيادة البحر ، ولفرنسا بسيادة اليابس . وبنى فشته وشيلنج وهيجل القلاع المييتافيزيقية على مثالية كانط الترانسندنتالية ، وحتى رائعة شوبنهاور اتخذت نقطة انطلاقها

من تشديد كانط على أولوية الإرادة . قال شيلر « انظر كيف هيأ غنى واحد أسباب الرزق لمجموعة من المتسولين » (١١١) .

كذلك أحس الأدب الألماني هو أيضاً تأثير كانط سريعاً ، لأن فلسفة عصر تكون على الأرجح أدب العصر الذي يليه . ففرق شيلر برهة في مؤلفات كانط ، وكتب خطاباً ملؤه الإجلال للمؤلف ، وبلغ في مقالاته الثرية غموضاً يقرب من الغموض الكانطي . وأصبح الإبهام واللبس موضة فاشية في الكتابة الألمانية ، وشعار نبالة يشهد بعضوية حامله في تلك الطائفة العتيقة ، طائفة نسايجي خيوط العناكب . قال جوته « إن التأمل الفلسفي ، على العموم ، أذى للألمان ، لأن من شأنه أن يجعل أسلوبهم غامضاً عسيراً مهجاً . وكلما قوى تعلقهم بمدارس فلسفية بعينها ازدادت كتابتهم سوءاً » (١١٢) .

ويتردد المرء في اعتبار كانط كاتباً رومانتيكياً ، ولكن الفقرات الأدبية الغائمة التي كتبها في الجبال والجلال غدت من الينابيع التي انبثقت منها الحركة الرومانتيكية . ولقد انبعثت محاضرات شيلر فيينا « ورسائله في تربية الإنسان الاستطيقية » (١٧٩٥) — وهي معالم على طريق تلك الحركة — من دراسته كتاب كانط « نقد الحكم » . وقد هيأ التفسير الدقيق النزعة لنظرية كانط في المعرفة أساساً فلسفياً لمذهب الفردية الرومانتيكية الذي نشر لواءه مزهوآ في حركة « شتورم » (الزوبعية) . وعبر تأثير كانط الأدبي إلى إنجلترة ، فثأثر به كولبرج وكارليل ، ثم عبر إلى إنجلترة الجديد ، وأعطي اسماً لحركة إمرسن وثورو — الترانسندنتالية (١١٣) . لقد هز أستاذ الجغرافيا القصير القامة المحدودب الظهر العالم وهو يطلأ أرض « متهزه الفيلسوف » في كونيجزبرج . وما من شك في أنه قدم للفلسفة وعلم النفس أشق ما عرفه التاريخ إلى الآن من تحليل لعملية المعرفة .

الفصل الثاني والعشرون

الطرق إلى فايمار

١٧٣٣ - ٨٧

١ - أثينة ألمانيا

ترى لم أختار اسمى عبور الأدب الألماني فايمار دون غيرها وطناً له ؟
ان ألمانيا لم يكن لها عاصمة واحدة تركز فيها ثقافتها كما كانت الحال في
فرنسا وإنجلترا ، ولم تكن تملك ثروة مركزة لتمويل هذه الثقافة . وكانت حرب
السنين السبع قد أضعفت برلين وليپزج ، أما درسدن فكادت تدمرها
تدميراً ؛ وأما همبورج فقد بذلت مالها أولاً للأوبرا ، ثم للمسرح . وفي
١٧٧٤ كانت فايمار ، عاصمة دوقية ساكسي - فايمار - آيزيناخ ، بلدة
هادئة يسكنها نحو ٦,٢٠٠ نسمة ، وحتى بعد أن ذاع صيتها أشار إليها
جوته بـ « هذه العاصمة الصغيرة التي تضم - كما يقول الناس على سبيل
المزاح عشرة آلاف شاعر وبعض السكان » ^(١) فهل مجدها يا ترى بناه
افراد عظام ؟ .

لقد حكمت فايمار من ١٧٥٨ إلى ١٧٧٥ ابنة أخت فردريك الأكبر ،
وهي المرأة المرحمة ، الدوقة الأرملة آنا أماليه ، التي تزلت وهي في الثامنة
عشرة بموت زوجها الدوق قسطنطين ، وأصبحت وصية على ولدهما كارل
أوجست الذي لم يتجاوز العام الواحد . وإليها يرجع الفضل في فتح باب بين
الحكومة والأدب بدعوتها فيلاند للحضور والقيام على تهذيب أبنائها (١٧٧٢) .
وكانت واحدة من نساء عديدات مثقفات حفزن الشعراء والمسرحيين

والمؤرخين تحت قيادتها وحتى موتها في ١٨٠٧ بإغراء الجنس والمديح ، وقد حولت بيتها بعد عام ١٧٧٦ صالوناً ، شجعت فيه استعمال الألمانية لغة للأدب — رغم أن الجميع كانوا يتكلمون الفرنسية أيضاً .

وفي ١٧٧٥ كان بلاط فايمار يضم نحو اثني عشر شخصاً واتباعهم . وقد وجد الشاعر الكونت كرسنتيان تسوشتولبرج في هذا البلاط جوّاً ساراً خالية من الكلفة في ذلك العام الذي وصل فيه جوته . يقول « إن الدوقة العجوز (وكانت يومها في السادسة والثلاثين) هي الفطنة المجسمة ، وهي مع ذلك لطيفة وطبيعية جداً . أما الدوق فغلام عجيب ، كله وعد وتبشير ، وكذلك أخوه . ثم هناك الكثير من الأشخاص الممتازين » .^(٢) وفي ١٧٨٧ وصف شيلر « نبيلات فايمار » بأنهن « شديداً الحساسة وقل أن تجد بينهن واحدة لم تخض تجربة غرام ، وجميعهن يحاولن غزو القلوب . . . فهنا حكرمة هادئة لا تكاد تحس بها ، تسمح لكل إنسان بأن يحيا ، وأن يصطلي في الهواء والشمس . وإذا كان بالمرء ميل إلى المرح فكل الفرص متاحة له »^(٣) .

وتقلد كارل أوجست حكم الدوقية في ٣ سبتمبر ١٧٧٥ حين بلغ الثامنة عشرة . وما لبث أن اتخذ له زوجة بعد أن أجرى معاشاً على خليلته^(٤) ، والزوجة هي لويزه أميرة هسي — دارمشتات ، ثم اقتنص جوته في الطريق ، وكان يمارس الصيد في ضراوة ، ويسوق مركبته في تهور مخترقاً شوارع المدينة الهادئة ، ويتنقل على عجل بين النساء ؛ ولكن تهوره كبحه عقل نصيح ببطء حتى بلغ القدرة على الحكم الصائب . وقد درس الزراعة والصناعة وبسط رعايته عليهما ، وشجع العلوم ، وأعان الأدب ، وجاهد لخير إمارته وشعبها . واستمع إلى مدام دستال التي جابت ألمانيا في ١٨٠٣ تقول : « ليس بين الإمارات الألمانية كلها إمارة تشعرنا أكثر من فايمار بمزايا الدويلة حتى يكون أميرها رجلاً قوى الفهم قادراً على السعي لإسعاد جميع طبقات رعاياه دون أن يفقد شيئاً من طاعتهم . . . ومواهب الدوق الحربية يحترمها الجميع ، وحديثه المثير المشرب بالتفكير يذكرنا على الدوام بأنه ربيب فردريك

العظيم . ولسمعته وسمعة أمه الفضل في اجتذاب ألمع رجال العلم والثقافة إلى فايمار . ولأول مرة أصبح لألمانيا حاضرة أدبية كبرى»^(٥) .

٢ — فيلاند : ١٧٣٣ — ١٧٧٥

كرستوف مارتن فيلاند هو أقل الرجال الأربعة ، الذين أذاعوا صيت فايمار ، شهرة بين الناس ، ولكن لعله كان أجدرهم بالحب . وقد عزفت على قيثارته كل مؤثرات جيله تقريباً ووفقت نغماتها كل بدوره . كان ابناً لراعى كنيسة في أوبرهولتسهايم (قرب بيراخ في فورتمبرج) فنشئ على التقوى واللاهوت . فلما اكتشف الشعر جعل الرجل الفاضل كلوبشتوك مثله الأعلى ، ثم تحول إلى فولتير ترفهاً عن نفسه . ثم وجد في بلدة فارتهاوزن القريبة منه مكتبة الكونت فون شتاديون الضخمة ، فهل من الأدبين الفرنسي والانجليزى ، ونفض عنه قدراً كبيراً من اللاهوت ، حتى لقد هزأ بإيمان صباه في رواية سماها « دون سلفيو فون روزالفا » (١٧٦٤) . ونشر مترجمات نثرية لعشرين من مسرحيات شكسبير (١٧٦٢ — ٦٦) ، فأتاح بذلك لألمانيا لأول مرة نظرة إلى شكسبير ككل ، ويسر لكتاب التمثيلات الألمان مهرباً من الصيغة الكلاسيكية التي اتخذتها الدراما الفرنسية . وكان فنكلمان وآخرون أثناء ذلك يبشرون بالدعوة بالهيلينية ، وصاغ فيلاند لنفسه صورته الخاصة من هذه الدعوة فاتخذ نغمه أبيقورية خفيفه في كتابه « قصص هزلية » (١٧٦٥) ، وجعل رجلاً اغريقياً وهمياً البطل لأهم عمل نثرى ألفه وهو « تاريخ أجاثون » (١٧٦٦ — ٦٧) ، الذى وصفه ليسنج بأنه « الرواية الوحيدة اللائقة بالرجال المفكرين »^(٦) .

وقد أراد فيلاند (البالغ ثلاثة وثلاثين عاماً) في صفحاتها المطوطة أن يبسط فلسفته في الحياة ، متمثلة في المغامرات الجسدية والعقلية لرجل أثينى من عصر بركليس . قال في المقدمة « لقد اقتضت خطتنا تصوير بطلنا وهو يجتاز شتى الحن » ، وهى محن من شأنها أن تربي الإنسان على الأمانة والحكمة دون الالتجاء إلى الخوافز أو الدعائم الدينية^(٧) . وأجاثون (أى الطيب) ،

(م ١٦ — قصة الحضارة ، ج ٤١)

الشباب الوسيم ، يقاوم محاولة إحدى كاهنات دلفى لإغوائه ، وبدلاً من ذلك يشعر نحو العذراء الساذجة « بسوخى » (الفس) بحب نقي وإن كان مشوباً . ويدخل عالم السياسة ، فيشتمز من تعصب الأحزاب ، ويندد بالناخبين لافتقارهم إلى المبدأ ، ثم ينفي من أثينا. وفيما هو يهيم في جبال اليونان يقع على لفيف من النسوة التراقيات يحتفان بعيد باخوس برقصات شهوانية عنيفة ؛ فيحسبهن باخوس ، ويكدن يخنقنه بعناقهن ، ثم تنقله عصابة من القراصنة ، تبعه عبداً في أزмир لهيباس ، وهو أحد سوفسطائي القرن الخامس ق . م . ويشرخ فيلاند فلسفة السوفسطائيين في سخط فيقول :

« ان الحكمة التي جعل منها السوفسطائيون مهنة لهم كانت من حيث الكيف كما كانت من حيث الأثر النقيض للحكمة التي جهر بها سقراط . فالسوفسطائيون علموا فن إثارة أهواء الرجال (بالخطابة) ؛ بينما غرس سقراط فن سيطرة الإنسان على أهوائه . وقد بينوا كيف يظهر الإنسان أمام الناس حكيماً فاضلاً ، أما هو فقد بين كيف يكون الإنسان كذلك . وهم شجعوا شباب أثينا على محاولة السيطرة على الدولة ، أما هو فبين لهم أنهم سينفقون نصف عمرهم ليتعلموا كيف يحكمون ذواتهم . وكانت فلسفة سقراط تفخر بالحياة مجردة من الغنى ، أما فلسفة السوفسطائيين فكانت تعرف كيف تحقق الغنى . كانت كيسة ، خلافاً ، متقلبة ، مجدت العظماء . . . وعيشت بالنساء ، وتملقت كل شخص ينقدها ثمن التماق . كانت في كل مكان لاثمس الغربية ، لها الحظوة في البلاط ، وفي مخادع النساء ، ومع الطبقة الارستقراطية ، وحتى مع طبقة الكهان ، في حين أن تعاليم سقراط . . . يحكم عليها الفضوليون بأنها عدمة النفع ، والمتبطلون بأنها عدمة المذاق ، والأتقياء بأنها خطيرة . » (٨)

وتجمل في هيباس كما يصوره فيلاند كل أفكار السوفسطائيين ورذائلهم . فهو فيلسوف ، ولكنه حرص على أن يكون مليونيراً أيضاً . وهو يعتزم

أن ينشئ أجاثون المستقيم الخلق على أسلوب أبيقورى فى التفكير والعيش .
ويزعم أن أحكم سياسة ينتهجها الإنسان أن يجرى وراء الأحاسيس اللذيذة ،
و « كل اللذات هى فى حقيقتها حسية » ^(٩) . وهو يضحك من أولئك الذين
يحرمون أنفسهم من لذات هذه الحياة الدنيا أملاً فى مباحج السماء التى قد
لا تتحقق أبداً . « فمن ذا الذى رأى مرة أولئك الأرباب ، وتلك المخلوقات
الروحانية ، التى يؤكد (الدين) وجودها ؟ » فهذا كله حيلة يخادعنا بها
الكهنة ^(١٠) . ويدين أجاثون هذه الفلسفة لأنها تتجاهل العنصر الروحي
فى الإنسان وحاجات النظام الاجتماعى . ويقدمه هيباس إلى دانائى المرأة
الغنية الجميلة ، ويشجعها على اغوائه ، ويخفى عنه ماضى دانائى حين كانت
محظية . وترقص المرأة وتحمل أجاثون رشاقة جسدها مع سحر حديثها
وموسيقى صوتها على أن يقدم لها حبه الخالص الطاهر . وتفسد دانائى على هيباس
مؤامراته إذ ترد حب أجاثون بمثله . ذلك أنها بعد أن تقلبت فى أحضان
رجال كثيرين تجد تجربة وسعادة جديدتين فى حب أجاثون . وهى تتطلع
إلى أن تبدأ مع أجاثون حياة جديدة أكثر طهراً بعد أن سئمت غرامياتها
العدمة العاطفة . فتشتريه من هيباس ، وتعته ، وتدعوه لمقاسمتها ثروتها ،
ولكن هيباس ييوح لأجاثون بـماضى دانائى وهى محظية انتقاماً منها . فيركب
أجاثون البحر إلى سيراكيوز .

وهناك يكتسب سمعة طيبة بالحكمة والنزاهة ، فيصبح الوزير الأول
للدكتاتور ديونيسيوس . وقد تخلى الآن عن بعض مثاليته :

« فلم يعد يحلم كما كان بتلك المثاليات الرفيعة عن طبيعة البشر . أو قل
لأنه انتهى إلى معرفة البون الشاسع بين الإنسان الميثافيزيقي ، الذى يفكر فيه
المرء أو يحلم به فى خلونه المتأمل ، أو الإنسان الفطرى وهو خارج لتوه فى
بساطته الفجة من يدى الطبيعة الأم ، وبين الإنسان الزائف الذى جعله
المجتمع والقوانين والآراء والحاجات والتبعية والصراع المتصل بين رغباته
وظروفه ، وبين مصلحته ومصلحة غيره ، وما يترتب على ذلك من
ضرورة إخفاء مقاصده الحقيقية وسترها باستمرار — أقول إن هذا كله

جعل الإنسان كاذباً ، منحطاً ، مشوهاً ، متذكراً وراء مئات الصور الخداعة وغير الطبيعية . ولم يعد ذلك المتحمس ، الفتي الذى كان يخيل له أن تنفيذ مشروع عظيم سهل يسير كتصوره . وقد تعلم أن على المرء ألا يتوقع الكثير من الآخرين ، وألا يعتمد كثيراً على تعاونهم معه ، و(أهم من ذلك كله) ألا يثق كثيراً بنفسه . . . وتعلم أن أكثر الخطط كمالاً هى فى الغالب أسوأها (وأنه) لاشيء فى العالم الأخلاقى ، كما فى العالم المادى ، يتحرك فى خط مستقيم ، وبالاختصار أن الحياة أشبه برحلة بحرية يتعمق فيها على الربان أن يكيف مسيره وفق هوى الريح والجو ، ولا يطمئن أبداً إلى أن التيارات المعاكسة لن تعطله أو تنجح بمركبه ، وأن كل شيء رهن بهذا : وهو أن يضع نصب عينيه ميناء الوصول الذى يقصده رغم مئات الانحرافات عن الطريق » (١١) .

ويخلص أجاثون الخدمة لسيراكيوز وينجز بعض الإصلاحات ، ولكن مؤامرة فى القصر تخلعه ، فيعتزل فى تارنتوم . وهناك يرحب به صديق قديم لأبيه هو الفيلسوف والعالم الفيثاغورى أرخيتاس (ازدهر ٤٠١ - ٣٦٥ ق . م) الذى يحقق حلم أفلاطون بالملك الفيلسوف . وهناك يعثر على حبيبة صباه بسونخى ، ولكنها الأسف متزوجة من ابن أرخيتاس ، ثم يتبين أنها أخت أجاثون . على أن دانائى يؤتى بها (بعصا الرواى السحرية) من أزمير إلى تارنتوم ، وقد هجرت عاداتها الأبيقورية لتحيا حياة العفة والبساطة . ويطلب إليها أجاثون أن تغفر له بعد أن أدرك أنه أثم بهجرانه أياها ، فتعانقه ، ولكنها ترفض الزواج منه ، فقد عولت على التكفير عن انحرافات الماضى بحياة الزهد والتعفف فى ما بقى لها من أجل . وتختتم القصة بأجاثون قانعاً قناعة لا تصدق بأن يعد المرأتين أختين له ٥

والكتاب تشوبه عشرات المآخذ . فبناؤه مفكك ، ومصادفاته ذرائع كسولة للتهرب من الصنعة الروائية ؛ وأسلوبه لطيف ولكنه شديد الاطناب ؛ وفى كثير من الفقرات يبتعد الفاعل عن الفعل حتى ينسى ؛ وقد هنا أحد النقاد المؤلف بعيد ميلاده بأن تمنى له حياة طويلة طول جملة . ولكن « تاريخ

أجاثون» برغم هذا يعد من أعظم آثار عصر فردريك . وقد دلت استنتاجاته على أن فيلاند قد اصطالح مع الدنيا ، وأن في الاستطاعة الآن أن يوكل إليه تعليم الشباب المندفع المتوتر وترويضه . فعين في ١٧٦٩ أستاذاً للفلسفة في إيرفورت . ومنها أصدر بعد ثلاث سنين « المرأة الذهبية » وهو كتاب بسيط فيه أراءه في التربية . وأفتنت به آنا آماليا ، فدعته ليحرب نظرياته التربوية مع أبنائها . فذهب ، وأنفق ما بقي من عمره في فامار ، وفي ١٧٧٣ أنشأ مجلة (الرايد الألماني) ، التي ظلت جيلا (١٧٧٣ - ٨٩) تحت قيادته أعظم المجلات الأدبية نفوذاً في ألمانيا . وكان النجم الفكري لفامار حتى أتى جوته ، وحين اقتحم الكاتب الشاب الجريء المدينة في ١٧٧٥ ، رحب به فيلاند دون شعور بالغيرة . وسيظل صديقه مدى ست وثلاثين سنة .

٣ - جوته بروميشيوس : ١٧٤٩ - ٧٥

١ - نشأته

تقلبت على يوهان فولفجانج فون جوته شتى التجارب منذ كان محبوب شوارع فرانكفورت - على - المين وهو واع بأنه حفيد عمدها ، حتى سبعينياته التي كان لأحاديثه العارضة فيها الفضل في إذاعة اسم كاتب سيرته إكerman (كما أذاع جونسون اسم بوزويل) ، واستوعب كل ما وسع الحياة والحب والرسائل ان تمنحه ، راداً إياه - في عرفان - حكمة وفنا .

وكانت فرانكفورت « مدينة حرة » ، يسودها التجار والأسواق ، ولكنها إلى ذلك المقر الذي خصصه الأباطرة لتتويج الملوك الألمان وأباطرة الدولة الرومانية المقدسة . وفي ١٧٤٩ كان يسكنها ٣٣,٠٠٠ نسمة جلهم تقي مهذب بشوش الوجه . وكان مولد جوته في منزل متين ذي طوابق أربعة (دمره حريق في ١٩٤٤ ثم أعيد بناؤه في ١٩٥١) . وكان أبوه يوهان كاسبار جوته ابن خياط وفندقي ميسور الحال ، وقد دمر يوهان كاسبار مستقبله السياسي بالكبر والخيلاء ، واعتزل مهنة المحاماة مؤثراً حياة الدراسة الهاوية في مكتبته

الأنيقة . وفي ١٧٤٨ تزوج كاتارينا اليزابث ، ابنة يوهان فولفجانج تكستور عمدة فرانكفورت . ولم ينس ابنها قط أنه عن طريقها ينتسب إلى الإشراف من غير حملة الألقاب ، الذين حكموا المدينة أجيالا قبل ذلك . قال لأكرمان وهو في الثامنة والسبعين ، « نحن أشراف فرانكفورت كنا نعد أنفسنا دائماً مساوين لطبقة النبلاء ؛ وحين احتوت يداي لإجازة النبالة (التي منحت له عام ١٧٨٢) لم أر أني ظفرت بشيء أكثر مما كنت أملك منذ زمن طويل » . (١٢) وكان يحس أن « الأوغاد فقط هم المتواضعون » (١٣) .

وكان أكبر أطفال ستة ، لم يتجاوز الطفولة منهم غيره هو وأخته كورنيليا ؛ في تلك الأيام كان الحنان الأبوى الكبير يعد عناء باطلا . ولم يكن بيتهم بالبيت السعيد ؛ فالأم لطيفة الطبع تميل إلى الفكاهة والشعر ، ولكن الأب حاكم صارم منزمت أقصى عنه قلوب أطفاله بخشونة طبعه وضيق خلقه . يقول جوته مستعيداً ذكرى طفولته « لم يكن في الإمكان نمو علاقته سارة مع أبي » (١٤) . وربما اكتسب جوته منه كما اكتسب من تجربته عضواً في مجلس شورى الدوق بعض التصلب الذي بدا عليه في أخريات حياته . وربما أخذ عن أمه روحه الشاعرة وحبه للدراما . وقد بنت في بيتها مسرحاً للعرائس ؛ ولم يفق ابنها قط من افتتاحه بهذا المسرح .

وتلقى الأطفال تعليمهم المبكر على يد أبيهم ، ثم من معلمين خصوصيين . واكتسب فولفجانج الإلمام بقراءة اللاتينية واليونانية والانجليزية وبعض العبرية ، والقدرة على التحدث بالفرنسية والإيطالية . وتعلم أن يعزف على الهاربسيكورد والفيولنشيلا ، ويرسم ويصور بالألوان ، ويركب الخيل ويثاقف ويرقص ، ولكنه اتخذ الحياة خير معلم له . فارتاد كل نواحي فرانكفورت بما فيها حتى اليهود ؛ وسدد النظرات الغرامية للفتيات اليهوديات الحسن ، وزار مدرسة يهودية ، وحضر حفلة ختان ، وكون لنفسه فكرة عن أيام اليهود المقدسة (١٥) . وأضافت إلى تعليمه أسواق فرانكفورت إذ جلبت إلى المدينة وجوهاً وسلعاً غريبة دخيلة ، وكذلك أضف الضباط الفرنسيون في بيت جوته إبان حرب السنين السبع . وفي ١٧٦٤ شهد الصبي ذو الخمسة

عشر ربيعاً تتويج بوزف الثانى ملكاً على الرومان ؛ وقد حفظ كل صغيرة وكبيرة فى الحفل ، وانفق عشرين صفحة على وصفه فى سيرته الذاتية^(١٦) .

وحين ناهز الرابعة عشرة وقع فى أول غرام من غرامياته الكثيرة التى أثمرت نصف شعره . وكان فى تلك الآونة قد اشتهر ببراعته فى قرض الشعر ، فطلب إليه بعض الصبية من اختلط بهم أحياناً أن يكتب خطاباً منظوماً بأسلوب فتاه موجهاً إلى فتى ؛ فأحسن كتابته ، مما حملهم على أن يرتبوا تسليمه لعضو مقيم من جماعتهم على أنه مرسل إليه من حبيبته . وأراد الصبي أن يرد على الشعر بالشعر ولكن أعوزته الكفاية وخاتته القوافى ، فطلب إلى جوته أن ينظم له رداً . فوافق ، وعرفاناً بحميله دفع العاشق نفقات نزهة خرجت فيها الجماعة إلى فندق فى إحدى ضواحي المدينة . وكانت الخادمة صبية مراهقة تدعى مرجريته — أو جرتشن اختصاراً ، وقد أطلق جوته اسمها على بطاقة تمثيليته « فاوست » . وربما هيأته القصص الغرامية التى قرأها ، والرسائل التى كتبها ، لتذوق سحر الأنوثة فى الصبايا . كتب وهو فى الستين يقول « إن أول نوازع الحب فى شاب غشيم يتجه اتجاهاً روحياً بحثاً . ويبدو أن الطبيعة ترغب فى أن يدرك أحد الجنسين بحواسه الجمال والطيبة فى الجنس الآخر . وهكذا تكشف لى عالم جديد من الجميل والرائع بمرأى هذه الفتاه وبمبلى الشديد لها » .^(١٧) ولم يفقد ذلك العالم بعدها قط ؛ فكانت المرأة بعد المرأة تحرك روحه الحساسة ، وتحركها غالباً بالتبجيل كما تحركها بالرغبة ؛ فحين كان فى الثالثة والسبعين وقع فى غرام فتاه فى السابعة عشرة .

وغلبه الارتباك لحظة وأعجزه عن التحدث إلى ساحرته . « ذهبت إلى الكنيسة مدفوعاً بحبى لها . . . ورحت خلال الخدمة البروتستنتية الطويلة أحلق فيها بملء عيني » .^(١٨) ثم رآها ثانية فى فندقها جالسة فى المغزل . كما جلست جرتشن أخرى فى فاوست . واتخذت هى الخطوة الأولى الآن ، ووقعت فى ابتهاج الخطاب الغرامى الثانى الذى اصطنعه كأنه مرسل من فتاة . ثم قبض على واحد من الجماعة كان جوته قد أوصى جده به ، وهو يزيف سندات ووصايا ؛ فنهى فولفجانج أبواه عن مزيد من الاتصال بهؤلاء

الصبية ، ورحلت جرتشن إلى مدينة بعيدة ، ولم يرها جوته بعدها قط . وقد تضايق كثيراً حين علم أنها قالت « كنت أعامله دائماً على أنه طفل » (١٩) .

وكان الآن (١٧٦٥) راضياً تمام الرضى بالرحيل عن فرانكفورت ودراسة القانون في جامعة ليزج ، وراح ككل شاب طلعة يقرأ قراءات واسعة خارج الموضوعات المقررة لدراسته . وكان قد تصفح « قاموس بيل التاريخي النقدي » في مكتبة أبيه ، وخرج منه بأذى كبير لإيمانه الديني ، « ما إن وصلت إلى ليزج حتى حاولت أن أتحرق كلية من صلتى بالكنيسة » (٢٠) . ثم أنفق فترة في التنقيب في الغيبات والخيمياء وحتى السحر ، وهذا أيضاً دخل في مسرحية « فاوسمت » . ثم جرب الحفر وصنع الرواسم من الخشب ، ودرس مجموعة الصور المعروضة في درسدن ؛ وتكررت زيارته للمصور أويزر في ليزج . وقد ألم بكتابات فنكلمان بطرية أويزر ، وعن هذه الكتابات وكتاب ليسنج « اللاوكون » تلقى أولى نفحات إجلاله للطراز الكلاسيكي ، وكان هو وطلاب آخرون يعدون استقبالا حاراً لفنكلمان في ليزج حين وافاهم نبأ مصرعه في تريست (١٧٦٨) .

وكان الإحساس بالجمال هو الغالب في مدخله إلى العالم . ففي الدين لم يحب غير أسرار المقدسة ، المثيرة ، الغنية بالألوان ، ولم يحب الفلسفة كما كتبها الفلاسفة ، باستثناء سبينوزا ؛ وكان يرتعد من المنطق ويهرب من كانط . وقد أحب الدراما ، وكتب مسرحية لا قيمة لها في ليزج ، ودأب على قرض الشعر كل يوم تقريباً ، حتى وهو يستمع إلى محاضرات القانون ، والقصائد التي نشرها باسم « أغاني ليزج » مكتوبة بأسلوب أناكريون ، فيها عبث ولهو ، وأحياناً إثارة وشبق :

ومع ذلك فأنا قانع تملؤني الفرحة
إن هي جادت فقط ببسمتها الحلوة ،
أو إن استعملت وهي على المائدة
قدمي حبيبها وسادة لقدميها ؛

أو أعطتني التفاحة التي قضمتها ،
أو الكأس التي شربت منها ،
وكشفت عن ثديها المكشون
حين تنشد ذلك قبلي (٢١) .

أكانت هذه مجرد منى ؟ لا فيما يبدو . ذلك أنه كان قد وجد في ليزج رأساً جميلاً - رأس آنتيت شونكوييف - راغباً في أن يلج على الأقل الدهليز إلى الحب . وكانت أبنه تاجر خمور يقدم وجبة الظهر للطلاب . وكان جوته يتناول طعامه هناك مراراً فاشتهاها . واستجابت لحرارة عاطفته بتحفظ حكيم ، وسمحت لرجال آخرين بأن يتقربوا منها ، فبدأ يغار ، وأخذ يتمجس عليها ؛ وتشاجرا ثم تصالحا ، وتشاجرا وتصالحا ، ثم تشاجرا وافترقا . ولقد ذكر نفسه حتى في هذه النشوات أنه حفيد عمدة ، وأن بطنه قرينا - هو حافز ودافع لجنى نهم يطالب بالحرية في سبيل الاكتمال التام إلى مصيره المحتوم . وقبلت آنتيت خطيباً غيره .

ورأى جوته في هذا هزيمة له ، وحاول نسيانها بالانغماس في اللذات . « لقد فقدتها حقاً وكان للجنون الذي انتقمتم به لخطئي من نفسي بالعدوان على طبيعتي الجسدية بشتى الطرق المسعورة ، لألحق بعض الأذى بطبيعتي الخلقية - أقول كان له ضلع كبير جداً في إصابتي بالأمراض البدنية التي خسرت بسببها بعضاً من أفضل سنى عمري » . (٢٢) واستسلم للاكتئاب ، وأصابه عسر هضم عصبي ، وابتلى بورم مؤلم في عنقه ، واستيقظ ذات ليلة على نزيف كاد يقضى عليه . وغادر ليزج دون أن يظفر بدرجته الجامعية ، وقفل إلى فرانكفورت (سبتمبر ١٧٦٨) ليواجه تأنيب الأب ومحبة الأم .

ثم تعرف أثناء فترة نقاهته الطويلة إلى سوزانه فون كلتنبرج ، وكانت تقوية مورافية ، لطيفة ، علية . « كان صفاؤها وهذؤ عقلها لا يرححانها قط ، وكانت تنظر إلى مرضها نظرتها إلى عنصر ضرورى في وجودها الأرضي

العابر» (٢٣) . وقد وصفها بعد سنين وصفاً فيه تعاطف وبراعة في «اعترافات روح جميلة» . التي أدخلها في كتابه «ولكنه سجل في غير مبالاة مزاعمها من أن قلقه واكتسابه سببهما اخفاقه في المصالحة مع الله . «كنت أعتقد منذ حدثتني لأنني على علاقة طيبة جداً مع إلهي — لا بل انني تخيلت . . . انه قد يكون مديناً لي بدين لم يوفه بعد ، لأنني كنت من الجرأة بحيث رأيت أن عليه لي مأخذاً يقتضى أن أغتفره له . وكان هذا الغرور قائماً على حسن نيتي الذي لا حد له ، وهو ما كان خليقاً بإلهي أن يعينني عليه معونة أفضل كما بدا لي . وللقارئ أن يتصور كم من المرات دخلت في منازعات مع أصدقائي حول هذا الموضوع ، ولكنها كانت تنتهي دائماً بغاية المودة والصفاء» (٢٤) .

ومع ذلك مرت به لحظات متفرقة من التقوى ، إلى حد الاختلاف إلى بعض جلسات الإخوان الموارفين ، ولكن نفره من هؤلاء القوم البسطاء (٢٥) ، «ضعف ذكائهم» ، وسرعان ما ارتد إلى الجمع المتقطع بين الإيمان بوحدة الوجود والشك العقلاني .

وفي أبريل ١٧٧٠ رحل إلى ستراسبورج أملاً في نيل درجته القانونية . ووصفه زميل من الطلاب (وهو في الحادية والعشرين) بأنه «فتى وسيم الوجه ، له جبين رائع وعينان واسعتان متقدتان» ولكنه أردف «ان التعامل مع هذا الشاب لن يكون أمراً يسيراً ، إذ يبدو أن له طبعاً جموحاً غير مستقر» (٢٦) . وربما كان مرضه الطويل سبباً في إثارة أعصابه ؛ وكان «قرينه» أشد اقلاقاً له من أن ينيله الهدوء والاستقرار ، ولكن أى شاب تسرى النار في دمه يستطيع أن ينعم بالهدوء؟ وحين وقف أمام الكندراية الكبرى حياها بشعور الوطنية ، لا بوصفها كاثوليكية بل «معماراً ألمانياً ، معمارنا ، فالإيطاليون لا يستطيعون المفاخرة بشيء نظيرها ، وأقل منهم الفرنسيون» (٢٧) (ولم يكن قد رأى بعد إيطاليا ولا فرنسا) . «وصعدت وحيداً إلى أعلى قمة في البرج . . . وغامرت من هذا العلو بأن أخطو إلى الخارج على أفريز لا يكاد يبلغ ياردة مربعة . وقد أوقعت هذا الرعب

والعذاب على نفسى مراراً وتكراراً حتى أصبحت التجربة فى نظرى أمراً غير ذى بال » . (٢٨) وقد لاحظ أحد أساتذته أن « الهرجوته كان يسلك بأسلوب جعل الناس ينظرون إليه نظرهم إلى دعى كاذب من أدياء العلم ، وخصم مسعور لكل تعلم دينى . والرأى الذى أجمع عليه الكل تقريباً أن فى رأسه برجاً ناقصاً » (٢٩) .

وعملت التجارب الجديدة الكثيرة على تأجيح ناره . فقد التى بهر در مرات خلال إقامته فى ستراسبورج . وكان هر در الذى يكبره بخمس سنوات ، هو الطرف المسيطر فى هذه اللقاءات ؛ وقد وصف جوته نفسه ، فى نوبة تواضع عارضة ، بأنه « كوكب » يدور حول شمس هر در . وأزعجته نزع هر در الدكتاتورية ، ولكنه حفزه إلى قراءة الأغاني الشعبية القديمة ، وكتاب مكفرسن « أوسيان » ومسرحيات شكسبير (فى ترجمة فيلاند) . ولكنه قرأ أيضاً فولتير وروسو وديرو ثم درس مقررات فى الكيمياء والتشريح والولادة ، فضلاً عن مواصلة دراسة القانون . . . ثم انه واصل دراسته للنساء .

ذلك انه شعر بفتنتهن بكل ما فى الشاعر من حساسية مرهفة ، وكل ما فى الشباب من توهج كهربي . وبعد هذه الحقبة بسبعة وأربعين عاماً أخبر إكرمان بأنه يعتقد أن الأشخاص تأثروا مغنطيسياً غامضاً على غيرهم ، وأكثره عن طريق تباين الجنس (٣٠) . فكانت تحركه خطرات الفتيات الخفيفة الرشيقة ، وموسيقى أصواتهن وضحكهن ، ولون أثوابهن وحفيفها ؛ وكان يحسد الزهرة التى كن أحياناً يزين بها مشدهن أو شعرهن على التصاقها بهن . وكانت الواحدة تلو الأخرى من هذه المخلوقات السحرية تستنفردمه ، وتكبر فى خياله ، وتحرك قلمه . لقد أحب من قبل جرتشن وآنيت ، وعما قليل سيكون هناك لوته والى وشارلوته ، ثم منا وأولريكه . أما الآن ، فى زيزنهايم (قرب ستراسبورج) ، فكانت افتنهن قاطبة - فردريكه بريون .

كانت الإبنة الصغرى (تسعة عشر ربيعاً فى ١٧٧١) لراعى كنيسة

المدينة ، الذى شبهه جوته بقسيس ويكفيلد الفاضل الذى روى جولد سميت قصته . والصفحات التى كتبها جوته عن فردريكه فى سيرته الذاتية هى أروع ما كتب فى حياته من نثر (٣١) . وكان يركب مراراً من ستراسبورج ليستمتع بما اتسمت به هذه الأسرة الريفية من بساطة لم تنفسها الحضارة . وكان يصطحب فردريكه فى نزعات طويلة لأنها كانت ترسل نفسها على سجيبتها فى الهواء الطلق . وقد أحبه ، ومنحته كل ما طلب . « فى خلوة فى الغابة تعانقنا بعاطفة عميقة ، وتبادلنا أخلص التأكيدات بأن كلا منا يحب الآخر من أعماق قلبه » . (٣٢) ولكن سرعان ما راح يعترف لصديق بأن « المرء لا تزداد سعادته مثقال ذرة بنبيله ما تمنى » .

وكان خلال ذلك يكتب باللاتينية رسالة الدكتوراه التى أكدت (كما أكد فرونيوس) حق الدولة فى الاستقلال عن الكنيسة . وقد نالت موافقة الكلية الجامعية ؛ ونجح فى الامتحانات ؛ وفى ٦ أغسطس ١٧٧١ نال درجة الليسانس فى القانون . وجاء أوان الرحيل عن ستراسبورج . فركب إلى زيزنهايم ليودع فردريكه ، « وحين مدت إليها يدي وأنا على صهوة جوادى ، اغرور وقت عينها بالدموع . وأحسست بضميق شديد . . . وبعد أن نجوت آخر الأمر من انفعال الوداع ، تمالكت نفسى تماماً ومضيت فى رحلة هادئة مطمئنة » . (٣٣) أما تقرير الضمير فجاء بعد ذلك . « لقد انزعجت جبريتشن منى ؛ وهجرتنى آنيث ؛ أما الآن فكنت مذنباً لأول مرة . فقد جرححت أحب قلب جرحاً فى الصميم ؛ وكانت فترة الندم الكثيب مع افتقادی ذلك الغرام المنعش الذى كنت قد ألفتته - فترة عذاب أليم . . » (٣٤) انه شعور أنانى إلى حد محزن ، ولكن من منا ، فى تجارب الحب وزلاته ، لم يجرح قلباً أو قلبين قبل أن يظفر بقلب ؟ ومات فردريكه دون أن تتزوج ، فى ٣ أبريل ١٨١٣ .

٢ - جوتز وفرتر

لم يمارس حامل أجازة القانون الجديد مهنة المحاماة فى فرانكفورت للاكراً وكان يزور دارمشتات بين السنين والحين ، وأحس تأثير تمجيدها

للعاطفة في وجدانه . وجاز الآن فترة من رد الفعل الشديد ضد فرنسا ، وضد الدراما الفرنسية وقواعدها الصارمة ، وحتى ضد فولتير . وراح يسبغ أكثر فأكثر شكسبير الذي عرض على خشبة المسرح طبيعة الإنسان حلالاً كانت أو حراماً . في هذا المزاج ، وفي عنفوان الشباب وحيويته ، كان مهياً للحركة الزوبعية . فتعاطف مع رفضها للسلطة ، ولإعلائها للغريزة فوق العقل ، ولل فرد البطل فوق الجواهر الحبيسة في سخن التقاليد . وهكذا كتب « جوتز فون برلينجن » في ١٧٧٢ - ٧٣ .

وكانت انجازاً ممتازاً من فتي في الثالثة والعشرين : دراماً جمعت بين الحب والحرب والخيانة في قصة تنبض بالحاسة للحرية ، وتنضج حيوية ، وتشدد الانتباه من أولها لآخرها . أما جوتز هذا ففارس أطاح الرصاص يميناه في المعركة وهو في الرابعة والعشرين (١٥٠٤) ؛ فركبت في ذراعه يد حديدية أعانته على استعمال سيفه قاطعاً بتراراً كما كان من قبل ، وإذ رفض الاعتراف بأى سيد إلا الإمبراطور ، فقد أصبح واحداً من أولئك البارونات اللصوص « الذين ادعوا باسم الحرية أن لهم مطلق السلطة على أرضهم إلى درجة سلب عابري السبيل وشن الحروب الخاصة . وفي ١٤٩٥ أصدر الإمبراطور مكسميليان الأول مرسوماً يحرم الحروب الخاصة ، وإلا كان عقاب المذنب مزدوجاً - النفي بأمر الإمبراطور والحرم بأمر الكنيسة ، ورفض جوتز ذو اليد الحديدية النفي لأنه يخالف الحقوق المتوارثة ، ودارت التمثيلية أول الأمر حول الصراع بين الفارس المتمرد وأمير بامبرج الأسقف ، وإذ كان جوته يحب النساء أكثر كثيراً من حبه للحرب ، فإنه ركز الاهتمام على أوليده فون فاللدورف التي إلهب بجمالها وثوراؤها رجالات كثيرين بالرغبة المشبوبة المستهترة . ففي سبيلها نقض أدلبرت فون قايزلنجن ، وهو فارس « حر » آخر ، تحالفه مع جوتز وفسخ خطبته لماريا أخت جوتز ، وإنجاز إلى الأسقف . ولعل جوته تذكر - في حب فايزلنجن المتذبذب - عدم وفائه هو . وأرسل نسخة من التمثيلية إلى فردريكه بيد صديق قائلاً « سيسرى عن فردريكة المسكينة بعض الشيء » أن ترى العاشق الخائن يموت بالسم » (٣٥) .

وقد حور المؤلف التاريخ ليطووعه لمسرحيته ، فجوتفريد فون برلينجن لم يبلغ في نبلة وشهامته مبلغ جوتز كما صورته جوته ؛ ولكن تعديلات كهذه تعد من قبيل الجواز الشعري ، شأنها شأن القوافي المشوهة . كذلك يغتفر لجوته ذلك الحديث الخشن المتهور الذى أجراه على لسان بطله تعبيراً عن الفحولة . وحى أخرجت المسرحية في برلين (١٧٧٤) أدائها فردريك الأكبر « تقليداً بغيضاً » لتلك « البربرية » التى رآها هو في شكسبير ، كما رآها فولتير ؛ ثم دعا المسرحيين الألمان أن يلتمسوا نماذجهم في فرنسا . وقد وافق هرذر فردريك أول الأمر ، وقال لجوته « لقد دمرك شكسبير » (٣٦) ، ولكنه بعث بالنسخة المنشورة إلى أصدقائه مشفوعة بالتقريظ العظيم . « أمامكم ساعات من السحر . فهناك قدر غير عادى من القوة والعمق والإخلاص الألماني الأصيل في التمثيلية ، وإن كانت بين الحين والحين لا تعدو أن تكون تدريباً ذهنياً » (٣٧) . أما الجيل الأصغر فقد حيا جوته بوصفه أسمى تعبير عن حركة « شتورم » وطاب للقراء الألمان أن يسمعوا أخبار فرسان العصر الوسيط ، ورموز الخلق الألماني الجبار . ولد البروتستنت أن يسمعوا أصدقاء لوثر في « الأخ مارتن » ، الذى يشكو من أن ندوره الفقر والعفة والطاعة لنور غير طبيعية ، والذى يصف المرأة بأنها « فخر الخليقة وتاجها » ، ويهش للخمر لأنها « تبهج قلب الرجل » ، ويقلب قولاً مأثوراً قديماً بقوله أن « البهجة أم الفضائل كلها » (٣٨) . وحتى أبوجوته ، الذى اضطر أن يعاونه في مهنة المحاماة والذى رأى فيه صورة لتدهور سلالة أبيه ، اعترف بأنه ربما كان في الغلام خير رغم كل شيء .

وفي مايو ١٧٧٢ كان على المحامى الشاب أن يذهب في مهمة قضائية إلى فتسلار ، مقر محكمة الاستئناف الامبراطورية . وراح يحول بين الحقول والغابات ومخادع النساء غير مكترث البتة بالقانون ، وهو يرسم ويكتب ويستوعب . وفي فتسلار التقى بكارل فلهم يروزاليم ، الشاعر والمتصوف ، وجيورج كرستيان كستمر ، وهو موثق وصفه جوته بأنه « يتسم بالسلوك الهادى الرصين ، وبوضوح الرؤية ، . . . وبالنشاط الرزين الذى لا يكل » (٣٩) ،

وبلغ من ثقته بالترقى في وظيفته أنه كان مرتبطاً بفتاة ليتزوجها . وقد وصف
كسترن جوته وصفاً فيه سماحة وكرم :

« هو في الثالثة والعشرين ، والإبن الوحيد لأب غنى جداً . وقد تقرر —
وفقاً لمشيئة أبيه — أن يمارس المحاماة في المحكمة هنا ، أما مشيئته هو فهي
أن يدرس هومر وبندار وأى شيء آخر توحى به عبقريته وذوقه وقلبه . . .
والحق أنه صاحب عبقرية أصيلة ، ورجل على خلق . وهو صاحب خيال
ذو حيوية خارقة ، ويعبر عن نفسه بالصور والتشبيهات . . . ومشاعره
عنيفة ، ولكنه يملكها عادة . وقناعاته نبيلة ، وهو برىء تماماً من الهوى ويسلك كما
يحب دون أن يعياً إن كان سلوكه هذا يسر غيره ، أو هو السلوك العصري ،
أو السلوك المباح . وكل ألوان القهر بغیضة في نظره . وهو يحب الأطفال ،
وفي وسعه أن يلاعهم ساعات بطولها . . . إنه رجل ممتاز تماماً » (١) .

وفي ٩ يونيو ١٧٧٢ التي جوته بخطيبة كسترن في حفلة رقص ريفية ،
واسمها شارلوتة بوف . ثم زارها في الغد ، ووجد في الأنوثة فتنة جديدة .
أما لوته هذه التي كانت يومها في العشرين فهي أكبر الأخوات في أسرة
من أحد عشر طفلاً . وكانت الأم ميتة والأب مشغولاً بكسب قوته ، وقامت
لوته بدور الأم للأطفال الكثيرين . ولم تؤث بهجة الفتيات الصغيرات البدن
ونضارتها فحسب ، بل زادت عليهما جاذبية المرأة الشابة التي تؤدي في
بساطة وأناقة هندام مهام وظيفتها بكفاءة وحب وبشاشة . وسرعان ما وقع
جوته في غرامها ، فما كان في استطاعته أن يظل طويلاً بغير صورة أنثى
تدفع خياله . ورأى كسترن الموقف ، ولكنه لثقته مما يملك أبدى تسامحاً
كريماً . أما جوته فقد سمح تقريباً بمزايا الخطيب المنافس ، ولكن لوته
كانت دائماً تصده ، وتذكره بأنها مخطوبة . وأخيراً طلب إليها أن تختار
بينهما ، ففعلت ، ورحل جوته عن فتسلار في الغد (١١ سبتمبر) دون أن
تختلج كبرياؤه إلا لحظة . وظل كسترن صديقه الوفي حتى مماته .

وقبل أن يعود جوته إلى فرانكفورت توقف في إيرنبراشتاتين على الرين ،
وهي موطن جيورج وصوفى فون لا روش . وكان لصوفى ابنان « سرعان

ما جلدتهنى بشدة كبراهما مكسمليانه ، وإنه لإحساس لليد جداً حين يبدأ غرام جديد فى التحرك داخلنا قبل أن نحمد القديم تماماً . فعند غروب الشمس يود المرء أن يرى القمر يطلع على الجانب المقابل » (٤١) . على أن مكسمليانه تزوجت بيتر برنتانو ، وولدت بنتاً رشيقة اسمها بتينا ، وقعت فى غرام جوته بعد خمسة وثلاثين عاماً . وراض جوته نفسه على حياة فرانكفورت والمحاماة . ولكنه لم يرتض هذه الحياة تماماً ، فقد فكر حيناً فى الانتحار . يقول :

« كنت أملك فيما أملك من مجموعة كبيرة من السلاح خنجرأ جميلاً جيد الصقل . وكنت أضعه كل ليلة بجوار فراشى ، وقبل أن أطفىء الشمعة جربت إن كان فى استطاعتي أن أفليح فى إغمد السن الحاد بوصتين فى قلبى . فلما لم أوفق فى هذه المحاولة قط ، أقلعت أخيراً عن الفكرة بضحكى من نفسى ، وكففت عن كل أوهامى ووساوسى ، وصممت على أن أعيش .

« ولكنى أستطيع هذا العيش فى بشر اضطرت إلى حل مشكلة أدبية ، تتحول فيها كل مشاعرى الماضية . . . إلى ألفاظ . فجمعت لهذا الغرض العناصر التى كانت تعتمل فى سنوات ، واستحضرت فى ذهنى الحالات التى أثرت فى وعذبتى أشد تأثير وعذاب ؛ ولكن شيئاً لم ينته إلى شكل محدد . فقد افترقت الحدث ، أو الأسطورة ، التى يمكن فيها أن ترى هذه الحالات كلا متكاملًا » (٤٢) .

وقدم محام من زملائه فى فتسلار هذا الحدث الذى يدمج هذه العناصر . فى ٣٠ أكتوبر ١٧٧٢ قتل فلهم يروزاليم نفسه ياساً من حبه لزوجة صديق له ، بعد أن استعار مسدساً من كستنر . قال جوته وهو يستحضر الحدث « وبمجرد سماعى نبأ موت يروزاليم . . . تشكلت خطة « فتر » فى ذهنى ، وتسابق الكل معاً من جميع الجوانب » (٤٣) . ربما ، ولكنه لم يبدأ تأليف الكتاب إلا بعد خمسة عشر شهراً . وواصل أثناء ذلك مغازلته لمكسمليانه برنتانو — التى كانت قد انتقلت مع زوجها إلى فرانكفورت — بمثابة وإصرار جعلاً الزوج يحتج ، فانسحب جوته .

وشئتت جهده ألوان مختلفة من المشروعات الأدبية الخفيفة . فقد داىب

فكرة قص قصة اليهودى النائه من جديد ، وخطط زيارة يقوم بها اليهودى لسبينوزا ، وأن يبين أن الشيطان كما تدل جميع الظواهر منتصر على المسيح فى العالم المسيحى ^(٤٤) ، ولكنه لم يزد على عشر صفحات فى « اليهودى النائه » . ثم نظم هجائيات فى ياكوبى ، وفيلاند ، وهردر ، ولنتس ، ولا فاتر ، ولكنه وفق رغم ذلك فى كسب صداقتهم . وشارك فى كتاب لا فاتر فى الفراسة ، سمح له بأن يفحص قسبات دماغه ، وكانت النتائج مرضية لغروره . وكان حكم السويسرى « إن هنا ذكاء ، مع حساسية تؤججه . لاحظ الجبين النشيط . . . والعين السريعة النفوذ والفحص والافتتان . . . والأنف ، الذى يكفى فى ذاته إعلاناً عن الشاعر . . مع الذقن الفحل ، والأذن القوية المتسعة—فن ذا الذى يرتاب فى العبقرية الكامنة فى هذا الدماغ؟ ^(٤٥) ومن ذا الذى يستطيع تطبيق هذه المقاييس الدماغية ؟ » على أن ياكوبى قال إن هذا ممكن ، لأنه بعد أن زار جوته فى يوليو ١٧٧٣ وصفه فى رسالة إلى فيلاند بأن « عبقرى من قمة رأسه إلى أخمص قدمه ، رجل به مس من الجن ، كتب عليه أن يسلك وفق أوامر الروح الفردى ^(٤٦) .

وأخيراً ، فى فبراير ١٧٧٤ ، كتب جوته الكتاب الذى آذاع اسمه فى طول أوربا وعرضها ، « آلام الفتى فرتر » . وكان قد أطلال التفكير فيه ، وأطال ترديده فى تأملاته وخياله ، حتى لقد أطلقه الآن كما يقول « فى أربعة أسابيع . . . اعتزلت الناس كلية ، ومنعت زيارة أصحابى ^(٤٧) . قال لأكرمان بعد خمسين سنة « كان ذلك خلقاً غدوته بدم قلبي كما يفعل طائر البطريق ^(٤٨) . وقد قتل فرتر لينج نفسه السلام .

وكان ملهماً فى إنجاز الكتاب . اشتمل شكل الرسائل ، محاكاة لقصة رتشر دسن « كلاريسا » وقصة روسو « جولى » من جهة ، ومن جهة أخرى لأن هذا الشكل كان ملائماً للإنصباح عن العاطفة وتحليلها ، وربما لأنه فى هذا الشكل استطاع أن يستعمل بعض الرسائل التى كتبها من فتسلار لأخته كورنيليا أو لصديقه ميرك . وصدم شارلوتة وكسترن بإطلاقه اسمها الفعلى

« لوته على بطله حب واضح أنه يصف غرام جوته بعروس كسترن ، وكسترن يقابله في القصة « البرت » الذي صوره المؤلف في إطاره . وحتى اللقاء في المرقص ، وزيارة الغد ، كانا في القصة كما كانا من قبل في الواقع . » منذ ذلك اليوم تستطيع الشمس والقمر والنجوم أن تسير سيرتها في هدوء ، ولكنى لا أعي بنهار ولا ليل ، وكل العالم من حولي يتلاشى . . . لم يعد عندي صلوات أتلوها إلا لها »^(٤٩) . على أن فرتر ليس جوته بالضبط : فهو أكثر عاطفية ، وأميل إلى البكاء والكلام المتدفق والثناء لنفسه . ولكي يقود المؤلف القصة إلى نهايتها الفاجعة ، اقتضاه ذلك أن يغير فرتر من جوته إلى فلهم يروزاليم . أما اللمسات الأخيرة فهي تحكى تاريخ ما حدث : يستعير فرتر ، كما استعار يروزاليم ، مسدس البرت لينتحر به ، وقصة ليسنج « إميليا جالوتى » ملقاة على مكتبه وهو يموت . « ولم يصعبه كاهن » إلى قبره .

كانت قصة « آلام الفتى فرتر » (١٧٧٤) حدثاً في تاريخ الأدب وتاريخ ألمانيا . فقد عبرت عن العنصر الرومانسى في الحركة الزوبعية ودعمته ، كما عبرت قصة « جوتز فون برلينجن » من قبل عن العنصر البطولى . واستقبلها الشباب المتمرد بالمديح والمحاكاة ، وارتدى بعضهم السرة الزرقاء والصدرة الصفراء البرتقالية كفرتر ، وبكى بعضهم كفرتر ، وانتحر بعضهم باعتبار الانتحار الشيء « العصرى » الوحيد الذى يجب عمله . واحتج كسترن على الولوغ في أسرارهم . ولكن لم يلبث أن هدى ، ولم يقل لنا أحد ان شارلوتة شكت حين قال لها جوته « ان اسمك تنطقه آلاف الشفاه المعجبة بكل اجلال »^(٥٠) . ولم يشارك رجال الدين الألمان في هذا الاستحسان . وأدان واعظهم هبورجى القصة لأنها دفاع عن الانتحار . اما الراعى جوتسى ، عدو ليسنج ، فقد حمل على الكتاب ، وأدانه ليسنج لعاطفيته المفرطة واقتفاره إلى القصد الكلاسيكى^(٥١) . وفي عشاء عام لأم القس ي . ك . هازنكسيف جوته في مواجهته على « تلك القطعة الشريرة من الكتابة » ، ثم أردف « ليهذا الله قلبك الضمضال ! » وأفحمه جوته بجواب

هاديء : « اذكرنى فى صلواتك » (٥٢) . وكان الكتيب أثناء ذلك يكتسح أوروبا فى مترجات عديدة ، منها ثلاثة فى فرنسا خلال سنوات ثلاث ؛ واعترفت الآن فرنسا لأول مرة بأن فى ألمانيا أدباً .

٣ — الملحد الشاب

كان لرجال الدين بعض العذر فى القلق على جوته ، لأنه كان فى هذه المرحلة يجهر بعداء الكنيسة المسيحية . كتب كسترن فى ١٧٧٢ يقول « انه يجل الدين المسيحى ؛ ولكن ليس فى الصورة التى يصوره بها لاهوتيونا . . . انه لا يتردد على الكنيسة ، ولا يتناول القربان ، ونادراً ما يصلى . » (٥٣) وكان جوته يكره على الأخص تأكيد المسيحية على الخطيئة والندم (٥٤) ، ويؤثر أن يأثم دون ندم . كتب إلى هرذر (حوالى ١٧٧٤) يقول « ليت تعليم المسيح كله لم يكن هذا الهراء الذى يثر سخطى بصفتى بشراً ، مخلوقاً مسكيناً محدوداً ذا رغبات وحاجات ! » (٥٥) ووضع مخططاً لمسرحية عن بروميثيوس رمزاً للإنسان يتحدى الآلهة ، ولكنه لم يزد على مقدمة صدمت ياكوبى وأمهجت ليسنج . وما بقى منها هو أكثر تفجرات جوته المعادية للدين تطرفاً . يقول بروميثيوس :

غط سماءك يازيوس بالضباب الملبد بالغيوم .

ولله — كما يلهو طفل يقطع رؤوس الشوك

على شجر البلوط وقمم الجبال !

فأنت لابد تارك أرضى قائمة .

وكوخى ، الذى لم تبنيه .

ومدافئى التى تحسدنى على توهج نارها .

لست أعرف تحت السماء من هو أفقر منكم أيها الآلهة !

إنكم تغذون جلالكم بالجهد من الضحايا وصلوات الرغبات .

ولولا حرق الأطفال والمتسولين المتعلمين بالآمال

لما ت هذه الجلالة جوعاً .

حين كنت طفلاً لا أعرف في ماذا أفكر ،
كانت عيناي الضالتان تتطلعان إلى الشمس ،
كأن لما أذنّا تصبّخ السمع إلى شكائى ،
أو قلباً كقلبي يرق لنفس معناة .
فمن ترى أعانى على غطرسة الطاغية ؟
ومن أنقذنى من الموت ، من العبودية ؟
أليس هو قلبي المقدس المضطرم ،
هو الذى صنع هذا كله وحده ،
ولكنه لحداثته وطيبته ولأنه كان مخدوعاً ،
فهو يرفع الشكر لذلك النائم هناك ؛
أبجدك ؟ لماذا ؟
هل خففت مرة أحزان المثقلين بالهموم ؟
هل كفكفت مرة دموع المعذبين ؟
ألم يفطرني بشراً ؟
ذلك الزمان الجبار والقادر السرمدى -
سيدائى وسيداك . . .
ها أنذا قاعد هنا . أصنع الرجال على شاكلى ،
سلالة شبيهة بى .
تحزن وتبكي . تفرح وتمرح ،
وتزدريك كما أزدريك .

ثم انتقل جوته ببطء من حضيض الإحاد المغرور هذا إلى « حلولية »
سبينوزا الأكثر تهديماً . روى لافاتر أن « جوته قال لنا أشياء كثيرة عن
سبينوزا ومؤلفاته ... فقد كان رجلاً غاية في الإنصاف والاستقامة والفقر ...
وكل الربوبيين المحدثين قد أخذوا آراءهم عنه أولاً . . . وأضف جوته أن
رسائله أطرف ما عرف العالم كله عن الاستقامة وحُب البشر » (٥٦) ،

وبعد اثنين وأربعين عاماً قال جوته لكارل تسلتر إن أكثر الكتاب تأثيراً فيه هم شكسبير وسبينوزا ولينايوس^(٥٧) وفي ٩ يونيو ١٧٨٥ كتب إلى ياكوبى بتسلمه كتابه « فى تعاليم سبينوزا » ، وتكشف مناقشته لتفسير ياكوبى لهذه التعاليم عن دراسة مستفيضة للفيلسوف — القديس اليهودى . كتب يقول « إن سبينوزا لا يبرهن على وجود الله ، انه يبرهن على أن الوجود (حقيقة المادة — العقل) هو الله . فليرمه غبرى لهذا السبب بالإلحاد ، أما أنا فأميل إلى أن أصفه وأثنى عليه رجلاً تقياً جداً ، لا بل مسيحياً جداً ! . . . وأنا آخذ عنه أصبح المؤثرات فى تفكيرى وسلوكى »^(٥٨) .

وقد علق جوته فى سيرته الذاتية على رده على ياكوبى بقوله : « كنت لحسن الحظ قد أعددت نفسى . . . بعد أن انتحلت إلى حد ما أفكار وعقل رجل خارق للعادة . . . وهذا العقل ، الذى كان قد أثر فى تأثيراً حاسماً جداً ، وكتب له أن يؤثر تأثيراً عميقاً جداً فى أسلوب تفكيرى كله ، هو سبينوزا . ذلك أننى بعد أن بحثت فى العالم عبثاً عن وسيلة لتطوير طبيعتى الغربية ، وقعت فى النهاية على كتاب « الأخلاق » لهذا الفيلسوف . . . فوجدت فيه مسكناً لعواطفى المشبوبة ، وتفتحت أمامى نظرة واسعة حرة تشرف على العالم الحسى والخلقى . . . ولم تبلغ بى الجرأة قط مبلغ الاعتقاد بأننى فهمت كل الفهم رجلاً . . . ارتقى ، بدراساته الرياضية والربانية ، إلى ذرى الفكر ، رجلاً يلوح ان اسمه حتى فى يومنا هذا ، يعين الحد الذى تقف عنده كل المحاولات التأملية »^(٥٩) .

وقد أضاف مزيداً من الدفء لعقيدته الأسبينوزية فى الحلول (وحدة الوجود) بولعه الشديد بالطبيعة ، ولم يكن هذا الولع ابتهاجاً فحسب بمرأى الحقول النضرة أو الغابات الغامضة أو النباتات والأزهار المتكاثرة فى تنوع غزير ، بل إنه عشق أيضاً حالات الطبيعة الأكثر صرامة ، وأحب أن يشق طريقه خلال الريح أو المطر أو الثلج ، ثم صعوداً إلى قمم الجبال الخطرة . وكان يتحدث عن الطبيعة كأنها أم يرضع من صدرها رحيق الحياة ونكهتها . وقد عبر فى ملحمة من الشعر المنشور سماها « الطبيعة » (١٧٨٠) ، بوجودان

دينى ، عن استسلامه المتواضع للقوى الخلاقة المدمرة التى تكتنف الإنسان ،
والدماجه السعيد فيها :

« الطبيعىة ! انها تكتنفنا وتحضرنا - ونحن لا نستطيع الخطو خارجها ،
ولا التعمق فى داخلها . انها تتلقانا ، دون توسل إليها ولا تحذير ، فى حلبة
رقصها ، ثم ترافقنا فى رقص سريع حتى تنهك قوانا ونخر من بين ذراعها . .

« انها لا تفتأ تخلق الأشكال الجديدة ، فما هو موجود الآن لم يكن
موجوداً قط من قبل ، وما فات لن يعود ؛ الكلى جديد ، ومع ذلك فهو
دائماً القديم .

انها تبدو وكأنها دبرت كل شىء للفردية ، ولكنها لا تعبأ بمثقال ذرة
بالافراد ، انها بانية أبداً ، هادمة أبداً ، ومصنعهها لا سبيل
للوصول اليه . . .

انها تملك الفكر ؛ وهى تتأمل باستمرار ، لا كإنسان ، بل كالطبيعىة .
أن لها عقلا كلى الشمول خاصاً بها ؛ وما من أحد يستطيع النفوذ إليه . . .
انها تسمح لكل طفل بأن يعيث بها ، واكل أحرق بأن يحكم عليها ،
والآلاف تعثر أقدامهم ولا يرون شيئاً ، ان فرحتها بالكل .

انها رحيمة . وأنا أثنى عليها وعلى كل أعمالها . انها حكيمه هادئة . لا يستطيع
المرء أن يستخلص منها أى تفسير ، أو ينزع منها عطية لا تعطيها بمشيئتها الحرة .

لقد وضعتنى هنا . وسوف تقودنى بعيداً . وأنا أوكلى إليها نفسى ،
ولها أن تفعل بى ما تشاء . فهى لن تكره صنعة يدها » (٦١) .

وفى ديسمبر ١٧٧٤ توقفت الدوق كارل أوبست بفرانكفورت فى
الطريق بحثاً عن عروس فى كارلسروهى . وكان قد قرأ « جوتز فون
برليشنجن » وأعجبته . فدعا مؤلفها للقائه . وذهب جوته . ووقع من نفس
الدوق موقعاً طيباً . وساءل الدوق نفسه ألا يجوز أن يصبح هذا العبقرى
الوسيم المهذب نجماً ساطعاً فى بلاط فایمار . وكان عليه أن يعجل بالرحيل ،
ولكنه طلب إلى جوته أن يلتقى به ثانية فى رجوعه من كارلسروهى .

كان جوته كثير الكلام. عن القدر ، قليله جداً عن المصادفة . ولعله لو سئل لأجاب إن القدر — لا المصادفة — هو الذى جاء به إلى الدوق ، وأنه هو الذى صرفه عن حسن اللي شوثمان إلى مخاطر فايمار وفرصها المجهولة . أما لى هذه فكانت ابنة تاجر غنى فى فرانكفورت . وقد دعى جوته إلى حفل استقبال فى بيتها بعد أن أصبح الآن سبعاً من سباع المجتمع الراقى . وعزفت لى على البيانو عزفاً رائعاً ، واتكأ جوته على ركن منه وراح يحرق على مهل فى مفاتيها ذات الستة عشر ربيعاً وهى تعزف . « كنت أحس اننى أشعر بقوة جذابة غاية فى الرقة . . . ثم ألفنا أن نلتقى . . . وأصبحنا الآن ولا غنى للواحد عن صاحبه . . . وملكنى شوق لاسبيل إلى مقاومته (٦١) . فما أسرع ما ترتفع هذه الحمى الشهيرة ، التى فجرتها حساسية شاعر . قبل أن يدرك معنى ما فعل ، كان قد خطبها رسمياً (ابريل ١٧٧٥) . أما لى التى ظنت أنها اقتنصته وأمنته ، فراحت تعابث غيره . وشهد جوته ذلك فغلت مر ارجل غيظه .

فى هذه الفترة بالضبط مر صديقان هما الكونت كرسيتيان والكونت فريدريش تسو شتولبرج بفرانكفورت فى طريقهما إلى سويسرة . واقترحا على جوته أن ينضم إليهما . وحثه أبوه على الذهاب ومواصلة الرحلة إلى إيطاليا . « وانفصلت عن لى بعد أن أفضت إليه ببعض السر ولكن دون أن استأذن قبل الرحيل » (٦٢) .

وقد بدأ الرحلة فى مايو ١٧٧٥ ، والتقى بالدوق ثانية فى كارلسروهى ، فدعاه بصفة نهائية إلى فايمار . ومضى إلى زيورخ . حيث التقى بلافاتير وبودمير . وتسلق سانت جوتهارد وتطلع باشتياق إلى إيطاليا ، ثم تسلطت على خياله من جديد صورة لى ، فترك أصحابه ويم شطر وطنه ، وفى سبتمبر كانت لى بين زراعيه . ولكنه ما أن خلا إلى نفسه فى حجرة حتى عاوده خوفه القديم من الزواج سجنًا وركوداً . وأنكرت لى تردده ، فاتفقا على فسخ خطبتهما ، وفى ١٧٧٦ تزوجت برنهارت فون توركهام .

أما الدوق الذى ألم بفرانكفورت فى طريق عودته من كارلسروهى

فقد عرض على جوته أن يرسل إليه عربة تقله إلى فايمار . ووافق جوته ، ودبر أمره ، وانتظر اليوم الموعود . ولكن العربة لم تأت . أفكان ذلك عبثاً وخديعة ؟ وبعد أن قضى أياماً من التلبث المغيظ انطلق في رحلته إلى إيطاليا . ولكن العربة الموعودة لحقته في هيدلبرج ، وقدم مبعوث الدوق التفسيرات والاعتذارات ، فقبلها جوته . وفي ٧ نوفمبر ١٧٧٥ وصل إلى فايمار ، وكان يومها في السادسة والعشرين ، ممزقاً كعادته دائماً بين إله الغرام والقدر ، تهفو نفسه إلى النساء ولكنه مصمم على أن يصير إنساناً عظيماً .

٤ — هرذر ١٧٤٤ — ١٧٧٦

لم يمض شهر على وصول جوته إلى فايمار حتى أنهى إلى الدوق اقتراحاً مشفوعاً بموافقة الحارة ، هو اقتراح فيلاند بأن تعرض على يوهان جوتفريد هرذر وظيفة المشرف العام على أكليروس الدوقية ومدارسها . ووافق الدوق . أما هرذر فقد ولد بمورنجن في بروسيا الشرقية (٢٥ أغسطس ١٧٤٤) : فهو من حيث الجغرافيا وضمباب البلطيق قريب لإيمانويل كانط . وكان أبوه معلماً فقيراً وقائد فرقة ترتيل تقوى النزعة . وهكذا كان للصبي أوفر نصيب من الشدائد . فمذ كان في الخامسة كان يشكو ناسورا في عينه اليمنى . واضطرته ضرورة المشاركة بعد قليل في موارد الأسرة إلى ترك المدرسة والاشتغال سكرتيراً وخادماً لسبستيان تريشو ، الذي كان يكسب رزقاً طيباً بتأليف كتيبات في التقوى . وكان لديه مكتبة استوعبها يوهان . فلما بلغ الثامنة عشرة أرسل إلى كونزبرج لإزالة الناسور ولدراسة الطب في الجامعة . على أن الجراحة أخفقت ، وقلبت فصول التشريح معدة الشاب فانصرف عن الطب إلى اللاهوت .

وتصادق مع هامان الذي كان يعلمه الانجليزية مستعملاً هاملت نصاً ، وحفظ هرذر المسرحية كلها تقريباً عن ظهر قلب . واختلقت إلى محاضرات كانط في الجغرافيا والفلك وفلسفة فولف . وبلغ من حب كانط له أنه أعفاه من الرسم الذي يحصل من الطلبة نظير حضورهم المحاضرات . وكسب هرذر قوته بالترجمة وتدريس التلاميذ الخصوصيين ، ثم قام بالتدريس في مدرسة

الكندرائية بمدينة ريجا من سن العشرين إلى الخامسة والعشرين . حين يبلغ الحادية والعشرين رسم قسيساً نوثر يا ، وفي الثانية والعشرين أصبح ماسونيا (٦٣) ، وفي الثالثة والعشرين عين مساعداً للرعى في كنيسة قرب ريجا . ودخل عالم النشر في الثانية والعشرين بكتاب في الأدب الألماني الحديث ، ثم أضاف إليه جزءاً ثانياً وثالثاً بعد عام . وراعت ثقافة المؤلف الشاب كانط وليسنج ونيقولاي ولا فاتر - وامتدحوا دعوته إلى أدب قوى متحرر من الوصاية الأجنبية .

واستبق هرذر الموضوعة « الفررية » بوقوعه في غرام يائس بامرأة مزوجة . واشتدت معاناته من الاكتئاب والغم في بدنه وعقله ، فمحنه رؤساؤه أجازة ينقطع فيها عن عمله . ووعدوه بأن يوظفوه من جديد براتب أعلى عند عودته . واقترض مالا ، ثم غادر ريجا (٢٣ مايو ١٧٦٩) ولم يرها ثانية قط . وركب البحر إلى نانت ، وأقام فيها أربعة أشهر ، ثم مضى إلى باريس والتي بديلرو ود الامبير ، ولكن أحداً لم يستطع اقناعه بالانحياز إلى التنوير الفرنسى .

وذلك أن ميله الفطرى كان جمالياً (استيقيا) أكثر منه عقلياً . ففي باريس بدأ يجمع الشعر البدائى ، ووجد فيه متعة تفوق ما فى أدب فرنسا الكلاسيكى . وقرأ كتاب مكفرس : « أوسيان » فى ترجمة ألمانية ، وحكم بأن هذه التقليديات البارعة أروع من معظم الشعر الانجليزى الحديث بعد شكسبير . ثم بدأ فى ١٧٦٩ مقالات فى النقد الفنى والأدبى أطلق عليها اسم (الغياض) ، ونشر ثلاثة مجلدات منها فى حياته بعنوان (غابات من النقد) . وفى فبراير ١٧٧٠ أنفق أربعة عشر يوماً فى اتصال مشر مع ليسنج فى همبورج . ثم صاحب أمير هولشتين - جوتورب معلماً ورفيقاً . وجاب معه ألمانيا الغربية . وفى كاسل التقى برودلف راسبي ، أستاذ الآثار والمؤلف القادم لكتاب « قصة البارون وونتشاوون عن أسفاره وحملاته العجيبة فى روسيا » (١٧٨٥) . وكان راسبي قد استرعى اهتمام ألمانيا بكتاب توماس برسى « مخلفات من الشعر الانجليزى القديم » سنة ظهوره (١٧٦٥) .

وتقوى هرذر في إيمانه بأن واجب الشعراء أن يهجروا الدعوة الفنكلمانية اللسنجية لتقليد الكلاسيكيات اليونانية ، وأنه أخلق بهم أن يتشبثوا بالمنابع الشعبية لتقليد أمتهم في الشعر الفولكلورى والتاريخ القصصى الغنائى .

وانتقل هرذر مع الأمير إلى دارمشتات ، فالتقى بجماعة « الحساسيين » فيها . وراقه إعلاؤهم شأن العاطفة ، وخص بالتقدير عواطف كارولينية فلاخسلاند ، الأنخت اليتيمة لزوجة عضو المجلس الخاص اندرياس فون هسى ، ودعى هرذر للوعظ في كنيسة محلية ، فسمعته ، وتأثرت بوعظه ، وتمشياً معاً في الغابات ، وتلامست أيديهما فانعطف قلبه ، وعرض عليها الزواج ولكنها نبهته إلى أنها تعيش على صدقة أختها ، وأنها لن تستطيع أن تدفع له مهرأ ، ورد هو بأنه مثقل بالدين ، وأن المستقبل أمامه غامض جداً ، وأنه ملتزم بمرافقة الأمير . وتعاهداً بالأ تكون خطبة رسمية ، ولكنها اتفقا على تبادل الحب بالرسائل . ثم رحلت بجاعته إلى مانهايم في ٢٧ أبريل ١٧٧٠ .

فلما وصلوا إلى ستراسبورج ترك هرذر الأمير رغم شوقه لرؤية إيطاليا . ذلك أن الناسور الذى فى غدته الدمية سد القناة الدمية الموصلة إلى المنخر فأصابه بألم لا يهدأ . ووعدته الدكتور لوبشتين أستاذ أمراض النساء فى الجامعة بأن الجراحة ستزيل الانسداد فى ثلاثة أسابيع . واستسلم هرذر ، دون مخدر ، للثقب المتكرر لقناة خلال العظم إلى ممر الأنف . ولكن الجرح بدأ يتلوث ، وظل هرذر ستة أشهر تقريباً حبيس حجراته فى الفندق وقد فت فى عضده فشل الجراحة ، وران عليه اكتئاب بسبب شكوكه فى مستقبله . فى هذه الحالة النفسية من المعاناة والتشاؤم ، التقى بجوته (٤ سبتمبر ١٧٧٠) . ويذكر جوته هذه الفترة فيقول « أتبع لى أن أحضر الجراحة وأن أكون نافعاً فى نواحي كثيرة » (٦٤) . وقد ألهمه رأى هرذر القائل بأن الشعر ينبثق غريزياً فى الشعب ، لا من « بضعة رجال مهذبين مثقفين » (٦٥) . وحين رحل هرذر وقد نفذ ما معه من مال ، « اقترض جوته مبلغاً من أجله » رده هرذر فيما بعد .

ثم قبل على مضض دعوة من الكونت فلهلم تسولبي ، حاكم إمارة شاومبورج - ليبي الصغيرة في شمال غربي ألمانيا ، ليعمل واعظاً لبلاطه ورئيساً للمجلس الكنسي في عاصمته المتواضعة بوكيبورج . وفي أبريل ١٧٧١ هادر هردر استراسبورج ، وزار كارولينه في دارمشتات وجوته في فرانكفورت ، ووصل إلى بوكيبورج في الثامن والعشرين . فوجد الكونت حاكماً « مستبدأً مستنيراً » من طراز إداري صارم ، أما المدينة فكانت قروية في كل شيء إلا الموسيقى ، التي كان يحسن تزويدها بها يوهان كريستوف فريد ريش باخ ، وراض هردر نفسه على الانفصال عن التيار الرئيسي للفكر الألماني ، ولكن الكتب التي أصدرها في مكانه الصغير أثرت تأثيراً قوياً في ذلك التيار ، وأسهمت في تشكيل الأفكار الأدبية للحركة الروبعية . وقد أكد للكتاب الألمان أنهم إن التمسوا الإلهام في جذور الأمة وحياة الشعب فسوف يأتي الوقت الذي يبزون فيه الفرنسيين في كل ما حققوه . وقد تحققت هذه النبوءة في الفلسفة والعلم .

وقد ظفر بحته في أصل اللغة (١٧٧٢) بالجائزة التي قدمتها أكاديمية برلين عام ١٧٧٠ . ومع أن هردر كان يجهر بتدينه مخلصاً ، إلا أنه رفض الفكرة التي تزعم أن اللغة من صنع الله وحده ؛ وقال إنها من صنع البشر ، وأنها نتجت طبيعياً من عمليات الإحساس والتفكير . وألح على أن اللغة والشعر كانا واحداً باعتبارهما تعبيرين عن الانفعال ، وأن الأفعال ، المعبرة عن الفعل ، كانت أول أقسام الكلام . وفي مجلد آخر سماه « فلسفة أخرى مضافة إلى فلسفات التاريخ » (١٧٧٤) عرض التاريخ على أنه « الفلسفة الطبيعية للأحداث المتعاقبة » فكل حضارة هي وجود بيولوجي له مولده وشبابه ونضجه وانحلاله وموته ؛ ويجب أن تدرس من وجهة نظر عصرها ، دون تحيزات مبنية على بيئة وعصر آخرين . وقد أعجب هردر إعجاب الرومانتيكيين عموماً بالعصور الوسطى لأنها زمان الخيال والوجدان ، والشعر والفن الشعبيين ، والبساطة والسلام الريفيين ؛ وعلى نقيض ذلك كانت أوروبا بعد النهضة عبارة عن عبادة للدولة ، وللمال ، وللترف الحضري ، وللتكلف والافتعال ، وللرذيلة . وانتقد التنوير لأنه عبادة لوثن العقل ، وقارن بينه وبين ثقافات

اليونان والرومان مقارنة لا تستخدم التنوير . ولقد أبصر هردير الله كما أبصرها بوسويه في العملية التاريخية كلها ، ولكن الواعظ المفوه كان أحياناً ينسى لاهوته ، ويرى أن « التغيير العام للعالم كان يقوده الإنسان أقل كثيراً مما يقوده قدر أعظم » (١٦) .

وحمله شعوره بالوحدة إلى أن يطلب إلى كارولينه وزوج أختها أن يأذنا له بالحضور والزواج منها رغم ضآلة دخله . فوافقا ، وزف الحبيبان في دارمشتات في ٢ مايو ١٧٧٣ . ثم عادا إلى بوكيبورج ، واقترضا هردير بعض المال ليجعل دار القسيس بيتاً مهجاً لزوجته . وقد بذلت له زوجته الخدمة والحب الخالص مدى الحياة . وبفضل وساطتها انقشع الفتور الذي ران من قبل على المودة بين هردير وجوته ، وحين وجد جوته نفسه في موقف يسمح له بتزكية الراعي لوظيفة أنسخي عطاء ، أسعده أن يفعل ذلك . وفي أول أكتوبر ١٧٧٦ وصل هردير وكارولينه إلى فايمار ، وانتقلا إلى البيت الذي أعده لهما جوته . ولم يبق الآن سوى عضو واحد ليكتمل عقد الرباعي الذي سيضع شهرة فايمار .

٥ — شيلر في سني تطويفه ١٧٥٩ — ١٧٨٧

ولد يوهان كريستوف فريدرش شيلر في ١٠ نوفمبر ١٧٥٩ بمدينة مارباخ في فورتمبيرج . وكانت أمه ابنة صاحب فندق الأسد ، وأبوه جراحاً — ثم ضابط برتبة الكابتن — في جيش الدوق كارل أويجين ؛ وكان ينتقل مع فوجيه ، ولكن زوجه أقامت أكثر الوقت في لورش أولود فجزبرج . وفي هاتين المدينتين تلقى فريدرش تعليمه . وقد نذره أبواه للقسوسية ، ولكن الدوق اقنعهما بأن يبعثا به وهو في الرابعة عشرة إلى كارلسشولي (مدرسة كارل) في لود فجزبرج (ثم في شتوتجارت) ، حيث يعد أبناء الضباط لمهنة المحاماة أو الطب أو الجندية . وكان نظام المدرسة نظاماً عسكرياً صارماً ، والدراسات بحافية لطبيعة غلام فيه حساسية مرفهة تقرب من حساسية الفتيات . وكان رد فعل شيلر أن تشرب كل ما وجد إليه سبيلاً من

الأفكار الثورية ، ثم صلبها (١٧٧٠ - ١٧٨٩) في مسرحية « اللصوص »
التي فاقت جوتز فون برليشتجن تعبيراً عن الحركة الزوبعية .

وفي ١٧٨٠ تخرج شيلر في الطب ، وأصبح جراحاً لفوج في شتوتجارت .
وكان راتبه ضئيلاً ، وسكن حجرة واحدة مع الملازم كايف . وكانا يجهزان
طعامهما وأكثره من السجق والبطاطس والخس ، ثم النيذ في المناسبات
السارة . وقد شق على نفسه ليكون رجلاً له كل حس الجندي بالمعركة
والجعة والمواخير ، وزار المومسات اللاتي يختلفن إلى المعسكر^(٦٧) ؛ ولكنه
لم يكن يسيع الابتذال والسوقية ، فالنساء في نظره المثالية أسرار غامضة
مقدسة يجب أن يدنو منها الرجل في إجلال ورعدة . وكانت صاحبة الدار
واسمها لويزة فيشر أرملة في الثلاثين ، ولكنها إذا عزفت على الهاربسيكورد
« فارقت روحى جسدى الترابى الفانى »^(٦٨) ، وتمنى لو « اننى التصقت
إلى الأبد بشفتيك » . . . لا تشرب أنفاسك »^(٦٩) . وهى طريقة مبتكرة
في الانتحار .

وحاول عبثاً أن يجد ناشراً لمسرحية « اللصوص » ، فلما أن أخفق ،
وفر واقترض ثم طبعها على نفقته (١٧٨١) . وقد أدهش نجاحها الناس حتى
مؤلفها ذا الإثنين والعشرين ربيعاً . وفي رأى كارليل أنها بدأت « عصرًا
في الأدب العالمى »^(٧٠) ، ولكن ألمانيا الوقور صدمها أن المسرحية لم تترك
ناحية من نواحي الحضارة الراهنة إلا أدانتها ، وذكرت المقدمة التى صدر بها
شيلر تمثيلته أن نهايتها تبين عظمة الضمير وأذى التمرد .

وخلاصة التمثيلية أن كارل مور ، وهو الإبن البكر للكونت المسن
مكسمليان فون مور ، يخصه أبوه بحبه لما اتسم به من مثالية وسماحة خلق ؛
ومن ثم يحسده ويغضبه أخوه فرانتز . ويرحل كارل ويدخل جامعة ليزج ،
ويتشرب مشاعر التمرد التى تضطرب بها صدور شباب أوروبا الغربية . فلما
الح الدائنون فى مطالبتهم بالدين ، راح يندد بعباد المال القساة الذين « يلعنون
الصدوقى الذى يقصر فى الحضور إلى الكنيسة بانتظام ، ومع أن تقوam
لا تخرج عن عد مكاسبهم ، المجلوبة بالربا ، على مذهب الكنيسة ذاته »^(٧١) .

ثم يفقد كل إيمان بالنظام الاجتماعى القائم ، وينضم إلى عصابة من اللصوص ، ويصبح زعيماً لها ، ويقسم يمين الولاء لها حتى الموت ، ثم يهدى ضميره بلعب دور روبن هود . ويصفه أحد أفراد العصابة بهذه العبارات :

« انه لا يقتل كما تقتل طمعاً فى شىء يسلبه . أما المال . . . فيبدو أنه لا يعبأ به مثقال ذرة ، فثلث الغنيمة الذى هو حق خالص له يعطيه لليتامى ، أو ليعين به شباب الكلية المبشرين بمستقبل مرموق . أما إذا وقع فى براثنه عين من أعيان الريف الذين يسومون فلاحهم سوء العذاب كأنهم الأنعام ، أو وغدير فى فاخر الثياب ممن يعوجون القضاء ليعخدم مآربهم . . . أو أى رجل من هذا النوع — عندها يا بنى يتجلى على فطرته ثائراً هادراً كأنه شيطان رجيم » (٧٢) .

ويندد كارل برجال الدين لأنهم يتملقون السلطان ويعبدون صنم المال سرّاً ، « وخبرهم لا يتردد فى أن يخون الثالوث الأقدس كله فى سبيل عشرة شواقل » (٧٣) .

ويدبر فرانتس فى غصون هذا ابلاغ الكونت فى رسالة كاذبة أن كارل مات . ويصبح فرانتس الوريث لثروة أبيه ، ويتقدم لخطبة أميليا التى تحب كارل حياً أو ميتاً . ويدس فرانتس السم لأبيه ، ويهدى وخز ضميره بالإلحاد : « لم يثبت بعد أن فوق هذه الأرض عيناً ترقب كل ما يجرى عليها . . . ليس هناك إله » (٧٤) . ويسمع كارل بجرائم أخيه ، فيقود عصابته إلى قلعة الأب ويضرب حصاراً على فرانتس ، فينصرع هذا إلى الله مستميتاً فى التماس العون ، فإذا لم يصله عون قتل نفسه . وتقدم أميليا نفسها لكارل شريطة أن يخلصه عن حياة اللصوصية ؛ وهو تواق إلى هذا ، غير أن أتباعه يذكرونه بتعهده البقاء معهم حتى الموت . فيحترم تعهده ، وينصرف عن أميليا ؛ ولكنها تتوسل إليه أن يقتلها ، فيستجيب لها ، وبعد أن يرتب أن ينال عامل فقير المكافأة المرصودة للقبض عليه ، يستسلم للقانون وللمشقة .

وهذا كله بالطبع هراء . فالشخص والأحداث يستحيل تصديقها ،

والأسلوب منمق طنان ، والخطب لاتطاق ، والفكرة عن المرأة مثالية على نحو رومانسى . ولكنه هراء قوى . ذلك أن فينا كلنا تقريباً تعاطفاً خفياً مع أولئك الذين يتحدون القانون ؛ فنحن أيضاً نحس أنفسنا أحياناً وقد ضيقت علينا الخناق وأرهقنا آلاف القوانين والأوامر التى تكبلنا أو تغرنا وقد طال اعتيادنا على المنافع التى وهبنا إياها القانون حتى أننا لنأخذها قضايا مسلمة ؛ ونحن لا نشعر بتعاطف طبيعى مع الشرطة حتى نقع ضحية من ضحايا التمرد على القانون . ومن ثم وجدت التمثيلية المطبوعة قراء متحمسين واستحساناً حاراً ، ولم تمنع شكاوى الوعاظ والمشرعين ، الذين زعموا أن شيلر مجلد الجريمة ، أحد النقاد من أن يحبيه لأنه يعد بأن يصبح شكسبيراً « ألمانيا » (٧٥) ، ولا منعت المخرجين من أن يقترحوا لإخراج المسرحية .

وعرض البارون فولفجانج هريبرت فون دالبرج أن يقدمها على المسرح القومى بمانهيم إذا وضع لها شيلر نهاية أسعد . ففعل : واقتضى التعديل أن يتزوج مور أميليا بدلاً من أن يقتلها . وتسلسل شيلر من شتوتجارت دون أن يستأذن الدوق كارل أو بجين قائده الحربى ليحضر العرض الأول للمسرحية فى ١٣ يناير ١٧٨٢ . وأقبل الناس من فورمز ودارمشتات وفرانكفورت وغيرها من المدن ليشهدوا التمثيل . ولعب أوجست افلاندر دور كارل ، وكان من ألمع ممثلى الجيل ؛ وأبدى النظارة استحسانهم بالصياح والتشجيع ، ولم تلق مسرحية ألمانية أخرى من قبل مثل هذا الاحتفاء (٧٦) ، وكانت قمة فى الحركة الزوبعية . وبعد المسرحية كرم الممثلون شيلر وتودد إليه ناشر من مانهيم ، وشق عليه أن يعود إلى شتوتجارت ويستأنف حياته جراحاً للفوج . وفى شهر مايو تسلسل ثانية إلى مانهيم لشهد عرضاً آخر لمسرحية « اللصوص » ، وابتدأ مناقش مع دالبرج الخطط لمسرحية ثانية . فلما أن عاد ثانية إلى فوجيه ، وبخه الدوق وحظر عليه تأليف المزيد من التمثيليات .

ولم يقو على تقبل هذا الحظر . وفى ٢٢ سبتمبر ١٧٨٢ هرب إلى مانهيم فى صحبة صديق يدعى أندرياس سترابشر . وهناك قدم لدالبرج تمثيلية جديدة سماها « مؤامرة فييسكو فى جنوه » . وقرأها على الممثلين ،

فحكموا بأنها هابطة هبوطاً مؤسفاً عن مستوى « اللصوص » ، وقال والبرج أنه قد يخرج المسرحية إذا راجعها شيلر ؛ فعكف شيلر أسابيع على هذه المهمة ، ولكن دالبرج رفض حصيلة هذا الجهد . ووجد شيلر نفسه لا يملك فلساً . وأنفق سترابشر على إعاشته النفود التي ادخرها ليدرس الموسيقى في همبرج . فلما نفدت ، رحب شيلر بدعوة للإقامة في باورباخ في كوخ تملكه السيدة هنرييتا فون فولتسوجن . وهناك كتب تمثيلية ثالثة سماها « الدسييه والحب » . ووقع في غرام الأنسة لوته فون فولتسوجن البالغة من العمر ستة عشر ربيعاً . ولكنها أثرت عليه منافساً في حبها . وظفرت « فييسكو » التي نشرت في غضون هذا بتوزيع جيد . وندم دالبرج ، وأرسل إلى شيلر دعوة ليكون كاتب التمثيليات المقيم لمسرح مانهايم براتب قدره ثلاثمائة فلورن في العام . فوافق (يوليو ١٧٨٣) .

ونعم شيلر بعام من السعادة القلقة رغم كثرة ديونه التي عجز عن سدادها ورغم ما أصيب به مرة من مرض خطير . وعرضت فييسكو على المسرح أول مرة في ١١ يناير ١٧٨٤ ، وقد أفسدها ما أصر عليه دالبرج من نهاية سعيه سعادة لا يمكن تصديقها ، ولم تثر المسرحية أى حماسة من النظارة . بيد أن « الدسييه والحب » كانت أفضل بناء ، وأقل خطباً ، وأظهرت حساً متزايداً بالمسرح ؛ وقد رأى فيها البعض ، من وجهة النظر المسرحية ، أفضل المآسى الألمانية قاطبة^(٧٧) . وبعد أن فرغ الممثلون من العرض الأول (١٥ أبريل ١٧٨٤) ضج النظارة بتصفيق صاخب حمل شيلر على أن يقوم من مقعده في إحدى المقصورات وينحني للجماهير .

كانت سعادته مفرطة قصيرة الأجل . ذلك أنه لم يكن بطبيعته صالحاً للتعامل مع الممثلين ، الذين كانوا على شاكلته تقريباً في عصبيتهم ؛ فقد قسا في الحكم على آدائهم ، ولا مهم على عدم حفظ أدوارهم حفظاً دقيقاً^(٧٨) . ولم يستطع أن يكمل تمثيلية ثالثة سماها « دون كارلوس » في الزمن المشروط . فلما أن قارب عقده « كاتباً للمسرح » الانتهاء في سبتمبر ١٧٨٤ رفض دالبرج تجديده . ولم يكن شيلر قد ادخر شيئاً ، فعاد من جديد يواجه الإملاق والدائنين الذين فرغ صبرهم .

في هذه الفترة أو نحوها نشر بعض « الرسائل الفلسفية » التي تدل على أن الشكوك الدينية قد أضيفت إلى مشكلاته الاقتصادية . فهو لم يستطع تقبل اللاهوت القديم ، ومع ذلك اشمأزت روحه الشاعرة من الإلحاد المادى ، كذلك الذى عبر عنه دولباخ في كتابه « مذهب الطبيعة » (١٧٧٠) . ولم يعد قادراً الآن على أن يصلى ، ولكنه كان يحسد القادرين على الصلاة ؛ وقد وصف في إحساس بالحسرة الفادحة ذلك العزاء الذى يهبه الدين لآلاف النفوس في ظروف الألم والحزن والاحتضار ^(٧٩) . على أنه احتفظ بإيمانه بحرية الإرادة ، وبالخلود ، وبإله مجهول ، بانياً هذا كله ، كما بناه كانط ، على الوجدان الأخلاقى . وقد أعرب في عبارة لانتسى عن مبدأ المسيح الأخلاقى « حين أبغض أنزع شيئاً من نفسى ، أما حين أحب فلأنى أزيد ثراء بما أحب . والصفح معناه أن أتلقى ثروة فقدت . وكراهة البشر إنما هى انتحار بطيء » ^(٨٠) .

وسط هذه الظروف المعقدة جمل كرستيان جوتفريد كورنر حياة شيلر بصداقة من أروع الصداقات في تاريخ الأدب . ففي يونيو ١٧٨٤ أرسل إلى شيلر من ليزج رسالة تنم على الإعجاب الحار ، مشفوعة بصور له ، ولخطيبته منا شتوك ، وأختها دوراً ، وخطيب دوراً لودفيج هوبر ، ومحفظة جيب طرزتها منا . أما كورنر هذا فقد ولد في ١٧٥٦ (قبل مولد شيلر بثلاثة أعوام) لراعى كنيسة القديس توماس التى قاد فيها باخ قبل جيل الكثير من الموسيقى الخالدة . وقد نال الشاب أجازته في القانون وهو في الحادية والعشرين ، وكان الآن مستشاراً لمجلس الكنيسة الأعلى في درسدن . وأخير شيلر رده حتى ٧ ديسمبر ، إذ كان مرهقاً بمتاعبه وهمومه . ورد عليه كورنر يقول « نحن نقدم لك صداقتنا دون تحفظ ، فاحضر إلينا بأسرع ما تستطيع » ^(٨١) .

وتردد شيلر . وكان قد كون صداقات في مانهايم ، ووقع في غرام العديديات ، لاسيما (١٧٨٤) شارلوتة فون كالب ، التى تزوجت قبل

ذلك ، بعام واحد . وفي دارمشتات ، في ديسمبر ١٧٨٤ ، التقى بالدوق كارل أوجست أمير ساكسي - فايمار ، وقرأ عليه الفصل الأول من « دون كارلوس » ، ونال لقب Rat أو المستشار الفخرى ، ولكن لم يصله أى عرض بمكان في سماء فايمار . ومن ثم فقد قرر أن يقبل دعوة كرونر لليبرج . وعليه ، ففي ١٠ فبراير ١٧٨٥ أرسل إلى المعجب الذى لم يعرفه بعد نداء عاطفياً يظهره قريباً من نقطة الانهيار .

« في الوقت الذى يهرع فيه نصف سكان مانهايم إلى المسرح . . . أظير إليكم أيها الأصدقاء الأعزاء . . . فند أن تلقيت خطابكم الأخير لم تبرحني قط الفكرة بأننا مخلوقون بعضنا لبعض ، لا تسيثوا الظن بصدائقي إذ تبدو متعجلة بعض الشيء . فالطبيعة تطرح الكلفة في رضاها عن بعض الكائنات . والنفوس النبيلة ترتبط بخيط رقيق كثيراً ما يتبين أنه طويل البقاء .

« فإذا ما التمستم العذر لرجل تدفق قلبه أفكار عظيمة ولكنه لم ينجز غير أفعال صغيرة ؛ ورجل لا يستطيع إلى الآن إلا أن يحدس من حماقاته أن الطبيعة رصدته لشيء ما ، ويطالب بالحب الذى لا حدود له ، وهو مع ذلك يجهل ما في وسعه أن يقدمه رداً على هذا الحب ؛ ولكنه رجل يستطيع أن يحب شيئاً ما يتجاوز شخصه ، ولا يعذبه شيء كرويته نفسه بعيداً كل البعد من أن يكون ما يشتهي أن يكونه ؛ أقول إذا تطلع رجل هذه طبيعته إلى صد اقتكم فلن صد اقتنا ستكون أبدية ، لأننى أنا ذلك الرجل . فلعلمكم ستحبون شيلر ، حتى إن كان تقديركم للشاعر قد تضاعف » .

وقد توقف عن إكمال هذا الخطاب ، ولكنه استأنفه في ٢٢ فبراير :

« لا أستطيع المقام بعد اليوم في مانهايم . . . فلا بد لي من زيارة ليبرج والتعرف إليكم . إن نفسى متعطشة لغذاء جديد - لناس أفضل - للصدقة ، والمودة ، والمحبة . لا بد أن أكون قريباً منكم ، وبفضل حديثكم وصحبكم ستنتعش روحي الجريحة . . . يجب أن تهوئى حياة جديدة ، وسأصبح خيراً مما كنت في أى وقت مضى . سأكون سعيداً - لأننى لم أنعم بالسعادة قط إلى الآن . . . أتراكم ترحبون بمقدمى ؟ » (٨٢) .

ورد كورنر في ٣ مارس يقول « سنستقبلك بأذرع مفتوحة » ثم نقد ج. ي. جوشن الناشر الليبري بعض المال ليرسل إلى شيلر مقدم أتمابه عن مقالات مستقبله ^(٨٣). فلما أن وصل الشاعر إلى ليبزج (١٧ مارس ١٧٨٥) كان كورنر غائبا في درسدن ، ولكن خطيبته ، وأختها ، وهوبر ، ادفأوا شيلر بالطعام والحفاوة البالغة . وأحبه جوشن لتوه ، وكتب يقول « لأستطيع أن أصف لك مبلغ عرفان شيلر واستجابته حين تبذل له النصيحة الناقده ، ومبلغ جهاده في سبيل تطوره الخلقى » ^(٨٤).

والتقى كورنر بشيلر أول مرة في ليبزج في أول يوليو ، ثم قفل إلى درسدن . وكتب إليه شيلر يقول « لقد جمعت السماء بيننا بطريقة عجيبة ، وصداقتنا معجزة . » ولكنه أردف أنه أشرف على الإفلاس من جديد ^(٨٥) . فبعث إليه كورنر بالمال ، والطمأنينة ، والنصيحة :

« إن كنت في حاجة إلى المزيد فاكتب لى وسأرسل لك أى مبلغ يرجوع البريد . أننى لو كنت ذا ثراء طائل ، وكان فى استطاعتى . . . أن أرفعك فوق العوز والحاجة لضروريات الحياة فى يوم من الأيام . لما جرؤت على أن أفعل هذا ، فأنا عليم بأنك قادر على كسب ما نبقى بكل حاجاتك بمجرد أن تشرع فى العمل . ولكن اسمح لى — على الأقل سنة واحدة — بأن أعفبك من ضرورة العمل . فى استطاعتى أن أدبر هذا دون إعسار ، وفى استطاعتك أن ترد لى المال إن شئت حين تسمح بذلك ظروفك » ^(٨٦).

وزاد من قدر هذا الجود أن كورنر كان يجهز نفسه للزواج . وزف العروسان بدرسدن فى ٧ أغسطس ١٧٨٥ . وفى سبتمبر لحق بهما شيلر وعاش معهما ، أو على حسابهما ، حتى ٢٠ يوليو ١٧٨٧ . فى هذه الفترة أو نحوها — ربما وسط سعادة العروسين — كتب أشهر قصائده « أغنية للفرح » التى أصبحت تاج السمفونية التاسعة . وكلنا يعرف ميلودية بيتوفن المؤثرة ، ولكن القليلين منا ، خارج ألمانيا ، من يعرفون كلمات شيلر . وقد بدأت بنداء للمحبة الشاملة ، وانتهت بدعوة للثورة :

أيها الفرحة المنبثقة من هب سماوى
يا ابنة الفردوس ،
لأننا نقبل إلى هيكلك
ملتهبين بتلك النار المقدسة .
أنت صاحبة التعاويذ التى وحدت
من باعدت التقاليد الرهيبة بينهم ،
كل الناس يصبحون أخوة
حيث يمتد جناحك الرفيقان .

الكورس :
نحن نجتمع الملايين بين أحضاننا ،
ونرسل قبلتنا إلى الدنيا بأسرها !
أيها الأخوة ، ان وراء السماء المرصعة بالنجوم
يسكن أب محب .
من جرب النعيم المقيم
فى صداقة الأصدقاء ،
ومن ظفر بعذراء محبوبة
ليشاركنا فى ابتهاجنا .
ومن سبي قلبا
يملكه دون الناس أجمعين -
ومن أخفق ، فلينصرف
عن جماعتنا باكيا .

الكورس :
كل ساكن للكون الكبير
يقدم الإجلال للمبحة
وهى تتقدم الطريق إلى النجوم
حيث يملك الآله المجهول .
إن القلوب الباسلة الراضحة تحت الآلام
تمد يد العون حيثما يبكى الأبرياء .
والعهد الذى لا يخلد أبدا

والوفاء للصدى والعدو !
وتحدى الملوك ، والروح الجريئة ،
وإن كلفتنا المال والدم أيها الأخوة ،
التيجان لأشرف مستحقها
والموت لكل سلالة الكذابين !

الكورس : اقفل الدائرة المقدسة
وأقسم بالخمرة الذهبية !
أقسم بالوفاء بهذه العهود المقدسة
أقسم برب الفلك .

وظل كورنر يعول شيلر عامين أملاً في أن يصوغ الشاعر في شكل لائق تلك المسرحية التي قصد بها تصوير الصراع بين فليب الثاني وابنه كارلوس . ولكن شيلر طال توانيبه وتسويفه للتمثيلية حتى فقد المزاج الذي بدأها به ، ولعل ازدياد اطلاعه على التاريخ غير نظرتة إلى فليب ، ومهما يكن الأمر ، فقد غير الحبكة حتى افتقدت الوحدة والتسلسل . « وفي غضون هذا (فبراير ١٧٨٧) وقع في غرام هنرييتا فون أرني ، واستهلكت الخطابات الغرامية مداد قلمه ، بينما كانت هي تتصيد خطيباً أغنى منه . وأقنع كورنر شيلر بأن يعتكف في إحدى الضواحي حتى يفرغ من مسرحيته . وأخيراً تمت (يونيو ١٧٨٧) ، وعرض مسرح همبورج أن يخرجها . وانتعشت معنوية شيلر وكبرياؤه ، فلعله الآن يرى جديراً بالانضمام إلى كوكبة الأدباء المتألقة حول الدوق كارل أوجست ، أما كورنر الذي تنفس الصعداء فقد وافقه على أنه ليس للشاعر مستقبل في درسدن . ثم إن شارلوتة فون كالب كانت في فايمار ، بغير زوج ، تغريه بالمجيء . وعليه ، ففي ٢٠ يوليو ، وبعد الكثير من عبارات الوداع ، ركب شيلر منطلقاً من درسدن إلى حياة جديدة . فوصل فايمار في الغد ، وهكذا اكتمل عقد الزمرة العظمى .

الفصل الثالث والعشرون

فأعمار إبان ازدهارها

١٧٧٥ - ١٨٠٥

١ - ... تنمة لفيلاندا : ١٧٧٥ - ١٨١٣

حين رأى مونتسارات فيلاندا في مانتهايم عام ١٧٧٧ قال في وصف وجهه أنه « قبيح إلى حد مخيف ، تغشاه ندوب الجدري ، وله أنف طويل . . . وفيما خلا هذا فهو . . . رجل موهوب جداً . . . والناس يحدقون فيه كأنه قد هبط من السماء » (١) . وقد كرهه طيور النوء الهائجون أنصار الحركة « الزوبعية » لأنه سخر من انتشاءاتهم المتمردة ؛ أما فأعمار فأحبته لأنه لطف نطقه اللاذع بالكياسة وبغفران عام للنوع الإنساني ، ولأنه احتمل في رضى تفجر النجوم الجديدة مراراً في سماء الأدب بينما كان في استطاعته أن يدعى لنفسه مكان الصدارة . وقد خلد جوته ذكره في سيرته الذاتية بشعور العرفان بصنيعه (٢) . أما شيلر فقد خاله في أول لقاء بينهما مغروراً محزوناً ، ولكن « الموقف الذى اتخذته منى للتو يدل على الثقة والحب والتقدير » (٣) .

وقال الشاعر الكبير للشاعر الفتى « سنفتح عما قليل قلبينا الواحد للآخر ، وسيساعد كل منا صاحبه بدوره » (٤) ، وقد أثبت وفاءه بهذا الوعد ، « لأننى وفيلاندا نتقارب أكثر كل يوم . . . ولا تفوته مناسبة لا يذكرنى فيها بكلمة طيبة » (٥) .

وقد وفق فيلاندا في منافسته للوافدين الجدد بإصداره في ١٧٨٠ رواية شعرية اسمها « أوبرون » تحكى قصة فارس تنقله عصا أمير الجان السحرية من مائة جنية ومن شركاء مفاتن ملكة اشتدت بها حرارة العشق . وحين

اضطر جوته إلى الجلوس لمصور يرسم صورته وأراد أن يقعد ساعة دون حركة ، طلب إلى فيلاند أن يقرأ عليه أجزاء من هذه الملحمة . يقول فيلاند « لم أشهد قط إنساناً سعد بعمل إنسان آخر كما سعد جوته » ^(٦) . وقد ترجم جون كوينسى آدمز القصيدة وهو سفير للولايات المتحدة في بروسيا في ١٧٩٧ - ١٨٠١ ، واقتبس منها جيمس بلانشيه نص أوبرا فيبر (١٨٢٦) .

واحتوى عدد مارس ١٧٩٨ من مجلة فيلاند « الرائد الألماني الجديد » مقالة يحتمل أنها بقلم فيلاند - تنبأت بالأحداث المقبلة على نحو يلفت النظر . فقد لاحظت الفوضى التي تردت فيها فرنسا منذ ١٧٨٩ ، وأوصت بتعيين دكتاتور لها ، كما وقع في الأزمات التي تعرضت لها روما الجمهورية ، ورشحت بوناپرت الشاب ، الذي كان يواجه المتاعب يومئذ في مصر ، بوصفه صالحاً لهذه المهمة بشكل واضح . وحين فتح نابليون ألمانيا فعلا التقى بفيلاند في فامار وفي ايرفورت (١٨٠٨) ، وتحدث معه في أدب اليونان والرومان وتاريخهم ، وكرمه فيمن كرم من الكتاب الألمان بوصفه أعظمهم بعد جوته ^(٧) .

وفي ٢٥ يناير ١٨١٣ كتب جوته في يوميته « دفن فيلاند اليوم » ثم أنهى النبأ إلى صديق في كارلسباد قائلاً : « لقد تركنا صديقنا الطيب فيلاند . . . في ٣ سبتمبر احتفلنا كما الفنا كل عام بعيد ميلاده الثمانين بمظاهر الابتهاج . لقد كان في حياته توازن بديع بين الهدوء والنشاط . فلقد أسهم بقدر هائل في ثقافة الأمة العقلية في ترو وأناة ملحوظين ، دون أى نضال مشوب أو صراخ عال » ^(٨) .

٢ - هرذر والتاريخ : ١٧٧٧ - ١٨٠٣

كتب شيلر في يوليو ١٧٨٧ « لقد تركت هرذر لتوى . . . أن حديثه رائع ، ولغته دافئة قوية ، ولكن مشاعره يراوحها الحب والكراهة » ^(٩) .

وكانت واجهات هرذر في فامار متنوعة ، فلم تتج له متسعاً من الوقت للتأليف . فكان بصفته قسيساً خاصاً للدوق يقوم بواجبات العباد ، والتثبيت

فى الإيمان ، وعقد الزيجات والإشراف على الجنازات لأسرة الدوق وبلاطه ، وبصفته المراقب العام للدوقية كان يشرف على سلوك الأكليروس وتعييناتهم ، ويحضر اجتماعات مجلس الكنيسة ويلقى عظات فيها من سلامة العقيدة القدر الذى تسمح به شكوكه الخاصة . وكانت مدارس الدوقية تحت إدارته ، فأصبحت نموذجاً تحتذى ألمانيا كلها . هذه المسئوليات مضافاً إليها ناسوره وسوء صحته عموماً ، جعلته سريع الغضب وصبغت حديثه بين الحين والحين بما سماه جوته « اللدغة الخبيثة » ^(١١) . وقد ظل ثلاث سنين (١٧٨٠ — ٨٣) هو وجوته يتجنب أحدهما صاحبه ؛ وقد أنكر الدوق بعض عظات هررد . قال جوته « بعد عظة كهذه لم يبق أمام أى أمير إلا الاعتزال » ^(١٢) . وقال فيلاند اللطيف الطبع معلقاً فى ١٧٧٧ « وددت لو قام بينى وبين هررد اثنا عشر هرمًا » ^(١٣) ، وتعلمت فإيمار أن تلتمس المعازير « الاكلينيكية » لتسييسها الشبيهة بدين سوفيت ، وردت زوجته اللطيفة كارولينه على بعض لدغه . وفى ٢٨ أغسطس ١٧٨٣ اغتنم جوته اتفاق وقوع عيد ميلاده وعيد ميلاد ابن هررد البكر فى يوم واحد ليدعو آل هررد للعشاء . واصطلح عضو المجلس الخاص والمراقب العام ، وكتب جوته يقول ان « السحب الكئيبة التى فرقت بيننا طويلاً قد انجلى ، وإلى الأبد فى اعتقادى » ^(١٤) . وبعد شهر أضاف « لست أعرف رجلاً أنبل قلباً أو أسمى روحاً » ^(١٥) ، وذكر شيلر فى ١٧٨٧ أن « هررد شديد الإعجاب بجوته — بل هو يكاد يعبده » ^(١٦) . وأصبح فيلاند وهررد فى الوقت المناسب صديقين متفاهمين ^(١٧) ، وكان هذان ، لا جوته ولا شيلر ، هما اللذين قادا الحديث فى صالون آنا أماليا واكتسبا قلب الدوقة الأرملة ^(١٨) .

وواصل هررد وسط واجباته الإدارية البحث فى الشعر البدائى ، وجمع عينات منه من نيف وعشرة شعوب ، ومن أورفيدس إلى أوسيان ، ونشرها فى « مختارات سماها Volksliede » « أغاني شعبية » (١٧٧٨) أصبحت ينبوعاً من ينباع الحركة الرومانتيكية فى ألمانيا . وبينما كان جوته يتبأ لعودة إلى المثل والأشكال والأساليب الكلاسيكية ولضبط العقل للعاطفة ، كان هررد يشير بالانتفاض على عقلانية القرن الثامن عشر وشكالية القرن السابع عشر والعودة إلى إيمان العصر الوسيط وأساطيره وأناشيده وأساليب حياته .

وفي ١٧٧٨ عرضت الأكاديمية البافارية جائزة لأفضل مقال « في آثار الشعر في عادات الأمم وأخلاقيها » . وفاز مقال هرذر ونشرته الأكاديمية في ١٧٨١ . وقد تتبع المقال مارآه المؤلف تدهوراً للشعر بين العبرانيين واليونان والأوربيين الشماليين ، من التعبير الملحمي المبكر عن التاريخ والمشاعر والأفكار الشعبية في إيقاعات طليقة فياضة ، إلى تدريب « مصقول » ومدرسى ، بعد المقاطع ، ويلوى القوافي ، ويقدر القواعد ، ويضيع حيوية الشعب وسط مظاهر الافتعال المميته التي تشوب حياة الحضر . وزعم هرذر أن النهضة الأوربية قد انتزعت الأدب من الشعب وحبسته بعيداً في قصور الملوك والأمراء ، وأن الطباعة قد احلت الكتاب محل المنشد الحي . وفي مقال آخر « في روح الشعر العبرى » (١٧٨٣) اقترح هرذر قراءة سفر التكوين على أنه شعر لا علم ، وكان قد تمكن من العبرية بجهده الخاص ، وألمع إلى أن شعراً كهذا يستطيع أن يحمل بالرمزية من الحقيقة قدر ما يحمله العلم ؛ « الواقع » .

ولقد كافح إيمانه الدينى للصمود رغم سعة اطلاعه على الكتب العلمية والتاريخية . ففي عامه الأول في فامبار اشتبه بعضهم في أنه ملحد ، حر الفكر ، سوسيني ، صوفى (١٨) . وكان قد قرأ أجزاء « مخطوطة فولفنبوتل » لريماروس ، التي نشرها ليسنج ، وتأثر بها تأثراً كفى لتشكيكه في لاهوت المسيح (١٩) . ولم يكن ملحداً ، ولكنه وافق على وحدة الوجود التي قال بها سبينوزا . قال لياكوب في ١٧٨٤ « لست أثبتن إلها من وراء العالم المادى » (٢٠) . وقد حلوا ليسنج في دراسة سبينوزا والدفاع عنه ، « يجب أن أعترف أن هذه الفلسفة تسعدنى جداً » (٢١) . وقد كرس لسبينوزا الفصول الأولى من رسالة عنوانها « أحاديث عن الله » (١٧٨٧) ، ففي هذا البحث فقد الله صورته الذاتية وأصبح قوة الكون وروحه ، الذي لا سبيل إلى معرفته إلا في نظام العالم والوعى الروحى للإنسان (٢٢) . على أن هرذر في دراساته الموجهة إلى الأكليروس قبل الصفة الحارقة لمعجزات المسيح ، وخلود النفس (٢٣) .

ثم جمع العناصر المتفرقة لفلسفته وجعل منها كلا منسقاً نسبياً في رائعة ضخمة سماها في تواضع « أفكار نحو فلسفة في تاريخ الإنسان » ، وهي

كتاب من كتب القرن الثامن عشر البزرية الخطيرة . صدر في أربعة أجزاء في ١٧٨٤ و ١٧٨٧ و ١٧٩١ . وإشراف مشروع ضخيم كهذا على التمام وسط مسئوليات هرذر الرسمية يقوم شاهداً على الخلق القوى والزوجة الصالحة . وآية ذلك ما كتبه هرذر إلى هامان في ١٠ مايو ١٧٨٤ : « لم أولف طوال حياتي كتاباً كهذا وأنا نهب للكثير من المتاعب وأسباب الإرهاق من الداخل ودواعي الإزعاج من الخارج ، بحيث أستطيع القول إنه لو لا أن زوجتي ، التي هي « المؤلف الحقيقي » لكتبي ، ولولا جوته الذي نظرت مصادفة في الجزء الأول - أقول لو لا أنهما لم يفترأ عن تشجيعي وحشي ، لظل كل شيء في مثوى الكائنات التي لم تر النور » (٢٤) .

ويستهل الجزء الأول بقصة للخليعة ، دنيوية في صراحة ، مبنية على الفلك والجيولوجيا المعروفين ، دون لجؤ للكتاب المقدس إلا بوصفه شعراً . وقد زعم أن الحياة لم تنشأ من المادة ، لأن المادة ذاتها حية . والجسم والعقل ليسا جوهرين منفصلين متضادين . إنما هما صورتان لقوة واحدة ، وكل خلية في كل جسم حتى تحتوى الصورتين إلى حد ما . وليس هناك قصد خارجي يمكن رؤيته في الطبيعة ، ولكن هناك قصداً باطنياً - هو « التصميم الكامل » والباعث لكل بذرة أن تتطور إلى كائن نوعي بكل ما لها من أجزاء معقدة مميزة . وهرذر لا يقول بأن الإنسان تطور من الحيوانات الدنيا ، ولكنه يراه عضواً في المملكة الحيوانية ، يناضل كغيره من الكائنات للطعام والبقاء . وقد أصبح الإنسان إنساناً باتخاذ القامة المنتصبة ، مما طور فيه جهازاً للحس قائماً على البصر والسمع لا على الشم والذوق ، فغدت قوائمه الأمامية أيدي ، حرة في القبض ، والاستعمال ، والاحتواء ، والتفكير . وأسماى ثمرات الله أو الطبيعة هو الذهن الواعي ، الفعال بتفكير وحرية ، المكتوب له الخلود .

ويبدأ الجزء الثاني من « الأفكار » بفرض يزعم أن الإنسان بطبيعته خير ، ويجدد القول بالتفوق والسعادة النسييين للمجتمعات البدائية ، ويستنكر الفكرة الكانطية - الهيكلية فيما بعد - التي تزعم أن الدولة هي هدف التطور البشري . وقد احتقر هرذر الدولة كما عرفها . كتب يقول « في الدول العظمى لا بد

أن يتضور المئات جوعاً لكي يزدهر فرد واحد ويتقلب في النعيم ؛ أن عشرات الألوف يظلمون ويساقون إلى الموت لكي يستطيع أحسن أو عاقل متوج واحد أن يحقق حلمه » (٢٥) .

وفي الجزء الثالث امتدح هرذر أثينا على ديمقراطيتها النسبية التي أتاحت للحضارة أن تنتشر في كثير من طبقات السكان . أما روما التي أقامت ثراءها على الفتح والرق فقد طورت حضارة ضيقة خلفت الشعب في الفقر والجهل . في هذا التاريخ كله لم ير هرذر أى « عناية إلهية » ، فهو أشد من أن يكون من عند الله . فالله ، الواحد مع الطبيعة ، يدع الأمور تجري في أعينها وفق القانون الطبيعى وغباوة البشر . ومع ذلك فبحكم صراع البقاء ذاته ينبعث بعض التقدم من الفوضى ؛ فيطور العون المتبادل ، والنظام الاجتماعى ، والأخلاق ، والقانون ، كوسائل للبقاء ، ويتحرك الإنسان في بطء صوب إنسانية رحيمة . لا لأن هناك خطأ متصلاً للتقدم ، فهذا غير ممكن ، لأن كل حضارة قومية هي كيان فريد ، له طابعه المتأصل ، ولغته ، ودينه ، وناموسه الخلقى ، وأدبه وفنه ، وكل حضارة — شأنها شأن أى كائن حي — إذا استئثنتها ما يطرأ عليها من حوادث عارضة — تنحو للنمو إلى نهايتها القصوى الطبيعية ، التي تضمحل بعدها وتموت . وليس هناك ضمان لتفوق الحضارات اللاحقة على السابقة ، ولكن اسهامات كل حضارة تنقل على نحو أفضل إلى الحضارات التي تخلفها . وهكذا ينمو التراث الإنسانى .

والجزء الرابع يمدح المسيحية أما للمدنية الغربية . فالبابوية الوسيطة حققت هدفاً نافعاً يكبحها استبدادية الحكام والنزعة الفردية للدول ؛ والفلاسفة المدرسيون ، وان نسجوا نسيجاً واهياً أجوف بالفاظ ثقيلة ، إلا أنهم أرفهوا أدوات العقل ولغته . وجامعات العصر الوسيط جمعت وحفظت ونقلت الكثير من ثقافة اليونان والرومان ، بل بعض علوم العرب والفرس وفلسفتهم . وهكذا أصبح المجتمع الفكرى أكبر عدداً وأرهم حساً من أن يقوى عليه سدة السلطة . ونحطمت أغلال العرف ، وأعلن العقل الحديث تحرره .

وحقق هرذر فيما بين الجزئين الثالث والرابع من « الأفكار » حلمه الذي طال تأجيله بروية إيطاليا . ذلك أن يوهان فريد ريش هوجو فون دالبرج ، المستشار الكاثوليكي الخاص لرئيس أساقفة تريير الناخب ، دعا هرذر ليصحبه في رحلة كبرى تدفع له فيها كل نفقاته . وأذن له دوق ساكسى - فامار ، وكارولينه ، بالغياب ؛ فغادر فامار في ٧ أغسطس ١٧٨٨ . فلما لحق بدالبرج في أوجزبرج وجد أن خلية دالبرج عضو هام في الجماعة . واجتمع على هرذر وجودها ومطالبها ، وسوء صحته ، لتنقص عليه رحلته . وفي أكتوبر وصلت آنا أميليا إلى روما . فترك هرذر دالبرج وانضم إلى بطانتها . وقد استلطف الإنجليزي كاوفان استلطافاً أكثر مما ترضى عنه كارولينه ، وأسرفت رسائل كارولينه في الكلام عن جوته والميل إليه . وعاد هرذر لدغه ، وكان قد سمع أنباء عن حياة جوته في روما . وكتب يقول « ان رحلتى هنا كشفت لى لسوء الحظ عن حياة جوته الأنانية على نحو أوضح مما كنت أتمنى ، وهى حياة فى صميمها لاتعبأ بالغير على الإطلاق . إنه لا يملك غير هذا ، فلندعه وشأنه إذن . . » (٢٦) .

وعاد إلى فامار في ٩ يوليو ١٧٨٩ . وبعد خمسة أيام سقط الباستيل ، وغير هرذر خططه فى التأليف . فأكمل الجزء الرابع من « الأفكار » ، ثم نعى الكتاب جانباً ، وكتب بدلاً منه « رسائل لتقدم الإنسانية (١٧٩٣ - ٩٧) » . وقد بدأها بتقريظ حذر للثورة الفرنسية ، ورحب بأهيار الإقطاع الفرنسى ، ولم يدرى دموعاً على علمنة الكنيسة الكاثوليكية فى فرنسا (٢٧) ، وحين انطلق الدوق وجوته لمواجهة الفرنسيين عند فالى ، وعادا يجرران أذيال الهزيمة ، حبس هرذر هذه « الرسائل » الأولى ، ونخصص الباقى للثناء على الموتى من العباقرة الذين لا خوف من الثناء عليهم .

ولم يفقد فى شيخوخته شيئاً من لذة الصراع الفكرى . فقابل نقد كانط لكتاب « الأذكار » بهجوم حاد على « نقد العقل الخالص » . ووصف الكتاب بأنه تلاعب رهيب بالألفاظ الميتافيزيقية الأشباح ، مثل « الأحكام التركيبية القبلية » ، وأنكر ذاتية المكان والزمان ، واتهم كانط بأنه أعاد إلى علم النفس فكرة الملكات ، التى زعم الفلاسفة

المدرسيون أن العقل ينقسم إليها . ثم المبحر ، في تنبؤ ، إلى أن الفلسفة قد تختلط طريقاً جديداً بالتحليل المنطقي للغة—لأن الاستدلال ما هو إلا حديث باطنى .

وقد وافق جوته إلى حد كبير على نقد هردر لكانط ، ولكن هذا لم يعصمه من لدغة نصيبه منه بين الحين والحين . فعين أقام كلاهما تحت سقف واحد في يينا عام ١٨٠٣ قرأ جوته على جماعة كان هردر واحداً منها أجزاء من مسرحيته الجديدة « الإبنة الطبيعية » (أى غير الشرعية) . وأثنى هردر على المسرحية للآخرين ، ولكن حين سأله المؤلف رأيه لم يستطع مقاومة الرد بتورية عن الصبي الذى ولدته خلية جوته فقال : « انى أحب ابنك الطبيعى أكثر من ابنتك الطبيعية » ولم يستطع جوته الدعابة . وبعد ها لم يلتق الرجلان قط . واعتكف هردر فى خلوة بيته بفایمار ، ومات هناك فى ١٨ ديسمبر ١٨٠٣ — قبل شيلر بعامين ، وقبل فيلاند بعشرة ، وقبل جوته بتسعة وعشرين ودفن بأمر الدوق كارل أوجست — الذى كثيراً ما ضايقه هردر — بمراسم التكريم الكبير فى كنيسة القديسين بطرس وبولس .

٣ — جوته عضو المجلس الخاص

١٧٧٥ — ٧٦

لقى جوته فى فایمار ترحيباً من الجميع إلا السياسيين . كتب فيلاند إلى لافاتر فى ١٣ نوفمبر ١٧٧٥ « لا بد لى من انبائك بأن جوته معنا منذ الثلاثاء الماضى ، وأنه لم تنقضى ثلاثة أيام حتى شعرت بمحبة عميقة لهذا الشخص الرائع — فأنا أنفذ إلى أعماقه وأحسه وأفهمه تماماً — على نحو تستطيع أن تتخيله أفضل كثيراً مما أستطيع أن أصفه » (٢٨) . وفى الشهر نفسه كتب أحد رجال الحاشية إلى والدى جوته يقول « فكرا فى ابنكما كأوثق صديق لدوقنا العزيز ، . . . وهو محبوب إلى حد العبادة أيضاً من جميع السيدات من فضليات النساء فى هذه المنطقة » (٢٩) .

بيد أن سماء فایمار لم تخل من غيوم . ذلك أن الدوق كان يستطيط الصيد العنيف والإفراط فى الشراب ، وقد صاحبه جوته فيها جميعاً أول الأمر ،

فاتهم كلوبشتوك الشاعر علانية بأنه يفسد أميراً فاضلاً . وخشيت لويزه أن يتصوى جوته زوجها عنها ، مع أن حقيقة الأمر أنه استخدم تأثيره ليرد الدوق إلى الدوقة رغم أن زواجهما لم يكن زواج حب . وتشكك بعض الموظفين في جوته باعتباره تابعاً متطرفاً من اتباع الحركة « الزوبعية » ذا معتقدات وثنية وأحلام رومانسية . وهجم على فایمار عدد من أنصبا تلك الحركة — لنتن ، وكلنجر ، وغيرهما — وقدموا أنفسهم باعتباره هم أصدقاء جوته ، وطالبوا بالغنيمة . وحين استلطف جوته بيتا ذا حديقة خارج بوابة المدينة ولكنه قريب من قلعة الدوق — أفقد كارل أوجست جوته بعض عطف الرأى العام بإخلائه شاغلي البيت تمكيناً لجوته من الانتقال إليه (٢١ أبريل ١٧٧٦) . هناك تخفف الشاعر من مراسم البلاط ، وتعلم كيف يزرع الخضر والأزهار . وظل ثلاثة أعوام يسكن البيت على مدار السنة ، ثم في الصيف فقط حتى ١٧٨٢ ، حين انتقل إلى قصر فسيح في المدينة لينصرف إلى واجباته المتزايدة بصفته عضواً في الحكومة .

كان الدوق قد فكر فيه شاعراً ، ودعاه إلى فایمار ليكون كوكباً من كواكب الأدب في بلاطه . ولكنه رأى أن مؤلف مسرحية ناثرة ورواية غرامية باكية ، هذا الكاتب الذى ناهز السادسة والعشرين ، أخذ يصبح رجلاً ذا حكم عملى سديد . وعليه فقد عين جوته في « مكتب للأشغال » ، وطلب إليه أن ينظر في حالة المناجم في المينا وفي تشغيلها . وقام جوته بالمهمة بهمة وذكاء حملاً كارل أوجست على التصميم على ضمه للمجلس الخاص الذى يدير شئون الدوقية . واحتج عضو قديم على تدفق الشعر على المجلس على هذا النحو الفجائى ، وهدد بالاستقالة . ولكن الدوق والدوقة الأرملة هدها ثائرتة ، وفي ١١ يونيو ١٧٧٦ أصبح جوته « عضو المجلس المختص بالتفويض الدبلوماسى » براتب سنوى قدره ألف ومائتا طالر . فقلل من مغازلاته للسيدات . وقد كتب فيلاند لميرك في ٢٤ يناير يقول « منذ أمد طويل ، من اللحظة التى قرر فيها أن يكرس نفسه للدوق وشئون الدوق ، راح يسلك بحكمة مبرأة من الخطأ وبحذر الرجل الخبير بأمور الدنيا » (٣٠) . وفي ١٧٧٨ رقى إلى منصب وزير الحرب ، وكان يومها

منصباً هادئاً ، ثم إلى العضوية الكاملة للمجلس الخاص في ١٧٩٩ . وقد حاول بعض الإصلاح ، ولكنه وجد نفسه معوقاً بالمصالح الكنسية في القمة ، واللامبالاة العامة في القاعدة ، وما لبث هو نفسه أن بات محافظاً تام المحافظة . وفي ١٧٨١ عين رئيساً لغرفة الدوقية . وفي ١٧٨٢ خلع عليه يوزف الثاني براءة النبالة ، وغدأ « فون » جوته . قال لأكرمان بعد خمسة وأربعين عاماً « في تلك الأيام كنت أشعر بغاية الرضى عن نفسي بحيث انى لو كنت رقيت أميراً لما وجدته تغييراً ذا بال » (٣١) .

وامتزجت بمستقبله السياسى قصة غرام كانت أبقي وأحر وآلم حب في حياته . استمع إلى وصف الدكتور يوهان تسمرمان لإحدى مرضاه وصفاً لا يمت إلى الطب بسبب في نوفمبر ١٧٧٥ .

« ان للبارونة فون شتين ، زوجة البارون ورئيس الخياله ، عيوناً نجلاء سوداء رائعة الجمال . وصوتها رقيق خافت . ولا يفوت أحداً أن يلحظ على وجهها سمات . . . الرزانة ، ودماثة الطبع ، واللطيف . . . والفضيلة ، والحساسية العميقة . أن آداب السلوك في البلاط ، التي تملك ناصيتها إلى حد الكمال ، تحولت فيها إلى بساطة رفيعة نادرة . وهى نقية جداً ، ذات سمو روحى مؤثر يكاد يبلغ حد النشوة . ولا يستطيع المرء من مشيتها الأنيقة ومهارتها في الرقص التي تقرب من مهارة المحترفين ان يستشف نور القمر الهادىء المطمئن . . . الذى يملأ قلبها بالسلام . أنها في الثالثة والثلاثين ، ولها عدة أطفال . وأعصابها ضعيفة . ووجنتها ورديتان ، وشعرها فاحم ، وبشرتها . . . إيطالية اللون » (٣٢) .

وقد ولدت شارلوتة فون شارت في ١٧٤٢ ، وتزوجت البارون يوسياس جوتلوب فون شتين في ١٧٦٤ . وفي ١٧٧٢ بلغ مجموع ما أنجبت من أطفال سبعة ، مات منهم أربعة . وحين التقى بها جوته كانت لاتزال تعاني من الحمل المتكرر ، وامتزج إحساسها بالضعف بما فطرت عليه من تواضع وحياء . ورفعها جوته في خياله إلى السماء ، ولا غرو فقد كان فيه دم شاب وخيال شاعر ، ألف تجميل الواقع ونيط به هذا التجميل ، ومع ذلك لم يجاوز

ما قاله طبيبها في تمجيدها . فقد كانت شيئاً جديداً في بستان وروده النسائية : كانت ارسقراطية ، كأنما ركب السلوك المهذب في فطرتها ، ورآها جوته كأنها من النفائس المدخورة في قدس النبالة . وكان من ثمرات علاقتهما أنها نقلت إليه آداب طبقتها ، وعلمته ضبط النفس ، والطبيعية ، والاعتدال ، والمجاملة . وكانت شاكراً حبه إياها لأنه رد إليها اهتمامها بالحياة ، ولكنها قبلت هذا الحب كما تقبل امرأة كريمة المربي إعجاب فتى يصغرها بسبع سنين — باعتباره آلام النمو لروح متشوف يبحث عن التجربة وتحقيق الذات .

ولم يكن حباً من أول نظرة ، فبعد أن انضم إلى زمرة فامار بستة أسابيع كان لا يزال يقرض الشعر عن « الجميلة لى » شوئمان (٣٣) . ولكن في ٢٩ ديسمبر ١٧٧٥ ، لاحظ الدكتور تسمرمان تنبه جوته إلى « فضائل ومفاتيح جديدة في شارلوتة » . وما حل ١٥ يناير حتى كان يحاول مقاومة افتتاحه الوليد بها ، فقال لها « اننى مسرور لأنى أبعد عنك وأفطم نفسى منك » ، ولكن لم يواف ٢٨ يناير حتى كان قد ألقى السلاح ، وكتب إليها يقول « ياملاكى الحبيب ، لن آتى إلى البلاط . ان بى من شعور السعادة ما لا أطيع معه كثرة الخلق . . . فأسمح لى أن أحبك كما أفعل » . ثم كتب في ٢٣ ٢٣ فبراير « يجب أن أخبرك أيتها المختارة بين النساء أنك أقيت في قلبى حباً يملؤنى بهجة » (٣٤) .

وردت برسائل كثيرة ، ولكن لم يبق منها غير واحدة من هذه الحقبة : « لقد عزلت نفسى بعيداً عن العالم ، ولكنه الآن يعود إلى عزيزا ، وعزيزا بسببك . ان قلبى يبكئنى وأنا أشعر اننى أعذب نفسى وأعذبك . فقبل ستة أشهر كنت على أتم استعداد للموت ، وأنا لم أعد الآن مستعدة للقائه » (٣٥) . وملكتة النشوة . فقال لفيلاندا « ليس من تفسير لما تفعله هذه المرأة بى . . . إلا إذا قبلت نظرية التقمص . أجل ، لقد كنا يوماً ما رجلاً وزوجته ! » (٣٦) واتخذ لنفسه امتياز الأزواج في الشجار والمصالحة . كتبت شارلوتة إلى تسمرمان في مايو ١٧٧٦ تقول : « لقد تركنى ثائراً قبل أسبوع ، ثم عاد بحب طاغ . . . فإذا هو صانع بى في النهاية ؟ » (٣٧) ويبدو أنها أصرت على أن يظل حبهما أفلاطونياً ، أما هو فكان به من حرارة العشق مالا يجعله

يترك جبهما عند هذا الحد ، فقال لها « ان امتنع على العيش معك فإن حبك لن ينفعني بأكثر من حب غيرك الغائبات عني » (٢٨) . ولكنه أردف في الغد « اصفحي عني أننى آلمتك . وسأحاول بعد اليوم أن أحتمل الألم وحدى » (٢٩) .

وشعر بالوحشة حين ذهبت إلى بيرمونت النائية في الشمال للعلاج ، ولكنها زارته في المينا وعند عودتها (٥ - ٦ أغسطس ١٧٧٦) . وكتب في ٨ أغسطس يقول « كان لحضورك أثر عجيب في . . . وحين أفكر أنك كنت هنا في كهفي معي ، ولأننى أمسكت بيدك وأنت تنحنين على . . . أرى صلتك بي مقدسة وغريبة معاً . . . فليس هناك كلام يعبر عنها ، وأعين الرجال لا تبصرها » (٣٠) . وكان لا يزال حاراً في حبه لها بعد أن انقضى على لقائهما الأول قرابة خمس سنين . ففي ١٢ سبتمبر ١٧٨٠ كتب وهو وحيد في زلباخ « كلما استيقظت من أحلامي وجدتني مازلت أحبك وأصبر إليك . والليلة بينما كنا راكبين ورأينا النوافذ المضاءة في بيت أماننا ، قلت في نفسي ليتما هناك لتضيفنا . ان هذا المكان جحر حقير ، ومع ذلك فلو أننى استطعت أن أعيش هنا في هدوء طوال الشتاء معك لأحببته كثيراً » (٣١) . ثم كتب في ١٢ مارس ١٧٨١ :

« لقد امتزجت روحانا امتزاجاً جعلنى كما تعلمين مربوطاً بك رباطاً لافكاك منه ، ولن يفصلنا علو ولا عمق . وددت لو كان هناك قسم ما أو سر مقدس ما يربطنى بك على نحو مرئى ووفقاً لقانون ما . لكم يكون هذا رائعاً ! ولا شك أن فترة الاختبار كفانى طولها لانعام التفكير الواجب في الأمر . . . أن اليهود يربطون زناراً حول أذرعهم أثناء الصلاة . وهكذا أربط على ذراعى زنارك العزيز حين أوجه صلاتى إليك ، وأرغب إليك في أن تنقلنى إلى طبيبتك وحكمتك واعتدالك وصبرك » .

وقد فسر بعضهم « فترة الاختبار » المنصرمة ، بأنها تشير إلى أن شارلوتة أسلمت جسدها إليه » (٣٢) ، ومع ذلك كتب إليها بعد ست سنوات يقول .

(م ١٩ - قصة الحضارة ج ٤١)

« يا عزيزتي لوته ، أنت لا تعلمين أى عتف أوقعته بنفسى وما زلت أوقعه : وكيف أن فكرة عدم امتلاكى لإيابك . . . ترهقنى وتفزىنى » (٤٣) . فإذا كان غرامهما قد اكتمل حقاً فإن السر قد كتم أحسن كتمان . وقد احتمل البارون فون شتين ، الذى عمر حتى ١٧٩٣ ، هذه العلاقة الغرامية بمجاملة جنتلمان من أهل القرن الثامن عشر . وكان جوته يحتم خطاباتهِ بين الحين والحين بعبارة « تحياتى إلى شتين » (٤٤) .

وقد تعلم أن يحب أطفالها أيضاً ، وكلما امتد به العمر اشتد شعوره بحرماته من أطفال له . وفى ربيع ١٧٨٣ أقامها بأن تسمح لابنها فرتر ذى السنين العشر بالإقامة معه فى زورات طويلة ، وحتى بمصاحبته فى رحلات طويلة . وفى أحد خطاباتهِ لفرتر (سبتمبر ١٧٨٣) يظهر جانب الأمومة فيها ، وتتكشف قلوب البشر الكامنة خلف واجهة التاريخ المجردة من عواطف البشر .

« اننى عظيمة الابتهاج لأنك لم تنسنى . وأنت منطلق فى هذا العالم الجميل ، وأنتك تكتب إلى بحروف لا بأس بها وإن لم يكن رسمها حسناً جداً . ومادمت تعزم الإقامة أطول مما توقعت ، فلانى أخشى ألا تبدو ثيابك حسنة المظهر جداً . فإذا اتسخت واتسخت أنت أيضاً ، فاطلب إلى عضو المجلس الخاص بجوته فقط أن يلتقى بفرترى الصغير الحبيب فى الماء . . . حاول أن تستمتع بفرصتك الطيبة ، واجتهد أن تسر عضو المجلس بسلوكك ، ووالدك يرغب إلى أن أقرئك تحيته » (٤٥) .

فإذا وفى عام ١٧٨٥ كان غرام جوته قد هدأت فورته فى فترات صمت طويلة . وفى مايو ١٧٨٦ شككت شارلوته من أن « جوته يفكر كثيراً ولا يقول شيئاً » (٤٦) . وكانت الآن تناهز الرابعة والأربعين ، أما هو ففى السابعة والثلاثين ، وكان آخذاً فى الانطواء على نفسه . كثير التردد على بينا هروباً من بلاط فايمار والتماساً لتجدد الشباب بين الطلاب . وكان قد اعتاد دائماً أن ينعش نفسه بالطبيعة . فيتسلق قمة بروكن (وهى قمة ارتفاعها ٣,٧٤٧ قدماً فى جبال هارتس ، اقترنت منذ أمد بعيد بأسطورة فاوست) ، ويخرج فى

رحلات مع الدوق في سويسره (سبتمبر ١٧٧٩ إلى يناير ١٧٨٠) . وكان أحياناً وهو يسترجع الماضي يشعر « بأننى خلال السنوات العشر الأولى من حياتى فى الوظيفة والبلاط بغايمار لم أكـد أنجز شيئاً »^(٤٧) فى مضمار الأدب أو العلم . ولكن كان من الخير تهجين الشاعر بالأدارى ، وتأديب الغنى الذى كاد التذليل يفسده ، والعاشق الخائن ، بتبعات المنصب وبطء الانتصار فى الحب . وقد أفاد من كل تجربة ونما مع كل هزيمة . « أن خير ما فى ، هو ذلك السكون الباطنى العميق الذى أعيش فيه وأنمو ، رغم العالم ، والذى بفضلـه أكتسب مالا يقوى العالم على انتزاعه منى أبداً »^(٤٨) . فلم يكن شىء يضيع هدراً عليه ، وكل شىء وجد التعبير عنه فى مكان ما فى كتاباته ، وأخيراً أصبح خير ما حوته ألمانيا المفكرة منصرفاً فى كل متكامل .

وينتمى إلى هذه الحقبة قصيدتان من أعظم قصائده : أولاهما مزوجة بين الفلسفة والدين ، وبين الشعر والنثر ، فى قصيدة « الطبيعة » . وثانيتهما أعظم أشعاره الغنائية كمالاً . وهى الثانية من قصائده المسماة « أنشودة الجوالين فى الليل » التى نقشها على جدران كوخ الصيد فى ٧ سبتمبر ١٧٨٠^(٤٩) ربما فى حالة من حالات الشوق القلق :

على قمم التلال كلها
ران السكون ؛
وعلى ذرى الأشجار
لاتكاد تسمع
نفساً يتردد ؛
الطير نيام فى الغابات
مهلاً : فأنت أيضاً
ستهجع مثلها سريعاً^(٥٠) .

وهناك قصيدة من قصائد جوته العاطفية المشهورة الأخرى تنتمى إلى هذه المرحلة من مراحل تطوره : وهى قصيدة « الملك العفارىت » الحزينة وضع لها شوبرت لحناً موسيقياً . فتنى عبر شاعر عن إحساس الطفل بالكائنات

الخفية المنتشرة في الطبيعة تعبيراً أقوى مما في هذا الخيال السريع ، خيال الطفل المشرف على الموت ، الذى يرى « ملك العفاريت » آتياً ليخطفه من بين ذراعى أبيه ؟ .

في هذه الحقبة أيضاً كتب جوته ثلاث مسرحيات نثرية : « اجمونت (١٧٧٥) وافجينى فى تاوريس (١٧٧٩) وتورقواتو تاسو (Torquato Tasso) (١٧٨٠) — وهى ثمر كاف لخمس سنين قضاهما فى خضم السياسة . ولم تخرج « اجمونت » على المسرح إلا فى ١٧٨٨ ، أما لفجينى فقدمت على مسرح فايمار فى ٦ أبريل ١٧٧٩ (قبل العرض الأول لأوبرا جلوك التى بهذا الاسم بستة أسابيع) ؛ ولكن جوته غير فيها وبدل ، ونظمها شعراً ، أثناء مقامه فى روما ، بحيث يحسن النظر إليها على أنها نتاج لمرحلة جوته الكلاسيكية . كذلك أعاد صياغة « تاسو » ونظمها شعراً فى إيطاليا ، ولكنها تدخل هنا جزءاً من افتتان جوته بشارلوتة فون شتين . وفى ١٩ أبريل ١٧٨٢ كتب إليها يقول : « كل كلام تاسو موجه إليك »^(٥١) . وصدقت كلامه ، فطابقت بينها وبين ليونورا ، وبين جوته وتاسو ، وبين كارل أوجست ودوق فرارا .

وقد تلقف جوته الأسطورة التى زعمت أن انهيار عقل تاسو فى بلاط فرارا قد اشتد ، ان لم يكن قد نشأ أصلاً ، عن غرام تعس بأخت ألفونس الثانى (حكم ١٥٥٩ — ٩٧) ^(٥٢) . وما من شك فى أن جوته كان يفكر فى نفسه حين وصف ما يدور فى فكر تاسو الشعرى :

ان عينه قلما تطيل النظر إلى هذا المشهد الأرضى ،
أما أذنه فرهفة السمع لأنغام الطبيعة .
وأما صدره فيتلقى للتو فى ابتهاج
ما مقدمة التاريخ وتأتى به الحياة ،
ثم يجمع الأشتات المتفرقة ويربط بينها
ويبعث حسه الذكى الحياة فى الموتى .
وهكذا يغرينا الرجل العجيب

وهو يتحرك في عالمه المسحور
بأن نطوف معه ونشاركه فرجه .
وهو يبدو كأنه يدنو منا ، إلا أنه يظل
بعيداً كما كان ، فإذا اتفق ووقعت عينه
علينا رأى الأشباح في مكاننا (٥٣)

وقد تكون ليونورا ، الأميرة الجلييلة التي تترضى حب الشاعر ولكنها
تأمره بأن يكبح حماسه ويراعى اللياقة ، هي شارلوتة فون شتين تضبط
غرام جوته المشبوب في هذا العالم الفاسق ويعلن تاسو - وهنا يتكلم الشاعران
كلاهما :

كل ما يصل إلى القلب من أغنيتي
فيتردد صداه فيه ، إنما أدين به لواحد ،
وواحد فقط ! فلم يحسم حول روى
طيف غامض ، يتقدم تـاره
في سناء باهر ، ثم يتوارى ثانية .
فأنا نفسى ، بعيني رأس ، أنا الذى أبصرت
مثال كل فضيلة وكل جمال (٥٤)

وأما الدوق الفونسنو فهو شبيه كارل أوجست في صبره على غضبات
الشاعر وغرامياته وأحلام يقظته ، وهو مثله يحزنه تباطؤ الشاعر في الفراغ
من راحة موعودة :

بعد كل خطوة بطيئة يدع عمله ،
لا يفتأ يبدل ويغير ، ولا طاقة له على الانتهاء (٥٥) .

وهو وصف صادق لكتابة جوته المنجمة وإبطائه وتسوية في إنجاز
« فلهم ما يستر » و « فاوست » . وأميرة أخرى تمتدح الفونسنو كارل أوجست
على إتاحتها الفرصة لتاسو - جوته لينضج بممارسته لشئون الدنيا وهنا تعلق
أبيات مشهورة :

« إن الموهبة تكون نفسها في سكون »
والشخصية تتشكل في نهر العالم (٥٦) .

ولكن التلازم بين الشاعرين يتضاءل في النهاية : فتأسو لا يبدى شيئاً من قدرة جوته على السباحة في نهر العالم ، فيغرق في مملكة أحلامه ويضرب بالحلر واللياقة عرض الحائط ، ويحتضن الأميرة المذهولة بين ذراعيه ، ويحجن جنونه حين تنتزع نفسها من ضمته ومن حياته . ولعل جوته أحس بأنه كان قد وقف على شفا هذا الجرف .

وكثيراً ما فكر في إيطاليا ملاذاً يعتصم به من موقف يهدد سلامة عقله . وفي نحو هذه الفترة في الصيغة الأولى لـ « فلهم ما يستر » نظم لمينون أغنية شوق ولهفة تلتأم آسالة أكثر من آمال مينون :

أتعرف البلد الذي تزهـر فيه أشجار الليمون ،
حيث تتوهج ثمار البرتقال الذهبية في الأوراق الداكنة ،
حيث يهب النسيم العليل من السماء الزرقاء ،
حيث تقوم شجرة الآس المطمئنة وشجرة النار السامقة
حيث تقوم شجرة الآس المطمئنة وشجرة الغار السامقة
أتعرفه جيداً ؟ هناك ! هناك !
أشهى يا حبيبي انطلق معك !

لقد كانت فاعمار جميلة ، ولكنها لم تكن دافئة . ثم ان هموم المنصف كدرت روح الشاعر ، « أنها لوسيلة مرة من وسائل كسب القوت أن يضطر المرء إلى محاولة خلق التناغم والانسجام بين نشازات العالم » (٥٧) . وقد أضنته حياة البلاط ، « ليس بيني وبين هؤلاء القوم ولا بينهم وبينى شيء مشترك يربطنا » (٥٨) . وكانت قد وقعت بعض الجفوة بينه وبين الدوق لعجزه عن مسايرة خطى الدوق في الصيد والغزل ، وغرامه الكبير الوحيد قد براه الزمن وكثرة الشجار . فأحس أنه لا بد له من التحرر من هذه الأصفاد الكثيرة ، والبحث عن اتجاه ونظرة جديدين . فطلب إلى الدوق أن يمنحه أجازة ، فاستجاب الدوق ، ووافق على أن يواصل دفع راتب جوته . ورغبة في توفير مبلغ إضافي من المال باع جوته لجوشن ، الناشر اللبزيجي ، حق نشر طبعة من مجموعة مؤلفاته . ولم يبع جوشن إلا ٦٠٢ نسخة ، فحسر ١٧٢٠ طالرا في هذه المغامرة .

وفي أول سبتمبر ١٧٨٦ كتب جوته إلى شارلوتة من كارلسباد يقول :
« الآن وداعاً أخيراً ، أريد أن أكرر لك أني أحبك حباً جماً . . . وأن
تأكيدك لي انك تجددين من جديد لذة في حبي يجدد فرحة حياتي . لقد احتملت
الكثير في صمت إلى الآن ، ولكني لم أرغب في شيء بأحر مما رغبت في أن
تتخذ علاقتنا صورة لايقوى عليها أى ظرف . فإذا لم يكن هذا ممكناً ،
فلن ارتضى أن أسكن حيث تكونين ، بل أوثر أن أكون وحيداً في ذلك
العالم الذى انطلق إليه الآن^(٥٩) .

٤ - جوته في إيطاليا : ١٧٨٦ - ٨٨

واتخذ له في رحلة اسماء مستعاراً هو « المسيو جان - فليب مولر » لأنه أراد
التحرر من مضايقات الشهرة . وكان في السابعة والثلاثين ، ولكنه ذهب
بتطلع يفوق حتى تطلع الشباب وترقبه المرح ، وباستعداد يفضل كثيراً
استعداد الشباب ، لأنه كان ملماً ببعض تاريخ إيطاليا وفنها . وفي ١٨
سبتمبر كتب إلى هرذر يقول « آمل أن أعود شخصاً مولوداً من جديد »
وكتب إلى كارل أوجست « أرجو أن أعيد معي إنساناً تطهر تماماً وتجهز
تجهيزاً أفضل كثيراً من ذى قبل » . وإلى هذين وإلى غيرهما من الأصدقاء
أرسل « رسائل من إيطاليا » مازالت تحوى نبض الحياة الإيطالية السريع .
وقد قدم لها بالشعار القديم « Auch in Arkadien - هو أيضاً كان الآن في أركاديا .
وقد رأينا في موضع آخر من الكتاب مبلغ شكره على ضوء الشمس . فقد
صاح عند دخوله إيطاليا « إني أومن بالله من جديد ! »^(٦٠) ولكنه أحب
الشعب الإيطالي أيضاً ، وجوهم وقلوبهم الطلقة ، وطبيعية حياتهم ، وحرارة
حديثهم ومرحه . ولإذ كان عالماً كما كان شاعراً ، فإنه لاحظ الخصائص
الخاصة بالظواهر الجوية ، والتكوينات الجيولوجية ، والعينات المعدنية ،
 وأنواع الحيوان والنبات ، وأحب حتى السحالي المارقة فوق الصخور .

وبلغ من شدة شوقه للوصول إلى روما أنه مر مرور الكرام بفرنسيا
ولبارديا وتسكانيا ولكنه تلبث في فنتشننسا وقتاً كفى لأشعاره ببساطة معمار
بلاديو وقوته الكلاسيكيتين . وعاد يؤكد من جديد نفوره من الطراز القوطى .

« لقد تحررت إلى الأبد — والله الحمد — من كل ميل إلى تلك الأعمدة الشبيهة بقصبات التدخين ، وقلاعنا الصغيرة المتوجة بأبراج الكنائس ، والأطراف المورقة لمبانينا ! . . . لقد فسح بلاديو أمامي الطريق لكل . . . فن » (٦١) .

وعاد بهذا الطريق إلى فتروفينوس الذي درسه في طبعة أشرف عليها جالياني ، صاحبنا الظريف القادم من نابلي وباريس . واستحال الطراز الكلاسيكي الآن غراماً عنده ، يلون كتاباته وفكره ، ويعيد صياغة بعض أناجه القديم ، مثل « افجينى » و « تاسو » في قالب وخط كلاسيكيين . وفي البندقية بدت قصور الباروك في عينيهِ مسرفة في الهرج ، مفرطة في الأناقة النسائية ؛ لابل إنه انصرف عن واجهات النهضة إلى أطلال العماثر والتماثيل الكلاسيكية في المتاحف . ولكن دمه الحار تجاوب مع لون فيرونيزى وتسيانو وكبرياهما .

وقد بحث في فرار عبثاً عن القصر الذى حبس فيه تاسو . وبعد أن قضى ثلاثة أيام في بولونيا وثلاث ساعات فقط في فلورنسة انطلق حثيثاً عبر بروجه وتيرنى وتشيتا دى كاستيللو ، وفي ٢٩ أكتوبر ١٧٨٦ ركب إلى روما مخترقاً « البورتا ديل بوبولو » (بوابة الشعب) وأحس الآن بلحظة عابرة من التواضع « كل الطرق مفتوحة أمامي لأنى أسير بروح التواضع » (٦٢) .

ولاذ لم يكن قد تمكن بعد من لغة الحديث الإيطالية . فقد بحث عن الجالية الألمانية ، لاسيما الفنانين الألمان ، لأنه تطلع إلى أن يتعلم على الأقل أصول الرسم والتصوير والنحت . وأعجبت انجليكا كاوفمان بحماسه ووسامته فرسمته في صورة أبرزت شعره الأسود وجبينه العالى وعينيهِ الصافيتين . وارتبط بصداقة حميمة مع يوهان هاينريش فلهلم تيشباين . الذى أسلمه لنا في لوحته الشهيرة « جوته في الريف » (٦٣) . يستلقى في استرخاء كأنه فتح أركاديا . وكان جوته قد راسل هذا المصور قبل حضوره إلى إيطاليا بزمان طويل . ثم التقيا لأول مرة في ٣ نوفمبر ، حين اجتمعا في « بياتسا سان بيترو (ميدان القديس بطرس) . وتعرف الشاعر على الفنان ، وقدم إليه نفسه ببساطة « أنا جوته » (٦٤) ، ووصفه تيشباين في خطاب إلى لافاتر بهذه العبارات :

« وجدته تماماً كما توقعت . ولم يدهشني غير الرزانة والهدوء في رجل له هذه الحساسية الناشطة ، ثم قدرته على الاسترخاء والتصرف بحرية في جميع الظروف . وما يسرني أكثر حتى من هذا هو بساطة حياته . فكل ما طلبه مني كان في إعداد حجرة صغيرة يستطيع أن ينام فيها ويعمل دون إزعاج ؛ ثم أبسط الطعام . . . وهو يجلس الآن في تلك الحجرة الصغيرة عاكفاً على قصة « افجيني » من الصباح الباكر إلى الساعة التاسعة . ثم يخرج للدراسة روائع الفن » (٦٥) .

وكثيراً ما كان تيشباين مرشداً له في جولاته هذه ، ورتب تزويده بما طلب من الرسوم ، وحصل له على نسخ من الصور الأكثر شهرة . وقد رسم جوته بنفسه رسوماً تخطيطية للصور التي أراد تذكرها بنوع خاص . ثم جرب النحت ، ونحت رأساً لهرقول . واعترف بأنه غير موهوب في الفنون التشكيلية ، ولكنه شعر أن هذه التجارب تعطيه إحساساً أفضل بالشكل ، وتساعد على تصور ما يريد وصفه (٦٦) . ثم أكب على كتاب فنكلمان « تاريخ الفن القديم » ، « هنا على الطبيعة أجده ثميناً جداً . . . والآن يستطيع عقلي في النهاية أن يتسامى إلى أعظم وأتق إبداعات الفن في مأمن هادئ » (٦٧) . « إن تاريخ العالم كله يربط نفسه بهذه البقعة ، وأحسبني ولدت . . . ولادة جديدة صادقة منذ اليوم الذي دخلت فيه روما . . . أظنني تغيرت إلى الصميم » (٦٨) . ويبدو أنه استمتع خلال ذلك بالفن الحلى الذي قدمته الموديلان « اللذبات » اللاتي جلسن للمصورين في مراسيمهم (٦٩) . وأنهت إقامته في روما ذلك التخلص من النزعة الرومانتيكية الذي بدأ بمشاوليات المنصب . وبدأ الآن تمرد جوتز على القانون ، ودموع فرتز ، في نظر جوته الذي أخذ ينضج كأنها أمارات عقل غير متزن ، « ان الرومانتيكية مرض ، والكلاسيكية صحة » (٧٠) . وقد كان في تمجسه الجديد للآثار للرخامية والأعمدة والتيجان والقواصر الكلاسيكية والخطوط النقية للتماثيل اليونانية مسحة رومانتيكية . « إذا شئنا حقاً نموذجاً نحذيه ، فعلينا دائماً أن نرجع إلى قدماء اليونان ، الذين يتمثل في أعمالهم دائماً جمال الإنسان » (٧١) . وقد رأى جوته ، كلما رأى فنكلمان ، الجانب « الأبولوجي » للحضارة

والفن اليونانيين فقط — تمجيد الشكل والقصد ، وكاد الآن يتجاهل تلك
النشوة « الديونيسية » التي لونت الخلق والدين والحياة اليونانية تلويئاً دافئاً
جداً ، والتي أعربت في جوته ذاته عن نفسها خلال « قرينه » وغرامياته .

في هذا الوجد الكلاسيكي أعاد كتابة « افجيني في تاوريس » شعراً
(١٧٨٧) ، واعتزم أنه ينافس راسين ، لا بل يوربيدس نفسه . وإذا كان
قلبه لا يزال محتفظاً بنجمرات النار التي أضرمتها فيه شارلوتة فون شتين ،
فقد سكب في أحاديث الأميرة اليونانية شيئاً من رقة البارونة الألمانية وتمالكها
نفسها . وروى القصة القديمة جداً ، بكل ما فيها من تعقيدات الميثولوجية
والأنساب ، وزاد من حدة الدراما بتصويره الملك السكودى تصويراً
متعاطفاً ، وأقدم على تغيير الخاتمة لتتوافق مع الفكرة — النادرة بين اليونان —
التي تزعم أن على الإنسان التزامات حتى للبرابرة (الهمج أوغير اليونان) .
ولا يستطيع تقدير انجاز جوته حق قدره إلا الذين يقرءون الألمانية بطلاقة ،
ومع ذلك قال ايبوليت تين ، وهو رجل فرنسى ، وناقد فذ ، خبير على
على الأرجح بدرامات راسين : « اننى لأفضل أى عمل أدبى حديث على
درامة جوته افجيني في تاوريس » (٧٢) .

وقد أحييت ذكريات شارلوتة في هذه المسرحية ، ثم في « تاسو »
« أكثر منها ، اللتين أعاد كتابتهما في روما ، شعوره من نحوها . لقد أصابها
بجح عميق هروبه المفاجئ إلى إيطاليا وتركه ولدها في عهدة خادم ، فأعادت
فترز لفورها ، وطالبت جوته برد كل الرسائل التي كتبها له . فكتب معذراً
من روما (٨ و١٣ و ٢٠ ديسمبر ١٧٨٦) ، وبعثت إليه (١٨ ديسمبر)
بتذكرة فيها لوم « حلومر » فكان رده (٢٣ ديسمبر) « ليس في طاقى أن
أصف لك كيف يدمى قلبي أنك مريضة ، ومريضة بسبب غلطى . فاصفحى
عنى . لقد صارعت أنا نفسى الموت والحياة ، وما من لسان يقوى على
النطق بما كان يعمل فى داخلى . » وأخيراً لانت . فكتب لها أول فبراير
١٧٨٧ « الآن أستطيع أن أنصرف إلى عملى وأنا أسعد مزاجاً لأننى تسلمت منك
رسالة تقولين فيها أنك تحبين رسائلى وتبهجين بها » .

في ذلك الشهر ذهب هو وتيشاين إلى نابلي وإرتقي فيزوف مرتين ؛ وفي محاولته الثانية غطى ثوران صغير للبركان رأسه وكشفه بالرماد . ووجد متعة عظيمة في الأطلال الكلاسيكية في بومبي ، وهبت للجلال البسيط الذي رآه في المعابد اليونانية ببايستوم . فلما عاد إلى روما ركب البحر إلى بلرمو ، ومضى ليدرس المعابد الكلاسيكية في سجسته وجرجنتي (أجرجنتو) ، ووقف في المعبد اليوناني بتاورمينا ، ثم قفل إلى روما في شهر يونيو . فلما تعاظم افتتانه بـ « أروغ مدينة في العالم كله »^(٧٣) . أفنec الدوق كارل أونجست بأن يواصل دفع راتبه حتى نهاية ١٧٨٧ . فلما ان نفذت المهلة راض نفسه ببطء على العودة إلى الشمال . فغادر روما في ٢٥ أبريل ١٧٨٨ ، وسافر على مهل عبر فلورنسه وميلان وكومو حتى بلغ فايمار في ١٨ يونيو . وكان كل يوم يتساءل كيف يستقبل الدوق ، والحاشية ، وشارلوتة ، رجلا يحس أنه تبدل إنساناً آخر .

٥ — جوته في الانتظار ١٧٨٨ — ١٧٩٤

كان الدوق قد عين رئيساً جديداً للمجلس بموافقة الشاعر الغائب ؛ والآن أعفى جوته بناء على طلبه من جميع واجباته الرسمية عدا منصب وزير التعليم ، ولم يخدم المجلس بعدها إلا بصفة استشارية . وكان الدوق لطيفاً معه ، ولكنه كان قد اتخذ إحصاء غيره ، ثم إنه لم تعجبه العواطف الشبيهة بالزعات الجمهورية التي استشفها من « إجمونت » بعد أن أعاد الشاعر كتابتها . أما جمهور القراء فقد نسي جوته أو كاد ؛ وأقبل على شاعر جديد يدعى شيلر ، وصفق بحماسة لتمثيلية « اللصوص » الزاخرة بروح التمرد والعنف الذي اتسمت به الحركة « الزوبعية » ، والذي بدأ الآن سخيلاً فجاً في عين شاعر يتأهب للتبشير بالنظام والقصد الكلاسيكيين . وأما شارلوتة فون شتين فقد استقبلته ببرود . وأنكرت طول غيابه ، وتمهله في العودة ، وتحمسه المتصل لإيطاليا ، ولعالمها سمعت بـ « موديلات » روما . كتبت تقول إن لقاءهما الأول عقب وصوله كان « زائفاً كل الزيف في طابعه ، ولم يتبادل شيئاً غير الملل »^(٧٤) . ورحلت لتقيم فترة في كوخبرج ، وصار جوته حراً في التفكير في كرستيانه فولبيوس .

وقد دخلت هذه الفتاة حياته في ١٢ يوليو ١٧٨٨ إذ حملت إليه رسالة من أخيها . وكانت في الثالثة والعشرين ، تعمل في مصنع للأزهار الصناعية ، وراع جوته منها روحها النضرة ، وعقلها البسيط ، وأنوثتها المفتوحة . فدعاها إلى بيته ذى الحديقة لتعمل مديرة للبيت ، وما لبث أن جعلها خليلة له . ولم تنل حظاً من التعليم ، وقال « أنها لاتستطيع فهم الشعر إطلاقاً » (٧٥) ، ولكنها استسلمت له في ثقة واطمئنان ، ومنحته تحقيق ذاته الجسدى الذى أنكرته عليه شارلوته فيما يبدو . وفي نوفمبر ١٧٨٩ ، حين أوشكت أن تصبح أما ، أخذها إلى بيته في فايمار ، وجعلها زوجته علانية في كل شيء إلا الاسم . وصدمت شارلوته والحاشية لتجاوز الحدود الطبقيّة وعدم إخفائه العلاقة المحرمة . وقد أحزنه كثيراً هو وكرستيانه هذا الموقف ، ولكن الدوق المتمرس بالخليلات قام عراباً للطفل الذى ولد في عيد الميلاد ١٧٨٩ ، وعمده في أغسطس هرذر الصارم ، الغفور رغم صرامته .

أما جوته ، الذى كثيراً ما كان عاشقاً ، ولكنه الآن فقط كان أباً ، فقد وجد الكثير من السعادة في « الرجل الصغير » و « المرأة الصغيرة » . ودبرت له أمر بيته ، واستمعت إليه في حب حتى وهى لاتفهمه ، ومنحته الصحة والعافية . قال لصديق منذ اجتازت هذه العتبة أول مرة لم ينلنى منها غير الفرح » (٧٦) . ولم يرفها عيباً غير حبها للخمر حباً فاق حتى حبه ، وما أفضى إليه هذا أحياناً من المرح والقصف الذى لا يمكن السيطرة عليه . وكانت تختلف إلى المسرح ، وترتاد حفلات الرقص الكثيرة ، بينما يظل جوته في البيت ويخلد ذكرها في « المراثى الرومانية » *Romische Elegien* (١٧٨٩ — ٩٠) ، التى كتبها على طريقة بربروتوس وبأخلاقيات كاتوللوس . وليس في هذه « المراثى الرومانية » شيء حزين ، إنما تشتق اسمها هذا من بحر المراثى « elegiac » الذى تتناوب فيه البهجة السداسية والخلاسية التفاعل ، وهى لاتتصل بروما بل بأرملة طروب — نستشف من ورائها كرستيانه نفسها :

« كل ما تحويه أسوارك المقدسة أى روما الخالدة
يشغى بالحياة ، ولكنه في ناظرى ساكن ميت .

أواه ، منذاً يوشوش فى أذنى ؟ متى أشهد فى النافذة
ذلك القد الجميل الذى يحى وإن أحرق ؟
لا تندمى يا حبيبى على أنك استسلمت هكذا سريعاً !
ثقى بى ، أراك غير جريئة ؛ إنما أشعر بالإجلال .
إن الاسكندر وقيصرو وهنرى وفردريك ، هؤلاء الجبابرة ،
يودون أن يخلعوا على نصف المجد الذى ظفروا به
لو أننى وهبتهم ليلة واحدة على الأريكة التى أرقدها عليها ؛
ولكنهم وأسفاه يقعدهم ليل أوركوس فى قسوة .
فاغتنط لذن ، أيها الحى ، ناعماً فى بيتك المنور بالحب
قبل أن تبلل موجة « ليدى » الخزينة قدملك الهاربة » (٧٧)

وربما كانت تلك الأرملة الجميلة ذكرى من أيام روما ، ولكن دفع
هذه الأبيات مبعثه كرسيتيانه . على أية حال ألم يكن يدرس الفن ؟
على أنه مما يعيننى على الدرس أيضاً أن أرى م
بيد حساسة تلاقى هابطة على الفخذ الناعم ،
الأنامل الحكيمة تزلق هابطة على الفخذ الناعم ،
لأننى هكذا أتمكن من صنعة النحات القديم ، وأتأمل ،
وأقارن ، وأتعلم أن آتى وأبصر
بعين شاعرة ، وأشعر بيد مبصرة (٧٨) .

ولم يرق نبيلات فايمار هذا العرض المرخص لمفاننن ، وحزنت شارلوتة
الوقور على انحدار بطلها « جالاهاد » لابل إن كارل أوجست ذاته انزعج
قليلاً ، ولكن سرعان ما هدأت نفسه . وعندما كانت الدوقة الأرملة عائدة
من إيطاليا أرسل الدوق جوته إلى البندقية ليصحبها إلى أرض الوطن . وطال
مقامه هناك (مارس إلى يونيو ١٧٩٠) طولا ضايقه ، وتاق إلى كرسيتيانه ،
وصب جمام غيظه من الباعة الإيطاليين ووسائل النظافة الإيطالية فى « الاجرامات
الفينيسية » - وهى ، أقل أعماله أغراء بالقراءة .

فلما عاد من البندقية وجد أن الثورة الفرنسية تبعث النشوة فى شباب
ألمانيا ، والخوف فى حكامها . وكان الكثيرون من أصحابه ، وفيهم فيلاند

وهردر ، يصفقون للإطاحة بالاستبدادية الملكية في فرنسا . أما جوته ، الذى أدرك أن كل العروش مهددة بالخطر ، فقد اتخذ موقفه إلى جوار الدوق ، وأشار عليه بالحيلة وقال إن أناساً كثيرين جداً « يجرون وفي أيديهم منفاخ بينما يلوح لى أن الأجدر بهم أن يبحثوا عن أباريق الماء البارد للسيطرة على النار^(٧٩) . وأطاع أمر كارل أوجست له بأن يصحبه فى حملة الحلف الأول ضد فرنسا . وحضر معركة فالملى (٢٠ سبتمبر ١٧٩٢) ، ووقف هادئاً تحت النيران ، وشارك فى الهزيمة . وقد سجل ضابط ألماني فى يوميته أن الشاعر - عضو المجلس الخاص ، حين طلب إليه التعليق على الحدث أجاب « منذ اليوم ومن هذا الموضع يبدأ عصر جديد فى تاريخ العالم »^(٨٠) . وليس لدينا ما يؤيد هذه القصة . ومهما يكن من أمر ، فإن جوته هاجم الثورة بقوة حين عاد إلى فايمار ، وكانت تدخل فترة شططها ووحشيتها (١٧٩٢ - ٩٤) .

ورسخت هذه التطورات فى جوته ذلك التحول الطبيعى ، تحول العقل الآخذ فى النضج ، من التلذذ بالحرية إلى حب للنظام . وشعر بجوته انه إذا كان فى استطاعة أى أحق أن يكون مبتكراً ، فإن فى استطاعة أى أحق أن يحيا كما يشاء^(٨١) منتهكاً العادات أو القوانين فى اطمئنان لأن غيره يراعونها . ولم يشعر بتحمس للديمقراطية ، فلو أتيح لنظام كهذا أن يمارس فعلاً لكان معناه تسلط الغفلة والجهل والخرافة والهمجية . لقد كان لطيفاً سمحاً فى نطاق دائرته ، ينفق بعض دخله على أعمال البر المستورة^(٨٢) ، ولكنه كان ينكمش من الجماهير . فإذا وجد بين الجماهير أو الأغراب انطوى على نفسه فى كبرياء وأحجام ، وكان يجد سعادته الوحيدة فى بيته . فى سنى القلاقل هذه (١٧٩٠ - ٩٤) ران عليه سبات كثيب أيقظته منه لمسة شباب شيلر المتحمس ومنافسة قلمه .

٦ - شيلر فى الانتظار ١٧٨٧ - ١٧٩٤

كان جوته فى إيطاليا حين وصل شيلر إلى فايمار . واعترف الشاعر المعسر بغيرته من عضو المجلس الخاص الغائب . « بينما هو يرسم فى إيطاليا ، يبذل النكرات

من الناس العرق من أجله كأنهم دواب الحمل . أنه يبعثر هناك راتباً قدره ١,٨٠٠ طالر ، وهنا عليهم أن يضاعفوا كدهم ليحصلوا على نصف هذا المال » (٨٣) . وفي ١٢ أغسطس ١٧٨٧ كتب بروح أكثر تعاطفاً .

« يتكلم الكثيرون هنا عن جوته في شيء من الحب ، بل انهم أكثر حبا له وإعجاباً به لإنساناً أكثر منه مؤلفاً . ويقول هردر إنه أوتي حكماً شديداً الوضوح وعمقاً كبيراً في الوجدان ، وعواطف نقية جداً . وجوته في رأى هردر هبياً من كل روح للدرس والوقعية ، وهو لم يؤذ أحداً قط . . . وهو في معاملاته السياسية يتصرف بصراحة وجرأة . . . ويقول هردر أن جوته أحق بالإعجاب كرجل دنيا منه شاعراً . . . وأن له عقلاً يتسع لأي شيء » (٨٤) .

وكان الدوق غائباً حين حضر شيلر ، ولكن أنا أماليا وشارلوتة فون شتين استقبلته استقبالا حاراً . وأخبره فيلاند أنه « ينقصه الصقل والوضوح والدوق » (٨٥) ، وتطوع بأن يصقله ، وسرعان ما أخذ الشاعر المتحمس يكتب المقالات لمجلة فيلاند « الرائد الألماني » . وقد وجد ترفهاً أحر مع شارلوت فون كالب ، التي كان لها كشارلوتة الأخرى زوج واسع الأفق « ان الناس أخذوا يهمسون في صوت عال بعض الشيء حول علاقتي بشارلوتة . . . وقد كتب لي الهر فون كالب . وسيعبر في آخر سبتمبر ، وسيؤثر وصوله كثيراً في ترتيباتي . وصداقته لي لم يطرأ عليها تغيير ، وهو أمر مدهش ، لأنه يحب زوجته ، ويعلم بصلي الحميمة بها . . . ولكنه لا يمكن أن يشك لحظة واحدة في وفائها . . . وما زال كما كان ، الرجل الأمين الطيب القلب » (٨٦) .

وفي ٢٧ أغسطس ١٧٨٧ عرضت « دون كارلوس » أول مرة في هامبورج . وكان بشيلر من الوالع بفاعمار ما منعة من الذهاب لحضور العرض . وقد استقبلت تمثيليته هذه وهي أولى تمثيلياته الشعرية ، بالمديح والدم كليهما لأنها استسلمت لأسلوب المأساة الفرنسية ، ولكن يعوزها الوحدة المسرحية التي تتطلبها قواعد أرسطو . وقد استهلت بالصراع بين فليب الثاني وابنه على حب اليزابث أميرة فالوا ، ثم انتقل مركز الاهتمام في منتصف التمثيلية

إلى كفاح الأراضي الواطئة للتحرر من السيادة الإسبانية ومن قسوة ألفا .
ونحاول شيلر أن يرسم صورة محايدة لفليب ، وقد صفق القراء البروتستنت
لهذا النداء الذى وجهه الماركيز بوزا إلى الملك :

يا صاحب الجلالة ،
لقد مررت مؤخرأ بأرض فلاندر وبرابانت -
أقاليم كثيرة غنية موفقة ،
تزخر بشعب بأسل عظيم أمين !
قلت فى نفسى انه لشيء رائع حقاً
أن يكون الإنسان أبأ لشعب كهذا !
ثم تعثرت قدى فوق كومة من عظام رجال محترقة !
فليتك ترد لنا كل ما حرمتنا منه ،
وتدع السعادة تتدفق من نبع خيرك
لأنك قوى كريم النفس ؛ دع عقل الإنسان
ينضج فى ملكك الشاسع ويصبح
ملكأ حقأ بين مئات الملوك ! . . .
دع كل فرد من رعيتك يصبح ماكانه يوماً ما -
الغاية والهدف لرعاية المليك واهتمامه ،
لا يربطه واجب غير محبة الأخ لأخيه » (٨٧)

وهجر شيلر الدراما طويلا رغم نجاح دون كارلوس . وكان قد كتب
إلى كورنر فى ١٧٨٦ يقول « ان التاريخ يدخر لى مع كل يوم تال مغريات
جديدة وددت لو لم أدرس شيئأ غيره طوال عشر سنوات متصلة ؛
أظننى كنت أصبح مخلوقأ من نوع آخر . أترى أنه مازال أمانى متسع من
الوقت للتعويض عما فقدت ؟ » (٨٨) ولم يكن فى استطاعته أن يعول نفسه ،
فضلا عن أن يعول أسرة ، من حصيلة مسرحيات عارضة قد تذبل وتموت

موتاً مبكراً حتى بعد أن تحظى بعرض أول يصفق له النظارة . فلعل كتاباً ناجحاً في التاريخ يكسبه من الشهرة العلمية ما يكفي للظفر بأستاذية في جامعة يينا . هناك لن يبعد عن فائمار بأكثر من أربعة عشر ميلاً ، وسبق في نطاق سلطة الدوق وكرمه .

وعليه ، فبعد أن فرغ من « دون كارلوس » عكف على تأليف « تاريخ سقوط الأقاليم الواطئة المتحدة » . ولإذ كان لا يقرأ الهولندية ، فقد اعتمد على مراجع ثانوية جمع من رواياتها تصنيفاً غير ذي قيمة باقية . وانتقد كورنر المجلد الأول (١٧٨٨) بأمانته المعهودة : « ان العمل الراهن ، مع كل مزاياه ، لا يحمل طابع تلك العبقرية التي أنت ميسر لها » (٨٩) . وتخلّ شيلر عن الكتاب ، ولم يصدر مجلد ثان في موضوعه .

وفي ١٨ يوليو ١٧٨٨ عاد جوته من إيطاليا ، وفي سبتمبر التقى بشيلر في ضاحية رود ولشتات . وكتب شيلر إلى كورنر يقول : « ان الفكرة العظيمة التي كونتها عنه لم تنقص مثقال ذرة . . . ولكنني أشك في أننا سنتقارب تقارباً وثيقاً يوماً ما . . . انه يسبقني بمراحل . . . فلا يمكن أن نلتقي على الطريق . وقد سارت حياته كلها من بدايتها في اتجاه معاكس لاتجاه حياتي . وعالمه ليس عالمي . وأفكارنا في بعض النقاط متعارضة تعارضاً تاماً » (٩٠) . والحق أن الشاعرين كانا يبدوان وكأن العناية قصدت بهما أن يكره الواحد صاحبه . فجوته ، ذو التسعة والثلاثين ، قد وصل ونضج ، أما شيلر ، ذو التسعة والعشرين ، فكان يتسلق ويجرب ، ولم يتفقا إلا في الأنانية المتعالية . كان أصغرهما من غمار الشعب ، رقيق الحال ، يكتب الشعر القريب من الثورية ؛ أما الآخر فكان غنياً ، رجلاً ذا مكانة ومنه ب مرموق ، عضواً في المجلس الخاص يستنكر الثورة . وكان شيلر قد خرج لتوه من حركة « الزوبعية » ؛ كان صوت الوجدان والعاطفة والحرية والرومانس ؛ إمامجوته ، الذي تولع باليونان ، فكان بكل ميوله مع العقل ، والقصد ، والنظام ، والأسلوب الكلاسيكي . على أية حال ليس من الطبيعي في عالم المؤلفين أن يحب بعضهم بعضاً ، فهم إنما يسعون للظفر بذات الجائزته .

(م ٢٠ - قصة الحضارة ، ج ٤١)

فلما أن عاد جوته وشيلر إلى فامار لم يكن يفصل مسكنيهما غير مسيرة قصيرة ، ولكنهما لم يتصلا الواحد بالآخر . وساءت العلاقة بينهما بظهور نقد شيلر المناوئ لتشييلية جوته « إجمونت » وقرر جوته أن أثينا الصغيرة لا تتسع لهما . ففي ديسمبر ١٧٨٨ زكى شيار إكرسى في التاريخ بجامعة يينا . وقبل شيلر المنصب مسروراً وزار جوته ليشكره ، ولكنه كتب إلى كورنر في ٢٩ فبراير ١٧٨٩ :

لو طالعت عشرتي لجوته لشقيت بها . فهو لا يهش حتى لأصدق أصدقائه ، ولا شيء يربطه . وأنا أومن حقاً أنه أناني من الدرجة الأولى . وقد أوتى موهبة تطويق أعناق الناس بمجاملات صغيرة وكبيرة ، ولكنه يفلح دائماً في أن يظل هو نفسه حراً . . . وأنا أنظر إليه على أنه تجسيد لنظام مدرّس جيداً من الأناثية التي لا أحد لها . وينبغي ألا يطبق الناس مخلوقاً كهذا بقربهم . وأنا أبغضه لهذا السبب ، وإن لم أملك إلا الإعجاب بعقله ، والتفكير فيه بسمو . لقد بعث في مزيجاً عجيباً من البغض والحب » (٩١) .

وفي ١١ مايو ١٧٨٩ تسلم شيار عمه في يينا ، وفي ٢٦ مايو ألقى « خطاب الافتتاح » وموضوعه « ما التاريخ العالمي وما الهدف من دراسته » ؟ وإذا كان الدخول مجاناً ، فقد تبين أن الحضور يفوق كثيراً ما تتسع له الحجرة المخصصة ، وانتقل الأستاذ مع جمهوره في هرج ومرج إلى قاعة في الطرف الآخر من المدينة . وقد لقيت هذه المحاضرة ثناء مستطاباً ، « فقد غنى لي الطلبة سرينادا في تلك الليلة وهنقوا لي ثلاثاً » (٩٢) . غير أن عدد من سجلوا أسماءهم لحضور المحاضرات كان صغيراً — وكان الحضور نظير رسم يدفعه الطالب ، ومن ثم كان دخل شيلر من التدريس ضئيلاً .

فأضاف إليه بالكتابة . وفي ١٧٨٩ — ٩١ أصدر على ثلاث دفعات « تاريخ حرب الثلاثين » . هنا وجد اليسر على الأمل من حيث اللغة ، وإن منتهه مضايقات شديدة مرة أخرى من الرجوع إلى المصادر الأصلية ، وشوه حبه لإصدار الأحكام والتفاسف القصة وقطعها . ومع ذلك فقد رحب فيلاند بالكتاب دليلاً على « قدرة شيار على أن يرتفع إلى مستوى هيوم وروبرتنس

وجوبون»^(٩٢) . وبيعت سبعة آلاف نسخة من المجلد الأول في السنة الأولى لصداوره .

وشعر شيلر الآن أن في استطاعته إشباع شوقه إلى بيت خاص به ، وإلى امرأة تمنحه حبها ورعايتها . وكان قد أتيح له لحظة خاطفة لشارلوت وكارولينه فون لنجفيلد في ماينهايم عام ١٧٨٤ . ثم رآهما ثانية في رودولشتات في ١٧٨٧ ، وكانت «لوته» تعيش هناك مع أمها ، أما كارولينه ، الشقيقة في زواجها ، فكانت تسكن في البيت المجاور . وكتب شيلر إلى كورنر يقول : ^(٩٤) «إنهما لذيذتان رغم أنهما غير جميلتين ، وهما تسرانني غاية السرور . وهما مطلعتان على أدب العصر ، وتتوفر الأدلة على تمتعهما بتعليم راق جداً . وهما عازفتان ماهرتان على البيانو» . وأنكرت السيدة لنجفيلد فكرة زواج ابنتها من شاعر مملوك ، ولكن كارل أوجست نهض بمعاشر صغير قدره مائتا طالر ، وأنعم عليه دوق ساكسي — ميننجن بشعار النبالة . وقد نبه لوته إلى أن فيه عيوباً كثيرة ، فقالت أنها لحظتها ، ولكنها أضافت «ان الحب حب الناس كما نخدمهم ، وقبول مواطن ضعيفهم إن وجدت بقلب محب» . ^(٩٥) وزفا في ٢٢ فبراير ١٧٩٠ ، واتخذوا منزلاً متواضعاً في فيينا . وأتته لوته بدخلها البالغ مائتي طالر في العام ، وأنجبت له أربعة أطفال ، وأثبتت خلال شدايده كلها أنها الزوجة الصابرة الحنون . كتب يقول «ان قلبي يصبح في السعادة ، وعملي يستمد قوة وعافية جديديتين»^(٩٦) .

وعكف على عمله بهمة ، يعد محاضرتين كل أسبوع ، ويكتب المقالات ، والقصائد ، والتاريخ . وظل شهوراً يكند ويكدح أربع عشرة ساعة في اليوم^(٩٧) . وفي يناير ١٧٩١ أصيب بنوبتين من «الحمى النزلية» جلبتا معههما آلاماً في المعدة وبصمماً للدم . وظل طريح الفراش ثمانية أيام ومعدته ترفض كل طعام . وأعان الطلبة لوته على العناية به و«تنافسوا أيهم يسهر معي وبعث إلى الدوق بست زجاجات من نبيذ ماديرا المعتقد الذي أفادني مع بعض النبيذ المجري»^(٩٨) . وفي شهر مايو أصابه «تشنج رهيب ، مصحوب بأعراض الاختناق ، فترأى لي أن ساعتى قد دنت . . . وودعت

احباتي ، وظننتني راحلا عن الدنيا في أى لحظة . . . وخففت عنى كثيراً
جمرات قوية من الأفيون والكافور والمسك واستعمال عوامل التبثر» (٩٩) .

وأزعج أصحابه شائعة كاذبة بموته ، وصلت حتى كوبنهاجن .
وهناك - بناء على اقتراحين من كارل راينهولت وينز باجيزن - وهما
نيلان دائمركيان - عرض الدوق فردريش كوستيان أمير هولشتاين -
أوجستنبورج واللونت إرنست فون شيملمان على شيلر منحة سنوية قدرها
ألف طالر على مدى ثلاث سنين . فقبلها شاكراً . وأعفته الجامعة من التدريس
ولكنه ظل يحاضر فرقة خاصة صغيرة . ثم خصص بعض فراغه الجديد ،
بناء على اقتراح من راينهولت ، لدراسة فلسفة كانط التي قبلها كاملة
تقريباً ، وهو ما أضحك جوته وأثار اشمئزاز هرذر ، وربما ألحق بعض
الأذى بشعر شيلر .

ونشر الآن (١٧٩٣) مقاله الطويل « في الكياسة والكرامة » الذي
استهل التربية الرومانسية « للروح الجميلة » . وقد عرف هذه الروح
الجميلة بأنها تلك التي « ينسجم فيها العقل والحواس ، والواجب والميل ،
وتجد هذه كلها التعبير الخارجي في الكياسة » (١٠٠) . ولا بد أن
المتبرعين الكوبنهاجيين قد هالهم أن يتلقوا ، كبعض الرد على منحهم ،
كتيباً عنوانه « رسائل في التربية الجمالية (الاستيقية) للإنسان » (١٧٩٣ -
٩٤) . وقد بدأ شيلر بفكرة كانط عن الإحساس بالجمال كتأمل نزيه
للصور المتناسقة ، ثم زعم (مع شافتبسرى) أن « الشعور الذي ينميه الجميل
هذب السلوك » ويصبح الحس الجمالي هو والفضيلة واحداً . وأنه لعزاء
أن نقرأ ، في هذا الرأي المنبعث من أيام فاعمار المزهرة ان شيلر (كجوته)
رأى أن جيله منحل ، غارق في انحطاط خلقي سحيق » (١٠١) .

فلما عاد من الفلسفة إلى الشعر وجد عناء في استحضار « تلك المرأة
والنار المضطربة التي كنت أملكها من قبل » . . لقد أفسدني الجدل النقدي» (١٠٢) .
ولكنه أصر على أن « الشاعر هو الإنسان الأصيل الوحيد ، وليس
أفضل الفلاسفة إلا كاريكاتورا إذا قيس به » (١٠٣) ، ورفع

وظيفة الشاعر في تعليم البشر والتسامي بهم إلى مستوى الإلهام السماوى . وقد وصف في قصيدة غنائية طويلة « الفنانون ١٧٨٩ » الشعراء والفنانين بأنهم يرشدون النوع الإنسانى إلى وحدة الجمال مع الفضيلة والحق . وفي قصيدة أخرى « آلهة اليونان » (١٧٨٨) امتدح اليونان على حساسيتهم الجمالية وإبداعاتهم الفنية ، وزعم ، فى إلهام حذر ، إن العالم بات كثيباً قبيحاً منذ حلت المسيحية محل الهيلينية . وكان واقعاً الآن تحت سحر جوته كما وقع جوته من قبل تحت سحر فنكلمان ..

ولعل تصوير شيلر وجوته الرومانسى لليونان القديمة كان هروباً من المسيحية . فشيلر ينتمى إلى التنوير رغم بعض الفقرات الورعة ، شأنه فى ذلك شأن جوته ؛ وقد قبل إيمان القرن الثامن عشر بالخلاص عن طريق العقل البشرى لا النعمة الإلهية . واحتفظ باعتقاد ربوبى فى الله - شخصى فى الشعر فقط - وخلود غامض . ورفض الكنائس كلها البروتستنتية منها والكاثوليكية . ولم يكن يطبق المواعظ حتى مواعظ هرذر . وقد كتب بيتين شهيرين فى ابجرام عنوانه (عقيدتى) يقول فيهما :

أى دين أعترف به ؟ ولا واحد من كل
الأديان التى تذكرها لى . ولم ؟ بسبب الدين (١٠٤) .

وكتب إلى جوته فى ٩ يوليو ١٧٩٦ يقول « ان الطبيعة السليمة الجميلة - كما تقول أنت نفسك - ليست فى حاجة إلى ناموس أخلاقى ، إلا إلى قانون لطبيعتها ، ولا إلى ميثاقين سياسيين . وكان فى وسعك أن تضيف أيضاً أنها ليست فى حاجة إلى إله ، ولا فكرة خلود تدعم وتصون بها ذاتها . ومع ذلك كان فيه عوامل من الخيال والرقرة ردت صوب المسيحية :

« اننى أجد أن المسيحية تحتوى فعلاً على الأصول الأولى لكل ما هو أسى وأنبى ؛ وصورها الخارجية المختلفة لا تبدو لنا بغريبة منفرة إلا لأنها تعبيرات سيئة عن الأسمى . . ولم يشدد أحد تشديداً كافياً على ما يمكن أن يكونه هذا الدين لعقل جميل أو على الأصح ما يمكن أن يفهمه منه

عقل جميل . وهذا يفسر نجاح هذا الدين نجاحاً كبيراً مع الطبائع الأنثوية ، وأنه في النساء فقط يمكن احتمالها إطلاقاً» (١٠٥) .

لم يكن شيلر كجوته مركباً من حيث بدنه للوثنية الخالصة . كان وجهه مليحاً ولكنه شاحب ، وقوامه فارعاً ولكنه نحيل هش . وكان يخشى تقلبات الجو اليومية ويؤثر القعود في حجراته يدخن ويتنشق . وكان يقابل بينه وبين جوته بمقابلة الفكرة ضد الطبيعة ، والخيال ضد العقل ، والعاطفة ضد الفكر الموضوعي (١٠٦) . وكان يجمع بين الحياء والكبرياء ، يخشى الخصومة ولكنه يرد دائماً على الهجوم ؛ سريع الغضب فاقد الصبر أحياناً ، (١٠٧) ربما لأنه كان عليمًا بأن عمره ينفد ؛ يكثر النقد للغير ويحسد هم أحياناً (١٠٨) . وكان يميل إلى استخراج العبرة عن كل شيء ، وإلى الضرب على وتر مثالي عال . ومما يريح نفوسنا أن نراه يستمتع بغراميات قصة ديدرو «الحلى الواشية» (١٠٩) . وقد أجاد تحليل موهبته في خطاب مبكر إلى جوته :

«لقد غلبني عقل الشاعر عموماً حين كان ينبغي أن أفلسف . وغلبني عقل الفيلسوف حين كنت أريد الشعر . وحتى الآن كثيراً ما يحدث أن يقتحم الخيال تجريداتي . والفكر الهاديء نتاجي الشعري . ولو استطعت السيطرة على هاتين القوتين بحيث أعين لكل منهما حدودها (كما كان جوته يفعل) لبقى لدى أمل في التطلع إلى مصير سعيد . ولكن حين بدأت أعرف طاقاتي المعنوية واستخدمها على الوجه الصحيح ، هاجمني المرض للأسف وهددني بتقويض قواي البدنية» (١١٠) .

وعاوده المرض بعنف في ديسمبر ١٧٩٣ ؛ ثم تماثل للشفاء ، ولكن إحساسه بأنه لاشفاء له منه وأنه يجب أن يتوقع نوبات راجعة أورثه الكتابة . ففي ١٠ ديسمبر كتب إلى كورنر يقول «إنني أكافح هذا الشعور بكل قوى عقلي . . . ولكنني أصد دائماً . . . فإن غموض مستقبلتي ؛ . . . والشكوك في عبقريتي التي لا يدعمها ولا يشجعها الاتصال بغيري ، والافتقار التام لذلك الحديث العقلي الذي أصبح ضرورة لا غنى لي عنها » ؛ تلك كانت الأفكار الملازمة لمحتته الجسدية . وراح يتطلع في تشوق ، من بينا لفنار ،

إلى جوته الذى ينعم بعافية يحسد عليها ، ذلك « العقل السليم فى الجسم السليم »
وأحس شيلر انه هناك يوجد الرجل الذى يستطيع أن يعطيه الحافز والدعم ،
لو أن الجليد القائم بينهما ذاب ، وسقط حاجز الأميال الأربعة عشر الذى
يفصل بينهما !

٧ — شيلر وجوته ١٧٩٤ — ١٨٠٥

وسقط الحاجز لحظة حين حضر الرجلان فى يونيو ١٧٩٤ جلسة عقدتها
جمعية التاريخ الطبيعى فى فيينا . فلما التقى شيلر بجوته وهما يغادران القاعة ،
قال معلقاً أن العينات البيولوجية المعروضة فى المؤتمر تعوزها الحياة ، ولا
ولاممكنها أن تعين مشاهدتها حقاً على فهم الطبيعة . ووافق جوته مشدداً ،
وتجاذبا الحديث حتى بلغا بيت شيلر . وقال جوته فيما بعد مستعيداً ذكرى
اللقاء « وأغرانى الحديث بالدخول معه وشرحت له . . . » « تحور النباتات » —
وهى مقالة زعم فيها جوته أن جميع النباتات تنويعات من نمط أولى
واحد . وأن كل أجزاء النبات تقريباً تنويعات أو تطويران للورقة .
« واستمع . . . إلى هذا كله بكثير من الاهتمام وبفهم واضح ، ولكن
ما إن فرغت حتى هز رأسه وقال لى « ليست هذه تجربة ، إنما هى فكرة » ،
أى أنها نظرية لم تثبتها الملاحظة أو الاختبار . وعاظ التعليق جوته ، ولكنه
رأى أن لشيلر عقلاً مستقلاً ، فازداد احترامه له . أما زوجة شيلر « التى
أحببتها وقدرتها منذ طفولتها ، فقد بدلت قصارها لتوثق تفاهننا المتبادل » (١١١) .

وفى مايو ١٧٩٤ كان شيلر قد وقع عقداً بالإشراف على تحرير مجلة
أدبية شهرية «تسمى داي هورين والهوراي» فى المتيولوجيا الإغريقية
ربات الفصول . وكان يأمل أن يجند للمجلة كانط ، وفشته ، وكلوبشتوك ،
وهردر ، وياكوبى ، وياجيزين ، وكورنر ، ورايهولت ، وفلهلم فون
همبولت ، وأوجست فلهلم فون شليجل ، ثم جوته — أفضل صيد يطمع
فى اقتناصه . وفى ٣ يونيو أرسل إلى فايمار رسالة موجهة إلى « السيد الكريم
المحتد ، الرفيع المقام ، المكرم ، عضو المجلس الخاص » ، تحتوى على
نشرة تمهيدية للمجلة المقترحة ، وأضاف : « أن الورقة المرافقة تعرب عن

رغبة عدد من الرجال الذين يقدرونك تقديراً بغير حدود في أن تشرف
الدورية بمقالات من قلمك ، يجمع الكل بصوت واحد على عظم قيمتها .
ونحن نشعر يا صاحب السعادة بأن موافقتك على دعم هذا المشروع ستكون
ضماناً لنجاحه » (١١٢) . ورد جوته بأنه يسره المشاركة بمقالاته . وأنه « على
ثقة من أن الاتصال الأوثق بالرجال الأصلاء الذين يؤلفون لجنّتكم سيبعث
حياة جديدة في كثير مما هو راكد الآن في باطنى » (١١٣) .

وهكذا بدأ تراسل يعد من ذخائر تاريخ الأدب ، وصداقة اتصلت إحدى
عشرة سنة — حتى موت شيلر — فيها من تبادل الاحترام والعون ما ينبغي
أن يدخل في تقديرنا للنوع الإنسانى . وربما كان أكثر هذه الرسائل الباقية
كشفاً — وعددها ٩٩٩ — هى الرسالة الرابعة (٢٣ أغسطس ١٧٩٤) ،
التي حلل فيها شيلر — بعد عدة لقاءات مع جوته جمعت بين المجاملة
والصراحة وبين التواضع والاعتزاز بالنفس ، الفارق بين عقليهما . قال :

« إن أحاديثي الأخيرة معك حركت كل ذخيرة أملكها من الأفكار . . .
فكثير من الأشياء التي لم أستطع أن أصل فيها إلى تفاهم خاص مع نفسى
تلقت ضوءاً جديداً غير متوقع من تأملى لعقلك (فهكذا أسمى التأثير العام
لأفكارك على) . . لقد أعوزنى التجسيد لعدد من أفكارى التأملية ، وأنت
وضعتنى على الطريق المفضى إليه . وأسلوبك الهادى الواضح فى النظر إلى
الأشياء يعصمك من التيه فى الطرق الجانبية التي كثيراً ما يشرّد بى فيها
تأملى وخيالى المستبد . ان حدسك الصائب يدرك كل الأشياء ، ويدركها
على نحو أكمل كثيراً مما ينشده المرء فى عناء التحليل . . . وعقول كعقلك قل
أن تعرف إلى أى حد بعيد نفذت وتغلغلت ، وأنه ما من داع يذكر يدعوها
للاستعارة من الفلسفة ، التي لا تستطيع فى الواقع إلا أن تتعلم منها . . . ومع
أننى فعلت هذا على بعد ، إلا اننى طالما راقبت المسار الذى سلك فيه عقلك . .
أنت تبحث عن الضرورى فى الطبيعة ، ولكنك . . . تنظر إلى الطبيعة
بوصفها كلا حين تحاول جعل الضوء يلقي على أجزائها الفردية ، أنت تبحث
عن تفسير الفرد فى جماع مظاهرها المتنوعة (١١٤) .

أما رد جوته (٢٧ أغسطس) فقد تجنب في ذكاء تحليل عقل شيلر :
« ما كنت لأتلقى بمناسبة عيد ميلادى الذى وقع هذا الأسبوع هدية
أجمل من رسالتك التى تلخص فيها حياى بيد ودود ، وتشجعنى فيها بتعاطفك
على استخدام قدراتى استخداماً أكثر مثابرة ونشاطاً . وسيكون من دواعى
سرورى أن أكشف لك حين تتاح لى الفرصة ماكانه حديثك لى ، وكيف
أننى أنا أيضاً أعد تلك الأيام مرحلة متميزة فى حياى ، لأنه يبدو لى اننا
لنملك بعد هذا اللقاء غير المتوقع إلا أن نطوف فى دروب الحياة معاً » .

وتابع جوته هذه الرسالة (٤ سبتمبر) بدعوة لشيلر ليعضر إلى فايمار
وينفق معه أياماً فيها . « سيكون فى استطاعتك أن تشرع فى أى عمل تشاء
دون أن يزعجك أحد . وسنتجاذب الحديث معاً فى أوقات ملائمة . وفى
ظنى اننا لن نفترق دون أن نحقق بعض الكسب . وعليك أن تعيش هنا
تماماً كما تحب ، وكما لو كنت فى بيتك ما أمكن ذلك » . ولم يردد شيلر
فى القبول ، ولكنه حذر جوته قائلاً « ان تشنجات الربو التى أعانى منها
تلزمنى الفراش طوال الصباح لأنها لاتسمح لى بأى راحة فى الليل » . وهكذا
كان شيلر ضيف جوته وعليه تقريباً من ١٤ إلى ٢٨ سبتمبر . وأعنى أكبر
الرجلين بالشاعر العليل عناية رفيقه ، وحماه من المضايقة ، وبذل له النصيح
فى أمر غذائه ، وعلمه حب الهواء الطلق . كتب شيلر (٢٩ سبتمبر) بعد
عودته إلى يينا يقول « أجدنى فى بيتى مرة أخرى ، ولكن أفكارى لاتزال
فى فايمار . ولا بد لى من وقت طويل أحل فيه خيوط كل الأفكار التى
أيقظتها فى » . ثم (٨ أكتوبر) ، ناشده بما عهد فيه من تحمس « يبدو لى
انه من الضرورى أن نصل فوراً إلى قدر من التفاهم الواضح حول أفكارنا
عن الجميل » .

ثم تلا ذلك شهر ثلاث من التحضير للعدد الأول من مجلة « هورين » الذى
صدر فى ٢٤ يناير ١٧٩٢ . والثانى فى أول مارس . والأعداد الباقية
شهرياً على مدى ثلاث سنين ، وكتب جوته من فايمار (١٨ مارس) يقول
« إن الناس يتهافون عليها ، ويتخاطفون أعدادها ، ولما كنا لنطمع فى أكثر

من ذلك لهذه البداية « . وفي ١٠ أبريل كتب شيلر لجوته يقول « لقد كتب لي كائط خطاباً ودياً جداً ، ولكنه طلب مهلة لإرسال مقالاته . . . ويسرني أننا أغرينا الطائر العجوز بالانضمام إلينا . » وطلب جوته أن تنشر مقالاته غفلاً من التوقع ، لأنها اشتملت على عدد من « مراثيه الرومانية » ، وكان عليماً بأن نزعها الشيقة القوية ستبدو غير لائقة بعضو في المجلس الخاص .

وفي حماسة النجاح المتهورة أقنع شيلر جوته بأن يشترك معه في إصدار دورية أخرى « التقرير السنوي للشعر » صدرت كل سنة من ١٧٩٦ إلى ١٨٠٠ . وأطرف ما احتوته هو الأبحرارات المسماة Xenien والتي صاغها الشاعران على غرار ابجرامات مارتياك Xenia (اكسنيا) التي كانت تكتب هدايا للضيوف . وقد وصف شيلر المشروع لكرورن فقال : « ان العملية كلها تجميع لأبحرارات ، كل منها مقطع شعري من بيتين . وهي في أكثرها هجائيات عنيفة شيطانية ، موجهة بصفة خاصة ضد المؤلفين وأعمالهم ، يتخللها هنا وهناك ومضات خاطفة من الأفكار الشعرية أو الفلسفية . فسيكون هناك عدد لا يقل عن ستمائة من هذه المقطوعات » (١١٥) . وكان جوته قد اقترح هذه الفكرة ذريعة لرد اللطمات إلى نقادها ، وللشجيرة من المؤلفين المغرورين وأصحاب الميول البورجوازية ، ولتنبيه جمهوره القراء الألمان إلى الاهتمام بالأدب اهتماماً أشد . وعزماً على أن يطلقا هذه « الهدايا » على معسكر الرجعيين « كالثعالب المشتعلة الذبول » . (١١٦) وكانت الأبحرارات بلا توقيع ، وكان بعضها نتاجاً مشتركاً للمتأمرين كليهما . وإذا كان الكثير من هذه الذبول المشتعلة موجهاً ضد مؤلفين طواهم النسيان أو جدليات لا يذكرها الناس الآن ، فإن الزمن أطفأ نارها ، ولكن واحداً منها بقلم جوته يستحق منا التنويه الخاص :

« جاهد دائماً في سبيل الكل ، وإذا لم تستطع أنت نفسك أن تصبح كلا ، فاربط نفسك إلى كل ما يوصفك جزءاً تابعاً » .
وهناك لإبحرام آخر يعزى عادة إلى شيلر يفصل الفكرة :

« أتخاف الموت؟ أتريد الحياة دون أن تموت؟ إذن عش في الكل ا

فسوف يبقى بعد أن تموت بزمن طويل . » وقد جر عليهما الجزء الهجائي من الابجرامات هجمات مضادة آلت شيلر واضمحكت جوته . ونصح جوته شيلر بأن يجعل من عمله الرد الوحيد على هذا الهجوم . « بعد مغامرتنا المجنونة في الابجرامات ، علينا أن نحرص على العكوف على أعمال الفن العظيمة الجلييلة دون غيرها ، وأن نحزى جميع خصومنا بتحويل طبائعنا المتقلبة إلى صور نبيلة » (١١٧) .

وهكذا كان ، ففي سنى صداقتهما النامية تلك كتب جوته وشيلر بعضاً من اروع قصائدهما : فكتب جوته « عروس كورنت » و « الآله والبايدير » ؛ وكتب شيلر « المسيرة » (١٧٩٥) و « كراكي أبيكوس » (١٧٩٧) و « أنشودة الناقوس » (١٨٠٠) . وأضاف شيلر مقالا كبيراً في « الشعر الساذج العاطفي » (١٧٩٥) - وطلع جوته على الناس بقصته « تلمذة فلهم ما يستر » (١٧٩٦) .

وقد غنى شيلر بالشعر الساذج العاطفي ، ذلك الشعر المنبعث عن الإدراك الحسى الموضوعى مقابل الشعر الذى ينشئه الوجدان التأملى ؛ وكان في طويته يقارن بين جوته وشيلر . أما الشاعر «الساذج» فليس بسيطاً ولا سطحياً ولا مخدوعاً ، إنما هو شاعر توافق في يسر مع العالم الخارجى بحيث لا يشعر بأى تعارض بينه وبين الطبيعة ، بل يجد طريقه إلى الواقع بالحدس المباشر غير المتردد : ويستشهد شيلر بهومر وشكسبير مثالين على فكرته . وكلما أصبحت المدنية أكثر تعقيداً وافتعالا فقد الشعر هذه المباشرة الموضوعية والانسجام الداق ؛ ودخل الصراع النفس ، وكان على الشاعر أن يقتنص من جديد بالخيال والوجدان هذا التوافق والاتحاد بين النفس والعالم - كمثل أعلى يتذكره أو يتطالع إلى تحقيقه ؛ ويغدو الشعر عندئذ تأملياً ، يلبد الفكر سماءه (١١٨) . وكان شيلر يعتقد أن معظم الشعر اليونانى من النوع الساذج أو المباشر . ومعظم الشعر الحديث حصيلة التنافر والتفكك والشك . والشاعر المثالى هو الذى يصهر المدخاين جميعاً ... البسيط والتأملى ... في رؤية واحدة وصوره شعرية واحدة . وقد ذكر جوته فيما بعد أن هذا المقال أصبح مصدراً للجدل بين الأدب والفن الكلاسيكيين والرومانتيكيين .

ونمو فكرة « تلمذة فلهم ما يستر » من بدايتها إلى تمام تنفيذها يوضح منهج جوته في الخلق . فقد تصور القصة في ١٧٧٧ ، وأتم الكتاب الأول في ١٧٧٨ ، ثم نحاها جانباً ، ولم يكمل الكتاب الثاني حتى يوليو ١٧٨٢ . ثم عكف على الكتاب الثالث حتى نوفمبر من ذلك العام ، وعلى الرابع حتى نوفمبر ١٧٨٣ ؛ أما الكتابان الخامس والسادس فقد امتد بهما الزمن ثلاث سنين خرى . وقد أطلق على الكتب الستة « انطلاق فلهم ما يستر المثير » وقرأ أجزاء منها على بعض أصحابه ، ثم طرحها جانباً . وعاد إلى القصة في ١٧٩١ بإلحاح من هرذر وآنا آماليا ، وأضاف إليها كتابين في ١٧٩٤ ، ثم عرض المخطوط المتعاطف على شيلر ، الذي رد بانتقادات واقتراحات وتشجيع كلما وافاه المؤلف بصفحات جديدة ، وكأنها صورة لقابلة تعين الأم على ولادة فات أوانها . وأخيراً ، في ١٧٩٦ ، دفع جوته بالمؤلف كله إلى المطبعة . لا عجب إذن أن كانت الحصييلة النهائية مشوهة تشويهاً طفيفاً ، ضعيفة البناء ، « ذهنية » القوام ، مهوشة ، ممتازة في أجزاء فقط ، وفي عكسها لتردد جوته بين الاهتمامات المتضاربة ، والمثل العليا الغامضة . لقد كان الحسم والثقة بالنفس ، اللذان نعت بهما شيلر ، هما الستار المتكبر للتذبذب والصراع الداخليين .

وقد عبر الكتاب عن فترة التلمذة في النقابات الحرفية الألمانية ، وخلال زمن الوصاية هذا أصبح فلهم « معلماً » فموضوع القصة المطوف إذن هو هو تلمذة فلهم البطيئة الأليمة في نقابة الحياة . وبسبب مسارح العرائس التي أحبها جوته طفلاً ، واهتمامه المتصل بالمسرح ، ربط القصة بفرقة من الممثلين تجتاز مدنًا كثيرة وتنقلب عليها عشرات الغير دروساً في الحياة وصوراً لأساليب العيش الألمانية . وإذا كان وفيّاً لعدم وفائه فقد أدخل بطله إلى مسرح الأحداث بهجراته خليلته ماريانه . وفلهم ليس بالشخصية الفتانة . فهو يترك نفسه تساق من موقف لآخر أو من فكرة لأخرى على هوى الظروف أو بقوة الشخصية المفروضة عليه ، والمرأة هي التي تقوم بالمبادرة في غرامياته . ولد بورجوازيّاً ، ومن ثم فهو يتعثر إعجاباً بالرجال النبلا

المولد ، ويأمل في تواضع أنهم في يوم ما سيعترفون بارسقراطية العقل .
أما فيلينه فأكثر جاذبية منه : فهي ممثلة جميلة تشب نخلة من عشق إلى عشق ،
ولكنها تجمل تطويفها الغرامى بمرح معد وعدم وعى بالإثم يحلها من خطيئتها .
أما مينون الصغيرة ففريدة في بابها ، تتبع أباه الشيخ في إحساس بالواجب
وهو يعزف عزفاً غير بارع على قيثارته في جولات يجمع فيها الدراهم .
ويقول جوته في وصفها أنها تتكلم « المانية ركيكة جداً » (١١٩) . ولكنه
يجرى على لسانها تلك الأغنية الرائعة « أنعرف ذلك البلد » . وهي تقع في غرام
المراهقة بفلهم الذى يحبها حبه لطفلة ، وتموت هى حزناً حين تراه بين ذراعى
تريزا . وقد التقطها امبرواز توما من بين هذه الصفحات الثمانمائة ليجمع
منها أوبرا حزينة ممتعة (١٨٦٦) .

وامتدح شيلر رصانة أسلوب القصة وصفاءه ، وما فى وصف الفرقه
التبشيلية الجواله من صدق ومطابقه للحياة ، ولكنه أشار إلى تناقضات
فى الترتيب الزمنى ، وشبه استحالات سيكولوجية ، وانهاكات للذوق ،
وأخطاء فى التصوير والتصميم (١٢٠) . واقترح تغييرات فى الحبكة ،
وأولى بأفكاره عن النحو الذى ينبغى أن تختم عليه القصة (١٢١) . وقال له
جوته مؤكداً ، « اننى بالتاكيد سامتثل لرغباتك المنصفة ما استطعت (١٢٢) .
ولكنه اعترف لأكرمان ، بعد ثلاثة وثلاثين عاماً ، بأنه بذل
قصاره لبحمى قصته من تأثير شيلر (١٢٣) . وكان نقاد آخرون أقل تعاطفاً ،
فوصف أحدهم الكتاب بأنه ماخوّر متجول ، وشكت شارلوت فون شتين
قائلة « حين يتناول جوته العواطف السامية يقدفها دائماً ببعض الأقدار ،
وكأنما يريد بذلك أن ينكر على الطبيعة البشرية أى طموح إلى القداسة » (١٢٤) .
على أن القصة لم تستحق هذه الانتقادات العشوائية ، ففيها الكثير من الصفحات
السارة ، ومازال فى استطاعتها أن تثير شوق القراء الذين تحرروا من ضجيج
العالم وصخبه .

وفى ٢٣ مارس ١٧٩٦ ذهب شيلر إلى فايمار مرة أخرى ضيفاً على
جوته . هناك عملاً معاً فى خدمة المسرح . وكان جوته مديراً صارماً ، يختار
التمثيليات المراد عرضها ، ويدرب الممثلين . « فاستبعد كل ما كان كثيراً

أو ضعيفاً أو باكياً أو هش العاطفة ، كما استبعد تماماً كل ما كان مخيفاً أو مرعباً أو ثائيباً» (١٢٥) . أما الجمهور فاقصر عادة على البلاط ، إلا حين يدعى بعض الطلاب من بيننا . وقد عاق أوحست فون شليجل على هذا الوضع تعليقاً لاذعاً « أن لألمانيا مسرحين قوميين - فيينا بجمهور من خمسين ألف مشاهد ، وفيمار من خمسين » (١٢٦) .

وعاد شيار إلى بينا في ١٢ أبريل ، وقد حفزه اتصاله المجدد بالمسرح لينصرف عن التاريخ والفلسفة والشعر العارض إلى الدراما . ولقد طالما فكر من قبل في تأليف مسرحية عن فالنشتين ، فحثه جوته على الشروع فيها . وفي نوفمبر ذهب جوته إلى بينا ، وعاش حيناً في اتصال يومي بشيلر . فلما عاد جوته إلى فيمار كتب إليه يقول « لايفتك أن تستغل أفضل أوقاتك ، حتى تمضى قدماً بمأساتك ، ليتسنى لنا أن نشرع في مناقشتها » (١٢٧) .

وبينما كان شيار عاكفاً على تأليف « فالنشتين » ، شحذ روح المنافسة في جوته نجاح « لويزه » (١٧٩٥) التي ألفها يوهان هينريش فوس قصة ريفية شعرية تمثل الحياة والمواطن الألمانية - فحرب هذا اللون المحبب ، ونشر في ١٧٩٨ - « هيرمان ودوروتيا » . أما هيرمان فهو الابن القوي السليم ، الخجول الهادئ ، لأب صفراوى المزاج وأم حنون يديران « الحان الذهبى » وهزرعة واسعة في قرية قريبة من الراين . ويصل إلى علمهم أن مئات من اللاجئين قادمون من بلدة على التخوم استولى عليها الفرنسيون ، فتجهز الأسرة رزماً من الثياب والطعام ، يحملها هيرمان إلى اللاجئين . ويجد بينهم صديقة لها « نهدان بارزان » و « كاحلان إرائعان » (١٢٨) تقدم للاجئين العون وأسباب الراحة . فيهم بها ، وبعد شذائد لا بد منها ، يصطحبها إلى بيته ويقدمها إلى أبويه بوصفها عروسه . ويروى الشاعر القصة في أبيات متدفقة من البحر السداسى التفاعيل ، وصور الحياة الريفية الموجزة تضيء رواء على القصة ، وقد أبهجت ابتداءات الطرد الغزاة الفرنسيين الألمان المتحمسين لوطنهم والمذنب وجدوا مسرحيتى جوته « إلفجيني » و « ناسو » غريبتين عويصتين . واكتسبت الملحمة الصغيرة شعبية جديدة لمؤلف لم يظفر منذ « فرتر » إلا بقلة من القراء خارج دوقية ساكسى فيمار .

أما شيلر فكان نجمه في صعوده من ١٧٩٨ إلى ١٨٠٠ . ففي ٢٨ نوفمبر ١٧٩٦ كتب إلى كورنر يقول « مازلت أطيل الفكر جاداً في « فالنشتين » ، ولكن العمل التعس مازال أممى بلا شكل ولا نهاية . « وقد بدأ المسرحية نثراً ، ثم نحاها ، ثم استأنفها شعراً . وكان على الإلمام بالمادة من الدراسات التي قام بها ليؤلف كتابه « تاريخ حرب الثلاثين » ، ولكنها بلغت من الوفرة والتعقيد في الشخصوص والأحداث مبلغاً أكرهه على الإفلاخ عن محاولة ضغطها في خمسة فصول . وقرر أن يقدم للدراما بتمهيد (برولوج) من فصل واحد سماه « معسكر فالنشتين » ، وأن يقسم الباقي إلى تمثيليتين . وشرحت الأولى مؤامرة خلخ القائد المتمرد ، ووازنتها بغرام ملتهب بين ابنة فالنشتين وابن زعيم في المؤامرة . ولما الدراما النهائية والأساسية فستكون « موت فالنشتين » .

فلما قرأ جزوه التمهيد « راعه التصوير الواقعي لمعسكر الجيش ، والإعداد البارع للتطورات اللاحقة ، فأصر على عرض « معسكر فالنشتين » على مسرح فامار (١٢ أكتوبر ١٧٩٨) قبل أن يكتمل القسم الأول ؛ وربما كانت هذه الطريقة ذكية لإلزام الشاعر بالعكوف على مهمته . وفي مطلع ١٧٩٩ ذهب شيلر إلى فامار لإخراج التمثيلية الأولى ، فعرضت أول مرة في ٣٠ يناير ولقيت قبولا حسناً . وعاد إلى بينا وراح يعكف بشكل محموم على « موت فالنشتين » . ويكشف خطاب في ١٩ مارس ١٧٩٦ عن الحالة النفسية لكاتب خرج لثوه من أتون الخلق « لقد طالما روعتني اللحظة التي سأفرغ فيها من عملي ، مع شدة رغبتى في مجيء تلك اللحظة ؛ والواقع أنني أشعر بأن حريقى الراهنة أسوأ من حالة اليهودية التي كنت أعانيها إلى الآن . فقد ذهب الآن الجمهور الذي اجتذبنى حتى الآن وألزمنى هذا هذا الواجب ، وأنا أحس كأننى معلق في الهواء إلى مالا نهاية » .

وجاء ما يكفي من الإثارة مع التدريبات والعرض الأول (٢٠ أبريل ١٧٩٩) لموت فالنشتين . وكان نجاحها كاملاً . وحتى جمهور فامار النقاد أحس أنه شهد رائعة من روائع العرض الدراى . ووصل شيلر الآن

إلى قمة تطوره . لقد قصر الخطب وكثف الحركة ، ورسم كل الشخصيات الهامة بحيوية وقوة ، وجمع كل خيوط الحبكة معاً في الخاتمة الفاجعة - وهي ذلك الموت المخزي لرجل عظيم دمره الطمع والكبرياء اللذان لاحدود لهما . وأحس شيلر أن في وسعه الآن أن يقف على قدم المساواة مع جوته (١٢٩) ، وكان على حق في ضمير الدراما . وأضاف الدوق ماثي طالر لمعاش شيلر ، ربما بناء على اقتراح من جوته ، ودعاه للإقامة في فيمار . وهكذا انتقلت الأسرة في ٣ ديسمبر ١٧٩٩ إلى بيت قريب جداً من بيت جوته ، حتى أن الشعارين ظلاً حيناً يلتقيان كل يوم (١٣٠) .

وكان شيلر خلال ذلك قد زج بنفسه في مسرحية أخرى بعد أن حفره انتصاره . كتب إلى كورنر في ٨ مايو ١٧٩٩ يقول « شكراً لله ! لقد وقعت وقعت فعلاً على موضوع جديد للأساة » ودرس لهذه التمثيلية « مارياستيوارت » الخلفية التاريخية ، واكن لم يدع أنه يكتب التاريخ ، فقد نوى أن يكتب تمثيلية يستخدم فيها التاريخ مادة وخلفية . فرتب من جديد الأحداث والتسلسل الزمني ليخضع الاتساق والتأثير الدراميين ؛ وأكد على العناصر غير السارة في خالق اليزابث ، وجعل من ماري بطلة مبرأة من كل دنس تقريباً ، ثم أتى بالملكتين وجهاً لوجه في مواجهة درامية . والتاريخ لا يعرف هذا اللقاء ، واكن المشهد من أقوى المشاهد في أدب المسرح . فلما أن عرضت في فيمار في ١٤ يونيو ١٨٠٠ انتشى شيلر مرة أخرى بنجاحه . وما وافى شهر يوليو حتى كان عاكفاً على تمثيلية « عذراء أورليان » . هنا أيضاً عدل التاريخ ليخدم هدفه : فبدلاً من حرق العذراء صور جان دارك هاربة من أسرها الانجليز ، مندفعة إلى المعركة لتنقذ ملكها ، لاقية حتفها وهي منتصرة على ساحة القتال . وكان العرض الأول في ليپزج (١٨ سبتمبر ١٨٠١) أعظم انتصار ظفر به شيلر طوال حياته .

أكان جوته يغار من صعود نجم صديقه فجأة على المسرح الألماني؟ لقد اغتبط بهذا الصعود ، وظل بعد بضعة ثمانية وعشرين عاماً يحكم على « موت

فالفشتين» بأنها «عظيمة حتى انك لاتجد لها نظيراً من نوعها» (١٣١). على أنه لم يرفع قدر منافسه في الشعر إلى المقام الذي رفعه إليه في الدراما ، فقد أحس أن شيلر كدروصفاء شعره بالفلسفة ، وأنه لم يملك قط ناصية موسيقى الشعر تماماً (١٣٢). وحين أراد بعض المعجبين بشيلر أن يقدموا على مسرح فايمار تعبيراً عن تقديرهم له ، منع جوته هذا العرض بحجة أن فيه غلوّاً في التباهي (١٣٣). وفي يوليو ١٨٠٠ ذهب إلى بينا للمخلوة والدرس ، بينما ظل شيلر في فايمار ، واكن في ٢٣ نوفمبر كان شيلر لايزال يتكلم عن جوته بعبارات الصداقة التي لم تشبها شائبة . وكان رأيه في جوته أنه «أعظم رجل موهوب منذ شكسبير . . . وطوال سني صداقتنا الحميمة الست لم يخامرني أدنى شك في نزاهته . لقد انصف بأسمى صفات الصديق والإحساس بالشرف ، وأعمق الجلد في السعي إلى ما هو حق وخير» (١٣٤). ثم أضاف «وددت لو استطعت أن أبرر جوته بمثل هذه الحرارة من جهة علاقته الأسرية ! . . . فبسبب أفكار خاطئة عن مقومات السعادة البيتية ، وخوف منكود من الزواج ، انزلق إلى ورطة تضنيه وتشقيه في بيته ذاته ، وهو أضعف وألين قلباً من أن يتخلص منها . ذلك مغمره الوحيد . » وقد أبت زوجة شيلر كغيرها من سيدات فايمار أن تستقبل كرسنيانه في بيتها ، ونذر أن ذكر شيلر كرسنيانه في اتصالاته القائمة بجوته .

على أن هذه الصداقة بين «الديوسقورين» — كما كانا يلقبان أحياناً — رغم ما شابها من صمدوع ، أثبتت على الأقل أن الانسجام ممكن بين عبقرية كلاسيكية وأخرى رومانتيكية . كانا يبعثان الرسائل الواحد لصاحبه كل يوم تقريباً ، ويتناولان العشاء معاً مراراً ، وكثيراً ما وضع جوته مركبته تحت تصرف شيلر ، وأهدى شيلر «شطراً من الطلب الذي سلمه الساعة تاجر النبيذ الذي أتعامل معه» (١٣٥). كتب جوته في ٢٠ أبريل ١٨٠١ : «لنتمش معاً قرب المساء» ، وكتب في ١١ يونيو «وداعاً ، بلغ تحياتي الرقيقة لزوجتك العزيزة ، واشرح صدى عند عودتي (من جوتنجن) باطلاعي على بعض ثمرات جهدك» ؛ وفي ٢٨ يونيو ١٨٠٢ : «سيصملك مفتاح حديقتي وبيتي ، وأريدك أن تمضي هناك ما أدكناك من الأوقات (م ٢١ — قصة الحضارة . ج ٤١)

السعيدة » . وبعد موت شيلر باثنين وعشرين عاماً قال جوته لأكرمان ،
« كان من حسن حظي . . . ان وجدت شيلر ، لأننا رغم اختلاف طبائعنا
فإن ميولنا كانت تتجه إلى نقطة واحدة ، مما وثق صلتنا إلى حد استحال
معه حقيقة على الواحد أن يعيش بدون الآخر » (١٣٦) .

وقد عوقبهما المرض في سنوات صداقتهما الأخيرة . ففي الشهور الثلاثة
الأولى من سنة ١٨٠١ كان جوته يشكو العصبية ، والأرق ، والأنفلونزا
العنيفة ، والحراريج التي أفضت عينيه حيناً . وفي إحدى مراحل مرضه طالعت
غيوبته حتى توقعت فإمّار موته . وفي ١٢ يناير كتبت شارلوته فون شتين
لولدها فرتز تقول : لم أكن أدري أن صديقي السابق جوته ما زال عزيزاً
جداً على ، وأن مرضاً خطيراً قهره منذ تسعة أيام سيهزني إلى الأعماق » (١٣٧) .
وأخذت أوجست ، ابن كرسنيانه ، إلى بيها فترة لتخفف الأعباء التي
ألقاها مرض جوته على خليلته التي كانت تبذل له العناية دون كلل . وكان
إبلاله بطيئاً ليماً . كتب إلى شارلوته يقول « صعب على المرء أي يجد
طريقه إلى العودة » (١٣٨) .

وفي ١٨٠٢ اشترى شيلر بيتاً في فامار لقاء ٧,٢٠٠ جولدن ، وكان
الآن ميسوراً بفضل الحصيلة المتزايدة من مسرحياته الممثلة والمنشورة ،
وساعده جوته ، وكان وقتها في ييبا ، على بيع البيت الذي كان يسكنه هناك .
وفي ١٧ مارس ١٨٠٣ أخرج شيلر « عروس مسينا » ، وهي محاولة -
اعترف بها لنفسه (١٣٥) - لمنافسة مسرحية سرفوكليس « أوديب » بتصوير
النضال بين أخوين يعشقان امرأة يتبين أنها أختهما مستعينة بكورس مقسم .
ولم تحز المسرحية الرضى . وجاز جوته بنكسة ماثلة حين أخرج في ١٨٠٣
« الإبنة الطبيعية » (أي غير الشرعية) .

وكان بين المشاهدين لعرض من عروض « الابنة الطبيعية » سيدة
لامعة هوائية هي جرمين نكير ، مدام دستال ، التي كانت تجمع مادة
لكتابتها « فن ألمانيا » وقد رأت شيلر أول مرة في ديسمبر ١٨٠٣ :

« في صالون دوق ودوقة فامار ، في جماعة جمعت بين الاستنارة

والذبالة . وكان يجيد قراءة الفرنسية ، ولكنه لم يتكلمها قط من قبل . وقد عبرت في شيء من التحمس عن تفوق نظامنا المرامى على ما عداه من الأنظمة قاطبة ، فلم يرفض منازاتى دون أن يشعر بأى ضيق لما يجد من مشقة وبطء في التعبير عن نفسه بالفرنسية . . . وسرعان ما اكتشفت الكثير جداً من الأفكار خلال عقبة ألفاظه ، وراعتنى جداً بساطة خلقه . . . فقد وجدته شديد التواضع ، . . . شديد الحيوية ، حتى لقد أخذت على نفسى العهد منذ تلك اللحظة بمصادقة له ملؤها الإعجاب» (١٤١) .

وقد أخذ شيلار جوته لايعرف إليها ! «إنها تمثل الثقافة الفكرية لفرنسا في نقائها . . . ولا يعيها غير تدفقها المفرط . ولا بد للمرء أن يحول نفسه إلى جهاز سمع مركز واحد الكى يتابعها» (١٤١) . وأتى بها إلى جوته في ٢٤ ديسمبر . وكتب جوته يقول : «ساعة اللذة جداً . لم أجد فرصة للنطق بكلمة . أنها تجيد الحديث ، ولكن بإسراف شديد . » وكانت روايتها عن اللقاء مطابقة لروايته مع تغيير طفيف ، فقد قالت إن جوته أكثر من الكلام حتى لم تجد فرصة للنطق بمقطع واحد (١٤٢) . وقد كان كتابها بمثابة كشف أمارت لفرنسا اللثام عن المانيا «وطن الفكر» . كتبت تقول «لا يعقل ألا يكون الكتاب الألمان ، وهم أكثر الرجال في أوروبا اطلاعاً وتفكيراً ، جديرين بلحظة انتباه تبذل لأدبهم وفلسفتهم» (١٤٣) .

واعترض شيلار أن يسترد جدهوره الذى رفض «عروس مسينا» ، فاختار بناء على اقتراح جوته موضوعاً لدرامته التالية قصة ولیم تل الشعبية : وسرعان ما عكف على الموضوع في لطفة وانفعال . قال جوته في ١٨٢٠ مستحضراً تلك الفترة ، «بعد أن جمع كل المادة الضرورية قعد للعمل . . . ولم يهرح . قعده حتى فرغ من المسرحية . فإذا غلبه التعب أسند رأسه على ذراعه وأغشى هنيهة . . . ومجرد أن يستيقظ كان يطلب . . . قهوة سوداء قوية ليظال يقظاً . وهكذا فرغ من المسرحية بعد ستة أسابيع» (١٤٤) .

وقبل شيلار أسطورة شائعة — على أنها تاريخ — عن ولیم تل قائد ثورة

السويسرين على النمسا في ١٣٠٨ . كانت الثورة حقيقية ، وكذلك كان جيسلر
الوكيل المساوي المكروه . وتروى الأسطورة أن جيسلر تعهد لوليم تل
بالعفو الكامل إذا أثبت براعته المشهورة في استعمال القوس والسهم بإصابته
تفاحة على رأس ولده . ووضع تل سهمين في منطقتيه ، وأصاب التفاحة
بأولهما . وسأله جيسلر عم كان يريد به الآخر ؛ وأجاب تل « كنت أريدك
أنت إن أصاب الأول ولدى » . ولقيت المسرحية الاستحسان في فينمار
في ١٧ مارس ١٨٠٤ وفي كل مكان عرضت فيه بعدها بقليل ، وتبنتها
سويسره جزءاً من تقاليد القومية . فلما نشرت المسرحية بيع منها سبعة
آلاف نسخة في بضعة أسابيع . وأصبح اسم شيلر الآن أوسع ذيوفاً من
اسم جوته .

ولكن أجله دنا . إذ لم يبق له في الحياة غير شهر . ففي يوليو ١٨٠٤
أصابته نوبة من المغص اشتدت حتى خشي طبيبه أن يموت وتمنى هو الموت .
ثم تماثل للشفاء ببطء . وشرع في تأليف مسرحية أخرى اسمها « ديمتريوس »
(« ديمتري الكاذب » الذي يذكره تاريخ روسيا) . وفي ٢٨ أبريل ١٨٠٥
رأى جوته آخر مرة ، ومن ذلك الاجتماع عاد جوته إلى بيته وأصيب هو
الآخر بإصابة خطيرة بالمغص . وفي التاسع والعشرين بدأ مرض شيلر
الآخر . كتب هينريش فوس يقول : « غارت عيناه في رأسه ، وكان
كل عصب فيه ينفض متقلصاً » (١٤٥) . واثمرت عليه توترات الجهد
الأدبي الضارة . والتهاب أمعائه . واعتلال رئتيه . قال جوته فيما بعد « إن
شيلر لم يسرف في الشراب قط . وكان شديد الاعتدال فيه ، ولكنه اضطر
في ساعات ضعفه البدني إلى تنشيط قواه بالمسكر » (١٤٦) . وفي ٩ مايو قابل
شيلر الموت بهدوء عجيب : فقد ودع زوجته وأطفاله الأربعة وأصدقائه ،
ثم نام ، ولم يستيقظ ثانية . وأظهر تشريح جثته الرئة اليسرى وقد أتلفها
السل تماماً . والقلب منحلاً ، والكبد والكلية والأمعاء كلها مصابة . وقا
الطبيب للدوق « في هذه الظروف لا تملك غير العجب من أن الرجل المسكين
استطاع أن يعيش كل هذا العمر » (١٤٧) .

وكان جوته عندئذ في حال من المرض لم يجرؤ معها إنسان على أن
ينبئه بموت شيلر . وفي ١٠ مايو أفضت إليه كرسيه بالنبأ وهي تنسج ،
وكتب إلى تسليتر يقول « كنت أظن انني أفقد حياتي أنا ، فإذا أنا أفتد
صديقاً كان نصف وجودي ذاته » (١٤٨) . ووصل بما بقي له من وجوده
إلى تمام تحقيق ذاته .

الفصل الرابع والعشرون

جوته « نسطورا » (*)

١٨٠٥ - ١٨٣٢

١ - جوته ونابليون

أحسن بنا - ونحن مقيدون بحدودنا المقررة - أن نترك جوته معلقا عند هذه النقطة ، وعلى قلمه فاوست وفي شبهخوته الحكمة ، أم أن نلاحق هذا الأونجي - الذي لا يكف عن التطور - إلى نهايته ، مقلبن الصحائف مضحين بالوقت ؟ « إن الحكمة السرمدية تجذبنا إلى العلا » . (١)

في ١٤ أكتوبر ١٨٠٦ هزم نابليون البروسيين في بينا . وكان الدوق كارل أوجست ، المتحالف مع بروسيا ، قد قاد جيشه الصغير ضد الفرنسيين في تلك المعركة . ودخل الأحياء المدحورون فامار ، وأعقبهم الغالبون الجلياع ، فنهبوا المحال واحتلوا بيوت الناس . واستولى ستة عشر جنديا الراسيا على بيت جوته ، وأعطتهم كرستيانه الطعام والشراب والفراش . في تلك الليلة اقتحم البيت جنديان آخران ثملا بالخمير ، فلما افتقدا الأسرة في الطابق الأسفل ، صعدا عدوا إلى حجرة جوته ، ولوحا بسييفيهما في وجهه ، « مطالباه بمكان للنوم ، ووقفت كرستيانه حائلا بين الجنديين ورفيقها ، وأقنعتهما بالخروج ثم أرغبت الباب . وفي الخامس عشر من الشهر وصل نابليون إلى فامار وأعاد النظام إلى نصابه ، وصدرت التعليمات بعدم إزعاج « الأديب الكبير » وبضرورة اتخاذ جميع الإجراءات لحماية جوته العظيم وبيته . (٢) ومكث معه المارشالات لان ونيه وأوجروا برهة ثم رحلوا معتدلين بمجاملين . وشكر جوته كرستيانه على شجاعته وقال لها « إن أذن الله سنكون زوجا وزوجة » وفي ١٩ أكتوبر تزوجا . أما أمه الطيبة التي احتملت في حب جميع مثالبه ، وفي تواضع جميع مفاخره ، فقد جددت بركاتها لها . ثم ماتت في ١٢ سبتمبر ١٨٠٨ ، وورث جوته نصف تركتها .

(١) أي المرشد الحكيم المتقدم في السن (المترجم) .

وفى أكتوبر ١٨٠٨ رأس نابليون مؤتمرا من ستة ملوك وثلاثة وأربعين أميرا فى أرفورت ، وأعاد رسم خريطة ألمانيا ، وحضر الدوق كارل أوجست المؤتمر واصطحب جوته فى بطاقته . وطلب نابليون إلى جوته أن يزوره فى ٢ أكتوبر ، وذهب الشاعر ، وأنفق ساعة مع الغازى ، والتيران ، وقائدين ، وفريدريش فون مولر ، وهو قاضى فابمارى . وهنأه نابليون على عافيته (وكان جوته يومها فى التاسعة والخمسين) ، واستفسر عن أسرته ، ثم دخل فى نقد جريء لقرتر . وقد عاب الدرامات الشائعة التى تؤكد على القضاء والقدر « فلم الحديث عن القضاء والقدر ؟ إن السياسة هى القضاء والقدر ... ما قول المسيو جوته فى هذا ؟ » ولا علم لنا بجواب جوته ولكن مولر روى أن نابليون قال لقواده معلقا بينما جوته يرحل الحجرة « هاكم رجلا ! » (٣) .

وفى ٦ أكتوبر عاد نابليون إلى فايمار ، واصطحب معه فرقة ممثلين من باريس من بينهم تالما العظيم . ومثلوا فى مسرح جوته مسرحية فولتير « موت قيصر » وعقب الحفلة انتحى نابليون بجوته جانبا وناقش معه التراجيديا ، فقال « إن الدراما الجادة تصلح جدا لأن تكون مدرسة للأمرء كما هى مدرسة الشعب ، لأنها من بعض نواحيها فوق التاريخ ... يجدر بك أنت أن تصور موت قيصر صورة أبهى مما صوره فولتير ، وتبين كم كان قيصر (نابليون) سيسعد العالم لو أن الشعب أتاح له الوقت لإنفاذ خططه السامية . « ثم بعد قليل » لابد أن تأتى إلى باريس ! إلى أوجه إليك هذا الرجاء المشدد ! ستتاح لك هناك نظرة أوسع للعالم ، وستجد ذخيرة من الموضوعات لشعرك » (٤) .

وحين مر نابليون بفايمار ثانية عقب تفهقره المشثوم من موسكو طلب إلى السفير الفرنسى أن يبلغ جوته تحياته .

وأحس الشاعر أنه فى بونابرت قد التقى ، على حد تعبيره : بـ « أعظم فكر شهده العالم » (٥) إلى الآن . وقد وافق تماما على حكم نابليون لألمانيا ، فلم يكن هناك ألمانيا على أية حال (كما كتب جوته فى ١٨٠٧) إنما هى خليط من الدويلات ، أما الإمبراطورية الرمانية المقدسة

فقد نفل قضاء الله فيها في ١٨٠٦ ، وبدأ لجوته أن من الخير أن تتوحد أوروبا ، لا سيما تحت رئاسة رجل ألمى كيونابرت . ولم يغتبط بهزيمة نابليون في واترلو ، مع أن دوقه قاد أفواج فامار مرة أخرى ضد الفرنسيين . لقد كانت ثقافته واهتماماته أشمل وأعم من أن يتيحاً له الشعور بالكثير من الزهو الوطني ، ولم يستطع أن يستشعر في نفسه الميل لتأليف الأغاني ذات الحماسة القومية رغم كثرة ما طلب إليه . قال لا كرمان وهو في الثمانين :

« أنى لى أن أولف أغانى الحقد وأنا لم أشعر بشيء من الكره ؟ وأقول فيما بينى وبينك أننى لم أكره الفرنسيين قط وإن شكرت الله على خلاصنا منهم . وأنى لى ، أنا الذى أرى الحضارة والهمجية الشئيين الوحيديين اللذين لهما مغزى ، أن أبغض أمة هى من أكثر أمة الأرض ثقافة ، أمة أدين لها بجزء عظيم من ثقافتى ؟ على أية حال أرى أن مسألة الكراهية بين الأمم هذه شئ غريب . فأنت ستجدها دائماً أقوى وأشد مما تكون ضراوة فى المراتب الدنيا من المدنية . ولكن يوجد مستوى تختفى فيه كلية ، ويقف عليه الإنسان فوق الأمم إذا جاز التعبير ، ويحس أفراح شعب مجاور أو أتراحه كأنها أفراحه هو وأتراحه . ولقد كان هذا المستوى يلائم طبيعتى ، ولقد بلغته قبل أن أبلغ الستين بزمان طويل » (٦) .

ألا ليت كل دولة غنيت بمليون من هؤلاء « الأوربيين الصالحين ! » .

٢ - فاوست : الجزء الأول

لم يقبل جوته دعوة نابليون أياه للانتقال إلى باريس أو للكتابة عن قيصر ، ذلك أنه طالما احتضن في ذهنه وفي مخطوطاته موضوعاً أثارة لإثارة أعق حتى من أعظم مستقبل سياسى : الا وهو صراع النفس لبلوغ الفهم والجمال « وهزيمة النفس بسبب قصر عمر الجمال وروغان الحقيقة ، والسلام المستطاع للنفس ، بتضييق الهدف وتوسيع الذات . ولكن كيف

السبيل إلى تخيل هذا كله في قصة رمزية عصرية وشكل درامي ؟ لقد ظل جوته يحاول تحقيق هذا الهدف ثمانية وأربعين عاماً .

وكان قد تعلم قصة فاوست ^(٧) في طفولته من كتيبات القصص الشعبية ومسارح الدمى ، ورأى صوراً لفاوست والشيطان على جدران حانة أورباخ في ليبزج . وتطفل هو نفسه في شبابه على السحر والخيماء ، وامتزج بحشه الدعوب عن الفهم بتصوره لفاوست ، ودخلت قراءته لفولتير وإلمامه بتهكمات هرذر في تصويره لفستوفيليس ، وأعطت جريتشن التي أحبها في فرنكفورت ، وفردريكة بريون التي هجرها في زيزنهايم ، لمارجريت أسمها وصررتها .

ويتجلى عمق تأثير جوته بقصة فاوست ، وتباين الأشكال التي اتخذتها في فكره ، إذا علمنا أنه شرع في تأليف المسرحية في ١٧٧٣ فلم يفرغ منها إلا في ١٨٣١ . وحين التقى بهرذر في ١٧٧١ كتب في ترجمته الذاتية :

« أخفيت عنه في تكتم شديد اهتمامي بشخص معينة أصلت جذورها في وكانت تشكل نفسها شيئاً فشيئاً في صورة شعرية . وتلك هي جوتزفون برليشنجن وفاوست . . . فسرح عرائس فاوست ذو المغزى كان يجلجل ويتردد في باطنى بأغنام كثيرة . كذلك كنت قد طوفت في شتى ضروب العلم ، وانتهيت في فترة مبكرة من حياتي إلى تبين بطلانه . ثم لأنني جربت كل أساليب العيش في الحياة الواقعية ، وكنت دائماً أعود منها ضيق النفس غير راض عنها . هذه الأشياء وغيرها حملتها معي وسعدت بها في ساعات العزلة ولكن دون أن أكتب شيئاً » ^(٨) .

وفي ١٧ سبتمبر ١٧٧٥ كتب إلى مراسل يقول : « أحسست بانزعاش هذا الصباح وكتبت مشهداً في مسرحيتي فاوست » ^(٩) . وفي تاريخ لاحق من ذلك الشهر سأله . بوهان تسمرمان عن سير المسرحية . « فأني بحقيقة مملوءة بمئات من قطع الورق وألقاها على المائدة . وقال : هاك فاوستي » ^(١٠) . وحين ذهب إلى فايمار (نوفمبر ١٧٧٥) كان أول شكل للدراما قد اكتمل ^(١١) . ولكنه نحاها لأنه لم يرض عنها ، وام تصل « فاوست الأصلية »

هذه قط إلى المطبعة إلا في ١٨٨٧ حين وجدت في فامبار (١٢) نسخة خطية نسختها الأنسة فون جوشهاوزن . وراخ ينفخ ويوسع فيها طوال خمسة عشر عاما أخرى . وأخيراً نشرها (١٧٩٠) باسم «شدره من فاوست» تبلغ الآن ثلاثاً وستين صفحة ، (١٣) وكان هذا أول شكل مطبوع لأشهر مسرحية منذ هاملت .

على أن جوته ظل غير راض عنها ، فأسقط الموضوع حتر ١٧٩٧ . وفي ٢٢ يونيو كُتبت إلى شيلر يقول « أعتزمت أن أستاذف كتابة « فاوستى » . مفككا ما طبع منها ، مرتباً إياه في كتل كبيرة معداً تطور المسرحية إعدداً أو في كل ما أريده أن تتفضل بتقليب الأمر في فكرك في ليلة من لياليك النابغية — ونخبني بما تتطلبه من المسرحية بوصفها كلا ، ونفسر في أحلامي تفسير نبى صادق . ورد عليه شيلر في الغد . « أن أوداج الطبيعة البشرية ، ومحاولة الإنسان الفاشلة للجمع بين العنصر الإلهي والعنصر الجسدى ، لا تغيب عن البصر أبداً . . . أن طبيعة الموضوع ستكرهك على تناوله فلسفياً ، وعلى الخيال أن يكيف نفسه لخدمة فكرة عقلية . « أما خيال جوته فكان غاية في الخصوبة ، وأما تجاربه الناصعة الذكرى فكثيرة جداً ، لذلك أدخل الكثير منها في «شدره من فاوست» فضاعف بذلك من حجمها ، وفي ١٨٠٨ أذاع على العالم ما نسميه الآن الجزء الأول من فاوست .

وقبل أن ينطق دميته بكلمة ، صدر الدراما بإهداء رقيق إل أصدقائه الموتى ، وبفصل تمهيدى هزلى « برولوج فى المسرح » بين المدير والمؤلف والمضحك ، و « برولوج فى السماء » يراهن الله فيه مفستوفيليس على أن فاوست لا يمكن أن يظفر به الإثم بصفة دائمة . ثم يتكلم فاوست أخيراً فى فى أبسط شعر هزلى :

« أجهدت نفسي فى دراسة الفلسفة والشريعة والطب ، وتعمقت أيضاً — وبالإحسرة فى دراسة علوم الدين ، بجد لا يعتوره فتور وهمة لا تعرف الكلال . ثم أرانى — أنا البليد المسكين — بعد هذا كله لم أتقدم شبراً ولم أخط نحو العرفان خطوة .

« سميت الأستاذ والدكتور ، وقضيت زهاء عشر سنوات وسط تلاميذى أختادعهم وأغرر بهم وأذهب بهم ذات اليمن وذات الشمال . ثم أَرانا بعد هذا كلمة لم نزل عاجزين عن أن ندرك شيئاً أو أن نلم بشيء^(١٤) » (٥)

وقد تبين أن البحر الرباعى التفاعيل ، المنحدر من تمثيلات هانز زاكس القصيرة ، هو الوزن المترقق اللائق لدراما هذبت الفلسفة بالفكاهة .

وفاولست هو بالطبع جوته ، حتى فى كونه رجلاً فى الستين ، لم يزل كمجوته ينشأ فى الستين بحسن المرأة ورشاقها . وتطلعه المزدوج إلى الحكمة والجمال هو روح جوته الضميم ، وقد تحدى تطلعه الآلهة المنتقمة بوقاحته ، ولكنه كان نبيلاً . لقد قال فاولست وجوته نعم للحياة ، الروحية والحسية ، الفلسفية والمرحة ، وعلى النقيض من ذلك كان مفستوفيليس (وهو ليس ابليس بل فيلسوف إبليس فقط) شيطان الإنكار والشك ، كل تطلع فى نظره هراء ، وكل حس إنما هو هيكل عظمى يكسوه جلد . وقد كان جوته فى لحظات كثيرة هذا الروح الساخر أيضاً . وإلا لما استطاع أن يسبغ عليه هذا الذكاء وهذه الحياة . ويبدو مفستوفيليس أحياناً صوت التجربة ، والراقعية والعقل ، يكبح رغبات فاولست وأوهامه الرومانسية ، والحق ، كما قال جوته لاكرمان « إن شخصيه مفستوفيليس ... حصيلة حية لخبرة واسعة بالدنيا »^(١٥) .

وفاولست لا يبيع روحه بغير شروط ، فهو لا يوافق على أن يقذف به فى الجحيم إلا إن أراه مفستوفيليس لذة فيها من الإشباع الدائم له ما يحب له معاشتها إلى الأبد :

« لئن جاء اليوم الذى أرقد فيه على فراش الكسل والراحة ، ... فليكن ذلك اليوم آخر عمرى ! ... ولو مرت بى لحظة من الزمن وكانت من الحسن بحيث قلت لها أن لا ترحى فما أحلاك ! إذن فهبى لى سلاسلك وأغلالك ... هنالك أرحب بالموت » ... (**) (٦)

(*) الترجمة للدكتور عوض محمد : فاولست : لجنة التأليف والترجمة والنشر ص (٧)

(**) فاولست : د . محمد عوض محمد ، ص ٨

وبهذا الشرط يبرم فاوست حلقة مع دمه ويصيح في استهتار «هلم نطفيء الآن ظمأ رغباتنا المتأججة في بحر من الشهوات» (١٦).

ويأخذه مفيستوفوليس إلى مارجریت- «جریتشن» فيجد فيها فاوست كل فتنة البسطة التي تولى مع المعرفة وتعود مع الحكمة . ويتودد إليها بالجواهر والفلسفة :

« مارجریت : قل لي مارأيك في الديانة ؟ لست أنكر أنك من أطيب الناس وأحسنهم . لكنني أخشى أن تكون قليل الإيمان .

فاوست : دعني هذا يا حبيبتي ! أنت ترينني متيماً بك ؛ أود أن أبذل من أجل حبك لحمي ودمي ، وما أريد لعمري أن أسلب أحدا دينه ومعتقده .
مارجریت : هذا خطأ . يجب على الإنسان أن يؤمن بالدين ! ... قل لي : هل تعتقد وتؤمن بالله ؟

فاوست : أيتها الحبيبة ! من ذا الذي يستطيع أن تبلغ به الجرأة والقحة أن يقول « أنا أعتقد بالله » ...

مارجریت : إذن فأنت لا تؤمن بالله ؟

فاوست : لاتسيئي فهم أقوال أيتها الحبيبة : أى الناس يقدر أن ينطق بإسمه ؟ وأيهم يستطيع أن يقول « أنا لاؤمن به ؟ وأى الورى يحس ويبصر ، ويسمع ، ويعي ، ثم يجرو أن يقول « أنا لاؤمن به » ؟ ذلك القابض على كل شيء والممسك كل شيء ؟ أليس هو الممسك لي ولك ولنفسه ! أما تنظرين إلى السماء كيف رفعت وإلى الأرض كيف سطحت ؟ ... وإلى هذه النجوم الزهر تسبح في السماء ، مرسله ضياءها الأبدى المحبوب ؟ ... فن هذا كله فاملأى قلبك حتى يطفح ... بتلك السعادة ، ويستثير بذلك النور . وعندئذ فلتسميه كما تشائين ، ولتدعيه بما يحلو لك من الأسماء : السعادة أو القلب أو الحب أو الرب . أما أنا فما له اسم عندي . وكل همى أن أحسه وأستشعره . فالشعور هو كل شيء ! وما الإسم إلا صدى لاطائل تحته ، أو غمام يستر عن أبصارنا محيا الشمس البديع .

مارجريت : هذا كله حسن وجميل ... لكنى مازلت قلقة لأنى أرى
قدمك فى المسيحية غير راضية .

فاوست . ولم أيتها الطفلة العزيزة ! (١٧) « (*) .

وهى لا تتأثر بحلوليته الغامضة ، بل بالصورة الجميلة والثياب الرائعة
التي خلعها سحر مفيستوفوليس على شبابه المجدد . وهى تنشد على مغز لها أنشودة
ملؤها الحنين الحزين (**) .

« أنا - صبحى ومسأى

فى عذاب وبلاء ،

واعنائى ! واشفقائى !

هل لدائى من دواء ؟

كيف لا يشتد خطبى

كيف لا يزداد كربى

كيف لا يميزن قلبى

وحبيب القلب ناء ؟

بان صفو العيش عنى

قرح التسهيد جفنى ،

لم يسكن نار حزنى

دمع عيني وبكائى .

قد نبا عنى الرقاد

وبرى جسمى السهاد

آه ! قد طال البعاد

وشفقائى فى اللقاء .

(*) فاوست ، ترجمة د . محمد عوض محمد ص ١٤٧ و ٢٤٨ .

(**) مترجمة بتصرف بقلم د . محمد عوض محمد : فاوست ص ٢٤٤

فتى يسمح دهرى
ويربى وجه بدرى
قد أضل الحب فكرى
والهوى أعضل داء :
أوما يدنو الحبيب
فأرى العيش يطيب ؟
الهوى أمر عجيب
منه سقمى ودوائى ؟
ما أحلاه إذا ما
ثغره ابدى ابتساما !
قد حكى الدر التمام
فى سناء وبهاء .
آه لو أشفى بلثمة
منه أو أحظى بضمة !
ثم يقضى الدهر حكمة
بـهـلاكى وفنائى (١٨) .

وبقية القصة يعرفها الغرب كله ، ولو من جوف فقط . فارجريت
تعطى أمها شرابا منوما لا تفيق منه لكى تقبل هى حبيبها وتغيب عن الوعى
دون رقيب . ويقتل فاوست فالتين أخا مارجريت فى مبارزة ثم يختفى ؛
أما مارجريت فتقتل طفلها العديم الأب خزيا وحسرة ، فيقبض عليها ويحكم عليها
بالإعدام . ويزورها فاوست فى زترانها ويرجوها أن تهرب معه ، فتعانقه ،
ولكنها ترفض مغادرة زترانها . ويجذب مفيسدوفيليس فاوست بعيدا ،
بينما يصبح صرث من السماء « كتبت لها النجاة » .

ولم يدرك جمهور القراء - إلا ببطء - أن فاوست ١٨٠٨ هذه أروع دراما وأجمل شعر أنتجتهما ألمانيا إلى ذلك التاريخ . ولكن قلة من أصحاب العقول اليقظة فطنوا للتوالى أنها جديرة بأن تنبأ مكانها بين شوامخ الأدب العالمى . وشبه فريدريشن شليجل جوته بدانتى ، وسوى جان بول رشتريه وبين شكسبير ، ورفع فيلاند في دنيا الشعر إلى مقام السيادة الذى ارتفع إليه نابليون في دنيا الحكم والحرب (١٩) .

٣ - نسطور عاشقاً

في السنوات ١٨١٨ - ٢١ دخل جوته في غرامين مشيرين ، فضلاً عن صلاته ببتينا برنتانو . ففي ٢٣ أبريل ١٨٠٧ جاعث ببتينا ذات الاثنين وعشرين ربيعاً إلى الشاعر المسن بخطاب تقديم من فيلاند . وكانت حفيدة صوفى فون لاروش التى أحبت فيلاند من قبل ، وابنة مكسمليانه برنتانو التى غازلت جوته في شبابها * وقد أحست أن لها دالة الحفيدة على قلب جوته . ولم تلبث بعد أن دخلت حجرتها أن ألقت بنفسها بين ذراعيه . وقبلها هو على أنها طفلة ، وبعدها كان يرسلها بهذا المعنى ، ولكنه طوى رسائله على أحدث قصائده الغزلية ، ومع أنها لم تكن موجهة إليها إلا أنها عدتها بوحاً بغرام مشبوب ، وأضفت عليها ذلك اللون في كتابها « رسائل جوته إلى طفلة » الذى نشرته في ١٨٣٥ .

أما ملهمة أكثر هذه القصائد فهى فلهلمينا هرتسلييب . وكافت منا ، كما دعاها جوته بعد قليل ، ابنة كتي في يينا . وقد عرفها طفلة ، ولكنها في عام ١٨٠٨ كانت في التاسعة عشرة ، فتاة نحجولا ، رقيقة ، مشرقة . وكانت تتلف كل كلمة يفوه بها ، وتتحسر على أن شيخوخته ومكانته الاجتماعية تمنعها من عشقه وتملكه . وأدرك هو شعورها ، واستجاب له ونظم لها الصونينات ، موريا على اسمها كقلب محب ، ولكنه تذكر أنه لم يمس على زواجه من كرستيانه إلا زمن قصير . ويلوح أنه كان يفكر في منا وهو يصور أوتياييه النحجول الودود ، المشدودة الأعصاب ، في قصته والانحدابات العاطفة ١٨٠٩ » .

وهذه القصة الممتازة ، في رأى مؤلفها (٢٠) ، خير قصصه المنشور ،
فهى أفضل تنظيماً وأكثر تماسكاً في روايتها من أى من تطويّفات فلهم مايستر .
وهنا نلاحظ قول جوته لأكرمان (٩ فبراير ١٨١٩) : « ليس في قصة
(الانجذابات العاطفة) بأسرها سطر لم أعشه أنا نفسى حقيقةً وفعلًا ، ووراء
النص معان أكثر كثيراً مما يستطيع أى إنسان استيعابه من قراءة واحدة » .
والواقع أن عيب الكتاب أن فيه من جوته أكثر مما يجب ، ومن التفلسف
الجارى على ألسنة لا يتوقع أن يجرى عليها قدر أكبر مما ينبغي .

(مثال ذلك أنه يجعل الفتاة أوتيليه تحتفظ بيومية يودع فيها بعضا
من أنصج التأمّلات كقوله « لا سبيل إلى الدفاع عن أنفسنا أمام التفوق
العظيم في إنسان غبرنا سوى سبيل الحب » (٢١) . ولكن احتواء هذا الكتاب
على هذا القدر الكثير من جوته هو الذى يجعله دافئاً بالحياة غنياً بالفكر :
لأن شارلوتة القصة هى أيضاً شارلوتة فون شتين ، تغرى ولسكنها
تأبى أن تحون زوجها ، ولأن الكبتن هو جوته العاشق لزوجته
صديقه ، ولأن إدورد ، الزوج ذا الخمسين المقيم بأوتيليه هو جوته
المفتن بمنى هر تسليپ ، ولأن القصة هى محاولة جوتة تحليل حساسيته الشبهة .

وقد قصد هنا أن يفكر في الجاذبية الجنسية بلغة كيميائية . وربما
اتخذ عنوان كتابه من « الانجذابات العاطفية » الذى نشره الكيمياءى السويدى
العظيم توربرن أولوف برجمان في ١٧٧٥ . والكبتن يصف لادورد
وشارلوتة انجذابات جزئيات المادة وتنافراتها وتجمعاتها فيقول : « ينبغي
أن تريا بنفسيكما هذه الجواهر — التى تبدو ميتة جداً وهى مع ذلك زاخرة
باللشاط والقوة — تعمل أمام عيونكما ، يبحث بعضها عن بعض . . .
ويمسك ويسحق ويلتهم ويدمر بعضها بعضاً ، ثم يعود إلى الظهور
فجأة . . . في صور نصرة ، مجددة ، غير متوقعة . » (٢٢) فحين يدعو
ادورد صديقه الكبتن ، وتدعو شارلوتة ابنة أخيها أوتيليه ، للإقامة
معهما في زيارات طويلة ، يهيم الكبتن بشارلوتة ، وإدورد بأوتيليه .
وحين يتصل إدورد بزوجته جنسياً يفكر في أوتيليه ، وتفكر

شارلوتة فى الكبتن ، فى ضرب من الزنا السيكلوجى ؛ ويبدو الوليد عجيب الشبه بأوتيليه ، وتحنو أوتيليه على الطفل كأنه طفلها . ثم تركه ليغرق كأنما جاء ذلك مصادفة ، ويحملها تأنيب الضمير على أن تضرب عن الطعام حتى الموت . ويموت إدورد حسرة ، ويحتفى الكبتن ، وتبقى شارلوتة على قيد الحياة ، ولكنها ميتة روحياً .

ويخلص فيلسوف فى المدينة إلى أن « الزواج هو البداية والنهاية لكل ألوان الحضارة . أنه يروض المتوحشين ، ويمنح أكثر الناس ثقافة ، خير فرصة للارقة ودمائة الخلق . وينبغى أن يكون غير قابل للفسخ لأنه يجلب من السعادة الكثير ، ما يجعل متاعبه العارضة لا وزن لها (٢٣) » . على أن أحد شخوص القصة يقترح بعد أربع صفحات من هذا القول زواج التجربة الذى لا يتجاوز العقد فيه فى المرة خمس سنوات .

وفى ١٨١٠ نلتقى بموتة فى كارلسباد يستشفى بياها ويغازل شاباتا ، بينما تظل كرستيانه التى مضى على زواجها أربعة أعوام فى البيت تغازل الشبان . فقد تقيمت بالشاعر ذى الحادية والستين عاما يهودية حسناء سموا تدعى ماريانه فون إينبرج ، ثم هرب منها إلى الشقراء سلفى فون تسيجزار . وفى قصيدة وجهها إلى سلفى يدعوها « الأبنه الخلية ، الحبيبة ، البيضاء النحيقة القوام » (٢٤) ، وقد أرسلت إليه كرستيانه نداءات تناشده الوفاء :

« وهل وصلت بتينا وتلك السيدة فون أينبرج إلى كارلسباد ؟ يقولون هنا إنه من المتفق عليه أن تكون زلفى وآل جوترز هناك أيضاً . فلذا أنت صانع وسط كل معاشاتك ؟ ما أكثرها ! ولكنك لن تنسى أقدمها عهداً ، أليس كذلك ؟ فمكر فى قليلا أيضاً ، بين الحين والحين ، إلى أريد الوثوق بك ثقة تامة ، مهما قال الناس . لأنك كما تعلم الوحيد الذى يفكر فى إطلاقاً » (٢٥) . ويبحث إليها بهدايا صغيرة .

وقد وجد وقتنا كل يوم تفريفا لكتابة شىء من الشعر أو النثر . وحوالى عام ١٨٠٩ بدأ يكتب سيرته الذاتية ، وقد سماها « الخيال والحقيقة من حياتى » واعترف العنوان اعترافا جميلا بأنه بين الحين والحين ، عن عمد أو غير عمد ،

ربما مزج انجاليال بالواقع . أما غرامه بشارلوتة بوف فقد مسه مسنا خفيفا رقيقا ، ولكنه كان أكثر إفاضة في قص غرامه بفردريكه بريون ، وكانت المرأتان لا تزالان على قيد الحياة . ثم حال في براعة وأريحية الكثير من أصدقاء شبابه — لنئس ، وبازدوف ، ومرك ، وهردر ، وياكوبى ، ولافاثر . أما عن نفسه فقد تكلم في تواضع ، وقد شكى في ملاحظاته الخاصة من أن كاتب السيرة الذاتية يتوقع منه الناس أن يعترف بنقائصه ولا يعلن عن فضائله ^(٢٦) . والكتاب تاريخ فكر أكثر منه تاريخ حياة ، والأحداث فيه قليلة والتأملات وفيرة . أنه أعظم كتبه الثرية »

وفى ١٨١١ تلقى من بيتهوفن خطاب إعجاب مع «مقدمة موسيقية لأجمنوت» . والتقى الشاعر والمؤلف الموسيقي فى تبلتز فى يوليو ١٨١٢ ، وعزف بيتهوفن لجوته وكان يتمشى معه . وإذا صدقنا الرواى أوجست فرانكل ، « كان الناس فى المتنزه — أينما ذهبوا — يفسحون لهما الطريق باحترام ويحيونهما . وقال جوته وقد غاظته هذه المقاطعات المستمرة : « يا لها من سضيقة ! لا أستطيع أبدا تجنب هذا الأمر . » وأجاب بيتهوفن بابتسامة « لا يضايقتك هذا يا صاحب السعادة ، فلعلنى أنا المقصود بالاحترام . » وكتب جوته إلى تساتر (٢ سبتمبر ١٨١٢) : « لقد أذهلتنى موهبة بيتهوفن ، ولكن شخصيته للأسف لا يمكن السيطرة عليها إطلاقا . إنه ليس مخطئا ... فى اعتباره العالم بغيبضا ، ولكن هذا الموقف لا يجعل هذا العالم أكثر إمتاعا لاه ولا لغيره . وكثير من هذا الموقف يلتبس له العذر فيه بسبب مؤسف هو أنه يفقد قدرته على السمع . » ^(٢٧) أما تعليق بيتهوفن على جوته فكان « ما أشد صبر الرجل العظيم على ! وما أعظم الخير الذى أسداه لى ! ولكن « جو البلاط يلائمه أكثر مما ينبغى . » ^(٢٨)

لقد كانت مظاهر البلاط وسلوكه جزءا من حياة جوته الرسمية ، لأنه كان لا يزال يمارس نشاطه فى الإدارة . أما حياته البيتية فقد فقدت سحرها . فأرجست ابنه ، الذى بلغ الثانية والعشرين فى ١٨١٢ ، كان ضعيف المواهب لا أمل فى إنقاذه ، وكرستيانة باتت بدينة مدمنة للشراب ، وكان لها بعض العذر ، لأن مغازلاته للنساء لم تتوقف . فخلال زيارته لفراנקفورت ، كثيرا

ما كان يقيم في فيلا يوهان فون فليمير الواقعة في إحدى الضواحي ، وكان يعجب بماريانه زوجته فليمير . وفي صيف ١٨١٢ أنفق أربعة أسابيع تقريبا معهما . وكانت ماريانه في الحادية والثلاثين ، ولكنها كانت في ريعان جمالها الأنثوى . وكانت تغنى أشعار جوتة العاطفية وألحان موتسارت غناء ساحرا ، وتنظم الشعر الرفيع ، وتبادل مع جوتة سلسلة من القصائد محاكاة لحافظ والفردوسى وغيرهما من شعراء الفرس (وكان حافظ قد ترجم إلى الألمانية في ١٨١٢) . وفي بعض القصائد شهوانية سافرة وحديث عن الفرح المتبادل في العناق الجسدى ، ولكن هذا الترخص قد يكون مجرد انحراف شعري . والتقى الثلاثة مرة أخرى في سبتمبر هيدلبرج ، وكان الشاعران يخرجان معا في مسيرات طويلة ، وكتب جوتة اسم ماريانه بحروف عربية في التراب حول نافورة القلعة . ولم يلتقيا قط بعد ذلك اليوم ، ولكنهما ظلّا يتراسلان طوال السبعة عشر عاما الباقية من حياته . ويبدو أن فليمير زاد اعتزازا بروجته لأنها فتنت رجلا بهذه الشهرة ، ولأنها عارضت شعر جوتة بقصائد لا تقل روعة عن قصائده . وضمن جوتة أشعارها وأشعاره في « الديوان الشرقى الغربى » الذى نشره في ١٨١٩ .

وبينما هو ماض في مراسلاته نثرا وشعرا ماتت كرستيانه (٦ يونيو ١٨١٦) . وسجل جوتة في يوميته : « كان صراعها مع الموت رهيبا ... خواء وصمت قاتل في باطنى ومن حولى . » (٢٩) وران على هذه السنوات اكتاب عميق . وجين زارته شارلوتة كستنر ، حبيبة صباه التى فقدتها ، التى كانت الآن زوجة في الرابعة والستين لعضو المجلس الناجح كستنر الهانوفرى ، في صحبة ابنتها (٢٥ سبتمبر ١٨١٦) لم يستشعر أى عاطفة تحتلج بين جوانحه ، وكان حديثه كله حديثا تافها مجاملا . ولكن في ١٨١٧ ، تزوج ابنة أوجست من أوتيليه فون بوجفيس ، بعد أن قطع حياة كلها خلاعة وفسق ، ودعاه جوتة ليسكن معه ، وأتت أوتيليه بمرج الشباب إلى البيت ، وما لبثت أن أعطت الشاعر المسن أحفادا أنبضوا قلبه بالحياة من جديد .

وأعانتته على ذلك أولريكه فون لفتزوف ، وكانت إحدى بنات ثلاث

لألمانيا فون لفتزوف التي عرفها جوته في كارلسباد . والتقى في أغسطس ١٨٢١ بأولريكه في مارينباد ، وقد قالت فيما بعد مسترجعة ذكرى هذا اللقاء : « لما كنت قد أقيمت سنوات في مدرسة داخلية فرنسية بستراسبورج ، وكنت لا أتجاوز السابعة عشرة ، فإني لم أسمع قط بجوته ، ولا خطر لي أنه رجل مشهور وشاعر فحل . وعلى ذلك لم أشعر قط بالحنين من السيد العجوز الودود ... وفي غد ذلك اليوم ذاتة طلب إلى أن أتمشى معه ... وكان يصحبني معه في نزهته كل صباح تقريبا . » (٣٠) وعاد إلى مارينباد في ١٨٢٢ ، و « طوال ذلك الصيف أبدى لي جوته غاية الود » . وبعد عام التقيا في كارلسباد ، وسرعان ما أثارا القيل والقال في مجتمع المياه المعدنية . وكان الشاعر الآن قد قرر أن حبه أكثر من الحب الأبوى . وألح الدوق كارل أوجست على أولريكه في أن تزوج جوته ، ووعداها إن فعلت بأن يمنع أسرتها في فايمار بيتا جميلا ، وأن تحصل بعد موت الشاعر على معاش قدره عشرة آلاف طالر في العام (٣١) . وفضت الأم وابنتها . وقفل جوته محزونا إلى فايمار ، وأغرق خيبة أمله في المداد . وعمرت أولريكه حتى أوفت على الخامسة والتسعين .

في ذلك العام ، عام ١٨٢١ الذي قاد جوته لأولريكه ، جاءه في فايمار كارل تسلتر - مدير الموسيقى في فيينا - بتلميذ في الثانية عشرة يدعى فيلكس مندلسون . وكان تسلتر قد فتح روح جوته على عالم الموسيقى ، بل أنه علمه التأليف الموسيقي . وأذهلت براعة عازف البيان الصغير الشاعر العجوز وأبهجته ، فأصر أن يمكث معه أياما . وقد كتب فيلكس في ٦ نوفمبر يقول : « في كل صباح يقبلني مؤلف « فاوست » و « فرت » . وفي العصر أعزف له قرابة ساعتين ، وبعض العزف فوجات من باخ ، وبعضه من ارتنجالي . وفي ٨ نوفمبر أقام جوته حفل استقبال ليقدم فيلكس إلى مجتمع فايمار الراقي . وفي ١٠ نوفمبر كتب فيلكس : « في كل عصر يفتح البيان ويقول : لم أسمعك قط اليوم . تعال وأسمعني شيئا من الموضوعاء . ثم يجلس إلى جوارى ويصغى . لا تتصور كم هو عطوف ودود . » فلما أراد تسلتر أن يرجع فيلكس إلى فيينا ، أقنعه جوته بأن يترك تلميذه أياما أخرى . وكتب الصبي

السعيد «وعلت الآن أصوات الشكر لجوته من كل ناحية ، ولثمت أنا والبنات شفتيه ويديه . وطوقت أوتيليه دون بوجفيس عنقه بذراعيها ، ولما كانت جميلة جدا ، وهو يغازلها بطوال الوقت ، فقد كان الأثر رائعا » (٣٢) . إن في التاريخ لحظات سعيدة تتوآرى خلف درامة المأساة ، وتحت ملاحظة المؤرخين .

٤ - العالم

ولتعمد الآلة إلى سنوات صباه ، حين بدأ بحثه الذي امتد طوال حياته في العلم ، باهتمام يقظ ولذة تلتهم كل شيء . وقليلون منا من يعرفون أن جوته كرس للبحث والمؤلفات العلمية وقتاً أكثر مما كرس أكل شعره ونثره مجتمعين (٣٣) . وكان قد درس الطب والفيزياء في ليزج ، والكيمياء في ستراسبورج : ثم بدأ دراسة التشريح في ١٧٨١ ، وظل سنوات يضرب في أرجاء ثورنجا جامعا للعينات المعدنية والنباتية ويرقب التكوينات الجيولوجية . وكان في أسفاره لا يلاحظ الرجال والنساء والفن فحسب ، بل الحيوان والنبات والظواهر البصرية والمتيورولوجية أيضا . وقد قام بدور رائد في إنشاء المختبرات في يينا . وكان يشتد فرحه بانتصاراته في العلم أو حزنه بهزأته فيه ، اشتداده بنجاحه أو إخفاقه في الأدب .

وقد استحدث شيئا في دراسة الطقس . ذلك أنه نظم محطات للرصد الجوى في دوقية ساكسي - فامار ، وأعان على إنشاء محطات أخرى في طول ألمانيا وعرضها (٣٤) ، وأعد التعليمات اللازمة لها . وكتب المقالات في « نظرية الطقس » و « أسباب تذبذبات البارومتر » وأقنع الدوق كارل أوجست بأن يشرع في اقتناء المجموعات التي كانت النواة لمتحف علم المعادن في يينا ، وبعد أن درس الطبقات الجيولوجية في إلمينا وذهب إلى أنها تؤيد نظرية أبراهام فرنر التي زعمت أن جميع التكوينات الصخرية على القشرة الأرضية نتيجة لفعل المياه البطيئة . (ويجب أن تقرر هذه النظرية « النبتونية » بالنظرية « البركانية » التي تقول بالتغير نتيجة للحركات العنيفة) . وكان من أوائل من ألمعوا إلى أن عمر الطبقات قد يقرر من المتحفرات

المطمورة فيها ، ومن دافعوا عن رأى القائل بأن الجلاميد الهائلة الموزعة الآن توزيعاً شاذاً في المرتفعات قد قذفها هناك موجات من الجليد هابطة من المنطقة القطبية الشمالية^(٣٥) .

وفي ١٧٩١ - ٩٢ نشر جوته في مجلدين « مقالات في البصريات » ، وكتب يقول « كان هدفى تجميع كل ما هو معروف في هذا الميدان ، والقيام بكل التجارب بنفسى ، منوعاً فيها قدر الاستطاعة ، ميسراً متابعتها ، مراعيًا أن تكون في متناول الشخص العساذى^(٣٦) . وقد أجرى خلال السنوات من ١٧٩٠ إلى ١٨١٠ مالا يحصى من التجارب لتفسير اللون ، وما زال متحف جوته بفافمار يحتفظ بالأدوات التى استعملها . وظهرت الحصيلة فى ١٨٠٠ فى مجلدين كبيرين يحتويان النصوص ، ومجلد للوحات ، تحت هذا العنوان « فى نظرية اللون » . وكان هذا أكبر آثاره عالماً .

وقد درس الألوان باعتبارها ناشئة لا عن التركيب الكيميائى للأشياء فحسب ، بل عن تكوين العين وعملها . وحلل تكيف الشبكية للظلام والنور ، وفسيولوجية العمى اللونى ، وظواهر أطياى اللون والصور التلوية ، وآثار تناقضات الألوان وتجمعاتها فى الإحساس وفى التصوير . وحسب اللون الأخضر - خطأ - مزيجاً من الأصفر والأزرق . (وهما يمتزجان هكذا حقا على لوحة ألوان الرسام ، ولكن حين يتحد الأزرق والأصفر فى الطيف ينتج عنهما الرمادى والأبيض) . وقد أعاد لإجراء الكثير من التجارب التى ورد وصفها فى « بصريات » نيوتن (١٧٠٤) ، فوجد فى عدة حالات نتائج تختلف مما ذكر فى ذلك الكتاب ، وخلص إلى آهام نيوتن بعدم الكفاية وبالغش أحيانا^(٣٧) . وقد عارض رأى نيوتن فى أن اللون الأبيض تأليف من عدة ألوان ، وذهب إلى أن اتحاد الألوان ينتج عنه بانتظام اللون الرمادى لا الأبيض . ولكن نتائجها لم يقبلها لامعاصروه ولا من أتوا بعده فى ميدان البصريات . فقد اثنوا على تجاربه ورفضوا الكثير من نظرياته . وفى ١٨١٥ أرسل إليه آرثر شوبنهاور مقالا دافع فيه بكفاية عن فكرة نيوتن فى أن الأبيض تأليف من عدة ألوان -- وكان شوبنهاور يعجب بجوته شاعرا

وفيلسوفاً : ولم يغتفر له الشيخ فعلته قط . وزاد الرفض العام لنظريته في الألوان سنيه الأخيرة قتاما .

وكان طبيعياً لرجل كجوته ، حساس إلى هذا الحد أن يستهويه عالم النبات . فحين زار بادوا في ١٧٨١ أبهجته الحقائق النباتية ، ففيها وجد مجموعة أغنى وأكثر تنوعاً من كل ما رأى في حياته . وشاهد مدى اختلاف نباتات الجنوب عن نباتات الشمال ، فصمم على دراسة تأثير البيئة على شكل النبات ونموه . كذلك لم يشعر قط بمثل هذا الشعور العميق بقدرة الطبيعة الملهمة العارمة على تطوير كل نوع — بما تفرد به من حيث التركيب والنسيج واللون والخط — من بزور تبدو بسيطة متشابهة . فيالها من خصوبة ، وياها من قدرة على الابتكار ! ولكن أهنالك بعض عناصر مشتركة في كل نوع الأفراد ، وفي كل تطور الأعضاء والأجزاء ؟ وخطر له أن هذه الأجناس والأنواع والأشكال هي تحورات من نموذج أصلي أساسي ، وأن هذه النباتات كلها ، مثلاً ، شكلت على غرار نموذج أساسي أصيل — حتى وإن كان متخيلاً — أو نبات أول ، هو أم النبات جميعاً . وكتب إلى هررد يقول « إن هذا القانون ذاته يمكن تطبيقه على كل حي » أى على الحيوانات كما يطبق على النباتات ، فالحيوانات هي أيضاً تحورات من أصل بنائي واحد^(٣٨) . وكما أن الكائن الحي الفرد ، بكل تفرده ، هو محاكاة لنمط أول ، كذلك قد تكون أجراء الكائن تحورات لشكل أساسي واحد . ولاحظ جوته في بادوا تخيله (باميطه) كانت أوراقها في مراحل مختلفة من التطور ؛ فدرس مراحل الانتقال المرئية من أبسط ورقة إلى مروحة السعف الكاملة الرائعة ؛ وتصور فكرة مؤداها أن جميع تركيبات النبات — باستثناء المحور أو الساق — هي تحورات ومراحل للورقة^(*) .

وبعد عردة جوتة إلى فايمار نشر نظريته في كتيب من ست وثمانين صفحة عنوانه « محاولة قام بها س . ف . جوته عضو المجلس الخاص لدوقية ساكسى — فايمار ، لتفسير تطور النباتات ، (١٧٩٠) .

(*) كان كاسبار فريد ريش فولف قد خلص إلى هذه النتيجة في ١٧٦٨ .

وضحك علماء النبات من الكتيب وقالوا إنه أحلام شاعر ، ونصحوا الشاعر بأن يلزم حرفته . (٣٩) فلم يكذبهم ، وصاغ آراءه من جديد ، في قصيدة سماها « تحور النباتات » وتجمعت الأدلة والمؤيدون للنظرية شيئاً فشيئاً .

وفي ١٨٣٠ قدم إيتين جوفروا سانتليير مقال جوته لأكاديمية العلوم الفرنسية ، وأشاد به آثراً من آثار البحث الدقيق والحال الخلاق يؤيده تقدم علم النبات (٤٠) .

وألح جوته (١٧٩٠) في محاولة لتطبيق نظريته على التشریح إلى أن الجمجمة ليست سوى تحور وتمة للفقرات ، تحتوى المخ كما تحتوى العمود الفقرى على الحبل الشوكى ، وليس هناك اليوم اتفاق على هذه الفكرة . ولكن لإنجازاً ذكياً أكيداً يرجع الفضل فيه إلى جوته في التشریح — وهو إثباته وجود العظمة البينفكية في الإنسان (وهى العظمة التى تتوسط عظمى الفك العلوى والتى تحمل القواطع العلوية) . وكان علماء التشریح قد تبينوا وجود هذه العظمة في الحيوان ، ولكنهم ارتابوا في وجودها في الإنسان ، وكان لاكتشاف جوته الفضل في توضيح الخلاف البنيانى بين الإنسان والقرود .

استمع إلى الشاعر يعلى نجاحه في خطاب من بينا إلى شارلوت فون شتين مؤرخ ٢٧ مارس ١٧٨٤ — العاشق والعالم ممزجين معاً : « سطور إلى حبيبى لوتة ، أقرئها تحية الصباح ... لقد منحت شعوراً بالرضى يبهجنى . ذلك أنى اهتديت إلى كشف تشریحى جميل وهام في وقت معاً . وسيكون لك نصيبك فيه ، ولكن لا تنبسى بكلمة عنه » . (٤١) وأذاع كشفه في مقال خطى أرسله إلى مختلف العلماء في ١٧٨٤ بعنوان « محاولة قائمة على علم العظام المقارن ، لإثبات أن العظمة البينفكية في الفك الأعلى يشترك فيها الإنسان والحيوانات العليا » وكانت هذه « أول رسالة كتبت من قبل يمكن أن توصف بحق بأنها تلسلخ في باب التشریح المقارن ، وهى إذن معلم في

تاريخ هذا العلم » ^(٤٢) (وقد نشر المشرح الفرنسي فيليكس دازير هذا هذا الكشف ذاته في السنة نفسها ١٧٨٤) .

كتب جوته في رسالته : « أن الإنسان شديد الشبه بالحيوان الأعجم : فكل مخلوق إنما هو نعمة أوتحيير في تآلف ألحان عظيم » ^(٤٣) وقد ذهب كثيرون من العلماء والفلاسفة الذين سبقوه إلى أن الإنسان جزء من مملكة الحيوان ونظم قصيدة سماها « تطور الحيوانات » ولكنه لم يكن من دعاة التطور بالمعنى الدارويني . فقد افترض ثبات الأنواع اتباعاً للمذهب نيناوس ، وهكذا لم يكن « النبات الأول » الذي قال به نباتاً بدائياً فعلياً تطورت منه جميع النباتات ، إنما كان مجرد نمط عام كانت كل النباتات تحويرات له . ولم يكن رأيه كراى معاصريه لامارك وإرازمس دارون في أن الأنواع متطورة من أنواع أخرى بالانتخاب البيئي لأشكال واحدة .

فهل كان جوته عالماً حقيقياً ؟ ليس بالمعنى الاحترافي . لقد كان هاوياً غيوراً مستثيراً ، وعالماً بين القصائد والروايات والغراميات والتجارب الفنية والواجبات الإدارية .

وقد استخدم أجهزة كثيرة وجمع مكتبة علمية كبيرة ، ولاحظ ملاحظات مفيدة وتجارب دقيقة وشهد لهم هولتز بالدقة الواقعية للعمليات والتجارب الموضوعية التي وصفها جوته ^(٤٤) . وقد تجنب التفسيرات الغائية . ولكن العلماء المحترفين لم يقبلوه عالماً ، لأنهم نظروا إليه هاربياً يعتمد على الخلدس والفرص بثقة مفرطة . وكان ينتقل بسرعة أكثر مما ينبغي من موضوع أو تحقيق إلى آخر لا مسا كلاً منها نقطة خاصة ، دون أن يبلغ في أى منها مسجلاً للميدان في إلا في البصريات ونظرية اللون . ولكن كان هناك شئ مثالي وبطولي في إصراره المتشعب المتعدد الأشكال . رقال إكرمان في ١٨٢٥ : « سيبلغ جوته عامه الثمانين بعد بضع سنوات ، ولكنه لم يكل من الأبحاث والتجارب ، فهو لا يفتأ جاداً في أثر تأليف كبير ^(٤٥) . وربما كان الشاعر محققاً في رأيه أن الهدف الأكبر للعالم ينبغي ألا يكون إمداد الرغبات القديمة بأدوات جديدة ، بل توسيع الحكمة بالمعرفة في سبيل إثارة الرغبة .

٥ - الفيلسوف

كان في الفلسفة ، كما كان في العلم ، عاشقاً لأستاذاً محترفاً - مع أنه صاحب الفضل في تعيين فشته وشيلنج وهيجل في كراسي الفلسفة بيننا . وكان قليل الاهتمام جداً بتجديلات المذاهب الفلسفية ، ولكنه كان معنياً أشد العناية بتفسير الطبيعة ومعنى الحياة . وكلما تقدم به العمر بات بفضل العلم والشعر حكيماً ، وقد وجد الأنارة عن « الكل » من كل شيء ، وكل لحظة ، وكل جزء : « كل عابر ليس إلا رمزاً » ^(٤٦) و « الأقوال المأثورة العارضة » التي خلفها عند موته دون أن تطبع ، تنضح بالحكمة في كل صفحة .

ولم يقدم أى نسق منطقي ، ولكنه ألمع ، براجماتبا إلى « أنه لا حقيقى إلا ما هو مثمر » ^(٤٧) وإلى أنه « في البدء كان الفعل (لا الكلمة) » ^(٤٨) فنحن نجد الحقيقة في الفعل أكثر مما نجدها في الفكر ، وينبغي أن يكون الفكر أداة للعمل ، لا بديلاً عنه . ولم يولع بكانط كما أولع به شيلر ، فقد اعترف بأن الطبيعة النهائية للحقيقة تتجاوز علمنا ، ولكنه لم يشعر أن هذا يلزمه بسنية العقيدة ، بل على العكس أوصى بتجاهل ما لا يمكن معرفته ، « إن مالا سبيل إلى سير أغواره ليست له قيمة عملية » ، والعالم المحسوس كاف لحياتنا ^(٤٩) ولم تساوره أى ريب أو مخاوف معرفية حول الاعتراف بوجود عالم خارجي . كتب لشيلر بعد أن قرأ كانط وشيلنج يقول « أنى أسلم مختاراً بأن ما ندركه حسياً ليس الطبيعة (في ذاتها) ، بل إن الطبيعة تفهم طبقاً لصور وملكات معينة لفكرنا ولكن توافق طبائعنا العضوية مع العالم الخارجى . . . (يدل على) تصميم من الخارج ، وعلاقة بنحو الأشياء » ^(٥٠) « وكثيرون يقاومون الاعتراف بالحقيقة ، لاشيء إلا لأنهم لوقبلوه لانهاروا » ^(٥١) .

وهو يمكن جونه رفض المادية رفضه للمثالية الذاتية . وقال إن « مذهب الطبيعة » الذى قال به دولباخ « بدا لنا [نحن الطلاب في ستراسبورج] شديد القتامة . . . رهيباً كالموت ، حتى لقد وجدنا في إطفقة وجوده عناء ونكد ، وكنا نرتعد فرقا منه كأنه عفريت » ^(٥٢) كان هذا في شبابه ،

ولكنه أحس به أيضاً في شيخوخته وهو يكتب إلى كنيبل في ٨ أبريل
١٨١٢ :

« إن الرجل الذي لا يدرك هذه الحقيقة : ولا يسمو إلى هذه الرؤية ،
وهي أن الروح والمادة ، للنفس والجسد ، الفكر والامتداد ، ... إنما
هما مقوما الكون التوأمين الضروريين ، وسيظلان كذلك أبدا الدهر ،
وإن هذين الاثنين حقوقا متساوية ، ومن ثم يمكن اعتبارهما في وجودهما
معاً مُمثلين لله ؛ أقول أر رجلا لا يدرك هذا خبر له أن ينفق عمره في ثثرة
أهل الدنيا ولغوهم الفارغ .

وهذا بالطبع هو سبينوزا، وجوته يتبع سبينوزا إلى الحتمية — «نحن ننتمي
إلى قوانين الطبيعة ، حتى أن تمردنا عليها»^(٥٣) ، ولكنه أحيانا يميل إلى الانفاق
مع كائنا على أن «حياتنا ، مثلها مثل الكون الذي ننتمي إليه ، تتألف على
نحو ملغز من الحرية والضرورة .»^(٥٤) وكان يشعر بقوة قضاء وقدر تعمل
فيه — صفات تفرض نموه وتقرره ، ولكنه يتعاون معها ، كما يتعاون عامل
حر يخدم قضية تحركه وتحتويه .

أما دينه فتعجيد للطبيعة ، ورغبة في التعاون مع قواها الخلاقة — قدرتها
الإنتاجية المتعددة الأشكال ومثابرتها العنيدة ؛ على أنه استغرق زمناً طويلاً
ليكتسب صبرها . وقد شخص « الطبيعة » على نحو مبهم ، فرأى فيها فكراً
 وإرادة ، ولكنه فكر يختلف تماماً عن فكرنا ، وإرادة محايدة في غير أكتراث
 كأنها تحايد بين ناس وبراغيث . فليس للطبيعة مشاعر أخلاقية بالمعنى الذي
نقصده من التزام الجزء بالتعاون مع الكل ، لأنها «هي» الكل . وفي
قصيدته « الإلهي » (١٧٨٢) وصف جوته الطبيعة بأنها بغير شعور
 ولا رحمة . فهي تدمر كما تعمّر بإسراف . «كل مثاكم العليا أن تمنعني
(جوته) من أن أكون أصيلاً ، صالحاً وطالحاً ، كالطبيعة»^(٥٥) ، ومبدؤها
الأخلاقي الوحيد هو : عش واجعل غيرك يعيش . وقد سلم جوته بحاجة
كثير من النفوس إلى سند فوق طبيعي ، ولكنه لم يشعر بمثل هذه الحاجة
إلا في أخريات عمره . « من عنده الفن أو العلم فهو يملك (ما يكفي من)

الدين ؛ أما من ليس عنده فن أو علم فهو في حاجة إلى الدين » (٥٦) . اننى بصفتى شاعراً وفناناً أشعر بتعدد الآلهة (فأشخص قوى الطبيعة المنفصلة) ، أما فى دورى عالماً فأنا أميل إلى الحلولية (أى أرى إلهاً واحداً فى كل شىء) (٥٧)

وإذا كان « وثنياً ثابتاً عامداً » فى الدين والأخلاق ، فقد خلا من الإحساس بالخطيئة ، ولم يشعر بحاجة إلى إله يموت كفارة عنه ، (٥٨) وأنكر كل حديث عن الصليب . وقد كتب إلى لافاتر فى ٩ أغسطس ١٧٨٢ يقول « لست عدواً للمسيحية ، ولا مضاداً لروح المسيحية ، ولكنى قطعاً لا - مسيحى . . . أنك تقبل الإنجيل ، كما هو ، على أنه حقيقة إلهية . حسناً ، ما من صوت مسموع من السماء يمكن أن يقنعنى بأن امرأة يمكن أن تحبل بطئلاً دون رجل ، وأن رجلاً ميتاً يقوم من قبره . وأنا أعد هذه كلها بتجديفات على الله وعلى إعلانه ذاته فى الطبيعة » (٥٩) . وضيق عليه لافاتر الخناق (كما يروى لنا جوته) و « أخيراً سألقى السؤال العسير » إما مسيحى وأما ملحداً « فصارحته بأنه ان لم يترك لى مسيحيته كما اعتززت بها إلى ذلك الحين ، فى استطاعتى أن أنحاز دون تردد إلى صف الإلحاد ، خذ وصاً وأننى أرى أنه ما من إنسان يعرف على التحديد المعنى المقصود من كل من هذين اللفظين » (٦٠) . وقد ذهب جوته إلى أن « الدين المسيحى ثورة سياسية جهيضة انقلبت أخلاقية » (٦١) وفى الأدب « مئات الصفحات التى فيها من الجمال والفائدة ، مثل ما فى الأناجيل » (٦٢) ، ومع ذلك أعد الأناجيل الأربعة كلها حقيقية لا غبار على صحتها ، ففيها يتجلى البهاء المنعكس للقوة السامية التى انبثقت من شخص المسيح وطبيعته ، الذى كان إلهياً ما ظهرت الألوهية فى الأرض . . . وأنا ألحنى أمامه بوصفه المظهر الإلهى لأسمى مبدأ للفضيلة » (٦٣) . ولكنه اعزم أن يعبد الشمس كما يعبد المسيح ، باعتبارها مظهراً معادلاً من مظاهر القوة الإلهية (٦٤) . وقد أعجب بلوثر ، وامتنح حركة الإصلاح البروتستنتى لتخطيها أغلال التقاليد ، ولكنه أسف على انتكاسها إلى العقائدية المترمة (٦٥) . وخامره شعور بأن البروتستنتية ستعانى من افتقارها إلى المراسم الملهمة المكونة للعادات ، ورأى أن الكاثوليكية

حكيمه سمحة في رمزها للعلاقات والتطورات الروحية بالأسرار المقدسة البالغة الوقع في النفوس^(٦٦) .

أما آراء جوته في الخلود فقد تغيرت مع السنين . ففي ٢ فبراير ١٧٨٩ كتب إلى فريدريش تسو شتولبرج يقول . « أما أنا فأتمسك بوجه عام بتعاليم لوكريتيوس ، وأقصر نفسي وكل آمالي على هذه الحياة » . ولكنه في ٢٥ فبراير ١٨٢٤ قال لآكرمان « لا أريد إطلاقاً أن أستغنى عن سعادة الإيمان بحياة مستقبلية ؛ والحق اني أقول مع لورنيسودى مديتشي ان الذين لا رجاء لهم في حياة أخرى هم موتى حتى في هذه الحياة » ؛ وفي ٤ فبراير ١٨٢٥ ، « اني راسخ الاقتناع بأن روحنا شيء لا يقبل الفناء إطلاقاً »^(٦٧) . وقرأ زفيدنبورج ، وقبل فكرة عالم الروح^(٦٨) ، وداعب آمال تقييصوص الأرواح . ودرس القبلانية وبيكوديللا ميراندولا ، بل رسم البروج أحياناً لكشف الطالع^(٦٩) . وكلما تقدم به العمر ازداد تسليمه بما للإيمان من حقوق .

« إذا توخيت الدقة في التعبير ، قلت إنه لا يمكنني أن أصل إلى معرفة لله إلا المعرفة التي أستقيها من الرؤية المحدودة المتاحة للمدركات الحسية على هذا الكوكب المفرد . ومعرفة كهذه إنما هي شظية من شظية . ولست أسلم أن هذه المحدودية ، التي تصدق على ملاحظتنا للطبيعة ، يجب أن تصدق في ممارسة الإيمان . فالعكس هو الصحيح . ولعل معرفتنا ، وهي ناقصة بالضرورة ، تتطلب الإضافة والاستكمال بفعل من أفعال الإيمان »^(٧٠) .

وفي ١٨٢٠ أسف على تأليفه « برومئوس » المتمرد أيام شبابه ، لأن شباب المتطرفين يومئذ كانوا يستشهدون به ضده^(٧١) . وقد انصرف عن فشته حين اتهم فشته بالإلحاد^(٧٢) . وكان رأيه الآن « انه من واجبنا ألا نخبر غيرنا بأكثر مما في قدرتهم تلقيه . فالإنسان لا يفهم إلا ما يناسبه »^(٧٣) .

وكما تغيرت آراؤه في الدين ، كذلك تغير مفهومه للأخلاق مع تقدم عمره . فحين كان يظفر بنشاط الشباب وكبريائه فسر الحياة بأنها ليست سوى

مسرّح لتنمية الذات والظهور . « ان هذه الرغبة الملحة في أن أرفع ما استطعت
هرم حياتي الذي أعطيته وأرسيت قاعدته لي ، ترجح كل ماعداها ،
ولا تكاد تسمح باحظة انتكاس » (٧٤) . وقد رأيناها يجرّح نفوساً رقيقة
في هذه العملية . ولكنه حين نضح بفضل المنصب السياسي أدرك أن
الحياة البشرية عملية تعاونية ؛ وأن الفرد إنما يحيا بالمساعدة المتبادلة ؛
وأن الأفعال الأنانية — وان ظلت القوة الأساسية — إلا أنه لا بد من أن
تحد بحاجات الجماعة . ففاوست في قسمها الأول هي النزعة الفردية متجسدة ؛
وفي قسمها الثاني ينجح « الخلاص » وسلامة الروح ، بالعمل للصالح العام .
وفلهم مايستر في « تلميذته » يحاول تعليم ذاته وإثراءها وإن كان يحكم طبيعته
وتدريته كثيراً ما يبين اخوانه ؛ وفي « تطويقاته » يحاول تحقيق المزيد من
سعادة المجتمع . وقد غض نجوته من الوصية بمحبة الأعداء، ولكنه عرف
النبيل بنبل في تصبده من أروع قصائده :

« ليكون الإنسان نبيلاً

معيناً وطيباً

فلذلك وحده

هو الذي يميزه

عن سائر الكائنات

التي نعرفها . . .

ان الطبيعة

مجردة من العواطف

تشرق شمسها

على الأشجار والأبرار ،

ويضيء القمر والنجوم

على الصالحين والطالحين .

والرياح والسيول ،

والرعد والبرد ،

تهدر في طريقها ،
تنزع وتكنسح أمامها
واحداً بعد واحد . . .
ولا مناص لنا كلنا بحكم القوانين
العظمى ، الأبدية الصارمة ،
من أن نكمل دورة وجودنا .
ولكن الإنسان وحده
يستطيع الحال ،
فهو يميز ،
ويختار ، ويحكم ؛
ويستطيع أن يطيل مكث
اللحظة العابرة .
هو وحده القادر على
أن يثيب الخير ،
ويعاقب الشر ،
ويشفي وينقذ ،
ويصدق النصيح
للخطاة والضالين
فليكن الإنسان النبيل
معيّناً وطيباً .

ولكى يكون الإنسان نبيلًا عليه أن يحذر المؤثرات المفسدة ، و « الكل
مؤثر إلا ذواتنا » ^(٧٥) . « دحك من دراسة المعاصرين والذين يحاربونك ؛
بل أدرس عظماء الماضي الذين احتفظت آثارهم بقيمتها ومكانتها قرونًا .
فلرجل الموهوب حقاً ينحو هذا النحو بحكم طبيعته ، والرغبة في التنقيب
في أعمال الأسلاف العظام علامة صادقة على الموهبة السامية » ^(٧٦) . عليك
باحترام المكتبات وإجلالها لأنها التراث الذي خلفه هؤلاء الرجال . « ان

المرء حين يتأمل مكتبة ما يشعر كأنه في حضرة رأس مال هائل يأتي في صمت بفائدة لا تقدر» (٧٧). ولكن الفكر بغير الخلق أسوأ كثيراً من الخلق بغير الفكر ، « فكل ما يحرر العقل دون أن يمنحنا السيطرة على أنفسنا مؤذ » (٧٨). نخطط لحياتك ، ولكن حاول الموازنة بين الفكر والعمل ؛ فالفكر بغير العمل مرض . « فلأن تعرف حرفة وتمارسها يزودك بثقافة أكثر مائة مرة من نصف المعرفة » (٧٩). « وما من بركة تعدل بركات العمل » (٨٠) وفوق كل شيء كن « كلا » أو انضم إلى كل « أن النوع الإنساني وحده هو الإنسان الحق ، ولا يستطيع الفرد أن يفرح ويسعد إلا إذا امتلك شجاعة الشعور بنفسه في الكل » (٨١) .

وهكذا نرى الفنى الذى ورث أسباب الرغد والأمن ، والذى أضحك طلاب ستراسبورج على لباسه المترف الغريب ، قد تعلم بفضل الفلاسفة والقديسين وتجارب الحياة أن يفكر فى الفقراء بعطف ، وأن يتمنى لو تقاسم المحظوظون من الناس ثرواتهم مع الفقراء بسخاء أكثر . وينبغى أن تفرض الضرائب على النبلاء بنسبة دخولهم ، وأن يتبعوا لاتباعهم الإفادة من « المنافع التى تهبها المعرفة والرجاء المتزايدان » (٨٢) وقد أحس جوته بما يحس به البورجوازيون من حسد لأصحاب النبالة بالميلاد حتى بعد أن طبق صيته آفاق أوروبا . « فى المانيا لا تتاح فرصة الحصول على . . . ثقافة شخصية مكتملة الجوانب للنسباء » (٨٣). وكان يراعى جميع فروض الاحترام المألوف فى سلوكه مع رؤسائه . وكل الناس يعرفون ما وقع لجوته وبينهوفن فى تيلتز ، فى يوليو ١٨١٢ ؛ ولكن المصدر الوحيد لهذه القصة هو بتينا برنتانوفون آرنيم . غير الموثوق بروايتها ، التى ادعت أنها تنقل عن رواية بينهوفن :

« يستطيع الملوك والأمراء حقاً أن يخلعوا الألقاب والأوسمة ، ولكنهم لا يستطيعون أن يصنعوا عظماء الرجال الذين يجب إذن النظر إليهم بإجلال . وحين يجتمع اثنان مثل جوته ومثلى ، فلا بد لهؤلاء السادة من ذوى الحساب

والنسب أن يفقهوا معنى العظمة عند أمثالنا . فبالأمس التقينا بالأسرة الامبراطورية (المنساوية) كلها ، وخلص جوده ذراعه من ذراعى ليقف جانباً . أما أنا فكبست قبعتى على رأسى واخترقت الجمع فى أكثف نقطة وذراعى تتدليان على جانبي . واصطف الأمراء وأفراد الحاشية فى صفين ؛ ورفع دوق فاممار قبعته لى ، وحيثنى الامبراطورة أولاً . وقد أضمحكنى أن أرى الموكب يمر أمام جوته الذى وقف على جنب وقبعته فى يده . وقد عنفته بعدها بقسوة على ما أتاه (٨٤) .

وسيعتلف انفعالنا بهذه القصة باختلاف عمرنا . فلقد شعر جوته بأن الارستقراطية العاملة بنشاط وبروح خدمة الجماعة تهيء خير الحكومات الممكنة آنئذ فى أوربا ، وتستحق الاحترام الواجب للنظام والضبط الاجتماعيين . ويتبغى اصلاح المفاصل ، ولكن فى غير عنف أو اندفاع ؛ فالثورات تكلف أكثر مما تساوى ، وتنتهى عادة إلى حيث بدأت . ومن ثم يقول مفستوفيليس لفافوست :

« واأسفاه ! إليك غنى ! كف عن الثروة حول ذلك الشجار بين الطغيان والرق ! انه يضايقنى . فما إن ينته حتى يبدأ من جديد مع المهزلة كلها » (٨٥) .

ومن ثم يقول جوته لأكرمان فى سنة ١٨٢٤ : « صحيح اننى لم أكن صديقاً للثورة الفرنسية . فلقد كانت أهوالها عاجلة جداً . . . على حين لم تكن آثارها النافعة منظورة بعد . . . ولكننى بالمثل لم أكن متعاطفاً مع الحكم التعسفى الذى سبقها . وكنت حتى فى ذلك الوقت مقتنعاً بأنه ما من ثورة هى غلطة الشعب . بل هى دائماً غلطة الحكومة » (٨٦) . وقد رحب بنابليون نعمة على النظام فى فرنسا وأوربا بعد عقد حفل بالاضطرابات . وكان يتشكك فى الديمقراطية لأنه « ما من شئ أسوأ من الجهل النشط » (٨٧) ، و « محال أن نتصور أن الحكمة يمكن أن تكرر فى يوم من الأيام صفة شعبية » (٨٨) .

ثم سخر من تذبذب « اطان بين الأحزاب . « أن الناس يتقلبون فى

السياسة كما يتقلبون على فراش المرض من جنب إلى جنب أملاً في مزيد من الراحة في رقاهم»^(٨٩). وقد عارض حرية النشر بحجة أنها تعرض المجتمع والحكومة للإزعاج المستمر على يد كتاب يعوزهم النضج والشعور بالمسؤولية ، وبدأت له الصرخة المطالبة بالحرية ، في أواخر عمره ، مجرد جوع المحرومين من المناصب للسلطان والمغانم . « ان الهدف الأوحده هو نقل القوة والنفوذ والثراء من يد إلى اليد التالية . وما الحرية إلا كلمة السر التي يهمس بها المتآمرون المتسترون ، وصيحة المعركة الصاخبة يصيح بها الثوار السافرون ، لا بل شعار الاستبدادية ذاتها وهي تسوف جماهيرها الخاضعة على العدو واعدة إياها بالخلاص من الطغيان الخارجي إلى الأبد »^(٩٠) .

لقد وفي جوته كل الوفاء بواجب الكبار ، بقيامه بوظيفة الكابح لطاقة الصغار .

٦ — فاوست : الجزء الثاني

ولقد سكب فلسفته التي تقدم بها العمر في الجزء الثاني من فاوست ، في خاتمة الجزء الأول كان قد ترك « نفسه الثانية » ، محطمة يائسة ، في قبضة مفسدوفيليس — الشهوة تعاقب على افراطها . ولكن ، أكان ممكناً أن يكون هذا كل شيء ، وأن يكون جماع الحكمة ؟ ان فاوست لم يكن قد خسر رهانه كل الحسرات ، فالشيطان لم يعثر له بعد على أية متعة تهديء نضاله وتملاً حياته . فهل ثمة أشباع كالذي يتوق إليه في أى مكان ؟ لقد كافح جوته طوال أربعة وعشرين عاماً ليجد للقصة تنمة وقمة تحويان أو ترمزان إلى النتائج التي خلص إليها تفكيره ، وتسبغان على بطله خاتمة نبيلة ملهمة .

وأخيراً . وحين بلغ الثامنة والسبعين ، تصدى للمهمة . ففي ٢٤ مايو ١٨٢٧ كتب إلى تسلتر الذي شاخ كما شاخ هو وكان مزماً أن يموت معه : « أود أن أعترف لك في هدوء . . . بأننى عاودت العكوف على فاوست . . فلا تخبر بذلك أحداً » . وكانت خاتمة بايرون المثرة في حرب اليونان التحريرية

قد حركت مشاعر جوته ؛ فالآن يستطيع أن يجعل بايرون ، فى شخص « يوفوريون » (ومعناه السعادة) ، بن فاوست وهيلانة يمثل شفاء العقل العصرى ، الممزق الحائر ، بفضل اتحاده مع جمال اليونان القديمة الهادىء . ومن ثم راح يكذب ويكده فى ساعات الصباح ، فلا يبلغ من ذلك غير صفحة واحدة على أحسن تقديره ، حتى أفضى لأكرمان فى أغسطس ١٨٣١ ، قبل موته بسبعة شهور ، بأن المهمة المضنية قد تمت — بعد أن انقضت تسع وخمسون سنة على تصوره إياها أول مرة . وكان قد كتب يقول « أسعد الناس من استطاع وصل نهاية حياته ببدايتها » (١١) . وقال الآن « أيا كان مقدار ما بقى لى من الحياة فى وسعى أن أعده منذ الآن منحة ، ولست فى الحق أبالى ان كنت سأنجز فوق ما أنجزت أم لا » (١٢) .

ولا يستطيع المرء أن يسترسل اليوم فى قراءة كل الجزء الثانى من فاوست إلا فى ثقة واطمئنان أعوام ثمانين . فابتداء من المنظر الافتتاحى الذى يصف فيه فاوست ، بعد استيقاظه بين حقول الربيع ، شروق الشمس ببلاغة لم تبل جدتها ، تقف حركة القصة المرة بعد المرة للتغزل فى جمال الطبيعة أو التغمى بعظمتها أو رهبتها ؛ وقد أجاد المؤلف الوصف . ولكنه أسرف فيه ؛ فجوته المبشر بالانضباط الكلاسيكى يأثم هنا ضد شعار « القصد فى القول » . ذلك أنه صب فى الدراما كل شئ تقريباً تراكم بغير نظام فى ذاكرته الجياشة : الميثولوجيات اليونانية والألمانية ، وليدا والبجعة ، وهيلانة وركبها ، والساحرات ، والفرسان ، والجنيات . والأقزام والحيوانات الخرافية ، والأقزام البشرية ، وحوريات الغاب ، والسيرانات ، ومقالات الجيولوجية « النبتونية » ، والخطب الطويلة يلقيها الرسل ، والفيات بائعات الزهر ، وحوريات الحداثق ، والخطابون ، — والمهرجون القصار السمان ، والسكارى ، وأتباع الفرسان ، ووكلاء الإقطاعيين ، والنظار ، ثم سائق مركبة حرية وأبو هول ، ومنجم وإمبراطور ، وآلهة الحقول وفلاسفة ، وكراكى أبيكوس ، و« رجل قصير » (قزم) صنع فجنر تلميذ فاوست كيميائياً . والخليط أشد تحيراً وإرباكاً من الدغل المدارى ،

لأنه يضيف العنصر فوق الطبيعي إلى الطبيعي ، ويسبغ على كل شيء موهبة الخطابة أو الغناء .

وما أعظم الراحة التي نستشعرها حين نظهر هيلانة في الفصل الثالث ، وهي ما تزال على نحو معجز إلهة بين النساء ، تغزو قلوب الرجال برشاقة حركتها أو بلحظ عينيها . وتتخذ القصة قوة جديدة ، ويرتفع الكورس إلى نبرة سوفوكلية ، حين تسمع هيلانة ان منيلاوس رغبة في عقاب « الجمال الوقح المتغطرس » أمر بأن تسلم هي ووصيفاتها إلى شهوات قبيل « بربرى » يغزو بلاد اليونان من الشمال . أما زعيمهم ففاوست نفسه ، الذى انقلب بحيلة مفستوفيلية فارساً من فرسان العصور الوسطى ، مليح القد والصورة واللباس . ويبلغ جوته ذروة فنه الدرامى حين يصف لقاء هيلانة وفاوست — اليونان القديمة تواجه ألمانيا الوسيطة . فليتحد الإثنين ! تلك هى الفكرة الرئيسية فى القصة . ويفتتن فاوست ككل الرجال فيلقى عند قدميها بكل ما وهبه السحر والحرب من مال وقوة . وتستسلم هى لتوسلاته ، فهذا المصير على أى حال لم يكن شراً من الموت . ولكن منيلاوس يقترب مع جيشه فيقطع عليهما نعيمهما . وفى لمح البصر ينقلب فاوست من الغرام إلى الحرب ، ويستنفر رجاله ويقودهم إلى غزو اسبرطه (وهذه ذكرى « الفرنجة » يغزون المورة فى القرن الثالث عشر) .

ثم يتغير المشهد ، فقد مرت السنون سراعاً ، وإذا يوفوريون شاب سعيد يشرح صدر فاوست وهيلانة بـ « العناق والمزاح اللعوب والنداءات المرحية » (٩٣) . قافزاً فى استهتار من جرف إلى جرف ، وأبواه يحذرانه فى رفق ، راقصا فى عنف مع الحوريات اللأئي افتتن بحسنه (بايرون فى إيطاليا) ، ويمسك بواحدة منهن فى جذل ، فإذا هى تنفجر مشتعلة بين ذراعيه . وحين يسمع فى ترحيب ناقوس الحرب يندق ، يندفع خارجاً ، فيهبى من منحدر قائم ، ويدعو أمه وهو يموت لتأحق به فى العالم السفلى .

« هيلانة (لفاوست) ويلاه ! ان حكمة قديمة يتحقق فى صدقها -- فزفاف المال إلى الجمال لا يدوم أبدا . ان رباط الحياة يتمزق كما يتمزق

رباط الحب ، فوداعاً لهما جميعاً وأنا أبكيهما في عذابي ، وعلى صدرك أرتمي مرة أخرى ، فتلقيني يا بر سيفوني أنا وولدى . (تعانق فاوست ؛ ويتلاشى جسمها وتبقى الثياب والنقاب بين ذراعيه) . »

وهكذا ينتتم الفصل الثالث ، وهو أجمل فصول هذا الجزء الثانى من فاوست . وهو الجزء الذى بدأ جوته بكتابته ، وسماه « هيلانه » ، وظل حيناً يفكر فيه على أنه كل كامل قائم بذاته ؛ ولو تركه كذلك لكان خيراً له . فهنا ارتفع جوته لآخر مرة إلى قمة شعره بجهد بطولى لاستنهاض ما بقى له من قوى ، مازجا الدراما بالموسيقى كما جرى اليونان على عهد بركليس ، نافخاً الحياة والحرارة فى شخوص قصة رمزية معقدة لشفاء العقل العصرى .

ومن ذلك العلو الشاهق ينزلق الجزء الثانى من فاوست إلى حرب بين امبراطور وغريم ينافس على العرش الرومانى المقدس . ويحقق فاوست ومفستوفليس بحيلهما السحرية النصر فى الحرب للإمبراطور ؛ ويطلب فاوست وينال جزاء له مساحات كبيرة من ساحل الامبراطورية الشمالى ، مضافاً إليها ما يسعه انتزاعه من الأرض من برائن البحر . وفى الفصل الخامس نرى فاوست وقد بلغ المائة سيدها على ملك شاسع ، ولكنه لم يصبح بعد سيداً على نفسه . وذلك أن كوخاً لزوجين من الفلاحين هما فليمون وباوكيس تحجب المنظر من قصره ؛ فيعرض عليهما بيتاً أفضل فى موقع آخر ، ولكنهما يرفضان ؛ فيطلب إلى مفستوفيليس وعملائه أن يطردوهما ؛ ولكنهم يلقون المقاومة ، فيشعلون النار فى الكوخ ؛ ويموت الزوجان العجوزان رعباً . ولا يلبث فاوست أن تطوف به رؤى الأرواح المنتقمة عجايز شتملاوات اسمهن الفقر ، والذنب ، والهمل ، والحاجة ، والموت ؛ وينفخ الهم فى وجهه فيعميه . وتنتشله من اليأس فكرة فيها شيء من الإيثار ؛ فيأمر مفستوفيليس وشياطينه بأن يقيموا السدود على البحر ، ويحففوا المستنقعات ، ويبنوا على الأرض الجديدة ألف بيت وسط الحقول الخضراء ؛ ويتخيل هذه الأرض المنتزعة من البحر ، ويشعر بأنه ان استطاع « مع شعب حر أن يقف على أرض حرة » لقال أخيراً لهذه اللحظة العابرة « لا تترجى لأنك جميلة جداً »^(٩٤) . ويسمع أصوات الفؤوس والمعاول ، فيظن

أن مشروعه الضخم يتقدم ؛ أما الحقيقة فهي أن الشياطين تحفر قبره . ويأخذ
منه الإرهاق كل مأخذ ، فيخر صريعاً على الأرض ؛ فيشمت فيه مفيستو
فيليس بيناهياً حشد من الشياطين لحمل روح فاوست إلى الجحيم ؛ ولكن
جيشاً من الملائكة ينقض من السماء ، وبينما يتسلى مفستوفيليس بالإعجاب
بسيقانهم ، يرفع الملائكة رفات فاوست . وفي السماء نرى فاوست الذي
ألبس جسداً نورانياً تستقبله بالتحية جريتشن الممجدة الآن ، والتي تنوسل
إلى الأم العذراء قائلة : « هينى أن أعلمه ! » وتأمرها العذراء بأن تقوده
صعداً ، ويختتم كورس بحرى المسرحية بهذا النشيد :

« كل عابر
ليس إلا رمزاً ؛
وكل ناقص لم يكمل
يبلغ الكمال هنا »
وما لا يمكن وصفه
يتحقق ها هنا
السرمدي الأثنوي
يجذبنا صعداً وقدماً .

٧ - التمام : ١٨٢٥ - ١٨٣٢

في ١٨٢٣ أصبح يوهان بيتر إكرمان ، البالغ واحداً وثلاثين عاماً ،
سكرتير جوته ، وبدأ يدون حديث الشيخ للأجيال القادمة وتحتوى حصيلة
هذا الجهد « أحاديث مع جوته » (ثلاثة مجلدات ١٨٣٦ - ٤٨) ، التي
راجعها جوته جزئياً ؛ من ذخائر الحكمة أكثر مما نجده عند معظم الفلاسفة .

وفي سبتمبر ١٨٢٥ احتفلت فاعمار بالذكرى الخمسين لتولى كارل
أوجست العرش وحضر جوته الاحتفال . وأمسك الدوق بيده وتمم قائله
معاً إلى آخر نسمة «^(٩٥) . وفي ٧ نوفمبر احتفل البلاط بالذكرى الخمسين

لقدم جوته إلى فايمار ، وأرسل إليه الدوق خطاباً أذيع أيضاً على الشعب :

« ببالغ السرور أود أن أنوه بالذكرى الخمسينية لهذا اليوم يوبيلاً للأخادم الأكبر لدولتي فحسب ، بل لصديق صباى الذى رافقنى طوال تقلبات الحياة بثابت المحبة والولاء والوفاء . وإنى للمدين فى نجاح أهم مشروعاتى لمشورته الواعية ولتعاطفه الذى لاينى وخدمته النافعة . وإنى لأعد ضمى اياه لشخصى بصفة دائمة مفخرة من أعظم مفاخر ملكى » (٩٦) .

ثم أقبلت سنوات الشيخوخة الحزينة حين يغتنى الصديق تلو الصديق ، ففى ٢٦ أغسطس ١٨٢٦ ، بعد عيد ميلاد جوته السابع والسبعين بيومين ، أرسلت شارلوته فون شتين . وهى فى الرابعة والثمانين ، آخر ما نعرف من رسائل لحبيبها منذ نصف قرن : « كل تمنياتى الصادقة وبركاتى بمناسبة هذا اليوم . وأتوسل إلى الملائكة الحارسة فى الحفل السماوى أن تأمر بمنحك أيها الصديق الأعز كل خير وجميل . وإننى مازلت المخلصة لك فى رجاء وبلاخوف ، وأنا أسألك أن تهبنى عطفك السمع خلال الفسحة القصيرة التى بقيت لى فى الأجل » (٩٧) . ثم ماتت فى ٦ يناير ١٨٢٧ ، فلما سمع جوته بالنبا بكى . وفى ١٥ يونيو ١٨٢٨ مات الدوق ، وعرفت فايمار أن عصرها الذهبى أخذ يولى . واستعد جوته لدوره بالعكوف على قاوست بنشاط محمود . ولكن الدور لم يكن دوره بعد . ذلك أن أوجست ، ابنه الوحيد الباقى على قيد الحياة ، بعد أربعين سنة من الفشل ، وعشرين من الفسق ، مات فى روما فى ٢٧ أكتوبر ١٨٣٠ . وقد أظهر تشريح جثته أن حجم كبده خمسة أضعاف الحجم العادى . فلما أبلغ جوته بالنبا قال (باللاتينية) « لم أكن أجهل أننى أنجبته إنساناً فانياً » (٩٨) . وكتب يقول « حاولت لإغراق نفسى فى العمل وقد ألزمت نفسى بالمضى فى المجلد الرابع من كتاب « الشعر والحقيقة » (٩٩) .

وحين بلغ الثمانين بدأ يحد من مجال اهتماماته . ففى ١٨٢٩ كف عن قراءة الصحف . وكتب إلى تسلتر يقول « لست أستطع البدء بإنائك بما اكتسبته من

وقت وما أنجزته من أعمال خلال الأسابيع الستة التي تركت فيها جميع الصحف الفرنسية والألمانية دون أن أفتحها» (١٠٠) « سعيد من كان عالمه في بيته » (١٠١) . وقد حظى بالحبّة والرعاية من أرملة أوجست ، أوتيليه ، واستشعر البهجة بأطفالها . ولكنه كان أحياناً يعتكف حتى عنهم ويطلب الخلوة التامة ويثني على الوحدة لأنها الموسمية والحلّك للعقل المثقف .

ولقد أفصح وجهه الآن عن أعوايه الثمانين : غضبون عميقة عبر الجبين وحول الفم ، وشعر فضي يتراجع ، وعيون هادئة متسائلة ؛ ولكن عوده ظل مستقيماً وصحته جيدة . وكان يفخر بأنه اجتنب القهوة والتبغ وكلاهما مذموم في رأيه لأنه سم زعاف ، وكان معجباً بطلعته وبكتبه ، يستطيب ثناء الناس عليه صراحة ، ولا يبذله إلا ضئيلاً به . بعث إليه شاعر شاب في ١٨٣٠ بديوان شعر ، فرد عليه جوته ينبئه بتسلمه رداً لاذعاً قال فيه « تصفحت كتبيك . ولكنني نحيته لأن على المرء في وباء من أوبئة الكوليرا أن يحمي نفسه من المؤثرات المضغفة » (١٠٢) . وكان يضيق بأصحاب الكفايات الهزيلة ، ولإزداد ضيقه بالناس أكثر فأكثر كلما أكرهته الشيخوخة على الانطواء على نفسه ، وقد اعترف بهذا فقال « كل من ظنني لطيفاً من واقع مؤلفاتي ألقي نفسه مخدوعاً أشد الخلداع حين احتك برجل فيه برود وتحفظ » (١٠٣) . ووصفه زواره بأنه بطيء الانفراج ، فيه شيء من التكلف والتصلب ربما نتيجة لارتبائه ، أو لضنه بالوقت ينزع من واجباته . ومع ذلك فإن كثيراً من رسائله تدل على الرقة ومراعاة مشاعر الآخرين .

وطبق صيته الآن آفاق أوروبا . وأشاد به كارليل — قبل موت جوته بزمان طويل — فحلا من فحول الأدب العالمي . وأهدى بايرون « ورنر » إليه ، وأهدى برليوز « هلاك فاوست » إلى « المونسنيور جوته » ؛ وأرسل إليه الملوك الهدايا . ولكن قراءه في ألمانيا كانوا قلة ، والنقاد مناوئين له ، وانتقص منافسوه من قدره ورموه بأنه عضو في مجلس الأمير مغرور يدعى أنه شاعر وعالم . وأدان ليسنج « جوتز » و « فرتر » لأنهما هراء رومانسي ؛ واحتقر كلويشتوك « ارمان ودوروتيا » لأنه كتاب عادي لا امتياز فيه ،

و«افجنى» لأنه تقليد جامد لليونان . ورد جوته بعبارات متكررة من الاحتقار لألمانيا — لمناخها ، ومناظرها الطبيعية ، وتاريخها ، ولغتها ، وفكرها . وشكا من أنه أضطر « للكتابة بالألمانية ، وهكذا . . . أهدر الحياة والفن على أسوأ مادة » (١٠٤) . وقال لأصحابه ان « هؤلاء الألمان الحمقى » يستحقون تماماً هزيمتهم على يد نابليون في يينا (١٠٥) ، وقد جاء دور ألمانيا لتضحك منه حين انتصر الحلفاء على بوناپرت في ووترلو .

ولإذ انسلخ عن نهر الأدب الرئيسي (النهر الرومانتيكى) في شيوخوته ، فقد عزى نفسه باحتقار ازداد عمقاً للعالم والإنسان . « تبدو الحياة كلها — إذا نظرنا إليها من قمع العقل — كأنها مرض خبيث ، والعالم كأنه مستشفى للمجانين » (١٠٦) . وكتب إلى تسلتر في ٢٦ مارس ١٨١٦ « قبل أيام وقعت على نسخة من أول طبعة لآلام فرتر ، وبدأت ترتفع من جديد تلك الأغنية التي طال إسكاتهما . وشق على أن أفهم كيف استطاع رجل أن يطيق العالم أربعين سنة مع أنه تبين صفه حتى في صباه » (١٠٧) . ولم يتطلع إلى أى تحسين ذى بال في المستقبل . « ان الناس لا يعيشون إلا ليكدر ويقتل بعضهم بعضاً . كذلك كان ، وكذلك هو اليوم ، وكذلك سيظل إلى أبد الدهر » (١٠٨) ، وكان يرى كما يرى معظمنا بعد الستين أن الجيل الجديد منحط . « ان هذه الخيلاء التي لانصدق ، والتي يشب عليها الشباب ، ستمتخص بعد بضع سنوات عن أعظم الحماقات . . . ومع ذلك فهناك الكثير الذي يتحرك وينشط ، وقد يكون مبعث اغتباط في السنين القادمة » (١٠٩) .

وفي ١٥ مارس ١٨٣٢ أصيب بنزلة برد وهو راكب عربته في نزهة . ثم بدا أنه تماثل للشفاء في الثامن عشر من الشهر ، ولكن في اليوم العشرين كانت الإصابة قد نزلت إلى صدره ، وألهمته حمى النزلة ، وشوه الأمل وجهه . وفي الثانی والعشرين لاحظ أن الربيع بدأ ، وقال « لعل هذا يعيننى على البرء . » وكانت الحجرة قد أظلمت لأراحة عينيه ؛ فاعترض قائلاً « أدخلوا مزيداً من الضوء » . وإذ كان لا يزال ضيقاً بالظلام أمر خادمه قائلاً « افتح ستارة النافذة الأخرى ليدخل مزيد من الضوء . » وكانت هذه

فيما يبارو آخر كلماته . وكان قد قال لأوتيلييه « أيتها المرأة الصغيرة ، ناوليني كفك الصغيرة » ومات بين ذراعيها قابضاً على يدها ظهر يوم ٢٢ مارس ١٨٣٢ بالغاً اثنتين وثمانين سنة وسبعة شهور (١١٠) .

ورأى اكرمان جثمانه في الغد :

« كان الجسد عارياً إلا من كفن أبيض . . . وأزاح الخادم الملاءة فأذهلني ما رأيته في أطرافه من بهاء إلهي . وكان الصدر قوياً ، عريضاً ، مقبباً ، والذراعان والفتخان ممتلئة مفتولة في رقة ؛ والقدمان أنيقتين وفي أكمل هيئة ؛ ولم يكن في الجسم كله أثر لا لشحم ولا لنحول ولا لتحال . فقد رقد أمامي رجل كامل في أجمل صورة ؛ وأنستني بهجة المنظر لحظة أن الروح الخالدة قد فارقت هذا المسكن » (١١١) .

وهكذا اختتم عصر عظيم ، ابتداء من انتصار فردريك الكبير في ١٧٦٣ ، ومروراً بليسنج وكايط ، وفيلاند وهردر ، وانتهاء بشيلر وجوته . ولم يوفق العقل الألماني منذ لوثر إلى مثل هذا النشاط والتنوع والثراء في التفكير المستقل . ولم يكن بالكارثة على ألمانيا أنها لم تكن امبراطورية مترامية كامبراطورية بريطانيا مستغرقة في الفتح والتجارة ؛ ولا ملكية ممركة كالملكبة الفرنسية يمزقها فشل الحكومة ؛ ولا استبدادية كاستبدادية روسيا تتخم نفسها بالأرض أو تخدر نفسها بالماء المقدس . ان ألمانيا — من الناحية السياسية — لم تكن قد ولدت بعد ، ولكنها في الأدب كانت تتحدى العالم الغربي ، وفي الفلسفة تقود هذا العالم .

الفصل الخامس والعشرون

اليهود

١٧١٥ - ١٧٨٩

كفاح الحياة

قال روسو :

أن اليهود يقدمون لنا مشهداً عجيباً . فقد مانت قوانين صولون ، ونوما ، وليكورجوس ؛ أما شرائع موسى ، الأقدم بكثير ، فما زالت حية . وقد بادت أثينا ، واسبرطة ، وروما ، ولم تترك خلفاً على الأرض ، أما صهيون التي دمرت فلم تفقد بنيتها ؛ فقد احتفظوا بكيانهم ، وهم يتكاثرون ، وينتشرون في أرجاء العالم . . . وهم يخالطون كل الشعوب دون أن يذوبوا فيها^(١) ؛ وليس لهمحكام ، ومع ذلك فهم دائماً شعب .

وربما كان بقاء ناموس راجعاً لالحكمته الأصلية بقدر جدواه في حفظ النظام والاستقرار بين جماعات تعيش في خطر وسط عقائد معادية وشرائع أجنبية . ففي الشتات كان على الكنيس (المجمع) أن يقوم بما تقوم به الكنيسة والحكومة ، وربط الحاخامات بين أفراد شعبهم في وحدة متماسكة خلال جميع التقلبات والغير بإعطائهم بركة إيمان ديني فخور لناموس نظم كل منحي من مناحي الحياة اليهودية وأصبحت الأسفار الموسوية الخمسة الدستور — وأصبح التورود المحكمة العليا — لدولة غير منظورة .

وفقد العداء لليهودية بعض قواعده الدينية باضمحلال الاعتقادات السنية . وقد عرف المسيحيون من ألموا بطرف من التاريخ أن كل شعب تقريباً من الشعوب المسيحية ، في فترة أو أخرى ، اضطهد المهرطقين بالقتل

الجماعى جيلا بعد جيل أو دواوين التفتيش أو المذابح المنظمة : وعرف فولتير هذا^(٢)، وندد المرة بعد المرة باضطهاد المسيحيين لليهود، وأثنى على ما رآه في اليهود من «أسلوب في الحياة رزين منظم، ومن زهد، وكد» وأدرك أن اليهود الأوربيين أقبلوا على التجارة لأن حرمانهم من تملك الأرض «أعجزهم عن التوطن بصفة دائمة — أى مأمونة — في أى بلد»^(٣). ومع ذلك فقد انقلب فولتير عدواً لليهود عداوة لا هوادة فيها. ذلك أنه تورط في معاملات غير موفقة مع رجال المال اليهود. فعند رحيله إلى إنجلترا حمل معه صكوكاً على المصرف اللندنى «مديناً»، الذى أفلس أثناء ذلك وهو مدين لفولتير بعشرين ألف فرنك^(٤). وفى برلين كلف ابراهام هيرش — كما أسلفنا — بشراء سندات هبطت قيمتها فى سكسونيا، بقصد استيرادها (بطريقة غير قانونية كما حذر هيرش) إلى بروسيا ليستردها قيمتها هناك بربح يبلغ خمسة وستين فى المائة^(٥). وتشاجر الفيلسوف ورجل المال، واحتكما إلى القضاء، وانتهيا بالكراهية المتبادلة. وفى مقال فولتير عن «الأعراف» أطلق لحقده العنان فوصف العبرانيين القدامى بأنهم «أمة حقيرة، وشعب من اللصوص، فظيع، رجس، ناموسه ناموس المتوحشين، وتاريخه نسيج من الجرائم ضد الإنسانية»^(٦). واعترض قسيس كاثوليكي بأن هذا اتهام وحشى إلى حد مضحك^(٧). ونشر يهودى برتغالى عالم يدعى إسحاق بنتو فى ١٧٦٢ «تأملات» فيها نقد للفقرات المعادية لليهود والواردة فى مقال بعنوان «اليهود» فى القاموس الفلسفى؛ واعترف فولتير بأنه «أخطأ فى وصم أمة بأسرها برذائل أفراد»، ووعد بحذف الفقرات المهينة فى الطبعة القادمة؛ ولكنه غفل عن الوفاء بوعد^(٨). وكان موقف الكتاب الفرنسيين عموماً ضد فولتير فى هذا الأمر^(٩). وتكلم روسو على اليهود بتعاطف مشرب بالفهم^(١٠).

ولم يكن لليهود فى فرنسا حقوق مدنية قبل الثورة، ولكنهم أنشأوا جماعات ناجحة وخرجوا زعماء ذوى نفوذ، اشترى أحدهم اقطاعية اشتملت على أميان؛ واستعمل حقه الإقطاعى فى تعيين قساوسة الكندراكية، فاحتج الأسقف، ولكن برلمان باريس أيد الإقطاعى اليهودى (١٧٨٧) واعترفت الحكومة الفرنسية شاكرة بمساعدة المالىين اليهود لها فى حروب الوراثة

الأسبانية والبولندية ، ولعب اليهود دوراً كبيراً في إحياء شركة الهند الشرقية بعد انهيار مغامرة « لو » في ١٧٢٠ (١١) . وكان يهود بورندو ذوى ثراء عريض ، واشتهر تجارهم ومصرفيوهم بنزاهتهم وجمهدهم ، ولكنهم اعتزوا بأصلهم الصفاردي ، ونجحوا في اقضاء جميع اليهود الاشكنازيين عن بورندو .

ولم يكن في أسبانية القرن الثامن عشر يهود سافرون . فنى مطالع حكم البوريون الأسبان استغلت جماعات صغيرة منهم استنارة فليب الخامس المزعومة لاستئناف شعائر العبادة اليهودية سرّاً ، واكتشفت حالات كثيرة ، وأعدم ديوان التفتيش بين عامي ١٧٠٠ و ١٧٢٠ ثلاثة يهود في برشلونه ، وخمسة في قرطبة ، وثلاثة وعشرين في طليطلة ، وخمسة في مدريد . واحفظت الديوان هذه الاكتشافات فهب ينشط من جديد ، وبلغ عدد الدعاوى التي نظرتها محاكمه بين عامي ١٧٢١ و ١٧٢٧ أكثر من ثمانمائة بتهمة اليهودية من بين ٨٦٨ دعوى ، وأحرق خمسة وسبعون ممن أدينوا . أما بعد ذلك فالحالات المثلثة كانت نادرة جداً . وفي سنوات الديوان الختامية ، (١٧٨٠ — ١٨٢٠) حاكم الديوان الأسباني نحو خمسة آلاف منهم ، لم يرم منهم باليهودية غير ستة عشر ، وكان عشرة منهم أجانب (١٢) . وظلت قوانين أسبانيا تحرم من المناصب المدنية أو الحربية جميع الأشخاص الذين لا يستطيعون لإثبات نقاء دمائهم من كل أثر علق به من أسلاف يهود . وقد شكوا المصلحون من أن هذا الشرط حرم الجيش والحكومة الأسبانيين من خدمات الكثير من الرجال الأكفاء . وفي ١٧٨٣ خفف شارلي الثالث هذه القوانين (١٣) .

أما في البرتغال فقد أحرق ديوان التفتيش سبعة وعشرين يهودياً لرفضهم الارتداد عن الديانة اليهودية (١٧١٧) (١٤) . وقد وفد على لشبونه في ١٧١٢ قادماً من ريودجانيرو أنطونيو داسيلفا ، الذي كان في رأى سوذى أفضل كتاب المسرحيات البرتغال ؛ فقبض عليه هو وأمه في ١٧٢٦ لأنهما يهوديان ، وأحرقت الأم ، واستعطف الإبن فأطلق سراحه ،

ويبدو أنه ارتد بعد ذلك ، لأنه أحرق في ١٧٣٩ ولما بعد الخامسة والثلاثين^(١٥) ثم أنهى المركز دجومبال بإصلاح من إصلاحاته الكثيرة كل تفرقة بين المسيحيين القدامى والمحدثين (الذين اعتنقوا المسيحية) (١٧٧٤)^(١٦) .

أما في إيطاليا فقد سبقت البندقية غيرها إلى تحرير اليهود ، ففي ١٧٧٢ أعلن أن يهود الجمهورية أحرار متساوون مع سائر السكان . وتخلفت روما ، وكان الغيت (حى اليهود) هناك أسوأ أحيائهم في أوروبا . وزادت خصوبة الانحجاب الشديدة التي شجعها الأخبار من الفقر والقدارة ، وأتت على يهود روما فترة كان عشرة آلاف منهم يسكنون في حيز لا يزيد على كيلو متر مربع واحد^(١٧) . وكان نهر تير يفيض على ضفافه كل عام فيغمر شوارع الحى الضيقة ويملاّ الحجرات السفلى بالطين الموبوء . واحترف يهوديو روما الحياطة لحرمانهم من أكثر الحرف ؛ ففي ١٧٠٠ كان ثلاثة أرباع الذكور البالغين منهم خياطين^(١٨) ، فبدأوا بذلك عادة تحدت بينهم حتى أيامنا هذه . وفي ١٧٧٥ أصدر بيوس السادس مرسوماً بابوياً جدد فيه القديم من المحظورات على اليهود وأضاف إليها جديداً : فحرم عليهم ركوب العربات ، وترتيل المراثى في الجنائز ، وإقامة الشواهد على قبور موتاهم^(١٩) . وكان على يهود روما أن ينتظروا مجيء نابليون ليحررهم من هذه القيود .

وأما في النمسا فقد أحست ماريا تريزا أن التقوى تلزمها بحبس اليهود في أحياء ضيقة بعينها ، وبحرمانهم من الحرف والمناصب وتملك العقارات^(٢٠) ، ولكن ابنها يوزف الذى مسه التنوير الفرنسى اقترح على مجلس الدولة في ١٧٨١ مشروعاً « يفيد به المجتمع من طبقة الإسرائيليين الكبيرة في أراضينا الوراثية » (النمسا والمجر وبوهيميا) وذلك بتشجيعهم على أن يتعلموا — وبعد ثلاثة أعوام يشترط عليهم أن يستعملوا — اللغة القومية في جميع الشئون القانونية أو السياسية أو التجارية . ويجب ألا « يضايق اليهود على أى وجه في ممارسة شعائهم أو عقائدهم » . وينبغي دعوتهم للاشتغال بالزراعة ، وللدخول ميدان الصناعة والتجارة ، ولممارسة الفنون — على أن يظل محظوراً عليهم أن يصبحوا معلمى حرف في النقابات الحرفية ، لأن هذا يتطلب حلف يمين الولاء للعقيدة المسيحية . ثم تلغى كل أسباب التفرقة المهنية ، وكل

القيود المفروضة إلى ذلك الحين على اليهود ، « وكذلك كل العلامات الظاهرة أيا كانت » . واعترض مجلس الدولة والمديرون الإقليميون على البرنامج لأنه فضفاض مفاجئ بحيث لا يقبله الشعب . وقدم يوزف حلاً وسطاً ، فأصدر في ٢ يناير ١٧٨٢ « ترخيص تسامح » لليهود فيينا والنمسا السفلى : فنالوا بمقتضاه حق إدخال أبنائهم مدارس الدولة وكنياتها ، والتمتع بالحرية الاقتصادية إلا أن يملكوا العقارات ؛ ولكن حرم عليهم التنظيم الطائفي المستقل ، وبناء المجماع في العاصمة ، ومنعوا من سكنى مدن معينة — ربما لأن العداء لليهود فيها كان مستحكماً إلى درجة خطيرة . ونصح يوزف رعاياه المسيحيين باحترام أشخاص اليهود وحقوقهم باعتبارهم اخواناً لهم ، وكل إهانة أو عنف يعامل به يهودى « سيعاقب بمقتضاه عقاباً صارماً » ، ويجب أن يمنع إدخالهم في المسيحية بالإكراه . وما لبث الإمبراطور أن أصدر ترخيص مماثلة لبوهيميا ومورافيا وسيليرنا النمساوية . وقد قدر لليهود مساهمتهم في خزانته ، فخلع النبالة على عدة يهود ، واستخدم عدداً منهم ما ليين للدولة^(٢١) ،

ولكن لإصلاحاته — كما ذكر المبعوث الفرنسى إلى فيينا — « اثار ت صيحة استنكار عامة . . . والتسهيلات الكبيرة الممنوحة لليهود يراها الناس مفضية بلا ريب إلى خراب الدولة »^(٢٢) . وشكا التجار المسيحيون من المنافسة الجديدة ، وأدان القساوسة المراسيم لأنها تتسامح مع الهرطقة السافرة ، واعترض بعض الحاخامات على اختلاف الأطفال اليهود إلى مدارس الدولة مخافة أن تفتن الشباب عن اليهودية . ولكن يوزف أصر على موقفه ، وقبل أن يموت بسنة وسع « ترخيص التسامح » ليضم غاليسيا أيضاً ، وكانت إحدى مدنها ، وهى برودى ، تضم خلقاً كثيراً من اليهود (١٨,٠٠٠) حتى لقد لقبها الإمبراطور أورشليم الحديثة . وعند موت يوزف (١٧٩٠) كانت فيينا قد عودت نفسها على النظام الجديد ، ومهدت الأرض لثقافة فيينا اليهودية المسيحية الرائعة التى ازدهرت في القرن التاسع عشر .

ويمكن القول عموماً إن حظ اليهود في الأقطار الإسلامية كان خيراً من

حظهم في الأقطار المسيحية . وقد وصفت الليدى مارى ورتلى مونتيجو ،
ربما في شيء من المبالغة حالهم في تركيا عام ١٧١٧ فقالت :

« إن اليهود . . . يتمتعون بسلطان لا يصدق في هذا البلد . فلهم امتيازات
كثيرة يفوقون فيها جميع الأهالي الأتراك أنفسهم . . . لأنهم يحاكمون طبقاً
لقوانينهم . وقد استقطبوا كل تجارة الإمبراطورية في أيديهم ، وذلك بفضل
ما يربطهم من وحدة وثيقة من جهة ومن جهة أخرى لبلادة الترك واقتدارهم
إلى الجلد والاجتهاد . ولكل باشا مساعده اليهودى الذى يدير أعماله . . . وهم
الاطباء ، والوكلاء ، والمترجمون ، لأتكاير القوم أجمعين . . . وكثير
منهم ذوو ثراء عريض » (٢٣) .

والبون شاسع بين حظ هؤلاء وحظ اليهود القلائل الموجودين في
روسيا — لاسيا في « أقاليم النخوم » المواجهة لبولنده — عند وفاة بطرس
الأكبر . وفي ١٧٤٢ أمرت الإمبراطورة اليزابث بتروفتنا بأن « يرحل فوراً
من إمبراطوريتنا كلها . . . جميع اليهود . . . ولا يسمح لهم منذ الآن بدخول
إمبراطوريتنا بأية حجة . . . ما لم . . . يعتنقوا الديانة المسيحية على المذهب
الرومى » . وما حلت سنة ١٧٥٣ حتى كان قد طرد قرابة ٣٥,٠٠٠ يهودى (٢٤)
وتشفع بعض رجال الأعمال الروس لدى الإمبراطورة لتخفف من صرامة
المرسوم ، محتجين بأن طرد اليهود قد أحدث كساداً في اقتصاد الأقاليم لأنه
حول التجارة منها إلى بولنده وألمانيا ، ولكن اليزابث لم تلت لها قناة .

فلما أن تربع العرش كاترين الثانية أرادت أن تسمح بدخول اليهود
من جديد ، ولكنها أحست بأن هذا العرش يهتز من تحتها اهتزازاً لا تجرؤ
معه على التصدى لمعارضة رجال الدين . غير أن التقسيم الأول لبولنده أوصل
المشكلة إلى مرحلة جديدة . فما العمل في ٢٧,٠٠٠ يهودى طال مقامهم في
ذلك الجزء من بولنده الذى ظفرت به روسيا الآن ؟ لذلك أعلنت كاترين
(١٧٧٢) أن « الجماعات اليهودية المقيمة في المدن والأقاليم التى أدمجت الآن
في الإمبراطورية الروسية تترك لتتمتع بجميع الحريات التى تمنحها الآن » (٢٥) .
وسمح هؤلاء اليهود البولنديين بقسط كبير من الحكم الذاتى ، وأجيز لهم

شغل المناصب البلدية ، ولكن حرم عليهم الهجرة من « نطاق الاستيطان » (الأقاليم البولندية السابقة) إلى داخل روسيا . وفي ١٧٩١ أبيع لليهود أن يستوطنوا أقاليم خرسون وتاوريدا وإكاترينوسلاف سبيلا إلى التعمير السريع لهذه الأقاليم المفتوحة حديثاً وتيسير الدفاع عنها . وكان العداء الإقتصادي لليهود الذي يلقونه من معظم رجال الأعمال الروس ، والعداء الديني الذي يلقونه من عامة الروس ، يجعلان الحياة أثناء ذلك شاقة خطيرة على اليهود في الإمبراطورية .

وفي ١٧٦٦ كان يسكن بولنده ٦٢١,٠٠٠ يهودي (٢٦) . وقد صدق أوغسطس الثاني وأغسطس الثالث على « امتيازات » الحماية التي منحها لهم الحكام السابقين ، ولكن هذين الحاكمين السكسونيين ، المشغولين بمملكتين ومنذهيين دينيين (فضلاً عن خليالتهما) ، لم يتح لهما وقت يذكر للتصدي لذلك العداء العرقي الذي استشرته الجماهير البولندية نحو اليهود . ففرضت الحكومة عليهم ضرائب إضافية ، وحاول الإقطاعيون الهبوط بهم إلى درك الإقنات ، وكلفهم الحكام المحليون ثمناً باهظاً لحمايتهم من عنف الغوغاء . وندد القساوسة باليهود لأنهم « متشبهون بكفرهم » وطالب بجمع كنسي عقد في ١٧٢٠ بأن تحظر الحكومة « بناء المجمع الجديدة لليهود وترميم القديمة منها » . وكرر مجمع عقد في ١٧٣٣ مبدأ العصر الوسيط القائل بأن المبرر الوحيد للتسامح مع اليهود هو أنهم قد يصلحون « أداة للتذكير بعدنابات المسيح ، ومثلاً يضرب - بعبوديتهم وبؤسهم - للعقاب العادل الذي ينزله الله بالكافرين » (٢٧) .

وفي ١٧١٦ نشر عبراني دخل في المسيحية يدعى سيرافينوفتش كتاباً اسمه « فضح الشائعات اليهودية » اتهم فيه اليهود باستعمال دم المسيحيين لشتى الأغراض السحرية : لتلطيف أبواب المسيحيين ، ولزجه بالفطير الذي يأكلونه في الفصح ، ولغمس قطعة قماش فيه محتوية على تزيمة يقصد بها حماية بيت أو انجاح تجارة . . . وتحدى اليهود سيرافينوفتش أن يثبت صحة دعاواه ، وجمعوا مجلساً من الحاخامات والأساقفة ليستمعوا إليه ، ولكنه لم يمثل أمام المجلس ، بل أعاد نشر كتابه (٢٨) . وقد اتهم اليهود غير مرة بقتل

الأطفال للحصول على دم مسيحي ، واستدعى يهود بولنديون لحماكتهم على
تهم كهذه في ١٧١٠ و ١٧٢٤ و ١٧٣٦ و ١٧٤٧ و ١٧٤٨ و ١٧٥٣ و
١٧٥٦ و ١٧٥٩ و ١٧٦٠ ، وعذبوا في حالات كثيرة ، حتى الموت
أحياناً ، وسلخت جلود بعضهم أحياء ، ومات بعضهم بالخازوق موتاً
بطيئاً . . . (٢٩) وفزع اليهود المروعون إلى البابا بندكت الرابع عشر ليكشف
عنهم هذه الاتهامات ، وعرضت أدلة الإثبات والنفي على الكردينال
كامبانيلى ، وبعد أن تلقى تقريراً من الفير البابوى فى وارسو ، أصدر مذكرة
مؤداها أنه لم يثبت فى حالة من هذه الحالات أنهم مذنبون . وأيدت محكمة
ديوان التفتيش بروما مذكرة الكردينال . وكتب السفير البابوى للحكومة
البولندية (١٧٦٣) يقول « ان الخبر الأقدس ، بعد فحص كل الأسس
التي قام عليها اتهامهم بهذا الشذوذ — وهو أن اليهود يحتاجون إلى الدم البشرى
لتجهيز فطيرهم ، نخلص إلى أنه ما من دليل يثبت صحة ذلك الاتهام
المفرض » (٣٠) . وكان البابا انوسنت الرابع قد أصدر حكماً مماثلاً فى ١٢٤٧ .
ولكن الاتهام بالشذوذ لم يتوقف .

وكان الخوف من المذابح عنصراً يتردد فى حياة اليهود البولنديين .
فى ١٧٣٤ و ١٧٥٠ و ١٧٦٨ تألفت جماعات من القوزاق والفلاحين
الأرثوذكس الروس الذين نظموا على شكل عصابات مثيرة للشغب ،
وشنت الغارات على كثير من المدن والقرى فى أقاليم كييف وفولھينيا
وبودوليا ، وينهبون الضياع ويقتلون اليهود . وفى ١٧٦٨ حمل المغيرون
« مرسوماً ذهبياً » نسب زوراً وبهتاناً إلى كاترين الثانية ، ويدعوهم إلى
« استئصال شأفة البولنديين واليهود ، الذين يدنسون ديانتنا المقدسة » ،
وذبحوا فى مدينة واحدة هى أومان عشرين ألف بولندى ويهودى . وجردت
كاترين جيشاً روسياً يتعاون مع القوات البولندية على قمع المغيرين (٣١) .

أما فى المانيا فإن اليهود كانوا يعيشون فى أمن ورخاء نسبين وإن عانوا
من شتى المعوقات فى الحياة الاقتصادية والسياسية . فقد فرضت عليهم ضرائب
خاصة فى معظم الإمارات (٣٢) . ولم يسمح القانون إلا لعدد محدود من
اليهود بالعيش فى برلين ، ولكن القانون لم ينفذ بدقة ، فزادت الجالية

البرلينية عدداً ومالا ، وقامت مستوطنات مماثلة في هامبورج وفرانكفورت .
وبلغ عدد من اختلف من التجار اليهود إلى سوق لينبج في ١٧٨٩ نيفاً
وألف تاجر^(٣٣) . واستخدم الحكام الألمان ، وحتى الأمراء - الأساقفة
الكاثوليك منهم ، اليهود لإدارة شئونهم المالية أو لتكوين جيوشهم . وقد أدى
يوزف أوبنهايمر (١٦٩٢ - ١٧٣٨) المعروف باسم « اليهودي سوس »
هذه المهام وغيرها لنانخب بالاتين في مانهايم ، ولكارل الكسندر دوق
فورتمبرج . وكان لذكائه واجتهاده الفضل في إثرائه وإثراء الدوق ، وفي
اكتسابه الكثير من الأعداء . وقد اتهم بالغش في دار ضرب النقود ، ولكن
مجلساً من المحققين برأ ساحتته ، فرقى عضواً في مجلس الدوق الخاص ،
حيث لم يلبث أن أصبح القوة المسيطرة . وقد ابتكر ضرائب جديدة ،
وأنشأ احتكارات ملكية ، وقبل على ما يبدو الرشا - التي اقتسمها مع
الدوق^(٣٤) . فلما اقترح الدوق ايداع جميع أموال الكنيسة في مصرف
مركزي للدولة ، انضم رجال الدين البروتستنت مع الإشراف في معارضة
الدوق ووزيره . وفي ٣ مارس ١٧٣٧ مات الدوق فجأة ، فقبض قادة
الجيش والزعماء المدينون على أوبنهايمر وكل يهود شتوتجارت ، وحوكم
أوبنهايمر وادين ، وفي ٣ فبراير ١٧٣٨ خنق وعُلقت جثته في قفص في
ميدان عام^(٣٥) .

ذكرنا من قبل جولات جوته في حى اليهود بفرانكفورت . وقد
اشتقت أسرة من أقدم الأسرات هناك اسمها الأخير ، وهوروشيلد ،
من الدرع الحمراء التي ميزت مسكنها . وفي ١٧٥٥ أصبح ماير أمشيل
صاحب الدرع الحمراء رب الأسرة بعد وفاة أبويه ، وكان في
الحادية عشرة من عمره . وكانت كثرة الدويلات الألمانية ، وكل لها
عملتها المستقلة ، قد جعلت تغيير النقود ضرورة متكررة للمسافرين ؛
وتعلم ماير في صباه معادلات النقود بين الدويلات ، فكان يتقاضى رسماً
صغيراً على كل تحويل . ثم درس علم العملات هواية جانبية وجمع
العملات النادرة ، وأرشد جماعاً آخر هو الأمير فلهلم الهاناوى وحصل منه
على لقب « وكيل التاج » الذي ساعده في عمله بفرانكفورت . ثم تزوج

في ١٧٧٠ ، وأنجب خمسة أبناء ، أنشأوا فيما بعد فروعاً لشركة روتشيلد في فيينا ونابلي وباريس ولندن . واكتسب ماير سمعة الحكم السديد والنزاهة والجدارة بالثقة . فلما ان خلف فلهم أمير هاناو أياه حاكماً على هسي كاسل ، ازداد تعامل ماير أمشيل مع القصر ، فلما وافي عام ١٧٩٠ حتى بلغ دخله السنوى ثلاثة آلاف جولدن — وهو ما يعادل دخل أبي جوته الثرى ستمائة مرة ^(٣٦) . ونمت ثروة الأسرة نمواً سريعاً خلال حروب الثورة الفرنسية ، وشغل ماير بتموين الجيوش ، وعهد إليه بإخفاء أموال الأمراء وأحياناً باستثمارها .

وواصل اليهود في الأراضي الواطئة واسكندناوه تمتعهم بحرية نسبية . وازدهرت جماعة أمستردام اليهودية . ولم تعرف الأحياء المقصورة على اليهود في الدنمرك ، فقد تنقل اليهود بحرية وسمح بالزيجات المختلطة . وفي ألتونا ، المدينة التجارية الواقعة وراء نهر ألب من هامبورج ، والتي كانت آنذاك ملكاً للدنمرك ، عاشت جالية من أغنى الجاليات اليهودية في أوروبا . وفي السويد بسط جورستاف الثالث حمايته على اليهود في ممارستهم السلمية لشعائهم .

ووجد كثيرين من اليهود الهاربين من الاضطهاد في بولنده وبوهيميا الملجأ في إنجلترا . وزاد عددهم من ٦,٠٠٠ في ١٧٣٤ إلى ٢٦,٠٠٠ في ١٨٠٠ ، وكان نصيب لندن منهم ٢٠,٠٠٠ . وكانوا يعيشون في فقر مدقع ، ولكنهم رعوا فقراءهم وتكفلوا بنفقات مستشفياتهم ^(٣٧) . وكان تعقب اليهود ومطاردتهم رياضة محببة للناس ، اضمحلت حين تعلم اليهود الملاكمة وغدا أحدهم بطل الملاكمة القوي ^(٣٨) . وقد أقصى شرط حلف يمين الولاء للمسيحية اليهود عن الوظائف المدنية والحربية . وأصبح سامسون جدعون أحد محافظي بنك إنجلترا بعد أن قبل الدخول في المسيحية . وفي ١٧٤٥ ، حين كان الشاب المطالب بالعرش يزحف على لندن بجيش اسكتلندي أخذ على نفسه العهد بخلع جورج الثاني ورد آل ستيوارت إلى العرش ، فأصاب الذعر بجاهير الشعب بعد أن فقدوا الثقة في أمن الحكومة وسلامها وهددوا بالتزاحم على المصرف لاسترداد ودائعهم ، في هذا الظرف قاد

جدعون التجار والأعيان اليهود لإنقاذ المصرف ، فتدفقت أموالهم الخاصة فيه ، وتعهدوا بقبول بنكنوت المصرف بالقيمة الاسمية في معاملاتهم التجارية ووفى المصرف بالتزاماته ، وأعيدت الثقة ، ورد المطالب بالعرش على أعقابها (٣٩) .

وأعربت وزارة الأحرار (الموجز) عن تقديرها لصنيع اليهود بتقديمها مشروع قانون إلى البرلمان (١٧٥٣) يبيح الجنسية والمواطنة لجميع اليهود المولودين في الخارج والذين أقاموا في إنجلترا أو أيرلندا ثلاثة أعوام ؛ (أما اليهود المولودين هناك فكانوا يكتسبون الجنسية بمولد (٤٠) . ووافق اللوردات والأساقفة على المشروع ، ووافق عليه أعضاء مجلس العموم بأغلبية ستة وتسعين صوتاً مقابل خمسة وخمسين . ولكن الشعب البريطاني الذي لم يكن له كبير علم أو فهم للدور الذي لعبه اليهود في إنقاذ المصرف هب معارضاً مشروع القانون معارضة ساحقة . وانهالت الاحتجاجات على البرلمان من كل مدينة في بريطانيا تقريباً ، وأجمعت المنابر والحانات على إدانته ، وشكا التجار من أن منافسة اليهود لهم في التجارة ستصبح أمر لا يحتمل . وكان الشتم والإهانة في الشوارع نصيب الأساقفة الذين صوتوا للمشروع ؛ وبعثت الأساطير القديمة التي ادعت قتل اليهود للمسيحيين طبقاً لشعائهم ، وأذيعت مئات النشرات والقصائد الشعبية والصور الكاريكاتورية والأهاجى الساخرة ، وزين النساء ثيابهن وصدورهن بالصلبان ولبسن أوشحة تحمل هذا الشعار « لا يهود ، المسيحية إلى الأبد » (٤١) . وخاف زعماء الأحرار الهزيمة في الانتخاب القادم فحصلوا على إلغاء القانون (١٧٥٤) .

٢ - العزاء الصوفي

ولاذ كثير من اليهود ، لاسيما في بولنده ، بأسباب العزاء فوق الطبيعي هرباً من معاناتهم الأرضية . وأتلف بعضهم بصرهم بإدمان قراءة التلمود ، وفقد بعضهم عقولهم في القبلانية ، وظل بعض « الدسطينيين » يؤمنون بالوهية صبطاي زيفي رغم ارتداد هذا المسيح الكاذب وموته ، وانصرفوا عن اليهودية التلمودية إلى الآمال والاقنوس المهرطقة . وأقنع يانكييف ليبوفتش ،

الذى أصبح معروفاً باسم يعقوب فرانك الذى أطلقه عليه الترك ، مئات من اليهود البولنديين بأن روح زيني تقمصته ، وعلمهم عقيدة شبيهة بهرطقة مسيحية لطيفة تصورت الثالوث مؤلفاً من الله الآب ، ومريم ام ، والمسيح ابهما ، وأخيراً قاد اتباعه إلى الكنيسة الكاثوليكية (١٧٥٩) .

وأنقذت الحركة « القاصدية » اليهود البولنديين بعض الإنقاذ من حالتهم الراضية . وكان مؤسس « عقيدة التقوى » هذه اسراييل بن ألعازر ، المعروف باسم بعل شم - توب (« السيد الصالح لاسم الله ») ، واختصاراً باسم « بشت » الجامع لأول حروف اسمه الكامل . وكان يحوب البلاد معلماً للأطفال ، وعاش في فقر تجمله البهجة ، وكان يصلى بانتشاء ويشفى المرضى شفاء « معجزياً » بالأعشاب الجبلية . وقد طلب إلى اتباعه ألا يعبروا طقوس المجمع والمعرفة التلمودية كبير اهتمام ، وان بقربوا إلى الله رأساً في شركة متواضعة ولكنها حميمة . وان يبصروا الله ويحبوه في شتى صور الطبيعة ومظاهرها ، في الصخور والأشجار ، وفي حالات اليسر والألم ؛ وأمرهم بأن يستمتعوا بالحياة في الحاضر بدلا من البكاء على خطايا الماضي وآلامه . وكانت أقواله الماثورة البسيطة أحيانا تشبه أقوال المسيح . « شكنا بشت أن ابنه ترك الله ، وسأله قائلاً : يا معلم ، ماذا أصنع ؟ وأجابه بشت : أحبه أكثر مما فعلت في أى وقت » (٢) .

والحركة القاصدية في بولنده تقابل من بعض الوجوه حركات الأخوان الموافين . والتقويين الألمان ، والمثوديين الانجليز ؛ فقد اتفقت مع هذه الحركات على اخراج الدين من المعبد وإدخاله إلى القلب ، ولكنها رفضت النسك والاكثاب ، وأمرت اتباعها بأن يرقصوا ، ويستمتعوا بعناق أزواجهم ، لا بل بالشراب بين الحين والحين إلى حد النشوة .

فلما مات بعل شم - توب (١٧٦٠) تولى رعاية قطيعه ، وأحيانا جز صوفه ، (٣) سلسلة من « الصديقين » . وحارب التلموديون السنيون بزعامه عالم متعصب من فلنا يدعى إيليا بن سليمان « القاصدين » بالنصح والحرم ، ولكن عددهم زاد بانهار بولنده (١٧٧٢ - ٩٢) ، ولم يختم القرن حتى كانوا يعدون ١٠٠,٠٠٠ نسمة (٤) .

وما كان لحياة •طاردة على الأرض على هذا النحو ، ونفوس مثبتة في السماء إلى هذا الحد ، ان تسهم بقسط كبير في الأدب الديوى أو العلم أو الفلسفة . وكان اليهود في كل بلد تقريباً ممنوعين من الالتحاق بالجامعات بحكم القسم بالولاء للعتيدة المسيحية المشروط على جميع الطلاب . ثم ان ناهوس موسى حرم عليهم ممارسة فن التصوير وبلد تذوقهم الفن . وإذا كانوا يكتبون بالعبرية التي لا تفهمها غير قلة قليلة ، أو باليبودية التي لم تكن بهد قد أصبحت لغة أدبية ، فقد افتقدوا الخافز لإنتاج أى أدب خلاف الشروح الدينية أو السفاسف الشعبية . وثمة اسهام بارز واحد أسهموا به في الفنون العملية في هذا العصر : فقد اخترع يعقوب رودريج بيرير ، وهو أحد يهود بوردو ، لغة إشارات للصم والبكم ، فأثني عليه ديدرو ودالامبير وروسو وبوفون . ثم شاعر يهودى واحد أثار هذه الظلمة .

وقد ولد الشاعر موسى حاييم لونساتوا في إيطاليا (١٧٠٧) لوالدين أتاح لهما بعض اليسر أن يحسوا تعليمه . وقد أخذ عن الشعراء اللاتين ، وعن الشعراء الإيطاليين من أمثال جواريني ، براعة في الأوزان الشعرية . مكنته من أن يسبق على شعره العبرى من الإيقاع المتدفق والسحر الرقيق ما لم يعرف في تلك اللغة منذ أيام يهوذا هاليني . وحين بلغ السابعة عشرة كتب مسرحية عن شمشون والفلسطينيين . ثم أقبل على دراسة « الزهر » ، وهو كتاب القبلانية المقدسة ، فافتن خياله بأوهامه الصوفية ، فأدار بعضها شعراً ، وأدارت هى رأسه فخيّل إليه انه ملهم من السماء . فكتب « زهرا » ثانياً ، وأذاع انه المسيح الذى وعد به اليهود . فحرمه حاخامات البندقية (١٧٣٤) . ففر إلى فرانكفورت — على المين ، حيث أجبره الحاخامات على الوعد بالإقلاع عن أوهامه بأنه المسيح المنتظر . وانتقل إلى أمستردام حيث رحبت به الجالية اليهودية ، وهناك كسب قوته كما كسبه سينوزا بصقل العدسات ، ثم استأنف دراساته القبلانية . وفي ١٧٤٣ ألف مسرحية عبرية « لا-ى أشاريم تهيللا (مجداً للأبرار) كان حظها التقريظ ممن كانوا أكفأ للحكم عليها ، برغم التجريدات التي استخدمها شخوصاً للمسرحية .

ومؤدى المسرحية أن الجهل المستشري بين العوام ، يدعم المكر والخداع ، يولد الخفاقة ، التى تحبط الحكمة مراراً ، وتحرم الكفاية من تاجها ، حتى ينتصر العقل والصبر فى النهاية على الخداع بالكشف عن الحقيقة ، على أن « الحقيقة » كان يقصد بها القبلانية . وفى ١٧٤٤ ذهب إلى فلسطين ، أملاً فى أن ينادى به المسيح المنتظر ، ولكنه مات فى عكا بالطاعون (١٧٤٧) وهو فى التاسعة والثلاثين . وكان آخر صوت فصيح لعصر اليهودية الوسيط ، كما كان أول صوت كبير لليهودية تنبعث من العزلة الواقعة إلى الاحتكاك بالفكر الحديث .

٣ - موسى مندلسون

كان جده فيليكس مندلسون من أنبل شخصيات القرن الثامن عشر ، وكان صديقاً وخصماً اكانط ، وصديقاً ومهماً لليسنج . وكان أبوه مناحم مندل كاتباً ومعلمًا بمدرسة يهودية فى دسو . وهناك ولد « موسى الثالث » فى ٦ سبتمبر ١٧٢٩ ، وشب مشغولاً بالدرس حتى لقد أصابه شغفه هذا بتقوس مستديم فى العمود الفقري . فلما بلغ الرابعة عشرة أوفد إلى برلين لمزيد من دراسة التلمود ، وهناك اتبع بخلافيره تقريباً أمر التلمود الذى نصه « كل الحبز بالملح ، واشرب الماء بمقدار ، ونم على الأرض اليابسة ، وعش عيشة الحرمان ، وليكن الناموس شغلك الشاغل »^(٤٥) . وظل سبع سنين قانعاً بسكناه فى إحدى العليات يعلم رغيف خبزه الأسبوعى بخطوط تحدد جراته اليومية^(٤٦) ، ويكسب الرزق الضئيل بنسخ الوثائق بخطه الأنيق . وفى برلين أكسب على آثار موسى بن ميمون ، ووجد الشجاعة فى حياة « موسى الثانى » ذلك وتعلم منه ومن الحياة أن ينزل بكبريائه إلى التواضع وبحدة طبعه إلى اللطف والمجاملة . وعلمه رفقاؤه البرلينيون اللاتينية والرياضيات والمنطق ، وقرأ لوك فى ترجمة لاتينية ، وانتقل إلى ليبنتس وفولف . ولم يلبث أن عشق الفلسفة . ثم تعلم كتابة الألمانية فى نصاعة رقيقه ندر أن تجد لها نظيراً فى أدب وطنه فى جيله .

وانتهت أيام فقره حين أصبح في الحادية والعشرين معلماً خاصاً في أسرة صاحب مصنع حرير في برلين يدعى إسحاق برنهارت ، وبعد أربع سنوات عين محاسباً بالشركة ثم مندوباً متجولاً لها ، وأخيراً شريكاً فيها . وقد احتفظ بصلة العمل هذه بنشاط حتى نهاية عمره ، لأنه اعتزم ألا يعتمد في رزقه على رواج كتبه وحصيلتها من المال . والراجح انه التقى بليسنج في ١٧٥٤ ، على لعبة شطرنج فيما يبدو ، وهكذا بدأت صداقة اتصلت حتى موت ليسنج رغم ما بينهما من خلافات فلسفية . كتب ليسنج إلى صديق آخر في ١٦ أكتوبر ١٧٥٤ يقول : « ان مندلسون رجل في الخامسة والعشرين ، اكتسب دون أى تعلم جامعي معلومات كبيرة في اللغات والرياضيات والفلسفة والشعر . واني لأتطلع فيه إلى مفخرة لأمتنا إذا أتاح له اخوانه في الدين أن يصل إلى درجة النضج . . . وأن صراحته وروحه الفلسفية ليجعلانني أعده سلفاً ، اسبينوزا ثانياً » (٤٧) . أما مندلسون فكان يقول ان كلمة ود أو نظرة محبة من ليسنج تطرد عنه كل حزن أو غم (٤٨) .

وفي ١٧٥٥ رتب ليسنج نشر كتاب مندلسون « أحاديث فلسفية » ، الذي شرح ودافع عن كلا من سبينوزا وليبنيتس . وفي العام ذاته تعاون الصديقان على كتابة مقال « بوب ميتافيزيقيا ! » زعما فيه أن هذا الشاعر الانجليزي لم يكن له فاسفة من بنات أفكاره ، وكل ما فعله أنه نظم فلسفة ليبنتس شعراً . وفي ١٧٥٥ أيضاً نشر مندلسون « رسائل في الوجدان » ، وقد سبق هذا كانط في رأيه أن الإحساس بالجمال مستقل كل الاستقلال عن الشهوة . وقد اكسبت هذه الكتب المنشورة اليهودى الشاب الترحيب في برلين بين « الإخوان الفلاسفة الذين لم يكونوا على تمام الصفاء والرزانة » . وعن طريق ليسنج التقى بفردريش نيقولاى ، ودرس هو ونيقولاى اليونانية معاً ، وما لبث أن بدأ يقرأ أفلاطون في لغته الأصلية . ثم ساعد نيقولاى في إنشاء مجلة سميت « مكتبة الآداب البحتة والفنون الجميلة » ، وأسهم في هذه المجلة وغيرها من المجالات بمقالات كان لها تأثير قوى في الأفكار السارية في نقد الأدب والفن .

وأحس مندلسون الآن بقدر من الأمن والطمأنينة يتيح له أن يقيم بيتاً

خاصاً به . ففي ١٧٦٣ ، وهو في الثالثة والثلاثين ، تزوج فرومريت جرجنهايم البالغة خمسة وعشرين ربيعاً . وكان كلاهما قد بلغ سن النضج الفكري ، فأثمر اتحادهما الكثير من السعادة . وفي شهر العسل بدأ العمل في مسابقة قدمت فيها أكاديمية برلين جائزة لأفضل مقال يتناول هذا الموضوع « هل العلوم الميتافيزيقية تقبل الأدلة كالعلوم الرياضية » . وكان من المتسابقين إيمانويل كانط . وفاز مقال مندلسون (١٧٦٣) ، فأثاه بخمسين دوقاتية وبشهرة دولية .

وكان بين المتسابقين توماس آبت ، وهو أستاذ في فرانكفورت — على الأودر . وفي رسائل كثيرة تبادلها مع مندلسون أعرب عن شكوكه في خلود الروح ، وأسف على أن فقدان ذلك المعتقد قد يقوض الناموس الأخلاقي ويحرم التعساء من آخر عزاء لهم . وبعض الفضل راجع إلى هذه الرسائل في وضع مندلسون لأشهر كتبه قاطبة « فيدون » . وقد صاغه على مثال نموذج الأفلاطوني في شكل حوار وفي أسلوب ميسر . فروح الإنسان (كما يزعم) متميزة من المادة بشكل واضح ، إذن لنا أن نعتقد أنها لا تشارك الجسد مصيره ؛ وإذا كنا نؤمن بالله فإننا لانستطيع الافتراض بأنه يخدعنا إذ يغرس في عقولنا أملاً دون أن يكون له أساس من الحقيقة . يضاف إلى هذا (وهو ما سيذهب إليه كانط) ان للروح حافزاً طبيعياً نحو كمال الذات ؛ وهذا لا يمكن تحقيقه في حياتنا ؛ ولا بد أن الله يسمح للروح بأن تحيا بعد موت الجسد . وقد شعر مندلسون بأنه « بدون الله ، والعناية الإلهية ، والخلود » تفقد كل طيبات الحياة قيمتها في نظري وتصبح حياتنا على الأرض . . . أشبه بالشهان في الريح والمطر دون أمل يعزى النائه بالعشور على غطاء ووقاء في الليل » (٩) . وبراين الكتاب هشة ، ولكن أسلوبه أبهج قراء كثيرين ، ولاح أن الكاتب ظفر باستعادة سحر محاورات أفلاطون ، والواقع أن لقب « أفلاطون الألماني » اسماً ثانياً لمندلسون . وطبعت من الكتيب خمس عشرة طبعة وترجم إلى جميع اللغات الأوروبية تقريباً كما ترجم إلى العبرية ، وكان في جيله أوسع الكتب انتشاراً في ألمانيا باستثناء القصص . وشارك هرذر وجوته في تقيظه .

وزار لافاتر مؤلفه ، وفحص رأسه ووجهه ، وأعلن أن كل نتوء وخط فيه يشي بروح سقراط^(٥٠) .

وأشاد المسيحيون على اختلاف مذاهبهم باليهودى البليغ ، والتمس منه راهبان بندكتيان النصيحة الروحية . ولكن فى ١٧٦٩ أثار لافاتر ، الذى كان لاهوتياً غيوراً كما كان عالماً فى الفراسة ، ضجة بتوجيهه نداءا علنياً لمندلسون أن يدخل فى المسيحية . ورد مندلسون فى « (١٧٧٠) » فسلم بعبوب الديانة اليهودية والحياة اليهودية ، ولكنه ذكر أن عيوباً كهذه تنشأ فى كل ديانة فى أثناء تاريخها ، وطلب إلى لافاتر أن يفكر فى الشدائد التى عاناها اليهود فى الأقطار المسيحية ، ثم أضاف : « أن الذى يلم بما نحن عليه الآن من حال ، ان كان له قلب رحيم ، سيفهم أكثر مما فى وسعى التعبير عنه » . واختتم بهذه العبارة « اننى لو طيد الثقة بالعناصر الأساسية فى إيمانى . . . بحيث أشهد الله على اننى سأثبت على عقيدتى الأصلية ما لم تتخذ روحى طبيعة أخرى »^(٥١) وتأثر لافاتر ، واعتذر بتواضع عن توجيهه هذا النداء^(٥٢) . ولكن نفراً كبيراً من المعلقين شهروا بمندلسون متهمينه بالكفر ، وأدانه بعض اليهود السنيين لتسليمه بأن هناك نقائص تسلك إلى الشعائر اليهودية^(٥٣) . وظل الجدل حيناً يثير من النقاش أكثر مما تثيره السياسة القومية أو تدهور صحة فردريك ،

وعانت صحة مندلسون نفسه من هذه الضجة ، فاضطر طوال شهور من عام ١٧٧٢ أن يكف عن أى نشاط ذهنى . فلما استعاد عافيته كرس من وقته قدراً أكبر للتخفيف من آلام إخوانه فى الدين . وحين تهيأت بعض أقاليم سويسره لفرض مزيد من القيود على اليهود طلب إلى لافاتر أن يتدخل فى الأمر ، ففعل ، وكان موفقاً فى شفاعته . وحين وضعت سلطات درسدن خطة لطرد مئات من اليهود استعان مندلسون بصداقة تربطه بموظف محلى للحصول على الأمان لهم^(٥٤) . وبدأ فى ١٧٧٨ نشر ترجمته للأفسار الموسوية الخمسة ؛ وأصدرها فى ١٧٨٣ ، فأثارت عاصفة جديدة . ولكى يكتب بعض الشروح على النص كلف هرتس هو مبرج بالمهمة ، وكان مرتبطاً بيهود من برلين مبتوقى الصلة تماماً بالمجمع اليهودى . وحرّم الترجمة أحبار عديدون ، ولكنها شقت طريقها إلى الجاليات اليهودية ؛ وتعلم شباب

اليهود الألمانية منها ، وتحرك جيل اليهود التالى للمشاركة النشيطة فى الحياة الفكرية لألمانيا . ونشر ليسنج خلال ذلك (١٧٧٩) مسرحيته « ناثان الحكيم » ، التى فسر لها القراء على أنها تمجيد لصديقه اليهودى .

أما وقد بلغ مندلسون قمة الشهرة والنفوذ ، فإنه أقنع ماركوس هرتس بأن يترجم إلى الألمانية كتاب « الدفاع عن اليهود » الذى وجهه منسى بن اسرائيل إلى الشعب الانجليزى فى ١٦٥٦ . وأضاف إلى الترجمة مقدمة فى « خلاص اليهود » (١٧٨٢) ، ناشد فيها الأحرار أن يتخلوا عن حقهم فى الحرم . وأتبع هذا فى ١٧٨٣ بكتاب بليغ سماه « أورشليم ، أو فى السلطة الدينية والديانة اليهودية » ، أعاد فيه تأكيد إيمانه اليهودى ، وأهاب باليهود أن يخرجوا من عزلتهم وانطوائهم ويدلوا بدلوه فى الثقافة الغربية ، وحث على الفصل بين الكنيسة والدولة ، وأدان أى إكراه فى الدين ، وذهب إلى أن الحكم على الدول يكون بقدر اعتمادها على الإقناع لا القوة . وكتب كانط ، الذى كان هو الآن أيضاً فى أوج شهرته ، إلى المؤلف رسالة تستحق أن يفرد لها مكان فى سجلات الصداقة . قال :

« انى أعد هذا الكتاب بشير إصلاح عظيم لن يؤثر فى شعبك فحسب بل فى الشعوب الأخرى . فلقد وفقت فى الجمع بين دينك وبين قدر من حرية الضمير لم يتصور أحد أنه ميسور . . . ثم انك فى الوقت نفسه أثبتت فى كثير من الواضوح والدقة ضرورة حرية الضمير التى لا حدود لها فى كل دين ، بحيث أن كنيستنا (اللاوثرية) ستضطر آخر الأمر إلى النظر فى أن تزيل من وسطها كل شئ من شأنه لإفلاق الضمير أو إكراهه » (٥٥) .

وهاجم الكتاب الزعماء السنيون مسيحيين كانوا أو يهوداً ، ولكنه أسهم إلى حد هائل فى تحرير اليهود وتغريبهم .

فى عام ١٧٨٣ لم يكن مندلسون قد تجاوز الرابع والخمسين ، ولكنه كان دائماً رقيق البنية معتل الصحة ، وقد أحس أنه لم يبق له من الأجل كثير . وفى أخريات سنية ألقى على أبنائه وعلى بعض أصحابه محاضرات حدد فيها عقيدته الدينية ، وقد نشرت فى عام ١٧٨٥ باسم « ساعات الصباح أو محاضرات فى وجود الله » . وفى آخر سنة من عمره صدمه أن يقرأ فى كتاب

ألفه ياكوبي أن صديقه العزيز ليسنج ، والذي كان قد فارق الحياة ، اتبع طويلاً عقيدة سبينوزا في وحدة الوجود ، فلم يستطع أن يصدق الخبر ، وكتب دفاعاً حاراً عن ليسنج عنوانه « إلى أصدقاء ليسنج » . وفيما هو حامل المخطوط إلى الناشر أصيب بنزلة برد ؛ وأثناء مرضه ذاك أصيب بسكتة دماغية أودت بحياته في ٤ يناير ١٧٨٦ . واشترك المسيحيون مع اليهود في إقامة تمثال له في منسقط رأسه دسو .

لقد كان واحداً من أكثر الشخصيات تأثيراً في جيله . فقد خرج شباب اليهود من عزلتهم بعد أن ألهمتهم كتاباته وعبوره الناجح للفواصل الدينية ، ولم يلبثوا أن تركوا بصماتهم على الأدب والعلم والفلسفة . فذهب ماركوس هرتس إلى جامعة كوننجزبرج في طلب الطب ؛ والتحق بعدة فصول دراسية لكنايت ، وأصبح المساعد والصديق لفيلسوف المعرفة العظيم . وهو الذي توقف في منتصف قراءته « نقد العقل الخالص » مخطوفاً مخافة أن يصاب بالجنون إذا مضى في القراءة إلى النهاية . فلما نقل إلى برلين ، اشتغل بالطب وكثر زبائنه ، وألقى محاضرات في الفيزياء والفلسفة على جمهور من المسيحيين واليهود . وافتتحت زوجته الجميلة المثقفة هنرييتا صالوناً كان في نهاية القرن ملتقى هاماً لمفكرى برلين ؛ وإليه اختلف فلهم فون همبولت ، وشلاير ماخر ، وفريد ريش شليجل ، وميرابو الابن . . . ولعل اختلاط الأفكار الذي تمحضت عنه هذه اللقاءات ما كان ليسر مندلسون . فقد دخل عدد من أبنائه في المسيحية . واشترك ابنتان من بنائه مع هنرييتا هرتس وغيرها في « رابطة للفضيلة » تحترم « الانجذابات العاطفية » أكثر من الولاء الزوجي . وكان لهنرييتا علاقة غرام بشلاير ماخر ؛ وهجرت دوروتيا مندلسون زوجها لتصبح خليلية فزوجة وفيه لفريد ريش شليجل ، وأخيراً تابعة للكنيسة الكاثوليكية الرومانية ؛ كذلك أعتنقت هنرييتا مندلسون العقيدة الرومانية ، وجعل أبراهام مندلسون أبنائه ، ومنهم فيلكس ، يعمدون في الكنيسة اللوثرية ؛ وزعم الخاخامات السنيون أنهم كانوا على حق في مخاوفهم . ولكن هذه كانت نتائج عارضة للحرية الجديدة ؛ أما النواحي الأبقى على الزمن في تأثير مندلسون فقد ظهرت في تحرير اليهود فكرياً واجتماعياً وسياسياً .

٤ - نحو الحرية

وفي هذه الحقبة اتخذ التحرير من الناحية الفكرية ، شكل « المسئلة » — وهي كلمة كانت تعنى الحكمة ، ولكنها أصبحت في هذا السياق ترمز إلى التنوير اليهودي ، أو تمرد عدد متزايد من اليهود على سيطرة الأحرار والتلمود ، وتصميمهم على أن يندمجوا اندماجاً نشيطاً في تيار الفكر الحديث . وتعلم هؤلاء المتمردون الألمانية ، وتعلم بعضهم الفرنسية — لا سيما في أسر التجار أو المالين ؛ وقرأوا مؤلفات أحرار الفكر الألمان أمثال ليسنج ، وكانط ، وفيلاند ، وهردر ، وشيلر ، وجوته ؛ وكثيرون نقبوا في أعمال فولتير ، وروسو ، وديدرو ، وهلفتيوس ، ودولباخ . ووقع انقسام بين اليهود المتحررين المقبلين على الحداثة ، واليهود المحافظين الذين شعروا بأن الولاء للتلمود والمجمع هو الطريق الأوحى للحفاظ على الوحدة الدينية والعرقية والأخلاقية للشعب اليهودي .

وانتشرت حركة المسئلة من ألمانيا جنوباً إلى غاليسيا والنمسا ، وشرقاً إلى بوهيميا وبولنده وروسيا . وزاد من سرعتها في النمسا ترخيص التسامح الذي أصدره يوزف الثاني ، والذي دعا اليهود إلى دخول المدارس غير اليهودية . فلما عارض الأحرار المحافظون ، ناشدهم شاعر يهودي هامبورجي يدعى نفتالي فيسيلي ، في بيان يهودي بليغ ، أن يباركوا اشتراك اليهود في التعليم العلماني ؛ وحث الجيل الصاعد على أن يحلوا العبرية والألمانية محل البيديّة ، وأن يدرسوا العلوم والفلسفة كما يدرسون التوراة والتلمود . وقد رفض أحرار النمسا آراءه ؛ ولكن قبلها زعماء اليهود في تريسته والبندقية وفرارا وبراغ . ومنذ ذلك الحين إلى وقتنا هذا أسهم اليهود في العلم والفلسفة والأدب والموسيقى والقانون بقدر يفرق كثيراً نسبتهم إلى عدد السكان .

وأعانت التطورات الفكرية والاقتصادية على تحرير اليهود . فنشر الدارسون الكاثوليك من أمثال رتشرد سيمون المعارف الربانية بين طلاب الكتاب المقدس ؛ وألف لاهوتي بروتستنتي يدعى جاك باناج كتاباً مشرباً بروح الود يسمى « تاريخ ديانة اليهود » (١٧٠٧) . وجمع نمو التجارة

والمالية بين المسيحيين واليهود في اتصالات أججت أحياناً نار الخصومة العرقية ، ولكنها كثيراً ما خففت منها . ولعب المالليون اليهود في عدة حكومات أدواراً تجلت فيها روح العون والوطنية .

وارتفعت الآن أصوات مسيحية تقترح إنهاء الاضطهاد الديني ، ففي ١٧٨١ نشر كرسطيان فاهلم دوم ، وكان صديقاً لمندلسون ، بناء على اقتراحه نبذة خطيرة الأثر سماها « في تحسين الأحوال المدنية لليهود في ألمانيا » . وكانت المناسبة نداء وجهه يهود الالزاس إلى مندلسون يطلبون إليه كتابة احتجاج على القيود المفروضة عليهم . واضطلع دوم بالمهمة ، ووسعها إلى نداء عام لتحرير اليهود . . ووصف في تفصيل مؤثر ، المعوقات التي يعاينها اليهود في أوروبا ، وأشار إلى فداحة الخسارة التي خسرتها الحضارة الغربية لأنها لم تفد فائدة تذكر من مواهب اليهود العقلية — « ان مبادئ التفرقة هذه ، المنافية للإنسانية والسياسية على حد سواء ، تحمل طابع العصور المظلمة ، وهي غير جديرة بثنوير عصرنا هذا » ^(٥٦) واقترح دوم السماح لليهود بحرية العبادة الكاملة وبالالتحاق بمعاهد التعليم ، وبممارسة جميع المهن والحرف ، وبإعطائهم جميع الحقوق المدنية ، ويستثنى منها مؤقتاً اختيارهم للمناصب وهو ما لم يكونوا بعد مهيين له .

وأثارت الرسالة التعليق في أقطار كثيرة ، فاتهمه بعض خصومه بأنه باع قلمه لليهود ، ولكن العديد من رجال الدين البروتستانت سارعوا إلى الدفاع عنه . وأيده المؤرخ السويسري يوهان فون مولر ، وطلب ترجمة أعمال موسى بن ميمون إلى الألمانية أو الفرنسية . واكتسبت حركة التحرير دفعاً من براءة التسامح الصادرة في ١٧٨٢ بالنمسا ومن تحرير اليهود السياسي في الولايات المتحدة (١٧٨٣) . واستجابت الحكومة الفرنسية استجابة هزيلة برفع الضرائب الشخصية (١٧٨٤) التي أثقلت كواهل اليهود . واشترك المركيز ميرابو مع ماليرب في تحقيق هذا التخفيف ، وساعد الحركة ابنه الكونت ميرابو بمقاله « عن مندلسون والإصلاح السياسي لليهود »

(١٧٨٧) ودفع الأب هنرى جريجوار الحركة بكتابته مقالا نال جائزة في مسابقة عن «الأحياء المادى والخلقى والسياسى لليهود» (١٧٨٩) .

على أن التحرير السياسى النهائى لم يأت إلا مع الثورة . فقد احتواه ضمنا إعلان حقوق الإنسان الذى أذاعته الجمعية الوطنية (٢٧ أغسطس ١٧٨٩) ، وفى ٢٧ سبتمبر ١٧٩١ وافقت الجمعية التأسيسية على إعطاء كامل الحقوق المدنية لليهود فرنسا . وجاءت جيوش الثورة أو جيوش نابليون بالحرية لليهود هولنده فى ١٧٩٦ . ولليهود البندقية فى ١٧٩٧ ، وما بنز فى ١٧٩٨ ، وروما فى ١٨١٠ ، وفرانكفورت فى ١٨١١ . وهكذا اختتمت حقبة العصور الوسطى بالنسبة لليهود .



الفصل السادس والعشرون

من جنيف إلى استوكهولم

١ - السويسريون : ١٧٥٤ - ١٧٩٨

ان الذين امتنعوا منا بالهدوء وسط جنة الطبيعة في سويسرة ، وبالإنهام من شجاعة شعبها وأمانته ، يشق عليهم أن يدركوا أن من تحت الخلق الهادى ، والفلاحة الصابرة ، والصناعة المستقرة التى أعجبت بها أوروبا يومها وتعجب بها الآن ، كانت تكن الصراعات الطبقة - صراعات بين الجنس والجنس . وبين اللغة واللغة ، وبين العقيدة والعقيدة ، وبين الأقليم والأقليم ، وبين الطبقة والطبقة . وكان السويسريون فى نطاقهم المتواضع قد اقتربوا جداً من تحقيق ذلك المثل الأعلى الذى صورہ الأب سان - بيير وحلم به روسو وكانط : وهو الاتحاد الكونفدرالى يعقد بين دويلات مستقلة فى شئونها الداخلية ، ملتزمة بالعدل الموحد فى علاقاتها بالعالم المحيط بها . فى ١٧٦٠ تكون الاتحاد الهلفيتى لدعم الولاء الأمة أكثر من الأقليم . ولتوحيد الحركات المبعثرة للإصلاح السياسى .

وقد قدر فولتير - الذى كان يعيش عن كئيب - سكان سويسرا فى ١٧٦٧ بـ ٧٢٠,٠٠٠ نسمة (١) . وكان أكثرهم يفلح الأرض أو يزرع الكروم ، ويسطب المنحدرات إلى ما يقرب من قمم الجبال . وكانت صناعة النسيج فى نمو مطرد لاسيما فى اقليم سانت جان وكانتون زيوريخ ؛ وكانت مراكز صناعية أخرى بسبيلها إلى التشكل فى جلاروس ، و برن . وبازل ؛ أما جنيف ونويشاتل فكانتا المركزين العظيمين لصناعة الساعات . وأنشأ الوكلاء المنتشرون فى أرجاء أوروبا من لندن إلى الآستانة (التى كان بها ثمانية وثمانون

منهم) لجنيف تجارة صادر حتمت الثراء السريع للمدينة الواقعة على الرون . وكثرت المصارف لأن الماليين السويسريين كانوا قد اكتسبوا سمعة دولية بالأمانة .

وكانت أغلب الكفاءات ، كما هي الحال في كل بلد ، مركزة في أقلية من الرجال ، فأدى هذا إلى تركيز الثروة . وكانت الكانتونات بصفة عامة تحكمها أولجركيات تسلك مسلك أى طبقة حاكمة . فالإشراف رعاة أغنياء للأدب والعلوم والفنون ولكنهم يقاومون كل خطوة للتوسع في حق الانتخاب . وقد اتهم جبون ، الذى كان يسكن لوزان ، أولجركية برن بأنها تثبط الصناعة في الأقاليم التابعة لها ، وتبقى على هبوط مستوى المعيشة فيها عملاً بالمبدأ القائل « ان الرعايا الفقراء المطيعين خير من الأغنياء المتمردين » (٢) . وقد نظمت جماعات لإلغاء الامتيازات الاقتصادية أو السياسية غير مرة ، ولكنها صدت بقوة الدولة والكنيسة المتحالفتين (٣) . واضطربت أحوال جنيف آنأ بعد آن نتيجة حرب الطبقات طوال القرن الثامن عشر . وساد فيها سلام نسبي من ١٧٣٧ إلى ١٧٦٢ ، ولكن احراق المجلس البلدى لكتاب إميل (١٧٦٢) فجّر الدعوة لتوسيع حق التصويت . وعضد الحركة روسو وفولتير ، بعد جدل كثير نزلت طبقة الإشراف للطبقات الوسطى عن قسط صغير في الحكم .

وفد خلف هذا ثلاثة أرباع السكان مجردين تماماً من حق التصويت — الوطنيون (أو الأهالي) وهم الأشخاص المولدون في جنيف ولكن الأبوين من غير الوطنيين . وهؤلاء حرّموا أيضاً من معظم المهن ، ومن المناصب الحربية . ومن الارتقاء معلمين في النقابات الحرفية ؛ وقد منعوا من توجيه الملتحقات إلى المجالس الأكبر والمجلس الأصغر اللذين يحكان الجمهورية . غير أنهم أنقلوا بالضرائب . وفي ٤ أبريل ١٧٦٦ ذهب وفد من « الوطنيين » إلى فرنيه وطلبوا إلى فولتير أن يساعدهم في نيل حق التصويت . فقال لهم : « يا أصدقائي ، انكم تؤلفون أكثر الطبقات عدداً في مجتمع مستقر كادح ، وأنتم ترسفون في العبودية ولا تطلبون إلا أن تتمتعوا بميزاتكم الطبيعية ، أى أن تمنحوا هذا الطلب المتواضع لا أكثر . وسأعينكم بكل ما أملك من نفوذ . . .

فلماذا أكرهتم على الرحيل عن وطن يثرى على حساب كدكم ، فستستطيع تقديم العون لكم وحمايتكم في مكان آخر» (٤) .

ولكن الطبقتين الارستقراطية والبورجوازية اتحدتا في مقاومة نداء « الوطنيين » ، وكل ما استطاعه فولتير هو أن يرحب في مستعمرته الصناعية بكل من وفد عليه من الصناع الساخطين (١٧٦٨) . وفي ١٧٨٢ هب الوطنيين في ثورة أطاحت بطبقة الإشراف وأقامت حكومة نيابية . ولكن النبلاء استنجدوا بفرنسا وبرن وسردينيا ، فتدخلت هذه الدول ، وأحمد التردد ، وردت الأورجكية إلى الحكم . وكان على الوطنيين أن ينتظروا مجيء الثورة الفرنسية لتأتيهم بالحرية .

وأنجبت الكانتونات في ثلث القرن الذي نحن بصددده بعض الشخصيات ذات الشهرة الدولية . فكان يوهان هاينريش بستالوتسي أحد الأفراد النادرين الذين يتخذون العهد الجديد مرشداً للسلوك . وقد اتفق مع روسو على أن المدنية أفسدت الإنسان ، ولكنه أحس أن الإصلاح يمكن أن يأتي لاعن طريق القوانين والنظم الجديدة ، ولكن بإعادة تكوين السلوك الإنساني بالتربية . ومن ثم كان طوال حياته يرحب بالأطفال لاسيما الفقراء منهم ، وخصوصاً المشردين ، يؤويهم ويعلمهم ، ويطبق في تعليمهم المبادئ التحريرية التي احتواها كتاب روسو « إميل » ، مع أفكار من عنده . وقد بسط آراءه في كتاب كان أكثر الكتب انتشاراً بين قراء ذلك الجيل . فالبطلة في كتابه « ليونهارد وجرتروود » (١٧٨١ - ٨٥) تصلح قرية بأسرها بمحاولة معاملة الناس كما لو كان المسيح يعاملهم . وتعليم أطفالها في مراعاة صابرة لغرائهم واستعداداتهم الفطرية . ومن رأى بستالوتسي أن يعطى الأطفال من الحرية القدر الذي تسمح به حقوق الآخرين . فينبغي أن يبدأ التعليم المبكر بالقدوة ، وأن يعلم الطفل بالأمور والخوارق ، والخبرة ، لا بالكلمات أو الأفكار أو الصم . وقد مارس بستالوتسي طرائقه في مدارس سويسرية شتى ، ولاسيما في ايفردون . وهناك زاره تاليران ، ومدام دستان ، وغيرهما ، ومنها انتشرت نظرياته في طول أوروبا وعرضها . على أن جوته شكك أن

مدارس بستانلوتسى تكون أشخاصاً فرديى النزعة . وقحاء . مغرورين ،
متمردين (٥) .

وهناك انجليكا كاوفمان ، المولودة فى كانتون جريزون . والتى نافست
مدام فيعجيه لبرون بوصفها أشهر فنانة فى جيلهما . فكانت تجيد الرسم ،
فضلا عن إتقانها العزف ، حتى وهى فى الثانية عشرة . لإجادة حملت
الأساقفة والنبلاء على أن يجلسوا إليها لتصبرهم . وفى الثالثة عشرة (١٧٥٤)
اصطحبها أبوها إلى إيطاليا حيث واصلت دراساتها . واحتفى بها القوم أينما
ذهبت تقديرآ لمهاراتها وإعجاباً بسحر شخصيتها . وحين دعيت إلى انجلترا
عام ١٧٦٦ أثارت ضجة بتصويرها جاريك . وأغرم السير جوشوا رينولدز
جداً بـ « الآنسة اينجل » ، وصورها ، فصورته بدورها . وقد شاركت
فى إنشاء الأكاديمية الملكية للفنون . التى كلفتها هى وغيرها فى ١٧٧٣
بزيين كتدراية القديس بولس . وفى ١٧٨١ قفلت إلى روما . حيث
(١٧٨٨) سلكت جوته فى عداد أصدقائها الأوفياء . وماتت هناك فى
١٨٠٧ ، وكان مأتمها الذى نظمه كانوفا حدثاً من أحداث العصر ، وشيئها
يجتمع الفنانين بأكمله إلى مشاها الأخير .

أما أبرز شخصيات الجيل السويسرية بعد روسو فهو يوهان كاسبار
لافاتر . ولد فى زيورخ فى ١٧٤١ ، وأصبح راعياً بروتستنتياً ، واحتفظ
طوال حياته بأحر الولاء للمسيحية التتلميدية . وقد رأينا محاولاته لهداية جوته
ومندلسون . ولكنه لم يكن دجماطيقيا . فقد احتفظ بصداقاته غير الحدود
الدينية والقومية . واحترمه كل من عرفه ، وأحبه الكثيرون (٦) . وقد
ألف كتباً فيها ورع صوفى . وشرح سفر الرؤيا شرحاً مغرباً فى الخيال ،
وآمن بالقوى المعجزية للصلاة ولكالايوسترو . وأعطى زوجته علاجات
« تنويمية » عملا بإرشادات مزير . وكان أخص دعاواه أن خلق الإنسان
يمكن الحكم عليه من ملامح وجهه ومحيط دماغه . فأثار اهتمام جوته وهردر
بآرائه . وقد أسهما بمقالات لكتابته « شذرات فى القراسة » (١٧٧٥ - ٧٨)
وقد درس نظرات الأفراد البارزين . وأدمغتهم . وأشكاظهم . وربط
بين ملامح الجمجمة والوجه وصفات نوعية للعقل والخلق . وقد قبلت

تحليلاته واستنتاجاته على نطاق واسع ، ولكنها الآن مرفوضة بوجه عام .
على أن المبدأ العام الذى نادى به ، وهو أن الصفات السيكولوجية تشارك
(مع الهواء والبيئة والغذاء والمهنة الخ ..) فى تشكيل الجسم والوجه ، مازال
يحتوى قدرأ كبيرأ من الحقيقة ، فكل وجه إنما هو ترجمة ذاتية .

وكان لافاتر جزءأ من حركة إزهار شملت روسو . والشاعر والعالم ألبرشت
فون هالر ، والشاعر والمصور سلومون جيسر ، والمؤرخ يوهان فون مولر .
وهوراس دوسويسر ، الذى بدأ رياضة تسلق الجبال بارتقائه جبل مون بلان
فى ١٧٨٧ بعد محاولات اتصلت سبعة وعشرين عاماً . وأحست الكانتونات
خلال ذلك برياح الثورة تهب عليها عبر الحدود من فرنسا . وفى ١٧٩٧
انضم فردريك سيزار ولا هارب ، الذى كان معلماً خاصأ لحفيدى كاترين
الكبرى ، إلى بيتر أوخس عضو نقابة التجار فى بازل ، فى دعوة حكومة
الثورة الفرنسية لتساعد هما على إنشاء جمهورية ديمقراطية فى سويسرة .
وقد مهدت الطريق لهذه الخطوة ثورات محلية فى برن وفو (يناير ١٧٩٨) ؛
فعب جيش فرنسى الحدود فى ٢٨ يناير ، ورحب به أكثر السكان السويسريين
محرراً لهم من الأوجركية . وفى ١٩ مارس أعلنت « جمهورية هلفيسية واحدة
لانتقاسم لها » . فأطاحت بكل امتيازات الكانتونات والطبقات والأشخاص ،
وجعلت سويسره كلها سواء أمام القانون . وكانت زيورخ أطول الأقاليم
مقاومة ، وفى الهياج الشديد الذى تلا ذلك أصيب بطلق نارى الشيخ الأمين
لافاتر (١٧٩٩) . فمات فى ١٨٠١ متأثراً بجرحه نائراً بطيئاً .

٢ - الهولنديون : ١٧١٥ - ١٧٩٥

اعجب الناس جميعاً بالهولنديين . وقد وصف المسرحى الدنمركى
هولبرج ، الذى زار الأقاليم المتحدة (هولندا) و « بلجيكا » فى ١٧٠٤ .
هذه البلاد وصفاً تحمس فيه على الأخص لقنواها التى كانت زوارقها كما
قال « تنقلنى من مكان لآخر » فى هدوء عذب و « تمكننى من إنفاق كل لياة
فى مدينة كبيرة . حتى أننى كنت أستطيع فى الأمسية ذاتها أن أذهب إلى

الأوبرا أو المسرح عقب وصولي رأساً»^(٧). وقد أعربت عن مثل هذا السرور الليدى مازى ورتلى مونتيديو بعد اثني عشر عاماً فقالت :

« ان هذا البلد كله (هولنده) يبدو وكأنه حديقة فسيحة الأرجاء : فالطرق كلها حسنة الرصف ، تظللها على الجانبين صفوف الأشجار ، وتحفها قنوات واسعة غاصة بالزوارق الغادية الرائحة . . . وكل الشوارع (في روتردام) . . . معتنى بنظافتها جداً . . . حتى أنني جلست بأرجاء المدينة كلها تقريباً أمس ، متنكرة ، في خفي دون أن تنالني لوثة قدر واحدة ، وترى الخادومات الهولنديات يغسلن الطوار . . . بعناية تفوق عناية خادماننا بغسل غرف نومنا . ومراكب التجار تصل (على القنوات) حتى أبواب البيوت . والدكاكين والمتاجر نظيفة بهية إلى حد مدهش ، غاصة بمقادير هائلة من السلع الجميلة »^(٨) .

على أن هذه التقارير الوردية وصفت هولنده قبل أن تحس بالآثار الاقتصادية لانتصارها على لويس الرابع عشر في حرب الوراثة الأسبانية . ففيها أراقت دمها ومالها إلى ما يقرب الانهك ؛ فتضخم دينها العام ، وفقدت كثيراً من تجارة النقل التي ذهبت إلى حلفائها العسكريين الذين كانوا رغم تحالفهم العسكري معها منافسين لها في التجارة — وإلى ألمانيا . وهبطت أرباح شركة الهند الشرقية من أربعين في المائة في ١٧١٥ إلى اثني عشر ونصف في المائة في ١٧٣٧ ، وأرباح شركة الهند الغربية الهولندية من خمسة في المائة في ١٧٠٠ إلى اثنين في المائة في ١٧٤٠^(٩) . وجرت حرب السنين السبع مزبداً من الأذى . ذلك أن مصرفي أمستردام أثروا بفضل القروض المرتفعة الفائدة التي أقرضوها للدول المتحاربة ، ولكن صلح ١٧٦٣ أنهى هذه النعمة الكبرى ، فأفلس كثير من المصارف الهولندية ، وتضرر نتيجة لذلك كل مشروع تجاري كبير . كتب بوزويل الذي كان في هولنده في ١٧٦٣ يقول « ان الكثير من كبريات المدن تضعضعت إلى حد محزن . . . وأنت تلتقي بمجموع من القراء الذين يتضورون جوعاً وهم عاطلون »^(١٠) . وزيدت الضرائب فأفضى ذلك إلى هجرة رأس المال والعناصر البشرية الصلبة ؛

وفي هذه الفترة امتزجت دماء المستعمرين الهولنديين والألمان في جنوب أفريقيا وانبعث البوير ببطء نتيجة الامتزاج .

وجاء الانتعاش بفضل خلق الهولنديين وجددهم وأمانتهم . فقد عكف شعب هادىء قوى مدبر على فلاحه أرضه ، وتشجيع طواحين هوائه ، ورعى أبقاره ، وتنظيف معامل ألبانه ، وإنتاج ألوان لذيذة من الجبن الشهى الكريه الرائحة ؛ وكانت هولنده سباقه بين دول أوربا في مضمار الزراعة العلمية (١١) . واستهادت دلفت سوق البرسلان الذى فقدته . واسترد مصرفيو أمستردام الهولنديون واليهود ما اشتهروا به من جدارة بالثقة وقدرة على التصرف ؛ فأقرضوا المال بقليل من الفائدة والمخاطرة ، وحصلوا على عقود رابحة بدفع رواتب الجند وتمويلهم ؛ ولجأت الحكومات ورجال الأعمال إلى أمستردام طلباً للقروض ، وندر أن ردوا نارغين ؛ وطوال ذلك القرن المضطرب كله تقريباً كانت بورصة أمستردام المركز المالى للعالم الغربى . كتب آدم سميث حوالى عام ١٧٧٥ يقول : « إن إقلم هولنده ... بالنسبة إلى مساحة أرضه وعدد سكانه ، بلد أغنى من إنجلترا » (١٢) .

وأكثر ما راع فولتير فى ١٧٢٥ (١٣) كان تعايش مختلف الأديان تعايشاً لم يكدر صفوه مكدر . فهنا كان كاثوليك سنيون وكاثولوليك جانسنيون (ألم يكن جانسن نفسه هولندياً ؟) ، وبروتستنت أرمنيون من القائلين بحرية الإرادة ، وبروتستنت كلفنيون من القائلين بالقضاء والقدر ، ومعمدانيون من القائلين بتجديد العباد ، وسوسينيون ، وإخوان مورافيون ويهود ، ثم حفنة من أحرار الفكر يصطلون فى دفع التنوير الفرنسى (١٤) . وكان أكثر القضاة من البروتستنت ، ولكنهم « كانوا يأخذون النقود بانتظام من الكاثوليك » كما يقول مؤرخ هولندى « للأعضاء عن ممارستهم شعائر دينهم والسماح لهم بشغل مناصبهم » (١٥) . وكان الكاثوليك الآن ثلث السكان الذين بلغ عددهم ثلاثة ملايين . أما الطبقات العليا ، الملمة بأديان كثيرة بفضل اشتغالها بالتجارة ، فقد تشككت فى هذه الأديان كلها ، ولم تسمح لها بالتدخل فى القمار ، والشراب ، والشره فى الطعام ، وشيء من الفسق المنتشر على الطريقة الفرنسية (١٦) .

وكانت الفرنسية لغة المثقفين . وكثرت المدارس ، واشتهرت جامعة
ليدن بدراساتها في الطب التي أُنحيت ذكر بويرهافى العظيم . وكان في كل
المدين جمعيات للفنون ، ومكتبات ، و « قاعات للخطابة » تعقد مباريات
دورية في الشعر . وكان تجار التحف الهولنديون يتمتعون بشهرة أوروبية
بكنوزهم وتزييفاتهم^(١٧) . وكان عصر الفن الهولندي الذهبي قد ولى بموت
هوبيا (١٧٠٩) . ولكن كورنيلس تروست كان على الأقل صدق يردد
عظمته . وربما كان أروع نتاج الفن الهولندي في هذا العصر هو الزواج
الرقيق المنقط أو المخفور بأبر من الماس^(١٨) . وكانت أمستردام عشاً
للناشرين ، بعضهم شرفاء وبعضهم قراصنة . وهبط النشاط الخلاق في
الأدب إلى مستوى منحط النصف الأول من القرن الثامن عشر ، ولكن حوالى
١٧٨٠ غذت حركة إحياء للأدب شاعراً مطبوعاً هو فليم بلردريك .

ويروى بوزويل أن صديقاً له أخبره أنه سيجد الهولنديين « سعداء في
غباثهم »^(١٩) ؛ ولكن بوزويل كتب من أوترخت يقول « اننا نعقد اجتماعات
متألقة مرتين في الأسبوع ، وحفلات خاصة كل مساء تقريباً . .
وفي زمرتنا سيدات جميلات محبوبات هن من الكثرة بحيث لا تستطيع
الصحائف الكثيرة أن توفيهن حقهن من الثناء »^(٢٠) وأروع الصفحات في
مذكرات بوزويل السريعة الموجزة عن هولنده تلك التي تصف غرامه
المتردد بزيليده أو « حسناء زويلين » — وهى ايزابيلا فان تويل . وكانت
تنتمى إلى أسرة عريقة مرموقة ؛ فأبوها « سيد زويلين وفستبروك » كان
أحد حكام إقليم أوترخت . وقد تلقت من التعليم فوق ما يتحتمل ، فباتت
تجهر بهرطقتها في فخر ، وهزأت بالتقاليد ، والأخلاق ، والدين ، ومراتب
الشرف . ولكنها فتنن الناس جميعاً بحسبها ومرحها وصراحته المثيرة .
وقد أحجمت عن الزواج المذهب الوفي ، وكتبت تقول « لئلا يكون لى أب
ولا أم لما تزوجت . . ولا غتبطت كل الاغتباط بزواج يتخذنى كخليته ؛
ولقلت له « لا تنظر إلى الوفاء على أنه واجب . فما ينبغي أن يكون لك غير
حقوق العاشق وغيرته »^(٢١) . فأجاب بوزويل أشد الفاسقين إلحاحاً في
أوروبا « يا للعار يا زيليدتى ، أى أوهام هذه » ولكنها أصرت على موقفها « إنى

لأثر أن أكون غسالة لحبيبي ، وأن أسكن عليّة ، على حرية أسرنا الكبيرة
الجرداء وآداب سلوكها المهذب» (٢٢) .

وجازت زليدة سلسلة من العلاقات الغرامية التي خلفتها وحيدة مشحنة
بجحاح لاتبرحها . وراحت تهدي أعصابها بالأفيون وهي بعد في الرابعة
والعشرين . وحين بلغت الثلاثين (١٧٧١) تزوجت سان — هياسنت دشارير ،
وهو معلم خاص سويسري ، وذهبت لتعيش معه قرب لوزان . فلما وجدت قاصراً
من الناحية الفكرية . وقعت في أربعيناتها في حب رجل يصغرها بعشر سنين ،
فقضى طوره منها ثم هجرها . والتمست التنفيس في كتابة قصة اسمها « كاليس »
(١٧٨٥ — ٨٨) . طرب لها سانت — بييف أي طرب . وحين بلغت السابعة
والأربعين . التقت في باريس ببنجامن كونستان . وكان فتي في العشرين ،
فأغوته بفكرها (١٧٨٧) وكتب يقول « إن للمدام شارير أسلوباً غاية في
الأصالة والحيوية في النظر إلى الحياة ، واحتقاراً عميقاً جداً للتعصب ، وفكراً
بالغ القوة . وتفوقاً على أوساط الناس عارماً محققاً . . . حتى أنني على
غربة أطوارى وتكبرى مثلها . . . وجدت في حديثها لذة لا عهد لي بها قط . .
وقد انتشيننا باحتقارنا للنوع الإنساني» (٢٣) . وسار الحال على هذا المنوال حتى
عام ١٧٩٤ حين وجد بنجامن نشوة جديدة مع مدام دستال . وأعتكفت
زليدة في عزلة مرة ، وماتت في الخامسة والستين ، بعد أن خلقت نواء
الحياة الدنيا واستنفدته .

ولو شئت لوجدت غذاء للتشاؤم في التاريخ السياسي للأقاليم المتحدة
في القرن الثامن عشر . ذلك أن حكم البلاد بعد موت وليم الثالث (١٧٠٢)
احتكرته أوجركية من كبار رجال الأعمال انصرفوا إلى فرض الضرائب
على الشعب ومحاربة الأقرباء والذس والتأمر . كتب كاتب هولندي في
١٧٣٧ يشكو هذه الحال فقال « ان المواطنين ممنوعون من المشاركة في
الحكومة . . . ولا يطلب منهم نصيحة ولا رأى في إدارة شئون الدولة » (٢٤) .
وقد تكشف العجز الحربي لهذا النظام حين دخلت هولنده حرب الوراثة
المتساوية (١٧٤٣) فغزاها جيش فرنسي ولم يلق مقاومة تذكر ، وسلمت

مدن كثيرة دون جدال . كتب المرشال دنواى يقول « علينا أن نتعامل مع شعب غاية في اللطف والكرم » (٢٥) على أنهم لم يكونوا كلهم كذلك ، فقد ارتفعت أصوات معظم المواطنين مطالبة بزعيم حربى ينقذ البلاد على نحو ما فعل ولیم الثالث فى ١٦٧٢ ، ونصب سليله غير المباشر ، ولیم الرابع أمير أورانج ، حاكماً للأقاليم السبعة ، وقائداً للجيش ، وأميراً للبحرية (٣ مايو ١٧٤٧) ؛ وفى أكتوبر جعلت هذه المناصب وراثية فى أسرته ، ومعنى ذلك أن الملكية أعيدت فى واقع الأمر ، غير أن ولیم الرابع كان فيه من التمسك بالخلق المسيحى مالا يجعله قائداً حربياً صالحاً ؛ فلم يستطع أن يعيد النظام إلى الجيوش ، وتوالت الهزائم يقفوا بعضها بعضاً ، وفى معاهدة إكس - لا - شابل (١٧٤٨) كانت هولنده محظوظة لاحتفاظها بأراضيها سليمة ، ولكنها عادت خربة من الناحية الاقتصادية ومات ولیم بالحمرة وهو فى الأربعين (١٧٥١) ، وقامت أرملته الأميرة آن - بالوصاية على العرش إلى أن ماتت (١٧٥٩) ، ثم حكم لودفيج إرنست أمير برنزيك - فولفنبوتل البلاد حكماً صارماً كفناً حتى بلغ ولیم الخامس سن الرشد (١٧٦٦) .

وفى الحرب الدائرة بين انجلترا والمستعمرات الأمريكية احتجت هولنده على عدوان البريطانيين على السفن الهولندية ، وانضمت إلى روسيا فى « الحياد المسلح » المبرم فى ١٧٨٠ ؛ وأعلنت انجلترا عليها الحرب ، واستولت على جميع السفن الهولندية تقريباً ، وفى معاهدة باريس (١٧٨٣) (١٨٧٣) كادت مصالح هولنده أن تغفل ، فنزلت عن نجاتام (فى جنوبى الهند) لانجلترا ، وسمحت للانجليز بحرية الملاحة فى جزر الملقا . وهكذا لم تعد هولنده تلعب دوراً بين الدول .

ودمرت هذه الخطوب شعبية ولیم الخامس . ثم ان نجاح الثورة فى أمريكا حفز الأفكار الديمقراطية فى الأراضى الواطئة ، وأفضى إلى قيام حزب « الوطنيين » المناهض للأسرة الحاكمة . وكانت القلة صاحبة المال تمتص ثروة الأمة المتناقصة خلال كل تغيير فى الحكومة امتصاصاً الجأ رجلاً كثيراً إلى التسول ونساء كثيرات إلى البغاء فى المدن التى كانت يوماً ما

مزدهرة يسودها النظام. وفي ١٧٨٣. تكونت سرّاجاعات من « الرماة الأحرار » في أمستردام ولاهاي للاعداد للثورة . وفي ١٧٨٧ استولى « الوطنيون » على السلطة ، ولكن ولیم الخامس أعيد إلى عرشه بفضل تدخل بروسيا المسلح . ثم نفخت الثورة الفرنسية الحماة من جديد في أفئدة الوطنيين ، فدعوا فرنسا لتخف لنجدتهم . وعليه في ١٧٩٤ غزت الجيوش الفرنسية هولنده ، وبطشت بالجيش الهولندي ، وفر ولیم الخامس إلى انجلترا ، وانضم أنصار الثورة الهولنديون إلى الفرنسيين في تنظيم الجمهورية البتافية (١٧٩٥-١٨٠٦) . وفي ١٨١٥ أعاد ابن ولیم الخامس بيت أورنج - نيساو إلى السلطة باسم الملك ولیم الأول ، وأسلافه يتربعون على عرش هولنده اليوم (١٩٦٧) .

٣ - الدنمركيون : ١٧١٥ - ١٧٩٧

بلغ عدد سكان الدنمرك حسب أول تعداد رسمي للبلاد (١٧٦٩) ٨٢٥,٠٠٠ نسمة ، يضاف إليهم ٧٢٧,٦٠٠ في الترويج التي ظلت خاضعة للملوك الدنمركيين حتى ١٨١٤ . وكان كل الفلاحين تقريباً في الترويج يملكون أراضيهم ، وفيهم كبرياء ككبرياء الفينكنج . أما الدنمرك فكان نصف فلاحياً أقناناً ، والنصف الآخر خاضعين للرسوم الإقطاعية . وجهد الملوك لكبح جماح هذا الإقطاع ، ولكنهم كانوا معتمدين مالياً على الإشراف ، واستمرت القنية حتى ١٧٨٧ . في هذا النظام لم تلق التجارة ولا الصناعة تشجيعاً يذكر ، ولم تنم طبقة وسطى ذات شأن ؛ وأفاد فتح قناة كيل (١٧٨٣) الإنجليز والهولنديين أكثر مما أفاد الدنمركيين . وفي ١٧٩٢ كانت الدنمرك أول دولة أوروبية تلغى النخاسة في ممتلكاتها .

وكما سيطر النبلاء على الدولة كذلك سيطرت الكنيسة على المناهب والطباعة ، وأملت أن تسيطر على العقول أيضاً . فحرمت الرقابة الصارمة التي امتدت من ١٥٣٧ إلى ١٨٤٩ كل ما يطبع أو يقال بما لا يتفق والتعاليم اللوثرية القويمة ؛ وصور الكثير من الكتب غير اللاهوتية ، كقصبة جريمة « آلام فرتر » لأنها خطر يهدد الأخلاق العامة . وزاد من القيود المعطلة لنمو الأدب استعمال الألمانية في البلاط ، واللاتينية في الجامعات ، والفرنسية في الآداب

البحثية -- التي لم يكنك بوجود منها شيء . وكان تدشين الأدب الدنمركى بالتأليف باللغة القومية . وإدخال بصيص من التنوير إلى الدنمرك . من مآثر ألمع دنمركى فى القرن الثامن عشر .

وتستطيع كل من الزويج والدنمرك أن ننسب إليها لودفج فون هولبرج ، لأنه ولد فى برجن (٣ ديسمبر ١٦٨٤) . وبعد أن تلقى العلم فى المدرسة اللاتينية المحلية . عبر الماء ليلتحق بجامعة كوبنهاجن . ولكن سرعان ما نصب ماله : فتمنل إلى الزويج واشتغل مدرساً خصوصياً فى أسرة قسيس ريفى ، فلما أن ادخر ستين طالرا انطلق ليرى الدنيا من حوله . فزراه فى ١٧٠٤ فى هولنده ، وفى ١٧٠٦ -- ١٧٠٨ كان يعلم نفسه فى مكتبات أكسفورد . فلما عاد إلى كوبنهاجن ألقى محاضرات لم تأتبه بأكثر كثيراً من تعليم الذات ، وعاش أثناء ذلك على التدريس الخصوصى ، واغتذى بالطموح . وفى ١٧١٤ عينته الجامعة أستاذاً دون راتب . غير أن منحة خاصة أتاحت له الجلوس عامين فى ربوع إيطاليا وفرنسا . على قدميه أكثر الوقت . فلما آب من أروع رحلة بين الرحلات الرائعة كلها ، عين أستاذاً للميتافيزيقا ، وهى مادة أبغضها ، ثم للاتينية والبيان ، وأخيراً (١٧٣٠) للتاريخ والجغرافيا اللذين أحبهما .

ولقد خلق الأدب الدنمركى فى لحظات فراغه . فحتى زمنه لم يكن فى الدنمركية شيء سوى الأغاني الشعبية والفارصات والترانيم والكتب العميدية الشعبية . وألف هولبرج مكتبة صغيرة من القصائد والهجاءات والقصص والأنحاث بالدنمركية فى السياسة والقانون والتاريخ والعلوم والفلسفة . ولم ينافس غير فولتير فى تعدد جواربه . وقد استعمل الهزل كما استعمله فولتير ليسوط به الأساتذة المزهوين من عباد الدراسات الكلاسيكية ، والمحامين الذين يقيدون حركة العدالة بأغلال الدقائق التقنية ، ورجال الدين المتراحمين بالمناكب على المال والمنصب ، والأطباء الذين ييسرون دخول المرضى إلى الأبدية . وتناول كل أعمدة المجتمع هؤلاء تقريباً بالتشهير فى أول آثاره الأدبية الكبرى ، وهو ملحمة ساخرة سماها بيدربارس (١٧١٩) . وأوجع بعض كبار الدنمركيين ونخر هذا الهجاء ، فناشدوا الملك فردريك الرابع

أن يصادر الكتاب باعتباره ضاراً بالأخلاق مستهزئاً بالقساوسة ؛ وقرئ على الملك أول قسم في الملحمة كطلبه ، فحكم بأنها « عمل برىء مسل » ، غير أن المجلس الملكي أحاط هولبرج بأنه كان خيراً لو أن القصيدة لم تكتب قط (٢٦) .

وعلى ذلك انصرف إلى المسرح . ففي ١٧٢٠ افتتح مثل فرنسى اسمه إتيين كايون في كوبنهاجن أول مسرح ديمقى . فلما افتقد المسرحيات الديمقراطية الجديدة بالإخراج استورد الدرامات من فرنسا وألمانيا . غير أنه استشف من « بيدر بارس » أن هولبرج يملك المواد والموهبة اللازمة للكوميديا ، فلجأ إليه ليمد المسرح الجديد بتمثيلات باللغة العامية ، ولم ينقض عام حتى كان هولبرج قد ألف خمس تمثيلات ، وفي ثمانية أعوام ألف عشرين ، كلها غنى في صور الأعراف والعادات المحلية غنى حمل خلفه العظيم آدم أو هلتشليجر على أن يقول فيه « إنه عرف كيف يصور الحياة البورجوازية لمدينته كوبنهاجن بأمانة عظيمة بحيث لو انشقت الأرض وابتلعت هذه المدينة ، وبعد مائتى عام أميط اللثام عن كوميديات هولبرج ، لاستطاع المرء أن يعيد بناء العصر منها ، على نحو ما نعرف أيام روما القديمة من أطلال بومبي وهركيولانيوم (٢٧) »

ونقل هولبرج القوالب والأفكار عن بلوتوس وترنس وموليير والكوميديا ديلا رتى التى شهداها في إيطاليا . وبعض كوميدياته تمثيلات من فصل واحد ذات موضوعات تافهة فقدت قوة دفعها ، مثل « رحلة سجاناريل إلى أرض الفلاسفة » (٢٨) . وبعضها مازال يحتفظ بقوته ، مثل « بى رجل التل » التى نعرف منها أن الفلاحين حين يظفرون بالسلطة يكونون أشد بغياً من سادتهم . وبعضها تمثيلات مكتملة الطول مثل « رازموس مونثاوس » ، وهى هجائية مرحة تسخر بتنطع العلماء ، وبغطرسه اللاهوتيين وبجهل العوام ، مع مسحة خبيثة من صراحة الريفيين وصدقهم ، مثل قول لسبيد لأبيها بعد أن سمعت بأن خطيبها عائد من الجامعة « إذن فقد صدق حلمى . لقد حلمت اننى نمت معه البارحة » (٢٩) على أن مسرح كوبنهاجن

رغم هذه الكوميديات المرحية أغلق أبوابه في ١٧٢٧ لافتقاره إلى الدعم الشعبي . وكان آخر ما مثل فوق خشبته مسرحية هولبرج « مآثم الكوميديا الدنمركية » .

لقد صدم زملاءه من أساتذة الجامعة بالكتابة للمسرح ؛ أما الآن فقد ألان جانبهم بمؤلفات تاريخية يسرت للقراء الدنمركيين ثمرات الدراسات الأوربية الغربية . وكانت كتبه « تاريخ للدنمرك » (١٧٣٢ — ١٧٣٥) ، تاريخ عام للكنيسة « (١٧٢٧ — ١٧٤٧) ، و « تاريخ لليهود » مصنفات ، ولكنها متقنة . والنس هولبرج التخفف من هذه الجهود في رائعته . « رحلة نيلس كليم السفلية » (١٧٤١) . وقد كتبها نثراً لاتينياً لتصل إلى القراء الأوربيين ، فوصلت ، ولكن بطريق الترجمة : ترجمها ينز باجين بن إلى الدنمركية فطبعت الترجمة ثلاث مرات ، وظهر منها بالألمانية عشر طبعات ، بالسويدية ، والهولندية ، والانجليزية ، ثلاث ، وبالفرنسية والروسية اثنتان ، وبالمجرية واحدة . هذه « الرحلة السفلية » هي التي جعلت هولبرج « سويغت الدنمرك » و « فولثيرها » معاً .

والقصة تروى أن الضوضاء المنبعثة من كهف تثير فضول نيلس ، فيصمم على استقصاء مصدرها ويدليه أصحابه بحبل ينقطع ، « وبسرعة مذهلة دفع بي إلى أعماق الهاوية » (٣٠) . ثم يعثر في قشرة الأرض على مساحة مكشوفة أوقية سماوية فيها شمس وكواكبها السيارة ، ونجوم كثيرة . ويسقط صوب أحد هذه الكواكب فيصبح قرراً تابعاً له ويدور حوله عاجزاً ، ولكنه يمسك بنسر يحمله حتى يهبط في رفق على الكوكب بوتو (أي يوتويا) مقبولة . هنا يجد الأشجار هي النوع السائد ، وهي غنية بعصارتها العاقلة ، ولسوء الحظ « كانت الشجرة التي تسلقها . . . هي زوجة العمدة » (٣١) . ولبوتو بعض القوانين الممتازة . فالناس الذين « يتجادلون علانية حول صفات الكائن الأعظم وما هيته ينظر إليهم على أن يهيم مساً من الجنون » ، فيعالجون بفصدهم لتهبط حاهم ، ثم يحبسون حتى « يفيقوا من هذا الهذيان » (٣٢) . والأمهات في بوتو يرضعن أطفالهن — وهي فكرة سبقت بعشرين سنة دعوة روسو للأمهات لإرضاع أطفالهن من ثديهن . وفي إقليم كوكليكو

تحكم النساء الدولة ، ويعنى الرجال بشئون البيت أو يصبحون بغايا ، وللمملكة « حريم » من ثلاثمائة شاب وسيم . وينفق الفلاسفة في كوكليكو وقتهم في محاولة الوصول إلى الشمس ، ولا يهتمون اهتماماً يذكر بشئون الدنيا . وفي إقليم ميكولاك تجد الناس كلهم ملحدين ، « يقارفون أى شر يستطيعون إخفاءه عن الشرطة » (٢٣) ويقع نيلس على كتاب بعنوان « رحلة تانيان إلى العالم السفلى » يصف أوروبا وعاداتها الغريبة : الرعوس التى تكسوها البواريك الضخمة ، والقبعات المحمولة تحت الأذرع (كما كان يفعل نبلاء فرنسا) ، « والكعكات الصغيرة أو القرايين لحمل مروراً بالشوارع ويقول الكهان إنها آلهة ، والناس الذين خبزوها . . . يحلفون على الإيمان بأن هذه القرايين خلقت الدنيا » (٢٤) .

وقد اشتملت « الرحلة السفلية » على انتقادات للعقيدة المسيحية ، ودعت إلى إطلاق حرية العبادة لجميع المذاهب ، ولكنها أوصت بالإيمان بالله ، وبالجنة ، وبالنار ، باعتبارها ركائز ضرورية لناмос أخلاقى لا تفتأ تهاجمه مطالب النفس والجسد هجوماً شرساً (٣٥) . ورقى الملك فردريك الخامس المصلح الذى انصلح أمره بارونا في ١٧٤٧ ؛ واستمتع هرلبرج بلدة التمرد في شبابه والرضى عنه في شيخوخته التى اختتمت سنة ١٧٥٤ . ومازال إلى اليوم إمام الأدب الدنمركى .

على أن البعض قد يخلصون بهذا المقام يوهان إيفالد الذى ضارعت حياته حياة بايرون وكيثس وشلى مغامرة ومعاناة وقصراً . وقد ولد في كوبنهاجن في ١٧٤٣ لتأسيس لوثرى ، وتمرد على المتزمطين من الكبار ، ووقع في غرام آرنسى هوليجارد وهو في السادسة عشرة ، وهجر مهنة اللاهوت لأنه استبطاً ثمراتها ، وتطوع في الجيش البروسى ثم النمساوى ، وصمم على الظفر بالثروة والمجد اللذين ينيلانه آرنسى عروساً . ولكن الحرمان والمرض أتلغا صحته ، فعاد إلى كوبنهاجن واللاهوت ، وتزوجت آرنسى ثروة أعجل ، وسكب إيفالد قلبه في الشعر والنثر . فكتب أول مأساة دانمركية أصيلة

سماها « رولف كراجي » (١٧٧٠) ، وبلغ قمة الشعر الدنمركي في القرن الثامن عشر بمسرحية « موت بالدر » (١٧٧٣) وهي دراما ملحمية بالشعر . على أن جهده لم يأت إلا بالكفاف ، فاعتكف في عزلة ريفية ، وراح يجتر سلسلة من الأوصاف ، ثم أنعشه معاش من الحكومة آخر الأمر . وقد رد على الصنيع بتمثيلية « صيادى السمك » (١٧٧٦) التي احتوت أغنية شعبية وطنية مطامعها « وقف الملك كرستيان إلى جوار الصاري العالى » التي أصبحت أنشودة الدنمركيين القومية المفضلة (٣٦) . وكانت دعوة إيفالده إلى المجد ، ووداعه للحياة ، ومات في ١٧٨١ إثر مرض طويل أليم غير متجاوز الثامنة والثلاثين . ويعده السكندنافيون « من أعظم شعراء الشمال الغنائيين ، بل ربما أعظمهم قاطبة » (٣٧) .

وبتقدم القرن الثامن عشر أصبح التاريخ السياسى للدنمرك جزءاً من الدراما الحديثة المتصلة ابداً بين التقاليد المتوارثة والتجربة . وقد مزج كرستيان السادس (حكم ١٧٣٠ - ٤٦) بين القوى المتعارضة . فدفع هو ووزراؤه التنمية الاقتصادية قدماً باستجلاب الغزاليين والنساجين لإنشاء صناعة النسيج ، وبتكوين الشركات القومية للتجار مع آسيا وأمريكا ، وبفتح مصرف كوبنهاجن (١٧٤٤) . ونشروا التعليمين الابتدائى والثانوى ، وأسسوا الأكاديميات لتشجيع الأدب والعلم . على أنهم جددوا قانوناً قديماً يلزم بحضور خدمات الصلاة اللوثرية ، وأغلقوا جميع المسارح وصلالات الرقص ، ونفوا الممثلين ، ومنعوا الحفلات التنكرية .

وأبقى فردريك الخامس (حكم ١٧٤٦ - ٦٦) ابن كرستيان على هذه القوانين ولكنه خفف من وطأتها بروحه اللطيفة وحبهِ للذات الحسية . ففي ١٧٥١ استقدم من هانوفر يوهان هارنفعج أرنست فون بيرنشتورف ، الذى وفق وهو رئيس للوزراء فى رفع مستوى الأمانة والكفاءة فى الإدارة ، وأصلح شأن الجيش والبحرية ، وأبعدهما عن حرب السنين السبع ، وحرك مياه الثقافة الدنمركية الراكدة بجلب الأساتذة والشعراء والفنانين والعلماء ؛ وقد رأينا كلويشتوك يقبل هذه الدعوة . وفى ١٧٦٧ توج الكونت فون

بيرنشتورف سياسته الخارجية السلمية بإقناع كاترين الكبرى بتوقيع اتفاقية
نزلت بمقتضاها للدنمرك عن هولشتين - جروتورب .

ومات فردريك الخامس في الثالثة والأربعين (١٧٦٦) بعد أن أنهكته
لذاته . وقد زوج ابنه كرستيان السابع (حكم ١٧٦٦ - ١٨٠٨) على عجل
وهو بعد في السابعة عشرة من كارولين ما تيلدا أخت جورج الثالث ملك
الإنجلترا ، وقد أفاضت اشراقاً على حياة العاصمة الاجتماعية ، ولكن زوجها
نصف المجنون أهملها إيثاراً لحياة الخلاعة ، وانزلت كاترين إلى غرام
مأساوى مع طبيب البلاط يوهان فريدريش شتروينزى . وكان ابناً لأستاذ
لاهوت في هاله ، فدرس فيها الطب ، وفقد إيمانه الدينى كما يفقده أكثر
الأطباء . وقد دان بحظوته عند الملك لبراعته في علاج العواقب الاكلينيكية
لغراميات الملك ، وعند الملكة لتوفيقه في الأتيان بكرستيان السابع إلى
فراشها بما يكفى لإنجاب وريث للعرش . فلما تردى عقل الملك في درك
الاكتئاب وعدم المبالاة . وزادت سلطة الملكة في الحكومة ، وسمحت
لطبیبها بإدارة سياستها كما سمحت له بالاستمتاع بحظوتها فغدا (١٧٧٠)
حاکم الدولة الفعلى . وخرجت الأوامر من القصر الملكى ممهورة من
شتروينزى باسم الملك « غير المتالك قواه العقلية » . وطرده برنشتورف ،
فاعتكنف يهود في ضياعه بألمانيا .

وكان شتروينزى قد قرأ مؤلفات جماعة « الفلاسفة » الفرنسيين ، وعلى
مبادئهم نوى أن يشكل الحياة الدنمركية من جديد . فألغى استغلال النبلاء
لامتيازاتهم . وأنهى الرقابة على المطبوعات ، وأسس المدارس . وظهر
المصالح الحكومية من الرشوة والاستغلال . وأعتق الأقنان ، وحرم التعذيب
القضائى . وأعلن التسامح لجميع الأديان ، وشجع الآداب والفنون ، وأصلح
القانون والحاكم والبوليس ، والجامعة ، والمالية . ووسائل حفظ الصحة
البلدية . . . ثم ألغى معاشات كثيرة تخفيفاً من الدين العام ، ورصد دخول
المؤسسات الدينية للإنفاق على الأغراض العامة .

ولكن النبلاء تأمروا ليسقطوه ، واستغلوا حرية النشر لاستنزاف شعبيته .

وكره الأتقياء من الدنمركيين التسامح الديني لأنهم رأوه كفراً ، ورددت أحاديثهم عن شتروينزى أنه أجنبي دخيل ليس لسلطته سند غير فراش الملكة . وفي ١٧ يناير ١٧٧٢ اقنع ليف من ضباط الجيش الملك بأن شتروينزى والملكة يبيتان قتله فوق أمرأ بالقبض عليهما . ورحلت كارولين إلى كرونبورج قلعة هاملت . أما شتروينزى فألقى في السجن ، وبعد خمسة أسابيع من المعاناة اعترف بزناه مع الملكة . وفي ٢٨ أبريل ١٧٧٢ قطع إرباً على مقصلة على مرأى من جمهور محبذ لهذا العقاب . وسمح لكارولين بعد إلحاح جورج الثالث بالاعتكاف في تسلييه بها نوfer ، حيث ماتت في ١٠ مايو ١٧٧٥ وهي بعد في الرابعة والعشرين .

وقلد المتآمرون الفائزون بالحكم لأوفي جولد برج ، المعلم الخاص للأمير فردريك . و تد قاد جولد برج خلال اثني عشر عاماً من الحكم حركة انتفاض وطنية على النفوذ الأجنبي في الحكومة واللغة والتعليم ، وفتح باب المناصب للعامة ، وأعاد القنية ، والتعذيب القضائي ، وسيادة الكنيسة اللوثرية ، والتوجيه الديني للجامعة . ووكلت الشؤون الخارجية لأندرياس بيتر فون برنشتورف ، ابن أخى الكونت فون برنشتورف ومحسوبه . فلما نصب الأمير فردريك نفسه وصياً (١٧٨٤) طرد جولد برج : وأصبح اندرياس فون برنشتورف رئيس الوزراء وظل كذلك إلى يوم مماته . وبارشاده الحكيم ألغيت القنية ثانية (١٧٨٧) ، وأنهيت النخاسة في الممتلكات الدنمركية ، وأطلقت حرية القيام بالمشروعات الاقتصادية . فلما مات برنشتورف (١٧٩٧) كانت الدنمرك قد ثبتت أقدامها على الطريق إلى ذلك الرخاء السلمى الذى جعلها محسودة من العالم كله .

٤ — السويديون

١ — السياسة : ١٧١٨ — ٧١

كانت حياة شارل الثانى عشر المثيرة مأساة للسويد . ذلك أن مراميه لم تسترشد بموارد وطنه بل بظمته للمجد . وقد احتمله الشعب السويدي بشجاعة وهو يأتى على قوتهم البشرية وثروتهم ، ولكنهم كانوا يدركون قبل موته

بزمان أن مصيره الفشل المحقق . فقد نزلت السويد بمقتضى معاهدات ستوكهولم (١٧١٨ - ٢٠) عن دوقيتي بريمن وفردن لهانوفر ، وعن الجزء الأكبر من بومرانيا لبروسيا . وبمقتضى صلح نيسناد (١٧٢١) نزلت عن ليفونيا واستونيا وانجرمانلاند وكاريليا الشرقية لروسيا . وقضى على سلطة السويد على أرض القارة ، وأكرهت على التقهقر إلى شبه جزيرة غنية بالمعادن وصلابة الخلق القوي ، متطلبة الجهد الشاق والمهارة المثابرة ثمناً للحياة .

وقد أضعفت هزيمة شارل شوكة الملكية ، وأتاحت للنبل أن يستردوا سيطرتهم على الحكومة . فأعطى دستور ١٧٢٠ السلطة الغالبة لمجلس نيابي أو «دايت» مؤلف من أربع «طبقات» أو مجالس . مجلس نبل «ريداهوس» قوامه رؤساء الأسر النبيلة كلها ؛ ومجلس قساوسة — من الأساقفة مضافاً إليهم نحو خمسين مندوباً ينتخبهم اكليروس الأبرشيات من بينهم ؛ ومجلس سكان المدن ، من نحو تسعين مندوباً يمثلون الموظفين الإداريين وأقطاب رجال الأعمال في المدن ؛ ومجلس فلاحين ، من مائة مندوب تقريباً يختارون بواسطة المزارعين من ملاك الأرض الأحرار ومن بينهم . وكانت كل طبقة تجلس منفصلة عن غيرها ، ولا يمكن أن يصبح أى مشروع قانوناً ما لم توافق عليه ثلاث طبقات ؛ ولم يكن لطبقة الفلاحين في حقيقة الأمر قوة تشريعية إلا بموافقة طبقتين أخريين . وخلال اجتماعات المجلس النيابي كانت «لجنة سرية» من خمسين نبيلاً ، وخمسة وعشرين قسيساً ، وخمسة وعشرين نائباً عن المدن تحضر مشروعات القوانين جميعها ، وتختار الوزراء ، وتهيمن على السياسة الخارجية . وقد أعنى النبل من الضرائب ، واحتكروا حق شغل مناصب الدولة العليا (٢٨) . فإذا لم يكن المجلس منعقدًا سيردفة الحكم «راد» (مجلس) من ستة عشر أو أربعة وعشرين رجلاً يختارهم المجلس النيابي ويسألون أمامه . وكان الملك يرأس هذا المجلس وله صوتان ، وفيما عدا هذا لم يكن له سلطة التشريع . وتضافرت روسيا وبروسيا والدنمرك لتأييد هذا الدستور لأنه يجهد سياسة السلام ويكبح النزعات الحربية للملوك الأقوياء . ولم تعد الملكية وراثية بل أصبحت انتخابية . وبعد موت شارل الثاني

عشر (٣٠ نوفمبر ١٧١٨) كان مآل العرش بالوراثة إلى كارل فريدريش دوق هولشتاين جوتنورب ، وهو ابن لأخت شارل الكبرى ؛ ولكن المجلس النيابي المنعقد في يناير ١٧١٩ لأول مرة في عشرين سنة ، أعطى التاج لأولريكا اليانورا وهي أخت أخرى لشارل ، بعد أن وافقت على التخلي عن سياسة الاستبداد المالكى التى مارسها أخوها . ولكن حتى مع هذه الموافقة تبين أنها عسيرة القياد . وفي ١٧٢٠ اقنعت بالنزول عن العرش لزوجها الحاكم فردريك الأول أمير هسى — كاسل الذى أصبح الآن فردريك الأول ملك السويد . وبفضل الإرشاد الحكيم الذى بذله الكونت آرفيد برنهارد هورن — وكان مستشاراً للدولة — أتيح للسويد ثمانية عشر عاماً من السلام لتبرأ فيها من جراح الحرب .

غير أن الإبادة من السويديين سخرها من سياسته السلمية ولقبوا أشياعه « الطواقي » وهم يعنون بهذا اللقب أنهم خرفون نيام بينما تراجع السويد إلى المؤخرة في ركب الدول . وقام ضد هؤلاء حزب « القبعات » الذى كونه الكونت كارل جيلنبورج ، وكارل تسين ، وغيرهما . وتسلط هذا الحزب على المجلس النيابي في ١٧٣٨ ، وحل جيلنبورج محل هورن . وإذا كان مصمماً على إعادة السويد إلى سابق مكانها بين الدول ، فإنه جدد التحالف المتقادم مع فرنسا التى أرسلت معوناتها المالية للسويد لقاء معارضتها لمطامع روسيا ؛ وفي ١٧٤١ أعلنت الحكومة الحرب على روسيا ، أملاً في استرداد أقاليم البلطيق التى استولى عليها بطرس الأكبر ، ولكن لا الجيش ولا البحرية كانا معدين الأعداد الكافى ، وقد أعجز المرضى رجال البحرية . وسلم الجيش فنلنده كلها أمام الزحف الروسى . على أن القيصرة اليزابث ، الحريصة على كسب تأييد السويد ، وافقت على رد معظم فنلنده إذا عين ابن عمها ادولفس فردريك أمير هولشتاين — جوتنوب للعرش السويدي . وبهذه الشروط أنهى صلح آبو الحرب (١٧٤٣) . فلما مات فردريك الأول (١٧٥١) ارتقى ادولفس فردريك العرش .

ولم يمض وقت طويل حتى علمه مجلس الطبقات انه ملك بالاسم

لا بالفعل . فقد نازعه حقه في تعيين النبلاء الجديد ، أو اختيار أعضاء بلاطه ، وهدد بالاستغناء عن توقيعه ان اعترض على التوقيع على قوانين أو وثائق معينة . وكان الملك رجلاً لين العريكة ، ولكن كان له زوجة متكبرة أمرة هي لويزة أولريكا أخت فردريك الأكبر . وحاول الملك والملكة الثورة على سلطة المجلس . ولكن الثورة أخفقت ، وعذب عملاؤها وقطعت رؤوسهم أما الملك فعفى عنه لأن الشعب كان يحبه . وأما لويزة فعزت نفسها بحب الأدب وبرزت في مضاره . وقد صادقت لينايوس وجمعت من حولها لفيفاً من الشعراء والفنانين نشرت خلاصهم أفكار التنوير الفرنسي . وعين المجلس النيابي معلماً جديداً لابنها ذى الأعوام العشرة ، وأصدر إليه تعليمات بأن يحيط ملك المستقبل جوستافس الثالث بأن الملوك في الدول الحرة لا يحتفظون بعروشهم إلا إذا سمح لهم بشروط ، وأنهم إنما تخضع عليهم الآلهة والجلال « لتشريف المملكة لا لأجل الشخص الذي يتفق أن يشغل المكان الأول في الموكب » وأنه « بما أن بريق البلاط ووجهه » قد يضلهم بأوهام العظمة ، فإنهم يحسنون صنعا أن هم تفقدوا أكوخ الفلاحين بين الحين والحين ، ورأوا الفقر الذي يدفع تكاليف الآلهة الملكية » (٣٩) .

وفي ١٢ فبراير ١٧٧١ مات أدولفس فردريك ودعا المجلس جوستافس الثالث ليأتي من باريس ويمثل لمراسم الملكية .

٢ — جوستافس الثالث

كان أكثر الملوك جاذبية بعد هنري الرابع ملك فرنسا . وإذا كان وسيماً مرحاً ، عاشقاً للنساء والفنون والسلطة ، فقد لمع وتوهج خلال تاريخ السويد كأنه الشحنة الكهربائية دافعاً إلى الحركة كل العناصر الحيوية في حياة الأمة . وكان قد أحسن تعليمه على يد كارل تسين ، ودلته أمه المولعة به . وكان من حيث الفكر نابغاً مرهفاً ، ومن حيث الخيال والحس الجمالي موفور الحظ ، لا يستقر على حال لفرط طموحه وكبريائه ، فليس من اليسير أن يكون المرء أميراً متواضعاً . ونقلت إليه أمه عشقها للأدب الفرنسي ، فقرأ فولتير بنهم ، وبعث إليه بعبارات الاحترام ، وحفظ هنريادة عن ظهر

قلب . وكان السفير السويدي في باريس يوافيه بكل مجلد من « الموسوعة » عند صدوره . ودرس التاريخ باهتمام وافتتان ، وأطربته سير جوستافس فاذا ، وجوستافس أدولفس ، وشارل الثاني عشر ؛ وبعد أن قرأ عن هؤلاء الرجال لم يطق أن يكون ملكاً خاملاً . وفي ١٧٦٦ ، زوجه المجلس للأميرة صوفيا مجدلينا ابنة فردريك الخامس ملك الدنمرك دون أن يؤخذ رأيه ، ولا رضى أبويه . وكانت خجولاً دمثة الطبع تقيّة ترى المسرح مكاناً للإثم ؛ أما هو فكان شكاكاً ، يحب الدراما ، ولم يغتفر قط للمجلس إقحامه في هذا الزواج المتنافر . وهذا المجلس ثأثرته مؤقتاً بمنحة طيبة تتيح له الرحلة إلى فرنسا (١٧٧٠ — ٧١) . ٥

وتوقف في كوبنهاجن ، وهمبرج ، وبرنزويك ، ولكن باريس كانت مقصده . وتحدى غضب لويس الخامس عشر بزيارة شوازيل المنفى ، وانتكس التقاليد بزيارة مدام دوبارى في قصرها الريفي في لوفيسين . والتقى بروسو ، ودالامبير ، — وما رمونتييل ، وجريم ، ولكن ظنه فيهم خاب وكتب لأمه يقول « تعرفت إلى جميع الفلاسفة ، وإنى لأجد كتبهم ألطف كثيراً من أشخاصهم »^(٤١) وسطع نجماً من نجوم الشمال في صالونات السيدات جوفران ودودفان ودلسيناس ودينييه ونكير . وتلقى وسط انتصاراته نبأ يفيد أنه أصبح ملك السويد . فلم يتعجل الرجوع ، بل أقام في باريس رداً أتاح له الحصول على معونات مالية كبيرة للسويد من حكومة فرنسا المشرفة على الإفلاس ، و ٣٠٠,٠٠٠ جنيه لاستعماله الشخصي في ترويض أعضاء مجلس الأمة . وفي الطريق إلى أرض الوطن توقف ليرى فردريك الأكبر الذي أنذره بأن بروسيا ستدافع — بالسلاح إن اقتضى الأمر — عن ذلك الدستور السويدي الذي قيد سلطات الملك تقييداً شديداً .

ووصل جوستافس إلى ستوكهلم في ٦ يونيو . وفي الرابع عشر افتتح أول مجلس أمة في عهده بكلام جميل أشبه بذلك الذي افتتح به ملك آخر معوق ، هو جورج الثالث ، برلمانه الأول في ١٧٦٠ . قال « إننى وقد ولدت ونشأت بين ظهرائكم تعلمت منذ نعومة أظفاري أن أحب وطني ، وإنى لأعده أعظم امتياز أننى ولدت سويدياً ، وأكبر شرف أن أكون المواطن الأول

لشعب حر»^(١) . وقد أكسبته بلاغته ووطنيته تجاوباً حاراً من الأمة ، ولكنهما لم تحركا قلوب رجال السياسة . وفاز حزب الطواقي — أصدقاء الدستور وروسيا — الذين تمولهم كاترين الثانية بأربعين ألف جنيه ، بأغلبية في ثلاث من مجالس الطبقات الأربع . ورد جوستافس باقراض ٢٠٠,٠٠٠ جنيه من المصرفيين الهولنديين ليشتري انتخاب مرشحه رئيساً للمجلس . ولكن كان عليه أن ينتظر تنويجه ، فراجعت مجالس الطبقات التي يسيطر عليها حزب الطواقي عمن التتويج ليربط الملك بتعهد يلتزم فيه بقرار «أغلبية مجالس الطبقات» وأن تكون الكفاية وحدها أساساً لجميع الترقيات . وقاوم جوستافس نصف عام هذه الخطوة نحو الديمقراطية ، وأخيراً وقع (مارس ١٧٧٢) ، ولكنه في دخيلة نفسه اعتزم الإطاحة بهذا الدستور الكريه لأول بادرة تسنح له .

وقد مهد أرضه بتوطيد شعبيته . ففتح أبوابه للجميع ، و « أغلق الهبات كأنه يتلقاها » ، ولم يصرف أحداً غير راض . وقد وافقه نفر من قادة الجيش على أنه لا يستطيع تخليص السويد من تسلط روسيا وبروسيا — اللتين كانتا في هذا الوقت بالذات (٥ أغسطس ١٧٧٢) تقطعان أوصال بولنده — إلا حكومة مركزية قوية لا يعوق حركتها مجلس أمة مرثش . وساهم فرجين السفير الفرنسي بمبلغ ٥٠٠,٠٠٠ دوقاتيه في نفقات الانقلاب . وفي ١٨ أغسطس رتب جوستافس أن يقابله ضباط الجيش في الترسانة صباح الغد . وجاء مائتان منهم . فطلب إليهم أن ينضموا إليه في الإطاحة بنظام حكم فاسد قلق يد عمه أعداء السويد ، فوافقوا كلهم على أن يتبعوه إلا واحداً . أما الخارج على الإجماع ، وهو رودبيك الحاكم العام ، فقد ركب مخترقاً شوارع ستوكهلم داعياً أفراد الشعب إلى حماية حريتهم ، ولكنهم ظلوا غير مكترئين ، لأنهم كانوا معجبين بجوستافس ، ولم يحبوا هذا المجلس الذي كان في رأيهم يستر أوجاركية من النبلاء ورجال الأعمال وراء أشكال ديمقراطية . وقاد الملك الشاب (وقد بلغ السادسة والعشرين) الضباط إلى ثكنات حرس ستوكهلم فتمحدث إليهم حديثاً بلغ من الإقناع مبلغاً جعلهم

يتعهدون بتأييده . وبدأ انه يكرر خطوة فخطوة الطريقة التي أوصلت كاترين الثانية إلى السلطة قبل عشر سنوات .

فلما التأم شمل مجلس الأمة في ٢١ أغسطس وجد ساحته يحيط بها الرماة والقاعة نفسها قد احتلها الجنود . ووبخ جوستافس في خطاب صنع التاريخ مجالس الطبقات لأنها لوثت نفسها بالتناحر الحزبي والرشوة الأجنبية ، وأمر بأن يقرأ عليها الدستور الجديد الذي أعده معاونوه . وقد احتفظ هذا الدستور بملكية مقيدة ، ولكنه وسع سلطات الملك ، فحول له الهيمنة على الجيش والبحرية والعلاقات الخارجية ، وله وحده حق تعيين الوزراء وإقالتهم ، ولا يجتمع مجلس الأمة إلا بدعوة منه ، وله أن يفرض متى شاء ، ولا يناقش المجلس إلا ما قدمه له الملك . ولكن لا يصبح مشروع قانوناً دون موافقة المجلس ، ويحتفظ المجلس بالإشراف على المالية عن طريق مصرف السويد وحق فرض الضرائب . وليس للملك أن يخوض حرباً هجومية دون موافقة المجلس . والقضاة يعينهم الملك ثم يصبحون غير قابلين للعزل ، ويحمى حق « الهاياس كوريس » كل الأشخاص المعتقلين من تعطيلات القضاء . وطلب جوستافس إلى النواب أن يقبلوا هذا الدستور ، وأقنعهم أسنة الحراب فقبلوه ، وأقسموا بيمين الولاء . وشكر الملك المجلس وفضله واعداداً بدعوته من جديد خلال ستة أعوام . واختفى حزبا الطواقي والتبعات . وقد تم الانقلاب في سرعة لم يرق فيها دم . وبرضى الشعب على ما يلوح . « وقد هتفوا لجوستافس محرراً لهم وأغرقوه دعاء . . . وتعانق الناس وهم يذرفون دموع الفرح »^(٤٢) . واعتبطت فرنسا ، أما روسيا وبروسيا فهددتا بالحرب لرد الدستور القديم . ولكن جوستافس لم يهتز . وتراجعت كاترين وفرديك . مخافة أن تعرض الحرب معاهما البولندية للخطر .

وسلك جوستافس في العقد التالي مسلك الملك الدستوري . . أى أنه خضع للقانون الموضوع . وقام بإصلاحات نافعة . وتبوأ له مكاناً بين حكام القرن « المستبدين المستنيرين » . وأشد به فولتير باعتباره « الوريث الجدير باسم جوستافس العظيم »^(٤٣) . وأما طوررجو الذي كان يعاني الإحباط في

فرنسا . فقد طاب نفساً حين رأى سياساته الاقتصادية تنجح في السويد ، حيث أجزت حرية التجارة في الغلال ، وأطلق عقال الصناعة من نظم النقابات الحرفية التي شلت حركتها . وحفز التجارة بتنظيم الموانئ الحرة على البلطيق ومدن الأسواق الحرة في الداخل . واستشير ميرابو الأب في تحسين الزراعة : وكلف لمرسييه ولا ريفير بوضع خطة للتعليم العام^(٤٤) . وأرسل جوستافس إلى فولتير نسخة من الأمر الذي كفّل حرية النشر (١٧٧٤) ، وكتب يقول : « إنك أنت الذي يجب أن تسدى إليك الإنسانية الشكر على تحطيم تلك العقبات التي ألقاها الجهل والتعصب في طريق تقدمها^(٤٥) » وقد أصلح القانون والقضاء ، وألغى التعذيب ، وخفف العقوبات ، وثبت العملة . ثم خفف الضرائب على الفلاحين ، وأعاد تنظيم الجيش والأسطول ، ومنح التسامح لجميع المذاهب المسيحية ولليهود في ثلاث مدن كبرى منها بذلك احتكار المذهب اللوثرى لتقوى السويديين ؛ فلما ان دعا مجلس الأمة للاعتقاد في ١٧٧٨ . وافق المجلس على سنوات حكمه الست الأولى دون أن يخرج صوت واحد على الإجماع وكتب جوستافس إلى صديق له « لقد بلغت أسعد مراحل حياتي العملية . فأفراد شعبي مقتنعون بأنني لا أبغى شيئاً غير زيادة رفاهيتهم وتوطيد دعائم حريتهم^(٤٦) » .

٣ - التنوير السويدي

وفي زحمة هذا النشاط التشريعي والإداري . أسهم الملك بكل قلبه في ذلك التفجر الرائع للآداب والعلوم . الذي أوقف السويد على قدم المساواة مع التطورات الفكرية الأوروبية في القرن الثامن عشر ، وكان هذا عصر لمتايوس في النبات ، وشيليه وبرجمان في الكيمياء ، وقد أشدنا بذكرهما في غير هذا الموضع — ولكن ربما كان من واجبه أن ندرج في قائمة العلم رجلاً من ألمع السويديين في زمانه . وهو إيمانويل سويد نبورج . لأنه اشتهر أول ما اشتهر بوصفه عالماً . فقد أنجز عملاً أصيلاً في الفيزياء والفلك والجيولوجيا والبيولوجيا وعلم المعادن والفسولوجيا وعلم النفس . وحسن المصنعة الهوائية باستعمال الزئبق ؛ وإيجاد وصف المغنطيسية

والوحيض الفوسفوري ؛ واقترح نظرية سديمية قبل كانط ولا بلاس بزمان ؛ وسبق البحث الحديث في الغدد الصماء . وبين قبل أى عالم آخر بمائة وخمسين عاماً أن حركة المخ متزامنة مع التنفس لامتص النبض . وحدد مكان عمليات العقل الراقية في سحاء المخ ، وحدد لأجزاء معينة من المخ وظيفة التحكم في أعضاء معينة من الجسم^(٤٧) . وخطب مجلس النبلاء في النظام العشري ، وإصلاح العملة ، وموازنة التجارة . وبدأ أن عبقريته كلها موجهة إلى العلم . ولكنه حين خلس إلى أن دراساته تقوده إلى نظرية ميكانيكية للعقل والحياة ، وأن هذه النظرية مفضية إلى الإلحاد ، انتقص على العلم بقوة وتحول إلى الدين . وفي ١٧٤٥ بدأ يرى رؤى للجنة والنار ، وانتهى به الأمر إلى تصديق هذه الرؤى حرفياً ، فوصفها في رسالته « السماء وعجائبها والجحيم » وأخبر قراءه الذين يعدون بالألوف أنهم في الجنة لن يكونوا أرواحاً مجردة من جسومها بل رجالاً ونساء حقيقيين من لحم ودم ، يستمتعون بمباهج الحب الجسدية والروحية . جميعاً . ولم يعظ ، ولا ألف مذهباً أو شيعة ، ولكن تأثيره انتشر في طول أوروبا وعرضها ، فتأثر به ويسلى ، ووليم بليك ، وكولردج ، وكارليل ، وإمرسن ، وبراوننج ، وأخيراً (١٧٨٨) كون أتباعه « كنيسة أورشليم الجديدة » .

على أن السويد رغم معارضته أسلمت عقلها أكثر فأكثر للتنوير . وسرعان ما أسفر استيراد المؤلفات الفرنسية والانجليزية أو ترجمتها عن علمنة للثقافة وتهذيب للذوق والأشكال الأدبية . ووجدت النزعة التحررية الجديدة في عهد جوستاف الثالث وأمه قبولاً واسعاً في الطبقتين الوسطى والعليا ، حتى بين كبار رجال الدين ، الذين بدأوا يبشرون بالتسامح وبعقيدة رهبانية بسيطة^(٤٨) . وكانت الشعارات السائدة في كل مكان هي « العقل » ، و « التقدم » ، و « العلم » و « الحرية » و « الحياة الطيبة هنا على الأرض » . ونظم لينايوس وغيره الأكاديمية الملكية السويدية للعلوم في ١٧٣٩ ، وأسس كارل تسين الأكاديمية الملكية للفنون الجميلة في ١٧٣٣ . وكانت الأكاديمية الملكية للآداب البحتة قد عاشت فترة قصيرة على عهد الملكة لويزة أولريكا ، فأحيها جوستافس (١٧٨٤) بوقف سنّي ، ووجهها لمنح مدالية كل عام

قيمتها عشرون دوقانية لأفضل إنتاج سويدي في التاريخ أو الشعر أو الفلسفة ، وفاز هو نفسه بأول جائزة كوفي عنها على ثنائه على لئارت تورشتنسن ألمع قواد جوستافس أدولفس . وفي ١٧٨٦ أسس الملك ، (على حد قوله) «أكاديمية جديدة تهذيب لغتنا وصقلها ، على غرار الأكاديمية الفرنسية ، ويطلق عليها اسم الأكاديمية السويدية ، وتتألف من ثمانية عشر عضواً . وأمدت هذه الأكاديمية هي وأكاديمية الآداب البهتة بالمال اللازم لصرف المعاشات للدارسين والمؤلفين السويدين»^(٤٩) . وكان جوستافس يساعد شخصياً رجال الأدب أو العلم أو الموسيقى ، وقد أشعرهم بأن جوده حق لهم ، ورفعهم إلى مقام اجتماعي جديد بدعوتهم إلى بلاطه ، ثم حفزهم بمنافسته إياهم .

وكان في السويد دراما قبل عهده ، لا سيما بتشجيع من أمه ، ولكنها كانت تزود بالممثلين الفرنسيين الذين يقدمون المسرحيات الفرنسية . فصرف جوستافس الفرقة الأجنبية ، واستنهب المواهب الوطنية لإخراج تمثليات لمسرح سويدي حقاً . وتعاون هو نفسه مع يوهان فيلاندر في تأليف أوبرا « تيطس وبيليه » ، وعرضت أول مرة في ١٨ يناير ١٧٧٣ ، واستمر عرضها ثمانى وعشرين ليلة . ثم انصرف الملك إلى السياسة ثمانية أعوام . غير انه عاد إلى تناول القلم من جديد في ١٧٨١ وألف سلسلة من التمثيلات مازالت تحتفظ بمكانة مرموقة في الأدب السويدي . وأولى هذه التمثيلات - المسماة (أريحية جوستافس أدولفس ، ١٧٨٢) - كانت فائحة الدراما السويدية . وكان الملك يستقى موضوعاته من سجلات التاريخ ، وقد علم شعبه تاريخ أمتهم كما علم شكسبير الانجليزى . وفي ١٧٨٢ بنى على حساب الدولة مسرح منيف للدراما والموسيقى . وكان جوستافس يكتب مسرحياته نثراً ، ثم يصوغها يوهان كلجرين شعراً ، ثم يدفعها إلى مؤلفين موسيقيين أجانب ليضبعوا موسيقاها . وهكذا أصبحت تمثيلاته أوبرات . وكانت أشهى ثمرات هذا التعاون «جوستاف أدولف ولييا براهى» التى أحيت ذكرى قصة غرام القائد العظيم ، وجوستاف فازا ، التى وصفت تحرير أول جوستاف للسويد من الحكم الدنمركى .

وبفضل هذه القيادة الملكية ، وبفضل ثلاث جامعات (أوبسالا ،

وآبو . ولوندد) دخلت السويد حركة تنويرها الخاصة . ومهد للحركة أولوف فون دالين بتمهيد أديسونى (أى على طريقة جوزف أديسون) بكتابته غفلا من التوقيع ، ونشره دوريا (١٧٣٣ — ٣٤) مجلة دنسفنسكا أرجوس « التى ناقش فيها كل شىء إلا السياسة : بأسلوب صحيفة سبكتيتور المهذب ، وابتهج كل قارئ تقريباً بما كتب : ووافق مجلس الأمة على إجازة الكاتب الذى طلع الآن من مخبئه . وعينه الماكة لويزه أولريكا شاعراً للبلاط ومعلماً لإنها الذى أصبح جوستافس الثالث . فقيده المنصب شاعريته وبلدها ، ولكنه أتاح له من الوقت والمال ما أعانه على كتابة رائعته فى تاريخ السويد ، وهو أول تاريخ نقدى لمملكة السويد .

وكانت أطرف الشخصيات فى كوكبة الشعراء الجديدة امرأة تسمى هدفيج نوردنفليشت ، وهى للسويد قريح لسافو ، وأسباسيا ، وشارلوت بررنى فى أوطانهن . وقد أفرغت أبويها المزمعين بقراءتها المسرحيات والشعر ، فعاقباها ، ولكنها لم تنله ، وكتبت شعراً فيه من الخلاوة والفتنة ما أكرههما على أن يروضا نفسيهما على هذه الفضيحة . ولكنها أجبراهما على الزواج من ناظر ضيعتهما ، وكان رجلاً حكيماً ديم الوجه ، قالت « كنت أحب أن أصغى إليه فيلسوفاً ، ولكن منظره عاشقاً كان لا يحتمل »^(٥١). وتعلمت أن تحبه ، ولكنها لم يلبث أن مات بين ذراعيها بعد زواجهما بثلاث سنين . وأنهى قسيس وسيم حدادها بخطبتها ، فأصبحت زوجاً له ، واستمتعت « بأسعد حياة تتاح لإنسان فى هذا العالم الناقص » ، ولكنه مات بعد سنة ، وكادت هدفيج تجن حزناً عليه . فاعتكفت فى كوخ على جزيرة صغيرة ، وبثت حزنها فى قصائد حظيت بقبول حسن حملها على الانتقال إلى ستوكهولم حيث ظلت تصدر كل سنة (١٧٤٤ ... ٥١) « حكماً للنساء » بقلم راعية من الشمال « وأصبح بيتها صالوناً يلتقى فيه صفوة المجتمع والفكر . وحذا حذوها الشعراء الشبان أمثال فردريك جلينبورج وجوستاف كروتز فى اتخاذ الأسلوب الفرنسى الكلاسيكى وفى اعتناق التنوير . وفى ١٧٥٨ ، حين بلغت الأربعين ، وقعت فى غرام يوهان فشرشروم . وكان فى الثالثة والعشرين ، واعترف لها بأنه يحب امرأة غيرها ، ولكنه حين رأى

هيدفيج وحيدة مبهتسة عرض عليها الزواج . فرفضت هذه التضحية ، وحاولت إغراق نفسها حلاً للمشكلة ، فأنقذت ، ولكنها ماتت بعد ثلاثة أيام . وما زالت « راعية الشمال » علماً من أعلام الأدب السويدي .

وحذا كروتز حذو خيالها الرومانسى المخلق بمجموعة رقيقة جداً من الأغاني سماها « أتيس وكاميللا » (١٧٦٢) ، ظلت سنين كثيرة أعظم ما يعجب به القراء من قصائد في هذه اللغة . فكاميللا ، بوصفها كاهنة لديانا ، تنذر للعفة ، ولكن أتيس الصياد يراها فتهفو نفسه إليها ويضرب في الغابات يائساً . وتحرك عاطفة كاميللا أيضاً فتسأل ديانا « أليس ناموس الطبيعة مقدساً قداسة أمرك ؟ » ثم تصادف أيلاً جريحاً فتعنى به وتخفف ألمه ، فيلحق يدها ، ويتوسل إليها أتيس أن تهبه امتيازات مماثلة ، فتوبخه ، فيقفز من جرف عال طلباً للموت ، ولكن كيوييد يعترض سقطته ، وتحنو عليه كاميللا وترضى بعناقه ، غير أن ثعباناً ينشب نابه في صدرها المرمى ، فتموت بين ذراعي أتيس . ويمص أتيس السم من جرحها فيشرف على الموت . وتلين قناة ديانا ، وتردهما إلى الحياة ، وتحل كاميللا من نذورها العذرية . وينتهي كل شيء نهاية سعيدة . وقد أشاد بهذه القصيدة الرعوية المثقفون السويديون كما أشاد بها فولتير ، ولكن كروتز انصرف إلى السياسة وأصبح مستشاراً للسويد .

وإذا كانت هديفيج نورد نفليشت هي سافو السويد ، فإن كارل بلمان كان روبرت بيرنر السويد . نشأ في أحضان العز والتقوى ، ولكنه تعلم أن يفضل أغاني الحانات المرححة على ترانيم بيته الكنسية . ففي الحانات كانت حقائق الحياة والوجدان تعلن دون اكتراث بالتقاليد واللياقة ، وفيها يعرى الحمر كل نفس فتتيح للحقيقة أن تتكشف بين الوهم والغضب . وكان أكثر الشخصيات بعثاً للأسى في هذا الحطام البشرى يان فريدمان ، الذى كان يوماً ما صانع ساعات البلاط . والذى حاول الآن أن ينسى في الشراب فشل زواجه . وأكثرها مرحاً ماريا كيلشتروم ، ملكة الأعماق السفلى . وقد غنى بلمان أغانيهم معهم ، وألف الأغاني عنهم ، وأنشدها أمامهم على أنغام موسيقى من تأليفه . وقد شاب بعض أغانيه شيء من التحلل ، فوبخه

كيلجرين ، الأمير غير المتوج لشعراء العصر . ولكن حين أعد بلمان « رسائل فريدمان » للطبع (١٧٩٠) قدم كيلجرين لهذه الرسائل الشعرية بمقدمة حماسية ، وحظى الكتاب بجائزة من الأكاديمية الملكية السويدية . واستمع جوستافس الثالث إلى بلمان في سرور ، ولقبه « أناكريون الشمال » ومنحه وظيفة شرقية في الحكومة . على أن اغتيال الملك (١٧٩٢) ترك الشاعر بغير مورد ، فتردى في مهاوى الفقر ، وحبس للدين ، ثم أفرج عنه بمعونة أصدقائه . وبينما كان مشرفاً على الموت بالسل وهو في الخامسة والخمسين أصر على زيارة حانته الأثيرة لآخر مرة ، وراح يغنى فيها حتى يبح صوته . ولم يلبث أن وافته منيته في ١١ فبراير ١٧٩٥ . ويعده البعض « أكثر الشعراء السويدين أصالة » و « بالإجماع أعظم شاعر في زمرة الشعراء » الذين شرفوا هذا العهد (٥١) .

ولكن الرجل الذى أقر معاصروه بأنه لا يفضلُه سوى الملك في حياة العصر الفكرية هو يوهان هنريك كيلجرين . كان ابناً لقسيس ، ولكنه تنكر للعقيدة المسيحية ، وسار في ركاب التنوير الفرنسى ، ورحب بكل للذائد الحياة ومتعها بأقل قدر من الندم . وكان أول كتبه « ضحكى » ، أغنية طويلة للفرح ، بما فيه أفراح العشق ؛ وقد أشاد كيلجرين بالضحك باعتباره « العلامة الوحيدة الإلهية المميزة للبشرية » وناشده أن يصبحه حتى آخر أيامه (٥٢) . وفى ١٧٧٨ ، وهو فى السابعة والعشرين ، اشترك مع كارل بيتر لنجرين فى تأسيس مجلة « بريد ستوكهولم » ، وقد جعل قلمه المرح هذه المجلة الصوت الغالب فى الحياة العقلية السويدية على مدى سبعة عشر عاماً ؛ وفى صفحاتها بسط التفوير الفرنسى سلطانه كاملاً ، وشرف الأسلوب الكلاسيكى باعتباره اسماً معياراً للتفوق . وسخرت المجلة من الرومانسية الألمانية ، وامتدحت خليات كيلجرين فى قصائد أفزعت المحافظين فى البقاع النائية . على أن اغتيال ميلكه المحبوب انتزع من فلسفة اللذة التى دان بها الشاعر . وفى ١٧٩٥ أفلت منه زمام إحدى علاقاته الغرامية فعمقت حتى أصبحت حباً صادقاً . وبدأ كيلجرين يعترف بحقوق الرومانس ، والمثالية ، والدين ، وعدل عن إدانته لشيكسبير وجوته ، ورأى أن رأس الحكمة قد يكون مخافة

الله (رغم كل شيء) . على أنه حين مات (١٧٩٥) غير متجاوز الرابعة والأربعين . طلب ألا تفرغ لموته نواقيس (٥٣) وهكذا عاد في النهاية ابنا لفولتير .

ومن النواحي الساحرة في خلقه استعدادده لفتح أعمدة مجلته لمعارضى آرائه . وكان أعنفهم توماس توريلد : الذى أعلن الحرب على التنوير باعتباره الإعجاب الفج بالفكر السطحى . وقد روع توريلد ستوكهولم وهو فى الثانية والعشرين بكتابه « العواطف المشبوبة » الذى قال عنه إنه « يحوى القوة الكاملة لفلسفتى والبهاء كله لخيالى - طليقاً ، نشوان ، رائعاً » . وصرح بأن « حياته بأسرها مكرسة . . . للكشف عن الطبيعة وإصلاح العالم » (٥٤) . واتف حول له نفر من الأدباء المتمردين الذين أججوا نارهم بوقود الحركة الزوبعية وفضلوا كلويشتوك على جوته : وشكسبير على راسين . وروسو على فولتير . فلما أخفق توريلد فى كسب جوستافس لصفه ، هاجر إلى إنجلترا (١٧٨٨) ، وغذى روحه بجيمس طومس ، وإدوارد يونج ، وصموئيل رتشر دسن ، وانضم إلى المتطرفين الذين ناصروا الثورة الفرنسية . وفى ١٧٩٠ قفل إلى السويد ونشر دعوة سياسية حملت الحكومة على نفيه . وبعد أن قضى عامين فى ألمانيا سمح له بالعودة إلى السويد حيث استكان إلى كرسي فى الجامعة .

وقد لمع فى سماء الأدب نجوم آخرون . منهم كارل جوستاف آف ليوبولد الذى سر الملك بما اتسم به شعره من شكل كلاسيكى وطابع مهيب . ومنهم بنجت ليدنر الذى أثر الرومانس كما أثره توريلد . وقد طرأ من جامعة لوند لمغامراته الطائشة (١٧٧٦) ، ثم واصل دراساته وانخرط فى رويشتوك ، فوضع على ظهر سفينة مبحرة إلى جزر الهند الشرقية . ولكن هرب منها ، وعاد إلى السويد ، وأثار انتباه جوستافس بديوان من القصائد الخرافية الشعرية ، وقد عين سكرتيراً للكونت كرويتز فى سنارة بائس وهناك درس النساء أكثر من السياسة ، فأرسل إلى وطنه ، حيث مات

فقيراً في الخامسة والثلاثين (١٧٩٣) . وقد كفر عن حياته بثلاثة دواوين تضطرم بنار بايرونية . ثم هناك شاعرة متواضعة هي آنا ماريا لنجرين ، زوجة مساعد كيلجرين في تحرير مجلة بريد ستوكهولم . فقد أسهمت فيها بشعر أكسبها ثناء خاصاً من الأكاديمية الملكية السويدية . ولكنها لم تسمح لربة شعرها أن تعرفها عن أداء واجباتها المنزلية ؛ وفي قصيدة موجهة إلى ابنة وهمية نصحتها بأن تتجنب السياسة والمجتمع وتقتنع بواجبات البيت ومباهج الحياة البتية .

ونسأل الآن ، هل قامت في الفن السويدي أى حركة تتجاوب مع الأدب والدراما ؟.. قليلاً ... ومن أمثلتها أن كارل جروستاف التسيني زخرف بالروكوك (حوالى ١٧٥٠) القصر الملكي الذى بناه أبوه نيقوديموس تسين في ١٦٩٣ - ٩٧ . وجمع مجموعة وافرة من الصور والتماثيل هي الآن جزء من متحف ستوكهولم القومى . وحفر يوهان طوبياس زرجيل بالأسلوب الكلاسيكى تماثلاً لفينوس وآخر لفون سكران (وهو إله الحقول والقطعان) ، وخلد في الرخام ملامح يوهان باش الغليظة . وكان هناك أربعة مصورين في أسرة باش : لورننس الأكبر ، وأخوه يوهان ، وأخته أولريكا ، ولورننس الأصغر ، وصور كل منهم الملكية والنبالة ، وكانوا جانباً متواضعاً في التنوير الرائع الذى ازدان به هذا الحكم .

٤ .. الاغتيال

كان الملك ذاته هو الذى ختم هذا الازدهار الرائع ختاماً حزيناً . ذلك أن الثورة الأمريكية التي عضدتها فرنسا أعظم تعصيد بدت له خطراً يهدد كل الملكيات . فوصف المستعمرين بأنهم « رعايا متمردون » وأقسم أنه لن يعترف بهم أمة حتى يحلهم ملك إنجلترا من عین الولاء له ^(٥٥) . وراح في العقد الأخير من عمره يحكم زمام السلطنة الملكية أكثر فأكثر . ويحيطها بالاحتفالات والمراسم ، ويقتضى معاونه الأكفاء ذوى العقول المستقلة ليحل محلهم خداماً له يمثلون لرغباته دون تردد أو معارضة . وبدأ يقيد الحرية التي منحها للمطبوعات . وحين وجد زوجته امرأة غبية حامله إنغمس في

مغازلات (٥٦) صدمت الرأي العام الذى كان يتوقع من ملوك السويد أن يكونوا للأمة قدوة فى المحبة والولاء الزوجيين . ثم نفر الشعب بتقريره احتكار الحكومة لتقطير المسكرات ، وتهرب الفلاحون الذين ألفوا أن يقطروا شراهم بأنفسهم من هذا الاحتكار بعشرات الحيل . وقد أنفق مالا متزايداً على الجيش والبحرية ، وكان يتأهب بشكل ظاهر للحرب مع روسيا . فلما جمع مجلس الأمة مرة ثانية (٦ مايو ١٧٨٦) افتقد فى طبقاته ذلك الإجماع الذى وافق به مجلس ١٧٧٨ على قوانينه ، ورفض المجلس مقترحاته كلها تقريباً ، أو عدلها تعديلاً أفقدها قيمتها ، فاضطر الملك إلى إلغاء احتكار الحكومة لتقطير الخمر . وفى ٥ يوليو فض المجلس وقرر أن يحكم البلاد دون موافقته .

وكانت هذه الموافقة طبقاً للدستور ١٧٧٢ ضرورية فى أى حرب إلا الحرب الدفاعية . وكان جوستافس ينوى الهجوم على روسيا . فما السبب ؟ لقد علم أن روسيا والدنمرك قد وقعتا (١٢ أغسطس ١٧٧٤) معاهدة سرية للعمل الموحد ضد السويد . وزار كاتن ين الثانية فى سانت بطرسبرج فى ١٧٧٧ ، ولكن تظاهرها بالصدافة لم يخدع المضيف ولا ضيفها . فلما تكاثرت انتصارات روسيا على تركيا ، خشى جوستافس إذا لم يقيم بعمل لإنهائها أن توجه الامبراطورية عاجلاً جيوشها الضخمة غرباً بأمل إخضاع السويد لمشيئتها على نحو ما فعلت ببولنده : فهل من سبيل لإحباط تلك الخطة ؟ لاسبيل فى رأى الملك إلا أن تعان تركيا بهجوم جناحى على سانت بطرسبرج . وساعده السلطان على اتخاذ هذا القرار بعرضه على السويد إعانة قدرها مليون قرش كل سنة على امتداد السنوات العشر التالية إذا انضمت إليه فى الجهد المبذول لكبح جماح كاترين . وعلى الملك نفسه بأن السويد قد تستطيع الآن أن تسترد ما أسلمته لبطرس الأكبر فى ١٧٢١ . وعليه فى ١٧٨٥ بدأ جوستافس فى تجهيز جيشه وبحريته للحرب . وفى ١٧٨٨ أرسل إلى روسيا انذاراً نهائياً طالب فيه برد كارايا وليفوينيا للسويد . وبرد القرم لتركيا . وفى ٢٤ يونيو أبحر قاصداً فنلنده . وفى ٢ يوليو . تولى فى هلسنكي بورس قيادة قواته المتجمعة . وشرع فى الزحف على سانت بطرسبرج .

ولكن الحظ خانة في كل شيء فالأسطول أوقفه أسطول روسي صغير في معركة غير حاسمة تجاه جزيرة هوجلاند (١٧ يوليو) . وتمرد في الجيش ١١٣ ضابطاً . متهمين الملك بأنه حنث بعهده بالألا يشن حرباً هجومية دون موافقة مجلس الأمة . ووافدوا مبعوثاً إلى كاترين يعرضون عليها أن يضعوا أنفسهم تحت حمايتها وأن يتعاونوا معها في جعل فنلندة السويدية والروسية دولة مستقلة . وجردت الدنمرك على عجل خلال ذلك جيشاً يهاجم جوتبورج ، أغنى مدينة في السويد . وتقبل جوستافس هذا الغزو باعتباره تحدياً يستنفر شعبه ، ووجه نداه إلى الأمة لاسيا الفلاحين الصلاب أهل مناطق التعدين المسمين « ديلز » ليعطوه جيشاً جديداً أكثر ولاء له ، وذهب بشخصه مرتدياً الزى الذى يتميز به رجال الديلز ليعخطبهم من فناء الكنيسة في قرية مورا وهو الفناء الذى التمس فيه جوستافس فازامعوتهم في ١٥٢١ . واستجاب الشعب ، وتألفت أفواج المتطوعين في مائة مدينة . وفي سبتمبر ركب الملك الذى كان يقاتل لأجل حياته السياسية ٢٥٠ ميلا في ثمان وأربعين ساعة ، وشق طريقه إلى جوتبرج . واستنفر الحامية لتواصل دفاعها ضد اثني عشر ألف من الدنمركيين الذين محاصرونها . وتحول الحظ إلى جانبه . ذلك أن بروسيا التى كرهت أن تترك السويد تخضع لروسيا هددت بشن الحرب على الدنمرك . فانسحب الدنمركيون من الأرض السويدية . وعاد جوستافس ظافراً إلى عاصمته .

أما وقد اشتد ساعده بجيش جديد موال له فقد دعا مجلس الأمة للانعقاد في ٢٦ يناير ١٧٨٦ . وأيد سبعمائة عضو من أعضاء مجلس النبلاء — وعددهم ٩٥٠ — الضباط المتمردين . واکن المجالس الأخرى — القساوسة . وأهل المدن . والفلاحين — ناصروا الملك بأغلبية ساحقة . وأعلن جوستافس الحرب السياسية على النبلاء بتقديمه المجلس الأمة « قانوناً للوحدة والأمن » أنهى كثيراً من امتيازات الطبقة الارستقراطية ، وفتح باب المناصب كلها تقريباً للمرأة . وأعطى الملك سلطات ماركية مطلقة في التشريع والإدارة والحرب والصلح . وأعطى الملك الثلاث الدنيا القانون . أما طبقة النبلاء فقد رفضته . واعتقل جوستافس واحداً وعشرين نبيلاً .

الكونت فردريك آكسل فون فرسن والبارون كارل فردريك فون بكليين— وأحدهما رجل شريف الخلق غير فعال ، والآخر ذكى غادر . ولكن سلطة المال ظلت في يد مجلس الأمة ، وكانت موافقة المجالس الأربعة جميعها شرطاً لإقرار الاعتمادات المالية . ووافقت مجالس الطبقات الثلاث الدنيا على المال الذي طلبه الملك — للفترة التي يراها ضرورية — لمواصلة الحرب ضد روسيا ، أما مجلس النبلاء فرفض أن يوافق على الاعتمادات لأكثر من سنتين . وفي ١٧ أبريل دخل الملك مجلس النبلاء ، واتخذ مقعد الرئيس ، وطلب إلى النبلاء أن يوافقوا على قرار المجالس الثلاثة الأخرى . ورجحت كفة الرافضين ، ولكن الملك أعلن أن اقتراحه فاز . وشكر النبلاء على تأييدهم الكريم ، ثم خرج بعد أن خاطر باغتباله بأيدي النبلاء الساخطين .

وأحس الآن أنه مطلق اليد في خوض الحرب . فأعاد فيما بقي من عام ١٧٨٩ بناء الجيش والأسطول . وفي ٩ يوليو ١٧٩٠ التقت بحريته بالبحرية الروسية في الجزء السفنيسكوندي من خليج فنلنده ، وأحرز أعظم نصر حاسم في تاريخ السويد البحري ، وخسر الروس ثلاثاً وخمسين سفينة و ٩,٥٠٠ رجل . واستعدت كاترين الثانية لعقد الصلح وهي ما تزال مشغولة بالترك ، فوافقت بمقتضى معاهدة فارالا (١٥ أغسطس ١٧٩٠) على أنها جهودها للهيمنة على سياسة السويد ، وأعيدت الحدود إلى ماكانت عليه قبل الحرب . وفي ١٩ أكتوبر ١٧٩١ أقنعها جوستافس بأن تبرم معه حلفاً دفاعياً تعهدت فيه بأن ترسل للسويد كل عام ٣٠٠,٠٠٠ روبل .

ولاريب في أن خوف العدوين القديمين المشترك من الثورة الفرنسية حولهما إلى هذه المشاركة الجديدة . وتذكر جوستافس في عرفان أن فرنسا كانت الصديق الوفي للسويد طوال ٢٥٠ عاماً ، وأن لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر أمداه بمعونة بلغت ٣٨,٣٠٠,٠٠٠ جنيه بين عامي ١٧٧٢ و ١٧٨٩ . واقترح تأليف عصبة من الأمراء والملوك تغزو فرنسا وتعيد الملكية إلى سابق قوتها ، وأوفد هانز آكسل فون فرسن (وهو ابن عدوه الكونت فون فرسن) ليدبر فرار لويس السادس عشر من باريس ،

وذهب بنفسه إلى إكس — لا — شابل ليقود جيش الحلفاء ، وسمح للمهاجرين الفرنسيين بالالتجاء إلى معسكرة . وقدمت كاترين المال دون للرجال . ورفض ليوبولد الثاني التعاواند ، وقفل جوستافس إلى ستوكهولم ليحمى عرشه .

ذلك أن النبلاء الذين قضى على سيادتهم السياسية لم يرتضوا الهزيمة ، وكانوا يرون في حكم جوستافس الاستبدادى انتهاكاً صريحاً للقانون الذى أقسم من قبل على مساندته . وأطال يعقوب أنكارشتروم التفكير فى سقوط طبقته ، « لقد فكرت كثيراً فى أنه قد يكون هناك سبيل مشروع لجعل الملك يحكم وطنه وشعبه بمقتضى القانون ومحبة الخير ، ولكن كل الأدلة قامت ضدى . . . فخير أن يغامر إنسان بحياته فى سبيل المصلحة العامة » ، وفى ١٧٩٠ حوكم بتهمة التحريض « لقد عقدت هذه المحنة . . . عزى على أن أموت خيراً من أن أحيى حياة تعسة ، حتى إن قلبى الذى طبع فى غير هذا على الحساسية والمحبة انقلب قاسياً أشد القسوة فيما يتصل بهذه الفعلة الشنيعة » (٥٧) . وانضم بكليين — كونت كارل هورن — وغيره إلى المؤامرة التى بيئت قتل الملك .

وفى ١٦ مارس ١٧٩٢ . وهو تاريخ يذكر بغير ذكرى مشنومة ، تلقى جوستافس رسالة تحلده من الذهاب إلى مرقص تنكرى حددت له تلك الليلة فى المسرح الفرنسى . وذهب الملك نصف مقنع ، ولكن الأوسمة التى حملها على صدره كانت تشى بمقامه . فتعرف عليه أنكارشتروم ، وأطلق عليه النار ، ثم فر هارباً . وحملوا جوستافس إلى مركبة مضوا بها إلى القصر الملكى مخترقين جمعاً هائجاً مضطرباً . وكان ينزف نزفاً خطراً ، ولكنه علق مداعباً بأنه أشبه بباباً يحمل فى موكب يخرق طرق روما . ولم يمض على الهجوم ثلاثة ساعات حتى قبض على أنكارشتروم ، ثم على رؤوس المؤامرة أجمعين بعد أيام . واعترف هورن بأن المؤامرة تضم مائة متآمر .

وطالبت الجماهير بإعدامهم ، وأوصى جوستافس بالترفق بهم . فجلد أنكارشتروم ، وقطع رأسه ، ومزق جسده أرباعاً ، وأفسح لجوستافس في الأجل عشرة أيام ، فلما أنبى بأن لم يبق له في الحياة غير ساعات ، أملى وثائق بتعيين هيئة وصاية تحكم البلاد والعاصمة . ثم مات في ٢٦ مارس ١٧٩٢ بالغاً من العمر خمسة وأربعين عاماً . وبكته الأمة كلها تقريباً ، لأنها تعلمت أن تحبه رغم أخطائه . وأدركت أن السويد تحت قيادته عاشت عصراً من أبجد العصور في تاريخها .





- of a Pilgrimage to Al-Madinah and Meccah, II, 94.
8. Letter of Apr. 18, 1717, in Montagu, *Letters*, I, 318.
9. Letter of Apr. 1, 1717, in same, 286.
10. Friedländer, L., *Roman Life and Manners*, II, 201.
11. Frederick, *Mémoires*, I, 55.
12. Sir Wm. Petty, *Political Arithmetic* (1683).
13. Halsband, 74.
14. See *The Age of Louis XIV*, 425-26.
15. Lane, I, 172.
16. Lane-Poole, *Cairo*, 180.
17. Lane, I, 98.
18. *Ibid.*, 66.
19. *Enc. Brit.*, I, 618a.
20. *Ibid.*, XV, 816d.
21. Toynbee, *A Study of History*, I, 162.
22. Browne, Edward G., *Literary History of Persia*, IV, 135.
23. *Ibid.*, 136; Sykes, Sir Percy, *History of Persia*, II, 160.
24. *Ibid.*, 267.
25. *Enc. Brit.*, XII, 705b; Pope, Arthur U., *Survey of Persian Art*, IV, 470, 497-506.
26. Sykes, II, 201.
27. Pope, Arthur U., *Introduction to Persian Art*, 140.
28. Browne, E. G., IV, 282.
29. *Ibid.*, 291-96.

CHAPTER XVII

1. Frederick the Great, *Mémoires*, I, 207.
2. Lyashchenko, Peter, *History of the National Economy of Russia*, 271-73.
3. *Ibid.*
4. Réau, Louis, *L'Art russe*, II, 88.
5. Florinsky, M. T., *Russia: A History and an Interpretation*, I, 575.
6. Mayor, James, *Economic History of Russia*, I, 477.
7. Réau, II, 88.
8. Mayor, I, 498-99.
9. Bernal, J. D., *Science in History*, 360.
10. Coxe, Wm., *Travels in Poland, Russia, Sweden, and Denmark*, I, 281-82.
11. Castéra, J., *History of Catherine II*, 174.
12. Dorn, *Competition for Empire*, 70.
13. Florinsky, I, 600; Brückner, A., *Literary History of Russia*, 113.
14. Coxe, *Travels*, I, 322.
15. Masson, *Memoirs of Catherine II and Her Court*, 250.
16. Pougin, Arthur, *Short History of Russian Music*, 10 f.
17. Réau, II, 55.
18. Brückner, 78.
19. Waliszewski, K., *History of Russian Literature*, I, 57.

CHAPTER XVI

1. Montagu, Lady Mary W., *Letters*, I, 372; cf. Macdonald, Duncan, *The Religious Attitude to Life in Islam*, 126.
2. Lane, Edward W., *Manners and Customs of the Modern Egyptians*, I, 148; Macdonald, Duncan, *Development of Muslim Theology*, 283; Wherry, E. M., *Commentary on the Quran*, I, 281.
3. Macdonald, D., *Religious Attitude*, 126.
4. Doughty, Charles M., *Travels in Arabia Deserta*, II, 99.
5. Halsband, Robert, *Life of Lady Mary Wortley Montagu*, 73.
6. Lane-Poole, Stanley, *Story of Turkey*, 319.
7. Burton, Sir Richard, *Personal Narrative*

20. Wiener, Leo, *Anthology of Russian Literature*, I, 124-29.
21. Rambaud, Alfred, *History of Russia*, II, 170.
22. Waliszewski, *Peter the Great*, 224.
23. Waliszewski, *Russian Literature*, 83.
24. *Ibid.*
25. 85.
26. Catherine the Great, *Memoirs*, 60.
27. Waliszewski, *Romance of an Empress*, 47.
28. *Ibid.*
29. 25.
30. Kluchevsky, V. O., *History of Russia*, IV, 354.
31. Catherine, *Memoirs*, 58.
32. Gooch, G. P., *Catherine the Great*, 11.
33. *CMH*, VI, 317.
34. Carlyle, *History of Frederick the Second*, V, 294.
35. Waliszewski, *Romance of an Empress*, 34.
36. Kluchevsky, IV, 358.
37. Casanova, *Memoirs*, I, 33-34.
38. *CMH*, VI, 658.
39. Catherine, *Memoirs*, 28.
40. *Ibid.*, 44-45.
41. 29-30.
42. 54.
43. 62.
44. 63.
45. 65.
46. *CMH*, VI, 659.
47. Waliszewski, *Romance*, 78.
48. *Ibid.*
49. Kluchevsky, IV, 360.
50. Castéra, 122-23.
51. Waliszewski, *Romance*, 91.
52. Catherine, *Memoirs*, 203.
53. Castéra, 89.
54. Walpole, H., *Memoirs of the Reign of King George III*, I, 145.
55. Catherine, *Memoirs*, 208.
56. Gooch, *Catherine*, 8.
57. Catherine, 301.
58. *Ibid.*, 240.
59. 255 f.
60. Waliszewski, *Romance*, 102; Crocker, *The Embattled Philosopher*, 378.
61. Catherine, 271-74; Waliszewski, *Romance*, 119.
62. *Ibid.*, 125.
63. Catherine, 282.
64. Waliszewski, *Romance*, 145.
65. *Enc. Brit.*, XVII, 645b.
66. Castéra, 153.
67. Rambaud, II, 175.
68. Kluchevsky, IV, 366.
69. Castéra, 147, 157.
70. *Ibid.*, 156; *CMH*, VI, 328.
71. Kluchevsky, IV, 362.
72. Castéra, 152.
73. Waliszewski, *Romance*, 166.
74. *Ibid.*, 166; Castéra, 158.
75. Waliszewski, 166.
76. *Ibid.*, 164.
77. Gooch, *Catherine*, 16.
78. Catherine, 343.
79. *Ibid.*
80. Waliszewski, *Romance*, 176.

CHAPTER XVIII

1. Letter of Catherine to Potemkin, Aug. 2, 1762, in Catherine, *Memoirs*, 347.
2. Kluchevsky, IV, 371.
3. Catherine, 345.
4. Kluchevsky, IV, 371.
5. Catherine, 345.
6. Florinsky, I, 502.
7. *CMH*, VI, 663.
8. Waliszewski, *Romance of an Empress*, 199.
9. *Ibid.*
10. Catherine, 370.
11. Gershey, *From Despotism to Revolution*, 303.
12. Rambaud, II, 207.
13. Florinsky, I, 504.
14. Brandes, *Voltaire*, 253.
15. Florinsky, I, 504.
16. Catherine, 263-72.
17. Masson, *Memoirs of Catherine II and Her Court*, 97.
18. Waliszewski, *Romance*, 383-88. Gooch, *Catherine*, 38.
19. Waliszewski, 4-6.
20. Masson, *Memoirs*, 98.
21. *Ibid.*
22. Catherine, 360.
23. *Ibid.*, 20.
24. Lewis, D. B. W., *Four Favorites*, 197.
25. Catherine, 376.
26. *Ibid.*, 48.
27. Gooch, *Catherine the Great*, 45.
28. Masson, *Memoirs*, 116.
29. Waliszewski, *Romance*, 448.
30. Masson, 118.
31. Parton, *Life of Voltaire*, II, 386; Gooch, 58.
32. Voltaire, letter of May 18, 1767, in Desnoiresterres, VI, 380.
33. Parton, II, 388.
34. Desnoiresterres, VI, 380.
35. Letter of Sept. 7, 1764.
36. Crocker, *Embattled Philosopher*, 373.
37. Diderot, *Oeuvres*, 28.
38. In Ellis, Havelock, *The New Spirit*, 47.
39. Morley, John, *Diderot*, II, 113.
40. *Ibid.*, 114.
41. In Faguet, *Dix-huitième Siècle*, 242.
42. Crocker, 380.
43. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 215.

44. Padover, *Revolutionary Emperor*, 161.
45. Sainte-Beuve, II, 216.
46. Catherine, 365.
47. Castéra, 226; cf. Waliszewski, *Romance*, 371-82.
48. Coxe, *Travels in Poland*, III, 156; Castéra, 385.
49. Quoted by Voltaire in *Philosophical Dictionary*, II, 102.
50. Florinsky, I, 511; CMH, VI, 686.
51. In Gooch, *Catherine*, 69.
52. Voltaire to Catherine, Feb. 26, 1769.
53. In Rambaud, II, 206.
54. Voltaire, *Phil. Dict.*, art. "Power."
55. Mavor, *Economic History of Russia*, I, 241; Rambaud, II, 211.
56. Waliszewski, *Romance*, 365.
57. Garrison, F., *History of Medicine*, 400.
58. Castéra, *Catherine*, 297; Rambaud, II, 212.
59. Mavor, I, 313-14.
60. *Ibid.*, 472.
61. CMH, VI, 690.
62. Waliszewski, *Romance*, 298.
63. Lyashchenko, 273.
64. Mavor, I, 204-08.
65. Gershoy, 125.
66. Catherine, *Memoirs*, 385.
67. Gershoy, 123.
68. Florinsky, I, 567-68.
69. Waliszewski, *Romance*, 321.
70. *Ibid.*
71. Rambaud, II, 192; *Cambridge History of Poland*, II, 103.
72. Gooch, *Catherine*, 63.
73. Rambaud, II, 192.
74. CMH, VI, 674.
75. Quoted by George Bancroft in *Literary and Historical Miscellanies*, 359.
76. Gooch, *Catherine*, 51.
77. Lewis, *Four Favorites*, 213.
78. *Ibid.*, 179.
79. 215; Bain, R. N., *The Last King of Poland*, 175.
80. Florinsky, I, 531.
81. Catherine, 15.
82. Gilbert, *Prince de Ligne*, 139; Waliszewski, *Romance*, 209.
83. Castéra, 575.
84. Gooch, *Catherine*, 96.
85. Reddaway, *Frederick the Great*, 340.
86. Waliszewski, *Romance*, 233, 287.
87. *Ibid.*, 388.
88. Catherine, 377.
89. CMH, VI, 696.
90. Waliszewski, *Romance*, 237.
91. Wiener, *Anthology of Russian Literature*, I, 272-76.
92. *Ibid.*, 385.
93. 390.
94. 381.
95. Waliszewski, *History of Russian Literature*, 193.
96. Brückner, *Literary History of Russia*, 102.
97. *Ibid.*, 115.
98. 116.
99. 105-07.
100. Waliszewski, *Romance of an Empress*, 342.
101. Réau, *L'Art russe*, II, 111.
102. *Ibid.*, 68.
103. Waliszewski, *Romance*, 349.
104. *Enc. Brit.*, XIX, 747b.
105. Waliszewski, *Romance*, 346.
106. Réau, II, 76.
107. *Ibid.*
108. 79.
109. Masson, *Memoirs of Catherine II and Her Court*, 93.
110. Gilbert, *Prince de Ligne*, 143.
111. Brückner, 112.
112. Morley, John, *Diderot*, II, 128; Rambaud, II, 245.
113. *Ibid.*, 247.
114. Masson, *Memoirs*, 303-06.
115. Catherine, 20.
116. Masson, 66.
117. Gooch in introd. to Catherine, *Memoirs*, 10.
118. Otto Höttsch in CMH, VI, 701.

CHAPTER XIX

1. Gershoy, *From Despotism to Revolution*, 37.
2. Goodwin, *The European Nobility*, 161.
3. Waliszewski, *Poland the Unknown*, 127.
4. Bain, R. Nisbet, *The Last King of Poland*, 22; Friedländer, L., *Roman Life and Manners*, II, 162.
5. Bain, 43.
6. *Cambridge History of Poland*, II, 75.
7. *Ibid.*, 76-77; Coxe, Wm., *Travels in Poland*, II, 125.
8. *New CMH*, VII, 374; Lewinski-Corwin, E. H., *Political History of Poland*, 286.
9. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 73.
10. Bain, *Last King of Poland*, 100.
11. *Ibid.*, 59.
12. 31-32.
13. See *The Age of Louis XIV*, 374, 385-87.
14. CHP, II, 24.
15. Lewinski-Corwin, 289.
16. Bain, *Last King*, 55.
17. *Ibid.*, 56.
18. Aldis, *Madame Geoffrin*, 248.
19. Florinsky, *Russia*, I, 527.
20. Aldis, 251.
21. *Ibid.*, 282.
22. CHP, II, 116; Bain, 161.
23. Bain, *Last King*, 121.
24. Rambaud, *History of Russia*, II, 188.
25. CHP, II, 118.
26. CHP, II, 97-98; Bain, 77-78.

27. Rambaud, II, 188.
28. Bain, *Last King*, 78.
29. *CHP*, II, 120.
30. Voltaire, *Philosophical Dictionary*, art. "Superstition," Sec. III.
31. Martin, H., *Histoire de France*, XVI, 167.
32. *CHP*, II, 102.
33. *Ibid.*, 103.
34. *Ibid.*; Bain, 108.
35. Bain, *Last King*, 108.
36. *Ibid.*, 2.
37. *Enc. Brit.*, XVIII, 143d.
38. Treitschke, *Life of Frederick the Great*, 164.
39. *CMH*, VI, 670.
40. Lewis, D. B. W., *Four Favorites*, 202.
41. Gershoy, 180.
42. Morley, John, *Life of Voltaire*, in *Voltaire, Works*, XXIIb, 346; Florinsky, I, 537.
43. Coxe, *Travels in Poland*, I, 159.
44. Bain, *Last King*, 121.
45. *CHP*, II, 181-82.
46. Bain, 102.
47. *CHP*, II, 181-83.
48. *Ibid.*, 135.
49. Bain, *Last King*, 249.
50. *Ibid.*, 278.
51. *CHP*, II, 155.
52. Carlyle, *History of Friedrich the Second*, IV, 179n.
53. Frederick to Voltaire, Feb. 10, 1767.
54. Chesterfield to his son, *Letter.*, June 23, 1752.
55. Schoenfeld, *Women of the Teutonic Nations*, 299.
56. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 106; Gershoy, 75.
57. Paulsen, *German Education*, 142.
58. Gershoy, 284.
59. Carlyle, *Friedrich*, VII, 201.
60. Gershoy, 76; Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 297.
61. *Ibid.*, 299.
62. Bruford, W. H., *Germany in the 18th Century*, 186.
63. *CMH*, VI, 718.
64. Gershoy, 84.
65. Frederick, *Testament* (1768), in *CMH*, VI, 723.
66. Bruford, 22.
67. Casanova, *Memoirs*, I, 349.
68. Burke, *Thoughts on French Affairs*, in *Reflections on the French Revolution*, 296.
69. Pascal, Roy, *The German Sturm und Drang*, 75-76.
70. Goethe, *Truth and Fiction*, I, 163.
71. Sime, James, *Lessing*, II, 131.
72. Schiller, *Poems*, 219-20, in *Works*.
73. Eckermann and Soret, *Conversations with Goethe*, 79.
74. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 44.
75. Bruford, 39.
76. *Enc. Brit.*, IX, 152b.
77. Padover, *Revolutionary Emperor*, 269.
78. Campbell, Thos., *The Jesuit*, 611.
79. Smith, Preserved, *History of Modern Culture*, II, 204.
80. Smith, N. K., *Commentary to Kant's "Critique of Pure Reason"*, 6.
81. Eckermann, introduction.
82. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 118.
83. *Ibid.*, 116-17.
84. Goethe, *Truth and Fiction*, II, 251. In *Works*.
85. F. C. Schlosser in Monroe, Paul, *Textbook in the History of Education*, 580.
86. Morley in Voltaire, *Works*, XXIIb, 153.
87. Nettle, *Mozart and Masonry*, 9.
88. Robertson, J. M., *Short History of Free Thought*, II, 318.
89. *Ibid.*.
90. 331.
91. Sime, *Lessing*, I, 27.
92. Garland, H. B., *Lessing*, 154.
93. *Ibid.*, 118.
94. Lessing, *Laocoön*, 190; Ch. xxvi, *ad. imit.*
95. Bosanquet, *History of Aesthetics*, 211n.
96. Lessing, *Laocoön*, 56.
97. *Ibid.*, 57.

CHAPTER XX

1. In Gooch, *Frederick the Great*, 65.
2. MacLaurin, C., *Mere Mortals*, 195.
3. Mowat, R. B., *The Age of Reason*, 61.
4. Gooch, *Frederick*, 121.
5. Mann, Thos., *Three Essays*, 213.
6. Sir James Harrison in Gooch, *Frederick*, 149.
7. In Rolland, *Musical Tour*, 214.
8. *New York Times*, Mar. 10, 1929.
9. Frederick, letter of Oct. 30, 1770, in Voltaire and Frederick, *Letters*, 314.
10. Crocker, Lester, *Age of Crisis*, 133.
11. Gooch, *Frederick*, 138.
12. Gershoy, *From Despotism to Revolution*, 86.
13. Voltaire and Frederick, *Letters*, 249.
14. Frederick to Voltaire, July 2, 1759, and Oct. 31, 1760, in *Letters*, 256, 270.
15. Bertaut, J., *Napoleon in His Own Words*, 463.
16. Treitschke, *Life of Frederick*, 182.
17. In Hazard, Paul, *European Thought in the 18th Century*, 333.
18. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 344.
19. *Ibid.*, 347.
20. In Mowat, 105.
21. Morley, in Voltaire, *Works*, XXIIb, 195.
22. Sainte-Beuve, I, 220-21.
23. Voltaire and Frederick, *Letters*, 282.

69. Sime, II, 4.
70. *Ibid.*, 55.
71. Lessing, *Hamburgische Dramaturgie*, No. 70, in Garland; 64.
72. Lessing, *Sämtliche Schriften*, X, 53, in Sime, II, 206.
73. Sime, II, 85.
74. Casanova, II, 271.
75. See *The Age of Voltaire*, 502.
76. Sime, II, 348.
77. Lessing, *Education of the Human Race*, No. 74 (Harvard Classics, Vol. XXXII, 212).
78. *Ibid.*, Nos. 85-86.
79. Brandes, *Goethe*, I, 434; Cassirer, *Philosophy of the Enlightenment*, 190.
80. Sime, II, 300; Brandes, *Goethe*, I, 434.
81. Sime, II, 346.
82. *Ibid.*, 330.
83. Klopstock, *The Messiah*, ad finem.
84. Goethe, *Truth and Fiction*, I, 79; II, 5. In *Works*.
85. *Penguin Book of German Verse*, 175.
86. *Ibid.*, 178-90.
87. Goethe, *Truth and Fiction*, II, 350. In *Works*.
88. Eckermann, 370 (Feb. 18, 1829).
89. Bochn, Max von, *Modes and Manners*, IV, 238.
90. Pascal, Roy, *The German Sturm und Drang*, 5.
91. *Ibid.*, 31.
92. Francke, Kuno, *History of German Literature*, 312.
93. *Ibid.*, 310.
94. Boehn, 124.
95. Schloss Tiefurt, near Weimar.
96. Schlossmuseum, Weimar.
97. Sanssouci Palace, Potsdam.
98. Winckelmann, II, 36.
99. Leipzig, Museum der Bildenden Künste.
100. Munich, Neue Pinakothek.
101. Dresden Gemäldegalerie.
102. Winterthur, Museum des Kunstvereins.
103. Schlossmuseum, Weimar.
104. Dresden Gemäldegalerie.
105. Weimar Museum.
106. Jahn, *Mozart*, III, 235.
107. Láng, P. H., *Music in Western Civilization*, 580.
108. *Grove's Dictionary of Music*, I, 175.
109. Jahn, II, 65.
110. *Grove's*, I, 145-55, 177-81.
111. Gooch, *Frederick*, 298.
112. Frederick, *Mémoires*, I, 56 f.
113. Gooch, 309.
114. *Ibid.*, 305.
115. 319.
116. 323.
117. Frederick, *Mémoires*, I, 56.
118. Gooch, *Frederick*, 319.
119. *Ibid.*, 280.
120. 292.
121. 287.
122. 287.
123. 291.
124. 89.
125. 294.
126. In Hauser, Arnold, *Social History of Art*, II, 602.
127. Pascal, Roy, *Sturm und Drang*, 42.
128. MacLaurin, *Mere Mortals*, 201.
129. Gooch, *Frederick*, 110.

CHAPTER XXI

1. Paulsen, *Immanuel Kant*, 26n.
2. Überweg, F., *History of Philosophy*, II, 139.
3. T. M. Greene in introd. to Kant, *Religion within the Limits of Reason Alone*, xviii.
4. *Ibid.*, xxx.
5. Paulsen, Kant, 37.
6. Wilson, E. C., *Immanuel Kant*, 3.
7. Herder, *Briefe zur Beförderung der Humanität*, in Paulsen, Kant, 40.
8. Williams, H. S., *History of Science*, III, 27-28.
9. Lovejoy, Arthur, *The Great Chain of Being*, 266.
10. Harlow Shapley in Wilson, *Immanuel Kant*, 51.
11. Kant, *Critique of Judgment*, II, 78; Paulsen, 272n.
12. Überweg, II, 150.
13. Paulsen, 272n.
14. In Smith, N. K., *Commentary*, xix.
15. Kant, *Critique of Pure Reason*, 1st ed., 13 (preface).
16. *Critique of Judgment*, I, 3.
17. *Pure Reason*, 1st German ed., 10 (preface).
18. *Pure Reason*, 2d German ed., xlii.
19. *Ibid.*, xxx, xxxiv.
20. *Prolegomena to Any Future Metaphysics*, 9 (preface).
21. In Paulsen, 96.
22. *Pure Reason*, 1st Germ. ed., 112.
23. *Ibid.*, 125; *Prolegomena*, No. 36.
24. *Pure Reason*, 42.
25. *Ibid.*, 307, 375.
26. *Pure Reason*, 2d Germ. ed., 131-33, 136, 139, 143.
27. *Ibid.*, 428.
28. First ed., 622-23.
29. *Ibid.*, 627.
30. 671-73, 675.
31. 468.
32. 683-92, 698.
33. 700.
34. Karl Reinhold in Paulsen, 114.
35. *Prolegomena*, 13 (preface).
36. *Pure Reason*, first ed., 298, 752.

37. Robertson, J. M., *Short History of Free-thought*, II, 337.
38. *Pure Reason*, 2d ed., xxx, xxxiv.
39. Kant, *Fundamental Principles of the Metaphysics of Ethics*, 35.
40. Kant, *Critique of Practical Reason*, 313.
41. *Ibid.*, 248, 259.
42. 142.
43. *Fundamental Principles*, 68.
44. *Ibid.*, 57.
45. *Practical Reason*, 108-9, 146.
46. *Pure Reason*, 2d ed., 571-73.
47. *Ibid.*, xxviii, 566-69, 580-81; *Practical Reason*, 164 f.
48. *Ibid.*, 259 f.
49. 260.
50. *Pure Reason*, 1st ed., 819.
51. Cassirer, *Rousseau, Kant, and Goethe*, 25.
52. Heine, H., *Religion and Philosophy in Germany*, in Paulsen, 8a.
53. *Critique of Judgment*, I, 18, 15.
54. *Ibid.*, 4.
55. 46.
56. *Critique of Judgment*, II, 89.
57. *Ibid.*, 117.
58. Kant, *Werke*, VI, 129, in Cassirer, *Rousseau, Kant, and Goethe*, 39.
59. Überweg, II, 141.
60. Kant, *Religion within the Limits of Reason Alone*, 3.
61. *Ibid.*, 8.
62. 8.
63. 28.
64. 29.
65. Kant, *Education*, No. 19.
66. Kant, *Religion*, 35.
67. Kant, "Conjectural Beginning of the History of Man," in Überweg, II, 186.
68. Kant, *Religion*, 51.
69. *Ibid.*, 147, 159-61.
70. 142-43.
71. 91.
72. 63.
73. 117.
74. 57, 134.
75. 186.
76. 183-85.
77. 153, 164-65, 168, 112.
78. *Ibid.*, xxxiv.
79. Kant, *A Philosophical Treatise on Perpetual Peace*, 10.
80. *Ibid.*, 28.
81. 31.
82. *Practical Reason*, 341n.
83. *Perpetual Peace*, 78.
84. Paulsen, 351.
85. *Perpetual Peace*, 29-30; Smith, N. K., *Commentary*, lvii.
86. *Education*, No. 30.
87. *Ibid.*, No. 7.
88. Paulsen, 374.
89. *Practical Reason*, 326n.
90. *Ibid.*, introd. by T. G. Abbott, xliii.
91. *Ibid.*, xliv.
92. Paulsen, 45.
93. *Ibid.*, 47; Klinke, *Kant for Everyman*, 105.
94. Struckenbergh, *Life of Kant*, 340-54, in Robertson, J. M., *Free-thought*, II, 343.
95. Robertson, II, 345.
96. Letter of Apr., 1766, in *Religion within the Limits of Reason Alone*, introd., xxxvi.
97. Paulsen, 52.
98. Vaihinger, *The Philosophy of "As if,"* 313.
99. *Ibid.*, 316-17.
100. Witte, *Schiller*, 46.
101. Schiller, *Poems*, 290.
102. Eckermann, 79 (Apr. 14, 1824).
103. Emerson, lecture of 1842 on "The Transcendentalist," in Wilson, E. C., *Immanuel Kant*, 23.

CHAPTER XXII

1. Eckermann, 138 (Apr. 27, 1825).
2. Lewisoohn, L., *Goethe*, I, 134.
3. Schiller to Körner, Aug. 8 and Sept. 10, 1787, in Schiller and Körner, *Correspondence*, I, 140-43.
4. Brandes, *Goethe*, I, 307.
5. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 101.
6. Francke, *History of German Literature*, 253.
7. Wieland, *History of Aesthetics*, I, xxiv.
8. Francke, 255.
9. *Agathon*, I, 123 (Book III, Ch. ii).
10. *Ibid.*, Book III, Ch. iii.
11. In Francke, 258.
12. Eckermann, 285 (Sept. 26, 1827).
13. Mann, Thos., *Three Essays*, 8.
14. Goethe, *Truth and Fiction*, I, 181. In *Works*.
15. *Ibid.*, 155 f.
16. 209-30.
17. 178.
18. 175.
19. 233.
20. 318.
21. Goethe, *Works*, VII, 27.
22. *Truth and Fiction*, I, 306. In *Works*.
23. *Ibid.*, 367.
24. 368.
25. Brandes, *Goethe*, I, 71.
26. Autobiography of Heinrich Jung-Stilling in Lewisoohn, I, 49.
27. In Ludwig, Emil, *Goethe*, 31.
28. *Truth and Fiction*, I, 407.
29. In Ludwig, 42.
30. Eckermann, 291 (Oct. 8, 1827).
31. E.g., *Truth and Fiction*, II, 43.
32. *Ibid.*, 75.
33. Letter of June, 1771, in Lewisoohn, I, 57.

34. *Truth and Fiction*, II, 120.
35. *Ibid.*, 143.
36. Brandes, I, 140.
37. Ludwig, 57.
38. Goethe, *Götz von Berlichingen*, Act I, Sc. ii.
39. *Truth*, II, 167.
40. From Kestner's diary, in Lewisohn, I, 71.
41. *Truth*, II, 188.
42. *Ibid.*, 214.
43. 214.
44. Brandes, I, 273.
45. In Ludwig, 87.
46. Lewisohn, I, 101.
47. *Truth*, II, 216-17.
48. Eckermann, 52 (Jan. 2, 1824).
49. Goethe, *Werther*, letters of July 19 and 21 and Aug. 30, 1771.
50. Goethe, letter to Kestner, Nov. 20, 1774, in Lewisohn, I, 105.
51. Sime, *Lessing*, II, 100.
52. Lewisohn, I, 101.
53. Kestner, letter to Hennings, Nov. 18, 1772, in Pascal, *German Sturm und Drang*, 108.
54. *Truth*, Book XII.
55. In Ludwig, 94.
56. Lavater's diary, June 28, 1774, in Lewisohn, I, 90.
57. Goethe's letter of Nov. 12, 1816, in Lewisohn, II, 262.
58. Lewisohn, I, 295.
59. *Truth*, II, 261, 309.
60. Translation in Carus, Paul, *Goethe*, 245-47.
61. *Truth*, II, 318, 327.
62. *Ibid.*, 366.
63. Clark, Robert. *Herder*, 160.
64. *Truth*, II, 11.
65. *Ibid.*, 16.
66. In Pascal, *German Sturm und Drang*, 225.
67. Heiseler, B. von. *Schiller*, 49.
68. Schiller, *Poems*, 7. In *Works*.
69. *Ibid.*, 9.
70. Carlyle, *Life of Schiller*, 15. In *Works*.
71. Schiller, *The Robbers*, Act I, Sc. ii.
72. *Ibid.*, II, iii.
73. *Ibid.*
74. V. i.
75. Heiseler, 47.
76. Ungar, Frederick. *Friedrich Schiller*, 34.
77. Witte, *Schiller*, 131.
78. Heiseler, 83.
79. Schiller, *Philosophical Letters*, p. 376 (Letter 1). In *Works*.
80. *Ibid.*, 385 (Letter IV).
81. Schiller and Körner, *Correspondence*, I, 15.
82. *Ibid.*, 13-16.
83. Heiseler, 85.
84. *Ibid.*
85. Schiller and Körner, *Correspondence*, I, 30-33.

86. Körner to Schiller, July 8, 1785, in *Correspondence*, I, 36.

CHAPTER XXIII

1. Einstein, *Mozart*, 19.
2. Goethe, *Truth and Fiction*, I, 291. In *Works*.
3. Schiller to Körner, July 28 and Aug. 29, 1787.
4. Schiller and Körner, *Correspondence*, I, 85.
5. *Ibid.*, 90, 168.
6. Wieland, *Oberon*, introd.
7. Brandes, *Goethe*, II, 266-69.
8. Lewisohn, II, 209.
9. Schiller and Körner, I, 85.
10. Pascal, *German Sturm und Drang*, 17.
11. *Ibid.*, 18.
12. 17.
13. Goethe to Jacobi, Nov. 12, 1783.
14. Goethe to Lavater, December, 1783.
15. Schiller and Körner, I, 85.
16. Clark, *Herder*, 240.
17. Bancroft, Geo., *Literary and Historical Miscellanies*, 173.
18. Herder to Hamann, Jan. 13, 1777, in Pascal, 95.
19. Clark, *Herder*, 274-77.
20. Herder to Jacobi, Feb. 6 and Dec. 30, 1764, in Pascal, 104.
21. Pascal, 104.
22. Clark, 340.
23. Pascal, 106.
24. Clark, 303.
25. *Ibid.*, 322.
26. 357.
27. 368.
28. Lewisohn, I, 133.
29. *Ibid.*
30. 153.
31. Eckermann, 285 (Sept. 26, 1827).
32. Lewisohn, I, 124.
33. *Ibid.*, 135.
34. 137-40.
35. 141.
36. 146.
37. 150.
38. Goethe to Charlotte von Stein, May 24, 1776.
39. Lewisohn, I, 151.
40. *Ibid.*, 156.
41. 222.
42. Brandes, I, 335.
43. Lewisohn, I, 127.
44. *Ibid.*, 236.
45. 271.
46. 306.
47. Eckermann, 251 (Apr. 25, 1827).
48. Goethe's diary, in Lewisohn, I, 215.
49. Ludwig, 440.
50. Translation by Longfellow.
51. Lewisohn, I, 232.

52. See *The Age of Reason Begins*, 259-65.
53. Goethe, *Tasso*, Act I, Sc. ii.
54. *Ibid.*, II, i.
55. I, ii.
56. *Ibid.*
57. Letter of Apr. 24, 1783, in Lewisohn, I, 266.
58. Ludwig, 155.
59. Lewisohn, I, 309.
60. Ludwig, 217.
61. Letter of Oct. 8, 1786, in *Letters from Italy*, 177.
62. Ludwig, 222.
63. Strädelches Museum, Frankfurt.
64. Lewisohn, I, 320.
65. *Ibid.*, 322.
66. Eckermann, 133, 201 (Jan. 30, 1825, and Jan. 18, 1827).
67. *Letters from Italy*, Dec. 3, 1786, and Feb. 16, 1787.
68. *Ibid.*, Dec. 1 and 3, 1786.
69. Feb. 3, 1787, in Lewisohn, I, 327.
70. In McKinney and Anderson, *Music in History*, 511.
71. Eckermann, 213 (Jan. 29, 1827).
72. Taine, *Philosophy of Art*, in Brandes, *Goethe*, I, 457.
73. Letter of Dec. 13, 1786, in Lewisohn, I, 323.
74. Lewisohn, I, 353.
75. Brandes, I, 469.
76. Lewisohn, I, 257.
77. Goethe, *Poetical Works*, 34-42. In *Works*.
78. Lewisohn, I, 368.
79. Ludwig, 300.
80. Brandes, II, 50.
81. Letter of Jan. 3, 1781, in Lewisohn, I, 229.
82. Examples in Lewisohn, I, 101-2, 186-88, 196-97, 229, 379.
83. Ludwig, 246.
84. Schiller and Körner, *Correspondence*, I, 112.
85. *Ibid.*, 89 (Aug. 28, 1787).
86. Letters of July 28 and Aug. 18, 1787.
87. *Don Carlos*, Act III, Sc. x.
88. Schiller to Körner, Apr. 15, 1786.
89. Körner to Schiller, November, 1788.
90. Schiller to Körner, Sept. 12, 1788.
91. Schiller and Körner, *Correspondence*, II, 330.
92. Letter of May 28, 1789.
93. Carlyle, *Life of Schiller*, 103. In *Works*.
94. Letter of Dec. 7, 1787.
95. Heiseler, 114.
96. Letter of Mar. 1, 1790.
97. Heiseler, 119.
98. Schiller to Körner, Feb. 22, 1791.
99. Letter of May 24, 1791.
100. Schiller, *Essays*, 203. In *Works*.
101. *On the Aesthetic Education of Mankind*, Letters vii and x in *Essays*, 45, 53.
102. Letter of May 5, 1792.
103. Ludwig, 326.
104. Schiller, *Poems*, 172. In *Works*.
105. Schiller to Goethe, Aug. 17, 1795, in Schiller and Goethe, *Correspondence*, I, 88-89.
106. *On Naive and Sentimental Poetry*.
107. Eckermann, Oct. 7, 1827.
108. Cf. letter to Körner, Aug. 29, 1787.
109. Schiller to Goethe, Aug. 23, 1794.
110. Schiller to Goethe, Aug. 31, 1794.
111. Goethe, "Happy Incident," in Carlyle, *Life of Schiller*, 305. In *Works*.
112. Schiller and Goethe, *Correspondence*, I, 1.
113. *Ibid.*, 5.
114. 6.
115. Schiller to Körner, Feb. 1, 1796.
116. In Ungar, *Schiller*, 129.
117. *Ibid.*, 140.
118. Schiller, *Essays*, 286, 321. In *Works*.
119. *Wilhelm Meisters Lehrjahre*, I, 323.
120. Schiller to Körner, Dec. 9, 1794, Feb. 22, 1795, June 15, 1795, July 2, 1796.
121. Letters of July 2-9, Oct. 9, and Oct. 23, 1796.
122. Goethe to Schiller, July 7, 1796.
123. Eckermann, Mar. 23, 1829.
124. Ludwig, 385-86.
125. Eckermann, Mar. 22, 1825.
126. Lewes, G. H., *Life of Goethe*, II, 202.
127. Goethe to Schiller, Jan. 18, 1797.
128. *Hermann and Dorothea*, 56-57. In *Works*.
129. Brandes, II, 470.
130. Schiller to Körner, Jan. 5, 1800.
131. Eckermann, July 23, 1827.
132. Heiseler, 143.
133. Ludwig, 386.
134. Schiller to Charlotte Schimmelfmann.
135. Goethe to Schiller, Feb. 28, 1801.
136. Eckermann, Oct. 7, 1827.
137. Lewisohn, I, 61.
138. Letter of Jan. 20, 1801.
139. Heiseler, 170.
140. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 182.
141. Schiller to Goethe, Dec. 21, 1803, in Lewisohn, II, 92.
142. *Ibid.*
143. Staël, 23-24.
144. Lewisohn, II, 293.
145. Heiseler, 189.
146. Eckermann, Jan. 18, 1827.
147. Witte, *Schiller*, 38.
148. Goethe to Zelter, June 1, 1805, in Lewisohn, II, 107.

CHAPTER XXIV

1. Cf. final lines of *Faust*, Part II.
2. Brandes, *Goethe*, II, 250.
3. Recollections of Friedrich von Müller, in Lewisohn, II, 161.
4. Brandes, 263-64.
5. *Ibid.*

6. Eckermann, Mar. 15, 1829.
7. For the historical background of the Faust legend see *The Reformation*, 852.
8. Goethe, *Truth and Fiction*, II, 21-22. In *Works*.
9. Lewisohn, I, 123.
10. *Ibid.*
11. Eckermann, Feb. 10, 1829.
12. Brandes, 305.
13. In the *Gesamtausgabe* by Breitkopf and Härtel.
14. Translation by Albert Latham in Everyman's Library ed. of *Faust*.
15. Eckermann, Jan. 10, 1825.
16. Latham's translation, p. 52.
17. *Ibid.*, 117-19.
18. 116.
19. Brandes, 229.
20. Lewisohn, II, 174.
21. *Elective Affinities*, English tr., 335. In *Works*.
22. *Ibid.*, 180.
23. 218.
24. Ludwig, 427.
25. *Ibid.*, 429.
26. 453.
27. Lewisohn, II, 202-4.
28. Ludwig, 315.
29. Lewisohn, II, 250.
30. *Ibid.*, 203.
31. 214.
32. 306-8.
33. Ungar, Frederick, *Goethe's World View*, 9.
34. Magnus, Rudolf, *Goethe as a Scientist*, 221.
35. *Ibid.*, xvi-xviii, 209.
36. 107.
37. 178.
38. Goethe's letter of May 17, 1767.
39. Magnus, 73.
40. *Ibid.*, 78; Brandes, 462.
41. *Ibid.*, 429.
42. Magnus, 42.
43. Ludwig, 188.
44. Magnus, 136.
45. Eckermann, Apr. 16, 1825.
46. Ungar, *Goethe's World View*, 31.
47. *Ibid.*, 77.
48. *Faust*, Part II, line 1754.
49. Ungar, *Goethe's World View*, 9, 105.
50. Letter of Jan. 6, 1798.
51. Ungar, 99.
52. Goethe, *Truth and Fiction*, II, 108. In *Works*.
53. Quoted in Mann, *Three Essays*, 49.
54. *Truth and Fiction*, Part III, Book II.
55. Ludwig, 3.
56. Ungar, *Goethe's World View*, 47.
57. *Ibid.*
58. *Truth and Fiction*, II, 272-73.
59. Lewisohn, I, 255.
60. *Truth and Fiction*, Book XIV.
61. Ungar, *Goethe's World View*, 47.
62. *Ibid.*, 41.
63. 37.
64. 37.
65. 43-45; Smith, Preserved, *Age of the Reformation*, 712.
66. *Truth and Fiction*, II, 311 f.
67. Ungar, *Goethe's World View*, 55.
68. Ludwig, 206.
69. *Ibid.*, 457.
70. Recollections of Johann Falk, in Lewisohn, II, 210.
71. Goethe to Zelter, May 11, 1820.
72. Brandes, I, 437.
73. Ungar, *Goethe's World View*, 81.
74. *Ibid.*, 6.
75. Eckermann, Apr. 2, 1829.
76. Ungar, 167.
77. *Ibid.*, 129.
78. 139.
79. 16.
80. 89.
81. *Truth and Fiction*, I, 421.
82. *Wilhelm Meisters Lehrjahre*, Book VII, Ch. iii.
83. *Ibid.*, Book V, Ch. iii.
84. Carus, *Goethe*, 168.
85. *Faust*, Part II, Act II.
86. Eckermann, Jan. 4, 1824.
87. Ungar, *Goethe's World View*, 59.
88. Eckermann, Feb. 13, 1829.
89. Ungar, 141.
90. *Ibid.*
91. 91.
92. Lewisohn, II, 438.
93. *Faust*, Part II, p. 341.
94. *Ibid.*, 207.
95. Friedrich von Müller, in Lewisohn, II, 370.
96. *Ibid.*, 371.
97. 376.
98. 430.
99. Goethe to Zelter, Dec. 14, 1830.
100. Lewisohn, II, 411.
101. Ungar, *Goethe's World View*, 121.
102. Mann, *Three Essays*, 63.
103. *Truth and Fiction*, II, 246.
104. Ludwig, 293.
105. *Ibid.*, 472.
106. In Mann, 47.
107. Lewisohn, II, 254.
108. In Friedell, Egon, *Cultural History of the Modern Age*, I, 272.
109. In Mann, 64.
110. We have followed the account given by K. W. Müller in 1832, in Lewisohn, II, 449 f.
111. Eckermann, 572.

CHAPTER XXV

1. In Masson, P. M., *La Religion de Rousseau*, II, 240.

1. See "Sermon of Rabbi Akib," and art. "Jews" in *Philosophical Dictionary*.
2. *Ibid.*, Sec. III.
3. See. IV.
4. See *The Age of Voltaire*, Ch. xiii, Sec. VII.
5. Cf. Black, J. B., *The Art of History*, 49-50.
6. Graetz, H., *History of the Jews*, V, 346.
7. Gay, *Voltaire's Politics*, 352.
8. Graetz, V, 347.
9. Rousseau, *Emile*, 267-68.
10. Sombart, W., *The Jews and Modern Capitalism*, 56.
11. Lea, H. C., *History of the Inquisition in Spain*, III, 308-11.
12. Altamira, *History of Spain*, 462.
13. Parton, *Life of Voltaire*, I, 161.
14. Bell, Aubrey, *Portuguese Literature*, 280.
15. Lea, III, 310.
16. Abbott, G. F., *Israel in Europe*, 209.
17. Abrahams, I., *Jewish Life in the Middle Ages*, 224.
18. *Ibid.*
19. Padover, *The Revolutionary Emperor*, 252.
20. *Jewish Encyclopedia*, XII, 434; Padover, 253 f.; Graetz, V, 357.
21. Padover, 257.
22. Letter of May 17, 1717, in Montagu, Lady Mary W., *Letters and Works*, II, 321.
23. Dubnow, S. M., *History of the Jews in Russia and Poland*, I, 255-56. Florinsky, *Kisno*, I, 490.
24. Dubnow, I, 307.
25. *Ibid.*, 189.
26. 169-71.
27. 173.
28. 172-74.
29. 179-80.
30. 182-86.
31. Roth, Cecil, *The Jewish Contribution to Civilization*, 28.
32. Sombart, 23.
33. *Jew. Enc.*, XIX, 218a.
34. *Ibid.*, 415-16.
35. Corti, Egon C., *Rise of the House of Rothschild*, I, 19.
36. George, M. Dorothy, *London Life in the 18th Century*, 127.
37. Besant, Sir Walter, *London in the 18th Century*, 178.
38. Roth, 242.
39. Finkelstein, Louis, ed., *The Jews*, I, 260.
40. Besant, 180.
41. Browne, Lewis, *The Wisdom of Israel*, 551.
42. Dubnow, I, 233.
43. *Ibid.*, 222 f.; Baron, Salo, *Social and Religious History of the Jews*, II, 54 f.; Graetz, V, 374 f.; Howe and Greenberg, *Treasury of Yiddish Stories*, 15 f.
44. Graetz, V, 294.
45. Hensel, S., *The Mendelssohn Family*, 4.
46. Simic, Lessing, I, 133.
47. Graetz, V, 298.
48. In Wolf, A., *History of Science . . . in the 18th Century*, 781.
49. Graetz, V, 309.
50. *Ibid.*, 311.
51. Hensel, 10.
52. Graetz, V, 317.
53. *Jew. Enc.*, VIII, 481d.
54. Graetz, V, 365.
55. *Ibid.*, 355.

CHAPTER XXVI

1. Voltaire, *Works*, 1b, 302.
2. In Herold, J., *The Swiss without Halos*, 106.
3. Oechsli, W., *History of Switzerland*, 290.
4. Parton, *Life of Voltaire*, II, 458.
5. Lewisohn, II, 238-39.
6. Goethe, *Truth and Fiction*, II, 240-46, 252, 375, 398-404. In *Works*.
7. Holberg, Ludwig, *Selected Essays*, p. 48 (Epistle 48).
8. Lady Mary Wortley Montagu, letters of Aug. 3 and 5, 1716, in *Letters and Works*, II, 226-27.
9. Desnoiresterres, *Voltaire et la société française*, I, 237.
10. Boswell in Holland, 288.
11. Cumming, Ian, *Helvétius*, 50.
12. Smith, Adam, *Wealth of Nations*, I, 81.
13. Parton, *Life of Voltaire*, I, 152.
14. Blok, P. J., *History of the People of the Netherlands*, Part V, 174 f.; Robertson, J. M., *Short History of Free Thought*, II, 353.
15. Blok, V, 183.
16. *Ibid.*, 42.
17. 86.
18. Dillon, Edw., *Glass*, 295 f.; Sirwell, S., *The Netherlands*, 147.
19. George Dempster to Boswell, Aug. 26, 1763.
20. Boswell in Holland, 93.
21. *Ibid.*, 317.
22. Herold, *Mistress to an Age*, 143.
23. *Ibid.*, 144.
24. Blok, V, 56.
25. *Ibid.*, 108.
26. Horn, F. W., *History of the Literature of the Scandinavian North*, 187.
27. Freedley and Reeves, *History of the Theatre*, 268.
28. Holberg, *Seven One-Act Plays*, 165-87.
29. Matthews, Brander, *The Chief European Dramatists*, 705.
30. Holberg, *Journey of Niels Klim to the World Underground*, 10.
31. *Ibid.*, 18.
32. 32.

- 33. 109.
- 34. 191.
- 35. 109.
- 36. Translation by Longfellow, in Van Doren, Mark, *Anthology of World Poetry*, 981.
- 37. Horn, *Scandinavian Literature*, 217.
- 38. Goodwin, A., *European Nobility*, 136.
- 39. *CMH*, VI, 762.
- 40. Bain, R. N., *Gustavus III*, I, 56.
- 41. *CMH*, VI, 768.
- 42. Bain, *Gustavus III*, I, 124.
- 43. Andersson, Ingvar, *History of Sweden*, 281.
- 44. Higgs, *The Physiocrats*, 87.
- 45. Bain, *Gustavus III*, I, 163.
- 46. *CMH*, VI, 776.
- 47. *Enc. Brit.*, XXI, 653d; Smith, Preserved, *History of Modern Culture*, II, 460, 108.
- 48. Gustafson, Alrik, *History of Swedish Literature*, 112, 136.
- 49. Bain, *Gustavus III*, I, 260; Horn, 355.
- 50. Bain, II, 239.
- 51. Horn, 359 f.
- 52. Gustafson, 139 f.
- 53. Bain, *Gustavus III*, II, 286-88; Gustafson, 139 f.
- 54. Horn, 369.
- 55. Bain, II, 210.
- 56. *Ibid.*, I, 38.
- 57. *Ibid.*, II, 157.

فهرس

الجزء الثالث

الكتاب الرابع

الصفحة

الإسلام والشرق السلافى (١٧١٥ - ١٧٩٦)	٣
الفصل السادس عشر :	
الإسلام ١٧١٥ - ١٧٩٦	٥
١ - الأتراك	٥
٢ - الإسلام فى إفريقيا	١٢
٣ - الإسلام فى فارس (١٧٢٢ - ٨٩)	١٦
الفصل السابع عشر :	
فاصل روسى (١٧١٥ - ١٧٦٢)	٢٥
١ - العمل والحكم	٢٥
٢ - الدين والثقافة	٢٩
٣ - السياسة الروسية (١٧٢٥ - ٤١)	٣٧
٤ - اليزايبث بتروفنا (١٧٤١ - ٦٢)	٤١
٥ - بطرس وكاترين (١٧٤٣ - ٦١)	٤٤
٦ - بطرس الثالث (١٧٦٢)	٥٢

الصفحة

٢	-- إعادة بناء روسيا	١٥٢
٣	-- الإمارات	١٥٧
٤	-- عصر التنوير الألماني	١٦٢
٥	-- جوتفريد ليسنيج (١٧٢٩ - ٨١)	١٦٧
٦	-- رد الفعل الرومانتيكي	١٨١
٧	-- الزوبعية	١٨٦
٨	-- الفنانون	١٩١
٩	-- بعد باخ	١٩٥
١٠	-- الشيخ فرتز	١٩٩

الفصل الحادى والعشرون

٢٠٥	كانط (١٧٢٤ - ١٨٠٤)
٢٠٥	١ - مقدمة
٢١١	٢ - نقد العقل الخالص (١٧٨١)
٢٢٠	٣ - نقد العقل العملى (١٧٨٨)
٢٢٤	٤ - نقد الحكيم (١٧٩٠)
٢٢٦	٥ - الدين والعقل (١٧٩٣)
٢٣٠	٦ - المصلح

الفصل الثانى والعشرون :

٢٣٩	الطريق إلى فائتار (١٧٢٣ - ٨٧)
٢٣٩	١ - أثينة المانيا
٢٤١	٢ - فيلاند (١٧٣٣ - ١٧٧٥)
٢٤٥	٣ - جوتفريد بروميشيوس (١٧٤٩ - ٧٥)
٢٤٥	١ - نشأته
٢٥٢	٢ - جوتفريد وفرتز
٢٥٩	٣ - الملاحد الشاب

صفحة

- ٤ — هرذر (١٧٤٤ — ٧٦) ٢٦٤
٥ — شيلر في سني تطويفه (١٧٥٩ — ٨٧) ١٦٨

الفصل الثالث والعشرون :

- فايمار إبان إزدهارها (١٧٧٥ — ١٨٠٥) ٢٧٨
١ — تنمة لفيلاندا (١٧٧٥ — ١٨١٣) ٢٧٨
٢ — هرذر والتاريخ (١٧٧٧ — ١٨٠٣) ٢٧٩
٣ — جوته عضو المجلس الخاص (١٧٧٥ — ٧٦) ... ٢٨٥
٤ — جوته في إيطاليا (١٧٨٦ — ٨٨) ٢٩٥
٥ — جوته في الإنتظار (١٧٨٨ — ٩٤) ٢٩٩
٦ — شيلر في الإنتظار (١٧٨٧ — ٩٤) ٣٠٢
٧ — شيلر وجوته (١٧٩٤ — ١٨٠٥) ٣١١

الفصل الرابع والعشرون :

جوته « نسطور » (١٨٠٥ — ١٨٣٢)

- ١ — جوته ونابليون ٣٢٧
٢ — فاوست : الجزء الأول ٣٢٩
٣ — نسطور عاشقاً ٣٣٦
٤ — العالم ٣٤٢
٥ — الفيلسوف ٣٤٧
٦ — فاوست : الجزء الثاني ٣٥٥
٧ — التمام (١٨٢٥ — ٣٢) ٣٥٩

الفصل الخامس والعشرون :

- اليهود (١٧١٥ - ١٧٨٩) ٣٦٥
١ — كفاح الحياة ٣٦٥
٢ - العزاء الصوفي ٣٧٥

الصفحة

- ٣ - موسى مندلسون ٣٧٨
٤ - نحو الحرية ٣٨٤

الفصل السادس والعشرون :

- ٣٧٧ من جنيف إلى استوكهولم
١ - السويديون (١٧٥٤ - ٩٨) ٣٧٧
٢ - الهولنديون (١٧١٥ - ٩٥) ٣٩١
٣ - الدنمركيون (١٧١٥ - ٩٧) ٣٩٧
٤ - السويديون ٤١٤
١ - السياسة (١٧١٨ - ٧١) ٤١٤
٢ - جوستاف الثالث ٤١٧
٣ - التنوير السويدي ٤١١
٤ - الإغتيال ٤١٨